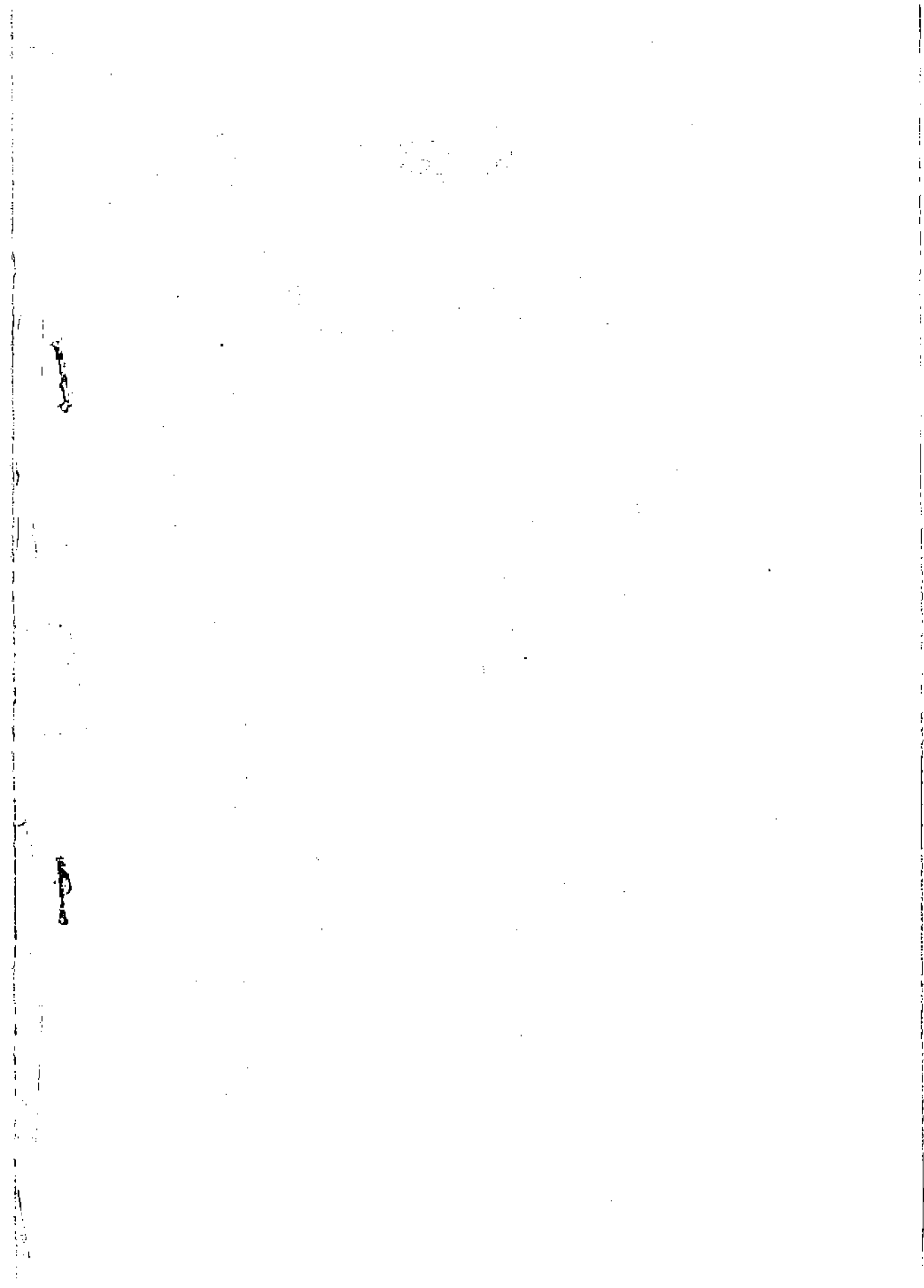


مجلة

كلية الآداب

المجلد الحادي والأربعين العام الجامعي ١٩٩٤/٩٣

- المعجزة الكبرى للقرآن الكريم عبد العزيز برهام
إبداع المتنبي صالح حسن البيظي
أصفهان مجدي عبد المنعم عجمية
منهج السيوطي النحوي ممدوح عبد الرحمن
قتاوي لغوية زين كامل الخوري
معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين إبراهيم خميس إبراهيم سلامة
التاريخ السياسي لقلعة رباح ودورها حمدي عبد المنعم محمد حسين
الصراع الزيدي العثماني في اليمن هاني مهنا
وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم محمد عبد الستار عثمان
قرائن التنمية الريفية في دولة الإمارات العربية المتحدة
محمد علي بهجت الفاضلي
معدلات العدوانية لدى المراهقين والشباب الكويتيين عويد سلطان المشعان
التضحية بالبشر بين العهد القديم والأساطير اليونانية حسين الشيخ
المصطلحات اليونانية لدي كلوسوس - الهون والرومان الشرقيون خلال النصف
الأول من القرن الخامس الميلادي أحمد عبد الكريم سليمان
Developing Countries and Environmental Geographical Issues
Abdullah R.A. Al-Kandari



تصو « مجلة كلية الآداب » وإصداراتها محكمة عن
كلية الآداب بجامعة الإسكندرية وتقدم مخطوطات البحوث
مكتوبة على الآلة الكاتبة من ثلاث نسخ . ويجب ألا يزيد عدد
صفحات البحث عن ثمان وأربعين صفحة من القطع المتوسط
مكتوبة على الآلة الكاتبة.

تقدم البحوث وتكون جميع المراسلات باسم :

الأستاذ الدكتور محمد تيمور وجوب

وكيل كلية الآداب للدراسات العليا والبحوث ورئيس تحرير مجلة كلية الآداب

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الشاطبي - الإسكندرية

جمهورية مصر العربية

18

18

مجلة كلية الآداب مجلس التحرير

رئيس مجلس الإدارة

الأستاذ الدكتور فتحى محمد أبو عيانه

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور محمد عبده محجوب

مدير التحرير

الأستاذ الدكتور محمد بيومى مهران

أعضاء مجلس التحرير

أ.د. سعد زغلول عبد الحميد

أ.د. سلمى محمود جبر

أ.د. عبد الرحمن محمد العيسوى

أ.د. عثمان سليمان موافى

أ.د. عزيزة سعيد محمود

أ.د. غريب سيد أحمد

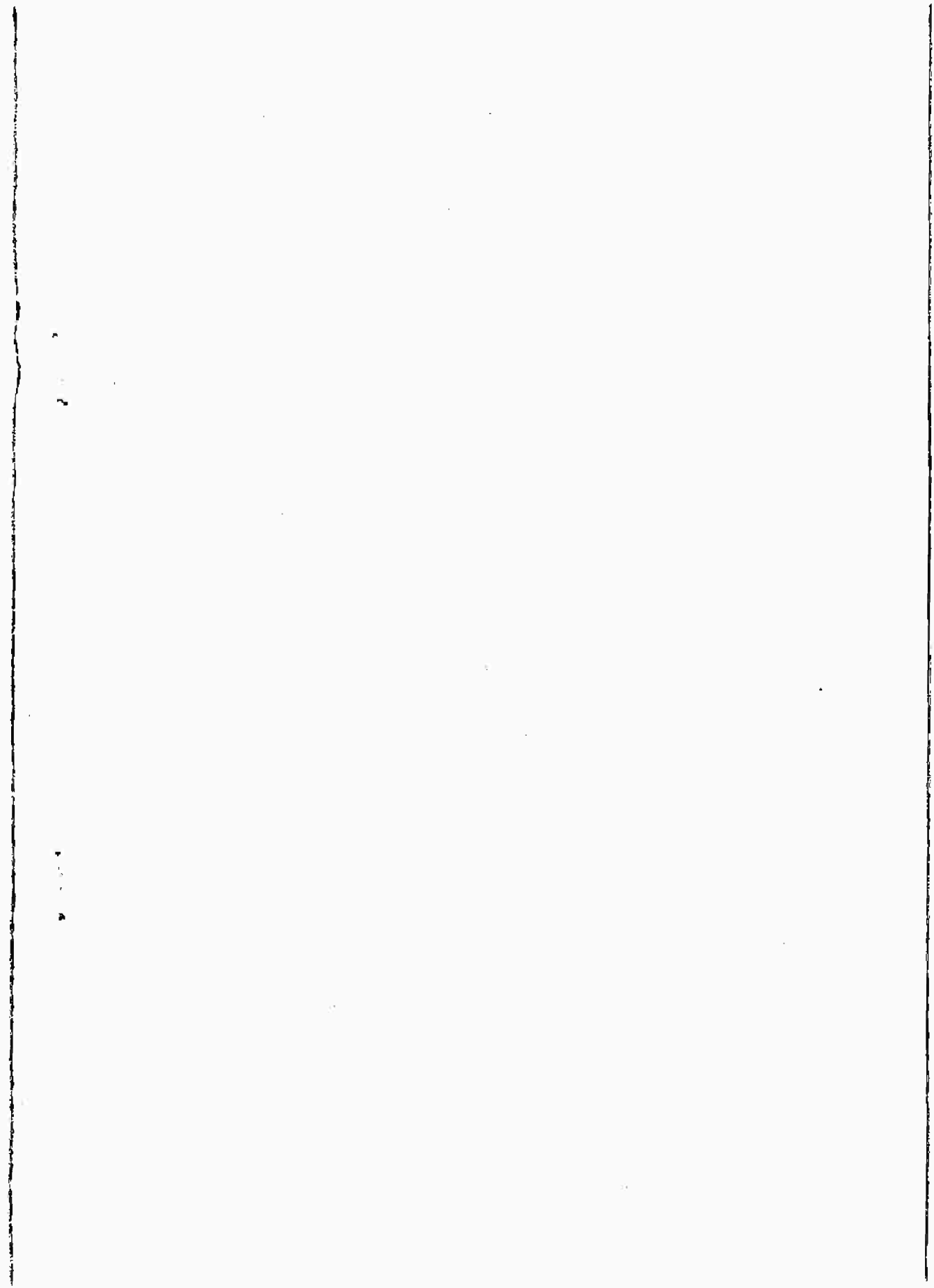
أ.د. محمد عبد المعز نصر

أ.د. محمد محمد حلمى هليل

أ.د. محمد محمود السروجى

أ.د. نادية محمود عبد الله

السيدة / تسبى إبراهيم عبد الفتى (سكرتيرة المجلس)



المعجزة الكبرى للقرآن الكريم

- أ. د. عبد العزيز برهام
إبداع المتنبي - ظواهر فنية ونفسية في نص من سيفياته

- د. صالح حسن اليطي
أصفهان منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقي

- د. مجدي عبد المنعم عجمية
منهج السيوطي التحري

- د. محمد عبد الرحمن
فتاوي لقوية

- د. زين كامل الخريسكي
معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

- د. ابراهيم خميس ابراهيم سلامه
التاريخ السياسي لقلعة رباح ودورها في حوادث الصراع بين المسلمين
والنصارى

- د. حملي عبد المنعم محمد حسين

الصراع الزيدي العثماني في اليمن

٣٥١ د. هاني مهنا

وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم وأضواء جديدة
علي تاريخ عمارته

٣٧٥ د. محمد عبد الستار عثمان

قرائن التنمية الريفية في دولة الإمارات العربية المتحدة

٤١٧ د. محمد علي بهجت الفاضلي

معدلات العدوانية لدى المراهقين والشباب الكويتين

٤٧٥ د. عويد سلطان المشعان

التضحية بالبشر بين العهد القديم والأساطير اليونانية

٥١٣ د. حسين الشيخ

المصطلحات اليونانية لدي كلسوس - الهون والرومان

الشرقيون خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي

٥٥٣ د. أحمد عبد الكريم سليمان

Developing Countries and Environmental Geographical Issues

المعجزة الكبرى للقرآن الكريم

محاضرة

ألقاها الدكتور عبد العزيز برهام

الأستاذ بالكلية

في تفسير قوله تعالى :

"فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون :

هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل

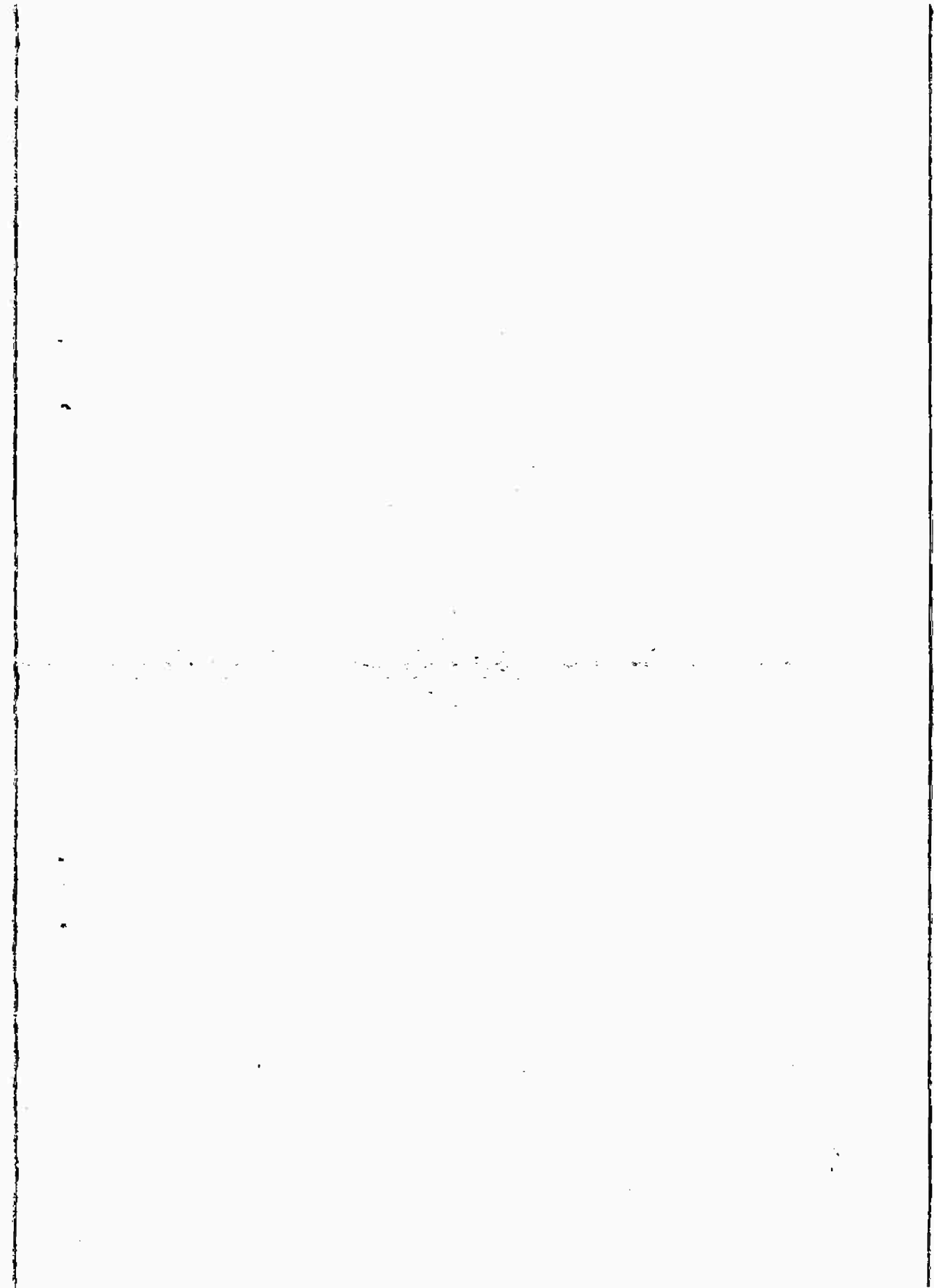
لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون "

س . البقرة ٧٩ / ٢

١١ من صفر ١٤١١ هـ

٢٩ مارس ١٩٩٢ م

يوم الاثنين



أيها المستمعون الكرام!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

(وبعد) فلكل دين من الأديان السماوية الثلاثة التي نعرفها كتابه الذي يختص به . وهو يشكل أساس الأيمان عند المؤمنين بهذا الدين . وكل مؤمن يعد كتابه تسجيلًا لوحي إلهي .

** وقد يكون هذا الكتاب منزلًا تنزيلاً مباشراً ، فيتلقي الرسول الوحي من خالقة رأساً ، دون واسطة ، كما كان الشأن مع إبراهيم ، وموسى (عليهما السلام)

يقول الله سبحانه وتعالى " إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى " ، في الوقت الذي لا نعثر في التوراة التي بين أيدينا ، علي أي وحي إلي " إبراهيم عليه السلام - تتكون منه الصحف المشار إليها . وكل ما نلتقي به فيها هو تجلي (يهوذا) لأبراهيم تارة ، وإبلوهم تارة ، وأكثر ما يقوله له هو الوحي الخاص " بالوعد " بأعطاء (إبراهيم) وذريته من بعده أرض كنعان - فلسطين . وبعد هذا التجلي يبني الرسول مذبحاً للرب الذي ظهر له ، في المكان الذي ظهر فيه ، وقد يسميه باسمه . أما ما هو دين إبراهيم الذي يشير إليه القرآن الكريم ، والصحف التي سجلته ، فلا أثر لهما أصلاً في التوراة . فهل معني هذا أن هذه الصحف لا أساس لها أو أنها اندثرت ؟ إن النظر الديني الحديث - كما سنري - أثبت أن التوراة التي بين أيدينا ليست هي نفسها التي أوحى بها ، وإنما الذي دون منها ليس إلا روايات كانت تتناقل ، قبل أن تدون ، شفاهاً . علي ألسنة بني إسرائيل ، حتي انتهى بها الأمر بعد قرون عدة إلي تسجيلها أي أنها لا تضم كل ما أوحى

به ، بل ضمت ما علق بأذهان المتعبدین بها ، أما ما لم يعلق فقد عفا عليه الزمن . هذا ، ولما كانت الفترة التي عاش فيها إبراهيم كان بينها وبين فترات التدوين دهوراً طويلة ، فليس ببعيد أن رسالة إبراهيم تكون قد اندثرت ، لأن الوثنية في أيامه كانت منتشرة بين سكان المناطق التي عاش فيها والتي تنقل فيها ، وكانت العشائر التي تعيش في هذه المناطق التي عاش فيها إبراهيم كثيرة تدين بغير دين إله إبراهيم ، وقد اختلط بنو إسرائيل بهم ، وشاركوهم عبادتهم ، ونسوا بذلك ما كانوا قد تلقوه من إبراهيم من تعليمات ، ولا سيما في الفترة التي كان فيها الرسول يعيش في وادي الرافدين ، في (أور) الكلدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب ، والتي سجلها القرآن الكريم أروع تسجيل ، وسجل موقف قوم إبراهيم منه ، حين أوقدوا نارا ، وألقوه فيها ، فقال الله سبحانه - " قلنا ، يا نار ! كوني بردا وسلاما علي إبراهيم " . إن القرآن الكريم يسرد علينا طبيعة الصراع الذي دار بين إبراهيم (عليه السلام) وقومه ، في أكثر من موضع منه ، ويعلن حربا شعواء علي عبادة الأوثان التي كانت منتشرة في تلك الأماكن ، بين سكانها ، حينذاك ، والتي لم تشر إليها التوراة ، بحرف واحد . يقول الله تعالى :

" ولقد آتينا إبراهيمُ رشده من قبل ، وكنا به عالمين (٥١) إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون (٥٢) قالوا : وجدنا آباءنا على هذا فابدين (٥٣) . قال لقد كنتم ، أنتم وأباؤكم في ضلال مبين (٥٤) . قالوا : أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين (٥٥) . قال : بل ربكم رب السموات ، والأرض ، التي فطرهن ! وأنا علي ذلكم من الشاهدين (٥٦) . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧) . فجعلناهم جذاذا إلا كبيرا لهم ، لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا : من فعل هذا بالهتنا ، إنه لمن الظالمين (٥٩) . قالوا سمعنا فتي يذكرهم يقال له (إبراهيم) (٦٠) قالوا فأتوا به علي أعين

الناس ، لعلهم يشهدون (٦١) قالوا . أنت فعلت هذا بآلهتنا ، يا ابراهيم ؟
 (٦٢) . قال : بل فعله كبيرهم هذا . فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون (٦٣)
 فارجعوا إلي أنفسكم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمين (٦٤) ثم نُكسوا علي
 رؤسهم : لقد علمت ما هؤلاء ينطقون (٦٥) قال : أفتعبدون من دون الله مالا
 ينفعكم شيئا ولا يضركم (٦٦) أفألكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون
 (٦٧) قالوا : حرقه ، وانصروا آلبيكم ، إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا : يا نار !
 كوني بردا ، وسلاما علي إبراهيم (٦٩) . وأرادوا به كيدا ، فجعلناهم
 الأخرسين (٧٠) . ونجيناه ، ولوطا إلي الأرض التي باركنا فيها للعالمين (٧١) .
 وهبنا له إسحق ، ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين (٧٢) . وجعلناهم أئمة
 يهدون بأمرنا : وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وأقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ،
 وكانوا لنا عابدين (٧٣) .

ص الانبياء ٧١/٥١-٧٣

هذا السرد التاريخي- الديني الرائع ، وهذا التقدير الكبير لأبراهيم
 لم تشر إليه التوراة بكلمة واحدة ، فقد أغفلت الفترة التي عاش فيها
 (إبراهيم) في أرض الكلدانيين قبل أن ينتقل إلي (حاران) مع ذريته ، ولوط
 ابن أخيه ، ويبدأ هناك حياة جديدة ، ويتجلي له الرب - كما قلنا أكثر من مرة .

إن الآيات الكريمة التي أوردناها ، تبين معالم الدين الجديد ، الذي
 يعلن الوحدةانية ، ويجدد طريق العبادة التي أغفلها (العهد القديم) ، والتي
 تتمثل في عبادة الله ، وفعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ... لأن
 عبادة الأوثان التي خلفها ابراهيم وراءه في بلاد الكلدانيين التقى بها في
 البادية التي هاجر إليها ، واختلط قومه بسكان المناطق التي كان ينتقل فيها
 طلبا للرزق ، وحدث امتزاج بين ما أوحى إليه به ، وما كان يعبدده هؤلاء
 السكان .

وإذا كان إبراهيم لم يترك وراءه صنف دونت فيها الديانة المرحي بها مباشرة فان (موسي) كان كذلك كليم الله . وهو الذي حمل أعباء الأكبر في تبليغ رسالة السماء ، وتلقي في مدين ذلك ، التي من دلت ، وحسب ، وبمساعدة . واستقرأ من بني إسرائيل الذين قادهم عبر سيناء ليرشدوهم إلى مكان الأرض الموعودة . فقد كلفه (يهوذا) رأسا لكل من مرة . بما يريد أن يوحى إليه به . وهو الذي تلقى الألواح التي سجلت عليها الديانة الجديدة ، وأشار إلى ذلك كل من القرآن الكريم ، والتوراة .

هذا ، وقد يكون الوحي منزلا بطريقة غير مباشرة ، عن طريق رسول ، يكون حلقة الاتصال بين الموحى ، والموحي إليهم ، كما هو الشأن مع عيسى ومحمد (عليهما السلام) . فقد أعلن المسيح أنه يتكلم باسم الرب ؛ وأما محمد (صلوات الله وسلامه عليه) فقد بلغ الرسالة التي نقلها إليه جبريل (عليه السلام) .

والإسلام يعد القراءة ، والإنجيل كتابا مقدسة ، ويجعل الإيمان بما صح فيهما جزءا من العقيدة ، بينما بنو إسرائيل ، والنصارى ينكرون على القرآن أن يكون كتابا موحى به ، ويدعون أنه من صنع الرسول ، وأنه نقل عنهما ما جاء به ، وأن بشرا يعلمه ، فيرد الله بقوله : " لسانُ الذي يُلْحِثُونَ إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين " .

النحل ١٦/١٠٢ .

إن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعدها ، فهي تكذب بالمسيح ، ولا زال بنو إسرائيل ينتظرون ظهور مسيح من بينهم ، ينشر ديانتهم في الأرض؛ فتصبحُ السيادة فيها لهم ، وهم لهذا لا يعترفون بالأسفار التي أضافتها الكنيسة إلى (العهد القديم) اليهودي ، لأنها غير مكتوبة بالعبرية .

فالنصرانية قد أمنت بالتوراة العبرية ، ولكنها زادت عليها بعض الإضافات ؛ وإن كانت هذه لا تمس العقيدة في شيء .

لقد جعلت الكنيسة من نفسها حكما علي ما كُتب عن المسيح ، وعن رسالته - واعتبر البابا نفسه معصوما - فأسقطت عددا كبيرا من الأسفار التي كتبت عنه ، ولم تحتفظ في العهد الجديد ، بالمسيح بالإنجيل ، إلا بعدد محدود من الكتابات من أهمها الأناجيل الأربعة التي لا تعترف بغيرها ، والتي يناقض بعضها بعضا .

والنصرانية هذه لا تعترف بالاسلام ، ولا زال أتباعها يكذبون ما جاء به ، حتي بعد أن ظهر لهم أن الكتاب " المقدس " محرف ، ومليء بالمتناقضات ، وظلوا - ولا يزال فريق منهم ينسبون إلي الاسلام أمورا ليست فيه ، ويستنون إلي رسوله أبلغ الأساءات ؛ ويحاربون من يؤمن بالله من أتباع الكنيسة كل المحاربة .

لقد جاء القرآن الكريم بعد ظهور المسيح بستة قرون ، جاء ليصحح مفهوم العقيدة ، ويخلصها من الشوائب التي علقت بها ، وجعل إيمان المؤمن بالرسول الذين بعثوا قبل الرسول (عليه الصلاة والسلام) جزءا من العقيدة الاسلامية ، كذلك الايمان بما جاء به الرسل السابقون يقول الله (سبحانه) :

" يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ، ورسوله ، والكتاب الذي نُزِّلَ علي رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، ومن يكفرُ بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا " .

سورة النساء ١٣٦/٤

فالقرآن بهذا يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها رسل الله في تاريخ التنزيل كنوح ، وإبراهيم ، وموسي ، وسائر أنبياء بني اسرائيل الحقيقيين ،

كذلك عيسى الذي يحتل مكانة بارزة بينهم في الدين الاسلامي ورأيه حتي إن سورة كاملة من سور القرآن سميت باسمها ، وهي " سورة مريم " . وقد نزهها الله عن كل ما أحاطوها به من اتهامات . والذي يقرب بين ما جاء في سورة " مريم " وما جاء عنها في الاناجيل الأربعة يجد أن القرآن الكريم ، وضعها في منزلة لم تضعها فيها هذه الاناجيل . يقول الله سبحانه :

" واذكر في الكتاب (مريم) إذ انتبذت ^(١) من أهلها مكان شرقيا (١٦) فاتخذت من دونهم حجابا : فأرسلنا إليها روحنا ، فتمثل لها بشرا سويا (١٧) قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا (١٨) قال : إنما أنا رسول ربك : لأهب لك غلاما زكيا (١٩) قالت : أني يكون لي غلام ، ولم يمسسني بشر ، ولم أكن بغيا (٢٠) قال : كذلك قال ربك : هو علي هين : ولنجعله آية للناس ، ورحمة منا . وكان أمرا مقضيا (٢١) فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا (٢٢) فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت : ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣) فناداها من تحتها ألا تحزني ، قد جعل ربك تحتك سريا (٢٤) وهزي إليك الجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا (٢٥) - فكلبي ، واشربي ، وقري عينا : فاما ترين من البشر أحدا فقولي : إني نذرت للرحمن صوما : فلن أكلم اليوم إنسيا (٢٦) فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم ! لقد جئت شيئا فريا (٢٧) . يا أخت هرون ! ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك بغيا (٢٨) - فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبيا (٢٩) قال : إني عبد الله ، أتاني الكتاب ، وجعلني نبيا (٣٠) وجعلني مباركا أينما كنت ، وأوصاني بالصلاة ، والزكاة ما دمت حيا (٣١) . وبرأ بوالدتي ، ولم يجعلني جبارا شقيا (٣٢) . والسلام علي يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا (٣٣) .

(١) أتخذت لنفسها مكانا بعيدا عن القوم . (٢) السري : جدول الماء

(٣) فريا : عظيما (٤) يمترون : يشكون

ذلك عيسى ابنُ مريم قولَ الحق الذي فيه يَمْتَرُونَ (٢٤) ما كان لله أن يتخذ من ولدٍ ؛ سبحانه . إذا قضى أمراً فإنما يقول له : كن فيكون (٢٥) .

” سررة مريم ١٩/١٦ - ٢٥ ”

× × ×

فالقُرآن كالإنجيل يعد ميلاد المسيح أمراً خارقاً للعادة ، وبذلك يبريء أمه من كل ما قاله عنها ذوها .

× × ×

** غير أننا يجب أن نعترف أن النصاري الذين لم يختلطوا بالمسلمين لا يعرفون - كما قلنا - شيئاً عن الدين الإسلامي ، وما عرفوه عنه مشوه ، أو يحاولون تشويبه حتى يطمسوا معالمه ، ويظهروه للناس بمظهر كرهه ، حتى ينفروهم منه ، رغم أنهم أو أكثرهم هجروا دينهم ، وابتعنوا عما ذكرته كتبهم ، وجارحهم رجال الدين فيما ساروا عليه ؛ فلم يعولوا يعترفون منه إلا بالاسم ، وبالطقوس . ونحن من جانبنا - معشر المسلمين - لم نفعل شيئاً لتعريف الناس بأمور ديننا ، ولا بحقيقته ، واكتفينا بالخطب ، والشعارات - وعقد المؤتمرات ، وإقامة الحفلات ... دون أن نستفيد من الخطط التي يضعها رجال الكنيسة لنشر دينهم . ومن يحاولون نشره ينسَوْنَ قول الله تعالى لرسوله ، ” ادع إلي سبيل ربك - بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ” .

لقد اتخذنا ” التسامح ” شعارنا ، دون أن نفهم حقيقته ، في عصور ، ومجتمعات لا تعرف معنى التسامح ، ولا زالت تعيش بعقلية ” الحروب الصليبية ” التي كان هدفها القضاء على الإسلام ، دين السلام ، والتعايش ، والحرية

الدينية لأهل الكتاب ، والتآخي ألخ : - هذه العقلية التي لا تعلن عنها ، وإن كانت تمارسها عمليا . ففي أيامنا هذه يتجمع مندوبون من دول العالم في مجلس يسمونه " مجلس الأمن " يتخذ من الولايات المتحدة مقرا له . والذي يتتبع أعماله يجد أن مفهوم " الأمن " لا ينطبق علي المسلمين . فأمامنا حرب صليبية ، دون رفع الصليب ، دائرة بين فلول الدولة التي كانت من قبل تسمى "يوغوسلافيا" ، وهي تتمثل في دولتي الصرب والكروات المسيحيتين المسلحتين أقوى تسليح ، عن طريق الدول المسيحية المحيطة بهما ، بينما الدولة المسلحة المعتدي عليها ، والمختصة أراضيها ، مجردة من السلاح بقرار من المجلس الموقر ، الذي أنشئ أصلا للحفاظ علي الأمن في العالم ، فإذا طلبت الأذن لها بالتسلح أو الحيلولة بين إعدادها والتسلح رفض المجلس طلبها ، وحرمها من كل وسائل الدفاع ، لا لشيء إلا لأنها مسلحة . ولو كان هذا الصراع الدموي الباغي بين دول مسيحية أو مسيحية ويهودية لتدخل مجلس الأمن في الحال ، وأوقف سيل الدماء .

ومع ذلك فإن الذنب ليس ذنب المجلس ، وإنما هو ذنب مسلمي العالم الذين وقفوا يتفرجون نون أن يحركوا ساكنا . وصدق كيلة ودمنة اندي سجل مؤلفه كلمة مشهورة : " لقد أكلتُ يوم أكل الثور الأبيض " ، ضاعت (الاندلس)، وتلتها (فلسطين) العربية ؛ والبوسنة ، والهرسك ، يسيران في طريق الضياع . والله في خلقه شئون .

يقول المسيو (موريس بوكاي) الفرنسي الذي أشهر إسلامه : بعد دراسة الاسلام دراسة عميقة ، وكتب عن الكتب المقدسة الثلاث مقارنة :

" لقد فرض علي أجيال أوروبا الكثيرة العدد ، الجهل بكل ما يمس الاسلام . وهكذا ، فإن الاستعمال السائد حتي اليوم أن يسمى : " الدين

المحمدي " وأن يسمى من يعتقدونه " المحمديون " والغاية من هذا أن تظل النفوس مقتنعة بذلك الرأي الخاطيء القائل بأن المعتقدات المحمدية انتشرت بفضل جهاد رجل ، وأنها ليست له ، وليس لهذه المعتقدات إذن مكان في المعتقدات الالهية .

" إن كثيرا من معاصرينا المثنيين يهتمون بالجوانب الفلسفية ، والاجتماعية ، والسياسية في الإسلام ، دون أن يعالجوا قضية الوحي الاسلامي بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويردوا ما يشاع بين غير المسلمين من أن " محمدا " قد اعتمد فيما قاله علي من سبقه ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلي استبعاد الوحي الإلهي منذ البداية " .

× × ×

* كل هذا يقودنا إلي أن نقول كيف يقال إن رسول الأسلام قد نقل ما أوحى إليه به عن سبقوه ، وهم بنو اسرائيل ، والنصارى في الوقت الذي يعلن فيه صراحة أن كل ما ينسبونه إلي أنفسهم ، ويقولون أنه موحى به إلي رسلهم وأنبيائهم ، قد دخله التحريف ، والتزييف ، والاختلاق ؟ كيف ينقل عن (الكتاب المقدس) ما يبلغه إلي المؤمنين برسالته ، وهو يعلم أنه ليس هو الموحى به ، وإنما كتبه أيد أدمية ، وادعت أنه وحي وليس بوحي ؟ أليس القرآن المنزل عليه هو الذي يقول عن بني إسرائيل : " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون (٧٩) وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ، قل : أتخذتم عند الله عهدا ، فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون علي الله ما لا تعلمون (٨٠) بلي ؛ من كسب سيئة ، وأحاطت به خطيئته

، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٨١) .

سورة البقرة ٧٩/٢ - ٨١ .

هنا ينقل محمد (قصصات الله رسدده عليه) بروحي الأنبي عن الكتب
المسماة بالمتنسة ، وهو يعلم انه حادثة ، وليست من عند الله ، وأن الكتاب
الذي ينزله الله عليه يقول له ذلك ؟

كيف ينقل ما يبلغه قومه عن اليهود ، والله يقول فيهم : " ولقد أتينا
موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسول ، وأتينا عيسى ابن مريم البينات ،
وأيدناه بروح القدس . أفكلما جاءكم رسول بما لا تؤوي أنفسكم استكبرتم ؛
ففرقنا كذبكم ، وفرقا تقتلون ؟ (٨٧)

(س . البقرة ٨٧/٢)

ويقول:

" وإذا قيل لهم : آمنوا بالذي أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا -
ويكفرون بما وراءه - وهو الحق مصدقا لما معهم . قل : ثم تقتلون أنبياء الله
من قبل . إن كنتم مؤمنين (٩١) . ولقد جاءكم موسى بالبينات ، ثم اتخذتم
العجل من بعده ، وأنتم ظالمون (٩٢) . وإذا أخذنا ميثاقكم ، ورفعنا فوقكم
الطور ؛ خذوا ما أتيناكم بقوة ، واسمعوا . قالوا : سمعنا ، وعصينا ،
وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل : بشما يأمركم به إيمانكم ؛ إن كنتم
مؤمنين . (٩٣)

سورة البقرة ٩١/٢ - ٩٣

هذه الآيات البينات ، وكثير غيرها لا يمكن إلا أن تكون وحيا من الله
الذي كان طرفا مع موسى ، ومع بني إسرائيل ، فهو يبلغ رسوله بما حدث

من اليهود الذين يعارضونه اليوم ، وينكرون دعوته - حدث مع (موسى)
رسولهم الذي أخرجهم من مصر ، وجاوز بهم البحر ، وأخذ عليهم العهد
والمواثيق بأن يعبدوا إلههم (يهوفا) الذي نجاهم من فرعون ، وقومه ، وإذا بهم
ينغمسون في الوثنية ، ويعبدون العجل . ثم تأتي ذريتهم من بعدهم فيقتلون
أنبياءهم إذا بلغوهم ما لا تهوي أنفسهم ...

فليس من المنطق إذن أن يدعي أحفادهم أن ما يوحي به إلي رسول
الإسلام ليس إلا ما أوحى إلي أنبيائهم به ، ينقله إلي أتباعه من كتبهم ، علي
حين أن كتبهم محرفة . (كما سنري) وملينة بالوثنيات ، وبالخرافات ،
والمخزيات . وكتاب الله لم يرد فيه أي شيء من هذا . إن المصدر الذي أوحى
بما أوحى إلي نوح وإلي ابراهيم وموسى ، وعيسى ، وسائر الرسل الأنبياء هو
نفسه الذي أوحى إلي محمد بن عبد الله ، رسول الانسانية جمعاء ، قصة كل
من الأنبياء السابقين عليه - وهو الله تعالى . وإذا كانت الكتب السابقة علي
القرآن قد حُرقت ، وبدلت ، فإن القرآن أتى بحقيقة ما بُلغ ، ونعي علي
المحرفين تحريفهم ، وعلي المزيفين تزيفهم ، والتاريخ هو التاريخ ، ولم يُخف
شيئا مما حدث .

يقول الله سبحانه :

" ألم تر إلي الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ، ويريدون
أن تضلوا السبيل (٤٤) . والله أعلم بأعدائكم ، وكفي بالله وليا ، وكفي بالله
نصيرا (٤٥) . من الذين هادوا .. يحرفون الكلم عن مواضعه .. (٤٩) .

سورة النساء ٤/٤٤ - ٤٦ أ

ويقول جل جلاله عن اليهود :

" فيما نقضهم ميثاقهم ، لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية . يحرفون الكلم

عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به

سورة المائدة ١٣/٥

ويقول:

" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ، وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ، ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ؛ ومن أوفي بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ؛ وذلك هو الفوز العظيم "

س التوبة ١١١/٩

ويقول : " وإذ قال عيسى ابن مريم : يا بني إسرائيل ! إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يديّ من التوراة ، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ؛ فلما جاعهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين " (س. الصف ٦١/٦)
والسؤال الآن : أين التوراة الموحى بها ، وأين الإنجيل المنزل علي عيسى ؟

ويقول جل جلاله :

" نزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه . وأنزل التوراة . والإنجيل (٣) من قبل هدي للناس ، وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بأيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام (٤) - س آل عمران ٣/٣ - ٤ "

ويقول - سبحانه :

" وإذ قال موسى لقومه يا قوم ' لم تؤذونني . وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (س الصف ٦١ / ٥)

x x x

• ترشيح النص من " المقدسة " :

هذه الآيات البينات جعلت المسلمين يؤمنون بالكتب المذكورة الصحيحة الموحى بها ، لا التي سطرتها أيدي البشر ، لذلك كان علينا ، قبل أن نعمل بما بها ، أن نوثق نصوصها ، وأن نتأكد من أنها هي حقيقة الموحى بها ، والمسجلة وقت نزولها علي الرسل .

لو كانت بين أيدينا مخطوطة منسوبة إلي شخص ما علي أنه مؤلفها ، وفريد نشرها فأول شيء نفكر فيه هو أن نتأكد من صحة هذا المكتوب علي غلافها هذا مخطوط في أي موضوع دينوي من الموضوعات ؛ أقلًا يكون من الأولي أن نتحقق من صحة ما نتعبد به ؟ هذا هو الموضوع الذي عالج به الباحثون علي مدي قرون عدة ، وقد توصلوا في النهاية إلي التشكيك في صحة ما جاء في (الكتاب المقدس) بشقيه : العهد القديم والجديد . وبذلك أيدوا ما قاله كتاب الله (جل جلاله) عن الكتب الموسومة بالمقدسة وأنها من صنع البشر ، وليس كل ما فيها وحيا من خالق السموات والأرض .

إن النظر في " الكتب المقدسة " يقتضي بادئ ذي بدء دراسة الظروف التي سادت تحرير نصوصها ، والطرائق التي انتقلت إلينا بها هذه النصوص . وإن معالجة نصوص الكتب المقدسة من خلال علم الدراسة النقدية شيء قريب العهد في البلاد الأوربية فقد ظل الناس إلي عهد قريب جدا يتقبلون نصوص (العهد القديم) ، و (العهد الجديد) علي أنها مقدسة . وكان التعبير عن أي روح نقدية إزاء الكتاب المقدس يعد خطيئة لا تغتفر . وكان القساوسة ، والأخبار هم الصفوة التي تستطيع بدون عناء أن يكون عندها معرفة إجمالية عن (التوراة) و (الأنجيل) أما عامة الناس فلم يكن يؤذن لها إلا بتلقي نصوص مختارة خلال الطقوس الدينية أو عبر العظات ، من مثل ما في (دلائل الخيرات) عند المسلمين

ولكننا نذكر أن المارتن لوتر قد ثار على هذه الطريقة واحتج عليها وأعلن أن الناس يجب أن يقرعوا بصوص العهدين القديم والجديد كاملاً وقد ترجمهما إلى اللغة الألمانية فطردنه الكنيسة وحرّمته من الرصد الألهي، وألف مذهبه البروتستنتي فتبع مذهبه هذا الذي نادى به كثير من قومه، وسمي البروتستنتية أي مذهب المحتجين وهو الذي تدين به ألمانيا، وغيرها وهو متأثر في تعاليمه وبساطته إلى حد كبير بالإسلام فليس فيه رهبانية فالقساوسة يتزوجون شأنهم شأن بقية خلق الله علي خلاف ما في المذهب الكاثوليكي وكنائسه حلو من التماثيل، والصور، ففيها بساطة المسجد وليس فيه شيء اسمه (الباب) المحصوم من الخطأ وثبتت قواعده، كما هو الشأن في الإسلام فليس فيه مجالس كنسية تحلل الحرام وتحرم الحلال، فتبيح للرجل أن يتزوج الرجل وللمرأة أن تتزوج المرأة وليس فيه مبدأ الاعتراف بالذنب وغفران القس لمرتكبه في الوقت الذي لا يملك غفران ذنبه هو فيعترف أمام قس آخر كما أن هناك كنائس أخرى لا تتبع المذهب الكاثوليكي

وبعد هذا الانشقاق بين أتباع الكنيسة التي كانت موحدة اضطر الباب أن يجمع رجال الدين ليعيدوا النظر في شؤون دينهم ومعتقداتهم كان ذلك في منتصف القرن السادس عشر الميلادي فدعا إلى المجمع الكنسي خلال المدة بين عامي ١٥٤٥ و ١٥٦٣ م في مدينتي تربت ويولوبيا في شمال إيطاليا للنظر في إصلاح حال الكنيسة الكاثوليكية بعد انتشار الإصلاح البروتستنتي الخطير فعقد المجلس عدة جلسات متفرقة في خلال هذه المشار إليها وسمي المجمع التريدينشي ونقر في هذا المجمع تقديس العهدين القديم، والجديد، بما في ذلك الأسفار غير الموثقة، ولقد أعلن أحد القساوسة أن الكتاب المقدس هو صوت الحارس على العرش كل سفر من أسفاره أو أصحاح أو صحاحه أو حمله من حمله ليس لا حديثاً طو به الكائن الأعلى وهو معصوم من الخطأ، بل هو الذي لا يخطئ لا أحد يعرف

من أين استمد هذا القس علمه هذا ، وهو ليس برسول يوحى إليه ،
ليس إلا بشرا من بني آدم ، ثم من هو هذا الكائن الأعلي المعصوم من
الخطأ؟ أهو خالق هذا الكون أم هو الرئيس الأعلي للكنيسة ؟ الله أعلم .

هذا القرار الكنسي الذي صدر من أعلي سلطة في الكنيسة ، والذي
جعل (الكتاب المقدس) هو صوت الجالس علي العرش ، وحكم بتقديس
العهدين كان يعيش في واد والبحوث الدينية في واد آخر . في العصر نفسه
أي السادس عشر الميلادي .

قال تعالي : " وأتينا موسى الكتاب فاختُلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من
ربك لقضي بينهم ؛ وإنهم لفي شك منه مريب " صدق الله العظيم .

هذه الحقيقة أنكرها اليهود

يوم أن أوحى بها إلي رسول الاسلام (صلوات الله وسلامه عليه) في
القرن السادس الميلادي . وحتى ذلك الحين لم يكن هناك من غير المؤمنين من
يصدق صحة هذه الحقيقة ؛ فكذب بها بنو إسرائيل ، وتابعهم في ذلك
النصارى ، ولا يزالون . فقد كان هؤلاء وأولئك يسلمون بصحة كل ما جاء به
(العهد القديم) ، سواء منه (التوراة) أو الكتب الأخرى التي ألفت بعدها ،
والتي لا تخرج عن أن تكون سردا تاريخيا ، وقصصا ، وخرافات ، وترهات ،
وأوصافا للمعارك الدامية التي دارت بين الأسرائيليين وغيرهم ، وبينهم وبين
أنفسهم ، إلي جانب نبوءات الأنبياء ، وغيرها . وهذه كلها إذا فكر فيها المرء ،
وأمعن في التفكير لا يستطيع أن يصدق أنها وحي من خالق السموات ،
والأرض ، وحي من إله إسرائيل .

لذلك لا نعجب إذا رأينا أهل الكتاب الذين عاشوا في عصر نبي
الاسلام (عليه الصلاة والسلام) أو بعده يقاومون الرسالة الالهية التي بلغها
هذا النبي - الرسول :

(أولا) لأنهم لم يكونوا يعرفون عن حقيقة كتبهم شيئا ، فكانوا يؤمنون
إيمانا عميقا بأنها وحي سماوي ، فلا سبيل لمعارضتها .

(ثانيا) لأن الطم لم يكن قد تقدم ، والتاريخ قد كُتب ، والناس قد وعوا
ما يقال ، وما ينقل إليهم من كتبهم ؛ لأن رجال الدين هنا وهناك كانوا بما
يقولونه يسيطرون علي أتباع دينهم ، ويسوقونهم سوق السوائم ؛ راية ذلك
قيام الثورة الفرنسية التي دعا إليها تحكم رجال الكنيسة في مصائرهم ،
الدنيوية ، والأخروية علي حد سواء ، والتي انتهت بفصل الكنيسة عن الدولة .

كذلك ثورة (مارتن لوتر) علي الكنيسة ، وقد كان هو نفسه من
رجالها، وخروجه منها ؛ لأنها كانت تحرم علي أتباعها قراءة (العهد القديم)
إلا ما تختارة هي لهم ؛ لعلمها بما فيه من أمور يندي لها الجبين . ولذلك رأينا
هذا الناثر يترجم (الكتاب المقدس) إلي اللغة الألمانية ؛ ليقراه جميع أتباعه ،
ومع ذلك فإنه كان يدرك حتي يومه هذا أن أكثر ما في هذا الكتاب وحي إلهي ،
لا من صنع البشر ؛ لأن التاريخ لم يكن قد كشف عن هذه الحقيقة بعد ، وإذا
كان رجال الكنيسة قد سيطروا علي أتباعها ، وأفهموهم أن ما جاء به الرسول
(عيسى) عليه السلام ، ودون في الإنجيل حق ، فإن الشيء ذاته قد حدث
مع اليهود أيام أن كانت لهم دولة ، وأيام أن صاروا رعايا لمن قوضوا دولتهم
هذه من الآشوريين ، والبابليين ، والرومان ، ودب فيهم الفساد حتي هدمهم
أنبياءهم بالزوال ماداموا يتأون عن سبيل ربهم (يهوفا) ، ويحرفون دينه ،
ويعبدون الأصنام . فهذا النبي (أشعيا) يقول :

” اسمعي ، أيتها السموات ، وأنصتي أيتها الأرض ، فإن (يهوفا) قد
تكلم (١) . لقد غذيت أطفالا ، وربيتهم ، ولكنهم تمردوا علي (٢) الثور يعرف
قانيه ، والحمار معلق صاحبه ، لكن إسرائيل لم تعرف ، وشعبي لم يفهم (٣)
. ويل للأمة الخطاة ، للشعب المثقل بالألم ، لذرية المجرمين الفجار ! لقد

انصرفوا عن (يهوذا) ، واستهانوا بقدوس إسرائيل ، وارتدوا علي أعقابهم (٤) .

ما هي العقوبات الجديدة التي نزلت بكم ، عندما استكثرتم من عصيانكم ؟ نال الرأس كله سقيم ، والقلب كله مصاب ، من أخمص القدم ، حتي قمة الرأس . لا شيء منافي . ليس إلا جروح ، وكُتوم ، جروح تسيل ؛ لا شيء منها قد عولج أو ضمّد . أو برئت الأمة من أثر الزيت (٦) . بلادكم قد صارت خرابا ، ومدنكم قد التهمت بالنيران ، ومزارعكم (٥) قد أتلفها الغرياء أمام عيونكم ؛ لقد خربوها ، وهدموها كالبرابرة (٧) - (الأصحاح الأول ١ - ٧)

ويقول :

اغسلوا ، وطهروا أنفسكم ، وأزبحوا من أمام ناظري أعمالكم الشريرة ، كفوا عن الأساء (١٧) تعلموا الأحسن ، وأنصفوا اليتيم ، ودافعوا عن الأرملة (١٨) .

• • • • •

ماذا ننتظر من شعب يصفه ربه وحاميه بهذه الأوصاف ؟ المال ! المال ! فلا عجب إذن أن يتعرد الذين تمرد أسلافهم علي ربهم ، أن يتمردوا علي رسول الأسلام وينكروا رسالته ، ويكيدوا له ، ويتهمونه بتزييف الوحي عندما قال الله لهم : " إن هذا القرآن يقص علي بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " .

كان لا بد إذن من الانتظار عشرة قرون أو تزيد حتي تفك هذه الطلاسم التي أشار اليها كتاب الله الكريم ، حتي تكشف الدراسة النقدية للكتاب المقدس ، عن مصادره ، وعن مدى صحة ما جاء فيها ، وما تحمله من حقائق أوزيف (كما سنري) .

× × ×

لقد جاء الإسلام في القرن السادس الميلادي أي قبل قرار المجمع الكنسي الأعلى بحشرة قرون ، وأوحى الله في قرآنه إلي رسول الإسلام أن فريقاً من بني إسرائيل " يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ! ليشتروا به ثمناً قليلاً " (١) . ولكن اليهود آنذاك أنكروا إنكاراً تاماً ما قاله كتاب الله . وظل هذا الإنكار سائداً حتي القرن السادس عشر الميلادي ، فانضم إليه قرار المجمع المشار إليه الذي أيد ما يقول به اليهود منذ ظهور الإسلام ، وزاد علي ذلك أنه أضفي القداسة علي أسفار في (العهد القديم) لا يُعرف من الذي ألفها ، وعلي أسفار لا يتصور عاقل أن تكون موحى بها ، لما فيها من غزل فاضح ، وحكايات مخزية ، وخرافات ... لا يمكن أن تصدر عن خالق الكون . القرآن كاذب فيما يقول ، وفيما يتهم به الذين زيفوا التوراة ، والإنجيل ، فكلاهما مقدس ، وكلاهما موحى به - هكذا قيل .

وكان لا بد أن ننتظر عشرة قرون بعد نزول القرآن ، حتي نري أول بذرة من بذور تصديق ما جاء به كتاب الله ، تلقي في حقل البحث الديني ، والنقد الديني للكتاب المقدس ، وظلت هذه البذور تنمو ، وتتكاثر حتي ملأت حقل التصديق بأكمله ، ولم تكف حتي اليوم عن نموها ، وتكاثرها . فقد أصبح نقد النصوص علماً ، كان له الفضل في الكشف عن كثير من مشاكل مطروحة ، أثبت أن هناك مراطن ضعف كثيرة فيما يسمى (الكتب المقدسة) : التوراة ، والإنجيل . " ولكن الغالبية النصرانية - كما يقول مسيو (بوكاي) ظلت في جهالة تامة عن أمر تناقض ما بهذه الكتب مع المعارف الدنيوية المشهورة التي تعد غالباً من المعارف الأساسية جداً " .

هذا ، وقبل أن ندخل في سرايب هذا النقد الذي أثبت أن كلا من العهدين القديم والجديد لم يدون كما أوحى به ، بل خطه يد الإنسان ، وملأته بما لا يليق بكتاب مقدس - نقف مع العهد القديم وقفة قصيرة لنصف ما فيه من أسفار .

(١) ذكرنا ما جاء به القرآن في هذا الصدد من قبل (ص ١٠ - ١٣)

العهد القديم

تطلق كلمة (العهد القديم) علي كل ما يضم ما أنزل علي أنبياء بني إسرائيل من نبوءات ، وعلي غيرها من الأسفار التي تؤرخ لهذا الشعب منذ ظهوره إلي عالم الوجود حتي اختفائه من علي خريطة التاريخ ... الخ .

وسمي (القديم) لأنه هو الذي أبرم بين ابراهيم وربه الذي وعد رسوله أن يعطي الاسرائيليين أرض كنعان هبة منه - بينما (العهد الجديد) كان بين (عيسي) وربه .

ويطلق القرآن كلمة (التوراة) علي كتاب بني إسرائيل الذي أوحى به إلي (موسى) ؛ لأنه العمود الفقري للشريعة الاسرائيلية . أما ما عداه فلا علاقة له بالدين ، فهو تاريخ ، وتكرار لما أوحى به علي (موسى) ، حتي نبوءات الانبياء . الخ .

مكونات العهد القديم

أولاً- التوراة :

تتألف من خمسة أسفار هي : التكوين أو الخليقة ، والخروج ، واللاويون أو الاحبار ، والعدد ، والتثنية .

(١) سفر التكوين :

يروي لنا قصة خلق الكون ، واستقرار الانسان علي الأرض بعد أن كان يعيش في الجنة ، وظهور شعب بني إسرائيل . وهو يحدثنا عن نوح ، وابراهيم ، ويعقوب ، واسحق ، واسماعيل ، ثم عن يوسف ، وعن السيرة

التي اشترتها ، وأخذته معها إلى مصر ، وإقامته بها ، وعن وصول يوسف إلى أعلى منصب في أسر التمرين الخ ثم عن حدوث مجاعة في أيام يعقوب في أرض مقامه رقبيلته ، وإرساله بنيه يفترون من مصر ، وتعرف (يوسف) الذي كان حينذاك صاحب الشأن في الميرة علي إخوته دون أن يعرفوه ، واستدعائه لأهله أجمعين . وينتهي السفر بوفاة (يعقوب) بمصر ، وتحنيطه ، وحمله ، ليدفن في أرض كنعان . ثم وفاة (يوسف) ، وقد بلغ من العمر ١١٠ سنوات .

(٢) سفر الخروج :

يروى لنا قصة بني إسرائيل الذين قدموا مع يعقوب إلى مصر ، وكان عددهم ٧٠ نفسا ؛ وبعد فترة من الزمان أخذوا في التكاثر حتي " امتلأت الأرض بهم " . وأثناء مقامهم بمصر ولد (موسي) الليثي ، وقربي في بلاد فرعون بعد أن انتشل من النيل . ولما كبر حدثت بينه وبين فرعون وقومه أمور استدعت هربه من مصر ، وذهابه إلى سيناء وتزوجه من بنت كاهن (مدين) ثم اختياره رسولا إلى فرعون ليطلب منه الأذن لبني إسرائيل بمغادرة البلاد ، والذهاب إلى طور سيناء لعبادة (يهوذا) إله إسرائيل - وقد تم ذلك ، واستقر بالطور لتلقي الوحي هناك .

(٣) سفر اللاويين :

يقص علينا أخبار قبيلة (لاو) التي ستولي سدانة المعبد ، والسهر علي تابوت العهد الخ .

وقد استخدمت الأحداث التاريخية إطارا لعرض المباديء ، والتعاليم التي تنظم الحياة الدينية ، والاجتماعية ، للشعب الإسرائيلي . ومن هنا جاءت كلمة " التوراة " أي التعليم من فعل (ت) أ (ت) (تعلم ، درس) .

(٤) سفر العدد :

به إحصاء جماعة بني إسرائيل الخارجين من مصر وبيوت آبائهم ،
بعدد أَسْمَانِهِمْ ، من ابن عشرين سنة فصاعدا ، أي كل من يخرج إلى الحرب
.. الخ . وتسجيل مراحل الخروج (٢٦ إصحاحا) - ذكر الوعد (٢٤) وتخريم
الأرض .

(٥) سفر التثنية :

وفيه تكرار لبنود الشريعة التي ذكرت في الأسفار السابقة . وكانت
التوراة أربعة إصحاحات ثم أُضيف إليها هذا السفر الذي عثر عليه في
الهيكل عام ٦٢٢ ق . م .

ثانيا - النبوءات :

هذه الطائفة من الأسفار تضم نبوءات مختلف الأنبياء الذين ظهوروا في
بني إسرائيل ، أذا استثنينا كبارهم أمثال موسي ، وصوئيل ، وإيليا واليشع
الذين تكفلت أسفار أخرى بعرض حياتهم ، من خلال أحداث عصورهم
السياسية ، ومشاركتهم فيها .

وهؤلاء الأنبياء ظهوروا في الفترة التي تمتد من القرن الثامن إلى القرن
الثاني قبل الميلاد .

أما أسفار القرن الثامن ق . م . فهي نبوءات عاموس ، وهُوشع ،
وأشعيا ، وميخا ..

أما (عاموس) فقد ثار على المظالم الاجتماعية ، وأما (هُوشع) فثار
على الفساد الديني مما جعل إسرائيليو عصره يعذبونه (بعد أن تزوج بعامرة

مقدسة في عبادة وثنية) . كصيردة الرب الذي يتألم بسبب انحلال شعبه ،
رإن أعطاه حبه دائما .

- وأما (أشعيا) فإنه وجهٌ للتاريخ السياسي . إنه يسود الأحداث ؛
لأن الملوك يستشيرونه . إنه نبي العظمة . وإلى مؤلفاته تضاف نبوءاته التي
نشرها تلاميذه حتى القرن الثالث ق . م . ومنها الاحتجاج علي الظلم ،
والخوف من يوم القيامة ، والتبشير بالتححرر ، في عصر النفي ، والتنبؤ بعودة
الاسرائيليين إلى فلسطين في فترة لاحقة .

ومن المؤكد أن نبوءتي أشعيا الثانية ، والثالثة تحتويان ، إلى جانب
الاهتمام النبوي ، علي اهتمام سياسي يظهر فيهما جليا .

- وتتبع رسالة (ميخا) ، وهو معاصر لأشعيا ، أمثال هذه الأفكار .

❶ وفي القرن السابع ق . م يظهر صُفْنيا ، وأرميا ، وناحوم ، وحَبَقُوق علي
مسرح التبشير . ويقضي (أرميا) حياته شهيدا ، فتلقي (باروك)
نبوءاته . وقد يكون هو كاتب المراثي المنسوبة إلى أرميا .

❷ وفي بداية القرن السادس ق . م . يقع السبي البابلي ٥٨٦ ق . م ،
فيؤخذ الاسرائيليون إلى (بابل) بالعراق أسري فتظهر في فترة السبي
نبوءات نشطة .

❸ ويعد النبي (حزقيال) المجلي في هذا المضمار ؛ فقد تضمنت نبوءاته
الكثير من المواساة لشعبه ، حين بذر فيهم بذور الأمل ، بعودتهم إلى أرض
كنعان - فلسطين ، وله رؤي مشهورة .

أما (عوبيديا) فيرتبط كتابه بكوارث القدس المشهورة .

❶ هذا ، ولما انتهت فترة النبي عام ٥٢٨ ق . م بمردة من أراد من بني إسرائيل المردة إلى فلسطين استؤنف النشاط النبوي مع (حَجَّاي) ، (زكرياء) للحث علي إعادة بناء هيكل سليمان ... (ملاخي) .

وبعد بناء الهيكل نلتقي بنبوءات متنوعة ، ذات طبيعة روحانية .

ثم هناك كتاب (يونس) ، (والعهد القديم) لا ينسب إلى هذا النبي نبوءات بالمعني الحقيقي للكلمة ، فالكتاب ليس إلا حكاية يُستخلص منها أمر رئيسي هو الخضوع المطلق للارادة الالهية .

ونتساءل : كيف أدرج هذا السفر بين أسفار الانبياء ؟

(دانيال) - سفره مكتوب بثلاث لغات هي (العبرية ، والآرامية ، والإغريقية) . وهو رؤيا ، يقول المطلقون من النصاري إنها مذهلة ، من وجهة النظر التاريخية .

ويعتقد أن هذا السفر ألف في القرن الثاني ق . م . ، في عصر المكابيين .

ريحتمل أن يكون كاتب هذه الرؤيا قد هدف إلى إقناع مواطنيه ، في عصر (منتهي الشر) إلى أن ميعاد الخلاص قريب ، حتي يبعث فيهم روح الأمل .

ثالثا - كتب الشعر ، والحكمة :

هناك مجموعات متناثرة ، وإن كانت تتمتع بوحدة أدبية لاجدال فيها . وتحتل (الزامير) المقام الأول بين هذه المجموعات . إنها الصرح الشامخ في الشعر العبري . وينسب إلى (داود) كتابة عدد كبير منها . أما البقية فقد

كتبها الكهنة اللاويين . وموضوع هذه المزامير هو المذائح ، والتضرعات ، والتأملات ؛ وكانت وظيفتها طقسية الطابع .

٢) أما سفر (أيرب) ، سفر (الحكمة والبر = المدل) فيرجع تاريخ تأليفه ، فيما يقال ، إلى القرن الخامس (٤٠٠) أو السادس (٥٠٠) ق . م .

٣) ونشيد الأناشيد ليس إلا مجموعة من الأناشيد الرمزية التي تتناول الحب الإلهي تهل كل شيء .

٤) وأما (المراثي) علي سقوط (القدس) ، فتنسب إلي (أرمياء) في بداية القرن السابع ق . م .

٥) ويتكون سفر (الأمثال) من طائفة من أقوال سليمان ، وحكماء آخر كانوا في بلاطه .

وأما سفر (الجامعة) فيتحدث عن السعادة الدنيوية والحكمة .

سؤال:

والسؤال الذي يرد علي ذهن الآن هو : كيف استطاع هذا المجموع المتناثر في مضمونه ، والذي يتألف من أسفار دونت علي مدي سبعة قرون علي الأقل ، وجاءت من مصادر متنوعة للغاية ، ثم تجمعت بعد ذلك في مؤلف واحد .

كيف استطاع عبر القرون أن يكون كلاً لا تنفصم عراه ، وأن يصبح - مع بعض الاختلافات بين الجماعات الدينية - كتاب الوحي اليهودي - المسيحي ؟ كيف أصبح القانون Canon ، وهي كلمة إغريقية يرتبط بها معنى (عدم المساس) ؟

إن هذا التجميع يرجع إلي العهد اليهودي نفسه ، ولا شك أن مرحلته الأولى تعود إلي القرن السابع ق . م . ثم جاءت الكتب اللاحقة فأضيفت إلي الموجود منه . علي أننا يجب أن نلاحظ تلك المنزلة الخاصة التي حظيت بها في كل الحصور الأسفار الخمسة التي تتألف منها (التوراة) ، والتي كانت نواة لما جاء بعدها . فقد أمكن ، فيما بعد ، إضافة أسفار الأنبياء إلي الأسفار التي قيلت من قبل ، مادامت هي أيضا تتحدث عن الثواب ، والعقاب .

إن النصرانية التي كانت في أول أمرها يهودية - نصرانية قد تقبلت بشكل طبيعي جدا ميراث (العهد القديم) الذي ارتبط به كل الارتباط مصنفو الأنجيل ، وذلك قبل أن يجري عليها التحول الذي حدث بتأثير (بولص) الداعية ، ولكن إذا كان " تطهير " الأنجيل قد تم باستبعاد الأنجيل " المزورة " ، فإن المسئولين لم يروا ضرورة الفرز بالنسبة للعهد القديم وقبلوا كل ما يحتويه تقريبا ، بل أضافوا إليه كما أشرنا إلي ذلك من قبل .

× × × × × × ×

*** * * هدي التصديق بصحة ما جاء في العهد القديم :**

لقد ظل الحال كذلك حتي العصور الوسطي الأوروبية لا يخطر ببال أحد أن يفكر في قضية التشكيك في صحة ما جاء بالعهد القديم .

ومنذ العصور الوسطي الأوروبية حتي بداية العصور الحديثة ظهرت علي الألسنة ، والأقلام بعض الانتقادات لمحتويات الكتاب المقدس ، ولكن الكنيسة نجحت دائما في فرض سيطرتها ، وكنتم أنفاسها .

ومع ذلك فقد شهد العصر الحديث ميلاد نقد أصيل للنصوص المقدسة ، أو المدعاة كذلك ، ولكن المتخصصين في هذا المجال لم تكن لديهم الشجاعة

الكافية للتصريح ، وتجاوز الأمور التفصيلية ، واكتفوا بالتلميح بأن هناك صعوبات في دراسة بعض نصوص الكتاب المقدس . وحتى ذلك الحين لم يجرؤ أحد منهم علي عمل موازنة صريحة ، وعميقة بين روايات الكتب المقدسة بعضها وبعض ، وبينها وبين المعارف الحديثة ؛ لأن هذا لو حدث كان سيقود إلي القضاء علي صحة فكرة الكتابات اليهودية النصرانية التي لم يناقشها حتي ذلك الحين أحد .

ولكي نقف علي حقيقة ما بأسفار (العهد القديم) يجدر بنا :

(أولا) أن نقف علي المصادر التي استقي منها ما بها .

(ثانيا) أن نقف علي المسار الذي سلكته حتي وصلت إلي أن أصبحت شريعة يؤمن بها ملايين الناس .

مصادر العهد القديم

أولا - مرحلة النقل مشافهة :

كان العهد القديم قبل أن يدون ، ويصبح مجموعة من الأسفار تراثا شعبيا يعتمد اعتمادا كليا علي الذاكرة ، وكان هذا التراث يغني .

يقول (إدمون يعقوب) : " إن كل شعب يغني في مراحل تطوره البيئية

" . ولم تكن إسرائيل بدعا من الشعوب ؛ ففيها سبق الشعر النثر الفني .

وكانت حياتها التاريخية خليطا من الحماس البالغ ، واليأس القاتل . ولهذا

أعطت أغانيها تعبيرات كثيرة التنوع . فكان الناس يغنون في مختلف

المناسبات . ويسجل لنا (العهد القديم) نفسه الأغاني التي كانت تغني في

هذه المناسبات . فمنها أغاني الطعام ، وأغنية الاحتفال بنهاية الحصاد ؛

وأناشيد العمل ، مثل أناشيد البئر المشهورة (سفر العدد ٢١ / ١٧) يقول

المصنف :

” ورحلوا من ثَم إلى البئر . وهي البئر التي قال يهوذا عنها لموسي
اجمع الشعب حتي أعطيهم ماء (١٧) حينذاك ترنم إسرائيل بهذا النشيد
اصعدي يا بئر ، تجاوبوا لها (١٨) بئر احتقرها الرؤساء ، احتقرها أشراف
الشعب بِمِخْصَرَة ، بعصيتهم ، من البرية إلى المَتَّانَة ؛ ومن المَتَّانَة إلى تحْلِيثِيل ،
ومن تحْلِيثِيل إلى (باموت) (٢٠) ومن بامُوت في الوادي الذي في حقل مؤاب
إلى رأس الفِسْجَة الذي يُطل علي البرية (٢١) .

وأناشيد الزواج مثل : ” نشيد الأنشاد ” ، وتراتيل الحداد ، وأناشيد
الحرب ، وما أكثرها في (العهد القديم) ؛ ومنها ترنيمة (دَبُورَة) (س .
القضاة - الحكام ١/٥ - ٢٢) التي كانت ترددها فرحا بنصرة إسرائيل في
حرب قادها (يهوذا) بنفسه (س العدد ٢٥/١٠) .

كذلك هناك الحكم ، والأمثال (س . الأمثال) . كذلك الأمثال والحكم
التي تتضمنها الكتب التاريخية المقدسة ، وكَلِم البركات واللعنات ، والنواميس
التي يستنتها الأنبياء للناس بعد أن يكون الرب قد وكلهم في ذلك .

أما الطريقة التي كانت تتناقل بها كل هذه الأمور فهي طريق الأسرة ،
شفويا ، وطريق المعابد في شكل روائي يقص تاريخ بني إسرائيل .

وقد تحول هذا التاريخ بسرعة إلى تطعيمه بالأمثال . من ذلك مثل يونام
(الحكام ٩ / ٧ - ٢١) الذي فيه يقول :

” ذهبت الأشجار لتعين عليها ملكا ؛ فتوجهت أولا إلى الزيتون ، ثم إلى
شجرة التين ، ثم إلى الكرمة ، ثم إلى العُوسج ” .

هذا الأسلوب من التعبير جعل (إدمون يعقوب) يقول : إن الوظيفة
الأسطورية في الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات ، وعصور كان تاريخها
معروفا بشكل سيء ” - ويخلص من هذا إلى القول بأنه ” يحتمل أن ما يرويه
(العهد القديم) عن (موسي) ، وعن الآباء الأولين لا يتفق إلا بشكل تقريبي

مع المجري التاريخي للأحداث . ولكن القصاصين كانوا يعرفون - حتي في هذه المرحلة من النقل الشفوي - كيف يخلعون الأناقة ، والخيال علي القصة حتي يربطوا بين أحداث شديدة التنوع .

" لقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث المختلفة في صورة حكاية لما حدث في أصل العالم ، وللأنسان . ويستطيع العقل الناقد أن يعدها في آخر الأمر معقولة إلي حد كبير " - وبذلك شهد شاهد من أهلها .

③ هذه هي الحال التي كانت عليها الأمور حتي نهاية القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح : قصص تتناقل شفاهاً من جيل إلي جيل ، يدخل عليها ما يدخل من التحرير ، والزيادة ، والنقص الخ .

فلما استقر بنو اسرائيل في أرض فلسطين فكروا في أغلب الظن في تدوين تراثهم ، والاحتفاظ به . ولكن الفكرة لم تكن قد تبلورت ، وتحمس لها نورو الشأن .

ثانياً : مرحلة التدوين

ومع ذلك فإن هذه الفكرة شهدت ، علي أية حال ، تدوين بعض نواميس الشريعة ، والأحداث ، منها التاموس الذي تنسب كتابته إلي الرب نفسه ، وهو " الوصايا العشرة " . فهذا التشريع قد أُدخل فيما بعد في ثنايا (العهد القديم) ، ولكنه ذكر مرتين ، بروايتين مختلفتين ، مرة في سفر الخروج (١٨/٣١) (١) (خج ٢٧/٣٤ - ٢٨) ، وأخري في سفر التثنية (١/٥ - ٢٠) وروح الوصايا في الروايتين واحدة ، ولكن النص مختلف (٢) .

(١) يقول : " ولا فرغ (يهوذا) Yāhvé من مخاطبة (موسى) دفع إليه لوحي الشهادة ، لوحين من حجر مكتوبين بأصبع الرب " .

(٢) انظر سفر الخروج (ص ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ الخ) .

كذلك دونت الوثائق الهامة من عقود ، ومخاطبات ، وقوائم الشخصيات (الحكام ، وكبار الموظفين بالمدن ، وقوائم الأنساب) ، وقوائم القرابين ، وقوائم الفنائم ، الخ . بهذا تكونت الملفات التي ضمت الوثائق التي استخدمت فيما بعد في تحرير المؤلفات النهائية التي انتهت بالأسفار التي في حوزتنا اليوم .

بهذه الطريقة اختلطت في كل سفر أنواع أدبية متنوعة : وعلي أدل العلم المتخصصين أن يبحثوا عن الدوافع التي أدت إلي التأليف بين هذه الوثائق المتناثرة .

كذلك نبوءات يعقوب ، وموسي ، والنصوص التشريعية في جملتها ، كل هذا وغيره أنشأ تقليدا دينيا قبل سن القوانين الشرعية .

كل هذه النصوص تكون قطعا متفرقة في ثنايا (العهد القديم) . وهكذا نرى أن هذا المجموع المتناثر الذي يسمى (العهد القديم) قد اعتمد أولا في جزء منه كبير علي الرواية الشنوية دهورا طويلة ، وخلال هذه الفترة سجلت أمور كثيرة هنا وهناك ، ثم في النهاية بدأ التدوين النهائي ، علي مراحل ، ولكن كيف ؟ ومتي ؟ .

والكي نجيب عن هذين السؤالين ، علينا أن نستعرض حال كل قسم من أقسام (العهد القديم) علي حدة ، علي انفراد ، في شيء من الأيجاز (كما سيأتي) .

وها نحن أولاء نختم حديثنا هذا بكلمة عن سبب التدوين وطريقته في رأي Wells . ولز ، و Hosmer هُسمِر .

النفي البابلي والتدوين:

في عام ٥٨٦ ق . م أغار البابليون على مملكة (يهوذا) في جنوب فلسطين التي كانت عاصمتها (اورشليم) أو (بيت المقدس) وتخلبوا عليها ، ونفّوا عددا كبيرا من أهلها إلى (بابل) . وبقي هؤلاء البابليون يحكمون البلاد وقتا طويلا ، وبقي اليهود المنفيون يعيشون في وادي الرافدين ، صاحب الحضارة العريقة ، والتقدم العلمي الكبير الذي خلف وراءه أثارا قيمة لا تزال باقية حتي اليوم ، تشهد بما كان عليه البابليون من تمدّن . وقد كان لهذه البيئته الحضارية الجديدة بدون أدنى شك آثار كبرى في حياة الأسرائيليين المقيمين بها ، وفي أسلوب تفكيرهم ، وثقافتهم . كانت حياة تختلف كلية عن حياة البادية التي نشأ فيها بنو إسرائيل ، وترعرعوا ، وهم أميون . لقد خرجوا من هذه البادية ، واحتلوا أرض كنعان ، واختلطوا بأهلها ، وأفادوا من عاداتهم الوثنية ، وعلمهم الضئيل ، وأقاموا لهم دولة ، ولكنهم لم تتفتح عيونهم علي شيء جديد ، ويَقْوُوا يعيشون عيشة البداوة إلى حد كبير : يتقاتلون علي امتلاك بئر يشربون منها ، ويسقون مواشيهم ، وظلوا حتي في أرض فلسطين ليس لديهم من غذاء روحي إلا ما كان يحمله إليهم الرسل الموفدون من قبل (يهرثا) . والله سبحانه وتعالى يقول عنهم : " كلما جاعكم رسول بما لا تهوي أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتهم ، وفريقا تقتلون (١) .

ولكن الحال تبدل كل التبدل حين عاشوا في بابل حيث النعيم المقيم ، والثقافة العالية ، والعقول المتفتحة ، والأحاساس العميق بالوطن ، ووحدة

(١) سورة (١٧) (٢)

الوطن . لهذا نرى كبار المؤرخين يصفون (فترة النفي البابلي) بأنها هي التي فتحت عيون الأسرائيليين ، وأذانهم وعقولهم ، فعكفوا علي تراثهم القديم يدونونه ، ويشرحونه ، ويصفونه ألخ حتي استقر علي دعائم ثابتة ، رغم ما فيه من اضطراب ، ومبالغة ، وزيف ، واختلاف ، و(التلمود البابلي) أكبر شاهد علي ذلك . يقول Wells في كتابه : موجز تاريخ العالم ص ٨٩
: A short History of the World

" إن أسفار (العهد القديم) جمعت لأول مرة في (بابل) ، وظهرت في القرن الخامس ق . م . وهو يعقد صلة بين رأيه هذا وبين مرحلة (النفي البابلي) التي قضاها بنو إسرائيل في وادي الرافدين فيقول : إن بني إسرائيل لم يكونوا قبل النفي يكوّنون شعبا متحضرا ولا موحدا . ولم يكن فيهم في أغلب الظن إلا فئة قليلة تعرف القراءة والكتابة . وتاريخ هذا الشعب لم يذكر لنا قط أن أحدا فيه كان مثقفا ، وأنه كانت له غيل السبي أسفار يقرأها عامة الناس . ويرجع الفضل في تحضرهم ، وتنشيطهم ، وتولد فكرة جمع تراثهم الذي يضم تاريخهم ، وتسجيل عاداتهم المرمية . الي غير ذلك إلي ما تعلموه من البابليين أثناء مقامهم بينهم .

لذلك أخذوا في تدوين الاسفار من المصادر المتعددة ؛ حتي يعدوا أنفسهم ليوم الخلاص الذي سيطلق فيه سراحهم . فرأيناهم حين عادوا إلي فلسطين شعبا تختلف حالته اختلافا كبيرا عما كانت عليه عند ذهابهم . ومن

هنا قال بعض المؤرخين إن التوراة هي التي صنعت الإسرائيليين ، وليس هؤلاء هم الذين صنعوا التوراة .

كذلك يكتب Wells في مؤلفه " Outline of history " ملخص تاريخ اليهود " إن بني إسرائيل ذهبوا إلي (بابل) فمجا ، وعادوا منها متحضرين ، خرجوا جماعة منقسمة علي بعضها البعض ، لا يربط بينهم أي رابط قومي ، وعادوا بروح وطنية متماسكة ، وميل إلي العزلة ، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك بينهم ، وليس في تاريخهم ما يدل علي أنهم يميلون إلي قراءة أي كتاب ، وعادوا إلي وطنهم ومعهم قسم كبير من مادة " العهد القديم " . لقد نشط العقل الإسرائيلي في فترة السبي ، وخطا خطوات فاسحا إلي الأمام ، بعد أن تخلص العبريون من ملوكهم القتل الكثيري المنازعات ، وخلوا السياسة جانبا ، وعاشوا في الجو البابلي المسالم الباعث علي النشاط الذهني . (ص ٢٢٠) .

فالكتاب المقدس إذن لم يكن وحيا إلهيا مدونا وقت نزوله بحيث أمكن الحفاظ عليه ، كما حدث مع القرآن الكريم الذي حفظ ودون بأملء من الرسول علي المؤمنين كما أنزل ، أملاه آية آية وحرفا وحرفا أولا بأول . لقد اشترك الكهنة في كتابة (العهد القديم) وكان علي رأسهم الحبر (عزرا) الذي رأس طائفة من اللاويين - كما يذكر Hosmer - وكان ذلك في منتصف القرن الخامس ق .م وذهب بهم إلي فلسطين حيث استعاد معهم الحياة الأسرائيلية ، وكان هو أكثرهم نشاطا ، وتحمسا حتي استطاع أن يجمع أجزاء كثيرة مما سمي بعد (العهد القديم) ، فلما قضي أجله أكمل الكهنة الذين خلفوه العمل

الذي بداه . وما أن وصلنا إلي عصر المكابيين حتي كانت أجزاء (العهد القديم) قد اكتملت ، ولكنها لم تكن قد أخذت بعدُ صورتها التي هي عليها الآن، كما أنها لم تكن كلها بمنزلة واحدة من التقديس بل كانت منازل . Hos-mer, The Jews (٧٥ - ٧٦) .

❶ ❷ هذا ، وقد اخترع الأسرائيليون والنصاري فكرة (الألهام) يخلعونها علي من ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ليبرروا بها عملهم الدنيوي الذي لا يمت إلي الوحي الإلهي بسبب وصدق الله حين قال : " يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله " .))

وإذا كان أسلافنا قد عدوا قوله تعالى في سورة (الروم ٣٠ / ٢ - ٤) : غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيفليون ، في بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد .)) من قبيل الأعجاز في القرآن الكريم . فمن باب أولي أن تعد المعجزة الكبرى له ما ورد فيه عن تحريف ، واختلاف ، وتضارب .. الخ ما جاء بالكتب " المقدسة " - " فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا " .

ثالثا - مرحلة التصديق بما جاء في الكتاب المقدس :

ولنبدا بالتوراة:

ظل الأسرائيليون ، والنصاري - كما قلنا - دهورا طويلة يؤمنون بأن موسى هو الذي صنف التوراة ، ولعلمهم كانوا يعتمدون في رأيهم هذا علي بعض آيات وردت فيها ، من مثل :

- قول الرب لموسي : " اكتب هذا تذكارا في الكتاب " (خج ١٧/١٤) -
وهذه اشارة إلى هزيمة عماليق .

ومثل ما ورد في الأصحاح الثالث والثلاثين من سفر العدد : " وكتب
موسي مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب " .

ربما جاء في الأصحاح الحادي والثلاثين من سفر التثنية : " وكتب
موسي هذه التوراة وسلمها للكهنة من أبناء (ليفي) الذين يحملون تابوت
عهد يهوذا ، وإلى جميع شيوخ إسرائيل (٩/٢١) .

- هذا ، ومنذ أوائل القرن الأول ق . م بدأ الدفاع عن هذه الفكرة ،
فكرة أن (موسي) هو الذي كتب التوراة . قال ذلك المؤرخ الشهير (يوسف)،
وفيلون الاسكندري .

كذلك ينسب (العهد الجديد) إلى موسي تأليف التوراة . فهذا (بولص)
الداعية الملقب في النص العربي بالرسول يقول في رسالته إلى أهل رومية
(١٠/٥) : لأن موسي يكتب في العدل الذي يصدر من الشريعة " . وهو بهذا
يقتبس عبارة من سفر اللاويين .

هذا الاعتقاد ظل سائدا حتي نهاية العصور الوسطي النصرانية ،
والذي خالف هذا الرأي هو (ابن عزرا) في القرن الثاني عشر ، كان هو
الوحيد الذي رفض هذه الفكرة .

رابعاً - مرحلة النقد الديني :

بدء التشكك : القرن السادس عشر :

وفي القرن السادس عشر استرعي نظر (كارل شتات) أن سفر
(التثنية) الذي هو السفر الأخير من (التوراة) يتحدث في نهايته (صح ٣٤ /

٥ - ١٢) عن وفاة موسي ، ودفنه . فقال : ليس من المعقول أن يكون موسي قد كتب بنفسه خبر وفاته ، ودفنه . ثم جاء نقاد آخرون بعده فأنكروا أبوة موسي علي الأقل لجزء من الأسفار الخمسة التي منها تتألف التوراة .

● القرن الثامن عشر :

ولكن الفضل الأكبر للكشف عن الاضطراب البالغ الذي في (التوراة) يرجع إلي (يوحنا أستروك) الفرنسي الذي كان طبيبا لأحد ملوك فرنسا ، فقد نشر عام ١٧٥٢ م دراسة بعنوان :

((تكهنات عن المذكرات الأصلية التي يبدو أن (موسي) قد أفاد منها في كتابة (سفر التكوين) .))

لقد كان الطبيب (استروك) شجاعا حين أعلن أن هناك نصين جنبا إلي جنب في (سفر التكوين) يحتوي كل منهما علي خاصية مختلفة في تسمية الرب ، فأحدهما يسميه (يهوذا) ، بينما الآخر يسميه (إيلوهيم) .

وقد أكمل بحثه في هذا المجال أيج هوم Eichhom (١٧٨٠ - ١٧٨٢) فكشف النقاب عن هذا الكشف بالنسبة للأسفار الأربعة الأخرى في التوراة .

ثم جاء إلجن Ilgen (١٧٩٨ م) ولحظ أن أحد النصين اللذين بحثهما استروك ، وكشف فيهما عن أن كلا منهما يطلق علي الإله اسما يغير الآخر ، - يهوذا وإيلوهيم - ينقسم هو أيضا إلي قسمين ؛ وبذلك تفتت تماما أسفار موسي الخمسة .

● القرن التاسع عشر :

فلما كان القرن التاسع عشر وجدنا نقد النصوص الدينية يصل إلي نتائج حاسمة ، ودقيقة نقول : إن التوراة قد اشترك في كتابتها أربع جماعات :

(١) إحداهما : وأقدمها تلك التي تسمى الآله (يهوفا) ويرجع تاريخها في أغلب الأحيان إلى القرن التاسع ق . م . وقد عاشت في مملكة يهوذا ، في جنوب فلسطين التي كانت عاصمتها (أورشليم) أي بيت المقدس أو القدس .

(٢) رثائيتها : تلك التي تطلق علي الإله اسم (إيلوهيم) وهي أحدث عهدا من السابقة ، وكانت بمملكة اسرائيل ، مملكة الشمال التي كانت عاصمتها شُمرُون .

(٣) صفو التثنية : وقد حرر في القرن الثامن أو السابع ق . م .

(٤) الجماعة الكهنوتية أو جماعة الأخبار : وهذه ظهرت في عصر النفي الي بابل ٥٨٦ ق . م أو بعده بقليل أي في القرن السادس ق . م .



من هذا نري أن تدوين (التوراة) استمر علي أقل تقدير ثلاثة قرون . وهي مدة غاية في الطول ، كما نري ، وتحتمل الزيادة والنقص ، والتغيير والتبديل الخ . كما تحتمل الاختلاف في الآراء ، وفي ذكر الأحداث ، والبعد عن الحقيقة والواقع ، ولا سيما إذا نظرنا إلي أن الفارق الزمني بين وقوع الأحداث منذ عصر نوح ، والطوفان ... حتي عصر التدوين فارق كبير جدا ، كانت فيه رواية الأحداث ، والوقائع ، والنواميس الشرعية وغيرها تتناقل فاهًا لفاه ، والنقل القموي له ما له من مضار وخيمة .

ويكفي تأييدا لهذا أن نتصور - ونحن في أواخر القرن العشرين - أننا نسجل في أواخر هذا القرن تاريخ بلادنا منذ أوائله دون أن يكون قد دون منه شيء ؛ ثم نجيء نحن اليوم لندونه من علي ألسنة الناس . فما بالك إذا كنا

نسجل اليوم تاريخ الاسلام في عصره الاول دون أن يكون قد دون منه إلا مقتطفات قليلة لا تسمن ولا تغني من جوع ؟

● القرن العشرون :

إن البحوث التي مرت بنا ، والتي انتهت إلى أن التوراة قد اشترك في تدوينها عدة جماعات ، واستغرق هذا التدوين مالا يقل عن ٣٠٠ عام - لم تتوقف عند حد . فقد جاء القرن العشرون ، والعقول متفتحة ، والأضواء الساطعة ملقاة علي نصوص التوراة ، والشك في صحة هذا السفر " المقدس " أخذ في التزايد ، والحمية الدينية الملتهية قد خمدت أو كادت ، والعقول العلمية قد أوصلتنا إلى الطواف حول الكرة الأرضية ، وإلى معرفة حقيقة القمر الذي يطوف حول الأرض الخ الخ - كل هذا ألقى علي عقول المفكرين حزما من الأشعة أضاعت لهم سبل التفكير . لم يعد الأحبار ، ولا الكنيسة حجر عثرة في سبيل البحث الحر الطليق في أمور الدين ، وفي مصادره ، وفي الكلام عن المشاركة الجماعية في تدوين أصوله . بذلك رأينا البحث تزداد عمقا ، كما تزداد تعقيدا . ففي عام ١٩٤١ م استطاع البرفيسور ادولف لودز Adolphe Lods الأستاذ بالسربون ، والذي تلمذت عليه ، أن يميز في الوثائق اليهودية ثلاثة مصادر ، وفي الوثيقة الأيلوهيمية أربعة ، وفي سفر التثنية ستة ، وفي النصوص الكهنوية تسعة . وهذا ، دون اعتبار " للأضافات الموزعة بين ثمانية مصنفين " - كما يقول الأب (ريثو) .

ولكن البحث لم يتوقف عن النمو ، إذ أنه وصل في النصف الثاني من هذا القرن (العشرين) إلى أن يبين أن " كثيرا من النواميس التي في أسفار (موسى) الخمسة كان لها ما يماثلها خارج (التوراة) ، وفي فترة تسبق بكثير التاريخ المنسوب إلى مصادر التوراة " ، وأن " عددا من أسفار موسى الخمسة يفترض وجود مصدر آخر أكثر قِدَمًا من ذلك الذي يفترض أن هذه الوثائق قد خرجت منه " فالمشكلة إذن غاية في التعقيد ، ولا ندري أين يكمن الحل . وسيأتي يوم تظهر فيه الحقيقة كاملة بعون الله ، بفضل علماء النقد الديني أنفسهم .

وحصدق الله العظيم حين قال :

" فَرِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتَبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ يَقْرَأُونَ : هَذَا مِنْ
هُنْدِ اللَّهِ ؛ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا ثَلَاثًا . فَرِيلَ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ،
وَرِيلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .

(سورة البقرة ٢ / ٧٩)

وقال :

" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ! قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا
كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ " .

(سورة المائدة ٥ / ١٥)

وقال :

" وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ
عَشَرَ نَقِيبًا ، وَقَالَ اللَّهُ : إِنِّي مَعَكُمْ : لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ ، وَآتَيْتُمُ
الزَّكَاةَ ، وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي - وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ، وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ . فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) .
فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ، وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً . يَحْرِفُونَ

الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا به ؛ ولا تزال تطلع علي خائنة منهم (١١٣) سورة المائدة (١٢/٥ - ١١٣)

③ ② ①

(ويحد) فان تعدد المصادر التي أشرنا إليها ، وطول المدة التي تنوالت فيها النصوص علي ألسنة الناس ، من بدو ، ومن حضر - كل هذا يجر إلي تناقضات ، وتكرارات عديدة في هذه النصوص ، الموسومة "بالمقدسة" . وقد أعلن كتاب الله الكريم عن كل هذا قبل أن يظهر النقد الديني للنصوص بعشرة قرون من الزمان ، وقال : " إن هذا القرآن يقص علي بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون " سورة النمل (٢٧ / ٧٦)

ويكفي لأثبات ما قاله الله عمليا أن نستعرض ما نون عن خلق العالم ، وعن ذرية (قابيل) ، وعن الطوفان ، وعن بيع (يوسف) ، وعما جري له بمصر ، وغير ذلك كثير - لنؤمن بما وصل إليه النقد الديني لنصوص (العهد القديم) ونضرب لبيان ذلك مثلا ، علي حين أن الجعبة ملاي بما أثبتته النقطة الحديث عن هذا (العهد " المقدس ") من أول حرف فيه إلي آخر حرف (١)

والله ولي التوفيق

قصة خلق العالم ، كما وردت في (التوراة) :

ذكرت هذه القصة التي لم يكن هناك داع لذكرها في سفر التكوين (الخليقة) اللهم إلا رغبة المصنف في أن يجعل من آدم أبا لهذا العالم عن طريق بني إسرائيل .

(١) انظر " أضواء علي الكتب المقدسة ، المحاضر ففيه عدد وفير من الأمثلة علي تعدد الروايات التي تقص الخبر الواحد أو الحدث الواحد أو الفعل الواحد بصور مختلفة ، قد تكون متناقضة " . وقد نشرته كلية الآداب عام ٩١ - ١٩٩٢ ونحن بصدد إعداد مؤلف جامع عن هذه القضية سيصدر فور إتمامه (إن شاء الله) للبرهنة علي صدق ما جاء بالقرآن الكريم .

● هناك روايتان عن هذا الامر ، الاولى منهما يرجع ما فيها من تصور إلي (الجماعة الايلوهيمية) أي التي تسمى الاله (إيلوهيم) ، والأخرى إلي اليهودية وهي التي تسمى الاله (يهوفا) . ولكن نلاحظ في هذه أن الاسمين يذكران جنبا إلي جنب ، مما يدل علي أن هناك يدا ثالثة ظهرت ، بعد أن وضعت الروايتان إحداهما بد الأخرى في القصة ، روضعت اسم إيلوديم بعد يهوفا حتي يظل أثر المدرسة الايلوهيمية مستمرا . ونعود إلي الوقائع المذكورة في كل من الروايتين فنقول :

في الرواية الايلوهيمية التي دونت الأصحاح الأول من سفر الخليفة ، والجمال الأربعة الأولى من الأصحاح الثاني أن إيلوهيم بدأ عمله بخلق الكائنات جميعا وبعد أن فعل ذلك صور الإنسان (آدم) . بينما تأتي الرواية الأخرى اليهودية ، وتذكر أن أول المخلوقات هو الإنسان ثم خلقت بقية الكائنات من بعده ؛ وعلت خلقه أولاً لكي يفلح الأرض ، فهي تقول : لم يكن هناك مطر ليروي الأرض ، ولا إنسان ليفلحها . ثم إنه لم يرد في الرواية الأولى ذكر لخلق المرأة ، بينما خلقت المرأة في الرواية الثانية من ضلع آدم بعد أن أتم يهوفا خلق العالم .

فهل هذا كلام موحى به . والله سبحانه وتعالى يقول للخلق جميعا :
" أفلا يتدبرون القرآن ؟ " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا "

س النساء (٨٢/٤)

وشكرا علي حسن استماعكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إبداع المتنبى
ظواهر فنية ونفسية فى نص من سيفياته

بقلم

الدكتور / صالح حسن الخطي
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

إبداع المتنبي ظواهر فنية ونفسية في نص من سيفياته

بقلم : الدكتور صالح حسن الخطي

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

لقد طُرف أبو الطيب بعد خروجه من السجن بين ممدوحيه من الأعيان والسراة ، وقبل اتصاله بسيف الدولة اتصل بأمر عربي آخر هو بدر بن عمار قائد الجيش في طبريا . وليس من شك في أن فروسيته وعرويته ، وليس جداه فقط ، كانتا مما جذب أبا الطيب إلى ساحته ، فمدحه خلال سنتين أو ثلاث بست قصائد ثم اضطر إلى منادرتة إذ سعى بينهما الواشون والكارهون . ولابد لنا من أن نرد شأن هؤلاء وحقدهم على أبي الطيب - في قدر كبير منه - إلى ما اتسم به الشاعر من صلف وشعور متعاضم بالنفس ، وبعد مرحلة أخرى من التنقل والترحال بين الممدوحين اتصل أبو الطيب بوالى أنطاكية من قبل سيف الدولة وهو أبو المشائر الحمداني ، ومن ثم تهيأت له فرصة عمره فاتصل بسيف الدولة على بن حمدان أمير حلب وفارسها العربي المناضل ضد الروم وحامي الثغور الإسلامية ، وكان إلى ذلك محبا للثقافة راعيا للعلماء والشعراء ، وقد اجتمع إلى بلاطه جلة من هؤلاء جميعا ، منهم الحالم اللغوي ابن خالويه معلم الأمير وأبو الفرج البنفاء وأبو عبد الله الخليلي والوأياء الدمشقي وأبو بكر وأبو عثمان الخالديان وأبو الطيب اللغوي والسري الرفاء وأبو علي الفارس والصنوبري والفارابي وأبو الفرج الأصفهاني فضلا عن أبي فراس الحمداني ابن عم الأمير وخنته وأبي الطيب المتنبي نفسه ، ويبدو أن المتنبي أحب سيف الدولة حبا صادقا إذ جسد لديه بعرويته وفروسيته واتساع أفق ثقافته صورة مثلى للحاكم ، ربما كان في دفعات طموحه إلى

التَّسَيِّدَ والحكم تواقاً إلي أن يكونها ، ولقد نال الشاعر بدوره من مودة سيف الدولة ورعايته وعطائه قدراً هائلاً متميزاً ، فإذا أضفنا إلى ذلك تعاليه المتعاضد وصلافة المعهود رأينا من الطبيعي أن يتراكم لدى الآخرين شعور تجاهه بالعداء والحقد والنفور ، ومن ثم يكون من ركدهم إفساد ما بينه وبين الأمير ، وربما ساعد علي ذلك ما لا نستبعد من جنوح المتنبي تحت رطاة طموحه العنيف للحكم . إلى تجاوز مكانته باعتباره شاعراً ، إلي أن يكون مسهما ولو بقدر هامشي في شئون الحكم ، فتغير عليه سيف وأسلم أذنيه وقلبه للطاعنين في أبي الطيب ومنهم أبو فراس ، وقد نقل صاحب الصبح المنبي عن ابن الدهان قوله " قال أبو فراس لسيف الدولة : إن هذا المتسمى كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه في كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره " (١) .

تغير إذن سيف الدولة علي شاعره الأثير بعد تسع سنوات هي أزهى سنى حياة المتنبي وأحفلها بمجد الفن والمال والشعر بتحقيق الذات جميعاً ، وأدرك أنه لا بقاء له في حلب ولا مفر من الرحيل ، وفي جمع حاشد ببلاط سيف الدولة على رأسه الأمير ويضم حاشيته ومنهم خصوم أبي الطيب والناقمون عليه ، أنشد ميميته الشهيرة التي هي وثيقة فنية بالغة الدلالة علي خصائص الشاعر النفسية والفنية .

استهل أبو الطيب قافيته استهلالاً بارقاً مستجيباً فيه لجوانبه ودوافعه الكامنة ، إنه يستغيث مما ينوء به من وجد أورثه نحول الجسد وتصدع النفس ، وإن هذا الحبيب المحبوب - سيف الدولة - لبعيد عنه غير عابئ بحبه المتوقد الذي يزيده الإخفاء والترفع عن المجاهرة أواراً وتلهباً فيغلو سكيناً

يقضى الجسد فرياً على حين قد أغرق مدعو حب الأمير في الإعلان عن
بطلهم والترويج لشؤونهم :

وأحر قلباه ممّن قلبه شبمٌ ومن بجسمي وحالي عنده سقمٌ
مالي أكتّم حباً قد برى جسدي وتدعى حبّ سيف الدولة الأمم (٢)

وأبو الطيب هنا ابن نفسه من غير شك ، فقد حول العلاقة بين الشاعر
المادح والأمير المدحوح إلى علاقة حب خالص يطرأ عليها الرّوصل والهجّر
ويترتب عليها نحول الجسد واعتلال النفس ، ويضنّ بها أحد طرفيها في
مرحلة من مراحلها على علانية البوح ، وهكذا انتهى المتنبي في الفن إلى
مساواة هامته بهامة أميره بعد أن اشترط عليه في الواقع ألا ينشده واقفاً
وأنه لا يقبل الأرض بين يديه مستثنى بذلك من أعراف سارية على شعراء بلاط
الأمير . إنها شخصية أبي الطيب المتأبّية المتعاطمة ، بل الجانحة إلى الصلف
المخزور في أحيان غير قليلة .

وقد استغاث المتنبي متولها في مطلع القصيدة وتوجع من تأبّي الحبيب
مما أورثه نحولا في الجسد وتفزعاً في الروح ، وبلغنا أنه عبّر عن النفس أو
الروح بكلمة ذات دلالة خاصة في سياقها وهي كلمة " الحال " وذلك كله غير
بعيد عن مجال التصوف ، بل إن الاستغاثات المتوجعة والتعبير عن معاناة
النفس بالحال ، أشبه ما يكون بحالة من حالات الوجد الصوفي التي يكابدها
العشاق المريدون قبل ماقد يوهب لهم من الكشف والفتح والنوال ، وقد أشار
الدكتور شوقي ضيف إلى ما نبه إليه المستشرق ماسينيون من اتصال
الشاعر بالمتصوف هارون بن علي الأدرجي الذي كان له شأن في قضية
الحلاج ، وقد مدحه المتنبي مما يوحى بأنه أخذ عنه مبادئ التصوف (٢) ،

وفي موضع آخر يرد علي ماسينيون منحاه في القول بقمرطية المتنبي وتشيمه وإن كان قد تأثر بهما في شعره ألوانا من التأثر ، ويذهب إلي أن أثر التصوف في شعره كان أوسع نيتزل : " وإن من يقرأ نى ديوانه ليجد هذا التصرف يستوعب حيزا واسعا من خراطرد وأفكاره ، واقرأ هذه الأبيات التى يقولها في بعض ممدوحيه :

ذا السراج المنيرُ ، هذا النقىُ الـ	جيب ، هذا بقية الأبدال
فخذ ماء رجله وأنضحاً فى الـ	مدن نأمن بوائق الزالزال
وأمسحاً ثوبه البقير على دا	نكما تُشفيًا من الأعلال

فإنك تحس بأنك إزاء شاعر صوفي يصوغ معانيه صياغة صوفية ، ليس يمدح صاحبه كما يمدح الصوفية أقطابهم فيجعله بقية الأبدال (٤) ويورد الدكتور شوقى ضيف غير قليل من شواهد روح التصوف في شعر أبي الطيب وخاصة حمزته التى مدح بها الأوراجى (٥) وهو متابع لمنحى الدكتور طه حسين فى هذا الخصوص وعلي الرغم من أننا - فضلا عن شواهد الدكتور ضيف - قد ألمحنا إلى بعض جو التصوف فى أول أبيات القصيدة وثانيها ، فإن الأمر عندنا لا يعنو أن يكون لدى المتنبي صنعة شاعر لا سلوك متصوف حقيقى ، ونحسب أن السيرة العملية لأبى الطيب وكفه العنيف بالجاه والمال والسلطان . ناهيك عن عجه المسرف بنفسه ، تباعد كلها بينه وبين سلوكيات التصوف لدى المتصفين به .

إن حالة الوجد الصوفي ومعاناة الجسد والروح والضن بذكر حب المحبوب ليست إذن إلا أجزاء من صنعة أبى الطيب وليست تصوفا فعليا ،

ونراه يراكم من عناصر تلك الصنعة بما يدل عليها أبلغ دلالة . إنه يحقق
التناسق بين امتداد صوت المستغيث في قوله : (وأحر) وبين القيمة
الصوتية لكلمة (قلبي) بأن يقلب الياء فيها ألفا ، فتصبح (قلباه) بعد أن
يتبع الألف هاء السكت محركا إياها فتخفي علي اندفاع الصوت في
(قلباه) صوتا متاوها يحكى التوجع والأنين ، ونراه يطابق بين كلمتي
(حر) و (شيم) ويقابل بين (وأحر قلباه) وبين (قلبه شيم) ، ثم يطابق
في عجز البيت بين (الجسم) (وال حال) ، ثم نراه في البيت الثاني يستنكر
من نفسه ما يلتزم به من الترفع بذلك الحب عن أن تلوكه الألسن باستخدام
أداة الاستفهام (ما) ، ثم يقابل بين ترفعه بهذا الحب الحقيقي عن
الانكشاف وبين ترخص خصومه بما يدعون باطلا من حب سيف الدولة ، ولا
يفوتنا أن نلاحظ كيف وضع أبو الطيب نفسه في كفة ، ووضع خصومه الذين
عبر عن كثرتهم الكثرة بكلمة (الأمم) في كفة أخرى ، وهو حين أثبت لنفسه
محانة الحب المكتم وعبر عن ذلك بالصورتين الاستعاريتين في قوله (أكتّم
حبا) و (قد برى جسد) ويتضعيف الفعل للمبالغة في (أكتّم) لم يثبت
لخصومه المتطاولين غير سوءات الترخص والادعاء في عجز البيت .

ولا يلبث في البيت الثالث أن يشارط علي خصومه شرط المشكك في
حبهم لسيف الدولة ، ويتمنى في جواب الشرط أن يكون نصيب كل من مودة
الأمير وعطفه وحبائه بقدر حبه إياه ، وإنه لو اثنى من أنه سيكون صاحب
النصيب الأوفى والأسنى ، بل يكاد سياق البيت أن يدل على أنه سيكون
الصاحب المتفرد بالأمير ، فليس الآخرون غير متخرصين بالهيب المدعى .

وما زال أبو الطيب يلح على قاموسه الخاص بتصوير العلاقة
بالأمير علاقة حب ، لا علاقة نفع عامة أو خاصة ، فيكرر كلمة

(الحب) مرتين ، ويعبر بالمجاز المرسل في (غرته) عن بهاء طلعة المحبوب
في عين المحب الوامق :

إن كان يجمعنا حبٌ لِفُرتِهِ فليت أنَّا بقدرِ الحبِّ نقتسِمُ (٦)

وفي البيتين التاليين يحدث أبو الطيب إلى مدح أميره بالخلق الرفيع
سلما وحربا أي في حالي حياته كلها :

قد زُرْتُهُ وسيوفُ الهندِ مُمَدَّةٌ وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دَمٌ
فكان أحسنَ خلقِ الله كُلِّهِمْ وكان أحسنَ ما في الأحسنِ الشيمُ (٧)

إن أبا الطيب للشاعر الذي استقوت أدواته وامتلكت ناصية فنه . وقدَرَ على
لغة شعرية مواتية ، فصور المعاني تصويرا دون أن يقررهما تقريرا ، فزياراته
التي هي في السياق النفسي زيارات ولقاءات بين متلازمين ، قد تحت سلما .
والصورة الكنائية هنا هي التي أدت ، لقد كانت السيوف القواطع في
أغمادها ، والزيارات المتكررة التي هي جسور الاتصال بين الأوداء سلما ، قد
كشفت نصف حقيقة الأمير ، وتكشف النصف الآخر حين تملأه الشاعر في
احتدام الوعي . لقد نظر إليه أنشد نظر المفتون بجبروته وشجاعته ، والصورة
التي أداها التشبيه البليغ في قوله (والسيوف دم) قد خلقت ببورها التصوير
التام لما كان يحوم على الساحة من أشباح الموت وقتامة القناء .

إن الأمير في دعة السلام ويلهنيته ، وفي حومة الحرب الضروس ،
لأعظم خلق الله قاطبة . إنه رجل سلام ورجل حرب لا نظير له ، وإن مناقبه
ودمائه خلقه لأحسن ما في هذا الحسن الشامل الذي انتظم حياته كلها ،

ولا يفوتنا أن نلاحظ الجنوح الظاهر إلى المبالغة في المدح ، إذ رفع المتنبي أميره في الفضل علي البشر كافة ومنهم المقدمون الأعلون من أنبياء الله ورسله ، اللهم إلا إذا كان القصد تقديمه على كافة من أحياء زمانه . وعلى أية حال فالمبالغة في الفخر بالنفس والإعلاء من شأن الممدوحين سمة لا يخطئها المتأمل في شعر أبي الطيب ، ولقد ذكر الشاعر اسم التفضيل (أحسن) ثلاث مرات وقرنه في المرة الثالثة (بال) التعريف محققاً بذلك تدرجاً محموداً في اندياح المعني إلى غايته عن طريق ما يمكن أن نسميه شغف المتنبي بالمبالغة والتصرف في صيغ الأداء بإيجاد تفضيل مطلق علي التفضيل الأساسي ، بحيث تصبح الشيم أحسن هذا الأحسن من كينونة سيف الدولة ، هذا فضلاً عن تكثيف ذلك النسق الموسيقي الداخلي المرغوب في بنية البيت الداخلية .

وفي ستة الأبيات التالية ينصرف لمدح سيف الدولة بأخص خصائصه ، فيؤكد فروسيته النادرة ، وكلفه الفائق بالبطولة بحيث ترقي عنده إلى درجة الجهاد ، يقول أبو الطيب :

فوت العدو الذي يَمَعته ظفرٌ	في طيه أسفٌ ، في طيه نَمٌ
قد نابَ عنكَ شديدُ الخوفِ واصطنعتُ	لك المهابةُ مالا تصنعُ البُهْمُ
ألزمتَ نفسك شيئاً ليس يلزمُها	أن لا يواربَهُم أرضٌ ولا علم
أكلما رُمّت جيشاً فانتشى هرباً	تصرفتُ بك في آثاره الهممُ
عليك هزمُهُم في كلِّ مُعْتَرَك	وما عليك بهم عارٌ إذا انهزموا
أما تري ظفراً طلواً سوى ظفر	تصافحت فيه بيضُ الهندِ واللَّممُ ^(٨)

لقد اتجه سيف الدولة بجنده كي يقاتل الروم أعداء الدين ، فانسحبوا دون ملاقاته جبنا وخرفا ، وذلك الانسحاب ظفر مؤكد للأمير ، غير أنه ظفر قد انطوى على ضدين هما الأسف والنعمة : أما الأسف فلأن الأمير لا يهدف إلي نصر نظري معنوي تحقق فعلا بانسحاب الخصوم ، وإنما يهدف أصلاً إلى التهام نعلٍ يدمرهم فيه تدميرا باحتبارهم أعداء الدين والخلاص منهم يشبع رغبته الحميمة هذه ، أما النعمة التي ينطوى عليها الظفر بانسحاب الخصوم ، فهي أن جيش المسلمين جُنِبَ القتال والمواجهة وما لابد أن يترتب على ذلك من خسائر مهما كان حجمها صغيرا فلا شك أن امتناعها خير من وقوعها ، ثم يعلل في البيت الثاني انسحاب الروم فيقول إنهم لم ينسحبوا دون مواجهة كما يدل الظاهر ، وإنما واجهوا في الحقيقة جيشا لجبا مرعبا فرسانه خوفهم البالغ من سيف الدولة وكتائبه الأسطورية التي يفوقُ صنيعها صنيعَ خوارقِ الفرسان . إن رعبهم من سيف الدولة ومهابته القصوي بنفوسهم جيش لا قبل لهم بمواجهته ، ومن ثم كان انسحابهم المبكر أمام ذلك الجيش المعنوي الأسطوري الخارق ، غير أن الأمير الذي اعتمد الجهاد والبطولة منهجا ، لا يرضى بذلك النصر المؤكد لأنه فوز لم يسفك فيه ، ونتيجة له دماهم ، ولأن الهمة شامخة والإرادة صلبة فعلى بن حمدان قد أوجب على نفسه ما لا يجب وألزمها ما لا يلزم . فرأى ضرورة أن يطاردهم غب انسحابهم ليفنيهم إفناء تاما فلا يبقى منهم بقية تحتوى بسهل أو تلوذ بجبل .

ويبدى أبو الطيب في البيت الرابع غاية مدحه وإعجابه بصنيع أميره ذي الهمة التي لا تُدرَك . إنه أبدا يطلب الأعداء ويسمى إليهم للتنكيل بهم . فإذا بهم يخشونه ويلونون هارين ، ولا يقنع الأمير مستجيبا لطبعه الغلاب وعزيمته المتدفقة إلا بأن يطاردهم إلى حيث فروا واحتموا فيلحق بهم غاية

الهزيمة والهلاك ، ويمعن المتنبي في البيتين الخامس والسادس في تكثيف الإيحاء بتجاوز الأمير كل حدود الشجاعة بتخطي الأعراف السائدة ، إنها تلزمه بأن يهزمهم إذا جسروا على مواجهته في ميدان القتال ، ولا عليه بهم إذا انسحبوا خائفين مهزومين . فالعار أنذ عارهم وليس عار سيف الدولة ، غير أن الأمير - وفقا للبيت السادس - لا يستمتع بفوز أو يلتذ بظفر مالم ينجزه في حومة الجلاء وساحة الصراع حيث تطيحُ سيوفُ جند الإسلام برؤوس خصومه وشانئيه من أجناد الروم .

واصطناع أبي الطيب لثقافة المتكلمين والمتفلسفة في عصره لا يخفي على المتأمل ، فيها هو في أول الأبيات الستة التي بين أيدينا يخبر عن الأمر بنقيض معناه . إنه يقول : " فوتُ العدو ظفرٌ " فالفوت الذي هو الفرار والهزيمة قد أخبر عنه بالظفر ، وهي مطابقة لفظية بيّنة ، ورغبة حميمة لدى الرجل لتجلية قدرته علي التصرف في المعاني ، ويديهي أن الفرار المهزوم صنيع الروم ، والفوز - من ثم - لسيف الدولة ، ولا يلبث الشاعر أن ينهج النهج نفسه في الجمع بين الأضداد حين يضم جناحي هذا الظفر علي الأسف والنعم في آن واحد ، وفي مطابقة لا تخفي . إن فوز المسلمين بانسحاب الروم قد انطوي علي أسف سيف الدولة التواق إلي تدميرهم . كما انطوي علي توقّي خسائر الجيش ، وهي نعمة لاشك فيها . أما نسق الموسيقى الداخلية في البيت ، فقد حققه توالي الكلمتين : (ظفرٌ ، أسفٌ) وقد دارتا على صيغة صرفية وموسيقية واحدة حققت رويًا داخليًا خاصًا ، ثم في ورود كلمة (نِعْمٌ) في قافية البيت على ثلاثة أحرف مثل سابقتيها ، وإن اختلفت في الإيقاع عنهما ذلك الاختلاف اليسير الجميل الذي يربطها بهما أكثر مما ينافرها عنهما ، ويحقق الإيقاع الداخلي - فضلًا عن ذلك - بذلك

التوالى الأسر للجار والمجرور والضمير المضاف إليه في قوله (في طيه) مرتين في عجز البيت الأول .

وفي البيت الثاني يُعَوَّلُ أبو الطيب علي تخليق المعني بالصورة الاستعارية مرتين حين يكون الخوف الشديد نائبا عن الأمير في محاربة الروم ، وحين تصنع مهايته فيهم ما يجاوز صنيع الفرسان الذين بلغوا الغاية في الشجاعة . هذا فضلا عن تلك المقابلة بين قوله : " اصطنعت لك المهابة " وبين " ما لا تصنع البهم " ولا يخفي علينا أن المقابلة والطباق بين يدي المتنبي لم يعودا بذينك النوعين الساذجين العفويين من فنون الصياغة لفظا وتركيبا ، وإنما هما نتاج ثقافة دقيقة وتأمل مُحَصَّص يقصد قصداً إلى إنجاز توشيات لامعة ومعايير خاصة في لغة الشاعر وصياغته وطرق أدائه ، وتلك المقابلة التي يقصد إليها العقل قصدا لا تلبث أن تطالعنا في صدر البيت الثالث حين يقول : ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ، كما أننا نرصد الطباق الدال علي الشمول بين كلمة (أرض) وقد أفادت في السياق دلالة السهل وكلمة (جبل) .

ونحن نطم كلف أبي العلاء المعري بأبي الطيب وتقديره العالي لفكره وشاعريته حتي ليخصه بمولفين هما : اللامع العزيمي ، ومعجز أحمد (٩) ، وتأسيسا علي ذلك نظن ظنا بأن أبا العلاء الذي ألزم نفسه في الحياة وفي الفن كليهما ما لا يلزمه ، ربما تأثر توجهه في ديوانه " لزوم ما لا يلزم " خاصة عنوان الديوان - بقول أبي الطيب في صدر هذا البيت (ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها) .

ويذهب الأستاذ البرقوقي رحمه الله إلى أن الاستفهام في صدر البيت الرابع إذ يقول المتنبي :

أَكَلَمَا رُمْتَ جَيْشاً فَأَنْتَنِي هَرَباً تَصَرَّفْتُ بِكَ فِي أَثَارِهِ الْهِمَمُ

هو استفهام للاستنكار (١٠) ، ونحسب أن ربط الاستفهام هنا بالسياق النفسي العام يصرفه بلاغياً للإكبار لا للاستنكار ، وذلك لأن أبا الطيب يسوق البيت ضمن الأبيات الستة لمُدح سيف الدولة بالندائية رباقصي درجات الشجاعة التي تتجاوز الأعراف ، ومن ثم نال البيت إذ يبالغ بإظهار تلك الشجاعة التي تلزم صاحبها ما لا يلزم إنما يتصد إلي غاية مدحه بإتيان ما لا قبل لغيره بإتيانه ، ويعمد أبو الطيب في عجز البيت إلى تكثيف وصف الأمير بشجاعة أولي العزم عن طريق الصورة الاستعارية التي شخّصت الهمم وجسدتها ، ونلمح في البيت الخامس نمطا من أنماط رد الأعجاز علي الصدور يكاد يبرأ من آفة التعمّل ، لأنه ينتصر باقتضاء المعني إياه وذلك في قول أبي الطيب :

عليك هَزْمُهُمْ فِي كُلِّ مُقْتَرَكٍ وما عليكَ بِهِمْ عَارٌ إِذَا انْهَزَمُوا

هذا فضلا عن أنه قد دل بالأولي علي هزيمة الميدان الفعلية . في حين دل بالثانية على الفرار جبنا عن المواجهة .

حتى إذا أدركنا البيت السادس رأينا المضمون مؤدّى بصورتين استعاريتين سلسيتين إذ صَوِّرَ استمتاع الأمير بالنصر الفعلي تصويراً حسياً باستخدام دلالة المذاق الحلو ، ثم أدّى دلالة النصر الواقعي النابع من تنكيل المسلمين بالروم بصورة أخرى تجيش بالنضال والموت إذ تداخلت سيوف جند الإسلام بهامات الخصوم تداخل أيدي المتصافحين ، وقد تُصَادِرُ هذه الصورة بتنافرها مع دلالة التصافح ، ولكننا لا نلَبِثُ أن نتذكر كم من الخصوم الألداء يتصافحون وقد طفحت منهم القلوب والنفوس بالشحناء والبغضاء ،

أما الاستفهام في صدر البيت فقد أدرك، دون لبس إلي تقرير مضمون البيت
وتثبيته في نفوس المتلقين .

وبعد إذ فرغ المتنبي من مدح سيف الدولة ، يلتفت إلى عتابه ، وهو
قصده الأساس من قصيدة الوداع هذه ، وإنه لعتابٌ مر تكاد تصل به مرارته
إلي عتبات الطعن ، وقد كسسته قدرات الصياغة غلالات عتابية شفافة تكاد
لا تخفى ما انسدت عليه ، يقول أبو الطيب :

يأعدلُ الناسِ إلا في معاملتي فيكَ الخِصامُ . وأنتَ الخِصمُ والحكمُ
أعْيِذُهَا نظراتُ منكَ صادقةٌ أن تحسبَ الشُّحْمَ فيمن شحْمُهُ ورمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظِرِهِ إذا استوتَ عندهُ الأنوارُ والظلمُ^(١١)

إن أبا الطيب قد انتهى بعد تسع سنوات من صحبة الأمير إلي أنه
أعدلُ البشر كافة في معاملة الناس كافة ، باستثنائه هو ، أي أن الأمير
يخصه وحده بالظلم ، وعلى غير طبيعته العادلة ، فهو إذن ظالم ومتحامل ،
يقصد إلي الظلم قصدا ، ويقسر عليه نفسه قسراً ، وإن الأمير ليعلم أن
شخصه محور الصراع بين أبي الطيب وشائنيه ني البلاط وما أكثرهم ، وما
أفدح كيدهم له وحقدهم عليه ، وكان يتعين عليه إن تراجع عن نصرته أن
يبقى فيصلاً عادلاً بينه وبينهم ، خير إنه - من أسف - قد أسلم إليهم قلبه
وأذنيه فأوغروا صدره علي أبي الطيب بوشاياتهم وأكاذيبهم ، وماؤوا مسامحه
بمهنول أشعارهم ، وصار الأمير في نهاية الأمر خصماً لأبي الطيب وحكما
بينه وبين نفسه ، وحكما بينه وبين ألدائه في البلاط . فقضية أبي الطيب إذن
قضية خاسرة وقد تحول حكمه وملأذه إلي صفوف الخصوم فصار
منهم ، وهو الذي لا معدي لأبي الطيب من أن يرضي بحكومته الظالمة ،

فليس ثمة من يحكم في الأمير .

ولا يخفى علينا أن العتاب - هنا - قد تجاوز تَخُومَه تماماً ليصير نوعاً من التعنيف الزاجر لسيف الدولة . بل صار نوعاً من تأكيد غاية الظلم القبيح والتحامل السفيف فيه ، ولامناص لنا من أن نري الشاعر في البيت الثاني يُنمَى ما بدأه في سابقه من تأنيب الأمير وتسفيهه والتعريض به ، واتهامه - كذلك - بلى ذوقه الفني للإعجاب بساقط شعر خصومه وسفسافه كما لري طبيعته العادلة السمحة كي يظلم أبا لاطيب . إن الأمير ذو نظرات لا بد أن تصيب إذا ما قصدت إلي اجتلاء الحقيقة في نفس البشر وفي قيمة الفن جميعاً ، إنه لا يمكن أن ينخدع في الشاعر ، فهو المجرب الخبير ، ولا يمكن أن يحسب غث الشعر سمينا ، فهو الشاعر الأديب المتذوق البصير ، ولئن كان أبو الطيب في ظاهر كلامه يربأ بالأمير عن هذا الخلط المعيب ، فواقع الحال ومن خلال جماع النص ، إنه تدني إليه بالفعل في البشر والفن كليهما ، فقد انحاز إلي خصوم الشاعر وهم عنده مدعو إخلاص ومتكفون حب ، وليسوا مخلصين محبين علي الحقيقة ، كما إنه ليستمع إلي أشعارهم ويستسيخها ويجيزها ويعتبر هؤلاء جميعاً في الحياة والفن ذوي قيمة وشأن ، وهم علي التحقيق ترهات وفقاعات ، لقد اعتبرهم أشياء وليسوا بأشياء ، وحسب ررهم شحماً وليس غير مرض تشوهم خبيث . إنهم متشاعرون مدعو إخلاص ، والمقنبي هو الشاعر المخلص والمحب صادق الحب ، ويتولد البيت الثالث من سابقه تولداً عضوياً لازماً . ذلك لأن من يصنع صنيع الأمير في هذا الخلط المعيب بين حقائق النفوس وحقائق الفنون يكون قد عطل قدرات حسه وروحه جميعاً عن التمييز بين الأضداد والتمييز بين المتناقضات ، وإن الذي يساوي بين أبي الطيب وخصومه - إنسانيا وفنيا - ليكون مساويا بين الأنوار

والظلمات علي غير مايقبله القياس السليم والمنطق المستقيم .

وهكذا نرى شخصية أبي الطيب - وقد تحدت معالمها تماما - واضحة غاية الوضوح في الأبيات ، حتي ليلغ شعوره بنفسه واعتداده بكبريائه وفنه أن يجمع في ثلاثة الأبيات السابقة بين تهجمه علي الأمير واتهامه بالأمث الصريح المتعمد عن الذبح القريب ، يجمع ذلك إلي النحر بشخصه ، والاعتداء بالبالغ بفنه ، ولئن كان خسرمة جديما دم العرم والظلمات ، فهو بطبيعة الحال الشحم والنيرات . إن الشعر بين أيدينا صورة مؤدية لحقيقة تلك النفس الطامحة القلقة المتجاوزة الساعية إلي التسيد والزعامة ، وإذا كان أبو الطيب قد اشترط أن ينشد مدائحه جالسا ، وألا يُقبل الأرض بين يدي حاكم ، ثم رفض بعد ذلك أن يقصد غير الملوك ومن في درجتهم . مترفعا حتي عن الوزراء ورجال الدولة الكبار ، فإنه يثبت في قصيدتنا هذه أنه الجسور إلي الحد الذي يهاجم فيه أميراً عربيا فارسا جهير الصيت في بلاطه ، وبين حاشيته ، وأن يقرن تهجمه عليه بفخر صارخ النبرات بنفسه كما رأينا وسنرى وشيكا .

وبالمثل فإن لغة الشاعر في الأبيات هي صورة فنه ، وكفاء خصائص عبقريته ، فهو لا يزال كلفا بالجمع بين المتناقضات في ساحة واحدة ، بل في مساحة ضيقة كي تتوتر الأذواق وتتنبه العقول لما يقول ، فلقد أثبت للأمير غاية العدل وغاية الظلم في صدر البيت الأول ، كما أثبت له الخصومة والحكومة في عجزه ، وحقق - وصولا إلي ذلك - مقابلة في الصدر وجناسا وطباقا في العجز بصيغة دقيقة تجبرنا على أن نتقبل ولانتأفف أو نرفض ، وفي البيت الثاني يطابق بين الشحم والورم فضلا عن كون الأول استعارة تصريحية عن الأصالة والثاني ضريب ذلك عن التحمل والادعاء الخبيث ، وفي

صدر البيت الثالث يرد الاستفهام لنفي الانتفاع بالحواس والأحاسيس عن يساوي بين المتناقضات ، ولا يلبث أن يطابق في العجز بين الأنوار والظلم فضلا عن أنهما استعارتان تصرّحيتان أولاهما عن الشاعر والثانية عن خصومه ، ولانخطيء تشبيه التمثيل في مؤدي العجز ، فتوجهُ أبي الطيب إلى القول بأن الفرق بينه وبين شائئيه ظاهرٌ بينَ كالفرق بين الأنوار والظلمات .

ثم يخلصُ الشاعرُ في البيتين التاليين إلى أقصى درجات الفخر بفنّه حتي ليكاد زعيقه فيهما يكون غرورا قبيحا رائعا لا نملك أنفسنا - بمعايير الفن - إلا أن نعجب به الإعجاب كله ، خاصة أنه تعبيرٌ عن نفس صاحبه مخلصٌ وحميمٌ ليس فيه نأمة واحدة من تكلف أو ادماع ، بل إنه للصدقُ الفنى والإنساني بأجلي صورهما ، فهكذا خلق المتنبي ، وهكذا عاش ، بل بسبب هذا الاعتداد البالغ بقيمته وفنّه قد قتل ... يقول أبو الطيب :

أنا الذى نظَرَ الأعمى إلى أدبى وأسمعتُ كلماتي من به صممُ
أنا مُملءٌ جفونى عن شواردها ويسهرُ الخلقُ جرأها ويختصمُ (١٢)

إن المتنبي يقرر في أول البيتين أن عطاءه الفنى قد تجاوز حدود الإنجاز وأدرك تخوم الإعجاز ، فمطلوم ألا يري الأعمى أدبا ، وألا يسمع الأصمُّ شعرا إلا أن يكون ذلك محمولا علي المعجزات والخوارق ، وليس هذا التصوُّر والتصوير بمستغرب من رجل لا نستطيع أن ندينه أو نبرئه من تهمة التنبؤ ومحاكاة القرآن ، بل إنه لمن التوافق الغريب أن أبا العلاء الذى كلف بشاعرنا أشد الكلف ، وكان إذا أنشد هذا البيت قال : " أنا الأعمى " من التوافق الغريب أنه اتهم بدوره بمحاولة محاكاة القرآن الكريم في كتابه

الفصول والغايات ، وكأنه كان يسعى هو الآخر إلي تحقيق معجزة كلامية من إبداعه ، فضلا عن أنه - كما ألمعنا سابقا - قد سُمي أحد كتابيه عن الشاعر باسم ذي دلالة خاصة في هذا المجال هو "معجز أحمد" ، إن إبداع المتنبي - وقد رقى لدي صاحبه إلي حد المجزات - ليشرّد في الأفاق ، وتلجّج به اللسان والقلوب ، وهو لا يكلف مبدعه من أمره عسرا ، ولا يركب وصولا لإبداعه مركبا صعبا ، بل إنه ليبدعه متي شاء وكيفما شاء ، وهل تجد الزهرة عناء في بث العبير أو النحلة معاناة في الإتيان بالآري ؟ إنها إذن الموهبة الخلاقة والطبيعة الدفّاقة التي تبدع دون جهد أو إجهاد ، وليس كذلك خصومه من أدياء الشعر محدودي الموهبة أو معدوميها ، إنهم يجدون العنت كله ، ويتجشّمون غاية العناء في الصف والنظم والتلفيق ، وذلك ديدنهم لافتقادهم خصوصية الموهبة وتمكّنهم ما ليس فيهم . إن النظم تحوّل لدي هؤلاء إلي معركة عنيفة يخوضونها ضد الأفكار والكلمات والصياغة كي يقسروها ويرغموها علي المطاوعة وأنى لهم إلي ذلك من سبيل .

وها هو ذا المتنبي المتشامخ بفنه إلي ذرأ لا تُدرّك ، والشاعر بذاته قبل الفن وفوق العالم ، يبدأ بيت رفع راية عبقريته "بالأنا" فهو أولا ، والفن الرفيع يأتي من خلاله ، يضع الضمير الزاعق الضخم "أنا" يتبعه الاسم الموصول ليخبر عن عبقريته به وبجملة الصلة ، فالفن الممجز إذن ، به ، ومن خلاله ، ويكتف منحاها في عجز البيت بأن يعطف على جملة الصلة : "نظر الأعمى إلي أدبى" وأسّمت كلماتي من به صم "والأنا فضلا عن ذلك موجودة في ياء المتكلم في قوله : أدبى ، وكلماتي ، وجفوني في البيت التالي ، وهو لا يزال آخذا بمنهج الجمع بين المتناقضات إعمالا لملكة العقل . ورغبة في الإبهار وإظهار الاقتدار ، فالأعمى يري في صدر البيت والأصم يسمع

فى عجزه ، والطباق اللفظي وارد بعد التماع الفكر وحفز الانتباه ، وفى البيت
 التالى لا يزال يؤكد على عظمتة الفنية من خلال نفسه كذلك ، فجملة " أنام "
 خبرٌ عن مبتدأ محذوف تقديره " أنا " إن الأنا عند أبى الطيب محور العالم
 من غير شك ، وهو إذ يكتني عن تمكنه الفني المطلق بالنوم الحميق إذ هو
 مطمئن إلى قدرة العبقرى في اجتلاء روائع الشعر ، يكتني في عجز البيت عن
 إقفار شأنه من خصوصية الموهبة بأرقهم وصراهم ضد المعانى لاقتناص
 الصياغات والأفكار ، واللافت أن أبا الطيب وقد وضع " الأنا " في صدر
 البيت قابلها في العجز بالخلق طراً ، ومعلوم أن القصد يتجه إلى خصومه من
 الشعراء . غير أننا لا نستطيع أن نفرض الطرف هنا عن دلالات الصياغة لدى
 شاعر يعنى مايقول تماماً ، ويقصد إليه قصداً ، هو شاعرنا أبو الطيب
 المتنبي ، إنه إذن فى كفة والخلق بأجمعهم إزاءه فى كفة أخرى ، وهو بتوحد
 وسموّه وعبقريته لا يعاني ، وهم أجمعهم يعانون ويختصمون ، وهو لا يزال
 يجمع بين المتناقضات ، فيطابق بين أنام وأسهر ، ويقابل بين مؤدى يُسرّ
 الخلق لديه في الصدر ، وعُسْره لدى خصومه في العجز .

وفى سبعة الأبيات التالية يلتفت أبو الطيب الفارس إلى فروسيته كى
 يفخر بها بعد أن فرغ من غاية الفخر بالفن .

ومن حق المتنبي - عندنا وعند غيرنا - أن يفخر بفروسيته وإقدامه ،
 فأغلب الآراء تصفه بغاية الشجاعة والإعتداد بالنفس بما قد يجاوز الاعتدال
 المحمود إلى خُرْقِ الغرور المذموم ، فقد أورد البديعي أن سيف الدولة قد
 عهد به إلى المدرب فلعنوه الفروسية وفنون القتال ، وأنه كان يصحب الأمير
 في بعض غزواته ويظهر فيها ضروبا من الثبات ورباطة الجأش ، وقد حدث
 في إحدى الغزوات أن انسحب الجيش ولم يصمد للقتال سوى الأمير

وستة رجال أحدهم أبو الطيب (١٣) .

وقد بلغ اعتداده بشجاعته حد الغرور الأخرق الذي أورده مورد الهلاك على يد فاتهك الأسدي ورجاله ، فقد أورد البديعي ما ذكره الخالديان عن أبي نصر الجبلى خاصا بملايسات مصرعه . قال الجبلى : إنه قابل أبا الطيب وتحدث إليه محذراً من فاتهك الأسدي ورجاله ونصحه بأن يصحب معه من يقوم بحراسته ، فأجابه المتنبي " والله لا أرضي أن يتحدث الناس أنى سرت في خفارة أحد غير سيفي . معاذ الله أن أشغل فكركم بهم لحظة عين " (١٤) ثم أصر علي رآيه ، وسافر مع ولده وبعض غلمانه فكان مصرعه على يد فاتهك ورجاله . من حق المتنبي - إنن - أن يفخر بشجاعته ، فهو يحكى الحقيقة ولا يتشدد بالادعاء . إنه الصدق متشحا بلغة الفن وطرق الأداء فيه ... يقول أبو الطيب :

وجاهل مدّة في جهله ضحكى	حتى أتته يد قراسة وفم
إذا نظرت ثيوب الليث بارزة	فلا تظن أن الليث مبسم
ومهجة مهجتي من هم صاحبها	أدركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد	وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الجحفلين به	حتى ضربت ، وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى	والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش مفرداً	حتى تعجب من القور والكم (١٥)

ويقفنا المتنبي في أول الأبيات علي أن خصومه ليسوا في ساحة الوغي فحسب . بل إنهم كثر في الحياة كذلك ، وواحدهم ونموذجهم يتمادي في

خُرْقِهِ وَحُمَقَهُ مَسْوُوقًا بِمَا لَمْ يَعْ مِنْ ابْتِسَامَاتِ سُخْرِ أَبِي الطَّيِّبِ بِهِ ، وَمَخْدُوعًا -
 لِسَفْهِهِ - بِظَاهِرِ التَّبَسُّمِ عَنْ بَاطِنِ التَّحَفُّزِ وَالتَّرَيُّصِ ، وَلَا يَتَنَبَّهُ لَتَدْنِيهِ فِي
 التَّطَاوُلِ الْمَرْنُولِ إِلَّا وَقَدْ نَكَبَهُ أَبُو الطَّيِّبِ وَأَوْقَعَ بِهِ غَايَةَ الْعِقَابِ ، وَلَا يَلْبِثُ فِي
 ثَانِي الْأَبْيَاتِ أَنْ يَخَاطَبَ كُلَّ مَأْفُونٍ مِنْ خُصُومِهِ مَخَاطَبَةَ الْأَسْتَازِ الْحَكِيمِ مِنْ
 هُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى فَضْلِ التَّحْلِيمِ وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّبَصُّرِ بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ ، فَيَنْبَهُهُمْ إِلَى
 خَلْطِهِمْ حِينَ حَسَبُوا نِيُوبَ الْأَسَدِ وَقَدْ بَرَزَتْ قَرِينَةُ ابْتِسَامِ ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ
 دَلِيلُ غَضَبٍ وَنَذِيرُ انْقِضَاضٍ ، وَجَلَى هُنَا أَنَّ الْمُتَنَبِّئَ هُوَ الْأَسَدُ ، وَأَنَّ بَصْرَةَ
 وَيَصِيرَتَهُ إِذْ يُنْشَدُ ذِيكَ الْبَيْتَيْنِ كَانَا عَلَى كُلِّ خَصَمٍ مِنْ خُصُومِهِ الْمُحْتَشِدِينَ
 لِسَمَاعِهِ وَتَحْدِيهِ فِي بِلَاطِ الْأَمِيرِ ، وَأَنَّهُ لَيُدْرِكُ أَنَّهُ الشَّجِيُّ فِي حُلُوقِ شَانَتِيهِ ،
 وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَهْدِفُونَ أَقْلَ مِنْ حَيَاتِهِ يَدْمُرُونَهَا وَيَنْقُضُونَ أَيْدِيَهُمْ مِنْهُ ، وَإِنَّ إِذْ
 يَدْرِكُ ذَلِكَ تَمَامًا لَيَتَجَهَّزُ وَيَتَحَفَّزُ وَيَنْطَلِقُ سَابِقًا بِالمَوْتِ إِلَيْهِمْ عَلَى ظَهْرِ جَوَادِ
 بَرَقَى السَّرْعَةِ ، لَا يَنَالُ فَارِسُهُ أَبُو الطَّيِّبِ الَّذِي قَدَّرَ عَلَيْهِ وَامْتِطَاهُ ، إِنَّهُ جَوَادُ
 دُرْبَةٍ أَصِيلٍ ، تَجَاوَزَتْ بِهِ مَهَارَتَهُ النَّمَطَ الْمُعْتَادَ مِنَ الْجَرِيِّ ، فَادْرَكَ فَنَ النِّقَالِ
 وَالمُنَاقِلَةِ ، وَاخْتَصَرَ أَرْبَعَةَ أَعْضَاءِ جَرِيهِ إِلَى عَضْوِينَ فَصَارَتْ الرِّجْلَانِ رَجُلًا
 وَالْيَدَانِ يَدًا ، وَهُوَ - إِلَى ذَلِكَ - دَارِبٌ بِمَا يُنْجِزُهُ بِهِ النَّصْرُ مِنْ مَهَارَاتٍ حَتَّى
 لَيَنْدَفِعَ وَيَتَوَقَّفُ وَيَنْحَرِفُ وَفَقًا لِمُقْتَضَى الْمَحْرَكَةِ ، وَبِمَا يُغْنِي أَبَا الطَّيِّبِ عَنْ
 تَوْجِيهِهِ بِكَفِيهِ وَقَدَمِيهِ ، وَمَلَاكِ فَرُوسِيَةِ الْفَارِسِ بِالْفَرَسِ وَالسَّيْفِ ، يَتَصَرَّفُ
 فِيهِمَا قَلْبٌ رَاسِخٌ وَإِرَادَةٌ حَدِيدٌ ، وَهَامُوا أَبُو الطَّيِّبِ قَدْ امْتَلَكَ الْقَلْبَ وَالْإِرَادَةَ
 وَامْتَطَى الْفَرَسَ وَاسْتَلَّ مِهْنَدَهُ حَادَّ الشَّفْرَتَيْنِ قَاطِعَهُمَا ، فَاخْتَرَقَ بِهِ الْجَيْشَيْنِ
 الْهَائِلَيْنِ نُونِ أَدْنَى تَرْدَدٍ أَوْ وَجَلٍ ، وَخَاضَ عِبَابَ الْمَوْتِ ، وَرَكِبَ مَوْجَةَ الْمُتَلَاطِمِ
 إِلَى أَنْ أَدْرَكَ خُصْمَهُ فَأَرْدَاهُ إِرْدَاءً ، وَلَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَطَاوِلَ النُّجُومَ بِفَخْرِهِ
 هَادِرًا بِبَيْتِهِ الْمَشْهُورِ كِي يُكْرَسَ تَسِيدُهُ الْمَطْلُوقُ لِلْفَرُوسِيَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالنِّزَالِ

والرمح واجتناء الثقافات والبحر برواء الإبداع ، إنه رب الخيل والليل والبيداء
وسيد السيف والثقافة والإبداع الشعري جميعا ، وإنه ليُنمى في البيت
السادس قيمة كبرى في باب الشجاعة واقتحام المخاوف والانفراد بالموت
والوحش في المفازات . إن الصداقة الثابتة بينه وبين ليل الصحراء في البيت
الخامس لتتكَفُّفُ في سادس الأبيات بحجيب صنعه في الانفراد والتوحد
بوحوش الصحراء وكواسرها حتى ليصاعد التعجب المتسائل لهذا الصنيع .

ولفتنا أن أبا الطيب لم يقسم النصَّ قسمة عادلة بينه وبين أميره ، بل
لا عجب أن نراه قد تحيَّفه ، فمدح خلقه وفروسيته في ثمانية أبيات (١٦)
بينما افتخر بنفسه - دهاء وفروسية وثقافة وشاعرية - في تسعة أبيات (١٧)
والأصل أن يتجه جُلُّ النص إلى الأمير ، فإن كان للشاعر أن يذكر نفسه
فدائرا في فلكه ، لا متعاليا عليه أو متجاوزا إياه ، ولكنه أبو الطيب نو النفس
التميزة والحوافز المتأججة والطموحات التي لم يحدها سوى الموت ، وإنه
ليفخرُ هذا الفخر الصارخ المتجاوز في حضرة أمير جهير الشخصية والصيت
وفي مواجهة خصوم شائنين متحفزين يعلم يقينا أنهم ليسعدن إلي حتفه
ماوسعهم إلي ذلك الجهد .

وإذا ما التفتنا إلي لغة الأداء في الأبيات الستة رأينا أبا الطيب يتدني
بقدر أي من شأنه ، فيدُلُّ عليهم أحادَ بتكير كلمة (جاهل) ولا تلبث
(الأنا) أن تظهر مرة ثانية في ياء المتكلم إذ يقول : " مدّه في جهله ضحكي
" ثم يورد المجاز المرسل الدال على غاية الفتك والفرس بكلمتي (يد : وفم)
وجلي أن التتكير هنا للتعظيم الذي أكدّه قبلا إذ وصف اليد بأنها (فراسة) ،
ويمكن أن نرى في كلمة (فراسة) تورية تُعرّضُ بأبي فراس الحمداني ، وقد
رأينا قبلا كيف كان يلوم ابن عمه سيف الدولة لإفراطه فيما يخص به

أبا الطيب ، فضلاً عن تردد القول بما كان بين الرجلين : أبا الطيب وأبي فراس من صراع حول خولة أخت سيف الدولة ، ويأخذ الأستاذ محمود شاكر بهذا التصور ، إذ يذهب إلى أن المتنبي قد أحب الأميرة ، وأن سيف الدولة وعده سرّاً بها وكان علماً أبي فراس بالأمر سبباً رئيساً فيما احتدم بين الرجلين من مجابهة وخصام (١٨) وفي البيت التالي يعول على التعبير عن نفسه باستعارة تصريحية تابعة مباشرة من إحساسه المفرط بنفسه ، فهو بالقطع الليث الذي برزت أنيابه ، وهو تصوير يتسق تماماً والتعبير بأدوات القوة في البيت السابق ، والبيت في مجموعته حكمة يتكىء عليها أبو الطيب في التعريض بسفه أولئك الذين يسيئون تقدير الأمور ولا يقدرون عواقبها أو يأخذونها بظاهرها لا بجوهرها . إنهم أولئك الذين تهادوا في التحرش به مخدوعين باستهزائه الضاحك بهم ، إلي أن انقض عليهم وأودي بهم . وفي البيت الثالث يُكنّى عن أنه الهمُّ الشاغل لخصومه ، وأن وكدهم اقتناص حياته ، ويستخدم التكرير في (مهجة) لتحقيق أي من خصومه الثّر ، فالكلمة بتنكيرها قد دلت على تحقير الكيف وتكثير الكم ، رولاه بالعزف على تجانسات الألفاظ والحروف يتجلى في أن يتبع (مهجة) بـ (مهجتي) التي تضاف إليها (الأنا) ممثلة في ياء المتكلم وتبرز (الأنا) كذلك في (أدركتها) ممثلة في تاء الفاعل المتكلم كذلك ، ولا يخفي علينا دلالة جملة (أدركتها) بعد قوله : " ومهجة مهجتي من همّ صاحبها " إنها الدلالة على غاية شجاعة الرجل وتعويله على أن يبادر خصومه قبل أن يبادروه اعتقاداً منه بمزية الهجوم على الدفاع ، فهو كي يدركهم لابد من أن يطاردهم ، وتتكير " جواد " في عجز البيت دل على مدحه والإعلاء من شأنه ، ثم كنّى بالجملة الاسمية (ظهره حرّم) وما فيها من بليغ التشبيه على غاية السرعة

لذلك الفرس الأصيل ، إذ يستحيل على خصوم راكبه أن يدركوه فيصيبوا من تحرّم بامتطائه ، وفي صدر البيت الرابع أورد تشبيهين بليفين علي امتلاك الجواد فنّ المناقلة في عذوه ، فهو ليس من أفراد الخيول التي تصطنع فنون الجري المعتاد ، لقد صارت الرّجّان رجلاً وكذلك اليدان يداً إذ أخذ في ركضه الهادر المندفع ، وقد ضمّن التصوير الاستعاري في عجز البيت كناية دالة علي غاية خبرة الجواد ، فهو لا يحتاج إلي توجيه اليد والقدم ليسلك وفقاً لمقتضيات الكرّ والفرّ ، إذ هو غني بخبرته الفائقة وحساسيته وحسن دربته عن ذلك كله ، وفي البيت الخامس يُعظّم سيفه بتكبير (مرهف) ويكنى عن غاية الشجاعة بأن اقتحم الجيشين اللّجّين المتصارعين شامرا ذلك المرهف إلى أن أدرك مبتغاه قطعاً وقتل ، وتتجسد الأنا مرتين محمولة على تاء الفاعل في قوله : (سرتُ) و (ضربتُ) ، ولا قيمة لصنيعه هذا إلا في معركة رهيبة يتفاقم فيها الهول ويصنّعد الموت ، وقد أدت الاستعارة والترشيح لها في عجز البيت ذلك الهول أدباً بليفاً ، وبلغت في البيت الخامس بروزاً أُل التعريف في كل من الخيل والليل والبيداء والسيف والرمح والقرطاس والقلم ، وإنها لجديرة بأن تُكَبّر وتُعظّم لأن كلا منها معراج يعرج المتنبي به وعليه إلي وجه من وجوه عظمته ومجده ، وهو إذ شخّصها ونسب إليها معرفة وثيقة به نراه قد أدبى بأبلغ طرق الأداء وأكثرها تكثيفاً ما يصور قدراً فروسيته لتبريزه في امتطاء خيل الحرب وقيادتها ، وقدّر ثبات جنانه وقوة جأشه لاقتحامه الليل متوحداً غير هيّاب ، وقدّر جلّده وصبره على المعاناة باقتحامه المفازات ، وقدّر مهارته في الطعان لخبرته التامة باستخدام آلاته ، وقدّر ثقافته واتساع آفاق علمه لدراسته ماسوّدت به بطونُ القراطيس ، وقدّر شاعريته المتوهجة وقد امتلك القلم رمز ذلك وأداته ، وتبرز الأنا - كذلك - محمولة علي ياء المتكلم

في قوله (تعرفنى) وفي البيت السادس يكتف قيمة الشجاعة وقوة القلب ،
وانها لَمُنْقَبَةٌ محمودَةٌ لأبى الطيب الشاعر الفارس المشهور المغرور المحسّد
كثير الأعداء ، إنه يكتفي عن ذلك الجأش الثابت بانفراده بمصاحبة الكواسر
في قلب المهامه ؛ وهو بذلك قدّير على خوفين لا خوف واحد : خوف مواجهة
الصحراء ، وخي رمزٌ للمعاناة والتيه واحتمالات الفناء ، وخوف مباشرة
الوحوش ، وهى لدى البشر كافة أسباب أكيدة ورهيبة للموت ، وتصور
الاستعارة في عجز البيت قدر التَّميُّز والبطولة في صنيعة هذا . إذ تدهش
الأغوار والأكام من فعله الخارق غير المألوف ، والجمع بين الأضداد ماثل في
(الغور والأكم) كما أن الأنا لَتَبَرُّزُ مرتين : أولاهما فى تاء الفاعل إذ يقول :
(صَحِبْتُ) والثانية في ياء المتكلم في قوله (مَنَى) . وما يعتَمُّ أبو الطيب في
سبعة الأبيات التالية أن يلتفت مرة أخرى لأميره ، لا ليمدحه ، بل ليعاتبه عتاباً
يحرص في بعضه على ألا تنقطع بينهما شجرة معاوية ، ويبلغ في بعض آخر
منه حد التحنيف السافر والتأنيب الصريح ، وليس بوسع أبي الطيب إلا أن
يعيش ذاته وأناه فى الأبيات ، فيفخر بنفسه فخراً يدرك به الثريا فى هام
السماء . يقول أبو الطيب :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ تُفَارِقَهُمْ	وَجِدَانُنَا كُلُّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ
مَا كَانَ أَخْلَقْنَا مِنْكُمْ بِتَكْرُمَةٍ	لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمٌ
إِنْ كَانَ سِرُّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا	فَمَا لَجَرَحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمٌ
وَبَيْنَنَا - لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ - مَعْرِفَةٌ	إِنْ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ نِمَمٌ
كَمْ تَطْلِبُونَ لَنَا عَيْنًا ، فَيُعْجِزُكُمْ	وَيَكْرِهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ عَنْ شَرْفِي	أَنَا الثَّرِيَا ، وَذَاكَ الشَّيْبُ وَالْهَرَمُ
لَيْتَ الْغَمَامَ الَّذِي عِنْدِي صَوَاعِقُهُ	يُزِيلُهُنَّ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ الدَّيْمُ (١٩)

ولا خلاف عندنا أو عند غيرنا في أن أبا الطيب أحب الأمير ، ولا خلاف
كذلك علي أن سنوات أبي الطيب التسع في بلاط الأمير كانت هي أزمي أيام
عمر الشاعر وأحفلها بالمجد والشعر بالقيمة ، نضلا عما أُلحنا إليه أننا من
تلك العلاقة العاطفية المحتملة بين الشاعر وخولة بنت حمدان شقيقة الأمير ،
ولذلك فالبوح بالأسى ، والحرص علي ألا تنقطع شعرة معاوية بينه وبين آل
حمدان ، يسر بلان البيت الأول بخلاصة من الشفافية الدامعة التي ندر جداً أن
ندت من أبي الطيب الصلف المتعجرف ، ولا يبعد أنه وقد تيقن من أنه فقد
بالفعل فردوسه الأرضي في حلب ، كان يُرجى العودة بعد حين يدور فيه
الزمن دورته ، وتسكن النفوس وتهل العواصف والعواطف ، فالبيت إذن جسرٌ
ورديٌّ من المودة يمدّه الشاعر بينه وبين الأمير مدفوعاً بعواطفه الصادقة
وأشواقه العائدة إلي الأوداء قبل أن يغادرهم . يقول أبو الطيب : إنها لَمِحْنَةٌ
تجتاحه إذ يُضطرُّ إلى مغادرة الأحباب ، وإنهم إذ هم نوا الفضل والوداد
والعواطف ليتلاشي إلى جوارهم كيانُ الآخرين ممَّن اتصل الشاعر بهم أو
صيتصل ، ويستمرُّ أبو الطيب معاتباً عتاباً ودوداً في البيتين التاليين ،
فيهمس للأمير بأنه أحقُّ الناس بكرمه وحبّه لولا سوء رأيه الطارئ فيه وتغيُّره
عليه بفعل وشايات الشائنين وتحريضهم ، وتصاعد المحنة إذ صار للأمير في
شاعره تقييمٌ مهْدِرٌ ورأى سيئاً متشككٌ ، علي حين بقي أبو الطيب - وفقاً
للنص - علي ولاته المعهود وتقديره العالي للأمير ، وهاهو البيت الثالث جسرٌ
حبٌّ آخر ، ونفحةٌ عطرٍ يَضْمُخُ بها أبو الطيب ما بينه وبين الأمير علّها تأسو
الجراح وتهدهد النفوس ، إن الأمير قد استمع للوشاة واستطاب تجريحهم
أبا الطيب بالكذب ، وتطاوَلهم عليه بالادّعاء ، وتلك سلوكيات تنهش القلب
والعصب من الشاعر ، إلا أنه ليتحاملُ علي نفسه ويتجاوز آلامه مرضاة

لأميره الذي يستمع لشانتيه ويتلذذ بعذابه ، ويبسوا أن أبا الطيب قد استنكف من نفسه أن يتطامن إلى هذا القدر وأن يوغل في الانحناء وترقيق المشاعر إلى هذا الحد مرضاة للأمير ، ومن ثم لا يلبث في البيت التالي أن يوازن صنيعة ، وأن يعود إليه عصبه الحنيف الثائر ، وطبيعته المتأبئة الصلبة ، فيقول للأمير إنه إذ استمع إلي الرشاة المحرضين فجفاه وتنكر له ماديا ومعنويا . إنما يكون بذلك قد أهدر حقرتا حقها أن تُراعى وأن تُصان ، إنها حقوق لا علاقة للحب الذي تجافى عنه الأمير بها ، فمن مقتضيات الثقافة والأدب والمعرف المشتركة بين الشاعر وأميره أن يصون المنتمون إليها بعضهم بعضا . لأن صلات العقول والأنواق عهود ومواثيق بين المثقفين يجب أن تُراعى ، والأمير - فيما تقول الجملة الاعتراضية - لو رعيتُم ذاك - قد أهدر - من أسف - تلك الحقوق ، بعد أن تنكر لحاطفة الصداقة بينه وبين شاعره ، فالصداقة أولا ثم صيانة العلماء بعضهم بعضا قد أهدرتا ، بل إن الأمير - فيما يقول البيت الخامس - ليتجاوز ذلك إلى سلوكيات معيبة بمعايير الدين والأخلاق جميعا ، إنه أساء معاملة شاعره دون علة يتكئ إليها ، ولم يكن أمامه - تبريرا لسلوكه المعيب غير المفهوم - إلا أن يحاول مداراته بسلوك أكثر إيغالا في المعيب ، فأخذ يتمحل الأسباب ويتلمس بالتوهم الأخطاء ، ويخلق المعايير اختلاقا في سلوك أبي الطيب وأخلاقه . غير أنه عجز عن شيء من هذا كله ، ولم يبق إلا أنه سلوك تبسيع لا يجوز لأمير في حجم سيف الدولة أن يتورط فيه ، والمتنبى هنا - فيما نرى - قد جاز العتاب الحنيف إلي الطعن الصريح والتعنيف ، وكأنه قد أبى من نفسه تلك الرقة التي أشرنا إليها أنفا ، وقصد - مدفوعا بعصبه الثائر ودخيلته المتضخمة - إلي إرضاء نفسه بعد أن أَرْضَى الأمير ، ويرد البيت التالي تعليلا لسابقه ، لقد

عجز الأمير ومن أثاروه علي أبي الطيب عن طلبتهم في التماس معاييه لأنه -
 رفقا للشاعر - مبرأً بالفعل من كل عيب . بعيدٌ عن كل نقص . إنه في عليائه
 نجمُ الثريا المشعُ المتألق ، ولا يجوز عليه العيبُ والنقصانُ إلا إذا جاز الشيبُ
 والشيخوخةُ على الثريا ، والأمران كلاهما مستحيلان ، وعلينا ألا ننسى أن
 شاعرنا إذ يجاوزُ هكذا كلَّ حدٍّ في الفخر بشرفه وترفعه . إنما يفعلُ ذلك إثر
 بيت من الأوابد تهجَّم فيه على الأمير وعلى سائر خصومه تهجُّماً سافراً
 جامحاً لا تحفُّظ فيه ، وكأنني بأبي الطيب قد استشعر مدي عنفه المتطرف في
 البيتَين كليهما ، بل أدرك - فضلاً عن ذلك - أن بيت الفخر الزأق بنفسه إن
 هو في الوقت ذاته إلا ذمٌ وتعرِيضٌ بالأمير ، ومن ثم أراد لشعرة معاوية التي
 أذنت بالإنبتات ألا تفعل ، فتعمدَ في سابع الأبيات إلي نوع من ترضية سيف
 الدولة بأن اعتبره السحابَ ذا المطر الخيرُ الخصب والصواعق الجائحة المهلكة
 ، وتشكَّى من أنه المخصوص بصواعق الجفاء والمنع ، وأن الآخرين
 مخصوصون بديم الوصال والمنح ، وتمنَّى على سيف الدولة أن يزيلَ عنه
 سخطَه إلى شائتيه تخفيفاً وعدلاً .

حتى إذا التفتنا إلي طرق الأداء في الأبيات رأينا أبا الطيب يستخدم
 النداء في مخاطبة سيف الدولة ، ثم يردفه بضمير الجمع للغائبين (نفارقهم)
 وكان الفراق الوشيك قد وقع بالفعل ، ولعل في ضمير الغائبين ما شمل خولة
 بمضمون البيت المُعْرِق في التوددِ والأسى ، وتبرز (أنا) الشاعر في البيت
 ثلاث مرات بصيغة الجمع .. (يعز علينا) ... (أن نفارقهم) ... (وجداننا)
 ، وكأنه وقد خاطب الحمدانيين جميعاً أبي إلا أن يعادلهم بنفسه مجموعاً ،
 ويبرز الجمع بين المتناقضات في عجز البيت إذ يطابق بين (وجداننا) وبين
 (عدم) . فضلاً عن أن العجز كناية عن تفردهم بالعظمة والفضل ،

واختصاص الشاعر إياهم بمحبته الصادقة دون سائر الناس ، ولا يزال في البيت الثاني يعبر عن نفسه بضمير المتكلمين في قوله : " ما كان أُخْلَقْنَا ، ومن أمرنا ، وينطوي عجز البيت علي ما كلف به الشاعر من الجمع بين المتناقضات . وذلك لأن قوله : " لو أن أمرُكم من أمرنا أمم " مؤداه أن للأمير في أبي الطيب رأيا سيئا يناقض رأى أبي الطيب فيه ، وفي البيت الثالث - بيت الغاية القصوى في التودد والتطامن - تصور الاستعارة التصريحية غور الآلام المعنوية التي عاناها المتنبّي إذ تغيّر عليه الأمير وأسلم القلب والسمع للشانئين ، والبيت بأكمله كناية مُصوِّرة لتفاضي الحب عما يلقي من هول عاطفته مرضاةً لحبيب يتلذذ بما يصيبه ، وقد كان الأمير مستجيبا بالفعل للطاعين علي أبي الطيب ، وتفصح (الأنا) عن نفسها في ضمير المتكلمين في قوله : (حاسدنا) وفي رابع الأبيات أدت الجملة الاعتراضية - لو رعيتم ذاك - دلالة عدم المراعاة ، وهو عتاب أرهص بأشدّ التهجم وأعنفه في البيت التالي كما فصلنا أنفا ، وتنكير كلمة (معرفة) زادت دلالة تعظيم المتنبّي وإجلاله للعلم والثقافة والفكر ، تلك الأواصر التي يراها ذات شأن في تثبيت الود بين العلماء والأدباء ، وترتيب حقوق لأى منهم تجاه الآخرين ، وقد صور ذلك تماما ببلغ التشبيه المؤكّد بأن في قوله : (إن المعارف في أهل النهى ذمم) ، فتلك الأواصر الثقافية التي لم يرعَ الأمير حرمتها - فضلا عن تجاهله موجبات الصداقة والود بينه وبين أبي الطيب - إن هي في الحقيقة إحدى مواثيق وعهود بين المفكرين وأصحاب العلم والرأى لا معدى لنزوي الأصالة منهم عن مراعاتها . والبيت إلي ذلك يجمع التناقض بين ما ينبغي للعلاقات الفكرية بين أربابها من صيانة ، وبين تجافي الأمير عن ذلك .

وفي خامس الأبيات وأعنفها تقول لغة الأداء إن التماس الأمير وخصوم

المتنبى لمعاييه كان ركدهم وقطعهم المتكرر القاصدين إليه بإصرار ، وقد أدت " كم " ذلك في صدر البيت ، وفضلا عن ذلك تؤدي جملة (تطلبون) معنى السئى الحثيث والالتماس الدؤوب ، فليس الذي يطلب شيئا بالآي يطلبه عرضا أو كينما اتفق ، وقد نكر أبو الطيب كسرة (عيبا) في معرض القول بأنهم يعنون أنفسهم - خاصة الأمير - بالتماس عيب .. أى عيب للاكتفاء عليه تبريرا للمجافاة والحرمان ، و(الأنا) المتضخمة ظاهرة في صدر البيت محمولة علي ضمير المتكلمين ، وفي الإفادة عن مسماهم بالعجز تدليل علي كامل فشلهم في هذا المسعى ، وهو يتجاوز بدلالاته اللغوية والنفسية التعبير عن هذا الموقف بالإخفاق أو الفشل مثلا ، ففي العجز عن إدراك أمر تصوير لقصور الفاعل لاستحالة مبتغاه عليه استحالة مطلقة ، وفي عجز البيت كناية تصور قبح هذا الصنيع المتمحل وإدانته بمعايير الدين والأخلاق جميعا . علي أن الدلالة علي تصادم صنيعهم هذا مع القيم الدينية معبرا عنها بأرفع رموزها قاطبة ، وهولفظ الجلالة ليوحى بما كان يعانيه أبو الطيب من تنكر الأمير له ، ومن رغبته المصرة علي إدانته والإنزاء به ، وفي صدر البيت السادس الذي هو بمثابة تعليل لعجزهم التام في مسعاهم ، يرد التحجب مصورا لما يذهب إليه أبو الطيب من نقاء شرفه ، وتطهره من كل عيب ودنس ، ثم يصور بليغ التشبيه المحل الأسمى الذي أحله أبو الطيب شخصه . إنه الثريا وحاشاه وحاشاها أن يوصما بعيب أو نقصان ، ويؤكد ذلك بليغ آخر من التشبيه يصير فيه العيب والنقصان شيئا وشيخوخة مستحيلين ، وهما مستحيلان عليه بمثل استحالة الشيب والشيخوخة علي الثريا ، وينتظم البيت كله في تصوير من تشبيه التمثيل مؤداه استحالة اتصاف أبي الطيب بالمعائب والنواقص بمثل استحالة اتصاف كوكب الثريا بالشيب والهَرَم ، وتبرز (الأنا)

في البيت مرتين : أولاهما في ياء المتكلم إذ يقول : (شرفي) والأخري في ضمير المتكلم سافراً في صدر عجز البيت : (أنا الثريا) ، وما يزال الشاعر جامعا بين المتناقضات ، فيتناقضُ اجتماع الشيب والهرم إلي الثريا ويستحيل - وفقاً لمُردي البيت - اجتماعُ العيب والنقصان إلي أبي الطيب ، وفي البيت السابع لا يملك سوى التحنى الذي يشى بشبه استحالة المضمون بـ صور بالاستعارات التصريحية في الغمام وصواعقه والديم اندياح الشر والخير كليهما من الأمير ، وأدت الصواعقُ هول ما شدَّده عليه الأمير من نكير بمثل ما صورت الديمُ البلهنية التي أفاء بها علي خصوم الشاعر وكارهيه ، فضلا عن أنه جمع النقيضين لفظاً وهما الصواعق والديم ، وقابل بين (عندى صواعقه) و (عنده الديم) ، وهو جمع للمتناقضات أبعد مدى . لأنه يُعرِّل علي المعاني الكلية لا على دلالات الألفاظ نحسب ، وتبرز (الأنا) في البيت محمولة على ياء المتكلم في قوله (عندى) كما أنه كني عن خصومه بمقتضي موقعهم من نعمة الأمير ورعايته ، فهم إذن المخصوصون بديمه .

ويبدأ المتنبي سبعة أبيات الأخيرة من القصيدة بأن يعطن صراحة عن عزمه على الرحيل عن حلب في سفر طويل منذراً بمقبي رحيله من ندم يملأ نفس الأمير إذ هو مسئول عن هذا الشتات ، معرجاً علي الإلزام ببعض من علل هذا الرحيل ، لقد باتت حلب صفراً من الأصدقاء ، غاصة بالأعداء ، وبات الرزق الذي يساوى فيه الأمير بين أبي الطيب على فحولته وعبقريته ، وبين خصومه من ساقطي الشعراء ، بات وصمة يتعين عليه أن يبرأ منها ، ويستنكر المتنبي من خصومه أدعياء الشعر هؤلاء ، أن يقولوه وقد افتقدوا آله ، وأصفروا من قدراته ، ثم يختم رائحته مؤكداً لأميره أنه إنما صدر في عتابه إياه عن الحب لا عن الكره ، وقد أزلف له العتاب في روائع باقيات من

أبيات الشعر يقول أبو الطيب

أرى النَّوْيَ تَقْتَضِينِي كُلَّ مَرَحَلَةٍ
لَئِنْ تَرَكَنْ ضُمَيْرًا عَنْ مَيَامِنِنَا
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا
شَرَّ الْبِلَادِ مَكَانَ لاصِدِيقٍ بِهِ
وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَصُ
بَأَى لَفْظٍ تَقُولُ الشُّعْرَ زِعْفَنَةً
هَذَا عَتَابُكَ إِلَّا أَنَّهُ مَقَّةٌ

لَا تَسْتَقِلُّ بِهَا الْوَحَادَةُ الرَّسْمُ
لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتَهُمْ نَدَمٌ
أُ لَا تَفَارِقُهُمْ ، فَالْوَاحِلُونَ هُمْ
وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْمَرْءُ مَا يَحْصُمُ
شَهْبُ الْبِرَاةِ سِوَاءُ فِيهِ وَالرُّخْمُ
تَجَوُّزُ عِنْدَكَ ، لَا عُرْبٌ وَلَا عَجَمُ
قَدْ ضُمِّنَ الدَّرُّ إِلَّا أَنَّهُ كَلِمٌ (٢٠)

إنه إذن الفراق لامحالة ، وإنه لفراقٌ إلي مرتحلٍ جدّ بعيد يشق حتى
علي سراع النياق وأضخمها وأشدّها ، ويُقسمُ أبو الطيب في صدر البيت
الثاني علي أن مغبة رحيله عن حلب - وقد قرر الذهاب إلي مصر - لتكوّن
ندما ياكل قلب سيف الدولة ، وإنه إذ يقول ذلك ليقررّ علي مسمع من جمع
مستمعيه الحاشد أن رحيله أمر خطير ، وليس من نثرات الأحداث التي
يتساوي وقوعها وعدمه ، ومن ثم يعمد في البيت التالي إلي تحميل سيف
الدولة مسؤولية مباشرة وكاملة عن قراره بالرحيل ، فهو المستجيب إلي شأنه
والحاقدين عليه ، بل هو المتحامل عليه بالجفاء والمنع وإصغار الشأن ، وهو
المتنع قصداً عن كف غربه عن أبي الطيب ، والزاهد في مرضاته ومداواة
جراحه ، إن الأمير للراحل ابتداءً عن أبي الطيب بمودته وحبه وكرمه ،
وما قرار الشاعر بالرحيل عن الأمير والحمدانيين بجسده لا بمودته إلا رد
الفعل الذي ليس له عنه من محيص ، وإن حلب - في البيت التالي - قد
تأمرت كلها علي أبي الطيب ، وتربصت به حتى أقفرت من الأصفياء

والأوداء ، وإن الأمير ليمعن في استفزازه ، والإناخة به من عليائه وتفرّد مكانته بين شعراء البلاط ، عطاء ، وحظوة حتي ليساويه بهم ، وتلك محنة داهمة لأبي الطيب ويعسر بل يستحيل عليه أن تتساوى قامته الشامخة بقامات أقزام أدعياء لا يتجاوزون سفع كيانه فنيا وإنسانيا ، ولاغرو - بعد ذلك - أن يرى الرجل في كسب يأتيه من الأمير وفقا لتلك المقاييس المجحفة وصمة عار لا حيلة له إلا في أن ينفذ منها يديه ، هذا فضلا عما يشوب ذلك العطاء - أيا كان قدره - من سوء معاملة الأمير وتكديره صفوح حياته بمجافاته والأخذ بعضد الطاعنين عليه ، والبيت التالي تكثيف لمؤدّي البيت السابق ، مضافا إليه التعريض الشديد بخصومه المتدنين الذين يشاركونه - بغير الحق والعدل - في رزق سيف الدولة وحده شركة مساواة ، وهم علي نقيضه موهبة وعروية وإخلاصا ، ولا يلبث أن يفرد البيت السادس للقدح المباشر في مناوئيه والطاعنين فيه ، ويصائر عليهم تطاولهم بقول الشعر وهم يفتقدون أنوار الإبداع فيه ، خاصة رهافة الإحساس باللغة وامتلاك سليقتها إذ هم من أصول غير عربية ، ولا يلبث أن ينعى علي الأمير - وهو العربي الخالص والشاعر المثقف - ما تورط فيه من تقريب هؤلاء الأدعياء وقبول ما يفسفون به من ساقط الشعر وركيكه ، وكأنني بأبي الطيب يكاد يتهم سيف الدولة بأنه إنما يقرب هؤلاء ويستمع إليهم ويجيزهم نكاية فيه لا تقديرًا لهم ، ويعمد أبو الطيب إلي بيت الختام ، فيقسمه قسمة عادلة بين سيف الدولة وبين نفسه ، فيقول للأمير في صدر البيت إن عتابه إياه صادر عن حب ، فالمرء لا يعاتب إلا من يحبه ويبقى عليه ، ولا يفوتنا أن نلاحظ كيف أن أبا الطيب يرفع قامته هنا لتساوى قامة الأمير ، فالحب لا يكون الا بين متكافئين ، ويفرغ لنفسه وفنه في عجز البيت ليقول : إنه أدى

عتابه مصوغا فى لآلئ من جوهر القول ورفيع الكلام ... وهل يمكن لأبي
الطيب ذي الموهبة الخصبة والثقافة الرفيعة - بمقاييس الواقع - والعبقرية
المتفردة - فى رأى نفسه - إلا أن يصوغ بوح نفسه ، وجدليات فكره بأحرف
مجنحة وكلمات وتراكيب وصور باقيات بقاء الدر ، مقالات تأتته . مكتسبات
علي كراً الأزمان مكتسبه من تصاعد القيمة وجائل الدلالة ؟

حتى إذا يَمَنَّا أنفسنا شطر لغة الأداء فى الأبيات السبعة ، رأينا تد
صور النوى وشخصها بالاستعارة حتى نُثْرى ، وحتى لتفرض عليه تجشم
الأسفار الطويلة والمسافات الشاسعة ، وأنه ليتحدث عن هجرأت وكأنه قد
كان بالفضل ، ويصورُ عجز البيت بالاستعارة والكناية حول رحلته حتى
لتتقاعس دونها النياق السريعة الضخمة الشديدة ، وتتجسد (الأنا) فى ياء
المتكلم إذ يقول : (تقتضيني) ويدل قوله : (كل مرحلة) علي عراقة الرجل
واقتراده عبر مراحل حياته السابقة علي تلك المشاق ، وكذلك كان المتنبي
بالفعل جواب أفاق لا يني عن دائب السعي وصولا إلي حلمه الكيانى بمجد
التسيّد والمال ، ولعله بتلك الخلّة يذكرنا بابن الرومي نقيضه فيها إذ قضى جل
حياته ملتصقا ببغداد متقاعسا عن الرحلة إلي ممدوحيه علي الرغم من غاية
بؤسه وافتقاره المدقع إلي المال ، ولا يزال الشاعر على نهجه في القصد إلي
الإبهار والإدلال بقدرته علي الفن والفكر جميعا بأن يجمع المتناقضات فى
حيّز واحد ، فهو قادر على اجتياز القفار الشاسعات ذات الأهوال . لأنه
رجلها ثابت القلب . القادر على الجلال والمشاق . في حين لا يقدر عليها
أسرع النوق وأشدها وأكثرها قدرة علي الترحال ، ويكنى في البيت التالى عن
قيمه وعظمة شأنه بأن سيف الدولة سيندم بالقطع لرحيله ، وذلك لأن غيره من
أدعياء الشعر ومسفسفيه لن يغني عنه في تمجيد بطولة الأمير وكرمه

وعروبتة ، وإن أبا الطيب ليؤكد ذلك بالقسم ، واللام والنون في جوابه ، مُنْكَرًا
كلمة " ندم " في قافية البيت لتعظيم مدلولها والمبالغة فيه ، وتظهر (الأنثى)
بضمير الجمع نى قوله : (ميامنا) رنى البيت الثالث يَصَوِّرُ بالكناية
مسئولية سيف الدولة عن رحيله فهو الآخذ بأسباب هذا الرحيل ، وهو
المتقاعس عن إبطالها ، والبيت يضم المتناقضات كذلك ، لأن مؤداه يتماوج
بين الرحيل الفعلى وإمكانات منعه المتروكة من قِبَل سيف الدولة ، وما يعنيه
ذلك من اختياره رحيل المتنبي . لتكريسه أسبابه ، وكأن الأمير هو الراحل
أصلاً وابتداءً بحده ومودته عن الشاعر ، وصياغة الجملة الاسمية (الراحلون
هم) بتقديم (الراحلون) وتعريفها قد أفادت قَصْرَ مسؤولية رحيل المتنبي
على سيف الدولة لتعلق أسبابه كلها به وحده ، وفى صدر البيت الرابع يكتنى
عن حلب وعن نفوره البالغ من أهلها محمولين عليها . بأنها قد تنكرت له
وأقفرت من صديق واحد يخلص له ، ويكتنى فى العجز عن معافاة نفسه لرزقه
من الأمير ، وقد خالطه النكد وسوء المعاملة حتى لقد بات مدَّ يده لنواله سبة
عار ينبغي اتقاؤها ، وقد استخدم أبو الطيب معنى التفضيل المطلق من الشر
مرتين في معرض تصوير نفوره من الحلبيين ومدينتهم ومن الأمير وصنيعه ،
وفى البيت التالى يستمر في تصوير نفور آخر ينتابه . هو نفوره من ذلك
الرزق الهزيل الذى يساويه فيه الأمير بهابطي الشعراء وصغارهم من الأعاجم
، ويستخدم للمرة الثالثة صيغة التفضيل المطلق من الشر ، ويعكس التصوير
الاستعارى في صدر البيت روح أبي الطيب الكلف بالانضال واحتمال المشاق
سعيًا لما يبتغي ، فالرزق هنا قنص ، وأبو الطيب - من ثم - صائد قناص ،
وفى عجز البيت تصور الاستعارتان التصريحيتان اعتداد الرجل بشخصه
وفنه ، وإزراعه بخصومه في الحياة والفن كليهما ، فهو البازيُّ الأشهب برفعته

وعزته ، وهم الرّخم بخدرها وقذارتها وكريه منظرها ومزعج أصواتها ، ولا يزال الشاعر علي ديدنه في الجمع بين المتناقضات في ساحة واحدة ، فيجمع شهب البرقة إلى الرّخم ، وفي صدر البيت السادس يرد الاستفهام الاستنكاري ليصادر أبو الطيب من خلاله ما ادّعاه صغار شمراء الأعاجم من قدّرات في الصربية تسوّغ لهم قول الشعر بل التصدي له بانتصدي ، وهو القصة الرفيعة فيه ، ويأتي بالاستعارة التصريحية في قوله (زعنفة) مضيفا تنكيرها إلى الحقارة والتفاهة فيها ، ليصور بذلك ازدراءه البالغ لأي من خصومه المتشاعرين ، وينسحب الاستفهام الاستنكاري في صدر البيت على مضمون العجز ، إذ كيف يروج ذلك الغثاء لدى عربي مثقف هو سيف الدولة ؟ وفي آخر البيت يبرر المتنبي لنكيره هذا الذي شدّده علي خصومه وإسقاطه إياهم من دوحة الشعر ، بأنهم في الحقيقة سقطوا دون أن يدركوا سليقة الصرب ورهافة ذائقتهم وقدرتهم الطبيعية علي اللغة ، وكذلك دون أن يدركوا شيئا من لغات أصولهم الأعجمية لتقطع أواصرهم بها بفعل الزمن ... وهكذا يضرب المتنبي علي كيان هؤلاء المنافسين تماما ، فالناس عصرئذ إما عرب وإما عجم ، ومنافسوه صفر لأنهم ليسوا إلي هؤلاء ولا إلى أولئك ، وما يزال الرجل يورد متناقضاته في حيز ، فهناك تناقض بين قول الشعر ، وبين كون القائل أحرق جاهلا زعنفة في دنيا اللغة والفن ، وهناك تناقض بين العرب والعجم ، حتى إذا وصلنا إلي بيت الختام رأينا أبا الطيب يسمي صنيعة في القصيدة : إنه العتاب لا الهجاء ولا القطيعة ، ثم يصله عن طريق بليغ التشبيه المؤكد بدائرة أخص تتساوى فيها هامته مع هامة الأمير إنها دائرة الحب ، فهو يعاتبه حبا لا غضبا أو قطيعة ، وفي هذا

الجمع المحتشد من مناوئ الشاعر ، وعلى رأسهم الأمير ، وفي هذا
المناخ المشحون بالشجن والتحدي والاستفزاز ، يأبى أبو الطيب إلا أن
تكون آخر كلماته في آخر قصائده إلي الأمير عن نفسه وعن فنه ،
فشعره - محمولا علي صورة التشبيه - جوهر مصوغ من كلام لا يقدر
عليه سواه ، وأبو الطيب لا يلقى كلامه أبداً كيفما اتفق ، فتشبيهه
شعره بالدر يعطيه ليس نفاسة الدر المطلقة فحسب ، وإنما يعطيه فضلاً عن
ذلك صمنوده للزمن وازدياد القدر والتألق علي الأيام كلما دارت دورتها ،
هذا هو الشأن في الدر ، وهذا هو الشأن في روائع شعر فارس
الفن والقلق والتجاوز ، جهير الصيت متضخم الذات أبي الطيب المتقبي .

الحواشي والإحالات

- (١) - الشيخ يوسف البديعي ، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : ٨٧ / ٨٨ - تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا وعبدية زيادة عبده ، ط الثانية - دار المعارف تاريخ الإيداع ١٩٧٧ .
- (٢) - شرح ديوان المتنبي ، وضعه عبد الرحمن البرقوقي : ٨١ / ٤ ، نشر دار الكتاب العربي بيروت - لبنان . (د . ت) .
- (٣) - شوقي ضيف (دكتور) ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٣١٢ ، دار المعارف بمصر ، ط التاسعة (د . ت)
- (٤) - السابق : ٣١٢ ، وكذا الطبعة الأولى - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م : ١٨٦ .
- (٥) - السابق : ٣١٥ - ٣١٦ ط التاسعة .
- (٦) - شرح ديوان المتنبي (برقوقي) : ٨١ / ٤ .
- (٧) - السابق : الصفحة نفسها .
- (٨) - السابق : ٨٢ / ٤ .
- (٩) - مقدمة ط الأولى : ١٢٦ .
- (١٠) - السابق : ٨٢ / ٤ .
- (١١) - شرح ديوان المتنبي : ٨٣ / ٤ .
- (١٢) - السابق : ٨٤ / ٤ .
- (١٣) - الصبح المنبي : ٧٨ .

(١٤) - السابق : ١٧٠ - ١٧٤ .

(١٥) - شرح ديوان المتنبي : ٨٦ / ٤ .

(١٦) - السابق : ٨١ - ٨٢ من قوله :

قد زرتُ وسيوفُ الهِنْدِ مُمَدَّةٌ وقد نظرتُ إليه والسيوفُ دَمٌ
إلي قوله :

أما ترى ظَفَرًا حُلُواً سوي ظَفَرٍ تصافحتُ فيه سيوفُ الهِنْدِ واللَّمَمُ

(١٧) - السابق ك ٨٣ - ٨٦ من قوله :

أنا الذي نظَرَ الأعمى إلى أدبي وأسمعتُ كلماتي من به صَمَمٌ
إلي قوله :

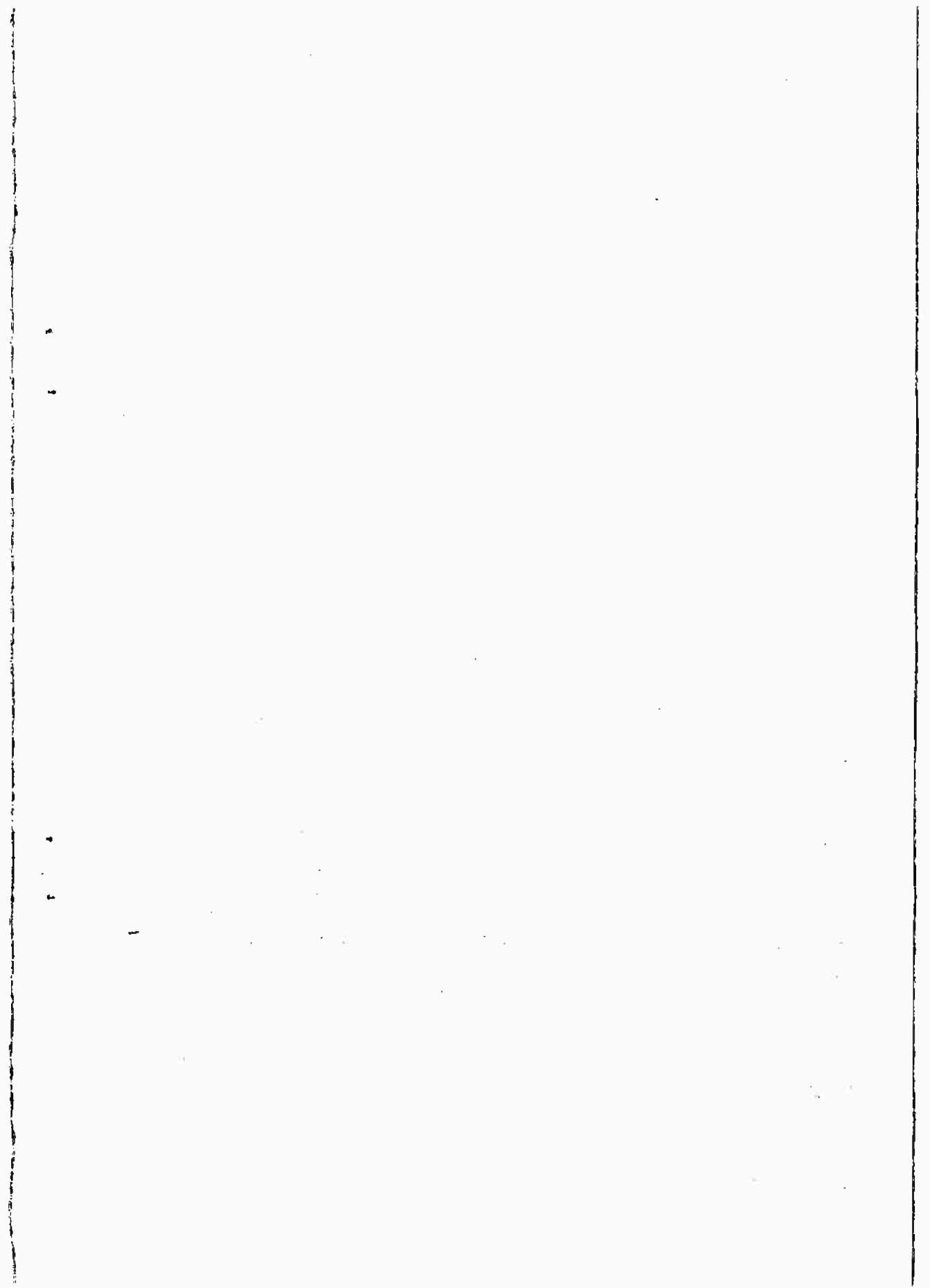
صَحِبْتُ فِي الفُلُواتِ الوَحْشَ مُنْفَرِداً حتّى تعجَّبَ مِنِّي القُورُ والأَكَمُ

(١٨) - محمود محمد شاكر ، المتنبي ، السفر الأول : ٢٣٥ ، مطبعة المدنى

(تاريخ مقدمة المؤلف ٦ / ١١ / ١٩٧٧)

(١٩) - شرح ديوان المتنبي : ٨٨ / ٤ .

(٢٠) - السابق : ٩٠ / ٤ .



أصفها

منذ نشأتها حتى بداية العصر السلجوقي

وراسة تاريخية

الدكتور / مجدى عبد المنعم عجمية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أصفهان

منذ نشأتها حتي بداية العصر السلجوقي

« دراسة تاريخية »

أصفهان والأصل الفارسي :

لقد اختلفت الآراء وتعددت في معرفة أصل كلمة « أصفهان » ،
فالبعض يسمونها « اسپهان » وفق الحروف الفارسية ، وآخرون يطلقون
عليها « أصفهان » طبقاً للحروف العربية « فاين دريد » يري أن
« اصفهان » اسم مركب من الأصب اسم البلد يلسان الفرس وهان اسم
الفارس ، ومن هنا يُراد به « بلاد الفرسان » .

ويقول « عبيد الله » : المعروف أن « الأصب » بلغة الفرس هو
الفرس ، و « هان » كأنه دليل الجمع فمعناه الفرسان ، و « الأصفهاني »
الفارسي (١) .

ويري « حمزة بن الحسن » أن « اصفهان » اسم مشتق من الجنديّة
لأن مرد هذا اللفظ إلي الفارسية هو « اسپاهان » جمع « اسپاه » اسم
للجند والكلب كلفظ سك وهو أيضاً اسم للجند والكلب ، وإنما لزمها
هذان الاسمان لاشتراكهما في الفعل والحدث فأفعالهما للحراسة وفق
اسميها ، ويري أن « الكلب » يسمي في لغة « سك » وفي أخرى
« أسپاه » ، وتخفف فيقال « اسبه » ، وبهذا جمع هذان الاسمان وأطلقا

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٧ ، ج ١ ، ط بيروت ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

علي بلدين مخصصين للجنود الأساورة ، فأطلقوا علي « أصبهان »
« أسباهان » وعلي سجستان : سكان وسكستان .

ويذكر « ابن حمزة » في اشتقاق « أصبهان » حديثاً يتردد علي
السنة العروم قال عن أصل اللفظ « أصله أسباه آن أي هم جنود
الله »^(١).

ويفسر « المافروخي » أصل هذه اللفظة فيقول : « أصل لفظة
أصفهان « اسفاهان » لأنه كان عليها في أيام الفرس « كوذرين
كشواذ » ، وهو حينئذ يركب في ثمانين ابناً له فرساناً شجعاناً فضلاً عن
حفدته وأشباعه وخوله وأتباعه ، وكلما ركبوا قيل « اسفاهان » أي
الجيوش فسميت به لتداولهم في كلامهم وقيل أنه أمر فرمود بنقل
الأخطاب إلي الموضع الذي أراد إحراق إبراهيم الخليل عليه السلام فيه
طووعه الناس كلهم في نقلها غير أهلها ف قيل لهم بعد ذلك (أسفاه آن)
أي جنوده يعني جنود الله »^(٢) .

وينقل « ابن شاهنشاه » عن السمعاني : سمعت من بعضهم أنها
تسمي بالعجمية « سباهان » و « سبا » العسكر و « هان » جمع
وكانت عساكر الأكاسرة إذا وقع لهم بیکار يجتمعون بها مثل عسكر
فارس وعسكر کرمان والأهواز فعربت ف قيل « أصفهان »^(٣) .

(١) نفس المصدر ونفس الصفحة .

محمد بهار : سبک شناسی ، ص ٥ ، ج ١ ، ط تهران .

(٢) مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الأصفهاني : كتاب محاسن أصفهان ، ص ٦ ، ط

طهران .

(٣) ابن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص ٤٢٣ ، ط باريس ، ١٨٤٠ م .

هذا وقد وردت كلمة أصفهان مكتوبة بالفارسية في صور مختلفة هي «اسپهان» «اصپاهان» ، «اسپاهان» ، و «اسپان» ، و «اپادانا» عند المؤرخين والأدباء والشعراء الإيرانيين^(١) .

كما كتب الاسم بشكل ساداني «سپانه» بمعنى العسكر وتعني أيضاً مكان العسكر^(٢) .

هذا ويرى هيرودتس أن لفظة «أصفهان» بالميدية «سپاكا»^(٣) .

ومن خلال هذا العرض لمعرفة الأصل الفارسي لللفظة «أصفهان» نرى أن هناك اتفاقاً على أن معناها أرض الفرسان الأبطال أو الجند الحارسون أو جند الله وجميعها معانٍ متقاربة ، ولكن هناك اختلافاً في تقسيم الكلمة أو الأصل الفارسي لها ، ولعل أكثر الآراء صحة وتقسيماً لللفظة «أصفهان» هو أن أصل الكلمة «اسپاهان» وقسمت إلي قسمين «اسپاد» بمعنى الجند ، والألف والنون علامة الجمع للعاقل في اللغة الفارسية وبذلك يصير معناها «الفرسان» .

ركأن هذا اللفظ أخذ يطلق على سبيل المجاز نصاروا يقرلون «اسپاهان» بمعنى الفرسان ويقصدون أرض الفرسان ، ثم عربت لفظة «اسپاهان» فأصبحت «أصفهان» بقلب السين إلى صاد والياء إلى فاء مثل كثير من الألفاظ الفارسية المعربة .

(١) حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ١ ، طهران ، اسفند ، ١٣١٦ .

(٢) حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ٢ .

(٣) دائرة المعارف : تقويم البلدان ، ص ٤٢٣ ، ط باريس ، ١٨٤٠ م .

وكذلك وردت « سپاه » ، « اسپاه » ، و « سپه » بنفس المعنى وبذلك يمكن أن نراها بعد إضافة علامة الجمع « سپاهان » ، « اسپاهان » ، « سپهان » وجميعها تعني الفرسان الجيوش ، الجنود (١) .

ومما يؤكد هذا المعنى ، وذلك التقسيم للفظ ماورد في كتب التاريخ من قصص البطولة النادرة ، والشجاعة النائقة التي اتسم بها أهل أصفهان فمن ذلك ما رواه الطبري عن شجاعة رجل من أهل أصفهان اعترض علي أمر الضحاک - وهو أحد ملوك الفرس وكانت مدة حكمه ألف سنة - والغريب أن يقبل الملك هذا الاعتراض علي الرغم من قوته وجبروته . يقول « الطبري » : « ملك الضحاک بعد جم - فيما يزعمون ، والله أعلم ألف سنة ، ونزل السواد في قرية يقال لها نرس في ناحية طريق الكوفة ، وملك الأرض كلها ، وسار بالجرور والعسف وبسط يده في القتل وكان أول من سن الصلب والقطع وأول من وضع العشر وضرب الدراهم ، وأول من تغني وغني له قال : ويقال أنه خرج في منكبه سلعتان فكانتا تضربان عليه فيشتد عليه الوجع حتي يطلبهما بدماع إنسان فكان يقتل لذلك في كل يوم رجلين ويطلب سلعته بدماعيهما فإذا فعل ذلك سكن ما يجد فخرج عليه رجل من أهل بابل فاعتقد لواء ، واجتمع إليه بشر كثير ، فلما بلغ الضحاک خبره راعه فبعث إليه : ما أمرك ؟ وما تريد ؟ قال : أأست تزعم أنك ملك الدنيا ؟ وأن الدنيا لك قال : بلي ، قال : فليكن كلبك علي الدنيا ، ولا يكونن

F. Steingass : P. 48 - 651 - 652 , Liban , 1944

(١)

علينا خاصة فإنك إنما تقتلنا دون الناس ، فأجابه الضحاك إلى ذلك ،
وأمر بالرجلين اللذين كان يقتلهما في كل يوم أن يقسما على الناس
جميعاً ، ولا يخص بهما مكان دون مكان ، قال : فبلغنا أن أهل أصفهان
من ولد ذلك الرجل الذي رفع اللراء وأن ذلك اللواء لم يزل محفوظاً عند
ملوك فارس في خزائهم وكان فيما بلغنا جلد أسد ، فألبسه ملوك
فارس الذهب والديباج تيمناً به « (١) .

وزيد ياقوت الحموي في بطولة وشجاعة هذا الرجل
«الأصفهاني» فيروي أنه تمكن من قتل الضحاك وأزال ملكه وجعل
«أفريدون» جد بني «ساسان» مكانه ، ومن يومئذ أصبح لأهل
«أصفهان» الحق في حمل اللراء « (٢) .

وكذلك تظهر شجاعة أهل «أصفهان» في اعتراضهم علي أمر
نمرود بنقل الأحطاب إلى المكان الذي أراد أن يحرق فيه «إبراهيم» عليه
السلام حيث أطاعه جميع الناس في نقل الأحطاب ماعدا أهل
«أصفهان» « (٣) .

أما عن نطق «أصفهان» فتتطرق بفتح الهمزة «أصفهان» أو
«أصفهان» عند أكثر الناس ، بينما ينطقها آخرون بكسر الهمزة

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ص ١٩٦ ، ج ١ ، ط دار المعارف ، ١٩٧٩ م .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٧ ، ج ١ ، ط بيروت ، ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

(٣) المافروخي : كتاب معاصر أصفهان ، ص ٦ .

« إصبيهان » أو « إصفيهان » ومنهم « السمعاني » ر « أبو عبيد البكري الأندلسي » (١) .

ونخلص من ذلك إلى أن « أصفهان » اسم المكان الجند والفرسان المشغاة أصلها الفارسي « سپاهان » أو « سپهان » أو « اسپهان » ثم حُرِّت إلى « أصفهان » أو « إصبيهان » وتنطق بفتح الهمزة وفقاً للنطق العربي لها ، وتنطق بكسر الهمزة وفقاً للنطق الفارسي لها وذلك لأن الحرف الأول في الأصل الفارسي « سپاهان » - « سپهان » - « اسپهان » ينطق مكسوراً .

نشأة إصفهان وتاريخها قبل الإسلام :

أصفهان هي إحدى المدن الإيرانية الكبيرة والتي عرفت وقيمت منذ أقدم العصور ، وشهد اسمها في جميع التواريخ حتى في الخطوط المسماة التي ترجع إلى الألف الثاني أو الثالث قبل الميلاد وكان البابليون يدركون أن أصفهان تقع على الحد الشرقي ضمن الممالك الشرقية المتاخمة لهم (٢) .

وتتكون « أصفهان » من مدينتين أحدهما تعرف بـ « اليهودية » والثانية بـ « شهرستان » وبينهما مسافة تقدر بميلين (٣) .

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٦ ، ج ١ .

(٢) حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ١ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٦٣ ، القسم الثاني ، ط ليدن ، ١٩٣٩ .

و « اليهودية » هي تلك المدينة التي بناها اليهود أيام « بخت نصر » ، فعندما خرجوا من بيت المقدس أخذوا معهم بعضاً من ماء وتراب بيت المقدس ، وعزموا علي ألا يقيموا إلا في مكان يشابه ترابه وماؤه ماء وتراب بيت المقدس فكانوا إذا ما نزلوا بمدينة وزنوا ماءها وترابها ، وما زالوا كذلك حتي دخلوا « أصفهان » فنزلوا بموضع منها يسمى « بنيحنا » وهي بالعبرية ومعناها انزلوا فقد أصبحت نلما وجدوا وزن الماء والطين في هذا المكان كمثليهما في بيت المقدس استقروا في هذه المنطقة وبنوا العمارات ، وتزاجوا وتوالدوا وتناسلوا وموضعهم الآن يسمى « اليهودية » ^(١) وهذا المكان علي بعد بضعة كيلومترات من « شهرستان » ^(٢) .

وبرواية أخرى يقول « ابن حوقل » : « إن أصل « أصفهان » كان هناك في قديم الأيام وسالف الدهر إلي أيام « بخت نصر » وقدم اليهود من الشام ناقلة إلي هذه الناحية وكانوا قد استصحبوا من تربة بلدهم ومباههم وهربوا من ناحيتهم فقالوا نقصد موضعاً يشاكل ناحيتنا ويشبه بلدنا وتريتنا ونزلوا بالمكان المعروف اليوم بـ « اليهودية » وبالموضع الذي يعرف « باشكهان » و « أشكهان » كلمة باليهودية وقايسوا التربة والماء فقالوا بلسانهم « أشكهان » أي نقعد ها هنا ، وكان المكان في الوقت أرضاً بوراً غامرة لساكن بها فأحدثوا المنازل وتصرفوا في وجوه العمارة والفلاحة وأسباب الغروس والزراعة وسكنوا ،

(١) الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ط ليدن ، إبريل ١٣٠٢ هـ .

(٢) هارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٥ ، ط دار المعارف ، ترجمة حمزة الظاهر .

وكان بنواحي صايك مدينة يرتفق أهلها بمراعي هذه الناحية ويتصرفونها
 قتل عليهم ما حدث بجوارهم من الأسباب فيقال أنهم مانعهم عما
 أرادوه من بعض متصرفاتهم فجرت بينهم حروب واتصلت بينهم وقائع
 وشغوب وتناولت بهم المشاغبة والموائبة إلي أن صارت الغلبة لليهود ،
 وتم يثلك ما حاوله من تأسيس اليهودية وتصرف أربابهم في القروس
 علي المياه واستتبطوها من مضافها وأجروها في شماراتهم وكثرت
 أصاياتهم بالزروع في الأراضي البور واقتنوا الماشية وما يضطر إليه أهل
 الأمصار وتقصرت فسكنتها من رغب في رفاعة العيش ووغدة وتوطنها
 كبار دهاقين الجاهلية وسراة تناء الإسلام وأرباب النعم « (١) .

أما « شهرستان » فهي تقع في المكان المعروف بـ « جي » (٢)
 قديماً و « جي » مدينة كان قد بناها « الاسكندر » علي مجر الحية
 وذلك لأنه كلما بناها مربعة أو مدورة كانت تتساقط حتي وأي حية
 خرجت من جحرها فنارت حول المدينة ثم رجعت في سرعة إلي جحرها
 فأمر « الاسكندر » بأن تبني المدينة علي جحرها وما زال البناء قائماً
 معرجاً حتي الآن (٣) علي مثال الحية (٤) .

ويذكر « ابن شاهنشاه » أن « جي » بفتح الجيم وتشديد المثناء
 من تحت اسم لمدينة « أصبهان » العتيقة وكانت تسمى « جي » ثم

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ القسم الثاني .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، أصبهان ، ص ٢٠٨ ، ج ١ .

(٣) الهمذاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦٢ .

(٤) الطبري : تاريخ ، ص ٥٧٨ ، ج ١ .

ويذكر ابن الأثير : أن الحية أمطت بأصنهان ، ولكنه لم يذكر وقت إبطالها ، ص ٢٧ .

سميت « شيرستان » وقد خرب أكثرها واستمرت اليهودية علي الصمارة وهي مدينة « أصبهان العظمي » (١) .

وتعد « أصفهان » واحدة من بلاد الجبل التي تعرف عند العامة بعراق العجم وتقع في نهاية الجبال من جهة الجنوب ، ومن «همدان» إلي «أصفهان» ثمانون فرسخاً ومن «أصفهان» إلي «قاشان» ثلاث مراحل (٢) ، ويجمع بين «شيراز» و «أصفهان» ثلاثة طرق مابين ورون ، وطريق اصطخر ، وطريق سميرم (٣) ، ونظراً لعظمتها وجمالها وتميزها بين الولايات عدها صاحب تاريخ بيهق (٤) ضمن أمهات الولايات فذكر أن «أصفهان» أم القرى في بغداد .

هذا عن نشأتها أما عن تاريخها قبل الإسلام فيعتبره الكثير من الصعوبات خاصة وأن هذه المدينة قد خضعت لكثير من حكام الفرس قبل الإسلام ونظراً لتقدمها وكثرة الملوك الذين مروا عليها أو عمروها أو أعادوا بناءها يجد الباحث صعوبة أخرى ولا سيما أن تاريخ الفرس قبل الإسلام حافل بالأحداث والحروب وتعدد الممالك ومن هنا ارتبط تاريخ «أصفهان» في هذه المرحلة بالعديد من الأحداث عبر عصر الپيشدادين و «الكيانيين» وملوك الطوائف والساسانيين ، ومن هنا يجد الباحث نفسه في بحر عميق مليء بالأحداث عن إيران قبل الإسلام وعلاقتها

(١) ابن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص ٤١٠ - ٤١١ ، ط باريس ، ١٨٤٠ م .

(٢) ابن شاهنشاه : تقويم البلدان ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ .

(٣) ابن البليغي : فارس نامه ، ص ١٦٠ ، ط كبريج ، ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م .

(٤) أبو الحسن علي بن زيد بيهقي معرف بابن فندق : تاريخ بيهق ، ص ٣٢ ، ط كازرون ، ١٣١٧ هـ .

بالشعوب المجاورة والأمم الأخرى وما ترتب علي ذلك من حروب وأحداث وإقامة ممالك وسقوط أخرى ، ثم يحاول أن يحصل من هذا الخضم علي الدرر التي تحمل في طياتها أخباراً عن « أصفهان » .

ولنحاول أن نستجمع ما يمكن من أخبار تتعلق بأصفهان في هذه الفترة ونصنفها وفق كل عصر من العصور التي عاشتها إيران قبل الإسلام .

يذكر صاحب كتاب فارس نامه ^(١) أن بناء وتعمير « أصفهان » كان في عهد الملك « طهمورث » وهو ثالث ملوك البيشدادين ، وكان قد أمر بأن تبني بها مكتبة لحفظ الكتب من الأحداث قبل حدوث الطوفان باحدي وثلاثين ومائتي سنة ^(٢) كما كان لهذا الملك أيضاً آثار عظيمة جليلة في « شهرستان » و « أصفهان » ^(٣) .

ويقال أن جمشيد رابع ملوك البيشدادين بني أصفهان في العراق العجمي ^(٤) ولكن يبدو أن بداية بنائها في عهد « طهمورث » وجاء « جمشيد » فآتم تعميرها مثلما آتم بناء المدائن . ومن الأخبار التي وردت عن « أصفهان » أن بلغها الملك « أفريدون » سادس ملوك

(١) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ٢٨ . ٢٩ ، ط كبيرج ، ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ، ص ٢٤ ، ط المثني بغداد .

(٣) مجمل التواريخ والقصص بتصحيح ملك الشعراء بهار : ص ٣٩ ، ط طهران ،

١٣١٨ هـ

(٤) عبد الوهاب عزام : الترجمة العربية للشاهنامه ، ص ٢٤ ، ط دار الكتب المصرية ،

١٣٥٠ هـ - ١٩٣٢ م .

البيشدادين وتبعه كاهو الحداد الأصفهاني واستطاع أن يأسر الضحاك
خامس الملوك ويقيده ويمثل به في مغارة علي جبل دماوند ^(١) .

وكذلك تخبرنا الشاهنامه أن طريق أصفهان كان ممراً في الحروب
التي دارت بين « نوزر » و « أفراسياب » فقد أمر « نوزر » ولديه
« طوس » و « گستهم » أن يتوجها إلى فارس عن طريق أصفهان
ويأخذان معها النساء والمال ويذهبان إلى جبل « زاوه » من جبال
« البرز » وذلك أثناء حربه مع « أفراسياب » للمرة الثانية ^(٢) .

أما في عهد الكيانيين فقد كانت أصفهان عاصمة للدولة في عهد
« كيقباد » ^(٣) أول ملوكهم حيث عمرها وأعاد بناءها وبني فيها داراً
للملك واتخذها عاصمة للكيانيين .

وتروي لنا الشاهنامه دخول « كيخسرو » ^(٤) أصفهان في حفاوة
وتكريم حيث زينت البلد وعقدت الأذينات في جميع نواحيها ، وتم تزيين
القصر الكبير بالديباج والحرير ، ووضع فيه التخت الذهبي المرصع
بالجواهر ، وأعدت جميع مراسم الملك من تاج وتخت وسوار وطوق ،
وخيل ، وبغال ودواب ، وخرج الأصبهذية والأمراء وعظماء إيران

(١) الفردوسي : شاهنامه ، ص ٥٨ - ٦٢ ، ج ١ « بندگردن فريدون ضحاك و ١ » ، ط
بروخيم طهران ، ١٣١٣ هـ ، مجل التواريخ والقصص ، ص ٤١ .

(٢) الفردوسي : شاهنامه ، ص ٢٥٨ ، ج ١ « رزم أفراسياب بانوزر دكرهار » .

(٣) مجل التواريخ والقصص ، ص ٤٥ « حمد الله مستوفي » : نزهت القلوب ، ص ٢٨ .

(٤) هو ثالث ملوك الكيانيين ، وهو ابن سياوخش ويتسمى إلى كيقباد من ناحية أبيه ، وإلى
توران بن افريدون من ناحية أمه .

لاستقباله علي بعد ثمانين فرسخاً خارج أصفهان ، ولما رقت عيونهم عليه ترجلوا وسجدوا له إجلالاً وإكباراً ، وأقيمت مراسم الخدمة واستقبله « جودرز » ^(١) وكله فرحة تمتلئ العين بالعبرات ، وعزاه في وفاة والده « سياوخش » ودعا له بأن يطول بقاءه ، وأن يدوم مجده وسنائه وساروا في خدمته حتي دخل أصفهان ومكث أسبوعاً بها في القصر المعد له ^(٢) ثم تمكن من إحكام سلطانه علي جميع الأقاليم والمدن الإيرانية . وتوج « كيخسرو » ملكاً علي إيران ونشر عليه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت وكانت مدة ملكه ستين سنة ^(٣) .

وفي هذه الفترة تولي « جودرز » الحكم علي ولاية أصفهان من قبل الملك « كيخسرو » الذي منحه الولاية وأعطاه تاجاً عظيماً ، وتختاً كبيراً مكافأة له ، وذلك لأن « جودرز » كان ممن ساعدوا « كيخسرو » علي تولي الملك ، وتصدي معه للأعداء التورانيين في كثير من المعارك والحروب حتي رغبوا في الأمان فأرسلوا رسولاً من قبلهم إلي « كيخسرو » يعتذرون عما بدر منهم من إساءة ، ويطلبون الأمان

(١) هو جودرز كشواذ صاحب الرؤيا التي بشرت بقدم ملك إلي إيران يدعي « كيخسرو » ويشار لأبيه « سياوخش » ويسمى ملكه بلاد الترك . وكان « جودرز » قد حكم لابنه « جيو » هذه الرؤيا وطلب منه أن يذهب إلي بلاد الترك بحثاً عن وارث الملك « كيخسرو » فقبل أمر أبيه بالسمع والطاعة .

انظر : فردوسي : شاهنامه ، ص ٧١٠ - ٧١٢ ، ج ٣ (ديدن جودرز كيخسرو والنحواب).

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ٧٤٤ - ٧٤٦ ، ج ٣ ، ط بروخيم - تهران ، ١٣١٣ هـ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ٧٦٣ - ٧٦٤ ، ج ٣ .

والصلح فمُنحهم الملك ما سحوا إليه ، وأعطاهم العهد بذلك ، فعندما كافأ الملك « كيخسرو » القادة والجنود ومنحهم الخلع والهبات والعطايا كانت مكافأة « جودرز » « كودرز » سلطنة أصفهان والتاج العظيم والتخت الكبير (١) .

وفي أواخر عهد الملك « كيخسرو » زهد الملك والجاه والسلطة فعزم علي توزيع أمواله وممتلكاته علي الإيرانيين ، وقرر تقسيم الممالك والأقاليم علي أولي السلطة في دولته وطلب من « جودرز بن كشواذ » أن ينفق أمواله ويوزع كنوزه علي الأيتام والأرامل ثم طلب منه أن يعمر الممالك ، ويعمل علي تنفيذ هذه الوصية (٢) .

وعندما عزم الملك علي تقسيم ممالكه عرض علي قاداته وكبار رجاله أن يطلبوا ماشاءوا فقام « جودرز » وعرض علي الملك « كيخسرو » جهود ولده « جيو » « كيو » في بلاد الترك وحسن صنيعه حتي عاد إلي إيران وشهرته بالخدمة والطاعة وأظهر أمله في أن تشمله رعاية وعناية الملك ، فأبدي « كيخسرو » ارتياحه لهذا العرض وأخذ يذكر ما قام به « كيو » من أعمال عظيمة وكثيرة ، وأمر بأن يحطى « كيو » عهد قم وأصفهان مكافأة له ، وكتب بذلك منشوراً معطراً بالنسك والعنبر إلي العظماء والأقاليم الكبيرة (٣) .

(١) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٢٦٦ - ١٢٦٧ ، ج ٥ ، طبروخيم - تهران ، ١٣١٤ هـ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٤٢٦ ، ج ٥ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٤٢٩ - ١٤٣٠ ، ج ٥ .

ويفتضي هذا العهد أصبح « كير » حاكماً علي أصفهان في ذلك
العصر .

وما زالت أصفهان مقراً للملك والسلطان ، ومن المدن العظيمة التي
تحفظي بالبناء والعمران ^(١) لدي سائر الملوك الكيانيين حتي عصر آخر
ملوكهم « دار بن بوحن بن سفنديار » الذي التقى مع « الاسكندر »
في ثلاث مواقع حربية لحقت فيها الهزيمة « دارا » وجيوشه ، مما جعله
يضطر إلي كتابة رسالة « للاسكندر » يطلب فيها الصلح ، ولكن رجال
« دارا » غدروا به عندما تأكدوا من ضياع ملكه وسيطرة « الاسكندر »
وجيوشه ، فبادر وزيراه باغتياله تقريباً إلي « الاسكندر » ، وأسرعوا إلي
إبلاغه بما حدث ، فانتقل « الاسكندر » إلي مكان الحادث للتأكد من
حقيقة الأمر فوجد « دارا » مازال علي قيد الحياة يلتقط أنفاسه الأخيرة
في مرتع مصرعه فأمر « الاسكندر » بالتحفظ علي مغاليه ، وتأثر
لحالة « دارا » تأثراً شديداً حتي ملأت الدموع عينيه ، وقني أن يشفي
ويتولي عرشه وسلطانه علي كل ممالكه مرة ثانية فسعد « دارا » بهذا
القول ولكنه كان يلفظ أنفاسه الأخيرة فأوصي « الاسكندر » أن يحسن
رعاية الشعب الإيراني ، وإلي أولاده ونسائه وآل بيته ، وطلب منه أن
يتزوج بـ « روشنك » ابنته لعلها تنجب ولداً يسمى « اسفنديار » يدين
بالديانة الزرادشتية أو يقيم الأعياد الفارسية « النوروز » والمهرجان ،
وفارق « دارا » الحياة ، وصارت الأقاليم والممالك الإيرانية تحت
سيطرة « الاسكندر » الذي كان خصماً شريفاً وفيماً « لدارا » حيث أمر

(١) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ١٣٠ .

بأن ينصب له تختاً من الذهب ، ويكفن في الوشي والحرير ، ويطيّب بالكافور ، وتنتشر عليه الورود ويوضح في تابوت من الذهب ، وتقام له طقوس الدفن وفق مناسك المعتقدات اليونانية (١) .

وبعد ذلك أرسل « الاسكندر » رسالة إلي عظماء إيران مع رجاله الذين جاءوا أصفهان ونفذوا أوامره بتبليغ السلام والتحية إلي أسرة « دارا » وكبار رجال إيران ، وأخبروهم بوفاة « دارا » وحرص « الاسكندر » علي تنفيذ الوصية برعاية أولاده وزوجته وأقربائه والشعب الإيراني (٢) .

وهكذا تخرج أصفهان من سلطان الإيرانيين وتخضع لنفوذ اليونانيين في حياة يملؤها الرضا بحكم « الاسكندر » والإذعان له بالطاعة والولاء ، وجلس « الاسكندر » علي عرش إيران سلطاناً علي ممالكها نحو أربعة عشر عاماً ، وفي هذه الفترة شهدت أصفهان عصراً جديداً يتسم بالتطورات في الحياة الاجتماعية ، والانشاءات العمرانية ، ويتلاءم مع ما طرأ علي إيران من تغيرات سياسية .

فقد سعي « الاسكندر » إلي تنفيذ وصية « دارا » فأرسل كتاباً إلي أصفهان يعزي فيه زوجة الملك ، ويؤكد فيه علي وصية « دارا » إليه بأن يتزوج من « روشنك » نطلب تجهيزها وإرسالها إلي اصطخر مع

(١) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨٠٢ - ١٨٠٤ ، ج ٦ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨٠٤ - ١٨٠٥ ، ج ٦ .

مريد أصفهان ، وكذلك أرسل كتاباً آخر إلي العروس « روشنك » يعزيها ويخبرها بوضعية والدها بإتمام الزواج ^(١) .

هذا وقد وصل كتاب إلي « الاسكندر » فيه رد زوجة « دارا » ويتضمن موافقتها علي زواج ابنتها « روشنك » وولاءها « للاسكندر » بالطاعة ودعاءها له بدوام ملكه ، وكذلك وردت أخبار سارة إلي « الاسكندر » مع الفيلسوف - حامل الرسالة - عن العروس وماتمتع به من حسن جمالها ، وروعة بهائها ، وعلو قدرها وعظيم شأنها ^(٢) .

وكان لهذه الأخبار السارة عظيم الأثر علي « الاسكندر » فاستدعي أمه من « عمورية » وأرسلها إلي أصفهان في موكب عظيم يصحبها فيه عشرة فلاسفة من المترجمين وتحمل الطوق والسوار والتاج المرصع بالجوهر النفيس ، وتتبعها الأحمال بالخيرات الوفيرة منها مائة جمل محملة بالشباب المطرزة ، وعشرة جمال محملة بالحرير الرومي ، وثلاثين ألف دينار من النثار ، وثلاثمائة جارية رومية .

وعندما اقترب موكب أم « الاسكندر » من أصفهان خرجت زوجة « دارا » مع كبار رجال أصفهان وعظيم علمائها ثم نزلت في الايوان حتي صحبت العروس وجهازها وأحمالها إلي اصطخر حيث يقيم ابنها « الاسكندر » ، وكان لهذا الزواج أثر كبير في نفوس الإيرانيين فعملوا علي الطاعة والإخلاص « للاسكندر » ^(٣) ويذكر صاحب مجمل

(١) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨١٠ - ١٨١٢ ، ج ٧ - ط بهوخيم - تهران ، ١٣١٤ هـ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨١٢ - ١٨١٣ ، ج ٧ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٨١٣ - ١٨١٥ ، ج ٧ .

التواريخ ^(١) والقصص أن « الاسكندر » بني مدينة « شهرستان » في أصفهان .

وبعد عهد « الاسكندر » أصبحت إيران في أيدي ملوك الطوائف الذين حكموا إيران مائتي سنة ، وكان يطلق عليهم « الاشكانيون » ^(٢) وظلت أصفهان متداولة بين هؤلاء الملوك حتي صارت ملكاً « لبهرام » الذي كان يطلق عليه « أردوان الأعظم » ^(٣) .

أما في العصر الساساني أصبحت أصفهان ولاية تابعة للملوك آل ساسان وتحمل منها الدنانير ، ويذكر « الفردوسي » أن « بهرام بن يزدجرد » المعروف « ببهرام جور » كان يأمر بحمل الدنانير إليه من الري وأصفهان ^(٤) .

وعندما جلس علي عرش إيران « كسري أنو شروان » قسم المملكة إلي أربعة أقسام الأول خراسان ، والثاني أصفهان والثالث فارس والأهواز ، والرابع العراق والروم وبذلك صارت أصفهان مولد العظماء ومنشأ الملوك تمثل قسماً من أقسام المملكة الإيرانية يخضع لتنفيذ « كسري أنو شروان » ^(٥) .

(١) مجمل التواريخ والقصص ، ص ٥٧ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٩٢٢ ، ج ٧ .

(٣) فردوسي : شاهنامه ، ص ١٩٢٣ ، ج ٧ .

(٤) فردوسي : شاهنامه ، ص ٢١٩٤ ، ج ٧ .

(٥) فردوسي : شاهنامه ، ص ٢٣١٤ - ٢٣١٥ ، ج ٨ .

ونظراً لجمال أصفهان كان ملوك الفرس يفضلونها علي سائر بلدان
مملكتهم لما تتميز به من طيب هوائها ، وعذوبة مائها ، ونسيم
تريتها^(١).

ويذكر الفردوسي أن « هرمزد بن كسري أنو شروان » كان يقضي
ثلاثة أشهر الخريف فيها ليستمتع بهوائها الجميل ، وأماكنها
العظيمة^(٢).

وكان الملوك يؤثرون أهل أصفهان لخدمتهم لما عرف عنهم من
شجاعة وبأس فيروي أن « أردشير بن بابكان » لم يستطع أن ينتصر
علي ملوك الأرض إلا بنجدة أهل أصفهان له^(٣).

وكان « أنو شروان » يفضل جند أصفهان علي جند الأرض
أجمعين^(٤).

ويذكر أنه في عهد « كسري أبرويز » كان في جملة خدمته
ثلاثمائة وثلاث وسبعين رجلاً منهم مائتان وثلاثون رجلاً أصفهانياً ، ولم
يؤهل لحفظ الراية « درفش كاويان » سوى أهل أصفهان^(٥).

(١) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٣٤ .

(٢) فردوسي : شاهنامه ، ص ٥٧٩ ، ج ٨ .

(٣) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤١ .

(٤) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤٢ .

(٥) المافروخي : ص ٤٠ .

وكان « أبرويز » يقول : « لا يتم أمرنا إلا بمعونة أهل أصفهان »^(١).

وعلي أية حال ظلت أصفهان إقليماً خاضعاً لملوك « آل ساسان » إلى أن فتحها المسلمون في عهد أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » - رضي الله عنه - .

أصفهان ولاية إسلامية :

لا خلاف في أن فتح المسلمين لأصفهان كان في خلافة أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ، ولكن الاختلاف بين المؤرخين حول تاريخ دخول المسلمين أصفهان وفتحهم لها . فإن مدرسة الكوفة التاريخية تري أنها فتحت عام ١٩ هـ التاسع عشر الهجري ، عندما اتجه عبد الله بن عتبان إلى « جي » وكان يحكمها « پاذوسپان » أحد حكام الدولة الفارسية وبعد عدة وقائع حربية اضطر حاكمها إلى التسليم راضياً بدفع الخراج^(٢) .

ويذكر الطبري أنها فتحت في العام ٢١ هـ الحادي والعشرين من الهجرة ، بعد موافقة « عبد الله » علي مبارزة « الفاذوسفان » حاكم أصفهان ثم دخل « عبد الله » و « أبي موسي » « جي » مدينة أصفهان وكتب بذلك إلى أمير المؤمنين فاستخلف عليها السائب بن الأقرع^(٣) .

(١) المافروخي : ص ٤٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : مادة أصفهان ، ص ٤٧١ ، ج ٣ ، ط الشعب

(٣) الطبري : تاريخ : حوادث ، ٢١ هـ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ج ٤ .

وهذا وتري مدرسة ^(١) البصرة أن فتحها كان علي يد « أبي موسى الأشعري » وعبد الله بن بديل في بعض سنة ٢٣ هـ و ٢٤ هـ .
ويذكر « أبو نعيم » أن فتحها كان آخر سنة عشرين وقيل إحدى وعشرين من الهجرة ^(٢) .

ويبدو أن السبب في هذا الاختلاف يرجع إلي كثرة الأحداث قبل أن يتم الفتح لأصفهان وكأن المؤرخين خلطوا بين بداية توجه المسلمين إلي أصفهان وبين إتمام فتح أصفهان ولعل أرجح هذه الآراء هو ماذهب إليه « الطبري » وهو أن فتح أصفهان تم في عام ٢١ هـ ، وذلك لأن تسلسل الأحداث التاريخية في الفتوح الإسلامية يجعل ذلك أقرب إلي الواقع .
وعلي أية حال أصبحت أصفهان ولاية إسلامية بعد أن فتحت صلحاً علي أن يؤدي أهلها الخراج والجزية ، وصارت خاضعة لأحكام الخلافة الإسلامية في عهد « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه .

وجاء في كتاب صلح أصفهان : « بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد الله للفساد وسفان وأهل أصفهان وحواليها انكم آمنون ما أديتم الجزية وعليكم من الجزية علي قدر طاقتكم علي كل سنة تؤدونها إلي الذي يلي بلادكم علي كل حال ودلالة المسلم وإصلاح طريقة وقراه يومه

(١) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ ، ط ليدن ، ١٣٠٢ هـ .

البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٢١ ، ط شركة طبع الكتب العربية ، ١٣١٧ هـ - ١٩٠٠ م .

(٢) أبو نعيم الأصفهاني : ذكر أخبار أصفهان ، ص ١٧ ، ج ١ .

(٣) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٢٦ ، ط ليدن ، ١٩٣١ م .

وعادت لقوحا أصبهان بأسرها تدر لنا منها القري والدراهم
واني علي عمد قبلت جزاءهم غداة تفادوا والفجاج قواتم
ليزكو لنا عند الحروب جهادنا إذا انتطحت في النخلتين الهماهم^(١)

ويتضح في هذه الأبيات اعتزاز « عبد الله » ، وفخره بهذا الفوز العظيم الذي حققه جيش المسلمين تحت قيادته ، مشيراً إلي المباراة الشهيرة التي كانت بينه وبين « الفاذوسفان » حاكم أصفهان في ذلك الوقت ، والتي هزم فيها « الفاذوسفان » وكان من نتائجها قبول دفع الجزية ، وفتح أصفهان صلحاً .

وقد جعل أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » « السائب بن الأقرع » والياً علي أصفهان وظل في منصبه هذا حتى عهد « عثمان بن عفان »^(٢) - رضى الله عنهما - ثم أخذ يليها الولاة من قبل الخلفاء .

ففي عهد « علي بن أبي طالب » - كرم الله وجهه - وليها « يزيد بن قيس »^(٣) ثم جاء بعده « عمر بن سلمة »^(٤) والياً عليها .

وكان مسجد خشينان - الذي بناه « أبو خناس » مولى « عمر ابن الخطاب » - أول مسجد كبير يبنى بأصفهان في خلافة « علي بن أبي طالب » - رضى الله عنهما -^(٥) .

(١) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ص ١٤٧ ، ج ٣ ، حوادث سنة ٣٤ هـ - ط بيروت ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ص ٣٢٨ ، ج ٣ ، حوادث سنة ٣٧ هـ .

(٤) نفس المصدر : ص ٣٩٩ ، ج ٣ ، حوادث سنة ٤٠ هـ .

(٥) أبو نعيم الأصفهاني : ذكر أخبار من أصفهان ، ص ١٧ ، ج ١ .

وليلته وحملان الراجل إلي مرحلة ولا تسلطوا علي مسلم وللمسلمين
نصحكم وأداء ماعليكم ولكم الأمان ما فعلتم فإذا غيرتم شيئاً أو غيره
مغير منكم لم تسلموه فلا أمان لكم ومن سب مسلماً بلغ منه فإن ضربه
قتلناه وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن
عبد الله « (١) . وقال عبد الله في فتح أصفهان :

ألم تسمع وقد أودي ذمي — ما بمنعرج السراة من أصفهان
عميد القوم إذا ساروا إلينا بشيخ غير مسترضي العنان
فساجلني وكنت به كفيلاً فلم يثبت وخر علي الجران
برستاق له يدعي إلي — طوال الدهر في عقب الزمان
نزلت به وقد شرقت ذيولي بمعضلة من الحرب العوان
وكنت زعيمها حتي تراخت ولم يعني بها أحد مكاني (٢)
وقال أيضاً في يوم « جي » :

من مبلغ الأحياء عني فاني نزلت علي جي وفيها تفاقم
حصرناهم حتي سروا ثمت انتزوا فصدهم عنا القنا والقواصم
وجاد لها الفاذوسفان بنفسه وقد دهدهت بين الصفوف الجماجم
فبارزته حتي إذا ما علوته تفادي وقد صارت إلينا الخزائم

(١) أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ٢٦ ، طليد ، ١٩٣١ م .

(٢) نفس المصدر : نفس الصفحة .

ويعتبر « سعد بن اياس » أول من كتب بالعربية في ديوان أصفهان، وأول من علم الناس القرآن من أهل أصفهان ويقال : « إنه استقر المسلمون بها فلم يجد إلا ثمانين رجلاً لم يكن فيهم ممن يحفظ القرآن إلا ثلاثة فلم يحل الحول حتي تعلم عامة الناس القرآن وحفظوه » (١).

وفي أيام الخليفة « مروان بن الحكم » تولى « الهذيل بن قيس العنبري » أصفهان ، ومنذ ذلك الوقت صار العنبريون ولاية عليها (٢).

وكانت أصفهان مطعماً للولاية في عهد « عبد الملك بن مروان » حتي أن كل من كاتبه رغب في إمرة أصفهان حتي قال الخليفة « أي شيء هذه أصفهان حتي كلهم يطلبها » (٣) . ولم يف لأحد شرط عليه ذلك (٤).

وكان « عتاب بن ورقاء » ممن حظوا بولاية أصفهان في عهد « عبد الملك بن مروان » (٥) .

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٩٧ ، ط لندن ، ابريل ١٨٩١ م .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٢١ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ : ص ٣٢٥ ، ج ٤ ، حوادث سنة ٧١ هـ .

(٤) ابن الأثير : تاريخ : ص ٣٣١ ، ج ٤ ، حوادث سنة ٧١ هـ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ، ص ٣٢٦ ، ج ١ ، الخانجي بمصر والثني بغداد .

١٣٨٠ هـ .

ويذكر أن الحجاج بن يوسف الثقفي كان يعني بتولية حاكم أصفهان في هذه الفترة حيث كان البراءة بن قبيصة عاملاً علي أصفهان من قبل الحجاج (١) .

ويخبرنا صاحب فارس نامه (٢) أن الحجاج كان قد أرسل «محمد ابن يوسف» والياً علي شيراز و أصفهان .

وفي أيام « هشام بن عبد الملك » نزل « أبو دلف القاسم بن عيسى بن ادريس » الكرج وسيطر عليها وبنى حصناً قوياً فيها ، ولما ازداد نفوذه وعظم شأنه عند الخليفة كبر هذا الحصن وزاد فيه وسماه «الكرج» فقبل كرج أبي دلف ، وصارت الكرج مصراً من الأمصار وكانت فيما سبق رستاقاً تابعاً لأصفهان ، فأصبحت اليوم منفصلة بذاتها وتسمي «الإيغارين» (٣) .

وهكذا استمرت « أصفهان » ولاية إسلامية تخضع لسلطان الخلفاء ضمن الأقاليم الفارسية التي خضعت للخلافة الإسلامية في بغداد قرابة ثلاثة قرون ، وصار تاريخ أصفهان توأماً لتاريخ بغداد (٤) .

وفي هذه الفترة شهدت أصفهان تطورات كبيرة بعضها يتعلق بالعمران والبناء وبعضها يرتبط بسياسة الدولة الإسلامية ، وهي في

(١) الطبري : تاريخ : ص ٢٩٤ ، ج ٦ حوادث سنة ٧٧ هـ .

ابن الأثير : تاريخ ك ص ٤٣٥ ، ج ٤ ، حوادث سنة ٧٧ هـ .

(٢) ابن البلخي : فارس نامه ، ص ١٣٢ .

(٣) الهملاني : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ .

(٤) أصفهان : حسين نورصادق ، ص ٦ .

أوج قوتها وازدهارها ، أو في عصر ضعفها وانحلالها ، وما يترتب علي ذلك من أحداث .

فقد كان العرب في زمن العجليين من قبيلة تيم قد سكنوا أطراف أصفهان ، وتولوا الرئاسة والسلطة عليها ، وشيدوا الأحياء والمباني.

وفي الوقت الذي قرر فيه مرداويج التوجه إلي أصفهان ، بني « آل أبي دلف » العمارات العالية والقصور علي غرار مثيلاتها في الكرج خارج مدينتهم من بقاع أصفهان ، وبذلك اتسعت مدينة أصفهان ، ويذكر المؤرخون أنه اتسع ملكها بحيث كان في شمالها كاشان وقم وجزء من أصفهان وتنتهي في الري ، وضمت من جهة الغرب « الكرج » و « جايلق » و « بربرود » وتنتهي « بهمذان » ، ومن الجنوب كانت « ايزدخواست » جزءاً منها وتنتهي بفارس ، أما من ناحية الشرق فكانت تنتهي ببزد التي هي جزء من فارس ^(١) . وفي سنة ١٥٢ هـ كان الخليفة العباسي « أبو جعفر المنصور » قد أصابه مرض ، ولم يكن جو بغداد وهواؤها مناسباً له ، فجمع حكماء عصره ووزراء مملكته وطلب منهم أن يبحثوا له عن مكان أصح من بغداد هواء ، وأعذب ماء كي يشيدوا فيه بناء ينتقل إليه ويعيش فيه ، فتفاوضوا وأجمعوا علي بناء قصر للخليفة بجوار « زندروز » ^(٢) . وأن يبني سور حول أصفهان

(١) حسين صادقي : أصفهان ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) « زندروز » : اسم نهر عظيم يجري بأصفهان ، ويقال له بالفارسية « زرينه رود » أي نهر الذهب ، و « زنده رود » النهر العظيم فعبروا الأولي وقالوا « زونروذ » والثانية فقالوا « زندروذ » ، وكيل « زندروذ » معرب « زنده رود » أي النهر الحي ووجه التسمية =

فأمر الخليفة بمخاطبة « أيوب بن زيار » عامله علي أصفهان بتنفيذ ذلك، فشبّد قصرًا وبني مسجدًا ولكن الخليفة عدل عن هذه الفكرة عندما تحسنت صحته في الوقت الذي أوشك فيه « أيوب » من إتمام البناء^(١).

وفي خلافة المنتصم دخل كثير من أهل أصفهان في دين الخرمية ضمن أهل الجبل وهمذان وماسبذان وغيرها ، وعسكروا في همذان فأرسل إليهم الخليفة جنودًا بقيادة « اسحاق بن إبراهيم بن مصعب » فأوقع بهم في أعمال همذان ، وقتل منهم ستين ألفًا ، وفر الباقون إلي الروم^(٢).

وفي هذه الفترة اتسعت أصفهان حيث أضيف إليها خمس عشرة قرية ، وأعيد بناء المسجد في سنة ست وعشرين ومائتين^(٣).

وبذلك أخذت أصفهان تزداد اتساعاً ، وعمراناً حتي كثرت رسائيقها^(٤)، بحيث اختلف المؤرخون في عددها .

= مختلفة أما علي الأولى وهي « زرينه رود » لأن أهالي أصفهان يزرعون بمائه الفلات ويبيعونها في سائر البلاد ويأخذون الذهب عوضاً لمحصولاتهم وكان « زرينه رود » يعطيهم الذهب وعلي الثانية لأنه نهر عظيم ، وعلي الثالثة لأنه لا ينقطع أبداً بل يجري في أيام السنة فكانه حي ، وللزنده في اللغة الفارسية معنيان : الحي والعظيم ، ويقول بعضهم ان اسمه « زابنده رود » أي النهر التابع لأن ماءه ينبع .

(١) المافروخي الأصفهاني : كتاب محاسن أصفهان ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٤٤١ ، ج ٦ ، حوادث سنة ٢١٨ هـ .

(٣) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨٤ .

أبو نعيم : ذكر أخبار أصفهان ، ص ١٧ .

(٤) رسائيق : جمع « رستاق » والرستاق هو « الرزداق » و « الرسداق » و « الرزتااق » وهو لفظ فارسي معرب يعني السواد وموضع فيه مزدورع ، وقرى أو بيوت مجتمعة .

(انظر : الجواليقي) : المعرب ، ص ٢٠٦ ، ط دار الكتب ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

فصاحب معجم البلدان يذكر أن أصفهان تشتمل علي ستة عشر رستاقاً^(١) . بينما يذكر ابن خرداذبه والهملاني أن عدد رساتيق أصفهان سبعة عشر رستاقاً^(٢) . أما « ابن رسته » فيخالف ذلك ويذكر أن عدد رساتيق أصفهان يبلغ عشرين رستاقاً وهي : « جي » وهو القصبة وبه مدينتها وأسواقها ومجمع أهلها ومعانيه التي يفضل بها علي سائر الرساتيق كثيرة أولها أن الذي جعله القصبة ، وبني به مدينته وهو يملك البلد كله لم يفعل ذلك إلا وهو أصح المواضع التي به تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء واجمعها للخلال التي يصلح بها لأن يكون مسكن الملوك والرعية .

والآخر « ماريين » وهو متصل برستاق « جي » ومن طيبه ونزهته أن بعض الأكاسرة القدماء ويقال أنه كيقابوس اجتاز به واستطابه وأمر فبني له علي قبة فيه تطل علي وادي الزرينود قلعة منيعة عظيمة الشأن إذا علاها الرجل أشرف علي جميع الرستاق فلما ملك « بهمن بن اسفنديار » قد كان الدهر عمل في القلعة وأحرقها فبني دونها حصناً نصب فيه بيت نار رهوياق إلي هذا الوقت والنار أيضاً باقية فيه .

ومنها « الأنجان » وهو أوسعها رقعة وأكثرها نزهة وأغزرها ماء وأزكاها هواء وأكثرها أشجاراً وأطيبها ثماراً وبه كان يسكن أكثر

(١) باقوت الحموي : معجم البلدان ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ج ١ .

(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٧٦ - الهملاني : مختصر كتاب البلدان .

الأشراف الذين كانوا ينزلون الأطراف ومنازلهم به قائمة وآثارهم باقية وهي علي جلالتهم وسعة نعمتهم دالة .

ومنها « برآن » و « طرح الروذ » و « رويشت » و « به يصل البسط التي لا ترتفع عن فرشها واستعمالها الرؤساء والأجلة ولا تستكثر للأوساط والسوقة مشهور في الأناق حسنها وجودة صنعها وبقائها وان استعملت مع الأرسني الفاخر من الفرس حسنت معه وإن بسطت وحدها اجتزي بها وكان يحمل به الستور المرتفعة التي تفوق الموصلية والواسطية حسناً وجودة بقاء .

ومنها « اردستان » في ضياعها ضيعة يقال لها اردستان وباصمها سمي الرستاق لجلالتها ونفاستها وبها كان مولد « كسري أنو شروان » ومنها حمل إلي دار المملكة فملك وكان يختلف معه إلي كتابة ثمانين صبياً من أهل هذه القرية فلما ملك حملهم إلي حضرته ووصلهم وأكرمهم وأمر قبني لكل واحد منهم قصر يسكنه علي ضن الملوك كان في ذلك العصر بإطلاق البنائات الفاخرة إلا لمن يستحق ذلك بحال من أحواله ثم إذا أطلق لم يجسر البائي علي تجاوز المقدار الذي حدد له الطول والعرض والارتفاع وتلك القصور باقية إلي هذا الوقت يفتخر بها أعقابهم .

ومنها « برزاوند » و « برخوار » و « جرمقاسان » و « صردقاسان » و « الران » و « الثيمرة الكبرى » و « الثيمرة الصغرى » و « الحيز من انار » و « الران » و « فريدين » و « كروان » و « قهستان » و « القمدان » .

ويشتمل كل رستاق علي ضياع كثيرة يزيد جملة جميعها علي ألفين وثلاثمائة قرية .

وليس هناك وصف أبلغ من وصف المافروخي لهذه الرساتيق في قوله : « أكثر هذه الرساتيق ضياع وصحار فاهقة الأنهار ، وأيثة الأشجار ، كثيرة الثمار متكاملة الدخل ، متكافئة الأهل لا يعدم المضطرب في سعت منها غصناً أملوداً ، وظلاً ممدوداً ومقاماً مشهوداً ، وأرضاً مفروشة من السندس والاستبرق بضروب من المنور والمورق قد أوسعت تغشية وتفنيقاً وتوشية وتنميقاً ، تحاكي بترابها العبيد ، وتباري بحصبائها اللؤلؤ النثير ، وتشاكة بأنورها الديباج والحريز ، كأنها غارت علي الغواني فانتبهت من خزائنهن الأسقاط ، وقطعت من ترابيهن الأسماط ، وأغارت علي الزاين فابتزتهم علائق التخوت وتفانس الدستوت تشم نسيماً معطراً ، وتجلو بسيطاً محبراً ^(١) .

وكان لأصفهان سور فيه مائة برج ، وأربعة أبواب في أربعة مواضع من السور أحدها باب خور وتفسير خور « الشمس » وباب ماه وتفسيره ماه « القمر » ويسمي هذا الباب باب أسفيس ، والباب الثالث تيريره ومعناه باب عطارده ، وهو المعروف بباب تيره ، والباب الرابع باب كوش بر وهو المعروف بباب اليهودية .

وصنعت هذه الأبواب بدقة هندسية بحيث « إذا حلت الشمس درجة من الجدي تطلع في باب خوره وتغرب في باب اليهودية ، وإذا

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٤٩ .

حلت الشمس أول درجة من السرطان طلعت في باب أسفيس وتغرب في تيره» (١).

وفي سنة ٢٣٥ هـ عقد الخليفة المتوكل البيعة لبيه بولاية العهد وكانت أصفهان ضمن إقطاعات ابنه « محمد » الملقب « المنتصر بالله » (٢).

ونظراً لوفرة خيرات ضياع أصفهان اشتد الصراع حولها مما أدى إلي مقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، وذلك لأنه « أمر بإنشاء الكتب بقبض ضياع وصيف بأصفهان والجبل وإقطاعها الفتح بن خاقان » (٣).

أصفهان في عصر الدويلات :

ومع ضعف الخلافة العباسية وازدياد نفوذ العنصرية الإيرانية ، وظهور شخصيات أعجمية فارسية أو تركية تسعى لبسط نفوذها علي الولايات الإيرانية وتشجع علي إحياء القومية الفارسية ، ظهرت بعض الدويلات كالدولة الطاهرية والصفارية والسامانية والزيرية والبويهية والغزنوية والسلجوقية أثبتت وجودها علي الساحة السياسية ، وفرضت سيطرتها علي الأقاليم الفارسية واستطاعت أن تقوض نفوذ الخلافة العباسية ، وتسهم وتشجع علي إحياء القومية الإيرانية .

(١) ابن نعيم الأصفهاني : ذكر أخبار أصفهان ، ص ١٥ .

ابن رسته : الأعلام النفسية ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ : ص ٤٩ ، ج ٧ ، حوادث ، سنة ٢٣٥ هـ .

(٣) الطبري : تاريخ : ص ٢٢٢ ، ج ٩ ، حوادث ، سنة ٢٤٧ هـ .

كما أسفر عن ظهور شخصيات قوية لها طموحات ومطامع سياسية أخذت تساند هذا التيار القومي ، وتدخل في غمار الصراع الدائر من أجل السلطة ، وفرض السيطرة على الأقاليم والولايات الإيرانية التي تخضع للخلافة العباسية .

ولما كانت أصفهان واحدة من المدن الفارسية العريقة التي شهدت أحداثاً جساماً قبل وبعد الإسلام كان لابد أن تعثر بها يد هذا الصراع في عصر الدويلات الإيرانية .

وكان « طاهر ذو اليمينين » أول هذه الشخصيات الإيرانية التي حاولت الاستقلال فبعد أن كان قائداً لجيش الخليفة المأمون أصبح حاكماً علي خراسان ، ثم اتخذ نيسابور عاصمةً لملكه ثم أصبح هذا المنصب وراثياً لابنيه وحفيده وابن حفيده ، وعرف حكام هذه الدولة باسم الطاهريين وحكموا (١٩٥ - ٢٦٠ هـ) (١) .

وكانت شخصية « يعقوب بن الليث الصفاري » هي الشخصية القوية التالية التي ظهرت في إيران ، وكان ذا طموح عال فبعد أن كان نحاساً وقاطعاً من قطاع الطرق أصبح والياً علي خراسان من قبل الطاهريين ولكنه سرعان ما أسقط دولتهم ، وبسط نفوذه علي كرمان وفارس وأصفهان ، ولم يقنع بذلك بل حاول دخول بغداد ولكنه فشل ، وتوفي « ٢٦٥ هـ » (٢) .

(١) دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها : الترجمة العربية : عهد النعيم حسنين - إبراهيم الشواربي ، ص ٥١ ، ط القاهرة ، ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٢٥ ، ج ٧ ، حوادث ، سنة ٢٦٥ هـ .

ولما مات « يعقوب » أسرع أخوه عمرو بن ليث بإظهاره الطاعة والولاء للخليفة الموفق فحول إليه إمارة خراسان وفارس وأصفهان وسيستان والسند وكرمان (١) .

وبذلك أصبحت أصفهان ضمن الولايات التابعة لسلطانه نفوذ حكمها إلي « أحمد بن عبد العزيز » (٢) .

وفي سنة ٣١٦ هـ انتقلت أصفهان إلي حكم آل زيار وذلك بعد أن دخل « مردايج بن زيار » في حرب مع حاكمها « المظفر بن ياقوت » من قبل الخليفة العباسي « المقتدر بالله » - واستطاع « مردايج » أن يقهر « المظفر » ، ويستولي علي أصفهان .

وسار « مردايج » سيرة سيئة مع أهل أصفهان حيث أخذ أموالهم وهتك محارمهم وطغى واستكبر وبالغ في بناء ملكه ومظاهر عرشه فارتدي تاجاً مرصعاً وجلس علي سرير من ذهب وكان كبار قواده يجلسون علي سرير من فضة وعند جلوسه علي عرشه يقف العساكر صفواً بالبعد عنه وحجب نفسه فكان لا يخاطب أحداً ، وخصص الحجاب لمخاطبة الناس فخافوه خوفاً شديداً وكأنه بذلك أحيا ملك الدولة الساسانية وطبق مراسم الملك التي كانت تتبع في قصور الأكرسة (٣) .

(١) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٧٠ ، ط إقبال .

(٢) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٦٦ ، ط إقبال .

(٣) عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٧٩ .

وقد حرص « مردايج » أيضاً علي إحياء العادات والتقاليد الإيرانية إبان فترة حكمه ، مما يذكر في ذلك أنه في سنة ٣٢٣ هـ أقام حفلاً كبيراً علي نهر « زرين رود » قرب أصفهان وكان في هذا الحفل إحياء للعادات الفارسية في كل مكان بالوادي في وقت واحد وجعل في مجلسه الخاص تماثيل من الشمع ، وعمل له سباط كبير في الصحراء ، وجمع فيه آلاف كثيرة من الحيوانات والبقر والغنم ، ودعي الناس دعوة عامة إلي هذا الاحتفال (١) .

وكان للأتراك دور كبير في إعداد هذا الاحتفال رغبة في قتل « مردايج » فمازالوا يخدعون حراسه حتي سنحت لهم الفرصة وقتلوه في الحمام ، وقام وزيره « الحسن بن العميد » بنقله من أصفهان إلي الري حيث تم دفنه (٢) .

وقد سعد أهل أصفهان بمقتل مردايج لظلمه وجبروته ، وتخريبه لديارهم ، وعبر الشعراء عن فرحتهم الغامرة بذلك الحدث ومما يذكر في هذا الصدد :

علت أصفهان الأرض فضلاً مبيناً علي كل صقع والطوائف تشهد

(١) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٢٩٨ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٣ هـ .
آدم منز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص ٢٨٨ ، ج ٢ ، الترجمة العربية لأبي ريده ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان .
جشن سده : ص ٢١ ، ٢٢ ، ط طهران ، ١٣٢٤ هـ .
(٢) مجمل التواريخ والقصص : ص ٣٨٩ ، عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٩٨٠ .
حسين نور صادقي : أصفهان ، ص ٨ .

ومن فضلها أن الخليل دعا لها عليه السلام مادعا متهجدا
فصرنا به في ظل عزٍّ ومعقل حصين أمين الركن ليس يهدد
فمن يبغها غياً غوائل ينتكس وأورطه الأمر الذي كان يقصد
ولما يشنا من تولي أمورنا ولا يأس من روح الذي نحن نعبد
تجرد في الحمام يطلب راحة وغلتمته في قتله قد تجردوا
فعاجله التركيبي لله دره بمشقة والغرب منها محدد
وقال شاعر آخر :

جعل الله أصفهان قديماً في حمي دعوة الخليل أبينا
فهي شوم علي الظلوم فتوك بالطغاة الخوارج المعتدين
من بغى أهلها الفوائل والسو أذاقته في الهوان المنونا^(١)

وهذه الأبيات السابقة لخير تعبير يصور لنا مدي فرحة الناس بمقتل
مرداويج ، وقوة شعورهم بأن أصفهان أرض مباركة يحميها الله عز
وجل ويحفظها برعايته منذ دعوة الخليل لها ، وهي مصدر شؤم وشقاء
علي كل باغ أو معتد يريدها بسوء .

وفي هذه الفترة عاشت أصفهان فترة من الصراع والحرب نشأت
بين الزياريين والبهمنيين فبعد مقتل « مرداويج بن زيار » خضعت
أصفهان لحكم أخيه « وشمكير بن زيار » ولكن ركن الدولة « أبا علي

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٣٦ .

الحسن بن بويه « توجه لمحاربتة علي رأس جيش كبير ، وبذلك صارت أصفهان في يد ركن الدولة « ابن بويه » ويد « وشمكير » أخي « مرداويج » يتنازعان عليها ^(١) .

وحرص البويهيون علي إحراز انتصار في أصفهان فأرسل معز الدولة « أبو الحسن أحمد بن بويه » عسكره إلي أخيه ركن الدولة بأصفهان معونة له ومدداً علي حرب « وشمكير » ^(٢) .

فتمكن « أبو الحسن بن بويه » من إحكام سيطرته علي أصفهان ولكن مالبث أن يستقر البويهيون حتي أرسل « وشمكير بن زيار » جيشاً كثيفاً من الري إلي أصفهان فأزال بني بويه عنها واستولي عليها وخطب فيها لـ « وشمكير » ، ثم سار ركن الدولة إلي بلاد فارس ونزل بظاهر اصطخر بينما سار « وشمكير » إلي قلعة « الموت » فملكها ^(٣) .

وفي سنة ٣٢٨ هـ عاد ركن الدولة واستولي علي أصفهان وأخرج عنها أصحاب « وشمكير » فقتل بعضهم وأسر بعضهم ، وكان سبب ذلك أن « وشمكير » كان قد أنفذ عسكره إلي « ماكان » نجدة له فخلت بلاد « وشمكير » من العساكر ، وسار ركن الدولة إلي أصفهان وبها نفر يسير من العساكر فهزمهم واستولي عليها ، وكان هو وأخوه

(١) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٢٣ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٤ هـ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٤٢ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٦ هـ .

(٣) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٧ هـ .

عماد الدولة أبو علي بن محتاج يحرضانه علي «ماكان» و «وشمكير» ،
ويعدانه المساعدة عليهما ، فصار بينهم بذلك مودة ^(١) .

وفي سنة ٣٤٤ هـ خرج عسكر خراسان بقيادة « محمد بن ماكان »
إلي أصفهان فدخلوها ، وكان بها « الأمير أبو منصور بويه » بن ركن
الدولة ، فلما علم بقدمهم خرج عن أصفهان بالخزائن فأخذها وحرّم أبيه
ثم خرج « ابن ماكان » من أصفهان طالباً ابن بويه حتي أدرك الخزائن
فأخذها وسار في أثره ، ومصادفة اتصل في ذلك الوقت الأستاذ
« أبو الفضل بن العميد » وركن الدولة فعارض « ابن ماكان » وقاتله ،
ولكن الهزيمة لحقت أصحاب ابن العميد ، واشتغل أصحاب « ابن
ماكان » بالنهب .

وبقي « ابن العميد » وحده حتي لحق به نفر من أصحابه ، ووقفوا
معه ، وأتاهم غيرهم فاجتمعوا وحملوا علي الخراسانيين وهم مشغولون
بالنهب وألحقوا بهم الهزيمة فكانوا بين قتيل وأسير وأسّر « ابن ماكان »
وأحضر عند ابن العميد ، واتجه « ابن العميد » إلي أصفهان فأخرج من
كان بها من أصحاب « ماكان » وأعاد أولاد ركن الدولة وحرّمه إلي
أصفهان واستنقذ أمواله ^(٢) .

وكان أبو الفتح بن العميد وزير ركن الدولة قد علا شأنه بحيث
يتدخل في معالجة ما يحدث من خلافات بين ركن الدولة وابنه عضد

(١) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٣٦٩ ، ٣٦١ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٢٨ هـ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ، ص ٥١١ ، ج ٨ ، حوادث ، سنة ٣٤٤ هـ .

گردیزی : تاریخ گردیزی یازین الأخبار ، ص ٣٠ ، ط تهران ، ١٣٢٧ هـ . ش .

الدولة ، وكان يبذل جهداً كبيراً في هذا الصدد حتي أنه في آخر أيام ركن الدولة - عندما اشتد عليه المرض ولزم الفراش - رتب أبو الفتح لقاء بمنزله في أصفهان حضره ركن الدولة وأولاده ، وتم في هذا الاجتماع تقسيم الولايات التابعة له بين أبنائه ، وأمر فخر الدولة ومؤيد الدولة بتنفيذ أوامر أخيهام عضد الدولة ، والإذعان له بالولاء والطاعة^(١).

وظلت أصفهان خاضعة للبويهيين ، واتخذها عضد الدولة - الذي كان من أبرز شخصيات بني بويه - عاصمة للملكة^(٢) . وكانت أصفهان في ذلك العهد مركزاً من المراكز المشهورة في العلم والأدب نتيجة لتوجه أمراء آل بويه ووزرائهم إليها^(٣) ، وعلي الرغم من الأصل الفارسي للبويهيين نال الأدب العربي واللسان العربي والعلوم العربية التشجيع في ذلك العصر حتي « كان ممن نبيغ من العملاء والأدباء والفلاسفة في إتقدهم من يعد بحق فخر المملكة الإسلامية في العصور المختلفة »^(٤) . وكان عضد الدولة يشجع النهضة العلمية والأدبية بنفسه وكانت تقام في مجلسه المناظرات^(٥) .

(١) غياث الدين بن همام المعروف بخواندميز : دستور وزراء ، ص ١١٧ ، ط تهران ، ١٣١٧ هـ . ش .

(٢) دونالدولبر : إيران ماضيها وحاضرها ، ص ٥٤ .

(٣) ذبيح الله صفا : تاريخ علوم عقلي در تمدن إسلامي تا أواسط قرن ينجم : ص ١٥٤ ، ج ١ ، ط داتشكاه تهران ، ١٣٤٦ هـ .

(٤) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ص ٢١٧ ، ج ١ ، ط النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م .

والتي جانب الاهتمام بالنهضة العلمية والأدبية اعتنى صاحب بن
عباد وزير البويهيين بالجانب العمراني في أصفهان ، ويعتبر جامع
جورجير من أعظم المباني التي شيدت في هذا العصر ، ويصف
«المافروخي» هذا الجامع في معرض حديثه عن محاسن أصفهان فيقول:
« والجامع الحديث الصغير المشهور بجورجير الذي بناه صاحب كافي
الكفاة وقد أوتي فضلاً علي الجامع الأكبر في صلابة الأطنان وارتفاع
المكان واستحكام البنيان والمثارة التي أجمع المهندسون علي أنه لم يكن
في العالم أرشق منها قدأ وأتم مدأ وأدق عملاً وأحكم تفصيلاً وجمالاً .
قد تأنق في إبداعها الصانع وتنوق ولطف في بنائها ودقق . اتخذها من
اللبن والطين في قرار مكين قيدت قاعدتها من الأرض بقفيز وشيدت
قائمها إلي جزر حريز ارتفاعها مائة ذراع ووسطحها باع في باع ، وفي
كل ماعدته وسردته من المساجد والخانكاها ودار الكتب للفقهاء
مدارس ، وللأدباء مجالس وللشعراء مواسم ومآنس ، وللمتصوفة
والقراء محابس»^(١) . وبذلك صارت أصفهان من المدن المتميزة في هذا
العصر فكانت كورة نفيسة كما وصفها صاحب أحسن التقاسيم^(٢) .

وعلي أية حال لم تدم أصفهان في أيدي البويهيين فبعد وفاة عضد
الدولة أخذت الدولة طريقها نحو الإنهيار مما أثار الطمع في الاستيلاء
عليها لدي حكام الأقاليم ، والراغبين في توسيع ممالكهم وبخاصة
الغزنويون^(٣) .

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٨٤

(٣) دونالد رليز : إيران ماضيها وحاضرها ، ص ٥٤

فقد استطاع علاء الدولة أبو جعفر كاكويه أن يفرض سيطرته ونفوذه علي أصفهان بعد أن أحكم حصاره عليها (١) .

ومع بزوغ نجم الغزنين ، وعلو نفوذهم ، واتساع ملكهم في إيران أظهر علاء الدولة أبو جعفر كاكويه الطاعة والولاء لهم حتي يبقوه حاكماً علي أصفهان (٢) .

فأقام الغزنيون في أصفهان ، وخاصة ولي العهد الأمير مسعود الغزني الذي أصبح حاكماً لأصفهان بعد أن استولي عليها وعزل عنها علاء الدولة أبا جعفر كاكويه ، ولما توفي السلطان محمود الغزني تولي حكم الدولة الغزنية ابنه السلطان مسعود (٣) .

وأرسل إليه أمير المؤمنين « القادر بالله » خطاباً يشفع فيه لعلاء الدولة أبي جعفر كاكويه ويطلب إعادة أصفهان إليه علي أن يكون نائباً للسلطان مسعود عليها ، ويقدم كل مايفرض عليه من مال ضماناً لحسن سيرته وولائه للسلطان ، وقبل السلطان مسعود كتاب أمير المؤمنين وأرسل إليه رسولاً وكتاباً يتضمن قبوله شفاعته أمير المؤمنين وامتنانه بذلك لأن أمير المؤمنين من حقه أن يأمر لا يطلب الشفاعة ، وعلي العبيد الالتزام والطاعة ، ويعرب فيه عن جدارة علاء الدولة بحكم أصفهان

(١) حسين صادقي : أصفهان ، ص ٨ .

(٢) عهد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٩١ .

(٣) كرديزي : تاريخ كرديزي يازين الأخبار ، ص ٧٢ .

حسين صادقي : أصفهان ، ص ٩ .

خليفة له ، وذلك لأنه أصبح مشغولاً بتدبير شئون الدولة الغزنوية بعد وفاة والده ^(١) ، فتم الاتفاق علي أن يكون علاء الدولة بن كاكويه خليفة للأمير مسعود علي أصفهان أثناء تغيبه عنها ، وأن يؤدي كل عام مائتي دينار هروي ، وعشرة آلاف ثوب من المنسوجات المنتجة في تلك البلاد ، علاوة علي هدايا أعياد النوروز والمهرجان من خيول عربية ، وبغال مسرجة ، وجميع آلات السفر ^(٢) .

هذا وقد وصل كتاب أمير المؤمنين « القادر بالله » متضمناً التعازي بوفاة السلطان محمود ، والتهاني للسلطان مسعود بإقراره علي حكم ولايات الري والجليل وأصفهان ، فسعد الأمير مسعود بهذه الرسالة وأمر أن تقرأ علي ملأ من الناس ، وأن تنفخ الأبواق ، وتدق الطبول استبشاراً بها وأن تنسخ صوراً من هذه الرسالة وترسل إلي أصفهان وطارم ونواحي الجبل وجرجان وطبرستان ونيسابور وهراة حتي يعلم الناس أنه خليفة أمير المؤمنين وولي عهد أبيه ^(٣) .

وبذلك عادت أصفهان لحكم علاء الدولة بن كاكويه ، واستمر حاكماً عليها من قبل الغزنيين حتي وفاته سنة ٤٣٣ هـ ^(٤) . وكانت مدة حكمه عليها قد بلغت نيفاً وأربعين عاماً ^(٥) .

(١) بيهقي : تاريخ بيهقي باهتمام غني وفياض ، ص ١٥ ، ط تهران ، ١٣٢٤ هـ .

(٢) بيهقي : تاريخ بيهقي ، ص ١٦ .

(٣) بيهقي : تاريخ بيهقي ، ص ١٧ ، ١٨ .

(٤) عباس إقبال آشتياني : تاريخ مفصل إيران از صدر إسلام تا انقراض قاجارية ، ص ٢١١ ، ط كتابخانه خيام

(٥) المافروحي : محاسن أصفهان ، ص ١٠٠ .

ومن الآثار العمرانية التي تركها ذلك السور العظيم الذي بناه
حول أصفهان فجعل أرضها متميزة به ، ومتفردة بحسنه ويصف
المافروخي روعة بنيان هذا السور فيقول : « ومن المحاسن التي تفردت
رقعتها بمزاياها وتخصصت خطتها بصفاياها ، السور الذي استحدثه
علاء الدولة حول البلدة وهو زهاء خمسة عشر ألف خطوة سوي ما أهمله
خارجاً عنها وعطله منقطعاً منها ، من المحال المشهورة مثل كما آن وبرأ
آن وسنيلان وخرجان وفرسان وباغ عبد العزيز وجروا آن وأشكهان ولنبان
ويذاباذ حصاراً راسياً في الثري أساسه وسامياً إلي الثريا راسه ، تراجع
بأركانه الجبال الراسيات ، ويناطح ببروجه النجوم الساريات ، فياله من
سور يماسي بقرنه السماء ، وخذق يداني بقعره الماء وحوله خندق
قد لجّ لجته فليس يم ولا نيل يناسبه وقد فتح منها أبواباً اثني عشر
حديدية يجوز كل واحد منها الفيلة بتخوتها والرايات منصوبة
بعذباتها»^(١).

ومن الأشعار التي قيلت في وصف هذا السور :

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب المطر
وتسيل دجلة تحته ففناؤه من لجة غمر وروض أخضر
وقيل عنه أيضاً :

سور علا قمة العــــــــــــــــيوق ذروته وجاوزت منطق الجوزا مناكبه

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨١ .

من دون أبرجة في أبرج الفلك الدوار تري متي تسري كواكبـه
لو كان يحضر يا جوجاً لـمـدفتحت نوماً وأعجزها نقباً مناقبه^(١)
وما ورد في هذه الأشعار يدل علي ضخامة هذا السور في
جوانبه، وعظمة علوه وارتفاعه ، وقوة رسوخه وثباته .

وقد تولي حكم أصفهان بعد علاء الدولة بن كاكويه ابنه ظهير
الدين أبو منصور قزاهرز ومازال عليها حتي بداية العصر
السلجوقي^(٢) .

وفي فترة حكم الغزنين شهدت أصفهان أحداثاً جساماً ولاسيما
عام ٤٢٣ هـ عندما شن السلطان مسعود غارته الشعواء علي أصفهان ،
وقتل ما لا يحصي عدده من البشر ، حتي قيل عنه إنه « فعل
مالاتفعله الكفرة »^(٣) .

ودخل الناس المسجد الجامع في جموع محتشدة مفزعة من جميع
أبوابه وأيضاً الجنود مشهرة أسلحتها ويصف المافروخي هذا الحادث
فيقول : « وتراعت أبواب المسجد بكراديس من الأتراك والهنود وسائر
الأصناف من الجنود ينسلون منها غضاباً مشرعين حراباً وشاهرين سيوفاً

(١) المافروخي : محاسن أصفهان ، ص ٨١ .

(٢) عباس إقبال آشتياني : تاريخ مفصل إيران ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٣) ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ص ٢٢٦ ، ج ٣ ، ط بيروت .

عضاباً ، فاحتشوهم ولم يجدوا عنهم وزراً ، وتقسمتهم النصال جزراً
فقتل بعضهم صبراً وأثخن بعضهم ف ضرب ضرباً هيراً (١) .

وفي هذه الفترة كذلك نمت وترعرعت فرق الإسماعيلية ، ونشأت
الصراعات بين المذاهب والفرق الدينية في أصفهان التي كانت مركزاً
للإسماعيلية منذ عهد السلطان محمود الغزنوي واستمرت حروبهم في
عهد السلطان مسعود الذي بذل كل جهده في مواجهتهم ولكنه لم
يستطع القضاء عليهم بل تنامت قدراتهم وازداد نفوذهم يوماً بعد يوم
حتى سنة ٦٠٠ ستمائة هجرية (٢) .

والتي جانب هذه الأحداث الحربية والصراعات المذهبية كانت
أصفهان واحداً من المراكز الحضارية المتميزة ، ومجمعاً للعلماء والأدباء
التي ازدهرت في العصر الغزنوي .

وعندما أخذ نجم الغزنويين في الأفول ، وأخذ يعلو نجم آل سلجوق،
كانت أصفهان مسرحاً للحروب بين جيش طغرل بك مؤسس الدولة
السلجوقية وأبي منصور بن علاء الدولة كاكويه سنة ٤٣٨ هـ ، واستطاع
طغرل بك أن يحتل المدينة ويفرض حصاره عليها حتى ضاق الناس فاضطر
أبو منصور إلي قبول الصلح ودفع الخراج للسلاجقة ، والخطبة باسم
طغرل بك (٣) .

(١) المافروخي : معاصر أصفهان ، ص ٤٧ - ١٠٧ .

(٢) حسين صادقي : أصفهان ، ص ١٠ .

(٣) مجمل التواريخ والقصص : ص ٤٠٧ .

عباس إقبال آشتياني : تاريخ مفصل إيران ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

حسين صادقي : أصفهان ، ص ١٠ .

ونظراً لانقطاع الود بين طغرل بك وأبي منصور عاود السلاجقة محاصرة أصفهان سنة ٤٤٢ هـ ، واستمر الحصار لمدة عام حتي اضطر أهلها إلي تسليم المدينة ، ووصل طغرل بك إلي أصفهان سنة ٤٤٣ هـ ، واتخذها عاصمة للدولة السلجوقية (١) .

وهكذا نري أن أصفهان كانت مدينة إيرانية عريقة - قبل وبعد الإسلام - شهدت مراحل تاريخية مختلفة كانت فيها مجالاً للتنافس والصراع فخضعت في حقب متفاوتة من الزمن إلي حكام وأمراء وسلاطين من الفرس واليونان والعرب والترك ، وكان أغلبهم من العجم .

وقد حاول هؤلاء الحكام بسط نفوذهم عليها توسيعاً لممالكهم أو إحياء لقوميتهم وبعث الروح في تراثهم مما جعل منها مركزاً حضارياً متميزاً عبر العصور ينبعث منه نور العلم والمعرفة ، ومجمعاً للعلماء والأدباء والمفكرين سواء كانوا من أهل أصفهان أو من العواصم الإسلامية الأخرى ، وموفداً لطلاب العلم من كل مكان .

ونظراً لأن مقام هذا البحث لايسع الخوض في غمار الجوانب الحضارية بصفة عامة ، والحياة الأدبية منها بصفة خاصة . سيخصص الباحث بحثاً آخر يتناول فيه عرضاً لمظاهر الحضارة في أصفهان بعامة مبرزاً فيه دور العلماء والأدباء في نهضة أصفهان سواء كانوا من العرب أو الفرس أو كانوا من أهل أصفهان أو ممن وفدوا إليها ، والله ولي التوفيق .

(١) عباس إقبال : تاريخ مفصل إيران ، ص ٣١٥ .

عبد الله رازي : تاريخ كامل إيران ، ص ١٩٦ .

المصادر والمراجع العربية

- ١ - الآثار الباقية : البيروني - طبعة المثنى ببغداد .
- ٢ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : المقدسي - طبعة ليدن ١٩٠٦ .
- ٣ - الأعلام النفيسة : ابن رسته - طبعة ليدن إبريل ١٨٩١ م .
- ٤ - إيران : ماضيها وحاضرها : ترجمة عبد النعيم حسنين وإبراهيم الشواربي - طبعة القاهرة ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨ م .
- ٥ - البيان والتبيين : الجاحظ - طبعة الخانجي بمصر والمثنى ببغداد ١٣٨٠ م .
- ٦ - تاريخ الحضارة الإسلامية : بارتولد - طبعة دار المعارف - ترجمة حمزة الطاهر .
- ٧ - تاريخ الرسل والملوك : للطبري - طبعة دار المعارف ١٩٧٩ م .
- ٨ - تقويم البلدان : ابن شاهنشاه - طبعة باريس ١٨٤٠ م .
- ٩ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري : آدم متز - ترجمة أبي ريدة - طبعة دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان .
- ١٠ - دائرة المعارف الإسلامية : طبعة الشعب .
- ١١ - ذكر أخبار أصفهان : أبو نعيم - طبعة ليدن ١٩٣١ م .
- ١٢ - الشاهنامه : ترجمة عبد الوهاب عزام - دار الكتب المصرية ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢ م .
- ١٣ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن عماد الحنبلي - طبعة بيروت .
- ١٤ - صورة الأرض : ابن حوقل - طبعة ليدن ١٩٣٩ م .
- ١٥ - ظهر الإسلام : أحمد أمين - طبعة النهضة المصرية ١٩٧٨ م .

١٦ - فتوح البلدان : البلاذري - طبعة شركة طبع الكتب العربية ١٢١٧هـ -
١٩٠٠م .

١٧ - الكامل في التاريخ : ابن الأثير - طبعة بيروت ١٢٨٥هـ - ١٩٦٥م .

١٨ - محاسن أصفهان : مفضل بن سعد بن الحسين المافروض الأصفهاني
- طبعة طهران .

١٩ - مختصر كتاب البلدان : الهمداني - طبعة ليدن أبريل ١٣٠٢هـ .

٢٠ - المسالك والممالك : ابن خرداذبه - طبعة ليدن ١٣٠٦هـ .

٢١ - معجم البلدان : ياقوت الحموي - طبعة بيروت ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

٢٢ - المغرب : الجواليقي - طبعة دار الكتب ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

المصادر والمراجع الفارسية

١ - أصفهان : حسين نور صادقي - طبعة تهران اسفند ١٣١٦ .

٢ - تاريخ بيهقي : باهتمام غني وفياض - طبعة تهران ١٣٢٤هـ .

٣ - تاريخ علوم عقلی ورتمدن إسلامی تا أواسط قرد پنجم - ذبيح الله صفا
- طبعة دانشگاه - تهران ١٣٤٦هـ .

٤ - تاريخ كامل إيران : عبد الله رازی - طبعة إقبال .

٥ - تاريخ كُرديزی يازين الأخبار - كُرديزی - طبعة تهران ١٣٢٧هـ .

٦ - تاريخ مفصل إيران از صدر إسلام تا انقراض قاجاريه : عباس إقبال
أشتياني - طبعة كتابخانه خيام .

٧ - دستور الوزراء : غياث الدين بن همام المعروف بخواندمير - طبعة تهران
١٣١٧هـ .

٨ - سبك شناسی : محمد بهار - طبعة تهران .

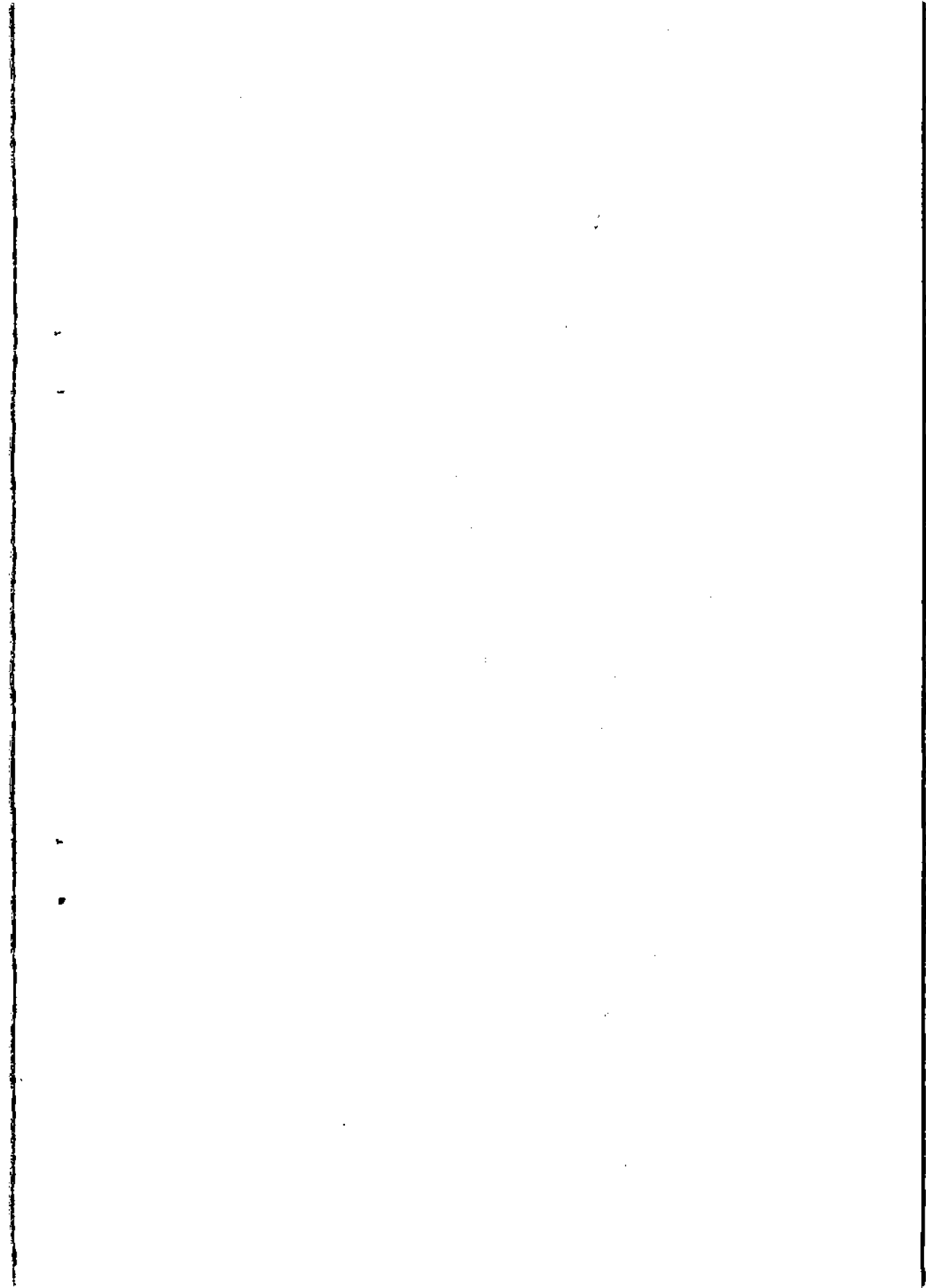
- ٩ - شاهنامه فردوسی : فردوسی - طبعة بروخيم - طهران ١٣١٢ هـ .
١٠ - فارس نامه : ابن البلخي - طبعة كمبريج ١٣٢٩ هـ - ١٩٢١ م .
١١ - مجمل التواريخ والقصص بتصحيح ملك الشعراء بهار : بدون مؤلف .
١٢ - نزهت القلوب : حمد الله مستوفي قزويني - طبعة بمباي ١٣١١ هـ - ١٨٩٤ م .

المراجع الأوروبية

F. Steingass : Persian English Dictionary, Liban 1944.

منهج السـيوطي النحـوي
دراسة في المطالع

دكتور/ ممدوح عبد الرحمن
مدرس العلوم اللغوية
كلية الدراسات العربية - جامعة المنيا



إهداء

إلى معلمتى الأصيلة السيدة/ جليلة حسنين منصور

التي علمتني أبجديات الحياة والمعرفة، وشمعتني التي تضيء لى
السبيل بعد أن أظلمت عيناى وشراعى الذى يشق لى الأجواء بعد أن
ضاق الزحام بمنكبى، وكهفى الذى أخفى فيه ضعفى عن أعين الناس،
وساعدى وعونى يوم لم ينفعنى جهدى واجتهادى، وصديقتى بعد أن دفنت
أصحابى فى التراب، ومركبى الذى يقلنى بعد أن ضاق الطريق بقدمى.

فعدت كذى رجلين، رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت
وكننت كذات الظل لما تحاملت على ظلها بعد العثار استقلت

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الذى أنزل الكتاب بلسان عربى
مبين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين.

لما رأيت أننا بحاجة إلى إعادة وصف لغتنا بما تشمله من نصوص وقواعد
وأثار علمية خلفها لنا علماء أجلاء، فقد وقع إختيارى على المطالع السعيدة للسيوطى،
وذلك أن الكتاب يمثل ظاهرة معروفة فى تاريخ النحو العربى خصوصا عند النحاة
والشراح والمصنفين المتأخرين ذلك هو نظم قواعد النحو والصرف العربيين بما
يعرف فى تاريخ النحو العربى بالآلفيات، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن
السيوطى يعد متأخرا بالنسبة لنحاة سبقوه فى التأليف على هذا النمط، إذ يعد علما من
أعلام المدرسة المصرية فى النحو، وقد تأثرت هذه المدرسة بطبيعة الحال بالمدارس
النحوية السابقة، البصرية والكوفية والبغدادية والأندلسية وكان أثر الأندلسيين واضحا
فى نحاة مصر، وقد تميز السيوطى فى منهجه بما تميزت به المدرسة المصرية من
التخير من آراء المدارس السابقة مع شىء من التغليب لمذهب الأندلسيين، ولكننا نظفر
له من حين إلى حين بآراء خاصة أو مفاهيم جديدة تجاه بعض المسائل.

ومن هنا فإن حديثنا عن منهج السيوطى فى المطالع والفكر النحوى عنده، يعد
حديثا عن الفكر النحوى للعربية من ناحية ومن ناحية أخرى، فإنه إكمال لنظراته
وملاحظته التى أبداها على سابقه، ذلك أن رحلة العلم تحتاج إلى لون من التواصل
سعيًا وراء الحقيقة التى يعلمها الله وحده.

ومن دواعى فخر السيوطى واعتزازه بالمطالع أنه سماه "الألفية الفريدة" وقام بشرحه، وقد أجرينا الدراسة على الشرح، والمطالع يتألف من مجموعة من المقدمات وثلاثة كتب، قام بتحقيقه عالم فاضل هو الأستاذ الدكتور طاهر حمودة وقد أردنا بهذا العمل أن نتم الفضل الذى أسداه إلى العربية، خصوصا أن المطالع وشروحه تتسم بالصعوبة فى التناول والعرض. أضف إلى ذلك أن كثيرا من الدارسين المتخصصين لا يعلم أن للسيوطى ألفية. فهذه إضاءة للكتاب وما جاء فيه ضمناها بعض النصوص مع قليل من التصرف والتوجيه، وقد اعتمدنا فى الرصد والتوثيق على الطبعة التى أصدرتها الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ويتكون هذا البحث من فصلين: الأول فى الفكر النحوى للسيوطى ويتضمن النظام العام الذى تناول به أبواب النحو العربى، والفصل الثانى فى المعايير.

والله أسأل موفور الصحة والعافية لكل من بذل معى جهدا فى تسجيل هذا البحث وإخراجه، والله الحمد ومنه المنّة.

الأسكندرية يونيو ١٩٩١

الدكتور/ ممدوح عبد الرحمن

مدرس العلوم اللغوية

الفصل الأول

فكره النحوى

١- الحقيقة أن كتاب المطالع السعيدة، كتاب نحو، مؤلف على طريقة المنظومات العلمية شأنه، شأن كثير من الألفيات التى تنظم قواعد النحو العربى. والحقيقة أن الكتاب خاص بالنحو مع تفرد به بعد ذكر منظومات صرفية شأن ألفية ابن مالك التى شرحها ابن عقيل، وقد استرعى نظرى وأنا أطلع الكتاب أنه منظومة علمية لقواعد النحو على طريقة (خذ بهذا ولا تأخذ بذاك) من قواعد النحو أى أنها طريقة معيارية (Prescriptive) تعليمية، لكننى حين أطلع الكتاب أجد أن السيوطى فى شرحه يتبع طريقة وصفية فى العرض للأساليب العربية، بل يناقض من سبقه من علماء النحو كما يعرض لغيرهم من آراء مبنية على وجود شواهد تخالف ما قرره النحاة من نظرات معيارية.

وقد أدهشنى أكثر ما أدهشنى تناوله فى باب المجرورات للحروف التى يتعاور بعضها بعضاً فى التراكيب المختلفة فتختلف دلالة التركيب باختلاف الأداة، فالمتوقع من نحوى ما يعرض لحروف الجر أن يتحدث عن عدد هذه الحروف، ونظرية عملها، والعلامة المصاحبة لعملية الجر، وتكوين أشباه الجمل من هذه الأدوات ومجروراتها مع عرض لتعلق أشباه الجمل المكونة بالمصادر أو المشتقات أو الأفعال. لكننا نفاجأ بدراسة قد تبدو للنظرة العجلى قديمة فى طابعها، وسردية لما جاء به القدماء من النحاه وإحصائية لما فيها من استعراض للشواهد العربية من شعر ونثر وآيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة. لكن الحقيقة أن هناك

دراسة في الاستعمال تشبه إلى حد كبير بل تفوق ما نصنعه اليوم، فإذا بالسيوطي وكأنه بلغة العصر يريد أن يقول إن هناك وظيفة نحوية ووظيفة دلالية:

أ - فالوظيفة النحوية للأداة هي الجر والعلامة هي الكسرة.

ب- تختلف دلالة الأداة باختلاف التركيب.

ج- تختلف دلالة التركيب بأكمله حسب احتمالات إبدال أداة بأداة أخرى من

الباب نفسه.

د - كل حرف من حروف الجر الثلاثة عشر تحل محل بعض منها على

التبادل في تراكيب مختلفة بحيث لا يمكن أن يؤدي حرف بعينه دلالة

واحدة وحسب، أي أنه يرد في تركيب واحد فقط، لكن لكل حرف ما

يقرب من تسع دلالات لا يقل عنها. على أنا نلاحظ أنه لا يؤدي بنفسه

جميع هذه الدلالات، بل يمكن أن نضع بدلا منه حرفا آخر فيؤدي معناه.

والغريب أن هذا التركيب الجديد من الناحية الاستعمالية والتركيبية لا يقبل

وجود الأداة المفترضة بل يقبل معناها وحسب. وهذه الظاهرة غاية في الدقة،

ولكنها لا تكثر على عالم جليل مثل السيوطي، وهذا في إطار أداء وظيفة الجر

المحضة، لكننا نجد وظائف أخرى لبعض هذه الأحرف مثل: (الباء - التاء -

الواو - اللام) مع وجود علامة الجر (الكسرة) نفسها، تلك الوظيفة هي وظيفة

القسم مع الإشارة إلى اختلاف مكونات التركيب القسمي عن التركيب الذي

يتضمن الجار والمجرور ومن هنا نصل إلى الملاحظات الآتية:

أ - الأداة الواحدة تؤدي بنفسها وظيفة الجر.

ب - الأداة تتبادل معاني الأدوات الأخرى في تراكيب أخرى.

ج - الأداة تؤدي وظائف أخرى في أبواب نحوية أخرى مثل القسم.

من هنا نصل إلى شيء أساسي في منهج السيوطي وهو: تقسيمه لأبواب الكتاب، فقد بدأ المؤلف بتصنيف اللغة العربية إلى أقسام من الكلم كعادة النحويين، ثم تعمد أن يقسم بعد ذلك المؤلف إلى كتب، الكتاب الأول في العمد وهي المرفوعات والمنصوبات بالنواسخ، والكتاب الثاني في الفضلات وهي أنواع المفاعيل والظروف والفداء والاستثناء والتمييز والحال، ومع كل هذا يورد نواصب المضارع والكتاب الثالث ويشمل المجرورات وما يحمل عليها من المجزومات وفيها الجر بالحروف والجر بالإضافة وفيها أيضا الجوازم من أدوات الشرط أسماء وجروفا.

ومن هنا فإنه يحق لنا أن نتساءل عن التصنيف الذي لجأ إليه السيوطي في الكتاب.

فأول ما يصادفنا من عناوين الكتاب هو أقسام الكلام وهو غير مدرج في ترتيب المؤلف، فالمؤلف ينقسم بعد هذا التمهيد إلى ثلاثة كتب الأول منها في المرفوعات والمنصوبات بالنواسخ والثاني هو الفضلات والثالث في المجرورات وما يحمل عليها من المجزومات كما ذكر فالتوقع في هذه الطريقة من التأليف هو أن يكون السيوطي قد رتب الكتاب حسب أقسام الكلام من أسماء وأفعال وحروف وأسماء أفعال لكننا نجد الكتاب الأول معنونا بـ ("الكتاب الأول في العمد" وهي المرفوعات والمنصوبات بالنواسخ).

والواضح من هذا العنوان أن السيوطي قسم وحدات اللغة العربية حسب العلامة الإعرابية لكننا نلاحظ مفارقة حين نجد أنه يعرض في باب واحد لمكونات ذات علامتين رئيسيتين هما الرفع والنصب معاً، وإذا كان المبرر لذلك هو عرضه للنواسخ بأنواعها التي لا بد أن ترفع وتنصب اسمين مختلفين في تركيب

واحد، فإن هناك مفارقات أخرى، منها أنه يعرض في الكتاب الأول نفسه لظواهر تختص بالقسم الثاني من أقسام الكلام وهو الفعل فيعرض لبعض خصائص بعض الأفعال مثل (ظن وأخواتها) إلى جانب بعض النواسخ الأخرى. أضف إلى ذلك أنه يعرض بالتفصيل لظواهر الجمود والتصريف في الأفعال والتعليق والإلغاء وعرضه لبعض الظواهر النحوية التي تختص بالإطار النظري الخاص بالنحو العربي بأكمله كالعمل النحوي وبعض الخصائص التركيبية كالقديم والتأخير والحذف والحقيقة أن باب "ظن" وأخواتها يختص أكثر ما يختص بالمنصوبات والدليل على ذلك أن المؤلف نفسه يعرض لهذا الموضوع باستفاضة في باب المفعول به الذي وضعه في الكتاب الثاني ضمن القضاة، وفي نهاية هذا الكتاب الأول نجد السيوطي يختتم الكتاب بالحديث عن الفعل المضارع وأوجه القول في عوامل رفعه ويبدو أن السيوطي نظر إلى الفعل المضارع من ناحية أنه من المرفوعات على حين أن الكتاب الأول خاص بالمرفوعات والمنصوبات معا من الأسماء وكنت أظن أن بعض هذا الترتيب يمكن نسبه بعضه إلى المحقق وله العذر في ذلك فالكتاب كان مخطوطا وله ظروف خاصة شأنه شأن كثير من المخطوطات العربية، فقد تتقدم بعض أوراقه وقد يختلف ترتيب بعضها عن بعضها الآخر، وقد تفقد أرقام بعض الصفحات خصوصا أن المحقق كثيرا ما ينيل كتابته بعبارة (زيادة ليست بالأصل) أي أنه كثيرا ما يلجأ إلى توثيق النص بالاعتماد على السياق مرة وعلى كتب اللغة والنحو أخرى وعلى مؤلفات السيوطي الأخرى مرات خصوصا كتاب "مع الهوامع" للمؤلف لكنني أستطيع أن أبعد المسؤولية عن المحقق فقد وضع السيوطي في التمهيد الخاص بأقسام الكلام حديثا خاصا عن الأفعال الخمسة يسبقها حديث مفصل عن الفعل وأحواله

ومما يؤكد نفى المسؤولية عن المحقق أننا نجد حديثاً عن الفعل المضارع فى الكتاب الخاص بالفضلات عند عرض المؤلف لنواصب المضارع وهذا يؤكد من ناحية ثانية أن السيوطى يعمد فى تقسيمه إلى العلامات الإعرابية، فهذا هو الفعل المضارع يعرض له فى ثلاثة مواضع مختلفة بل فى أكثر من كتاب، فصنف الفعل المضارع المرفوع مع العمد وصنف المضارع المنصوب مع الفضلات، فيورد فى باب نواصب المضارع^(١).

لما انتهت منصوبات الأسماء عقيبت بمنصوبات الأفعال، كما ذكرت عقب المرفوعات المضارع المرفوع. وتقسيم السيوطى للأبواب وفقاً لما يرى هو أنها حسب العلامة الإعرابية وليس حسب أقسام الكلام، لكن للعلامة مدلولين أحدهما هو الوظيفة التحوية التى يؤديها المكون التركيبى خصوصاً فى الأسماء كالرفع للفاعلية والنصب للمفعولية، والوظيفة الأخرى هى الزمن خصوصاً فى الفعل المضارع فالمرفوع الذى وضعه السيوطى مع المرفوعات، والحقيقة أن الرفع فيه يختلف عن الرفع فى العمد فالرفع فيه يدل على المضارعية.

وأبدى فى الكتاب الثانى من المطالع ملاحظة خاصة بأبواب الفاعل ونائب الفاعل والمفعول به خصوصاً أن السيوطى يعرض لهذه الأبواب فى نهاية الكتاب الأول وبداية الكتاب الثانى فالحقيقة أن جميع كتب النحو العربية خصوصاً المؤلفات المتأخرة تعرض لهذه الموضوعات فى أبواب مستقلة.

(١) المطالع السعيدة - شرح السيوطى على ألفيته المسماة بالفريدة ص ٢٧٧ تحقيق الدكتور طاهر حموده - الدار الجامعية - ١٩٨١

علامة الفاعل هي الرفع بالضمّة وكذلك نائبه، أما المفعول فمحلّه هو النصب بعلامة أصلية أو فرعية ظاهرة أو مقدرة ووضع السيوطى الفاعل ونائبه فى الكتاب الأول الخاص بالمرفوعات والمنصوبات من العمد ووضع المفعول به فى الكتاب الثانى الخاص بالفضلات. ومن هنا نصل إلى مفارقة غريبة وهى إذا كان الكتاب الأول مخصصا للمرفوعات والمنصوبات من الأسماء، فإن المفعول به من المنصوبات وأولى به أن يوضع فى الكتاب الأول كما اتنا نصل أيضا إلى نتيجة أخرى وهى أن تقسيم السيوطى لمؤلفه ليس قائما على العلامة الإعرابية وحدها بل على أساس العمد والفضلات، فالتقسيم عند السيوطى مزدوج من حيث العلامة والعمد والفضلات أيضا هذا مع استثناء التصنيف حسب أقسام الكلام.

وبغض النظر عن الأساس الذى بنى عليه التقسيم فإن الفاعل وهو عمدة فى التركيب إذا ما تم حذفه لأى سبب تركيبى أو معنوى فإن الذى يحل محله هو نائب الفاعل وبالتالى فإنه يكتسب علامته الإعرابية وهى الرفع، وإن المكون التركيبى الأصل الذى يقوم بهذا الدور هو المفعول به، وعلامته الأصلية وهى النصب تتحول إلى الرفع، ويتحول أيضا إلى عمدة بالرغم من أنه كان فضلة وعليه ففكرة التقسيم حسب العلامة الإعرابية والعمد والفضلات تؤدى فى رأى إلى نوع من التداخل والتكرار فى أبواب النحو العربى هذا. بغض النظر عن أن يحل المصدر والظروف المتصرفة محل نائب الفاعل. أضف إلى ذلك أن الظواهر التركيبية التى يتناولها النحاة العرب فى الأبواب الثلاثة المذكورة من ظواهر واحدة بل وأغلب شواهدا وفكرتها واحدة لذا^(١) فإننى أرى ضم

(١) الدكتور محمد حماسة فى بناء الجملة العربية ص ٥٢ وما يليها

الأبواب الثلاثة، الفاعل ونائبه والمفعول به فى باب واحد.

٢ - وفى المطالع مقدمة (١) عن الكلام والحقيقة انها ليست تفريقا بين القول والكلام وأصل كل منهما ومصدره واعماله من حيث الوظيفة النحوية، لكنه فى الحقيقة يعد فكرا لغويا حديثا فهو يفرق به كما نستشعر ذلك بين الكلام المنطوق والكلام المفيد المكتوب وبين الاشارة الجسمية (٢) التى يفهم مضمونها من حال المتكلم والمخاطب، ومن ذلك استشهاده ببيت عمر ابن ابي ربيعة:

اشارت بطرف العين خفية اهله
اشارة محزون ولم تتكلم (٣)

وبعده يقول:

فأيقنت ان الطرف قد قال مرحبا
واهلا وسهلا بالحبيب المتيم

وفى البيت الاول لا بد ان نحمل الكلام المعنى على نوع خاص من الكلام وهو المنطوق به أى الكلام اللفظى، وحينئذ قال "بمعنى اشار اشارا مفهومة، والسيوطى نفسه يرى ان تعبيره هو عن هذه الظاهرة أدق من تعبير ابن مالك وابن هشام، والحقيقة ان السيوطى فى عرضه للمقدمات يبدو موضوعيا او منظما للقضايا، فهو حين يعرض لعلامات الاسم التى يختص بها دون الفعل والحرف بذكره الجر (٤) للاسم علامات تميز بها عن قسميه منها الجر سواء كان بحرف او بتعنية على رأى من يقول بهما، وقد اجتمعن فى "بسم الله الرحمن الرحيم" أو بمجاورة نحو: (هذا جحرٌ ضبٌ خرب) أو بتوهم نحو:

-
- (١) المطالع ص ٥٥
(٢) دراسات فى علم اللغة، فاطمة محجوب - دار النهضة العربية ط ١٩٧٦
ص ١٥٩-١٨٧
(٣) المطالع ص ٥٦
(٤) المطالع ص ٦١

بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا
 وكان يمكن لهذه المقدمات ان تحفى السيوطى من مسألة الخلط بين الوظيفة
 النحوية والوظيفة الدلالية والتصنيف على أساس العلامة الاعرابية ثم اللجوء الى
 تصنيف آخر داخلى حسب الادوات والحروف كما فى الكتاب الثالث، وعند
 العرض لهذه الظاهرة بعينها وهى الجر والمجرورات.

وفى مضمار عرض السيوطى لخصائص الاسم وخصائص الفعل والفرق
 بينهما، نجد له مناقشة وتمييزا حقيقيا بين كل منهما وتفصيلا لخصائص المكون
 التركيبى الذى يعرف (باسم الفعل) فهو يرى أنه يجمع بين خصائص الاسماء
 كالتنوين وبين خصائص الفعل من حيث تضمنه معناه وبنائه واعماله فيما يليه من
 اسماء وهذا العرض وتلك المناقشة والتفصيل خصوصا تأويله وتفسيره لما لا
 يتفق مع قواعد التصنيف فهو يتناول ويقدر المكون (لفظ) بديلا عن اسم الفعل
 "تزال" فى البيت ودعوا تزال(١) فكنت أول نازل فالشاهد فى هذا الشطر فى البيت
 قوله "دعوا تزال" حيث دخل الفعل على "تزال" والقاعدة ان اسم الفعل لا يدخل
 عليه العامل أصلا، وليس هذا خروجا على القاعدة هنا وإنما سبب ذلك ان اسم
 الفعل قصد لفظه ولم يقصد معناه وفى معرض التقسيم الى اسم وفعل وحرف
 يتناول السيوطى المشتبهات التى يخلط فيها الدارس بين كونها اسما أو حرفا حيث
 تشبه من حيث عدد الاحرف وهى فى الحقيقة تؤدى دلالة الظرفية والظرف من
 الاسماء فتتطبق عليه احكام الاسماء، يقول(٢) وطالما فحصت عن نظير لها فى

(١) المطالع ص ٦٥

(٢) المطالع ص ٦٦

ذلك حتى ظفرت لها بنظير ذكره ابو حيان فى تفسيره البحر وهو "الذن" فان علة بنائها كونها تدل على الملاصقة للأسماء وتختص بها بخلاف "عند" فإنها لا تختص بالملاصقة، فصار فيها معنى لا يدل عليه الظرف، بل هو من قبيل ما يدل عليه الحرف، فهي كأنها متضمنة للحرف الذى كان ينبغى أن يوضع دليلا على القرب كما فى "هنا" و "ثم".

ويحدث السيوطى لونا من التكرار فى تناول القضايا وهى بلا شك تحدث تداخلا وارتباكا للدارس خصوصا إذا ما تتولت فى إطا رقصايا أخرى، فهو يعرض فى المقدمات الخاصة بالمطالع لعلاقة الأسماء بالجملة، تحت عنوان (الافتقار) ويقصد به ارتباط المفرد وتلازمه^(١) مع الجملة بأن يفتر الاسم بالأصالة إلى جملة كالموصلات^(٢) و "حيث" و "إذا" فإن كلا مما ذكر لا يكون جزءا من كلام حتى توصل به جملة تكشف عن حقيقة المعنى المراد به فأشبهت الحروف، فإنها لا تستعمل إلا مع الجمل بخلاف جمهور الأسماء، فإنه يستعمل مع المفردات والجمل ولو كان الافتقار عارضا لم يقتض البناء وذلك لضعفه بالمعروض، وذلك كافتقار "يوم" الى الجملة التى أضيفت إليها فى نحو "هذا يوم لا ينطقون"^(٣).

وكذا لو كان الافتقار إلى مفرد كسبحان الله، ووحدته ولييك، فإنه لا يقتضى البناء لأن جميع الكلمات تفتر إلى إنضمامها إلى مفرد آخر، فليس هذا إفتقارا خاصا بالحروف والتبنيه على هذا من زياداتى، هكذا عبر السيوطى.

-
- (١) المطالع ص ٦٦
(٢) وردت "الموصلات" فى المطالع المقصود بها الموصولات أى الأسماء التى تحتاج إلى جملة صلة.
(٣) المرسلات آية ٣٥

والحقيقة أن تناوله لهذه القضية ورد في مواضع أخرى من الكتب الثلاثة، جزء منها في باب (المفعول به) وجزء آخر في باب (المجرورات)، خصوصا في موضوع الإضافة، على سبيل عرض الخصائص التركيبية للمكون الذي يعرض له مثل (حيث) أو غيرها من الظروف التي تضاف إلى الجملة.

وعموما فالكتاب الثاني الخاص بالفضلات وأغلبها تختص به علامة النصب، نلاحظ أنه أكثر إنتظاما من حيث المنهج من الكتاب السابق عليه، ذلك أن وحداته كلها منصوبة وهي أيضا فضلات ومكملات للتركيب غير أننا نجد في باب المفعول فيه^(١) ظروفًا مبنية وهي بالفعل في محل نصب لأنها وعاء للزمان، لكننا نجد لها تناولا آخر في الكتاب الثالث الخاص بالمجرورات وما يحمل عليها من المجزومات^(٢)، ومن ناحية أخرى فإن تناول السيوطي للمفعول فيه بعامة في هذا الكتاب لا ينصب على كونه فضلة أو أن محله النصب (بعلامة أصلية أو فرعية) ظاهرة أو مقترنة ولكنه يزيد على ذلك تناوله للأدوات من حيث كونها حرفا أو اسما وكان الأولى به أن يناقش هذا التناول في التمهيد السابق على الكتاب الأول وليست هذه مسألة عارضة في ظرف بعينه لكنها تتكرر مع جميع الظروف ويورد فيها بإسهاب اختلافات النحويين مع ترجيحه لأحد هذه الآراء بإيراد^(٣) الشواهد المرجحة لاسمية الظرف أو حرفيته، كما نلاحظ في هذا الكتاب الثاني بعامة أن القضايا المتعلقة بالفكر النحوي تتكرر بتكرار الأبواب، فعلى سبيل المثال، مسألة العامل ومسألة التعلق والحذف والتقدير تتكرر في كل باب، بل

(١) المطالع الكتاب الثاني ص ٣٠٩

(٢) المطالع الكتاب الثالث ص ٤٤٨

(٣) المطالع الكتاب الثاني ص ٣٠٩-٣٢١

تتكرر فى كل جزئية من أجزاء الباب الواحد، وهذا فى الحقيقة ليس نقدا ولا عرضا للمأخذ التى تؤخذ على السيوطى، فهذا شأن أغلب كتب النحو، بل جميعها، لكن هذه ضرورة يقتضيها الدرس اللغوى بعامة والنحوى بخاصة فى سبيل ضم الموضوعات التى تنتمى إلى فرع بعينه مع مثيلاتها تبعا للمنهج المستقيم ولما يعرف اليوم بمناهج البحث اللغوى التى هدفها الأساسى هو تنظيم المواد اللغوية وإسباغ صبغة علمية عليها، وليس هذا الشأن خاصا بالسيوطى وحده، بل هو شأن اللغويين والنحاة العرب، وما نسجله اليوم على كتاب المطالع السعيدة، يعد أيضا لونا من الإضاءة نسقناها على التراث النحوى العربى، ذلك أن كتابات النحاة المتأخرين وتصانيفهم، خصوصا أصحاب المتون والشروح تعد جمعا وتصنيفا عن النحاة المتقدمين أكثر منها تأليفا. وكعادة السيوطى فى تكرار تناول المسائل، وقد تحدث فى باب المقدمات عن نون الوقاية وإلحاقها (١) بالأسماء والأفعال وحذفها، ثم نجده يعقد بابا خاصا بالتتوين فى نهاية الكتاب الثالث، ويعرض فيها للتتوين بأنواعه فى مختلف الأبواب النحوية، كما يدرسه على أنه ظاهرة صوتية، والحقيقة أن تناول السيوطى لبعض الأبواب يعد تناولاً أسلوبيا بالرغم مما يشوبه من التكرار فى أكثر من موضع، فمن ذلك الظرف المتصرف وغير المتصرف، فهو يتحدث عنه فى باب نائب الفاعل، عندما يوجد المفعول فيه والمفعول به فى جملة واحدة ومدى صلاحية أى منهما للنياحة عن الفاعل، والمسألة نفسها يوردها فى باب المفعول فيه (٢)، حيث يثبت صلاحية المفعول فيه للقيام بأكثر من وظيفة نحوية ووروده فى أكثر من باب نحوى بالرغم من دلالة

(١) المطالع ص ٤٤ * ص ٤٧٢ وما يليها

(٢) المطالع ص ٣١٣

على احتواء الزمان أو المكان وأورد لفظ الظرف ليؤدى وظيفة المبتدأ ونائب
الفاعل، واحتفاظه بعلامة الباب كأن يكون مرفوعا أو منصوبا أحيانا على
المفعول به، كما فى قوله "وتتذر يوم الجمع لا ريب فيه"^(١).

فظرف الزمان قسمان: أحدهما متصرف، وهو ما جاز أن يستعمل غير
ظرف، كأن يكون فاعلا أو مبتدأ أو خبرا، أو ينتصب مفعولا به، أو يجر بغير
"من" كسرى يوم الخميس، ويوم الجمعة مبارك، واليوم يوم الجمعة، وأحببت يوم
الجمعة، وليجمعنكم إلى يوم القيامة"^(٢). والثانى: غير متصرف بأن لا يجر
عنه، ولا يجر بغير "من" بل يلتزم النصب على الظرفية أو يجر بـ "من" وحدها
كسحر إذا كان من يوم بعينه نحو "جنتك بسحر" وبعيدات بين بمعنى أوقات غير
متصلة، وما عين من بكرة وسحير، وضحى وضحوة، وصباح ومساء، وعشية.

وظرف المكان أيضا قسمان: متصرف يعمل غير ظرف مبتدأ، أو فاعلا،
ونائبا عنه، كيمين وشمال، نحو: جلست يمين زيد وشمال بكر، وغير متصرف
لم يخرج عن الظرفية أصلا وهو ألفاظ فمن ذلك "سوى" بالكسر جمعا للغة من
أقواه المتكلمين واستخدامتهم لها.

ولقد أبدت رأيا بأن تضم الأبواب النحوية، الفاعل ونائبه والمفعول به معا^(٣)
وذلك أن مسائلها مشتركة وتكاد تكون الشواهد واحدة فضلا عن أن القضية واحدة
وهى أن المكونات التركيبية الثلاثة تؤلف معا تركيبا فعليا واحدا ذا خصائص
واحدة فى التقديم والتأخير والحذف، فالفعل هو المكون الرئيسى، أى العامل

(١) سورة الشورى آية ٧

(٢) سورة النساء آية ٧٨

(٣) د. شوقى ضيف (تجديد النحو ص ٤ دار المعارف ١٩٨٢)

يجب أن يتقدمهم جميعاً، يليه في الترتيب الفاعل ثم المفعول به، وما خالف ذلك من حلول أى منها موضع الآخر، فقد يجوزه وقد لا يجوزه النحاة العرب، فالحقيقة أن هناك ظاهرة في التركيب الفعلى وهى تقدم المفاعيل، تكررت فى بابى نائب الفاعل والمفعول به، فيورد السيوطى فى تقدم المفاعيل (١) إذا تعدد المفعول، فإن كان فى باب ظن وأعلم فمعلوم أن المبتدأ فيهما يقدم على الخبر، والفاعل من أعلم يقدم على الاثنين، وإن كان غيره كباب أعطى واختارفا لأصل تقديم ما هو فاعل معنى فى الأول وما يتعدى إليه الفعل بنصبه بدون حرف الجر الثانى لأنه أقوى.

فالأصل فى "أعطيت زيدا درهما"، و "اخترت زيدا من الرجال" هو تقديم "زيد" لأنه أخذ الدرهم، ومختار من الرجال، وقد يخرج عن هذا الأصل فيقال أعطيت درهما زيدا، واخترت من الرجال زيدا، بتأخير ما حقه التقديم، وقد يجب هذا الخروج، ويمتنع الأصل فى نحو: "أعطيت الغلام ماله" ليعود الضمير على متقدم، ونحو "ما أعطيت درهما إلا زيدا" للحصر، وقد يجب إلزام الأصل فى نحو "أعطيت زيدا عمرا" لأنه لو قدم لم يدر أزيد أخذ أم مأخوذ، ونحو "ما أعطيت زيدا إلا درهما" لأجل الحصر، وقضايا الفكر النحوى فى أبواب الفاعل ونائبه والمفعول به تكاد تتكرر بأمتثلتها وشواهداها، بل زد على ذلك ما يختص بباب الأفعال المتعدية لمفعولين التى تتكرر بأمتثلتها وشواهداها فى باب نائب الفاعل.

ويبدو أن استيعاب السيوطى لتراث القدماء من النحاة واستدعاءه للمعلومات

(١) المطالع ص ٢٧١ + وتكررت الظاهرة فى نائب الفاعل ص ٢٦٢ وما يليها.

المتعلقة بالظاهرة المدروسة هو الذى أوقعه فى التكرار والخلط بين جميع المسائل المتعلقة بالمكون المدروس، ففى باب الإستثناء خصوصا المكون سوى: ذهب جماعة منهم الرماني وأبو البقاء العكبرى إلى أنها ظرف متمكن، أى يستعمل ظرفا كثيرا، وغير ظرف قليلا.

والحقيقة أن السيوطى تعرض لأغلب هذا فى باب المستثنى، وأورد قول الشاعر:

وإذا تباع كريمة أو تشتري فسواك بائعها وأنت المشتري
والشاهد فيه قوله "فسواك" حيث خرجت "سوى" عن الظرفية ووقعت هنا مبتدأ،
والخبر قوله بائعها. وقوله:

ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا
والشاهد فيه قوله "ولم يبق سوى العدو" حيث وقعت "سوى" فاعلا للفعل يبقى،
وخرجت عن الظرفية.

ولم يقتصر التكرار على الوظائف النحوية للمكون الواحد فى أكثر من باب بل ناقش السيوطى أيضا مسألة التصنيف ألى أقسام الكلام المختلفة داخل باب المفعول فيه، فمن ذلك^(١): من الظروف العادمة للتصرف "مع" وهى اسم لمكان الاجتماع أو وقته "تقول زيد مع عمرو" و "جئت مع العصر" ويدل على اسميتها تنوينها فى قولك "معا" ودخول "من" عليها فى قولهم "ذهب من معه" وقرئ "هذا نكر من معى" (بكسر الميم).

ويورد^(٢): لما وقع الكلام فى الظروف، استطردت إلى الظروف المبنية وقد

(١) المطالع ص ٣١٩

(٢) المطالع ص ٣٢١

تقدم عند جمع المبنيات في باب المعرب والمبنى نوعان: الزمن المبهم المضاف
لجملة أو المبنى، والظرف المقطوع عن الإضافة، وبقي أشياء غير ذلك، فمنها
(إذا) والدليل على اسميتها قبولها التثوين والإضافة إليها بلا تأويل، وبنيت
لوضعها على حرفين، وافتقارها إلى الجمل (بعدها).

والحقيقة أنه ينتهج نهجا أسلوبيا في بيان الوظائف النحوية التي تؤديها "إذ"
فيورد: وتلزم (إذ) الظرفية، فلا تتصرف بأن تكون فاعلة أو مبتدأ إلا أن يضاف
اسم الزمان إليها نحو: حينئذ ويومئذ وبعدئذ، قال تعالى: "بعد إذ هديتنا" (١) وجوز
الأخفش والزجاج وابن مالك وقوعها مفعولا به نحو "اذكروا إذ كنتم قليلا" (٢)
وبدلا منه نحو "وانكر في الكتاب مريم إذ انتبذت" (٣) وتلزم (إذا) الإضافة إلى
جملة اسمية نحو "واذكروا إذ أنتم قليل" (٤)، و"إذ هما في الغار" (٥)، أو فعلية كما
سبق.

ويستمر السيوطي في مناقشة كون (إذ) من أي أقسام الكلام، فيورد (٦) وترد
للمفاجأة نص على ذلك سيبويه، وهي الواقعة بعد (بينما) و (بينما) كقوله:
استقدر الله خيرا وأرضين به فبينما الحسر إذ دارت مياسير
وهل هي حينئذ ظرف زمان أو مكان أو حرف للمعنى المفاجأة أو حرف مؤكد أو
زائد؟

-
- (١) سورة آل عمران آية ٨
 - (٢) سورة الأعراف آية ٨٦
 - (٣) سورة مريم آية ١٦
 - (٤) سورة الأنفال آية ٢٦
 - (٥) سورة التوبة آية ٤٠
 - (٦) المطالع ص ٣٢٣

ويناقش السيوطى الظروف من حيث التعريف والتكثير والاسمية والحرفية.

كما أنه يعرض ويناقش آراء النحاة السابقين مناقشة تفصيلية، بالرغم من عقده لباب المقدمات الذى تناول فيه القضايا السابقة فى مختلف الأبواب النحوية، فيقول فى المفعول به فى باب المنصوبات خصوصا عند عرضه للمكون (الآن) من الظروف المبنية (الآن) وهو اسم للوقت الحاضر جميعه كوقت فعل الإنشاء حال المنطوق به، أو الحاضر بعضه نحو "فمن يستمع الآن" (١)، "الآن خفف الله عنكم" (٢) واختلف فى علة بنائه فقال الزجاج: بنى لتضمنه معنى الإشارة لأن معناه: هذا الوقت، ورد بأن المتضمن بمعنى الإشارة بمنزلة اسم الإشارة، وهو لا تدخله "ال" وقال أبو على لتضمنه معنى لام التعريف لأنه استعمل معرفة وليس علما، و"ال" فيه زائدة، وضعفه ابن مالك بأن تضمين اسم معنى حرف إختصارا ينافى زيادة ما لا يعتد به، هذا مع كون المزيد غير المضمن معناه، فكيف إذا كان إياه. وقال المبرد وابن السراج لأنه لو خالف نظائره تفسيره هذا بأن حق الاسم فى أول أحواله التجرد من "ال" فاذا أريد تعريفه لحقته "ال" فلما وقع الان فى أحواله بـ (ال) خالف فى ذلك الأسماء وشابه الحروف. إذ هو نكرة فى الأصل استعمل من أول وضعه باللام، وباب اللام أن تدخل على النكرة وقال ابن مالك: بنى لشبه الحرف فى لفظ واحد لأنه لا يثنى ولا يجمع ولا يصغر بخلاف حين ووقت وزمان ومدة.

(١) سورة الجن آية ٩

(٢) سورة الأنفال آية ٦٦

قال أبو حيان: وهو مردود بما رد به هو على قول الزمخشري وذهب بعضهم إلى أنه معرب وفتحته اعراب على الظرفية واستدل له بقوله: "كأنهما ملآن لم يتغيرا" فالشاهد فيه قوله (ملآن) أى: من الآن حيث جر لفظ الآن بكسره (بكسر النون) أى: من الآن، فحذف النون لالتقاء الساكنين وجر فدل على أنه معرب، وهذا القول هو المختار عندي لأنه لم يثبت لبنائه علة معتبرة فهو منصوب على الظرفية وإن دخلته (من) جر ولم يثبت خروجه عن الظرفية.

وهذه المسائل نفسها يتناولها السيوطي في سائر الظروف، فمما كرره ما قاله في المقدمات عن المكون (أمس) وهو يذكره في باب المفعول فيه فيقول^(١): أمس اسم زمان موضوع لليوم الذي يليه اليوم الذي أنت فيه، أو ما هو في حكمه في إرادة القرب، وهو اسم معرفة منصوب يستعمل في موضع رفع ونصب وجر فان استعمل ظرفا فهو مبنى على الكسر عند جميع العرب، وعلة بنائه تضمنه معنى الحرف، وهو لام التعريف وإن استعمل غير ظرف.

وهناك قضايا أساسية لا تعالج في بابها الخاص بها لكنها تعالج في إطار مسائل أخرى تتداخل معها بالرغم من المقدمات الوافية في التصنيف إلى أقسام الكلام، فالفعل المضارع الواقع بين جملتي الشرط والجواب الذي يرد منصوبا يوقع الدارس في حيرة فيفسر بأنه إما أن يكون مجزوما عطفا على فعل الشرط، ذلك أنه يقع في باب المجزومات (الشرط) ويفسر بأنه منصوب باضممار (أن) الناصبة للفعل المضارع التي تسبقه وتقدم الواو على المفعول معه ويذكر لذلك

خصائص وهى يشترط أن يسبقه استفهام وكان الأولى أن توضع هذه المسائل الأساسية للمفعول معه فى الكتاب الثانى الخاص بالفضلات من ناحية وبالمنصوبات من ناحية أخرى، وإما أن تجمل المسألة فى باب المقدمات عند الحديث عن خصائص الفعل المضارع.

٣- الحقيقة أن ما نسجله فى منهج السيوطى النحوى، دراسة تحليلية فى المطالع يعد بحثا فى منهج النحو العربى، ذلك ان السيوطى قد استقى علمه من المصادر النحوية القديمة، أضف ذلك الى الأراء التى يوردها لعلماء النحو، مؤمنا بها ومفسرا لها، فمن ذلك ما أورده فى باب الحال خصوصا عند تجويز المبرد للقياس على الحال التى وردت شذوذا فى كلام العرب وأنكر النحاه القدمات القياس عليها، حيث يقول(١):

وشذ المبرد فقال يجوز القياس ويستثنى ثلاثة أنواع جوزوا القياس فيها:

الأول: ما وقع بعد خبر قرن ب (ال) الدال على الكمال، نحو أنت الرجل علما

أى الكامل فى حالة علم، ويقال أنت الرجل أدبا أو نبلا وحلما.

الثانى: ما وقع بعد (أما) نحو: أما علما فعالم.

الثالث: ما وقع بعد خبر شبه به مبتدؤه نحو: أنت زهير شعرا، وأنت حاتم جودا

أو الأحنف حلما، أو يوسف حسنا. وقال أبو حيان فى الأول:

والثالث: الأظهر أن النصب فيها على التميز، واختار ابن مالك فى الثانى أنه

منصوب على المفعول به والتقدير مهما تذكر علما فالذى وصف عالم.

والحقيقة ان السيوطى نثر فى الكتب الثلاثة والمقدمات التى تضمنها المطالع مسألة الاتساع فى الوظائف النحوية وقد اضطره ذلك إلى تكرار ذكر هذه المسائل عند ذكر كل باب يمكن أن يؤدى المكون التركيبى الواحد فيه وظيفة يصلح أن يؤديها المكون التركيبى نفسه فى باب آخر، فمما أورده فى باب الحال عن الخبر: الحال والخبر (١) إذا ذكر مع المبتدأ اسم وظرف أو مجرور كلاهما صالحان للخبر بأن حسن السكوت عليه، وجاز جعل كل منهما حالاً..... والآخر خبر بلا خلاف، لكن إن تقدم الظرف أو المجرور على الاسم اختير حالة الاسم وخبرية الظرف نحو "فيهما زيد قائماً" لأنه من حيث تقديمه الأولى به-- أن يكون عمدة لا فضلة، وإن تأخر اختير خبرية الاسم نحو "زيد فى الدار قائم" فإن كان الظرف أو المجرور غير مستغنى به تعين خبرية الاسم وحالية الظرف، نحو: "فيك زيد راغب" وأجاز الكوفيون حالة الاسم. ويقف السيوطى عند بعض المسائل موقف الناقل عن القدماء سواء فى الشواهد أم فى الآراء النحوية ويتمثل هذا فى إيرادهِ لمسألة الجر بالمجاورة (٢). فيقول أثبت الجمهور من البصريين والكوفيين الجر بالمجاورة فى النعت كقولهم: (هذا جحر ضب خرب) وفى التوكيد كقوله: "يا صاح بلغ ذوى الزوجات كلهم" بجر "كلهم" على المجاورة لأنه توكيد لذوى المنصوب لا للزوجات وإلا لقال: كلهن وزاد قوم وقوعه فى عطف النسق.

(١) المطالع ص ٣٥٦ بتصريف

(٢) المطالع ص ٤٤٠

وأنكر السيوطى وابن حسن الجر بالمجاورة مطلقا، وتأولا ما ورد من ذلك، وخصه قوم بالنكرة وقصده القراء على السماع ومنع القياس على ما جاء منه ولقد ظننت أن القدامى من النحاة واللغويين بعيدون كل البعد عن فكرة مناهج البحث اللغوى أو الموضوعات التى استحدثنا لها مصطلحات كالفكر النحوى أو اللغوى، لكننى وجدت عند القدامى أنفسهم الجواب، فقد كانوا متبهمين إلى فكرة المنهج أو الوحدة الموضوعية كالباب النحوى فالسيوطى يفرق بين التقسيم على أساس العلامة وبين التقسيم على أساس التركيب النحوى بأكمله أو الباب فيقول فى الاستثناء^(١) (عبرت بالمستثنى كابن مالك فى التسهيل بخلاف تعبير النحاة وابن مالك فى الألفية "الاستثناء" لأن الباب للمنصوبات والمستثنى أحدها لا الاستثناء كما ترجم فى بقية الأبواب بالمفعول والحال دون المفعولية والحالية). وقد يظن الباحث الناظر نظرة عجلى أن تسجيل السيوطى لقواعد اللغة يعد معياريا بحثا، لكنه فى الحقيقة تسجيل بعد حصر للحالات التى وردت فى كتب اللغة فهو يقررها على المتعلم على طريقة "لاتقل ولكن قل" وهى استقراء مستمد من كتب القدماء مدعم باستخدامات الناطقين العرب كما استشهدت به كتب اللغة والنحو.

فأورد فى مجيء الحال جملة وشبه جملة^(٢): تقع الحال ظرفا، وجارا ومجرورا، وتقع جملة خبرية خالية من دليل استقبال، فلا تقع جملة طلبية، ولا ذات السين أو "سوف" أو "لن" أو "لا" والجملة الواقعة حالا إما ابتدائية أو

(١) المطالع - الكتاب الثانى ص ٣٣٧

(٢) المطالع ص ٣٦٠

مصدرة بـ "لا" التبرئة أو بـ "ما" أو بـ "إن" أو "كان" أو مضارع مثبت عار من "قد" أو مقرون: "بقد" أو منفى بـ "لا" أو بـ "لم" أو بـماضى بعد "إلا" أو متلو بـ "أو" أو حال.....

والحقيقة أن السيوطى قد اطلع على آثار القدماء العلمية بعامة والنحوية منها خاصة وليس من شك فى انه متأثر بما اطلع عليه من آثار الأقدمين وبمصنفاتهم بل بشواهدهم وأمثلتهم، ينعكس بطبيعة الحال ما تناولوه من قضايا على فكره النحوى وبعض الشئ بمنهج تناوله ومن ذلك تأثره بالمنحى المعيارى فى تقرير القواعد والأصول.

فالحقيقة أن هناك ظواهر تناولها السيوطى بنوع من المعيارية بالرغم من تناوله لظواهر الاتساع فى الاستخدام والوظائف النحوية معا فمنها شروط المنصوب على التوسع ومنها أيضا شروط الوصف (بإلا) احترازا من: "غير" ومثله ما أورده السيوطى فى الاستثناء ومنها ما أورده عن القدماء غير مجيز أن يحل المصدر محل المشتق فى أداء وظيفة الحال^(١): وأجمع البصريون والكوفيون على أنه لا يستعمل من ذلك إلا ما استعملته العرب ولا يقاس عليه غيره فلا يقال: جاء زيد بكاء، ولا ضحك زيد بكاء، وقد أدى تأثر السيوطى بمنهج القدماء - فضلا عن صبغه بصيغة معيارية - إلى أن يورد ما قاله القدماء كما هو سواء أكان ذلك اتفاقا أم خلافا، وفى شروط نصب إذن للمضارع، حدد ثلاثة شروط أحدها: أن تكون مصدرة فلا تنصب متأخرة نحو أكرمك إذن بلا خوف لأن الفعل المنصوب لايجوز تقديمه على ناصبه.

(١) المطالع ص ٣٤٩

وأما المتوسطة، فإن احتاج ما بعدها إلى ما قبلها افتقار الشرط لجزائه نحو:
إن تزرني إذن أكرمك، والقسم لجوابه نحو:

لئن عادلى عبد العزيز بمثلها وأمكننى منها إذن لا أقيلها

أو أخبر للمخبر نحو: زيد إذن يكرمك، امتنع النصب فى الصورة كلها وإن
وليت عاطفا قل النصب، والأكثر فى لسان العرب إلغاؤها.

قال تعالى "وإذن لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً" (١) وقرئء شاذاً ألا يلبثوا ومما
ورد معيارياً ليس من جهة القواعد ولكن من جهة الاستخدام ويبدو أنه صادر إلى
متعلمين للإشياء حيث يورد فى نواصب المضارع (٢) ونواصب المضارع
لا يجوز أن يحذف معمولها وتبقى هى لا اختصاراً ولا اقتصاراً فلو قيل: أتريد أن
تخرج؟ لم يجز أن تجيب بقولك: أتريد أن وتحذف "أخرج" وأجاز بعض المغاربة
مستدلاً بما وقع فى صحيح البخارى. "فيذهب كيما فيعود ظهره طبقاً واحداً" يريد
كيما يسجد، وأورد من باب الإضافة حيث يقول (٣): لا يضاف اسم لمرادفه، ولا
لنعتة ولا لمنعوتة، ولا لمؤكد، لأن المضاف يتعرف أو يتخصص بالمضاف إليه
والشئ لا يتعرف أو يتخصص إلا بغيره، والتعت عين المنعوت، وكذا المؤكد
إلا بتأويل كقولهم: سعيد كرز أى مسمى هذا اللقب وخشرم دبر أى الذى له ذا
الاسم لأنهما اسمان للنحل، وصلاة الأولى، ومسجد الجامع، ودين القيمة، أى
الساعة الأولى، واليوم أو الوقت الجامع، والملة القيمة، سحق عمامة وجر

(١) الإسراء ٧٦

(٢) المطالع ص ٢٧٩

(٣) المطالع ص ٤٢٥

قطيفة، الأصل: عمامة سحق، وقطيفة جرد، قدم وجعل نوعاً مضافاً إلى الجنس كخاتم فضة، ويوم يوم وليلة ليلة.

٤- وقد انفرد السيوطي ببعض الآراء الخاصة به من خلال ما سجله من ملاحظات على الشواهد العربية والاستخدامات العربية، بالرغم من تأثره الشديد بقدامى النحاة بل وبمن تلاهم من أسلاف، فلقد أورد السيوطي عناوين داخلية سمى بعضها بالفوائد وبعضها الآخر بالمسائل، وفي المسائل كان يركز على الخصائص التركيبية للظاهرة أو المكون الذي يتحدث عنه من ملاحظاته الشخصية على التراكيب العربية. أما الفوائد فكان يستعين فيها بأراء النحاة القدامى والمعاصرين وهذا بيان بها في كتاب المطالع:

رقم الصفحة	الموضوع	العنوان	مسلسل
صفحة ٥٨	تعريف الكلام	فائدة	١
صفحة ٩١	أنواع الإعراب	فوائد	٢
صفحة ١٢١	الأفعال الخمسة	فائدة	٣
صفحة ١٩٦	الفاء الواقعة في خبر المبتدأ	مسألة	٤
صفحة ٢١٠	"ما" وأخواتها	مسائل	٥
صفحة ٣١١	المفعول فيه "الظرف"	فائدة	٦
صفحة ٣٤٥	الوصف بغير و "إلا"	مسألة	٧
صفحة ٣٥٩	الأحوال المركبة	فائدة	٨
صفحة ٣٦٨	تمييز العدد	مسألة	٩
صفحة ٤٥٦	لو	مسألة	١٠

ومن خلال هذا يعتقد السيوطى أبوابا خاصة وفروعا دقيقة لبعض مشكلات الفكر النحوى، وفى الباب الخاص بالمقدمات يسميها فوائد^(١) خاصة وغالبا ما لا يقرر رأيه الخاص بل يجمع آراء من سبقوه فى هذا المجال ذاكرا بعض ملاحظاته مؤكدا ما استهواه من آراء يراها سديدة وأولى هذه المسائل عن ورود الفاء فى الخبر فقد استقصى هذه الحالات ووضعها فى ستة نقاط^(٢)، ومثلها ما أورده عن أوجه الخلاف بين "ما"، "لا"، "ليس" وخصائص تركيب كل منها من حيث الاسمية والخبرية.

ومن الجوانب الأسلوبية التى أوردها السيوطى فى المطالع بعنوان "فائدة" قوله فى تقدير (قدر) على أنها مفعول فيه وأن ما حل محلها من مكونات تركيبية يعد مفعولا فيه يقول^(٣) وقع قديما أتى سئلت عن وجه النصب فى قوله صلى الله عليه وسلم: "سبحان الله عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" فهذه الكلمات الأربع منصوبات على الظرف، على أن التقدير: قدر زنة عرشه وكذا البواقي، فلما حدث الذى هو قدر "قام المضاف إليه مقامه فى إعرابه. ولم يصرح أحد بأن قدرا" ينصب على الظرفية. والجواب أن ذلك لكونه يعدون فى عداد المبتدئين المقصرين على الملحّة وشبهها، وأما قولهم أن هذه الكلمات الأربع ليست من ظرف الزمان ولا من ظرف المكان، فجوابه أن ذلك بقول النحاة: إن من المنصوب على الظرف المصادر الجارية مجراه باطراد بأن حذف المضاف إليها تقدم تقديره وقد نص على ذلك ابن مالك وغيره، ونقل أبو حيان فى شرح

(١) المطالع ص ٩١

(٢) المطالع ص ٩٦

(٣) المطالع ص ٣١١

التسهيل أن سيويه إمام الفن نص على أن من المنتصب على الظرف: زنة الجبل ووزن الجبل، وجزم ابن مالك في شرح التسهيل أيضا.

ففي شرح التسهيل لأبي حيان قال الصفار في شرح الكتاب: أعلم أن المصدر إذا استعمل في معنى الظرف جاز أن يضاف إلى الفعل، تقول: أتيتك ريث قام زيد، أي: قدر بطء قيامه، فلما خرجت إلى الظرف جاز فيها ما جاز في الظرف. فانظر كيف قدر نصب المصدر على الظرف بتقدير "قدر".

وتتسم الفائدة هنا بالاسلوبية ذلك أن الخلاف فيها واقع على الاستخدام وليس على القاعدة النحوية القديمة فحسب، أضف إلى ذلك الإبداع في التفسير المبني على الاستخدام العربي، فالحقيقة أن ما عنوانه "بالفائدة" إنما يريد بها أن يقرر فكرة عنت له ورأها صوابا، وإن لم تتصل بقواعد اللغة نفسها بل إن تعلقت بإسلوبه في الصياغة، ومن ذلك ما أورده عن الحال^(١): تذكر وتؤنث، فلهذا جاءت في النظم بالتذكير، وفي الشرح بالتأنيث، والحقيقة أن ما أورده السيوطي بعنوان "مسألة" قد لا يكون كله جديدا، بل قد يكون بعضه تلخيصا لما ورد عن القدماء مع إضافة تتضح فيها مسألة الإتساع في الوظائف النحوية^(٢) باختلاف العلامة الإعرابية وتحولها من نصب على التمييز إلى جر بالإضافة مع ثبات المكون التركيبي، ونجترى في مسألة أوردها في باب التمييز، فنحنى جانباً ما لخصه عن القدماء، ونذكر ما أورده في إطار الإتساع في الوظائف النحوية حيث

(١) المطالع ص ٣٥٩

(٢) المطالع ص ٣٥٩

يورد: وإذا جىء بنعت مفرد أو جمع تكسير، جاز العمل فيه على التمييز وعلى العدد نحو: عندى عشرون رجلا صالحا أو صالح وعشرون رجلا كراما أو كرام، فإن كان جمع سلامة تعين الحمل على العدد نحو: عشرون رجلا صالحون، ولا يجمع التمييز مع ثلاثة ونحوها جمع كثرة وأمكن جمع القلة غالبا.

الفصل الثانى

معايير التناول

١- تختلف معايير التناول عن أسس التصنيف فى أن الثانية تختص بتقسيم الأبواب النحوية الرئيسية وضم بعضها إلى بعضها الآخر وفقا للعلامة المصاحبة أو وفقا للتصنيف حسب أقسام الكلام، أما الأولى فتكون مرحلة تالية للتصنيف والتقسيم، إذ هى تهتم داخل الباب النحوى أو المسألة النحوية الواحدة من حيث البدء بتقرير القاعدة وفقا لما ورد فى المنظومة النحوية التى لا تتسع لمناقشة آراء العلماء السابقين والمعاصرين من النحاة واللغويين، كما لا تتسع للإستشهادات التى وردت فى كتب النحو السابقة، وهى أيضا لا تتسع للأمثلة والشواهد التى يمكن بها لأن يناقض السيوطى قاعدة قديمة وردت عند سيبويه أو المبرد أو أبى حيان^(١) والحقيقة أن هناك معايير للتناول، منها المعيار البنىوى الذى يستند إلى الوحدات التركيبية^(٢) فى تمييز خصائص الباب النحوى المدروس كأن يقتصر المكون التركيبى المدروس بمكون آخر مثل حرف الجر أو حرف ينصب الفعل المضارع بعده، كما أن هناك معيارا آخر وهو المعيار البنىوى الوظيفى^(٣) الذى يستند إلى العلامة المصاحبة للمكون المدروس الذى يؤدي وظيفته النحوية

(١) نقصد مناقضتهم بصورة موسعة حيث إنه انتس ببعض آرائهم.

(٢) د. أحمد المتوكل - من البنية الحملية إلى البنية المكونية، الوظيفة المفعول فى اللغة العربية - ط ١ ١٩٨٧ - ص ٥٢.

(٣) Dick Simon: Studies in Functional Grammar London/Academuc press 1980

بمقتضاها من جانب ومن جانب آخر اعتماد وظيفته النحوية على مبناه الصرفي كالاشتقاق أو عدمه، والمعيار الثالث هو المعيار الدلالي الذى يقتضى أن يرد المكون فى تركيب يدل دلالة معينة.

٢- واهتمام السيوطى بالمعنى معيارا من معايير التناول يعد من المنجزات التى يجدر بنا أن نستحسنها ونثنى عليها، لكنه فى بعض الأحيان يهتم بالمسألة التركيبية مهملا المعنى مراعاة للقاعدة النحوية، ففى الباب الخاص باجتماع الشرط والقسم ينص على أنه إذا اجتمع شرطان فالجواب لأولهما والشاهد:

"إن تستغيثوا بنا أن تذكروا تجدوا منا معاقل عز زانها كرم"^(١) فهو يؤول الشرط الثانى بحال تقديره (إن تستغيثوا بنا مذعورين تجدوا) والحقيقة أن الذعر حادث أولا وسابق على الإستغاثه، فالأصل من حيث المعنى أن يكون جواب جملة الشرط الثانية فى الترتيب التركيبى (إن تذكروا)، فأى الجملتين الشرطيتين سابقة الأخرى وأى التصنيفين أولى بالأخذ به، أعلى أساس الدلالة أم على أساس التركيب.....؟ وتلك قضية أخرى تطرح تساؤلا جديدا يضاف إلى التصنيف الذى أضفناه فى بداية البحث وهو: أعلى أساس الوظيفة الدلالية أم على أساس العلامة الإعرابية يجب أن نصنف؟ ويبدو أنه يجب أن نقسم على حسب العلامة عند تناول الأسماء المفردة والأفعال بالدراسة وهى التى تظهر عليها العلامات، أما فى المسائل التركيبية الخاصة بالأساليب، فيجب أن نأخذ بالوظائف، إما التركيبية أو الدلالية وعليه فإننا يجب أن نفصل بين دراسة المفردات وبين دراسة التراكيب فى التصنيف النحوى الذى نقترحه.

(١) أنظر الباب الخاص باجتماع الشرط والقسم - المطالع ص ٤٥١

لقد قرر السيوطى عند تناوله لموضوع الإستثناء فى الكتاب الثانى الخاص بالفضلات أنه يدرك الفرق بين التسميتين، المستثنى والاستثناء فالأول معناه أنه قسم الكتاب على أساس العلامة الإعرابية أما الاستثناء فمعناه أنه قسم الكتاب على أساس الباب أو التركيب بأكمله وهذا رأى شديد يستوجب أن تجد تسمية للكتاب الثالث مثل "المجرورات" وما يحمل عليها من المجزومات^(١).

فالمجرورات تعنى أنه اتبع النهج نفسه الذى تحدث عنه فى باب المستثنى^(٢) وهو أن يفرد هذا الكتاب للأسماء المجرورة، وذلك أن الفعل لا يتأثر بهذه العلامة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإننا نجد تقسيم الباب على أساس الحروف التى تعمل الجر فى الأسماء، ناهيينا بما إذا كان هذا الجر محضاً أى ليس لوظيفة تخضع لباب نحوى بعينه كجر جميع الأسماء أم كان هذا الجر يخضع لوظيفة دلالية تابعة لباب نحوى كالتقسيم بالحروف نفسها التى تقوم بالجر^(٣) وهنا نصادف أكثر من تداخل، فالتقسيم على أساس الحروف العاملة جعل السيوطى نفسه يصادف عقبة كبيرة فى سبيل تناول الباب فحروف الجر عددها محدد وقد حصرها فى ثلاثة عشر حرفاً، ووظيفة هذه الأحرف جميعها النحوية هى الجر والعلامة الإعرابية المصاحبة للاسم المجرور هى الكسرة، وكل من الجار والمجرور يعد مركباً يمكن أن يتعلق بأحد عناصر التركيب وبهذه العبارات المختصرة كان يمكن أن ينتهى هذا الباب.

(١) المطالع ص ٣٩٣

(٢) المطالع ص ٣٣٧

(٣) المطالع ص ٤١٦

لكننا نجد السيوطى يتحرك فى دائرة أوسع يتناول هذا الباب تناولا استعماليا محضا، يخص فيه كل حرف بدلالة محددة فى تركيب محدد، ثم لا يلبث أن يعرض للحرف الواحد فى تراكيب مختلفة، يؤدى فيها الحرف نفسه الوظيفة الدلالية بحرف آخر من أحرف الجر حتى يكاد يستغرق دلالة بعض الأحرف الأخرى، عارضا لاستشهادات متنوعة من التراكيب العربية المختلفة التى تمثل المستويات اللغوية العربية المتاحة فى ذلك العهد وهذا النهج يعد منطلقا لا نستطيع أن نحكم عليه بأنه من قبيل التطور أو القصور، فليس كل ما نجده من آثار علمية عن الأقدمين وقد تطابق مع ظاهرة فى الدرس اللغوى الحديث يعد تطورا، كالمناهج الاستعمالية الإحصائية، فالذى دعا السيوطى إلى هذه الخصوصية فى التناول هو نوع التقسيم الذى لجأ إليه حيث مزج بين اتخاذ العلامة الإعرابية أساسا للتقسيم وبين الوظيفة النحوية من ناحية والوظيفة الدلالية من ناحية أخرى، كما اتخذ أيضا التصنيف إلى أقسام الكلام أساسا رابعا لتأليف المطالع. وهذا المزج بين أسس التقسيم المختلفة، نجده فى الباب التالى لأحرف الجر وهو باب القسم^(١) بالأحرف نفسها التى تؤدى وظيفة دلالية هى القسم، بعد أن كانت وظيفتها فى الباب السابق تعد وظيفة نحوية، كما نجد مفارقة أخرى وهى وجود حرف "التاء" بين هذه الأحرف، فالحقيقة أنه يؤدى وظيفة دلالية هى القسم وإن الاسم الذى يليه مجرور شأنه شأن الأسماء المجرورة، لكن الحرف العامل لا يندرج ضمن تصنيف أحرف الجر، وفى هذا الإطار نجد مفارقات أخرى، نعى باب القسم نجد عرضا لأسماء مجرورة بالإضافة كلفظ الجلالة

(١) المطالع ص ٤١٦

خصوصا عند استخدام المكون التركيبى "أيمن"، فلفظ الجلالة التالى لهذا المكون مجرور بالإضافة ومحلّه الإعرابى الرفع، والخبر محذوف تقديره "قسمى" وأصل التركيب "أيمن الله قسمى" ومن هنا فالوظيفة الدلالية "القسم" مستفادة من المبتدأ المضاف "أيمن" ومن الخبر المقدر "قسمى".

ومن هنا فليس هناك حرف عامل وإنما هناك مجرورات ومن هذا فإن تسمية "الكتاب الثالث" تنطبق على هذه الجزئية ولا تنطبق على ما سبق، غير أننا نجد السيوطى يعرض فى هذه المسألة لبعض الخصائص الفنولوجية لهذا المكون التركيبى فيقرر أنه يرد مبدؤا بالهمزة، كـ مليود مخففا ومسبقا بصامت يعوض الحركة المققودة من تخفيف الهمزة فتصبح: "ويمن" كما أنها ترد محذوفة النون فتصبح "ويم الله" وترد أيضا على هيئة حرف واحد هو الميم فتصبح "م الله" والحقيقة أن الواو السابقة على هذا المكون وأيضا الميم المتبقية من هذا المكون لا تعد حرفا عاملا أو مبررا لتناول هذا الموضوع ضمن المجرورات على أساس من التقسيم حسب الظروف العاملة.

ولا يتوهم متوهم أن الواو التى تسبق "أيمن"، سواء عند ثبوته أو حذفها تشبه الواو التى تسبق "رب": فالأخيرة لابد أن يليها اسم مجرور، لكن الأولى يليها اسم مرفوع ولفظ الجلالة مجرور بالإضافة، ونجد فى تناول السيوطى للإضافة عرضا لظواهر لغوية عامة كالمطابقة فى حالة التذكير والتأنيث ومسألة التعريف بأكثر من مؤثر كالألف واللام مع الإضافة.

كما يعرض لمسائل تركيبية كالاعتراض والفصل بين متلازمين بالمفعول به، والظرف والجار مع مجروره، وفى أثناء موضوع الإضافة نجد تناولاً فنولوجياً خاصاً بباب النداء. وعند حديث السيوطى عن عملية الجر بالمجاورة نلمس فى

كلامه اقتناعاً بأن هذه الظاهرة تعد من الخروج عن المألوف النحوى وأنها لاتخضع لقاعدة بعينها ولا يمكن القياس عليها فى الاستخدام وجميع ما يعرض له من شواهد موروثة عن الناطقين الأوائل وكتب النحاة المتقدمين.

وفى الكتاب نفسه نجد تسميتين لباب واحد، هما المجزومات فى بداية الكتاب، والجوازم فى بداية الموضوع نفسه. والتسمية بالجوازم تبدو موافقة للنهج الغالب على كتاب المجزورات وما يحمل عليها من المجزومات، فأغلب الكتاب يخضع للتقسيم على أساس الحروف العاملة التى يعمل جزء منها الجر فى الأسماء وجزء آخر يعمل الجزم فى الأفعال، والأدوات فى هذا الكتاب تتنوع بين حرف واسم، وعليه فإننا نجد مزجا فى التقسيم حيث أن عوامل الجر بعضها من الأحرف كحروف الجروبعضها أسماء كالمضاف الذى يعمل الجر فى المضاف إليه وأيضا الجوازم بعضها أحرف وبعضها أسماء كأسماء الشرط، ومما هو جدير بالملاحظة أن المعمولات فى حالة الجر، فهى أفعال، وإذا كان السيوطى قد ورث هذا التقسيم عن النحاة واللغويين القدامى، فليس من شك فى أن له نظرات لها من الخصوصية بحيث تنسب إليه وتشهد بعلمه الفريد وهو بنفسه ليسجلها فى الكتاب عند ترجيح رأى بعينه أو عند مخالفة من سبقه فى الأراء وقد ذكر ذلك لنا صراحة عند تسميته باب الإستثناء^(١) بالمستثنى، وفى عرض السيوطى لجوازم المضارع، يقرن ذلك عنده بالخلط بين الوظيفة النحوية وهى الجزم والوظيفة الدلالية وهى الشرط فيتأوله تناولاً تركيبياً، فيعرض لخصائص التركيب واجتماعه مع تركيب آخر هو تركيب القسم، مسجلاً غياب جواب أحد التركيبين

(١) المطالع - الكتاب الثانى ص ٣٣٧

بحيث يكون الجواب المذكور لأسبقهما ذكرًا في التركيب كما يعرض لظاهرة الحذف في التركيبين ويمزج السيوطي بين تناول المجزومات بالدرس وبين إعراب الجوازم أنفسها لبيان وظيفتها بالنسبة للتركيب، وفي هذا الإطار لا يبعد كثيرا عن التسميتين^(١) اللتين وضعهما للباب، لكنه فيما يلي من أجزاء الكتاب يبعد عن الجوازم والمجزومات فيعرض لحروف المعاني كالإستفهام وأحرف الجواب، وفي هذا الجزء يتناول بالدرس الأدوات من حيث الوظيفة الدلالية، وفي نهاية الكتاب يعرض لمسألة فنولوجية صوتية هي التتوين، وبهذا فالسيوطي في تناوله للظاهرة الواحدة يتبع أكثر من طريقة في التناول، وعند تناوله لظاهرة أخرى فإنه لا يتبع الطرائق عينها ولا المسميات نفسها، فهو في نهاية الكتاب الثاني يذكر "نواصب المضارع"^(٢) ومن العنوان نلاحظ أن التركيز ينصب على الأحرف العاملة في الفعل المضارع، لكننا نجده في نهاية هذا الباب يعرض لظاهرة حذف الأداة، ومن هنا نستنتج أنه يركز على العلامة الإعرابية المصاحبة لنهاية الفعل وهو تفسير لإدراجة الفعل المضارع ضمن هذا الكتاب الخاص بالأسماء المنصوبة من الفضلات بالرغم من أن الفعل المضارع ليس من الفضلات، كما نجده في الباب نفسه يتناول الأداة الناصبة من حيث وظيفتها في التركيب، ووظيفة التركيب نفسه بالنسبة للنص الوارد فيه وذلك تحت عنوان "أن المفسرة"^(٣) على حين أننا في بداية الكتاب الثالث نجده يضع عنوان "المجرورات وما حمل عليها من المجزومات"^(٤) ومن هذا العنوان نعلم أنه يخالف نفسه في

-
- (١) الجوازم والمجزومات
(٢) نواصب المضارع - أنظر المطالع ص ٣٧٧
(٣) المطالع - الكتاب الثاني ص ٣٨٩
(٤) المطالع - الكتاب الثالث ص ٣٩٣

الطريقة التي اتبعها عند تناوله لنواصب المضارع، فيبدو للقارىء أنه سيركز على المجزورات وليس على أحرف الجر، لكنه فى الحقيقة قسم الباب حسب أحرف الجر نفسها كما أسلفنا.

والحقيقة أن هناك معايير تتدرج ضمن معايير أخرى ومنها المعيار اللغوى الذى لا شك أنه يعتمد على المعيار البنىوى من حيث إن المصنف يميز بين الظاهرة النحوية المدروسة وغيرها بمكون تركيبى قد يزداد على المكون التركيبى المدروس، أو يحذف منه بسبب استخدام ينتسب إلى لهجة بعينها، والمعيار الآخر هو المعيار الإستعمالى الذى يستند إلى كل من المعيارين، التركيبى والدلالى معا، فالأساليب قد تتشابه تركيبيا فيما عدا مكون تركيبى واحد قد يكون حرفا أو فعلا، إذا استبدل بحرف أو فعل آخر فإنه يكسب التركيب دلالة جديدة.

ومما أورده السيوطى مستندا إلى المعيار البنىوى، مسألة التمييز بين الأبواب النحوية ببعض المكونات، كحرف الجر وذلك فى باب المفعول المطلق^(١) حيث يقول: إنما سمي مفعولا لأنه لم يقيد بحرف جر كالمفعول به وله وفيه ومعه. والمصدر هو المفعول حقيقة لأنه هو الذى يحدثه الفاعل وأما المفعول به فمحل الفعل، والزمان وقت يقع فيه الفعل، والمكان محل الفاعل والمفعول والفعل.

وأورد السيوطى، جامعا الإتساع فى الوظيفة النحوية والاستخدام معا، مستندا إلى المعيار التركيبى المورفولوجى، أى البنية المكونية للصيغة المستخدمة فى باب الحال، قائلا فى الحال التى وردت مصدرا بتأويل المشتق^(٢). ورد الحال

(١) المطالع ص ١٦٨

(٢) المطالع ص ٣٤٨ .

مصدرا بكثرة، قال أبو حيان: وهو أكثر من وروده نعتا، ومنه ثم ادعهن يأتينك سعيًا^(١) و "ينفقون أموالهم سرا وعلانية"^(٢) و "ادعوه خوفا وطمعا"^(٣) و ثم إنى دعوتهم جهارا^(٤)، وقالوا: قتله صبورا وأتيته ركضا ومشيا وعدوا، ولقيته فجأة وكفاحا وعيانا، وكلمته مشافهة، وطلع بغتة، وأخذت ذلك عنه سماعا وإختلف النحويون فى تخريج هذه الكلمة ونحوها من المسموع، ومذهب سيبويه وجمهور البصريين إلى أنها مصادر فى موضع الحال مؤولة بالمشتق أى ساعيا وراكضا وماشيا ومسرا ومعلنا، وخائفين وطماعين، وكذا الباقي، وقال بعضهم: هى مصادر على حذف مضاف، أى إتيان ركض، وسير عدو، ولقاء فجأة، وقيل أحوال على حذف مضاف، أى ذا سعى، وذا فجأة.

والحقيقة أنه فى مثل هذه المسائل لا يمكن الإستناد إلى معيار دلالى أو تركيبى ويكون المبرر الوحيد هو الإستخدام العربى بنسبته إلى قبيلة معينة أو مستوى لغوى خاص كالشعر، ومن ذلك ما أورده السيوطى فى ضبط المرخم^(٥)، فى المرخم لغتان: الإنتظار وهو نية المحذوف، وترك الإنتظار وهو عدم نيته، والأول أكثر استعمالا وأقواما فى النحو، وجاء عليه ما ترى "وتادوا يا مال"^(٦) وتقول زهير:

-
- (١) سورة البقرة ٢٦
 - (٢) سورة البقرة ٢٧٤
 - (٣) سورة الأعراف ٥٦
 - (٤) سورة نوح ٨
 - (٥) المطالع ص ٢٩٥
 - (٦) سورة الزخرف - القراءة القاشية "يا مالك" وقد وردت القراءة "يا مال" بكسر اللام على لغة من ينتظر أى يقدر البناء على الضم على الحرف المحذوف.

يا حار لا أرمين منكم بداهية لم يلقها سوقة قبلى ولا ملك
والشاهد فيه قوله "يا حار" حيث رخم "حارث" على لغة من ينتظر أى من ينوى
المحذوف، ومن ثم أعرب هذا وأمثاله، منادى مبنى على الضم على الحرف
المحذوف محل نصب.

وجاء على الثانى قول عنتر:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بنز فى لبان الأدهم
والشاهد فيه "عنتر" فهو منادى بحرف نداء محذوف ومرخم، ومع ترخيمه بنى
آخره على الضم على لغة من لا ينتظر المحذوف، أى من ينوى التمام، ومن ثم
يعرب "عنتر" منادى مبنى على الضم فى محل نصب، وعلى اللغتين روى قول
امرىء القيس: "أفاطم مهلا بعض هذا التدل"، روى بالفتح على لغة من ينتظر،
وبالضم على لغة من لا ينتظر. ويقال فى ثمود وعلاوة وسقاية ويا ثمو ويا علاو
ويا سقاي.

واستخدم السيوطى معيارا مميزا للباب النحوى المدروس، فالتمييز عنده^(١):
نكرة فيه معنى "من" الجنسية رافع لإبهام جملة أو مفرد، فالجملة تأتى والمفرد:
عدد نحو: أحد عشر رجلا، أو مفهوم مقدار كيل أو وزن أو مساحة أو شبيهها
كمثال نرة، وذنوب ماء، ونحى سمنا.

وقد اعتمد على الدلالة فى باب الإضافة، فأورد عن "كل" و "بعض"^(٢) من
الأسماء ما يلزم الإضافة معنى وينفك عنها لفظا، فمن ذلك "كل" و "بعض"، والمشهور

(١) المطالع ص ٣٦٥

(٢) المطالع ص ٤٢٧

فى استعمالها أن لا يخلو من الإضافة لفظا إلا وهما مضافان معنى، قال سبحانه وتعالى: "وكل أتوه داخرين" (١) ولأجل نية إضافتها لم تنخل عليهما الألف واللام إلا فى كلام المتأخرين.

وفى موضوع الحال عند تعرض السيوطى للمنصوبات من الأسماء، يضع تصنيفا للحال وفقا للدلالة والمعانى التى يؤديها الحال، فالحال عنده أقسام (٢) باعتبارات، فتقسم بحسب قصدها لذاتها وللتوطئة بها إلى قسمين مقصودة، وهو الغالب وموطنه وهى الجامدة الموصوفة نحو "تتمثل لها بشرا سويا" (٣)، وتنقسم حسب التبيين والتأكيد إلى قسمين: مبنية وهو الغالب وتسمى مؤسسة أيضا وهى التى تدل على معنى لا يفهم مما قبلها، ومؤكدة وهى التى يستفاد معناها بدونها.

وهى ثلاثة أنواع: مؤكدة لعاملها وهى التى يستفاد معناها من صريح لفظ عاملها، والأكثر أن يخالفه لفظا نحو: "وليتم مدبرين" (٤) وقد توافقه نحو "وأرسلناك للناس رسولا" (٥). ومؤكدة لصاحبها، ذكرها ابن هشام وقال: أهملها النحويون، وفسرها بأنها التى يستفاد معناها من صريح لفظ صاحبها نحو: جاء القوم طرا، ومؤكدة لمضمون الجملة، وشرط الجملة كون جزئيهما معرفتين لأن التأكيد إنما يكون للمعارف، وكونهما جامدين لا مشتقين ولا فى حكمهما وفائدتيهما إما بيان يقين نحو: زيد أخوك معلوما وأيضا:

أنا ابن دارة معروفا بها نسبى وهل بدارة يا للناس من عار

(١) سورة النمل آية ٨٧

(٢) المطالع ص ٣٥٧

(٣) سورة مريم آية ١٧

(٤) سورة التوبة آية ٢٥

(٥) سورة النساء آية ٧٩

أو فخرا: أنا فلان شجاعا أو كريما، أو تعظيم نحو: هو فلان جليلا مهيبا، أو تحقيرا نحو: هو فلان مأخوذا مقهورا، أو تصاغر نحو: أنا عبدك فقيرا إلى عفوك، أو وعيد نحو: أنا فلان متمكنا فائق غضبي.

والحقيقة أن السيوطي يجمع بين التصنيف على أساس التركيب والدلالة معا في أغلب الموضوعات، وفي موضوع الحال يتضح الجمع بينهما، ففي "صاحب الحال" يورد^(١): لما كانت الحال خبرا في المعنى وصاحبها عنه أشبه المبتدأ، فلم يجر مجئ الحال من النكرة غالبا إلا بمسوغ من مسوغات الإبتداء بها، ومن النادر قولهم: عليه مائة بيضا، وفيها رجلا قائما، ومن المسوغات النفي كقوله سبحانه وتعالى: "وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب"^(٢).

والنهي نحو:

لا يركنن أحد إلى الإحجام يوم الوغى متخوفا لحمام

والاستفهام نحو:

يا صاح هل حم عيش باقيا فترى لنفسك العذر في إيعادها الأمل
والوصف نحو قوله تعالى: "فيها يفرق كل أمر حكيم"^(٣) والإضافة نحو: في أربعة أيام سواء^(٤). والعمل نحو: مررت بضارب هنذا قائما.

والحقيقة أنه لا يمكن أن نعزو إلى السيوطي وحده مسألة الاعتماد على التركيب في التصنيف، بل هو منهج النحاة العرب عموما، والكثير من عمل

(١) المطالع ص ٣٥١

(٢) سورة الحجر آية ٤

(٣) سورة الدخان آية ٥٤

(٤) سورة فصلت آية ١٠

السيوطى هو النقل، حيث لم تنتش فى عصره ظاهرة نقد النحو العربى كما هو فى العصر الحديث، فما يورده فى باب الفاعل الذى يظل فاعلا على المحل، أى يعد فاعلا من حيث الوظيفة النحوية وذلك إمتدادا إلى المعنى، لكنه فى الحقيقة، أى الفاعل، مجرور بحرف جر وعلامته المصاحبة هى الكسرة بالفعل، لكنهم يلجأون إلى تفسير وتعليل، أو بمعنى أصح مخرج يخرجون عليه الشواهد، فيورد السيوطى جامعا بين النحو والدلالة شأنه شأن النحاة العرب السابقين والمعاصرين فى المطالع^(١) فى باب "الفاعل": قد يجر الفاعل بالباء الزائدة أو "من" الزائدة نحو "ما يأتيهم من ذكر"^(٢) أى ذكر، فيجوز الإتيان بالرفع والجر مراعاة للمحل واللفظ وغلبت زيادة الباء فى فاعل كفى نحو قوله تعالى: "وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا"^(٣).

ومن ضروب جمع السيوطى بين التركيب والدلالة فى التصنيف، إيراده فى باب المفعول به صوراً لتقديم المفعول به على الفاعل تتضمن التركيب والدلالة معا فيقول:^(٤)

الأصل فى المفعول به التأخير عن الفعل والفاعل، وقد يقدم على الفاعل جوازا وجوبا كما تقدم فى بابيه، وقد يقدم على الفعل جوازا كما تقدم هناك أيضا، وقد يجب تقدمه عليه وذلك فى صور: أحدها: أن يتضمن شروطا نحو: من تكرم أكرمه، وأيهم تضرب أضرب، وثانيهما أن يتضمن استقهما نحو من رأيت؟ ومتى قدمت؟ وأين أقمت؟ ولام من رأيت؟.....

(١) المطالع ص ٢٥٧

(٢) سورة الأنبياء آية ٢

(٣) سورة النساء آية ٤٥

(٤) المطالع ص ٢٦٩

٣- والحقيقة أن الاستناد إلى المعيار الدلالي فى التداول فيه مزج بين المعيارين البنىوى والدلالي، فإذا اشترط أن يرد المكون المدروس فى تركيب شرط أو إستفهام أو نفى، فهو غالباً ما يستند إلى مكون تركيبى بعينه، وهو أداة الإستفهام أو الشرط أو النفى، لكننا صنفنا الظاهرة وحددنا معيار التداول بأنه دلالي وذلك لأن بعض التراكيب قد ترد بدون أداة كالشرط، خصوصاً عندما يكون مضمراً، والاستفهام، ومن هنا فأننا نلمس تداخل معايير التداول، فتداخل معيار البنية والدلالة ينتجان لنا المعيار الاستعمالي والمعيار اللغوى يعتمد اعتماداً أساسياً على المعيار البنىوى والإستخدام، الذى يستند بدوره إلى المعيار الاستعمالي.

فى إطار الاتساع فى الإستخدام يورد السيوطى الحرف ثم يعقب بوظائف هذا الحرف وأمثله فى التراكيب العربية^(١): حروف الجر محصورة بالعد فلا تحتاج إلى حد والمذكور هنا منها ثلاثة عشر حرفاً سوى أحرف القسم، أحداها "إلى" ولها معان: أحداها: انتهاء الغاية مطلقاً زماناً أو مكاناً نحو: "أتموا الصيام إلى الليل"^(٢). الثانى: الظرفية كـ "فى" فى قوله تعالى: "ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه"^(٣) الثالث: المعية وذلك إذا ضمنت شيئاً إلى آخر فى الحكم به أو عليه أو التعلق كقوله تعالى "من أنصارى إلى الله"^(٤)، وقوله "وأيدىكم إلى المرافق"^(٥). ثم يستعرض السيوطى بعد ذلك التوسع فى الاستخدامات التركيبية حيث يودى المكون "إلى" ووظائف مكونات أخرى من أحرف الجر فى تراكيب مختلفة يودى فيها

(١) المطالع ص ٣٩٣

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧

(٣) سورة النساء آية ٨٧

(٤) سورة الصف آية ١٤

(٥) سورة المائدة آية ٦

المكون نفسه وظائف آخر يمكن تفسيرها دلالياً، على حين أننا لو وضعنا
المكونات الآخر مكان المكون "إلى" لعد التركيب غير جارٍ على سنان الاستخدام
العربي وخارجاً عن العرف النحوي فيورد^(١): الرابع: مرادفة "من" كقوله:
تقول وقد عاليت بالكور فوقها أيسقى فلا يروى إلى ابن أحمر
أى "منى"

الخامس مرادفة "عند" كقوله:

أى أشهى عندي. أم لا سبيل إلى الشباب وذكره أشهى إلى من الرحيق السلسل

ويستخدم السيوطي الدلالة جنباً إلى جنب مع الفروق التركيبية في بيان أداء
حرف للوظيفة الدلالية لحرف آخر، السادس: التبيين: وهى المبنية لفاعل
مجرورها بعدها يفيدها حبا أو بغضا من فعل تعجب أو أفعل تفضيل، نحو: قال
رب السجن أحب إلى^(٢).

ويتناول السيوطي بقية الأحرف بالترتيب فيصنع الصنيع نفسه مع كل حرف
بأن يورد معانيه الأصلية ثم الوظائف الدلالية التى يؤديها فى تراكيب آخر نيابة
عن أخوته من حروف الجر الأخرى، وسنجد هنا مكتبيين بما أوردناه فى
الحرف "إلى" من شواهد وأمثلة ونقتصر حديثنا على الحرف ووظائفه
وملاحظاتنا.

(١) المطالع ص ٢٩٤

(٢) سورة يوسف آية ٢٢

ويستخدم السيوطى الأساليب مميزات للوظائف النحوية والدلالية، مفرقا بين المكون الصالح لوظيفة دلالية محددة وبين ما لا يصلح لها، نحو: كتبت بالقلم ونجرت الباب بالقدم، وبريت القلم بالسكين وخضت الماء برجلي، إذ لا يصح جعل القلم سببا للكتابة بل السبب غير هذا.

ونلاحظ أن السيوطى لا يورد الحرف البديل فى المعنى فحسب، بل يورد المكون البديل للجار والمجرور معا فيؤوله بحال، فتؤددى الباء وظيفة المصاحبة وهى التى لا يصلح موضعها "مع" ويغنى عنها وعن مصحوبها الحال نحو قوله تعالى: "اهبط بسلام" أى مع سلام، لكن الشئ الغريب أن يعد السيوطى عدم الوظيفة وظيفة، فهو يجعل الوظيفة الحادية عشر لحرف الباء إحدى الوظائف بالرغم من حديثه عنها بأنها حرف زائد، ولكن يمكننى تلمس العذر له فى أنه يقصد الإتساع فى الإستخدام بالمعنى الاستعمالى^(١) فيورد^(٢) الحادى عشر: الزيادة نحو قوله تعالى "وكفى بالله وليا"^(٣) و "بحسبك درهم".

واتضح لنا مما سبق أن السيوطى يحسم اللغوى الدقيق وإدراكه للفوارق بين التراكيب العربية والأساليب، قد فرق بين الوظيفتين النحوية الخاضعة للإعمال النحوى والعلامة الإعرابية، والوظيفة الدلالية التى يؤدى بها المكون دلالة مكون آخر فى التركيب الواحد بغض النظر عن ذكره المصطلحين اللذين ذكرناهما واللذين إستخدماهما ضمن الخضم الهائل من المصطلحات والمعارف التى أضفاها علم اللغة الحديث على العلوم العربية.

(١) R. Borthes, Introduction a L'analyse Structurale du Recit Poetique du Recit, coll. Points No, 78. Paris Eds. du Seuil, 1977 pp 7/8

(٢) المطالع ص ٣٩٧

(٣) سورة البقرة آية ٢٢٨

ومن الجوانب الإستعمالية فى المطالع، تناول السيوطى للمفعول معه من وجهة نظره ووجهة نظر أقرانه من النحاة، تناولوا إستعماليا يعتمد على التمييز والمقارنة بالمكونات فيورد^(١): قول أبى حيان: تضافرت نصوص النحويين على اشتراط المصدرية فى المفعول له، وذلك أن الباعث إنما هو الحدث لا الذات، وشرطه أن يكون معللا بخلاف المصادر التى لا تعليل فيها "كقعد جلوسا" و"رجع القهقرى"، وشرط الأعلام والمتأخرون مشاركته لفعله فى الوقت نحو:

فجنت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر إلا لبسة المتفضل
لأن النص ليس له وقت معلوم، أو الفاعل نحو:

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بالله القطر
ففاعل "تعرونى" "هزة"، وفاعل "نكرى" الشاعر، أى: لذكراى إياك فيجران باللام، ولم يشترط ذلك سيبويه ولا أحد من المتقدمين، فيجوز عندهم "أكرمك أمس طمعا فى معروفك"، و "جنت حذر زيد"، ومنه قوله تعالى: "يرىكم البرق خوفا وطمعا"^(٢) ففاعل الإرادة هو الله سبحانه وتعالى، والخوف والطمع من الخلق. ومتى فقد شرط من الشروط المذكورة وجب جره باللام وامتنع النصب.

فمثال فقد المصدرية: جنتك بالماء وللحشب وللسمر، ومثال فقد المشاركة البيتان السابقان، وقد يجر بمن والباء لأتبعهما فى معنى اللام نحو قوله تعالى: "لرأيتك خاشعا متصدعا من خشية الله"^(٣)، قيل: وقد يجر بمعنى السببية نحو: "نخلت امرأة النار فى هزة"^(٤)، ولا يتعين الجر مع "إن" و "أن"، وإن كانا غير

(١) المطالع ص ٣٠٥

(٢) سورة الرعد آية ١٢

(٣) سورة الحشر آية ٢١

(٤) حديث شريف

مصدرين وأنهما يقدران بالمصدر وأن يتحد فيهما الفاعل والوقت لأن حرف الجر يحذف معها كثيرا نحوه: أزورك أن تحسن، وأنتك تحسن إلى، وعلينا أن نفرق بين المعايير التي تميز بين المكونات أو الأبواب النحوية المختلفة، أهى معايير بنيوية أم دلالية أم تركيبية صرفية؟

والحقيقة أن الوصف البنيوي للتركييب والنصوص العربية أثبت فشله خصوصا عند تحليل هذه التراكيب والنصوص إذ لابد من اشتراك عناصر أخرى كالدلالة والبنية العميقة للتركيب، وعلى هذا فالأخذ بأكثر من معيار فى التحليل لا يستوجب أيضا الأخذ بأكثر من معيار فى وضع القواعد أو وصف المكون التركيبى الذى يقع ضمن الباب النحوى المدروس.

الخاتمة

وبعد، فليس هذا البحث نقداً أو اقتراحاً نبديه للنحو العربى بصفة عامة ولمنهج السيوطى بصفة خاصة، وإنما هو تسجيل أمين لمنهج السيوطى من منظور حديث، بالإضافة لما ارتأيناه من ملاحظات، وهو إضاءة تلقيناها على أحد الكتب النحوية التى تتسم بالصعوبة من حيث أسلوب التناول بالرغم من أنها من الكتابات النحوية المتأخرة، وقد ظهر لنا من خلال التناول الإستعمالى للمطالع ما يلى:

- ١- أن السيوطى يصنف أبواب النحو وفقاً لتناول سابقه مع قليل من التعديل فيما عنونه بالفوائد والمسائل.
- ٢- أن السيوطى التزم بأكثر من معيار للتصنيف كالعلامة الإعرابية، وأقسام الكلام والوظيفة.
- ٣- أن السيوطى مزج فى تناوله بين الوظيفة النحوية والدلالة وبعض المعايير اللغوية خصوصاً بعض الخصائص اللهجية التى حشا بها بعض المسائل النحوية.
- ٤- ينطوى مفهوم العلامة الذى صنف السيوطى المطالع على أساسه، على الوظيفة النحوية، فالرفع يرتبط بالفاعلية والإبتداء... إلخ، والنصب يرتبط بالمفعولية أو الحالية... إلخ.
- ٥- صرح السيوطى بأنه صنف المطالع وفقاً للعلامة، لكنه فى الحقيقة لم يلتزم بالعلامة بل تداخلت معها مقاييس أخرى أظهرها البحث.
- ٦- يجب أن يفصل بين دراسة المفردات ودراسة التراكيب فى التصنيف النحوى.
- ٧- هناك معيار استعمالى ضمن معايير التناول، لكن السيوطى أورده ضمن التصنيف النحوى وفقاً للعلامة والباب النحوى خصوصاً فى باب الجر.

مصادر ومراجع عربية

- ١- أوزيلاس جان ماري وآخرون - البنيوية - ترجمة ميخائيل فحول - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق - ١٩٧٢م.
- ٢- د. أيوب عبد الرحمن - دراسات نقدية في النحو العربي - القاهرة ١٩٥٧م.
- ٣- د. الجواري أحمد عبد الستار: نحو التيسير - دراسة ونقد منهجي - مطبعة المجمع العلمي - العراق ١٩٨٤م.
- ٤- د. حسان تمام: اللغة العربية معناها ومبناها - القاهرة ١٩٧٣م.
- ٥- د. الحناش محمد: البنيوية في اللسانيات ١٩٨٠م. دار الرشد الحديثة.
- ٦- د. الساقى فاضل مصطفى: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة (د.ت)
- ٧- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) الكتاب - تحقيق عبد السلام هارون - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
- ٨- د. شرف الدين محمود عبد السلام: الإعراب والتركيب بين الشكل والنسبة - دراسة تفسيرية ١٩٨٤م. - دار مرجان للطباعة - الطبعة الأولى.
- ٩- شريم جوزيف ميشال: دليل الدراسات الأسلوبية - الطبعة الأولى - بيروت - ١٤٠٤ هـ.
- ١٠- د. طحان ريمون: فنون التقعيد وعلوم الألسنة - دار الكتاب اللبناني (د.ت).
- ١١- د. عبد الباقي محمد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - مطبعة الشعب - القاهرة (د.ت).
- ١٢- د. عبد اللطيف محمد حماسة: دراسة في بناء الجملة العربية - الطبعة الأولى - ١٩٨٢م - دار العلم - الكويت.

- ١٣- المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) المقتضب - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ -
 ١٩٧٩م - مطبعة الأهرام - القاهرة - تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة.
- ١٤- د. المتوكل أحمد: دراسات فى نحو العربية والوظيفة - طبعة ١٩٨٦م - دار
 الثقافة.
- ١٥- من البنية الحملية إلى البنية المكونية - الوظيفة المفعول فى اللغة العربية - طبعة
 ١٩٨٦م - دار الثقافة للنشر والتوزيع - الدار البيضاء.
- ١٦- محجوب هـ فاطمة : دراسات فى علم اللغة - دار النهضة العربية - طبعة
 ١٩٧٦م.
- ١٧- ابن هشام (جمال الدين عبد الله بن يوسف) : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك
 - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - القاهرة ١٩٩٤ م.
- ١٨- شذور الذهب تأليف محمد محيى الدين عبد الحميد - نشر دار الفكر.
- ١٩- مغنى اللبيب عن كتاب الأعراب، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير الحلبي -
 القاهرة (د.ت).
- ٢٠- محمد بن يوسف (أبو حيان الأندلسى الغرناطى) - تفسير البحر المحيط -
 الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م. دار الفكر.

مراجع أجنبية

- 1- R Brothers, "Introduction a L'analyse Structurale du Recit Poetique du Recit, Coll. Points No. 78, Paris, Eds. du" seuil, 1977
- 2- Dick·simon: Studies in Functional Grammer - London academic press 1980

بحث بعنوان :

فَتَاوِي لُغَوِيَّة

Linguistic Rulings

فيه محاولة لإحياء الصواب المهجور لعدد من ألفاظ اللغة العربية

الدكتور

زين كامل الخويسكى

جامعة الإسكندرية

1000

1000

1000

1000

1000

1000

فَتَاوَى لُغَوِيَّة

فيه محاولة لإحياء الصواب المهجور لعدد من ألفاظ اللغة العربية

د. زين كامل الخويسكي

كلية التربية، جامعة الإسكندرية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا
محمد - ﷺ - وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فهذا بحث بعنوان «فَتَاوَى لُغَوِيَّة» ينهض على محاولة إحياء الصواب
المهجور لعدد من ألفاظ اللغة العربية باعتبارها نموذجاً يمكن أن يحتذى في
معالجة العديد من ألفاظ اللغة التي شاع أنها خطأ وهي في واقع الأمر
صحيحة..

ومع ما قد يظن من أن في العنوان شيئاً من الجرأة أو الخروج على
المألوف في مثل هذه الدراسات من مثل هذا الباحث إلا أن ابتغاء وجه الله
وصدق النية كانتا وراء هذا العمل الذي نُقِرُّ بأنه محاولة..

ولأنه بحث لمجلة علمية رأينا الاكتفاء بمعالجة ومناقشة عدد قليل من
الألفاظ باعتبارها نموذجاً راجعين الله سبحانه أن نوفق في معالجة ما توافر لدينا
من ألفاظ أشيع أنها خطأ وهي صحيحة تزيد عن مائة وثلاثين لفظة... وإن

أهم ما يميز هذه الألفاظ التي وقف عليها البحث هو أنها متداولة بيننا في حياتنا اليومية...

وقد رأى البحث أن أمثل طريقة لتناول مثل هذا الموضوع يمكن أن تكون من خلال :

- ١ - العربية واللحن.
- ٢ - مناقشة ومعالجة عدد من الألفاظ التي خطأها المحدثون وهي صحيحة.
- ٣ - ما يقترحه البحث من (فتاوى لغوية).

أولا - العربية واللحن :

لا مجادلة على الإطلاق في أن اللغة أحد الأركان الكبرى التي تقوم عليها الحياة، حياة الأفراد وحياة الأمم... وتعد العربية من أعظم اللغات التي عرفها الإنسان ومن أوسعها، وهي من أكبرها حظاً من العناية والاهتمام اللذين تجلّيا بشكل ملموس في تلك (المكتبة) اللغوية التي أبدعتها الحضارة الإسلامية خلال قرون متطاولة. وكانت منذ البدء دليلاً جلياً على أصالة متمكنة وعمق بعيد... فتبوّأت مكاناً علياً في الدراسات اللغوية الحديثة من صرفية ونحوية ودلالية، ما نراه ماثلاً في أقدم أثر لغوي عربي وصل إلينا (الكتاب) لسيبويه إمام النحاة.

كان وراء ذلك في العربية ظاهرة طارئة عليها، هددت كيان الأمة بالتفكك والاضمحلال، لأنها هددت كيان هذه اللغة بذلك المصير، إنها ظاهرة الانحراف عن سنن الفصحى والوقوع فيما اصطلح عليه بـ (اللحن) ..

ولم تكن تلك اللغة إلا لغة القرآن الكريم، وهو مدار الحضارة الإسلامية، ومحور وجودها، فلا بد من النهضة بوجه هذا الخطر، وقد كان إذ أبدع النحو العربي ميزاناً للسان، ثم قامت حركة تجرى مع النحو مسجلة في ملاحظة ومراقبة، مدى النجاح الذي حققه العلم الجديد في أداء وظيفته وتوجيه الناطقين أو الكتاب، فكان من ذلك تراث غير تراث النحو، ولكنه يسعى إلى ما يسعى إليه من الإصلاح والتنقية، ممتداً معه حيثما امتد لأن الداعي إلى هذا هو الداعي إلى ذلك.

فإذا رأينا كتاب سيويه أو مقتضب المبرد رأينا إصلاح المنطق لابن السكيت وأدب الكاتب لابن قتيبة في الحقبة نفسها وفي البيئة نفسها فقد أدرك أجدادنا عظم ما توارثوا فكانت اللغة عندهم منزلتها العالية، وكان لنقلها عندهم شروط وللاحتجاج بها أيضاً شروط، ولروايتها صفات، فكانوا يتحرون الدقة في كل ما يتصل باللغة، وإن أعظم ما يكشف لنا عن ذلك ما كان بينهم من تساؤلات عن كثير من مسائل اللغة.. فالبون شاسع بين ما كانوا عليه وما كانت عليه اللغة وبين ما نحن فيه... فانتشار اللحن والخطأ في اللغة ليس بدءاً ولا جديداً، ولكن الجديد والمبتكر كما يقول مازن المبارك في كتابه (نحو وعي لغوي جديد، ص ١٨٤ هو معاندة الحق والإصرار على الخطأ... فكانوا يحتاطون للخطأ وانتشاره محللين أسبابه واصفين له العلاج.. وإلى ما سبق أن ذكرنا نضيف هنا أنه ،

ما وضع علم النحو وقواعده إلا بسبب من انتشار اللحن وشتوع الخطأ فضلاً عما كان يقوم به العلماء من تصحيح لألفاظ المتكلمين على ما قدم الكسائي المتوفى سنة ١٩٢ هـ وهو من أوائل من ألفوا في لحن العامة وهو بتحقيق أ.د. رمضان عبد التواب، وابن السكيت المتوفى سنة ٢٤٤ هـ حيث نبه على كثير مما تغلط فيه العامة في كتابه (إصلاح المنطق) وتبعه السجستاني المتوفى سنة ٢٤٨ هـ فيما وضع في كتابه (أدب الكاتب)، على بعض ما تخطيء فيه العامة... وألف أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ كتاب (لحن العامة) وألف أبو حفص عمر بن خلف بن الصقلي المتوفى سنة ٥٠١ هـ كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان) وألف ابن هشام اللحمي

المتوفى سنة ٥٧٧ هـ كتاب (المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان) ، وكانت هذه الكتب الثلاث الأخيرة بتحقيق الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز مطر..

ولم يتوقف الأمر عند لحن العامة^(١) فكان هناك لحن الخاصة والذي ظهرت الحاجة إلى التأليف فيه .

ومن ذلك كتاب (لحن الخاصة) لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وكتاب (تثقيف اللسان) لابن مكى الصقلى المتوفى سنة ٥٠١ هـ وكتاب (درة الغواص فى أوهام الخواص) للحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ تحقيق المستشرق الألماني هنريش ثوريكه، طبع ليزج سنة ١٨٧١ م، وقد أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد. وكتاب (المدخل إلى تقويم اللسان) لابن هشام اللخمي المتوفى سنة ٥٧٧ هـ، وكتاب (تقويم اللسان) لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

فضلا عما قدمه ابن كمال باشا المتوفى سنة ٩٤٠ هـ فى كتابه (التنبيه على غلط الجاهل والنبیه) ..

وقد أخفق عصرنا فى إيصال القاعدة اللغوية إلى أبناء العربية، فلم تتبع طرائق الأقدمين وقد أثبتت نجاحا يتمثل فى آلاف العلماء والأدباء الذين اتقنوا العربية اتقاناً حتى صار عسيراً بالتمييز بين برجل العلم ورجل الأدب لغة أوبيانا^(٢) .

(١) يحيل البحث هنا إلى الفصلين (الأول والثانى) من كتاب (لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة) للدكتور عبد العزيز مطر - دار المعارف ط ٢، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م. حيث العرض والمعالجة لكل ما كان يمكن أن يرصده البحث ها هنا فضلا عما ذكره البحث..

(٢) ينظر : مدرسة البصرة النحوية (ص ٤١٢ - ٤١٧) بشأن طرائق تدريس العربية عند الأوائل مستقاة من كتاب سيبويه ومقتضب المبرد.

وكذلك أضع المحدثون طرائق التعليم اللغوى الحديث، وقد أثبتت نجاحاً فى ديار الشرق والغرب، وصار الأمر مألوفاً هناك ، فلا استهانة باللغة ولا تملص من أصولها أو حدودها المرسومة الملزمة.

هنا ضاعت رسوم العربية على السنة الخاصة قبل العامة، وفى أقلام الكتاب والشعراء فاشتدت حركة الإصلاح فى مقاومة الخطأ اللغوى المستشرى، وتوغلت فى كل ميدان، وكان لها تراث عزيز غريب السعة، لا يخفف هذه الغربة إلا سعة الخطأ واستشراؤه، غير أن بعض هذا التراث مستور غير منظور، ومطوى غير منشور لم تصل إليه يد لإخراجه من مخائيه المخطوطة، ومجاهله المطبوعة، فى آثار نادرة، ومباحث كامنة فى بطون الصحافة القديمة من الجرائد والمجلات (١).

ومن المؤلفات الحديثة التى اهتمت بالأخطاء الشائعة ومحاولة معالجتها نذكر ما يلى :

(١) من ذلك مجلة (الضياء) التى أنشأها إبراهيم اليازجى عام ١٣١٥هـ - ١٨٩٨م وكانت حافلة بمقالات نقد فيها لغة الصحافة آنذاك وسمى مقالاته (لغة الجرائد) ...

• ومن الجرائد التى اهتمت بنشر ما يتصل بالأخطاء اللغوية جريدة (الأفكار) ففى عام ١٣٣٣هـ - ١٩١٥م بدأ أحمد أبى الحضر منسى نشر مقالاته التصويية فى هذه الجريدة، ووصل ذلك عام ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م فى جريدة (السفور) وعام ١٣٣٦هـ - ١٩١٨م فى جريدة (الأهرام) ثم فى جريدة (المقطم) عام ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠ وبعد ثلاث عشرة سنة (عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م جمع أحمد أبو الحضر منسى ذلك كله إلى إضافات أخرى فى كتابه الموسوم بـ (حول الخطأ والفصح على السنة للكتاب) وللنشور بالقاهرة - مطبعة للننى ١٩٦٣م. وقد قسمه إلى قسمين :

الأول : الخطأ والصواب ص ٧ - ص ٥٣.

والثانى : الخطأ الصحيح ص ٥٤ - ص ٦١.

وكان ذلك بالإضافة إلى ما سيرد ذكره فى هذا البحث إن شاء الله .

* (دفع الهجئة في ارتضاح اللكنة)

معروف الرصافي

الآستانة (مطبعة صنداي ملت) ١٣٣١هـ - ١٩١٢م.

* (رد الشارد إلى طريق القواعد)

جرجي شاهين عطية

بيروت ، مطبعة القديس جاورجيوس ، ١٣٣٩هـ - ١٩٢١م.

* (تذكرة الكاتب)

أسعد خليل داغر

مطبعة المقتطف والمقطن - القاهرة ، ١٩٢٣م.

* (المنذر في نقد أغلاط الكتاب)

للشيخ إبراهيم المنذر

مطبعة السلام بيروت - ١٩٢٧م ج ١

* (إصلاح الفاسد من لغة الجرائد)

محمد سليم الجندي

دمشق - مطبعة الترقى - ١٣٤٣هـ - ١٩٢٥م.

* (البستان)

عبد الله البستاني

بيروت - المطبعة الأميركانية - ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م

* كتاب المنذر إلى المجمع العلمي العربي بدمشق

إبراهيم المنذر

بيروت - مطبعة الاجتهاد - ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م

* (نظرات فى اللغة والأدب)

للشيخ مصطفى الغلايينى

بيروت - مطبعة طيارة - ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م.

* (أغلاط اللغويين الأقدمين)

انتاس الكرملى

بغداد - مطبعة الأيتام - ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م.

* (أغلاط الكتاب)

كمال إبراهيم

بغداد - المطبعة العربية ، ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.

* (إصلاح خطأ المحدثين)

أبو سليمان الخطابى

القاهرة - لجنة الشبية السورية ، ١٣٥٥هـ - ١٩٣٧م

* (أخطاؤنا فى الصحف والدواوين)

صلاح الدين الزعبلوى

دمشق - المطبعة الهاشمية ، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.

* (محاضرات عن الأخطاء اللغوية الشائعة)

محمد علي النجار

القاهرة - معهد الدراسات العربية العالمية - ١٣٧٩ - ١٩٥٩م.

* (أخطاء شائعة فى ألفاظ العلوم الزراعية والنباتية وكلمات مولدة يفيد إقرارها)

مصطفى الشهابى

دمشق - المجمع العلمى العربى : ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

* (لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة)

د. عبد العزيز مطر

القاهرة - دار القومية - ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

* (لغة الجرائد)

إبراهيم أليازجي

القاهرة : مطبعة مطر - د.ت

* (دقائق العربية - جامع أسرار اللغة وخصائصها)

أمين آل ناصر الدين

بيروت (مكتبة لبنان) ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، ط ٢.

* (قل ولا تقل - حملة لمحاربة اللفظ الدخيل)

المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي

الرباط - المكتب الدائم لتنسيق التعريب - ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م

* (قل ولا تقل)

د. مصطفى جواد

بغداد د. مطبعة الإيمان - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م (طبع الجزء الأول

طبعتين الثانية فيهما بغداد - مطبعة أسعد، ١٣٩ هـ - ١٩٧٠ م.

* (أزاهير الفصحى في دقائق اللغة)

عباس أبي السعود

القاهرة - دار المعارف - ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

* (معجم الأخطاء الشائعة)

محمد العدناني

بيروت - نشر مكتبة لبنان - ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

* (الاستدراك على كتاب قل ولا تقل)

صبحى البصام

بغداد - مطبعة المعارف - ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٧ م.

* (مغالط الكتاب ومناهج الصواب)

جرجى جنن البولسى - مطبعة القديس بولس - د.ت.

فالحقيقة المؤكدة أن كل ما ورد عند هؤلاء المؤلفين والكتاب كان صورة واقعية لما شاع من خطأ فى الألفاظ فى عصرهم الذى عاشوا فيه ... والخطأ اللغوى الذى يقع فيه العامى هو نفس الخطأ الذى يقع فيه المثقف ، فليست اللفظة المخطئة أو التركيب المخطئ إلا انحرافاً عن سنن اللغة الأم يقع فيه المثقف أو العامى ، فالتصحيح لازم فى كلتا الحالتين، وليس من دليل على هذا أوضح من وحدة حالات الخطأ اللغوى فى كل من لسان العامى وقلم الكاتب، يقول محمود تيمور^(١) (الكلمة العامية التى لا نستعملها فى لغة الكتابة بين حالات ثلاث : فإما كانت صحيحة فى اللغة كما يستعملها الناس، ولكنها قابضة فى المعجمات، قلما مسحها قلم إلا ذلك القلم الذى يمتأمن عليها مستودعات اللغة، وإما طرأ عليها ألوان من التحريف والإبدال يسيرة أو غير يسيرة، فانتقص منها حرف أو زيد عليها حرف أو أحلت فيها حروف مكان حروف. وإما كان وجه الخلاف بينها وبين الفصحى ضرباً من التخصيص أو التعميم ، ومشكلاً من الإطلاق أو التقيد. وشيئاً من النقل أو التوسع وسائر علاقات المجاز، إلى غير ذلك من تصرف مأنوس فى التطور الطبيعى للكلمات فى مختلف اللغات) .

(١) مشكلات اللغة العربية ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ .

وهذه الحالات لا ريب هي عين الحالات التي ينحرف إليها اللفظ العربي الفصيح عند الخاصة من الأدباء والخطباء والشعراء بل من اللغويين والنحاة، فالانحراف اللغوي عند الخاصة هو الانحراف اللغوي عند العامة، وليس الفارق إلا فارق الكثرة والقلة.

فالخطأ اللغوي يتخذ أشكالا مختلفة، ومظاهر شاملة، فيصيب الأصوات اللغوية، أو الصور البنيوية أو التراكيب النحوية أو الطرائق البنيانية، وقد عرف هذا في مختلف اللغات الإنسانية ومنها العربية، وكان ما تناقلته المصادر المعتمدة من أخبار بداية الانحراف عن مقاييس العربية ومسننها الأصل يعوّد بهذا الأمر إلى ظهور الإسلام وامتزاج العرب بغيرهم من الشعوب والأجناس إذ وقع التأثير والتأثر، وزاغت الألسن عما كانت عليه من فصاحة مطلقة، وسليقة صافية، فاضطربت أصوات العربية بارتضاخ لكلمات أعجمية وحرفت الصيغة عن شكلها الحقيقي، وتخلخل التركيب، واستعمل الكلم في غير مواضعه يقول أبو بكر الزبيدي^(١) «ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضى جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان فدخل الناس فيه أفواجا، وأقبلوا إليه أرسالا واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، ففسد الفساد في اللغة والعربية واستبان منه في الإعراب الذي هو جليها، والموضع لمعانيها».

ثم سجل روايات في اللحن يرجع أقدمها إلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢).

(١) طبقات النحويين واللغويين، ص ١١.

(٢) السابق نفسه، ص ١٢.

غير أن بعض مصادر الدراسات اللغوية عند العرب أرجع ظهور بواذر الفساد اللغوى إلى عهد سابق عليه هو (١) العهد النبوى وذلك فيما ورد عند صاحب كتاب مراتب النحويين أو عهد لاحق هو عهد علي بن أبى طالب كرم الله وجهه (٢)

وقد وقفت هذه الروايات عند هذا الحد، فلم تتوغل إلى العصر الجاهلى ولم تثبت حوادث آنذاك من هذا القبيل. ولا يعنى هذا أن أصحاب المصادر العربية ينفون عن ذلك العصر وقوع مخالفات عن الطريقة الإعرابية العامة التى سار عليها الأكثرون من عرب الجاهلية لأن ذلك قد كثرت فيه الروايات، بيد أن علماء العربية المتقدمين قد أقروا فصاحة هذا الخروج ووصفوه بالشذوذ ولم يصفوه بالخطأ، وصار عندهم « أن الشيء إذا اطرء فى الاستعمال وشذ عن القياس، فلا بد من اتباع السمع الوارد به فيه نفسه، لكنه لا يتخذ أصلاً يقاس عليه غيره » (٣)

ذلك بأن المتكلم آنذ عرّبى فصيح وأنه إن خالف الوجه المشهور فإنما يتكلم بلغة قبيلته ولهجة قومه فلا يحمل أمره على الخطأ.

وليس من شأن هذا البحث أن يسلك ما سلكه اللغويون والأدباء فى العصر الحديث من تتبع للخطأ الشائع ومقابلته بالصحيح وإنما هدف هذا البحث هو محاولة إحياء الصواب المهجور لعدد من الألفاظ العربية التى نستخدمها فى حياتنا اليومية والتى أشيع أنها خطأ وهى فى واقع الأمر صحيحة

(١) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى، ص ٢٣، وينظر: الخصائص لابن جنى، ج ٢، ص ٨.
(٢) أخبار النحويين البصريين، ص ١٥، ص ١٦، ونزهة الألباء، ص ١٨، وانباء الرواة، ج ١، ص ٤.
(٣) الخصائص، ج ١، ص ٩٩.

ولا خطأ فيها لما فى ذلك من إنصاف للحق وتحبيب للفصحى فى نفوس أصحابها ... ولم يقدّم البحث على الاستقراء والاستقصاء ولكنه نمط من التنبيه^(١) على ضرورة الوقوف على هذه الظاهرة ومحاولة معالجتها فهناك العديد من الألفاظ التى أشيع أنها خطأ وهى صحيحة فكانت مجموعة الكلمات التى تناولها البحث باعتبارها نموذجاً يمكن أن يحتذى مع غيرها من كلمات العربية والتى هى على شاكلتها ... ومن هذه الألفاظ التى يعرض لها البحث بالتحليل والمناقشة ممهورة بما أفتى به ما يلى :

(١) والبحث لا ينكر هنا على عدد من الباحثين جهودهم فى نفس الميدان فضلاً عن المجامع اللغوية فإن نظرة إلى ما ورد فيما رصد البحث من مصادر ومراجع تؤكد ذلك كما يشير البحث فى عجالة هنا إلى ما قدمه عدد من المحدثين من نقد إلى الكتابات التى لم تخلو من انحراف وأوهام ونذكر منها :

- نقد الدكتور / رمضان عبد التواب (مجلة الأقلام، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م) ج ٢، ص ١٢٧ - ص ١٥١) ونقد د. مصطفى جواد (مجلة المورد ١٣٩١هـ - ١٩٧١م) والدكتور إبراهيم السامرائى (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠هـ - ١٣٩١هـ) تحقيق د. عبد الله درويش للجزء الأول من معجم (العين)

- فضلاً عن المناظرات التى تمت بين عدد من المحدثين فى نفس الميدان .

•• ومن هنا نشأت الحاجة إلى معجم يقوم على أمره مجمع بتلارسه من كل جانب قبل أن ينقد فكانت فكرة المعجم الكبير) قد ولدت مع ميلاد المجمع اللغوى المصرى (فحين أسس المجمع ألف إحدى عشرة لجنة منها لجنة المعجم ...) ينظر مجلته ٣١/١).

ثانياً من الألفاظ التي خطأها المحدثون وهي صحيحة

وقد اعتمد البحث هنا على ذكر اللفظة المعنية ذاتها محدداً ما قاله المحدثون حين تخطئتها والصواب الذي وضعوه بدلاً منها مع إيراد ما اعتمدوا عليه من أدلة وشواهد تدلل على صحة ما ذهبوا إليه .. ثم ذكرنا الدليل على صحة ما ذهب إليه البحث في تحديد وجه الصواب لهذه الألفاظ وأنها صحيحة ولا خطأ فيها وذلك من خلال ما ورد عن اللغويين والنحاة والكتاب ... ثم اختتمنا القول في نهاية كل لفظة بما أفتى به البحث تجاهها ..

وهذه الألفاظ هي

• تَأَسَّسَتْ

يُخَطِّئُ بَعْضُهُمْ ^(١) مَنْ يَقُولُ : تَأَسَّسَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ فِي سَنَةِ كَذَا.
وَتَأَسَّسَ هَذَا الْبِنَاءُ أَوِ الْمَسْجِدَ فِي زَمَنِ فُلَانٍ زَاعِمِينَ أَنَّ الصَّوَابَ هُوَ :

أُسِّسَتْ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْ حَكْمِ فُلَانٍ وَأُسِّسَ هَذَا
الْمَسْجِدَ عَلَى عَهْدِ فُلَانٍ مُسْتَشْهِدِينَ بِمَا يَلِي :

بقوله تعالى : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ
فِيهِ ﴾ سورة التوبة : آية ١٠٨

وقوله تعالى ﴿ أَقْمِنِ أَسْوَ بَنِيَانِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى شَفَا جَرْفٍ هَاوٍ ﴾ سورة التوبة : آية ١٠٩ ^(٢)

وذلك لأنَّ مسجد قباء أُسِّسَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وصلى فيه أيام مقامه بقباء ^(٣).

وقرىء ^(٤) : أُسِّسَ بَنِيَانَهُ ، وَأُسِّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ.

وَأُسِّسَ بَنِيَانَهُ جَمْعُ (أَسَاسٍ) عَلَى الْإِضَافَةِ ، وَأَسَاسُ بَنِيَانِهِ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ٢٤ . وكبوات اليراع ، ص ٢٤ .

(٢) والمعنى : أقمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه
خير أم من أسسه على قاعدة هوى أضعف القواعد وأرعاها وأقلها بقاء . وهو الباطل ، والنفاق الذى
مثله مثل شفا جرف هار فى قلة الثبات والاستمساك (ينظر : الكشف للزمخشري) .

(٣) وفى صحيح مسلم أن أبا سعيد الخدرى قال : سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذى أسس على
التقوى فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة .

(٤) ينظر النشر ، ج ٣ ، ص ١٠١ . الاتحاف ، ص ٢٤ . وإرشاد المبتدى ، ص ٣٥٦ .

جمع (أس) و(أساس) بنيانه على وزن (أفعال) جمع (أس) أيضاً وفي لسان العرب (١) : قال الليث تقول أسست داراً إذا بنيت حدودها ورفعت من قواعدها.

وجاء في القاموس (٢) : والتأسيس بيان حدود الدار ورفع قواعدها وبناء أصلها.

وقال الزمخشري (٣) (من لم يؤسس ملكه بالعدل فقد هدمه) وفي إصراره على تخطيط القول ب(تأسس) يقول مصطفى جواد (٤) : وهذا الفعل وأمثاله تؤيد دعاوى بأن المطاوعة المزعومة في اللغة حديث خرافة. فإن العربى الفصيح لم تطاوعه نفسه على أن يقول : تأسس المسجد والمدرسة وإنما يقول أسس المسجد والمدرسة ... وعلى ذلك يقاس.

وعندهم أيضاً أن الفعل (تأسس) خاص بما يقوم بنفسه والمدرسة وأشباهاها من العمارات والمسجد وأمثاله من البنيان لا تقوم بأنفسها ... أى لا تكون كوناً طبيعياً كالنبات والبشر والحيوان

ويضيف أبو تراب (٥) (وليس من شيء مصنوع يقوم أساسه بنفسه، لأن الأساس بعينه معمول ومصنوع أى ناشئ عن العمل والصناعة)

(١) لسان العرب لابن منظور مادة (أسس)

(٢) القاموس المحيط للفيروز أباى مادة (أسس)

(٣) أساس البلاغة للزمخشري. مادة أسس (ج ١)

(٤) (قل ولا نقل لمصطفى جواد ج ١ ص ١٩)

(٥) كبريات البراءة ج ١ ص ٣٥ ر ٣٥٠

ويضيف (ولذلك لم نستعمل العرب قط الفعل (تأسس) وإنما هو من اللغة العامية، لأن اللغة العامية فقدت الفعل المبني للمجهول منذ عصور كثيرة. فلا يقول العوام : أكل الطعام بل يقولون (أناكل. وانوكل) على اختلاف لهجاتهم . ولا يقولون أسست الدار بل يقولون (تأسست، فالصواب : أسست المدرسة وأسس المسجد)

ويرى الباحث أن الرد على هؤلاء بأن فعل المطاوعة من (فعل) هو (تفعل) (١) ، لذا ينتفى الاعتراض، ويصح القول : تأسست المدرسة في عام كذا أو أسست في عام كذا.
... لذا يفتى البحث بأنه :
لما سبق يصح القول :

تأسست المدرسة في عام كذا
أو
أسست في عام كذا ...

(١) معجم الهوامع ، للسيوطي ج ٤ ، ص ١٦١ ، هذا العرف ، للشيخ الحملاني ، ص ٤٤ .

• استأنف

يُخَطِّبُ المحدثون ^(١) من يقول استأنف فلان العمل بعد أن انقطع عنه ثلاثة أعوام، قائلين إن الصواب هو عاد فلان إلى العمل بعد أن انقطع عنه ثلاثة أعوام وحجتهم في ذلك ما ورد في معاجم اللغة من أن

استأنف الشيء واتنفه ابتداءً، أو أخذ أوله وقيل استقبله قال صاحب القاموس المحيط ^(٢) «الاستئناف والائتناف الابتداء»

وفي (المعجم الوسيط) ^(٣)، استأنف الشيء أخذ أوله

ابتدأه استقبله، وفيه أيضاً «استأنف الحكم (في القانون) طلب إعادة النظر فيه»

وما يحملنا على قبول

استأنف العمل بمعنى عاد إليه بعد انقطاع فصلاً عن ابتدأه وأخذ أوله واستقبله هو ما ورد في الجزء الأول من (المعجم الكبير) والصادر عن مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٠م حيث قال «استأنف العمل عاد إليه بعد انقطاع» وقوله «استأنف الحكم (في القانون) : طلب إعادة نظر موضوع الدعوى أمام هيئة أعلى»

(١) معنى المحدثين هنا كل من كتب في الأخطاء الشائعة، وسواء كان كرامته في مداهم هذا السحب ومنهم مصطفى جواد، الرعلاوي، أبو نواب الظاهري بنظر معجم الأخطاء الشائعة ص ٣٠.

١٢ القاموس المحيط مادة أنف

(٣) المعجم الوسيط مادة أنف

*** ولما سبق يفتى البحث بأنه :

يمكننا قبول استئناف العمل بمعنى : عاد إليه بعد انقطاع بالإضافة
إلى المعانى الأخرى التى وردت للفظه وسبق ذكرها.

• بِشَارَةٌ

يُخَطِّئون^(١) من يُطْلَقُ على ما يُعْطَى لِلْمُبَشِّرِ بِخَيْرٍ مَفْرَحٍ اسم (بِشَارَةٌ) بالكسر ويقولون إنه (بِشَارَةٌ) بصم الباء، معتمدين على حديث توبة كعب فَأَعْطِيَتْهُ تَوْبَى بِشَارَةٌ . وعلى قول الحريري^(٢)، ويقولون أعطاه البشارة، والصواب فيه ضَمُّ الباء، لأن البشارة بكسر الباء ما بُشِّرَتْ به، ويضمها حق ما يُعْطَى عليها ...»

إلا أننا نستطيع أن نطلق كلمة (بِشَارَةٌ) أو (بُشَارَةٌ) على ما يعطى للمُبَشِّرِ بِخَيْرٍ مُفْرِحٍ، وعلى كل خير سارٍ أو محزن يُنْقَلُ إلينا وذلك لما يلي أنه في باب ما جاء على (فَعَالَةٌ) و(فُعَالَةٌ) نحو بِشَارَةٌ وَبُشَارَةٌ قال الأصمعي^(٣) الكسر وحده لا غير .

وروى الكسائي^(٤) الزيارة والزُورَةَ ودَوَايَةَ اللِّين ودَوَاتِهِ ... الجلدة الرقيقة التي نعلوه.

وقال ابن قتيبة^(٥) « أن فتح طَلَاوَةٍ تحريف وذكر وقد ناقض نفسه في قوله في كتابه (الأبنية) (إن في طَلَاوَةٍ لغتين) .

(١) قل ولا نقل ج١، ص ١٤٠، كليات اليراع . ج١، ص ٣٨٩، ومعجم الأخطاء الشائعة.

ج٣٨٩، كليات اليراع، ج١، ص ٣٨٩

(٢) درة الغواص للحريري، ص ١٣١

(٣) كليات اليراع، ج١، ص ٣٢٩

(٤) نفوذية اللسان ص ٣٨٩

(٥) الأبنية، ص ٥٦٠

وذلك فضلا عما ورد في معظم المعاجم اللغوية والتي تقول :

- * البشارة أو البشارة . ما يعطاه المُبَشِّرُ بأمر مفرح
- البشارة أو البشارة . ما بُشِّرَتْ به من خير أو شر

كما يرى ابن سيده ^(١) أو البشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وتكون بالبشر إذا كانت مُقَيَّدَةً وذلك نحو قوله تعالى : «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» سورة آل عمران آية ٢١

وفي تفسيره لقوله تعالى «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى» سورة النحل آية ٥٨

قال الفخر الرازي ^(٢) (التبشير في عرف اللغة مختص بالخبر الذي يفيد السرور، إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذي يؤثر في البشارة تغيراً، وهذا يكون للحزن أيضاً .

وقال ابن منظور ^(٣) (وأصل هذا كله أن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور، من هذا قولهم : فلان يلقاني ببشر، أي : بوجه منبسط)
أما البشارة فهي : الجمال والحسن ^(٤)

قال الأعشى ^(٥) .

(١) المخصص ، ج ١ ، ص ٢٦٤

(٢) تفسير الفخر الرازي ، (مفاتيح الغيب) . ج ٤ ، ص ١١٦ ، ودرة القواصص ، ص ١٣١ .

(٣) لسان العرب مادة (بشر)

(٤) القاموس المحيط مادة (بشر)

٥ ديوان الأعشى ص ١٤٥ ، ينظر الصحاح ، ج ٢ ، ص ٥٩١

وَرَأَتْ بِأَنْ الشُّيْبَ جَا نَبَهُ الْبَشَاشَةُ وَالْبَشَارَةُ

... لما ورد فى باب ما جاء على (فَعَالَهُ) و(فُعَالَهُ) ولما ورد فى قول الأصمعى وما رواه الكسائى وما ورد عند ابن قتيبة وابن سيده وما ذكر فى معظم المعاجم اللغوية وما قاله الفخر الرازى فى تفسيره لقوله تعالى ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى﴾ سورة النحل آية ٥٨ .

وأن التبشير فى عرف اللغة مختص بالخبر الذى يفيد السرور، إلا أنه بحسب أصل اللغة عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشر تغيراً وهذا يكون للحرن أيضاً... ، ولما رصده ابن منظور .

لذلك كله يفتى البحث بأن:

بِشَارَةُ (بكسر الباء)

أو

بُشَارَةُ (بضم الباء)

هى ما بُشِّرَتْ به من خيرٍ أو شرٍ

• خرج فلان على القانون

ويخطيء الدكتور مصطفى جواد ^(١) من يقول :

خرج فلان على القانون أو النظام

وقد تابعه في ذلك أبو تراب الظاهري ^(٢)

ويقولان بأن الصواب هو :

خرج فلان عن القانون أو حاد عنه أو عدل عنه ، ونكب عنه نكوباً.

لأن الخروج يستلزم استعمال حرف المجاوزة والمجانبة والابتعاد وهو (عن) ، أما (على) فتستعمل في نحو : خرج فلان على القوم أو الجماعة أى : ثار عليهم وأبى الانخراط فى سلوكهم وألقى ربة الطاعة، ومن ذلك اسم الخوارج وهم الذين خرجوا على الجماعة فى خلافة علي بن أبى طالب، وفى المغنى قال ابن هشام ^(٣) فى ذكر الجهات التى يدخل الاعتراض على العرب منها : الجهة الثالثة أن يخرج على عالم يثبت فى العربية وذلك إنما يقع عن جهل أو غفلة،

ومن شواهد أبى تراب فى ذلك ما جاء فى (كلىة ودمنة) من أقوال ابن المقفع ^(٤) (وما عليه من الخروج عن العدل) فقد أتى بـ (عن) صلة

^{١١} قل ولا تقل ج ١ ص ١٨ وينظر كيوت اليراع ج ١ ص ٣١٢.

^{١٢} كيوت اليراع ج ١ ص ٣١٢ - ص ٣١٣

^{١٣} معنى لميب ج ٢ ص ١٢٧

^{١٤} كلبه دمه لاس المقفع ص ٦٧ - ينظر كيوت اليراع ص ٣١٢

للخروج حين أراد به العدول والمجازة كما استشهد بما ورد في كتاب
(تجارب الأمم) للفيلسوف المؤرخ الأديب ابن مسكويه (١) وهو قوله (تقدم
الجيش البختيارى زحفاً بغير أمر، وفارق المصاف وخرج عن النظام).

وقال الدكتور مصطفى جواد ولا يقتصر الخطأ في قولهم : (خرج فلان
على القانون ، على مخالفة التعبير الصحيح، بل يفيد عكس المراد، لأن معنى
(خرج فلان على القانون) هو : سيره على حسب ما يوجه القانون. قال
الشريف الرضى في الكلام على الحديث النبوى الشريف ، الخاص بالخيال
ومنافعها: (ظهورها حرز وبطونها كنز) : وهذا القول خارج على طريق المجاز،
يعنى أنه سائر في طريق المجاز، وظاهر على طريق المجاز، وقال ابن جنى، (٢)
في كلمة (ضَيَّوْن) وهو المنور (إنما صح لأنه خرج على الصحة).

فاستشهد الدكتور مصطفى جواد بقوله الشريف الرضى صحيح ولكنه
يحول دون خروجه على طريق المجاز أيضاً، إذ يبيح لنا المجاز أن نقول : خرج
على القانون ، لأن القانون أو النظام تضعه الدولة، وهو مُسَبَّب عنها ، فهو
مجاز مرسل علاقته المسببية كقوله تعالى ﴿وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ سورة
غافر الآية (١٣) فالرزق لا ينزل من السماء، ولكنه الذى يُنْزَلُ مطرٌ، ينشأ عنه
النبات، الذى منه طعامنا ورزقنا ، فالرزق مُسَبَّبٌ عن المطر، وهو مجاز مرسل
علاقته المسببية، مثل علاقة القانون الذى تضعه الدولة.

(١) كليات اليراع، ص ٣١٢

(٢) قل ولا تقل ج ١، ص ١٨ وينظر كليات اليراع، ص ٣١٣

(٣) الخصائص، ج ١، ص ١٥٦

ويكون مُسَبَّحاً عنها . لذا يصح أن نقول :

- خرج عن القانون
- وخرج على القانون (مجاز)
- لما سبق يفتى البحث بأنه :

يصح لنا أن نقول :

- خرج فلان عن القانون أو النظام

و

- خرج فلان على القانون أو النظام

• أَسْقَطَ فِي يَدِهِ

وَيُخْطِئُونَ^(١) مَنْ يَقُولُ :

أَسْقَطَ فِي يَدِهِ ، أَيْ

زَلَّ وَأَخْطَأَ وَنَدِمَ وَتَحَيَّرَ

وَيَقُولُونَ إِنَّ الصَّوَابَ هُوَ :

سُقِطَ فِي يَدِهِ

اعتماداً على :

• قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الأعراف آية ١٤٩

قال الزمخشري في الكشاف^(٢) : يعني لما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غماً فتصير يده مسقوطة فيها لأن فاه قد وقع فيها (سُقِطَ) مسند إلى (في أيديهم) وهو من باب الكناية.

وقرأ أبو السميعة^(٣) ﴿وسُقِطَ في أيديهم﴾ بفتح السين على تسمية الفاعل ... أي وقع العض فيها.

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ٢٠

(٢) الكشاف للزمخشري ج ٢ ، ص ٩٤

(٣) السابق معه ج ٢ ، ص ٩٤

وقال الزجاج ^(١) : معناه . سقط الندم في أيديهم أي قلوبهم وأنفسهم
كما يقال : حصل في يده مكروه ... وإن كان محالاً أن يكون في اليد،
تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى في العين.

وفي لسان العرب ^(٢) : سَقَطَ في يد الرجل : زَلَّ وأخطأ وقيل ندم، قال
الزجاج : يقال للرجل النادم على ما فعل : تحسراً على ما فرط منه ... قد
سقط في يده وأُسْقِطَ وقال أبو عمرو : لا يقال : أُسْقِطَ بالألف على ما لم
يُسَمِّ فاعله وفي التنزيل ﴿ ولما سَقَطَ في أيديهم ﴾

قال الفارسي ^(٣) (ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم) فإن صح
ذلك فهو إذاً من السقوط

وفي أساس البلاغة ^(٤) سَقَطَ في يده وأُسْقِطَ ، وسَقَطَ على المبنى
للفاعل : ندم.. وهو مسقوط في يده، وساقط في يده : نادم.

وقد أجمع القراء كلهم على «سقط» بضم السين، وكسر القاف، وهو من الأفعال المبنية التي
لم يسمِّ فاعله، مثل :
جن وزكم

ولم يقرأ أحد «سقط» في أيديهم إلا أبو السميعة في الشواذ من القراءات ، وذلك غير معروف
عند أهل اللغة . (ينظر : النشر ج ٣، ص ٨١، والاختاف ، ص ٢٣٠، وإرشاد المبتدى، ص
٣٣٨، ص ٣٣٩.

(١) السابق نفسه ، ج ٢، ص ٩٤

(٢) لسان العرب، مادة (سقط)

(٣) معجم مقاييس اللغة مادة (سقط)

(٤) أساس البلاغة مادة (سقط)، درة النواص ، ص ١٢٩.

وفى تاج العروس^(١) : ومن المجاز : سَقَطَ فى يده ... وأسقط فى يده
مضمومتين ، أى زَلَّ وأخطأ ، وقيل ندم كما فى الصحاح^(٢)

فالخطئون اعتمدوا على ما ورد فى الآية القرآنية من سورة الأعراف
وعلى ما ورد فى لسان العرب وعلى ما قاله كل من (أبو عمرو) و(ثعلب)
و(الراغب الأصفهاني)

إلا أنه وردت آراء عدة أجازت استخدام :

أُسْقَطَ فى يده أيضاً

وهى لكل من :

- الفراء
- والأخفش
- والزجاج
- والجوهري
- والحريري
- والزمخشري
- وابن منظور
- والفيروز أبادي
- والزبيدي
- ومعجم الوسيط

(١) تاج العروس ، مادة (سقط) .

(٢) الصحاح ، مادة (سقط) .

وسبق أن ذكرنا رأى صاحبيّ أساس البلاغة وتاج العروس في إجازة استخدام هذا التعبير ..

ونذكر هنا ما قاله صاحب درة الغواص^(١) « وقد سَمِعَ عَنْهُمْ أُسْقَطَ إِلَّا أَنْ الْأَوَّلَ (أى : سَقِطَ) أَفْصَحَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى « وَلَمَّا سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ »

وكان الفراء^(٢) قد زاد قوله (سَقِطَ فِي يَدِهِ أَكْثَرُ وَأَجُودُ، وَأَضَافَ التَّاجُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ أَنَّ مِنَ الْمَجَازِ : هُوَ مَسْقُوطٌ فِي يَدِهِ، وَمَسْقُوطٌ فِي يَدِهِ : نَادِمٌ ذَلِيلٌ ».

*** لذا يفتى البحث بأنه :

يجوز لنا استخدام التعبير :

أُسْقَطَ فِي يَدِهِ بِمَعْنَى : زَلَّ وَأَخْطَأَ وَنَلَمَ وَتَحَيَّرَ

كما نستخدم :

سَقِطَ فِي يَدِهِ

(١) درة الغواص، ص ١٢٩.

(٢) معالم التنزيل للفراء، ج ٤، ص ١١٦.

• اسْتَلَمْتُ :

يخطئون (١) مَنْ يَقُول :

استلمتُ الرسالة

ويقولون الصواب هو :

تَسَلَّمْتُ الرسالة

فالاستلام لا يعنى الأخذ بل يعنى اللمس باليد والتقبيل

قال ابن منظور (٢) تسلمه منى أى قبضه. وسلمت إليه الشئ فتسلمه
أى أخذه.

واستلم الحجر واستلامه قبله أو اعتقه، وليس أصله الهمز. وله نظائر
قال سيويه (٣) (استلم من السلام لا يدل على معنى الاتخاذ)

فالفعل (استلم) خاص بالحجر (٤)

(١) قل ولا تقل ، ج ١ ، ص ٢٤ ، معجم الأخطاء الشائعة، ص ١٢٠ ، ١٢١ . وكبوات اليراع، ج ١ ،
ص ١٧١ .

(٢) لسان العرب ، مادة (سلم)

(٣) الكتاب

(٤) - فى حديث ابن عمر قال : استقبل رسول الله - ﷺ - الحجر فاستلمه ثم وضع شفتيه عليه
بيكى طويلا فالتفت فإذا هو بعمر بن الخطاب بيكى فقال : يا عمر ههنا تكب العبرات ،
ذكره الطبرى (ينظر : كبوات اليراع، ج ١ ، ص ١٧١) .

- وروى أبو الطيب قال : رأيت رسول الله - ﷺ - يطوف على راحلته يستلم بمحجنه ويقبل
المحجن ، قال الليث: استلام الحجر تناوله باليد وبالقبلة ومسحه بالكف، قال الأزهري وهذا صحيح .

يقول الشيخ أحمد رضا ^(١) (استلم الشيء وتسلمه بمعنى واحد.

ويتفق الباحث مع محمد العدناني ^(٢) في قوله (وعلى فرض أن (استلم) لم ترد صريحة بمعنى (تسلم) فالقياس لا يمنع منها ... ويؤيد ذلك ما صرح به الأزهرى ^(٣) من أنه بمعنى التناول.

*** ويفتى البحث بأنه :

يجوز لنا القول (استلمت الرسالة)

وإن لم ترد صريحة بمعنى (تسلم) إلا أن القياس لا يمنع منها ولما صرح به الأزهرى من أنه بمعنى (التناول)

(١) متن اللغة مادة (سلم)

(٢) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٢١ .

(٣) الصحاح مادة (سلم)

• الشُّرْفَةُ :

يخطئون ^(١) مَنْ يَقُولُ :

وقف فلان في الشُّرْفَةِ

ويقولون إن الصواب هو :

وقف في المُسْتَشَرَفِ أو في الروشَن أو الجناح

لأن الشُّرْفَةَ هي أجزاء متساوية من البناء ناتئة على حافة السطح بعضها متصل ببعض وهي في الغالب محددة الأطراف ، وتعد زينة السطوح . وقد يقع عليها طائر . أما الإنسان فكيف يقف أو كيف يقعد على ناتئة من البناء في حافة السطح .

وقد استشهدوا لوصف الشرفات بيتين لابن الرومي ، يصف بهما شرفات بعض القصور التي كانت على دجلة فقال ^(٢) :

تَرَى شُرَفَاتِهِ مِثْلَ الْعَنَارَى خَرَجْنَ لِزُخْرَةٍ ، فَقَعَدْنَ صَفَا

عَلَيْهِنَّ الرَّقِيبُ أَبُو رِيَّاح فَلَسْنَ لِخَوْفِهِ يَبْدِينَ حَرَفَا

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٢٩

(٢) ديوان ابن الرومي ، ص ١١٩ .

فالمراد إذاً (المستشرف) وهو الموضع الذى يشرف منه الإنسان على ما حوله ، أو الروشن، وهو المعروف عند الغربيين (بالبالكون)

وجاء فى لسان العرب : الشُرْفَةُ أعلى الشئ، وكذلك الشرف، والجمع : أشراف قال الأخطل :^(١)

وقد أكل الكيران أشرافها العلا وأبقيت الألواح والعصب السمر

وقال الجوهري فى الصحاح ^(٢) :

الشرف العلو والمكان العالى قال الشاعر ^(٣) :

أتى الندى فلا يقرب مجلسى وأقود للشرف الرفيع حمارى

وفى أساس البلاغة^(٤) مدينة شرفاء ومدائن شرف أى ذوات شرف

ولكن مجمع اللغة العربية بالقاهرة استعمل كلمة الشُرْفَةُ التى لم يرتضها الدكتور مصطفى جواد وأبو تراب ففى المعجم الوسيط ^(٥) الذى

(١) ديوان (الأخطل) ، ص ١٩٧ ، الكيران : جمع كبير وهو : رجل الناقة. أراد أنه من طول الاحتكاك فى الأسفار أكل ظهرها.

(٢) الصحاح للجوهري، مادة (شرف)

(٣) معجم الأنطاء الشائعة ، ص ١٢٩ (وينظر : لسان العرب لابن منظور، ومعنى البيت كما فسره ابن منظور أنه يقول : إني خرفت فلا ينتفع برأى وكبرت فلا أستطيع أن أركب من الأرض حمارى إلا من مكان عال.

(٤) أساس البلاغة للزمخشري، مادة (شرف).

(٥) المعجم الوسيط، مادة (شرف)

أخرجهم إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي التجار: الشرفة بناء خارج من البيت يستشرف منه على ما حوله وقال المعجم إنها محدثة، وأصلها ما يوضع في أعلى البناء يحلّى به وأطلق الروشن على الرف، والكوة والشرفة بمعناها المحدث وجمعه رواشن وأما الجناح فهو الجانب ومنه جناح الفندق والروشن وفي محيط المحيط لبطرس البستاني (١) : الجناح الروشن والمنظر يقال: (شرع فلان جناحاً إلى الطريق أى رَوْشَنَا ومنظرًا)

وليس في لسان العرب (٢) : الروشن بمعنى المشرف أو الشُرفة

أو الجناح أو المنظر وإنما فيه الروشن بمعنى الرف وبمعنى الكوة.

*** فاعتماداً على ماورد في المعجم الوسيط بشأن لفظة (الشُرفة) فإن البحث يفتى بأنه :

يجوز لنا أن نقول :

وقف فلان في الشُرفة

(١) محيط المحيط، مادة (شرف)

(٢) لسان العرب ، مادة (شرف).

• الاشتراك :

يخطئون (١) من يقول :

هذا بدل الاشتراك في الجريمة

ويقولون إن الصواب هو :

هذا بدل المشاركة في الجريمة

وذلك لأن الفعل (اشترك) كالفعل (تشارك) لا يصح أن يكون من جهة واحدة، بل يكون من جهتين فاعلتين أو أكثر منهما . يستشهد الدكتور مصطفى جواد (٢) على ذلك قائلا : «ألا ترى أنه لا يجوز لك أن تقول (اعتنوت) وتكتفى ولا (اقتسلت) وتسكت ولا (اثمرت) وتدعى الإفادة فلا بد لك من أن تقول (اعتنوت أنا وفلان) أى (تعاونتما) و(اقتسلت أنا وعدو الوطن أى تقاتلتما) و(اثمرت أنا وفلان بالخائن أى تأمرتما به فكذلك اشتركت أنا والقوم في المجلة، فإذا لم يكن معك واحد معلوم رجعت إلى المفاعلة فقلت شاركت في المجلة كما تقول : عاونت وقاتلت وأمرت ، ويؤيد ذلك أن الفصحاء منذ وجدت العربية إلى اليوم لم يقل أحد منهم فلان متشارك ولا مشترك بل قالوا :

هو شريك ومشارك ولا قال أحد هو متعاون بل معاون ولا قال أحد هو

(١) معجم الأخطاء الشائعة، ص ١٣٠.

(٢) قل ولا تقل ، ج ١، ص ٢٥، وينظر : كليات اليراع، ج ١، ص ١٥٢.

متقاتل بل قالوا مقاتل إلا المتآمر فإن من الذين لا يعلمون من العربية شيئاً
جليلاً قالوا فلان متآمر والصواب مؤامر كمشارك ومقاتل ومحاسب،

ويتفق الباحث مع محمد العدناني^(١) في أنه يجوز أن تقول :

اشتركتُ في الجريدة

لأنك اشتركت وصاحبها في إصدارها، هو بمادته اللغوية وثمن الورق
والطباعة، وأنت بما تدفعه له سنوياً ثمناً لجزء من نفقاته، ولولا ما يدفعه القراء
من مالٍ، وما يذله صاحب الجريدة من مال وجهد لغوى، متعاونين بالمال
والمعرفة، لما صدرت الجريدة.

وهذا يرينا أن القراء يشتركون مادياً مع صاحب الجريدة في إصدارها ،
مما يجيزُ لنا أن نقول :

دفعنا بدل الاشتراك في الجريدة أو بدل المشاركة فيها.

*** لذا يفتى البحث بجواز قولنا :

هذا بدل الاشتراك في الجريدة.

وهذا بدل المشاركة في الجريدة.

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٣٠ .

• صَمَدَ لَهُ :

يخطئون ^(١) مَنْ يَقُولُ :

فلان صَمَدَ لَهُ صمودًا

ويقولون إن الصواب هو :

فلان ثبت له

فعندهم كلمة الثبات خير من الصمود ..

وقد استندوا في ذلك إلى ما يلي :

• أن الفعل (صَمَدَ) لم يرد ذكره في القرآن الكريم وأن الفعل (ثبت) هو الذي ورد به مع مشتقاته ثمانى عشرة مرة منها قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً، فَابْتُتُوا﴾ سورة الأنفال آية ٤٥ .

وقد جاء في تفسير الجلالين ^(٢) : إذا لقيتم جماعة كافرة، فابتنوا لقتالهم ولا تنهزموا.

• أن ابن السكيت في كتابه (الألفاظ) ذكر في باب (القصد والاعتماد) صَمَدَ لَهُ : قَصَدَ لَهُ .

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٤٢ ، ص ١٤٣

(٢) تفسير الجلالين ، ج ٥ ، ص ١١٩

• أن (صَمَدَ) قد جاء عند الصحاح ^(١) بمعنى قَصَدَ فقال . صَمَدَهُ يَصْمَدُهُ صَمَدًا : قَصَدَهُ

• أن (صَمَدَهُ، أو صَمَدَ له أو صَمَدَ إليه بمعنى : قَصَدَهُ أو قَصَدَ له أو وقف إزاءه وذلك في المواطن التالية: في (المحكم) وفي (مفردات الراغب)، وفي (مقامات الحريري) وفي (أساس البلاغة) وفي (مُغْرِبِ المطرُزى) وفي (القاموس المحيط) وفي (محيط المحيط) وفي (متن اللغة)

• ما جاء به الدكتور مصطفى جواد في الجزء الأول من كتابه (قل ولا تقل) حيث قال : وأن استعمال (صَمَدَ له) بمعنى : ثبت ، هو خطأ ، وأن الصواب هو : ثبت له ، وأن مصدر (صَمَدَ) هو (الصَمَدُ) لا (الصمود).

وقد استند بدوره إلى ما يلي :

• أن (صَمَدَ) هو فِعْلٌ متحرك وسير ومشي إلى أمام ولا يجوز إطلاق فعل من أفعال الحركة، ولا اسم من أسمائها على السكون والوقوف واللبث. لأن ذلك ضد المعنى المراد، فإذا أريد الوقوف في الحرب على سبيل المقاومة والموافقة والمناهضة قيل :

ثبت في الحرب والقتال والمقاومة ثباتًا قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة الأنفال آية ٤٥

(١) الألفاظ (تهذيب التبريزي) لابن السكيت، ج ١، ص ٣٢٩

(٢) الصحاح مادة صمد

• ما ورد فى مختار الصحاح ^(١) من أن (الصَّمَدَ : السيد، لأنه يُصَمَدُ إليه فى الحوائج ، أى يُقَصَدُ : يقال : صَمَدُهُ يَصْمَدُهُ، أى : قَصَدَهُ .،

• استشهاده بقول ابن فارس فى كتابه (مقاييس اللغة) ^(٢) والصاد والميم والبدال أصلان، أحدهما القَصَدُ والآخر الصلابة فى الشيء .

• ما قاله الزمخشري فى كتابه (الفائق) ^(٣) فى قصة بدر عن معاذ ابن عمرو بن الجموح أنه قال : فنظرت إلى أبى جهل فى مثل الحرَجِجِ (الشجر الملتف) فَصَمَدْتُ لَهُ، حتى إذا أمكنتنى منه غِرَّةٌ حملت عليه ، قال الزمخشري (الصَّمَدُ : القَصَدُ) .

• استشهاده بحديث المقداد ^(٤) ، ما رأيت رسول الله - ﷺ - صَلَّى إلى عُوْدٍ أو عَمُوْدٍ إلا جعله على حاجبه الأيمن، أو الأيسر ، ولا يصمُدُ له صَمَدًا، أى : لا يُقابله مُستويًا مستقيمًا ، بل كان يميل عنه ، وفى الكتاب : يميل منه .

• استشهاده بما جاء فى كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقرى ^(٥) «وَبَعَثَ إلى عليّ بالفتح والسير، ثم صَمَدَ لبناتٍ كسرى، فولن على أمانٍ»

(١) مختار الصحاح ، مادة (صَمَدٌ) .

(٢) مقاييس اللغة مادة (صمَد)

(٣) الفائق للزمخشري، ص ١١٩، وينظر : لباب الآداب، ص ١٧٥ .

(٤) الفائق للزمخشري، ص ١٢٠ .

(٥) كتاب صفين لنصر بن مزاحم المنقرى، ص ١١، ص ٩٧، ص ٢٤٥، ص ٣٣١ .

• بما جاء (١) فيه أيضاً من أنه : بعث علي بن أبي طالب إلى حنظلة الكاتب وهو من الصحابة فقال يا حنظلة : أعلئ أم لئ ... قال لا عليك ولا لك .. قال : فما تريد ؟

قال : اشخص إلى الرها .. اسم موضع .. فإنه مزج من الفروج اصمد له حتى ينقضى هذا الأمر .

• كما استشهد بعبارة جاءت فى نفس الكتاب (٢) وهى (ولم يبق مع ابن بديل إلا نحو مئة إنسان من القراء ... فاستند بعضهم إلى بعض يحمون أنفسهم ... ولجج ابن بديل فى الناس .. وصمم على قتل معاوية وجعل يطلب موقفه ويصمد نحوه حتى انتهى إلى عبد الله بن عامر واقفاً) .

• كما استشهد بعدد من الجمل قالها البلاذرى فى كتابه (أنساب الأشراف) (٣) فى حصار مسلم بن عقبة المدينة المنورة، ومقل ابن قيس الرياحى فى كتاب بعث به إلى الإمام علي - رضى الله عنه - وزياد بن خصفة فى كتاب بعث به إلى الإمام أيضاً ، وهاشم بن عتبة بن أبى وقاص يحث على القتال، واستشهد بأمر مروان لحبيش بن دَلَجَة القينى وكان مروان أمره أن لا يعرض لأهل المدينة ... وأن لا يكون صمده وقصده إلا لمن يوجهه ابن الزبير للمحاربة

• كما استشهد بما ورد فى كتاب (الكامل) للمبرد (٤) من أنه : روى عن

(١) السابق نفسه

(٢) السابق ، نفسه

(٣) أنساب الأشراف للبلاذرى، ج ١، ص ١٥١.

(٤) الكامل للمبرد، ج ٣، ص ١٢٩.

النبي - ﷺ - أنه نظر إلى رجل ساجد إلى أن صلى النبي - ﷺ - فقال :
ألا رجل يقتله فحسر أبو بكر عن ذراعه وانتضى السيف وصمد نحوه، ثم
رجع إلى النبي - ﷺ - فقال : أقتل رجلاً يقول : لا إله إلا الله.

• وبما ورد في تاريخ الطبري ^(١) في أخبار الفتوح ناقلاً : ولما توجه علقمة
إلى غزة ... وتوجه معاوية إلى قيسارية صمد عمرو بن العاص إلى
الأرطوبون ومرّ بإزائه.

• وبما ورد في صبح الأعشى للقلقشندي ^(٢) في كتاب عبد الحميد
الكاتب إلى بعض قادة مروان : متوكلاً على الله فيما صمدت له ... واثقاً
بنصره ... ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام.

ثم يقول مصطفى جواد (فهذه شواهد ليست بقليلة تدل على أن
الصَّمد هو القصد لا الثبات والصمود ليس مصدراً، والصمد هو حركة على
خط مستقيم نحو :

المصمود أى المقصود والمصادر التى تعنى هذا المعنى تكون قصيرة لتمثل
المسير فى المقصر المخطوط وهو الخط المستقيم ، ولذلك قللت العرب :

قصد قصداً

ومع إقرارنا بأن جميع هذه الشواهد تدل على أن (الصَّمد) هو القصد

(١) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ١٥٧.

(٢) صبح الأعشى، للقلقشندي، ج ١، ص ٢٠٩.

لا الثبات إلا أننا نرى أن صَمَدَ جاءت أيضاً بمعنى ثبت واستمر ويمكننا أن نعرض لبيان ذلك من خلال ما يلي :

• أن كلمة لم ترد في القرآن الكريم ليس دليلاً على عدم وجودها في اللغة ... فالقرآن الكريم ليس معجماً من شأنه إيراد جميع ألفاظ العربية.

• أن الفعل (صَمَدَ) وإن جاء في جميع الشواهد التي سبق ذكرها عن عدد كبير من اللغويين والصحابة والأدباء بمعنى (قَصَدَ) لا يعني أن غيرهم لم يستعمله بمعنى (ثَبِتَ)

• كون الفعل (صَمَدَ) فعل حركة ، وعدم جواز استعماله فعلاً للسكون ، ينقضه ما يأتي :

• قول ابن فارس نفسه ^(١) ، الذي استشهد به الدكتور مصطفى جواد ، لأنه يقول : إن الأصل الثاني للضاد والميم والدال هو الصلابة في الشيء ، وأين الحركة من الصلابة ؟ وهل الصلابة غير الثبات ؟

• إذا كان (الصَمَدُ) هو السيد الذي يُقَصَّدُ في الحاجات ، فكيف نجده إذا كان متحركاً ؟ وهل للمتحرك مكان خاص به ، يثبت فيه ؟

• إن ما قاله الزمخشري في (الفائق) ، قال ابن الأثير بعده في (النهاية) ^(٢) ما يناقضه (في حديث معاذ ابن الجموح في قتل أبي جهل : «فَصَمَدت له حتى أمكنتني منه غرة» أي : ثَبَّتْ له ، وقَصَدته ، وانتظرت غفلته»

(١) معجم مقاييس اللغة مادة (صمد)

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٢، ص ٣١٥.

- حديث المقداد يدل على أن رسول الله - ﷺ - ثابتٌ في مكانه ، لا يمكنه الانتقال منه ، لأنه كان يصلى ، والصلاة تفرض على المصلى البقاء في مكان واحد لا يريجه .
- استشهد لسان العرب ^(١) بتفسير ابن الأثير ، دون إبداء أى شك في صحته .
- جاء في لسان العرب ^(٢) أيضاً (وفى حديث عليٍّ ، فصمداً صمداً ، حتى يتجلى لكم عمود الحق .
- ثم قال لسان العرب ^(٣) ، اصمداً إليه الأمر : اسنده والمفروض في المُسند إليه أن يكون ثابتاً .
- قال ابن الأعرابي ^(٤) : (الصَّمَادُ سدادُ القارورة) ، وسدادُ القارورة فائدته في ثباته مكانه ، لأنه إذا زُحِزِحَ عنه أصبح بلا فائدة .
- وقال أبو عمرو ^(٥) (الصَّمَدُ من الرجال : الذى لا يعطش ولا يجوع في الحرب ، وفى هذا نوع من أنواع الصبر والثبات على العطش والجوع .
- استشهد تاج العروس ^(٦) بتفسير ابن الأثير ، دون أن يبدى أى شك في صحته ، وهو الذى عودنا أن لا يحجم عن ذكر أى شيء شك فيه .

(١) لسان العرب ، مادة (صمد)

(٢) السابق نفسه .

(٣) السابق نفسه .

(٤) السابق نفسه .

(٥) السابق نفسه .

(٦) تاج العروس ، مادة (صمد) .

• ويقول تاج العروس ^(١) : «الصَّمَدُ : المكان المرتفع الغليظ من الأرض، لا يبلغ أن يكون جبلاً، وهذا ثابت مكانه.

• والصَّمِدةُ أو الصُّمُدةُ : صخرة راسية في الأرض. من يحركها ؟

• والصَّمَادُ : ما يُلْفَه الإنسان على رأسه من خرقعة أو منديل، أو ثوب (دُونِ العِمَامَةِ) ، والصَّمَادُ لا يظل مكانه إلا إذا ثُبِتَ على الرأس.

• والصَّمُودُ: اسم صنم كان لعاد وبروى ليزيد بن سعد المؤمن بهود عليه السلام ^(٢) :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشى لا تمسهم السماء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صدداء والبغاء

ونحن إذا أردنا أن نصف إنساناً بالجمود وعدم الحركة، قلنا : وقف كالصنم.

• الناقة (المصَّمَادُ) : الباقية على القر والجذب. وهل تعنى كلمة (باقية) هنا إلا (ثابتة) ؟

• وقال الصَّخَاوِيُّ ^(٣) : «الصَّمَدُ : هو الشيء الصلب الذي ليس فيه خور، وهل نجد الصَّلابة في الثبات أم في الحركة ؟

(١) تاج العروس، مادة (صمد).

(٢) السابق نفسه.

(٣) وهو مذكور في السيرة ... ولم يذكره ابن الكلبي في الأصنام، وذكره المسعودي في مروج الذهب، ج ٢، ص ٣٩٥.

• قال دُوزي (١) (الصُّمُودية : الصَّلابة، صَامِدٌ : ثابتٌ صَلْبٌ) . فإذا كان الصامدُ هو الثابتُ، فلا بد أن يكون اسمُ الفاعل (الصامدُ) قد أتى من الفعل (صَمَدَ) الذي لم تذكره جُلُّ المعاجم، كما أتى اسمُ الفاعل (الثابت) من الفعل (ثَبَتَ).

• قال المعجم الوسيط والذي أصدره مجمع اللغة العربية القاهري: صَمَدٌ يَصْمُدُ صَمَدًا وَصُمُودًا: ثَبَتَ واستمر ومنه قول الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - (صَمَدًا صَمَدًا حَتَّى يَتَجَلَّى لَكُمْ عَمُودُ الْحَقِّ، : ثَبَاتًا ثَبَاتًا).

فهذه البراهين الكثيرة تجعلنا نؤيد :

• استعمال (صَمَدَ) بمعنى (قصد)

• واستعمال (صَمَدَ) بمعنى (ثَبَتَ)

*** ومن خلال ما تقدم من أدلة وبراهين يفتي البحث بتأييد استعمال لفظة (صَمَدَ) بمعنى (قصد) وبمعنى (ثَبَتَ).

(١) تاج العروس، مادة (صمد).

• اعتذر عن :

ويخطئون ^(١) من يقول :

اعتذر فلان عن التقصير

ويقولون إن الصواب هو :

اعتذر فلان من التقصير

وذلك لأن جُلَّ المعاجم اقتصرت على ذكر حرف الجر (من) يعد
الفعل (اعتذر) من ذلك .

• ما جاء في لسان العرب ^(٢) (اعتذر من ذنبه : تنصل)

• وما جاء في مختار الصحاح ^(٣) (اعتذر من الذنب)

• وما جاء في شرح نهج البلاغة ^(٤) في كتاب لعلي بن أبي طالب بعث به
إلى قثم بن العباس (فأهم على ما في يدك قيام الحازم الطيب والناصح
الليبي، التابع لسلطان المطيع لإمامه. وإياك وما يعتذر منه).

• وما جاء في (الأغاني) ^(٥) و(أمالى المرتضى) ^(٦) : قال ابن أبي عتيق

(١) معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٦٥ .

(٢) لسان العرب ، مادة (عذر)

(٣) مختار الصحاح ، مادة (عذر)

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

(٥) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٦) أمالي المرتضى ، ج ٢ ، ص ٢٢ .

للثريا (هذا عمر قد جشمتنى السفر من المدينة إليك ... فجئتكَ معترفاً
بذنب لم يجنه معترداً إليك من إساءته إليك).

• وما جاء فى (الأغانى) (١) غنى الدلال أبو زيد ناقد المدنى مولى عائشة
بنت سعيد بن العاص :

طربت وهاجك من تذكّر (٢) ومن لست من حبه تعتذر

• وما جاء فيه أيضاً قال بشر بن برد :

قلت إذ شاع ما اعتذارك مما ليس لى فيه عندهم عذر

• وما جاء فى (أنساب الأشراف) (٣) قال ابن عرادة السعدى فى مدح سلم
بن زياد ابن أبيه :

يقولون اعتذر من حب سلم إذا لا يقبل الله اعتذارى

• وفيه أيضاً (٤) : مدح الراعى عبيد بن الحصين سعيد ابن العاص بن سعيد
ابن العاص قال المفضل الضبي : قال لو كي له كم عندكم ؟ قال : ثلاثة
آلاف دينار ... قال : أدفعها إليه واعتذر من قتلها.

(١) الأغاني، ج ٤، ص ٢٩٨.

(٢) اذكروه واذكروه واذكروه بمعنى ذكره...

(٣) «واذكر بعد أمة» أى نيان قال تعالى (فهل من مذكر) سورة القمر آية ٢٢.

وهو من باب الاتعمال من التركيز فلما اجتمعت الذال والفاء أبدلت التاء دالا لم اجتمعت الذال
والدال أبدلت الذال دالا فاجتمعت دالان فادغمت إحداهما فى الأخرى فصار اذكر وأصله
(اذتكر، على وزن (انفل).

(٤) الأغاني، ج ٣، ص ٣٨٣.

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى، ج ٢، ص ٧٢.

• وما جاء في (كلیلة ودمنه)^(١) فدعا الأسد بابن آوى واعتذر إليه مما كان منه.

• وما جاء في (مجالس العلماء)^(٢) : وقال عبد الله بن محمد البواب خليفة الفضل بن الربيع في حجة الهادي بن المهدي في أمر وقع له مع الأسود بن عمارة التوفلي:

«فدنوت منه وأنخبرته خبر الهادي واعتذرت من مراجعتي إياه».

• وما جاء في (تاريخ الوزراء)^(٣) : وقال أبو الحسن بن حمدون : وكتب يوسف بن ديواداذ إلى الوزير أبي الحسن علي بن الفرات يعرف الخبر ويعتذر إليه من تأخير المال الذي واقفه عليه.

• وما جاء في (إعتاب الكتاب)^(٤) و (كتاب الوزراء والكتاب)^(٥) قال ابن عبدوس الجهشياري :

حكى لنا أن موسى الهادي سخط على بعض كتابه فجعل يقرعه بذنوبه ويتهدده فقال له : يا أمير المؤمنين إن اعتذاري مما تَقَرَّعَنِي به ردُّ عليك.

ولكن :

• جاء في (المصباح المنير) : اعتذر عن فعله : أظهر عُدْرَه.

(١) كلیلة ودمنة، ص ٢٧٧.

(٢) مجالس العلماء، للزجاجي، ص ٢١٥.

(٣) تاريخ الوزراء لابن الصائبي، ص ٢٤٠.

(٤) إعتاب الكتاب لابن الأبار، ص ٧٥.

(٥) كتاب الوزراء والكتاب، ص ١٦٩.

• نَقَلَ (مَدَّ الْقَامُوسَ) ^(١) قول المصباح المنير وأقوال المعجمات الأخرى.

• قال المعجم الوسيط : اعتذر من ذنبه واعتذر عن فعله : تَنَصَّلَ وأصبح لنفسه

• يَضَافُ إلى هذه المصادر الثلاثة أَنَّ كثيراً من الأدباء يقولون :

اعتذر عن ذنبه

• تُجِيزُ لنا المعاجم كلها أَنْ نقول : اعتذر لفلان عني ، أى : نيابة عني ، ولا يحدث لبس في المعنى إذا قلنا : اعتذرت لزيد عن عمرو ، واعتذرت لزيد عن ذنبي .

وقد ذكر اللغويون والنحاة أنه يجوز إنابة حروف الجر بعضها عن بعض من ذلك ما أورده ابن جنى في كتابه (الخصائص) حيث أقرّد بحثاً في باب استعمال الحروف بعضها مكان بعض ^(٢)

لذلك يرى البحث أنه يجوز لنا :

• قول : اعتذر من التقصير

واعتذر عن التقصير

• • • • • لذا يقتضى البحث بجواز القول :

اعتذر فلان من التقصير

واعتذر فلان عن التقصير

(١) المصباح المنير، مادة (عذر)

(٢) مد القاموس، مادة (عذر)

(٣) المعجم الوسيط، مادة (عذر)

• تعرّض :

يخطئون ^(١) من يقول :

تعرّض فلان للتعذيب

ويقولون إن الصواب هو :

عرّض فلان للتعذيب وجعل عرّضه له ..

قال أسعد داغر ^(٢) (ويعدون الفعل (تعرض) بـ (إلى) : فيقولون (لم يفكروا أن يتعرضوا إلى أحد، وهو بهذا المعنى إنما يتعدى باللام : تقول : تعرض له إذا تصدّى وطلبه)

وكان الدكتور مصطفى جواد ^(٣) قد خطأ الدكتور طه حسين الذي قال في كتابه الأيام :

(وكان ذكاؤه واضحاً، وإتقانه للفقّه يبيّن) وحسن تصرّفه فيه لا يتعرّض للشك).

وقال (وكان الأزهر قد تعرّض لألوان مختلفة من النظام، ويقول مصطفى جواد (والسبب في غلط الاستعمال أن (تعرّض يدل على رغبة

(١) قل ولا تقل ، ج ١ ، ص ٤٦ ، معجم الأخطاء الشائعة ، ص ١٦٦ .

(٢) تذكرة الكاتب ، ص ١٢٩ .

(٣) قل ولا تقل ، ج ١ ، ص ٤٦ .

الفاعل فى الفعل والمفعول به إن وجد ... والمعذب أو المعاقب أو المؤذى
كائنًا ما كان الأذى لم يرغب فى العذاب والعقوبة والأذى ... وإنما قهر
وأجبر على مكابذتها ... ولو صح أن الذى عرض لهذه البلى راغب فيها
وتائق إليها لم يكن معذبه أو معاقبه أو مؤذيه ملومًا)

ثم يأتى مصطفى جواد بعدد من الشواهد من أمهات كتب اللغة
والأدب والتاريخ تؤيد رأيه منها :

• ما جاء فى (الأغانى) ^(١) قال رجل من قيس عيلان : كان الأعشى يوافى
سوق عكاظ، وكان الملقب الكلابى مثنائًا مملقًا. فقالت امرأته : يا أبا كلاب
ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر ؟

• وما جاء فى (شرح البلاغة) نقلا من كتاب الواقدى فى خبر هبار بن
الأسود : فقال رسول الله ﷺ - وهبار يعتذر إليه - اسم الإسلام ما ذلك
ونهى عن التعرض له .

• وما جاء فى (الحيوان) ^(٢) ومأضرب لك مثلاً قد استوجبت أغلظ منه،
وتعرضت لأشد منه ولكننا نستأنى بك وننتظر أوبتك.

• وما جاء فى (وفيات الأعيان) ^(٣) فى ترجمة الوزير يحيى ابن هبىه قول
سبط ابن الجوزى : وقال جدى الشيخ أبو الفرج فى كتابه المنتظم : وكان
الوزير يسأل الله تعالى الشهادة ويتعرض لأسبابها.

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني، ج ٢، ص ١١٣.

(٢) شرح البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) الحيوان للجاحظ، ج ١، ص ٢١٨.

فهو يرى أن هذه الشواهد من الواقع اللغوى للفعل (يتعرض)، ومصدره -
(التعرض) تؤكد أن التاء تفيد رغبة الفاعل فى الفعل..

لكن الجوهري قال فى (الصحاح) ^(١) (وَعَرَّضْتُ فَلَانًا لَكَذَا: فَتَعَرَّضَ هو له :

وقال الرازى فى (مختار الصحاح) ^(٢) وَعَرَّضَهُ لَكَذَا فَتَعَرَّضَ لَهُ

ونقله منهما صاحب (لسان العرب) ^(٣) ثم نقل (تاج العروس) ^(٤)
فى مستدركه عبارة (الصحاح) وفَعَّلَ (مَدُّ الْقَامُوسِ) ^(٥) مثله ثم جاء
(المعجم الوسيط) ^(٦) فقال (تَعَرَّضَ فَلَانٌ لَكَذَا: صَارَ عَرَضَةً وَهَدَفًا لَهُ)

وإن كان مصطفى جواد قد اعتبر أن ما ورد فى (الصحاح للجوهري) و
(مختار الرازى)، و(لسان العرب) وهى جميعها من أصح معجمات العربية
وأعلاها... مؤكداً على أن ما ورد فى (الصحاح) مخالف للواقع اللغوى...
فإن الباحث - مع اختلافه معه فيما ذهب إليه - لا يجد هنا خيراً من موقف
البصام ^(٧) وهو تلميذ قديم لمصطفى جواد ، إذ يقول «معلوم أنه لا يعزى
غلط إلى معجم من معجمائنا القديمة بغير نصوص قوية تقطع بغلظه، فكيف

(١) الصحاح مادة (عرض)

(٢) مختار الصحاح مادة (عرض)

(٣) لسان العرب مادة (عرض)

(٤) تاج العروس مادة (عرض)

(٥) مَدُّ الْقَامُوسِ مادة (عرض)

(٦) المعجم الوسيط مادة (عرض)

(٧) الاستدراك على كتاب قل ولا تقل لصبحى البصام، ص ١٩.

يعزى الغلط إلى ثلاثة معجمات قديمة اتفقت على حقيقة معينة هذه المعجمات حجة ظاهرة عليه، عدا ما أنا محتج به من شواهد»

وبعد أن رد عليه إنكاره (المطاوعة) بالحجة البينة من أقوال أئمة اللغة والتصريف^(١) قال «فلنك أن تقول : عرض فلان للأذى أو تعرض له لأنهما بمعنى. فإن قيل : ألا ليس في استعمال تعرض ولها معنيان متضادان ؟ قلت : سياق الكلام يدفع اللبس، ولولا سياق الكلام لخفى علينا معنى كثير من كلام العرب»^(٢)

وإن كان أبو تراب الظاهري^(٣) قد اتفق مع مصطفى جواد فإن الباحث يتفق مع البصام ومحمد العدناني^(٤) في أن جملة (تعرض فلان لكذا) صحيحة مثل جملة (عرض فلان للتعذيب) التي اقترحها الدكتور مصطفى جواد ..

• • • لذا يفتى البحث بصحة استعمال :

تعرض فلان للتعذيب
عرض فلان للتعذيب

(١) السابق نفسه ج ١ ص ١٠٣ ، «أما فعل، فإنه وأن وضع لمطاوعة (فعل) كما ذكرنا لكنه إنما جاز نحو فهمته ففهم وعلمته فعلم لأن التكرير الذي فيه كأنه أظهره وأبرزه حتى صار كالغسوس» .

(٢) الاستدراك للبصام ص ٢٢ ، ص ٢٣ .

(٣) كبوات اليراع ج ١ ص ٢٣٠ .

(٤) معجم الأخطاء الشائعة، ج ١ ص ٢٣٠ .

• نَوَادٍ

ويخطئون^(١) من يجمع النادى على نَوَادٍ

ويقولون إن الصواب هو :

أُنْدِيَّةٌ وجمع الجمع : أُنْدِيَّات

ويجمع لسان العرب^(٢) (النادى) على : أُنْدِيَّةٌ وأُنْدَاءٌ قال كثير^(٣) :

لهم أُنْدِيَّات بالعشى وبالضحى

بها ليل يرجو الرغبون نهالها

ولكنَّ

• المعجم الوسيط^(٤) يجمع النادى على أُنْدِيَّةٍ ونَوَادٍ ، وبذلك ساير مُعْظَم العامة فى البلاد العربية الذين يجمعون النادى على نَوَادٍ.

• ويجيز الشيخ مصطفى الغلايينى^(٥) أن يجمع الأُنْدِيَّة على نَوَادٍ، ويقول إنه مطابق للقياس، كما قالوا، جامع وجوامع، وطابق وطوابق وسالف، وسوَالِف، وسابق وسوَابِق.

(١) معجم الاخطاء الشائعة ص ٢٤٤.

(٢) لسان العرب مادة (ندى) (وينظر: درة الغواص، ص ٧).

(٤) ديوان كثير عزة، ص ١١٧.

(٥) جامع الدروس العربية، ص ٢٣٤.

ثم يستشهد بقول صاحب القاموس المحيط^(١) فى أوائل خطبة كتابه
(محمد خيرٌ منَ حضرِ النوادي) وفى (النحو الواقى) يقول عباس حسن^(٢)
(والحق أن صيغة (فَاعِل) تجمع قياساً على (فَوَاعِل)، سواءً أكانت صيغة
(فاعل) صفة) للمذكر العاقل أم غير العاقل . ولكنها إن كانت وصفاً لمذكر
غير عاقل ، كانت أقوى .

والنادى هو المجلس والقوم المجتمعون فيه ولا يُسمَّى نادياً حتى يكون فيه
أهله . ويطلق النادى على أهل المجلس مجازاً .

ومن معانى النادى : الشخص أو الشَّيخ

أما قوله تعالى ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ سورة العلق آية ١٧

فمعناه : فليدع عشيرته ، وهم أهل النادى ، والنادى مكانه ومجلسه ،
فسماه به (مجاز مرسل علاقته الخلية)

والتَّدى ، والتَّدوة ، والمتَّدى تعنى (النادى) أيضاً .

أما النوادي فمن معانيها^(٣) ما يلى :

• الحوادث والخطوب تقول :

رمتهم النوادي بسهامها

• الأشياء المبتلة

(١) القاموس المحيط مادة (ندى)

(٢) النحو الواقى، ج ٣، ص ١٩٧ .

(٣) معجم الاخطاء الشائعة ص ٢٤٤ ، وينظر كبوات البراع ص ٤١٨ ، ١٩

• التوق المتفرقة في النواحي، أو الشاردة تقول:

إبل نوادي أي شاردة، لأن جمع التكسير على فواعل إنما يأتي جمعاً لفاعله وجمعاً لفاعل على شرط أن يكون وصفاً لمذكر عاقل فنقول:

جواد صاهل، وخيل صواهل

••• النواصي

• نوادي الكلام: ما يتفوه به الإنسان وقتاً بعد آخر.

• نوادي النوى (جمع نواه): ما تطاير منها عند كسرها

أما مفرد النوادي فهو: المنادية.

وقد تجمع النادية على ناديات.

••• لما سبق يفتى البحث بصحة جمع النادي على نوادٍ كما يجمع على أندية.

• هام :

ويخطئون^(١) من يقول :

أمر هام

ويقولون إن الصواب هو :

أمر مهم، وقد أهما الأمر مستشهدين بما ورد عند الراغب
الأصبهاني^(٢)

(وأهمنى كذا: أى حملنى على أن أهم به قال تعالى: «وطائفة قد
أهتمهم أنفسهم» سورة آل عمران آية ١٤٥

فالأنفس مهمة إذا لا هامة فالشئ المهم هو الذى يبعث الهمة فى
الإنسان ويجعله يهتم ويقلقه أحياناً . ونقل اللفظ من الوصفية إلى الإسمية
فقليل له : المهم وجمع على المهام تكسيراً وعلى المهمات تصحيحاً . وهو
(بالبداية) اسم فاعل من أهماه يهماه (هماما) .

والهام هو المحزن . وهو من همه أى أحزنه حزناً يذيب الجسم ولا محل
له فى تلك الجملة . ذكره الدكتور مصطفى جواد فى كتابه متأيداً بكلام
الراغب^(٣)

• وما جاء فى لسان العرب^(٤) :- يقال : همك ما أهلك . جمل (ما) نفيًا

(١) معجم الأخطاء الشائعة ص ٢٥٩ .

(٢) مفردات غريب القرآن ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٣) قل ولا تقل ج ١ ص ٩٠ .

(٤) لسان بوب مادة (همم)

فى قوله : ما أهملك . أى لم يهملك همك ، ويقال : معنى ما أهملك أى ما أحزنك . أو ما يقلقك أو ما أذابك يريد أن (ما) فى الوجه الثانى تكون اسماً موصولاً ..

ويرى الباحث أنه لا خطأ فى استخدام أمر هام لأن هناك فعلين : همَّ الأمرُ يَهْمُهُ، هَمًّا، ومَهَمَّةٌ : أقلقَه وحَزَنَهُ، فهو هَامٌّ، وهنالك أيضاً : أهِمَّ الأمرُ فلاناً: أقلقَه وحَزَنَهُ، فهو مُهِمٌّ وكلتا الكلمتين صحيحة.

جاء فى المصباح^(١) : أَهَمَّنِي الأمرُ : أَقْلَقَنِي، وَهَمَّنِي هَمًّا (مِنْ بَابِ قَتْلٍ) مَثَلُهُ.

• • • • • لذا يفتى البحث بصحة استخدام :

أمر هام

أمر مهم

(١) المصباح المنير مادة (همم)

وينظر (معجم الأخطاء الشائعة ص ٢٥٩).

• تَوَفَّى :

ويخطئون (١) مَنْ يَقُول :

تَوَفَّى فلانٌ

ويقولون إن الصواب هو :

تَوَفَّى الله فلاناً أو

تَوَفَّى فلانٌ والله

هو المتوفى ، وفلان هو المتوفى

معتمدين فى ذلك على :

• ما جاء فى المعاجم كلها ومن ذلك مثلاً :

• ما جاء فى لسان العرب (٢) وتاج العروس (٣) مثلاً :

تَوَفَّى فلانٌ إذا مات ، وتَوَفَّاهُ اللهُ إذا قبضَ نفسه .

وما جاء فى (الصحيح) (٤) (روحه)

• وما روى من أن عَلِيّاً بن أبى طالب - كرم الله وجهه - سأله عامي ،

وهو يمشى وراء جنازة :

- مَنْ المتوفى ؟

- الله

- كيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟

(١) لسان العرب مادة (وفى)

(٢) تاج العروس مادة (وفى)

(٣) تاج العروس مادة (وفى)

(٤) الصحيح مادة (وفى)

- أما سمعت قوله سبحانه : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ سورة الزمر آية ٤٢ .

- قل من المتوفى ؟

وما ورد فيما يراه الشهاب الألوسى^(١) أن الإمام علياً نفسه (كرم الله وجهه) يقرأ الآية ٢٣٤ من سورة البقرة ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ بالبناء للفعل كما يقرأها ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ بالبناء للمفعول ..

فالجواب في تخطئة العامى أنه ليس من أهل القصد والتأويل^(٢) ، أى أن الإمام حدث السائل بما يقتضيه الحال ، وما يستوعبه لُبه .

وقد جاء فى كل من (لسان العرب)^(٣) و(تاج العروس)^(٤) أيضاً (تَوَفَّى الْمَيِّتُ : استيفاءُ مدته التى وَفَيْتَ لَهُ ، وعددُ أيامه وشهوره وأعوامه فى الدنيا . أمّا فعل المصدر (تَوَفَّى فلان) فهو : (تَوَفَّى فلان) تَوَفَّيًّا ، أى : استوفى المدة المقدره لبقائه حياً

لذا نستطيع أن نقول : تَوَفَّى اللهُ فلاناً ، أو تَوَفَّى فلانٌ أو تَوَفَّى فلانٌ ، فالباحث يتفق مع صاحب معجم الأخطاء الشائعة . فى إثارة استعمال الجملتين الأوليين اللتين توردتهما المعجمات العربية والمصادر اللغوية كلها دون أن يخطئ من يقول (تَوَفَّى فلان) .

• • • لذا يفتى البحث بإثارة استعمال الجملتين :

تَوَفَّى اللهُ فلاناً

تَوَفَّى فلانٌ .

(١) كشف الظراء لشهاب الألوسى ، ص ٢٧ ، ص ٢٨ .

(٢) السابق نفسه .

(٣) لسان العرب مادة (وفى)

(٤) تاج العروس مادة (وفى) .

ثالثاً : ما يقترحه البحث من فتاوى لغوية :

يرى البحث أن الارتقاء بالعربية والاهتمام بألفاظها وإعادة النظر فيما شاع من تخطئة لبعض الألفاظ وهى صحيحة أصبح ضرورة لا مناص منها ... ولما كان ذلك واحداً من أهم الدوافع وراء هذا البحث فضلاً عن محاولة تلمس الصواب وطرقه محافظة على العربية وألفاظها فإن البحث - وبعد وقوفه على مناقشة ومعالجة عدد من الألفاظ الصحيحة والتي أشيع أنها خطأ - يرى - على استحياء - التقدم بعدد من الفتاوى اللغوية - والتي يرجو الله القدير أن تنال رعاية القائمين على اللغة العربية والمهتمين بها فهي لغة النص الذى «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»

وهذه الفتاوى هى :

(١) لما كانت الضرورة متوجهة إلى تعليم الفصحى وتغليبها على اللهجات العامية لما تعثله من تخلف وتحريف ... فإن الباحث يمكن أن يقترح الإفتاء بما يلى :

أ - بضرورة إشاعة العربية فى المجتمع وذلك بنشر رايات العلم والثقافة والأدب مع الاهتمام بالمطبوعات جميعها وبخاصة (المجلات والجرائد) شريطة أن تكون هذه المطبوعات جميعها مضبوطة بالشكل ، صحيحة الطباعة ولا غرابة فى ذلك فإن معظم ما يزد من مطبوعات عن بيروت وبخاصة ما تقدمه المطبعة الكاثوليكية منذ أكثر من مائة عام يكون مشكولاً وعلى أحسن ما يكون الشكل.

ب - وكذلك الاهتمام بالإذاعتين المسموعة والمرئية فضلاً عن (السينما) والمسرح والأندية والمحافل وقصور الثقافة وغيرها شريطة

أن يراعى الناطق فى هذه الحالات جميعاً صحّة النطق بالألفاظ
والتراكيب العربية صوتاً وبناءً وتأليفاً.

هذا فضلاً عن المدارس والجامعات فعليها المعول الأكبر فى تغذية
المجتمع بالعلم عامة وعلم اللغة بشكل خاص.

٢- ولما كانت قضية البحث مرتبطة بمحاولة إحياء الصواب المهجور لعدد من
ألفاظ العربية فإن البحث يفتى بما يلى :

أ - بضرورة إتقان اللغة وذلك بالدراسة على أصولها المقررة وقواعدها
الأساسية وقد أثّرت فى العصر الحديث عاصفة شديدة بوجه
القواعد العربية ، واتخذت مسالك شتى وطرائق مختلفة للبحث
بأصولها أو إبطال رسومها^(١) . والذى يطمئن إليه البحث هنا هو
الاعتماد على تلك القواعد والاعتداد بها . فقد برهنت القرون
على صلاحها ، ولنا أسوة فيمن مضوا من أسلافنا حيث انتفعوا
بها الانتفاع الكامل حين أحسنوا التهذيب والانتقاء فوضعوا النحو
وفق المراحل التدريسية وطبيعة أحوالها وإن أصدق مثال على ذلك
فى ابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ٧٦١هـ على ما قدم فى
كتابه (شذور الذهب) و(قطر الندى وبل الصدى) ...

(١) فى الدفاع عن قواعد العربية (ينظر : بحث : محمد عبد الخالق عضية بعنوان : «النحو بين
التجديد والتقليد» - مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية - الرياض ١٩٦٦ - ١٠٦٠ .
• أما عن الدعوة إلى تيسير النحو فى العصر الحديث فلم تصل إلى الصورة التى يمكن أن تكون
البديل الصحيح عن مناهج الأقدمين .. وقد ورد لجمع اللغة العربية القاهرى عدد غير قليل من
الردود لكثير من العلماء بهذا الصدد تشير إلى واحد منها وهو : «النحو والنحاة بين الأزهر
والجامعة» لمحمد أحمد عرفة ... وهو ردّ خامس على إبراهيم مصطفى فى كتابه «إحياء النحو»
.. (وينظر : إلى الفصل الأول من كتابنا : ظاهرة الاستغناء فى قضايا النحو والصرف» دار
المعرفة الجامعية ، ط ١ ، ١٩٩٣ م .

وليس عسيراً علينا اليوم أن نتقّى النحو بما داخله من مؤثرات فلسفية ليست من طبيعته، أو تعليقات كلامية ليس لها وظيفة حقيقية في رسم القاعدة أو أحكامها .

٣ - ولما كانت القاعدة اللغوية لا تغنى عن مادة اللغة - ولما كان البعدُ عن الارتشاف من مناهل البيان والفصاحة مورثاً للركاكة والسقم والانحراف ... فإن البحث يفتى بـ :

أ - ضرورة الوقوف على عيون الأدب العربى وعلى رأسها النصُّ القرآنى المعجز فى مرحلة تتحقق فيها ملكة التعبير قبل الولوج فى مساحة القواعد والضوابط المستنبطة لأن القواعد لاحقة للنص لا سابقة عليه فتأخيرها عنه أولى، وقد أدرك ابن خلدون المتوفى سنة ٨٢١هـ هذه الحقيقة فقال يصف الطريق إلى العربية فى اطمئنان العالم صاحب النظر النافذ والتجربة المحققة (١) «إن اللغات لما كانت ملكات - كما مر - كان تعلمها ممكناً شأن سائر الملكات . ووجه التعليم لمن يتغنى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب فى أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضاً فى سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ..»

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٩ .

ثم وصل ابن خلدون كلامه بالتنبيه على أمر لا تتحقق الملكة بغيره، ولا تتم فائدة ذلك الحفظ والتمثيل إلا بوجوده، وهو التطبيق العملى فى ممارسة التعبير ، وإبداع التراكيب اهتداء بما وعى المتدرب، واقتداء بما حفظ، فقال ^(١) «ثم يتصرف بعد ذلك فى التعبير عما فى ضميره على حسب عباراتهم، وتآليف كلماتهم ، وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم، فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتها رسوخاً وقوة» .

ذلك هو أسلوب الأسلاف فى التعليم، مكنهم من هذه اللغة وملكهم أمرها، فأحرى بنا أن نفطن إليه ونوليه من الرعاية والعناية ما هو أهل له.

ب - ضرورة الاهتمام بطرائق التعليم اللغوى الحديثة من مثل الطريقة التركيبية القائمة على ^(٢) «الممارسة المتكررة» ، بل التكرار المفرط أحياناً لنماذج الجمل والتراكيب اللغوية بشكل يحولها إلى عادات ترسخ لدى المتعلم من خلال الممارسة والتدريب المستمر .

على أن يعنى بانتقاء تلك النماذج، فهى الدليل على جلال العربية وجمالها..

٤ - ونظراً لما تمثله دراسة اللغة - وبخاصة فى مجالى النحو والصرف باعتبارهما أساس معرفة العربية - أهمية خاصة للألفاظ فإن البحث يفتى بـ :

ضرورة أن تشارك الجامعات العربية فى دراستها واشتراع مناهجها يقول الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ^(٣) «وكان المقروض أيضاً أن تشارك

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) عن مقال للدكتور/ عبد القادر محمد سعيد البيطار بعنوان: النظرية اللغوية الجديدة وتعليم اللغات، نشر فى - مجلة المعلم الجديد ٣٩ (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م) ط ٥٠ .

وينظر: كتاب: خليل السكاكيني اللغوى، ص ٥٩-٦٠.

(٣) المنهج الصورى للبنية العربية - رؤية جديدة فى الصرف العربى للأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ص ٧.

الجامعات الرائدة فى توجيه عملية التعليم فى المدارس طبقاً لأحد المناهج المقترحة ، وأن تكون معاهد العلم مجالات تجريبية لبحوث العربية ، قبل أن تكون حقول تجارب للعلوم الأخرى، كالرياضيات واللغات الأجنبية والفيزياء .

٥ - يؤيد البحث ما قرره الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين ^(١) حيث قال «ولا مناص من الربط بين النحو والصرف وبين اللغة الجديدة، المتجددة، وإلا فلسوف نفتح أعيننا ذات صباح على مشهد الفرقة بين الأقدمين ولغة العصريين ، وهو مشهد يعد له منذ بعيد دعاة العامية وسدنتها. وفى الأجيال القادمة رقة دين، ووهن إيمان بالتراث ، وميل إلى التملص من قيوده» ، أكثر مما فى جيلنا على ما فيه .

٦- وعن تلك المجموعة من الألفاظ الواردة فى البحث والتي حاول تجلية الحقيقة نحوها إذ هى صحيحة وقد أشيعت تخطئتها ... فإن البحث قد أفتى فيها بما يلى ^(٢) :

أ - عند كلمة (تأسست) :

قال البحث (لذا يفتى البحث بأنه ... لما سبق يصح القول :

تأسست المدرسة فى عام كذا

أو أسست المدرسة فى عام كذا.

ب - وعن كلمة (استأنف) :

قال البحث (ولما سبق يفتى البحث بأنه : يمكننا قبول (استأنف العمل)

(١) السابق نفسه ص ٩ .

(٢) تفصيل القول فى هذه الألفاظ - مناقشة ومعالجة - فى مكانها من هذا البحث.

بمعنى : عاد إليه بعد انقطاع بالإضافة إلى المعانى الأخرى التى وردت للفظه
وقد رصدت فى مكانها من هذا البحث ..

ج - وعن كلمة (بشارة) :

قال البحث بأن :

(بشاره (بكسر الباء) أو

(بُشاره (بضم الباء) .

همى ما بُشِّرَتْ به من خير أو شرٍّ

د - وعن كلمة (خرَجَ) فى عبارة :

(خرَجَ فلانٌ على القانون) :

قال البحث :

(لما سبق يفتى البحث بأنه : يصح لنا أن نقول :

• خرَجَ فلان عن القانون أو النظام و

• خرَجَ فلان على القانون أو النظام ،

هـ - وعن كلمة (أُسْقِطَ) فى عبارة :

(أُسْقِطَ فى يده)

قال البحث (كذا يفتى البحث بأنه :

يجوز لنا استخدام التعبير :

أُسْقِطَ فى يده بمعنى : زَلَّ وأخطأ

وندم وتَحَيَّر ، كما نستخدم :

سُقِطَ فِي يَدِهِ ...

و- وعن كلمة (اسْتَلَمْتُ) :

قال البحث : (يفتى البحث بأنه :

يجوز لنا القول (استلمت الرسالة) ، وإن لم ترد صريحة بمعنى (تَسَلَّمَ)

إلا أن القياس لا يمنع منها ولما صرح به الأزهرى من أنه بمعنى (التناول) ..

ز - وعن كلمة (الشُّرْفَةُ) :

قال البحث :

(فاعتماداً على ما ورد في ، المعجم الوسيط) بشأن لفظة (الشُّرْفَةُ) فإن

البحث يفتى بأنه : يجوز لنا أن نقول :

وقف فلان في الشُّرْفَةِ) ...

ح - وعن كلمة (الاشتراك)

قال البحث :

(لذا يفتى البحث بجواز قولنا :

هذا يدل الاشتراك في الجريدة

وهذا يدل المشاركة في الجريدة..

ط - وعن كلمة (صمد) في عبارة :

(صَمَدٌ لَهُ)

قال البحث :

(ومن خلال ما تقدم من أدلة وبراهين يفتى البحث بتأييد استعمال لفظة :

(صَمَدَ) بمعنى (قَصَدَ)

وبمعنى (ثَبَّتَ)

ى - وعن كلمة (اعْتَذَرَ) في عبارة :

(اعتذر عن)

قال البحث :

(لذا يفتى البحث بجواز القول :

اعتذر فلان من التقصير

اعتذر فلان عن التقصير

ك - وعن كلمة (تَعَرَّضَ) :

قال البحث :

(لذا يفتى البحث بصحة استعمال :

تَعَرَّضَ فلان للتعذيب

عَرَّضَ فلان للتعذيب،

ل - وعن كلمة (نَوَادٍ) :

قال البحث :

(لما سبق يفتى البحث بصحة جمع :

(النادى) على (نوادٍ) كما يجمع على (أندية)

م- وعن كلمة (هام)

قال البحث (لذا يفتى البحث بصحة استخدام أمر هام، وأمر مهم) ..

ن- وعن كلمة (توقى) :

قال البحث (لذا يفتى البحث بإثارة استعمال الجملتين :

تَوَقَّى اللهُ فُلَانًا

تَوَقَّى فُلَانٌ

ويكرر الباحث هنا أن ما ذكر من (كلمات) هو بمثابة نماذج لعلها أن

تكون بداية لإعادة النظر في معظم ما يعاثرها من كلمات في لغتنا العربية ..

والباحث إذ يضع هذا البحث أمام أستاذنا الأفاضل يُقرُّ بأنها محاولة

والكمال لله وحده ؛

د. زين كامل الخويسكي

كلية التربية - جامعة الإسكندرية

1
4
3

6
1
1
1

أهم مصادر البحث ومراجعته

• بالإضافة إلى ما ورد في (أولا) من هذا البحث من مصادر ومراجع نذكر هنا ما يلي :

- | | |
|------------------------------|--|
| • أحمد رضا / الشيخ | ١- «متن اللغة»، بيروت، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م. |
| • الأخطل / | ٢- «ديوان الأخطل»، رواية المبرد عن ابن الأعرابي، تحقيق، الأب أنالون اليسوعي - بيروت. |
| • ادوارد وليم لاننى | ٣- «مدّ القاموس»، معجم من العربية إلى الإنجليزية، بيروت - مكتبة لبنان - ١٩٦٨م. |
| • الأصفهاني / الراغب | ٤- «المفردات في غريب القرآن»، نشر مصطفى البابي الحلبي وأخوه بمصر - الميمنية، ١٣٢٤هـ. |
| • الأصفهاني / أبو الفرج | ٥- «الأغاني» - بولاق - ١٢٨٥هـ |
| • الألوسي / أبو الشاء | ٦- «كشف الطّرة عن الغرّة» دمشق، الحنفية ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م. |
| • ابن الأنباري / أبو البركات | ٧- «نزهة الإلباء في طبقات الأدباء»، القاهرة، ١٢٩٤هـ. |
| • البستاني / بطرس | ٨- «محيط المحيط»، بيروت : ١٢٨٦هـ. |
| • البلاذري / | ٩- «أنساب الأشراف» نشر : هلورت - ليزج ١٨٨٣م. |
| • أبو تراب الظاهري | ١٠- «كيوان اليراع» - جدة - دار البلاد - ١٤٠٢هـ |
| • الجاحظ / | ١١- «الحيوان»، القاهرة - ١٣٢٣م. |

• ابن جنى / ابو الفتح ١٢ - «الخصائص» القاهرة، تحقيق : محمد

علي النجار، ١٣٧١ هـ - ١٣٧٦ هـ /
١٩٥٢م - ١٩٥٦م.

• الجوهرى / اسماعيل بن حماد ١٣ - «الصحاح» القاهرة، دار الكتاب العربى،
تحقيق د. أحمد عبد الغفور عطا -
١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م.

• ابن الجوزى / عبد الرحمن ١٤ - «تقويم اللسان» القاهرة، دار المعرفة،
تحقيق د. عبد العزيز مطر ١٣٨٦ هـ -
١٩٦٦م.

• الحريرى / أبو محمد ١٥ - «درة الغواص فى أوهام الخواص» تحقيق :
ثور بيكه - ليسك، ١٢٨٧ هـ - ١٨٧١م.

• الحمالوى / الشيخ أحمد ١٦ - «ثذا العرف» طبعة مصطفى البابى
الحلبى العشرون ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦م.

• ابن خلكان / ١٧ - «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» بيروت
- دار الثقافة - تحقيق د. إحسان عباس
١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢م.

• دوزى / رينهارت ١٨ - «تكملة المعاجم العربية» بغداد - وزارة
الثقافة والفنون ، نقله إلى العربية د. محمد
سليم النعیمی، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

• الزجاجى / ١٩ - «مجالس العلماء» الكويت، تحقيق : عبد
السلام محمد هارون ، ١٩٦٢م.

• الزيدى / أبو بكر ٢٠ - «طبقات النحويين واللغويين» ، القاهرة،
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم،
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م.

٢١ - «لحن العوام» القاهرة - الكمالية - تحقيق
د. رمضان عبد التواب، ١٩٦٤م.

٢٢ - «تاج العروس من جواهر القاموس» ،
القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٦هـ -
١٣٠٧هـ / ١٨٨٨ - ١٨٨٩م.

٢٣ - «أساس البلاغة» بيروت - دار صادر ،
١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

٢٤ - «الكشاف» كلكتا، ١٨٥٦م.
٢٥ - «الفائق في غريب الحديث والأثر» حيدر
آباد، الدكن ، الهند ١٣٢٤هـ.

٢٦ - «الألفاظ بتهذيب التبريزي» بيروت ١٨٩٥م.
٢٧ - «إصلاح المنطق» مصر، دار المعارف،
تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام
هارون ، ١٩٧٠م.

٢٨ - «معجم الهوامع» ، القاهرة، ط السعادة،
١٣٢٧هـ.

٢٩ - «تاريخ الوزراء» لبيزج، نشر متشك،
١٩٢٦م.

٣٠ - «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان» القاهرة -
المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية تحقيق د.
عبد العزيز مطر ، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

٣١ - «تاريخ الطبري في تاريخ الرسل والملوك» ،
مطبعة الحسينية، ١٣٢٦هـ.

• الزبيدي / مرتضى

• الزبيخشي / جار الله

• ابن السكيت /

• السيوطي /

• ابن الصاي /

• الصقلي / أبو حفص

• الطبري / ابن جرير

- أبو الطيب اللغوى ٣٢ - «مراتب اللغويين» ، القاهرة، مطبعة نهضة مصر ، د.ت (تاريخ مقدمة التحقيق، محمد أبى الفضل إبراهيم، ١٣٩٤-١٩٧٤م.
- عباس حسن / ٣٣ - «النحو الوافى» ، القاهرة، دار المعارف، ط٣، أربعة مجلدات، ١٩٦٦م.
- عبد الرحمن السيد / دكتور ٣٤ - «مدرسة البصرة النحوية - نشأتها وتطورها» ، القاهرة، دار المعارف، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ابن فارس / أحمد ٣٥ - «معجم مقاييس اللغة» ، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ١٣٨٩هـ - ١٣٩٢هـ / ١٩٦٩م-١٩٧٢م.
- الفراء / أبو زكريا ٣٦ - «معانى القرآن» ، القاهرة، مطبعة دار الكتب، تحقيق: أحمد يوسف نجاشى وآخرين، ١٣٧٤هـ - ١٣٩٣هـ / ١٩٥٥م-١٩٧٣م.
- الفيروز أبادى ٣٧ - «القاموس المحيط» القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- الفيومى / أحمد بن محمد ٣٨ - «المصباح المنير» ، تصحيح الشيخ محمود العالم والشيخ نصر الهورى، ١٢٧٨هـ.
- ابن قتيبة / أبو محمد ٣٩ - «أدب الكاتب» القاهرة، مطبعة السعادة، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

- ٤٠ - «أنباء الرواء على أنباء النحاة» القاهرة، دار الكتب، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣٦٩ - ١٣٩٣ هـ / ١٩٥٠ - ١٩٧٣ م.
- ٤١ - «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء»، القاهرة، دار الكتب ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ / ١٩١٣ - ١٩٢٠ م.
- ٤٢ - «ديوان كثير عزة»، الجزائر، نشر بريس ١٩٢٨ - ١٩٣٠ م.
- ٤٣ - «ما تلحن فيه العامة»، القاهرة، نشر مكتبة الخانجي، تحقيق د. رمضان عبد التواب ١٤٠٣ - ١٩٨٢ م.
- ٤٤ - «التنبيه على غلط الجاهل والنبيه» دمشق - مطبعة الترقى، تحقيق: عبد القادر المغربي ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م.
- ٤٥ - «المدخل إلى تقويم اللسان» مخطوط : مصورة طبع منه (كتاب الرد على الزبيدي) بتحقيق : د. عبد العزيز مطر نشر فى مجلة معهد المخطوطات العربية م ١٢، ج ٢، ص ٢١ - ص ١١٢.
- ٤٦ - «نحو وعى لغوى جديد» ، دمشق، مكتبة الفارابي ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.
- ٤٧ - «المعجم الوسيط» أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، القاهرة، الجمع اللغوى ١٣٨٠ - ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ - ١٩٦٢ م.
- القفطى / جمال الدين
- القلقشندي / أبو العباس
- كثير عزة /
- الكسائي /
- ابن كمال باشا
- اللخمي / ابن هشام
- مازن المبارك / دكتور
- مجمع اللغة العربية

٤٨ - «المقتضب» القاهرة، المجلس الأعلى
للشئون الإسلامية، تحقيق: محمد عبد
الخالق عضيمة ١٣٨٥-١٣٨٨هـ

٤٩ - «الكامل في اللغة والأدب» لبيزج - نشر
١٨٦٤ - ١٨٩٢ م

٥٠ - «مشكلات اللغة العربية»، القاهرة، المطبعة
النموذجية، د.ت.

٥١ - «أمالى المرتضى» بيروت - لبنان، دار
الكتاب العربى، تحقيق محمد أبو الفضل
إبراهيم.

٥٢ - «وقعة صفين»، القاهرة، مطبعة المدنى،
تحقيق عبد السلام هارون، ١٣٨٢هـ.

٥٣ - «لسان العرب»، بيروت، دار صادر، ١٣٧٥
- ١٣٧٦هـ ١٩٥٥ - ١٩٥٦ م.

٥٤ - «مغنى اللبيب»، القاهرة، تحقيق: محمد
محيى الدين عبد الحميد، مطبعة المدنى.

• المبرد / أبو العباس

• محمود تيمور /

• المرتضى / الشريف

• ابن مزاحم / نصر

• ابن منظور /

• ابن هشام / جمال الدين

مجاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى

إعداد

د . ابراهيم خميس ابراهيم سلامه

استاذ التاريخ الوسيط المساعد بكلية الآداب

جامعة الإسكندرية

1
11
2

6
1
1
2

معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين

في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي

تتمثل في مبادئ الدين الإسلامي كل معاني المودة والسلام ، ويحوى سجل المسلمين على امتداد تاريخهم الطويل مجموعة متعددة من نماذج المهادنة التي تحقن الدماء ، وقد رواق الأمان ، وتغمد سيوف الحرب ، وتكف السهام الراشقة وتعتل الرياح الخطاره ، وذلك أتيقداً لأمر المولى عز وجل للرسول عليه الصلاة والسلام بالمطاعه على الصلح ، والإجابة إلى السلم (وأن جنحوا للسلم فاجنح لها توكل على الله) . (١)

ويمكن أن تنتخب من السجل الإسلامي مايدل على هذا دلالة واضحة في هذا البحث المعنون " معاهدات السلام بين المسلمين والبيزنطيين في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي / الثلث الثاني من القرن الأول الهجري " . ولا أدعى أن هذا الموضوع الذي انتقته من صفحات التاريخ الإسلامي بالغ الأهمية لأن موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية من أكثر الموضوعات التي تصدى لها المؤرخون القدامى والحديثون بالكتابة . بيد أن المهادنات بين الفريقين في القرن الأول والهجري / القرن السابع الميلادي تعتبر من أكثر الموضوعات الشائكة التي اختلفت حول تاريخها وترتيب أحداثها المصادر التاريخية

وإذا قصرنا النظر على دائره أضيق وانتقلنا من التعميم إلى التخصيص وجدنا ان كتابات المؤرخين القدامى قد اختلفت حول المعاهدات التي عقدها معاوية بن ابي سفيان بصفه خاصة مع البيزنطيين .

وإذا نظرنا بعين الاعتبار إلى المصادر العربية ، نلاحظ أن الروايات التي أشارت إلى تلك المعاهدات يمكن أن تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية : الأولى تتضمن ما أورده كل من ابن قتيبة (٢) والطبري (٣) والدينوري (٤) إذ بشيرون إلى أن " قيصر الروم " زحف بجنده لمقاتلة

(١) سورة الأتفال ، آيه ٦١ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، ٢ ج (في مجلد واحد) مصر ١٩٠٤م ، ج١ ، ص ١٦٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ١٠ ج ، بيروت ١٩٧٩م ، ج٦ ، ص ١٨٦ .

(٤) الدينوري : كتاب الأخبار الطوال ، بغداد ١٩٥٩م ، ص ١٥٧ .

المسلمين أثناء فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية ، وأن عمرو بن العاص قدم النصيحة لمعاوية بضرورة موادة قيصر الروم في تلك الفترة بإعطائه المال والخلل ، وإطلاق سراح الأسرى. وبذلك لم تحدد تلك الرواية التاريخ الدقيق لتلك المعاهدة ، وإنما اكتفت بالإشارة إلى أنها كانت أثناء فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية .

أما المؤرخ ابن كثير فكان أكثر تحديداً ، وأشار إلى أن " ملك الروم " قد طمع في معاوية بعد أن كان يخشاه . فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين ، عندئذ أرسل إليه معاوية كتاباً يتوعده ، فيحث يطلب المهادنة ، ثم كان من أمر التحكيم ^(١) وبذلك يحدد ابن كثير تاريخ المهادنة ويجعلها قبل أمر التحكيم بين علي ومعاوية .

أما عن المجموعة الثانية فتضم رواية كل من خليفة بن خياط ، واليعقوبى . إذ يشير الأول إلى أن معاوية قد " صالح الروم " في عام ٤١ هـ / ٦٦١ م ^(٢) . أما اليعقوبى فيورد أن معاوية قد بلغه في عام ٤١ هـ / ٦٦١ م أن " طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلق عظيم فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبيره وإحكامه فوجه إليه فصاحه على مائة ألف دينار " ^(٣) .

وبالنسبة للمجموعة الثالث وتتضمن إشارات عابرة لكل من ابن سلام ^(٤) والبلاذرى ^(٥) والشيبانى ^(٦) ، وابن الطقطقى ^(٧) ، تفيد أن مهادنة تمت بين معاوية وبين الروم .

(١) ابن كثير : البدايه والنهاية ، ١٤ ج في ٧ مجلدات ، ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠ م ، ج ٨ ، ص ١١٩ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق د . اكرم ضياء العمرى ، الرياض ١٩٨٥ م ، ص ٢٠٥ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، ٣ ج ، النجف ١٣٥٨ هـ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، ٢١٣ .

(٤) ابن سلام : كتاب الأموال ، مصر ، (د . ت) ، ص ١٦٢ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، لندن ١٨٦٦ م ، ص ١٥٩ .

(٦) الشيبانى : شرح كتاب السير الكبير ، تحقيق عبد العزيز أحمد ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص ١٧٥٣ .

(٧) ابن الطقطقى : الفخرى في الآداب السلطانية ، مصر (د . ت) ، ص ٥٩ - ٦٠ .

أما المسعودى والنويرى فقد أشارا فى رواية مختصرة إلى أن معاوية بن أبى سفيان قد هادن كل من الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى^(١١) Constans 11 (٦٤١ - ٦٦٨ م / ٤٨ - ٤٨ هـ) ، وابنه الإمبراطور قنسطنطين الرابع^(١٢) Constantine IV (٦٦٨ - ٦٨٥ م / ٤٨ - ٦٥ هـ)^(١٣) .

وأهم ما نلاحظه فى الكتابات العربية حول تلك المعاهدات أنها جميعا لم تحدد بنود الصلح التى اتفق عليها الجانبان ، وأنها - فيما عدا ما أورده كل من خليفة بن خياط واليعقوبى - لم تحدد التاريخ الدقيق لتلك المعاهدات .

أما عن المصادر البيزنطية فتبدأ بروايات ثيوفانيس Theophanes والتى تشير الى أن معاوية بن أبى سفيان قد عقد ثلاث معاهدات مع البيزنطيين . الأولى كانت فى العام الخامس من حكم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (٢٤ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م) وفى اثناء الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام ٦٥٠ م / ٢٨ ذى الحجة عام ٢٩ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٥١ م / ٨ المحرم عام ٣١ هـ عندما كان معاوية أميراً على الشام . إذ أرسل الإمبراطور قنسطانز الثانى رسولا يدعى بروكوبيوس Prokopios لعرض رغبة الإمبراطور فى عقد اتفاقية للسلام بينهما . وتشير الرواية إلى أن المعاهدة قد أبرمت بالفعل فى تلك الفترة وكانت لمدة عامين ، وأن معاوية قد أحتجز بعض الرهائن البيزنطيين فى دمشق ومن بينهم جريجورى^(١٤) Gregory ابن ثيودور Theodore^(١٥) .

(١١) يطلق عليه المسعودى اسم « مروق بن مروق » والنويرى اسم « فوق بن مروق »

(١٢) يطلق عليه المسعودى اسم « قلفط بن مروق » والنويرى اسم « فلفط بن مروق »

(١٣) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ ج ، بيروت ١٩٨٣م ، ج ١ ، ص ٣٢٩ : النويرى : نهاية

الأرب فى فنون الأذى ، ٢٧ ج ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، ج ١٥ و ص ٢٨٠ .

(١٤) Theophanes , The Chronicle of Theophanes (A.D 602 - 813) Tran . By

Harry Turtledove , U. S. A., Pennsylvania , 1982 , p . 44 .

(١٥) ثيودور هو شقيق الإمبراطور قنسطانز الثانى . انظر : Theophanes , op . cit , p 47

ونلاحظ فى هذه الرواية أن مبادرة السلام جاءت من جانب الإمبراطور البيزنطى ، وأنها لم تشر إلى بنود اتفاقية السلام بين الجانبين ، وأن هذا الاتفاقية عقدت بين الإمبراطور البيزنطى وبين معاوية رغم كونه والياً على الشام ، وأن الرواية لم تشر إلى قيام الخليفة عثمان بن عفان بالتوقيع على تلك الاتفاقية .

أما عن المعاهدة الثانية التى يشير إليها المؤرخ ثيوفانيس فكانت فى العام الثالث بعد مقتل الخليفة عثمان ^(١) بن عفان وفيما بين عامى ٦٥٨ - ٦٥٩ م / ٣٨ - ٣٩ هـ بعد أن أرسل معاوية لعقد اتفاقية للهدنة مع البيزنطيين ، وتنص الاتفاقية على قيام المسلمين بدفع الف نوميسماتا Nomismata ^(٢) ، وحصاناً ، وإطلاق سراح أسير بيزنطى كل يوم ^(٣) .

وأهم ما يسترعى الانتباه فى تلك المعاهدة أنها عقدت فى الفترة التى نشب خلالها النزاع بين معاوية وعلى بن أبى طالب ، وأن الرواية لم تشر إلى تبادل الرهائن بين الجانبين ، ولم تحدد مدة المعاهدة بينهما .

وبالنسبة للمعاهدة الثالثة ، فقد أورد ثيوفانيس أنها عقدت فى العام التاسع من حكم الإمبراطور قنسطنطين الرابع فيما بين عامى ٦٧٧ - ٦٧٨ م / ٥٧ - ٥٨ هـ ، وفيها تعهد معاوية بدفع اتاوة سنوية للبيزنطيين عبارة عن ثلاثة آلاف نوميسماتا وخمسين حصاناً أصيلاً ، وإطلاق سراح خمسين أسيراً من الأسرى البيزنطيين ، وأن تكون مدة المعاهدة ثلاثين عاماً ^(٤) . وتوضح الرواية أسباب انعقاد تلك المهادنة فتشير إلى أن المردة ^(٥) قد ثاروا فى منطقة جبل ^(١) كان مقتله فى يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة عام ٣٥ هـ / ١٧ بونير عام ٦٥٦ م . انظر: الطبرى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤١١ - ٤١٢ .

^(٢) عمله بيزنطية تساوى $\frac{1}{77}$ من الرطل ذهباً - انظر محمرد سعيد عمران : إدارة الامبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ٨٥ ، ح (١١) .

^(٣) Theophanes , op Cit . p . 45 .

^(٤) I bid . p . 54

^(٥) هم الجراجمة ، واطلق عليهم أسم المردة لكثرة عصيانهم . ولزيد من التفاصيل عن الجراجمة . أنظر البلاذرى . المصدر السابق ، ص ١٥٩ - ١٦٣ ؛ وايضا : فتحى عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحرسى . الاتصال الحضارى ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٦ م ، ج ١ ، ص ٣٦٢ ؛ عبد النعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٩ م ، ج ٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

لبنان ، وانضم اليهم كثير من العبيد والاسرى والاهاالى ، فزاد عددهم إلى الوف كثيرة مما أزعج معاوية ومستشاريه ، فأرسلوا سفارة إلى الإمبراطور قنسطانز الثانى لطلب عقد المهادنة فى مقابل دفع إتاوة سنوية . ولقد أستقبل الإمبراطور البيزنطى رسل معاوية بالترحاب والتكريم، وعند عودتهم الى الشام أرسل فى صحبتهم رسولا يدعى حنابتزيجودس John Ptzigaudis الذى وصفه ثيوفانيس بانه « مكث فترة طويلة يعمل فى الجهاز الادارى ، ويتصف بالفضة والحكمة » ، وكان الغرض من بعثته الاتفاق مع العرب على شروط السلام . وقد استقبله معاوية فى مدينة دمشق بكل الإعزاز .

وبعد مداولات طويلة بين الجانبين تم الاتفاق على عقد معاهدة السلام بينهما على ان تذيلها صيغة اليمين المعهود لدى الطرفين . وبعد تدوين بنود المعاهدة ، وتوقيع الجانبين على نسختين منها ، وبعد اداء اليمين احتفظ كل جانب بنسخة من تلك المعاهدة ، وعاد المبعوث الإمبراطورى إلى موطنه محملاً بكثير من الهدايا النفيسة (١) .

وتتفق رواية المؤرخ موناخوس همرتولوس Monachus Hamartolus مع رواية ثيوفانيس بشأن المعاهدة الأولى التى كانت بين معاوية وبين الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى فى عام ٦٥١م/٣١هـ ، ويشير إلى أن الاتفاقية بينهما أنهت بمهاجمة معاوية لجزيرة رودس عام ٦٥٣م/٣٣هـ (٢) كما تتفق ايضا رواية كل منهما حول المعاهدة التى كانت بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى فى عام ٦٧٨م/٥٨هـ ، ويحدد موناخوس تاريخ الهجوم الذى قام به المردة على لبنان بعام ٦٧٧م/٥٧هـ . والأختلاف الوحيد بين الروايتين ينحصر فى أن موناخوس قد أورد ضمن بنود هذه المعاهدة أن العرب تعهدوا بتقديم مائة من الجياد الأصيلة كل عام (٣) ، بينما يحددها ثيوفانيس بخمسين فقط .

(١) Theophanes , op . cit ., pp. 53 - 54 .

(٢) Georgius Monachus Hamartolus , Chronicon , Ed . Migne , Patrologia Greaca , Tome , cx , Paris , 1863 , 1863 , CoL . 862 .

(٣) Hamartolus , op . cit ., col . 895 .

ويتفق ما أورده كل من جوزيف جتزيوس Joseph Genesius ونقفور- Patri Nicephorus .
archae مع رواية ثيوفانيس بشأن معاهدة عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، ولكنهما لم يذكر أنهما
كانت بسبب المردة . (١)

ويشير من جورج كدريوس^(٢) Georgius Cedrenus وحننا زوناراس^(٣) Joannes
Zonatas ، وليوجراما تيكوس^(٤) Leo Grammaticus إلى المعاهدة التي عقدت بين
معاوية وبين الإمبراطور البيزنطي قنستنتين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، ولكنهم لم يحددوا
بنود تلك المعاهدة .

أما عن المصادر الأرمينية ، فيورد المؤرخ سبيوس Sebeos أن الاتفاقية التي كانت بين
العرب وبين البيزنطيين . انتهت في العام الثاني عشر من حكم الإمبراطور قنستانتز الثاني^(٥)
(في عام ٦٥٣ م / ٣٣ هـ) . وإذا أخذنا هذه الرواية بعين الاعتبار وجدنا أنها تتفق مع
رواية كل من ثيوفانيس ، وموناخوس هيرتولوس بشأن المعاهدة الأولى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ .

وبالنسبة للمصادر السريانية ، يشير المؤرخ ميخائيل السرياني Michel le Syrien إلى
أن معاوية عقد الهدنة مع الإمبراطور البيزنطي قنستانتز الثاني أثناء النزاع مع علي بن أبي

(١) Genesius , J. , Historia De Rebus Constantinopolitanis , Ed . Migne , Pa-
tologia Greaca , Tome CIX , Paris , 1863 , CoL . 13 ;

Nice phrus patriarchae , Breviarum Historicum , Ed. Migne Patrolo-
gia Greaca , Tome C , CoLs . , 930 , 936 .

(٢) Cedrenus , G. , Historiarum Compendium , Ed . Migne , Patrologia
Greaca , Tome CXXI - CXXII , Paris , 1864 - 1894 , Tome CXXI ,
CoL . 843 .

(٣) Zonaras , J. , Epitome Historiarum , Ed . Pender , M. 3 vols , Bonne ,
1841 - 1892 , vol . , p. 321 .

(٤) Leo Grammaticus , Chronographia , Corpus Scriptorum Historiae By-
zantinae , Bonne , 1892 , p. 162 .

(٥) Sebeos , Histoire d'Herclius , Tr . Macler , F. , Paris , 1904 , p. 137 .

طالب ، كما عقد معاهدة مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ (١) . ومن المؤرخين النصارى الذين دونوا كتابتهم باللغة العربية يشير أجابوس بن قنسطنطين المعروف بالنبجي Agapius إلى أنه في العام الثالث من عهد الخليفة عثمان بن عفان وجه ملك الروم " قسطوس " (٢) رسلاً إلى معاوية يسأله الصلح ، وكان الرسول " منوبل " ومنه بعض الروم ، فأجابه معاوية إلى ذلك على أن يترك عنده عده من أهل بيته رهائن (٣) . ونلاحظ أن هذه الرواية تتفق مع ما أورده ثيوفانيس عن المعاهدة التي عقدت بين الإمبراطور البيزنطي وبين معاوية عندما كان الأخير والياً على الشام ، وأن الاختلاف بين الروایتين ينحصر في تاريخ المعاهدة ، واسم الرسول الذي أورده كل منهما .

ومن خلال العرض السابق للروايات العربية وغير العربية للمعاهدات التي أبرمها معاوية مع البيزنطيين يتضح أن المؤرخين القدامى قد حددوا أربعة تواريخ لهذه المعاهدات : الأول في عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، والثاني يحددها في فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية ، والثالث يشير إلى أنها كانت في عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، والرابع يحددها في عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

وعند مقارنة هذه الروايات لاستقصاء الوقائع وربط بعضها ببعض للوصول إلى نتيجة محددة نلاحظ أن الذين قالوا أن ثمة معاهدة عقدت عام ٦٥١ م / ٣١ هـ هم المؤرخون الغربيون . بينما أنفرد بعض المؤرخين المسلمين بالقول أنها عقدت عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ . وأن هناك تشابهاً بين الروايات العربية وغير العربية فيما يتعلق بمعاهدتين كانت الأولى منهما في أثناء الصراع بين علي ومعاوية ، والثانية في عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

ولما كان تحديد تاريخ هذه المعاهدات على جانب كبير من الأهمية لتوضيح التسلسل التاريخي ، وتقويض الأسس التي أدت إلى الأخطاء التاريخية فينبغي استعراض هذه الروايات ومناقشتها .

Michel le Syrien , Chronique , Textes Syriacques et Trad . Fr . Par J.B. (١)
Chabot , 4 vols , Paris , 1899 , Vol 11 , p. 450 , 469 .

(٢) المقصود الإمبراطور قنسطانز الثاني

(٣) النبجي : المنتخب من تاريخ النبجي ، انتخابه وحققه أ . هـ . عمر عبد السلام تدمري ، لبنان ١٩٨٦ م ، ص ٥٧ .

أن الرواية التي تشير إلى أن ثمة معاهدة عقدت بين المسلمين والبيزنطيين عام ٦٥١ م / ٣١ هـ بمبادره من جانب البيزنطيين ، وهي التي اشارت إليها المصادر غير العربية . يرى الباحث ان هذه المبادرة جاءت نتيجة انتصارات المسلمين المتلاحقه (١) على البيزنطيين (٢) . وعلى الرغم من أن تلك المصادر لم تشر إلى بنود هذه المعاهدة ، واكتفت بالإشارة إلى أمدها ، وأنها كانت لمدة عامين ، فمن المرجح أن بنود هذه المعاهدة كانت في صالح المسلمين (٣) .

أما عن الرواية الثانية ، والتي أوردتها المصادر العربية وغير العربية . وعلى الرغم أنها اتفقت على أن المعاهدة أبرمت اثناء فترة النزاع بين على ومعاوية إلا أنها اختلفت في التحديد الدقيق لتاريخها . فيذكر ابن كثير أنها حدثت قبل التحكيم (٤) . في الوقت نفسه يشير خليفة بن خياط إلى أن التحكيم بين على ومعاوية حدث في صفر عام ٣٧ هـ / يوليو عام ٦٥٧ م (٥) . وعلى هذا يكون ابن كثير قد أومأ إلى أن هذه الاتفاقية عقدت قبل يوليو عام ٦٥٧ م / صفر عام ٣٧ هـ .

غير أن المؤرخ ثيوفانيس وهو من الذين قالوا أيضا بعقدها خلال فترة النزاع بين على ومعاوية فقد جاء في عرضه لهذه الاتفاقية بعض الاضطراب فقد أورد هذه الاتفاقية ضمن احداث الفترة الممتدة من أول سبتمبر ٦٥٨ م / ٢٥ ربيع الأول عام ٣٨ هـ - حتى ٣١ أغسطس عام ٦٥٩ م / ٦ ربيع الثاني عام ٣٩ هـ في الوقت الذي دون فيه تلك المعاهدة بعد اشارته إلى خروج قوات كل من على ومعاوية للقتال ولمحاربة بعضهما فضلا عن اشارته إلى أن هذه الاتفاقية عقدت في نفس العام الذي توفي فيه البابا مارتن الأول (Martin I) (٦٤٩ - ٦٥٦ م / ٢٩ - ٣٦ هـ) . وهكذا اشار ثيوفانيس مرة الى عقدها قبل التحكيم بين على ومعاوية ومرة بعد هذا التحكيم .

(١) عن تلك الانتصارات انظر : فتحي عثمان : المرجع السابق ، ج٢ ، ص ٢٢ - ٢٩ .

(٢) Vasiliev , A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453) , 2 Vols (٣) , Madison 1958 - 1961 , Vol . I , p. 212 .

(٣) Lot,F., L'art Militaire et les Armee au Moyen Age en Eurpe et dans le Proche Orient , Paris , 1946 , p. 61 .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١١٩ .

(٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ١٩١ .

ولما كانت قوات على بن أبى طالب ومعاوية قد خرجت للقتال فى معركة صفين فى ذى الحجة عام ٣٦ هـ / مايو ٦٥٧ م (١) ، وكانت وفاة البابا مارتن الأول فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ (٢) . بذلك يمكن القول أن هذه المعاهدة قد أبرمت فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ .

أما الرواية الثالثة التى ترى أن المعاهدة بين معاوية بن أبى سفيان والإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى قد عقدت فى عام ٦٦١ م / ٤١ هـ أو فى عام ٦٦٢ م / ٤٢ هـ ، فهذا رأى يحتاج إلى مناقشة خاصة وأتينا نعلم جيداً أن الاضطرابات الداخلية التى واجهت معاوية فى بداية عهده كادت أن تنتهى ، بعد أن خمدت الفتنة (٣) وبالتالى لم يكن معاوية بحاجة ماسة إلى مهادنة بيزنطية وتهذئة الأمور معها لاسيما أن المصادر لم تشر إلى قيام الإمبراطور البيزنطى بمهاجمة المسلمين فى الشام فى تلك الفترة كما أشار اليعقوبى (٤) . وبذلك لم تكن ثمة اسباب قاهرة تجعل معاوية بن أبى سفيان يضطر لدفع مبلغ كبير للبيزنطيين خاصة أن هذا الصلح لم يستمر سوى عاماً واحداً حسبما أكد أصحاب هذه الرواية (٥) . كما أن أحوال الدولة العربية الإسلامية فى تلك الفترة كانت أكثر استقراراً إذا قورنت بالأوضاع فى الدولة البيزنطية. فقد أورد ثيوفانىس أن الإمبراطور البيزنطى قام بتفى البابا مارتن الأول حتى مات فى منقاه ، كما قام الإمبراطور قنسطانز الثانى أيضاً عام ٦٦٠ م / ٤٠ هـ بقتل أخيه ثيودور (٦) مما عرضه للكراهية من جانب رجال الدين (٧) ، والسخط من جانب سكان العاصمة البيزنطية (٨) ، هذا فضلاً عن تعرض أملاك الدولة البيزنطية فى جنوب إيطاليا للهجمات من

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ٩ ج ، بيروت ١٩٧٩ م ، ٢ ج ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .
(٢) Ostrogorsky , G. History of the Byzantin state , tr . J. Hussey , Ox ford (٢) , 1956 , p. 106 .

(٣) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ، ١ ج ، ص ٢٧٢ .

(٤) انظر ماسبق ص ٣ .

(٥) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٠٥ ، اليعقوبى : المصدر السابق ، ٢ ج ، ص ٢١٣ .
(٦) Theophanes , op. cit ., p. 47 .

(٧) Paul the Deacon , History of the Lombards , Ed . W.D. Foulkf , Phhaldelphia , 1907 , p. 235 .
(٨) Ostrogorsky , op . cit ., p. 109 .

قبل اللومباردين ^(١) . لكل هذه الأسباب ، ترك الامبراطور قنسطانز الثانى العاصمة القسطنطينية ، واتجه إلى صقلية عام ٦٦١ م / ٤١ هـ ، وظل بها حتى تعرض لمؤامرة انتهت بقتله عام ٦٦٨ م / ٤٨ هـ . ^(٢)

نخلص من العرض السابق أن أحوال الدولة البيزنطية كانت قد اضطرت فى الداخل وتعرضت أملاكها فى الغرب الأوربي للتهديد من جانب اللومباردين الأمر الذى جعلها لا تمثل خطراً على الدولة الإسلامية وقتذاك ، أو ترغم معاوية على دفع الإتاوه لهم .

وعلى عكس ذلك أشار اليعقوبى إلى أن الامبراطور البيزنطى الذى كان يتلقى الأموال من معاوية قد تغيرت أحواله ، فأرسل الى معاوية يطلب الصلح على أن يدفع لمعاوية أضعاف ما كان يتلاقاه من المسلمين من قبل . فلم يوافق معاوية على طلبه ^(٣) .

ويفسر اليعقوبى أسباب هذا التحول فى موقف البيزنطيين بالإشارة إلى أن الأمور قد استقامت لمعاوية بعد مرور عام واحد على الصلح ، فأصدر معاوية أوامره لأمرء الشام بغزو الأراضى البيزنطية ، " فقام بسر بن أرطأه بغزو أرض الروم عام ٤٣ هـ / ٦٥٣ م " ^(٤)

واكد كل من المنبجى ، وثيوفانىس ، وابن العبرى هذا الأمر فأشاروا فى كتاباتهم إلى أن أهل أرمينية استغلوا حالة الاضطراب التى تعانى منها الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك فرفعوا راية العصيان على البيزنطيين ^(٥) ، وأرسل الحاكم الأرمينى سابور Saborios رسولا يدعى سرجى Sergios إلى معاوية فى أواخر عام ٦٦٧ هـ / أواخر عام ٤٦ هـ ، يطلب منه العون ضد البيزنطيين . فلما علم قنسطنطين ^(٦) ابن الإمبراطور قنسطانز الثانى

(١) Paul Deacon , op . cit . , p. 234 .

(٢) Theophanes , op . cit . , pp. 50 - 51 .

(٣) اليعقوبى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٩٣ .

(٤) اليعقوبى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٥) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٥٨ .

(٦) هو قنسطنطين الرابع الذى كان يتولى إدارة الحكم فى القسطنطينية نيابة عن ابيه الإمبراطور الذى كان وقتذاك فى صقلية .

بذلك ، أرسل رسولا إلى معاوية يدعى أندرو Andrew يطلب عدم تأييد الأرمن في موقفهم ضد البيزنطيين ^(١) . فلما أستمع معاوية إلى طلب الرسول البيزنطي رد عليه قائلا : " إن اعطيتمونا كل خراج بلادكم نبقى لكم اسم المملكة وإلا أزحناكم عنها " ^(٢) . فعاد الرسول البيزنطي دون تحقيق الهدف الذي جاء من أجله ^(٣) .

وتعتبر الرواية التي أوردها كل من المنبجي وثيوفانيس وابن العبري هي الأرجح لأنها تتفق مع أحوال الدولة البيزنطية وقتذاك . وعلى ضوء ماسبق يمكن القول أن رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبي التي تشير إلى أن معاوية قد عقد الصلح مع البيزنطيين عام ٦٥١ م / ٤١ م أو عام ٦٥٢ م / ٤٢ هـ ، لا تستند إلى دعائم قوية ولا تقدم تبريرا كافيا لقيام معاوية بدفع مائه ألف دينار للبيزنطيين في مثل تلك الظروف ولهذا فإن هذه الرواية - في رأينا - مشكوك في صحتها ولا يمكن قبولها في ضوء ما قدمناه من دلائل .

أما عن الرواية الرابعة التي تشير إلى عقد معاهدة بين معاوية بين أبي سفيان وبين الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، فالملاحظ أن المصادر غير العربية هي التي اتفقت على هذا التاريخ ، بالإضافة إلى إشارة كل من المسعودي والتبري التي يمكن اعتبارها تتفق مع ما أورده تلك المصادر رغم أنهما لم يحددا تاريخاً لتلك المعاهدة ^(٤) . ونظراً إلى أنه لم يرد في المصادر المتاحة تاريخاً مغايراً لما جاء في المصادر الغربية ، فإننا نوافق بحذر على ما جاء في هذه الرواية .

وفي ضوء ماسبق ، نستطيع القول أن معاوية بن أبي سفيان قد أبرم ثلاث معاهدات مع البيزنطيين الأولى في عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ، والثانية في عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ ، والثالثة في عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ .

Theophanes , op . cit . , p. 48 .

(١)

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨ م ، ص ١٠٩ .

Theophanes , op . cit . , p. 351 .

(٣)

(٤)

أما عن الرويات التي وردت في المصادر العربية بشأن المعاهدة التي كانت بين الخليفة
الأمرى عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) والإمبراطور البيزنطي
قسطنطين الرابع وابنه الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian 11 (٦٨٥ - ٦٩٥ م / ٦٥ -
٧٥ هـ ، ٧٠٥ - ٧١١ م / ٨٦ - ٩٢ هـ)^(١) فيمكن تقسيمها إلى أربع مجموعات .

المجموعة الأولى : تتضمن رواية المؤرخ المسعودي . إذ أشار إلى أنه في عام ٦٦ هـ /
٦٨٥ - ٦٨٦ م وفي الليلة التي أتى فيها لعبد الملك خبر مقتل قائده عبيد الله بن زياد بن
أبي سفيان ، جاءه أيضا أن الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني (٢) " قد نزل المصيصة (٣)
يريد الشام " ، وعلم في الوقت نفسه أن مصعب بن الزبير قد خرج من المدينة المنورة إلى
فلسطين ، وأن " عبيد دمشق وأوباشها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل " ، وأن السجاء في
دمشق قد قروا من السجن " وخرجوا في مكابره " وأن خيل الأعراب أغارت على حمص
وبعلبك والبقاع . ولكن عبد الملك واجه تلك المصاعب بالتجديد والثبات ، فبعث بأموال وهدايا
إلى الإمبراطور البيزنطي كي يثنيه عن مهاجمة المسلمين في الشام ، كما عقد الهدنة معه .^(٤)
وأهم ما نلاحظه من هذه الرواية ، أن الإمبراطور البيزنطي هاجم المصيصة عام ٦٦ هـ /
٦٨٦ م ، وأن الهدنة التي عقدت بين عبد الملك والبيزنطيين كانت بعد مقتل عبيد الله بن زياد .
كما نلاحظ أن رواية المسعودي لم تشر إلى بنود الصلح مع البيزنطيين ولم تحدد مقدار المال الذي
أرسله عبد الملك إلى الإمبراطور البيزنطي .

وتتفق رواية اليعقوبي مع رواية المسعودي في الإشارة إلى مهاجمة الإمبراطور البيزنطي
للمصيصة ، وأن عبد الملك لم يحاربه " لا اضطراب البلدان ، فصالحه ، وحمل إليه أموالاً كثيرة
حتى عاد إلى بلاده " ^(٥) .

(١) ينقسم عهد الإمبراطور جستنيان إلى فترتين .

(٢) يطلق عليه المسعودي اسم " لاري بن تلقط " .

(٣) المصيصة : ثغر من ثغور الشام ، وتقع بالقرب من مدبته أنطاكية ، وبينها وبين ساحل البحر اثنا عشر

ميلاً . أنظر : الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت ١٩٧٥ م ، ص ٥٥٤ .

(٤) المسعودي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) اليعقوبي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٥ .

كما تتفق أيضا روايه السيوطى مع ما أشار إليه المسعودى فى أن عبد الملك واجه - فى الليله التى قتل فيها عبيد الله بن زياد - خطراً آخر ، عندما " إنتقض ملك الروم " ما كان بينه وبين عبد الملك . (١)

ورغم أن اليحقوقى والسيوطى لم يحددا تاريخ الهجوم البيزنطى ، إلا أن إشاره السيوطى تعتبر على جانب كبير من الأهميه ، وتبين أن هناك معاهده سابقه بين المسلمين والإمبراطور البيزنطى ، إنتقضها الأخير عندما هاجم المصيصة . وهكذا تمثلت هذه المجموعه فيما رواه كل من المسعودى واليحقوى والسيوطى الذين اتفقت رواياتهم فيما يختص بالمهادنة ، وإن اضاف السيوطى أن ثمة هدنة كانت بين الطرفين نقضها الإمبراطور فى السنة المذكوره .

اما المجموعه الثانيه : فتضمن الروايات التى تشير إلى مهاجمة الجراجمه للمناطق القريبه من لبنان . إذ أورد ابن الأثير أنه فى عام ٦٩ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م خرج " قائد من قواد الضواحي " فى جبل اللكام ، وأتبعه خلق كثير من الجراجمه والعبيد وغيرهم ، واتجهوا إلى لبنان ، فلما فرغ عبد الملك من عمرو بن سعيد ، " أرسل إلى هذا الخارج " ألف دينار تدفع كل جمعه ، مما جعل القائد الشائر يركن إلى الهدوء ويكف عن الفساد ، ثم أصدر عبد الملك الأوامر لقائده سحيم بن المهاجر لمواجهه هذا القائد الخارج ومن أعانه من الروم ، ونجح سحيم فى مهمته ، ولجأ إلى الحيله فقتل الخارج وأعوانه . (٢)

ونلاحظ من روايه ابن الأثير أن القائد الشائر من قاده منطقته الثغور الإسلاميه وانه تلقى العون والتأييد من جانب البيزنطيين ، وأن هذا الشائر بدأ يعيث الفساد فى عام ٦٩ هـ / ٦٨٨ - ٦٨٩ م .

وتختلف روايه البلاذرى عما أوردته ابن الأثير ، إذ يشير إلى أن هذه الأحداث كانت فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، وأن " خيل الروم " هى التى خرجت إلى جبل اللكام " وعليها قائد من قوادهم " ، وذلك فى الوقت نفسه الذى كان عبد الملك يستعد فيه للزحف إلى

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين ، القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٣٥١ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣٠٤ .

العراق لمواجهة مصعب بن الزبير . وتتفق الأحداث الباقية من روايه البلاذرى مع ما أورده ابن الأثير بشأن موادة عبد الملك للروم فى جبل لبنان ، ومنحهم ألف دينار كل جمعه بما جعلهم لا يعيشون الفساد . كما تتفق الروايتان فى أن سحيم بم المهاجر قد نجح بالحيلة فى القضاء على هذا الخطر (١) .

وبالنسبة للمجموعة الثالثة : فتنضم الروايات التى تشير إلى مهاجمة البيزنطيين للشام . فيروى كل من الطبرى وابن الأثير ، وابن كثير إلى أنه حدث فى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ أن " ثار الروم واستجاثوا على من بالشام (٢) من المسلمين (٣) ، واستضعفهم لما يرون من الاختلاف بين بنى مروان ، وابن الزبير " (٤) فعقد عبد الملك الصلح مع الإمبراطور البيزنطى (٥) وهادنه (٦) على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه ألف دينار خروفا منه على المسلمين (٧) .

أما البلاذرى فيشير إلى أن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان بعدما صالح الروم الذين هاجموا لبنان عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، أرسل كل من حميد بن حريث بن نجد الكلبى ، وكريب بن ابراهه بن الصباح الحميرى (٨) كرسولين إلى الإمبراطور البيزنطى يحملان الهدايا والألطفات ، وكتاب من عبد الملك يسأل فيه الإمبراطور المواده على أن يدفع إتاؤه وهو " مال

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٠ : أنساب الأشراف ، تحقيق د. إحسان عباس ، ج ٥ ، بيروت ١٩٧٩ ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٣) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٥) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٦) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٧) الطبرى : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

(٨) كان من أشراف مصر ، وأحد القاده فى جيش مروان بن الحكم : البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٥ ،

ص ١٤٩ : الكندى : الولاء وكتاب القضاء ، بيروت ، ١٩٠٨ م ، ص ٤١ .

يؤديه " ، فقبل الإمبراطور البيزنطى الهدايا ، ووافق على " ما بذل له الخليفة الأموى من الإتاوه ، وأرسل رهائن من البيزنطيين إلى عبد الملك ، فأرسلهم الأخير إلى بعلبك (١) .

ونلاحظ مما سبق ، أن هذه الجزئية من رواية البلاذرى تتفق مع رواية كل من الطبرى وابن الأثير وابن كثير فى أن عبد الملك بن مروان صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٧٠ هـ / ٦٩٠ م ، وإن لم يحدد مقدار المال الذى أرسله عبد الملك للإمبراطور ، كما أنه يتفرد عن الروايات السابقة بالإشارة إلى إرسال الإمبراطور البيزنطى رهائن من الروم إلى عبد الملك ضماناً لعدم إنتقاض المعاهدة من جانيه بعد حصوله على أموال الإتاوه .

أما ابن العماد ، فيذكر أن الروم قد ثاروا " وقبوا على المسلمين " لأختلاف كلمتهم ، فصالح عبد الملك الإمبراطور البيزنطى على أن يؤدى له " كل جمعه ألف مثقال من الذهب " ، ويشير ابن العماد إلى أن هذا الصلح يعتبر " أول وهن دخل على المسلمين والأسلام " (٢) . وبهذه الرواية اختلف ابن العماد مع الروايات السابقة فى مقدار المال الذى كان عبد الملك يرسله إلى الإمبراطور البيزنطى كل أسبوع .

أما عن قول ابن العماد بأن الصلح كان أول وهن دخل على الأسلام والمسلمين . فنرى أن هذا الكلام لا تمليه الحكمة وفيه تجاوز كبير ، ويختلف أيضاً مع ما قال به الفقهاء . إذ يشير ابن الحسن الشيبانى إلى قول الأمام أبى حنيفة بأنه " لا بأس بالموادعة بين المسلمين وبين أهل دار الحرب أن لم يكن بالمسلمين قدرة عليهم ، ولا بأس من إعطاء المال إليهم حتى لا يظهروا على نفوس المسلمين " (٣) . وفى ضوء هذا فإن مصالحه عبد الملك للبيزنطيين حسبما أشار مؤرخى تلك المجموعة لا يمثل نوعاً من الوهن ولا يعتبر دليلاً على الدعة وإيثار العاقبه ، كما أن عبد الملك ليس أول من صالح البيزنطيين وهادنهم فقد سبق وأن أشرنا فى الصفحات السابقة إلى قيام معاوية بعقد صلح مع البيزنطيين ودفع لهم أموالاً كثيرة .

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٢) ابن العماد : شرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ ج فى ٤ مجلدات ، بيروت ، دار الأفاق الجديد ، (د . ت) ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٣) الشيبانى : المصدر السابق ، ص ١٦٨٩ ، ١٩٩٢ .

وبالتسمة للمجموعة الرابعة : وتتضمن الروايات التى تشير إلى المفارقات والمراسلات بين عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور البيزنطى جستنيان الثانى . فيروى محمد بن سعد أن " صاحب الروم " كتب إلى عبد الملك يهدده بأنه قد جمع له جموعاً كثيرة ، فكتب إليه عبد الملك يقول : " أولا تدوى أن لله فى كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة فى كل لحظة ثلاثمائة وستون قضيه . فلعله يكتبك فى قضيه من قضاياه " (١) .

أما ابن قتيبة فيشير إلى أنه عندما انشغل عبد الملك بمحاربة مصعب بن الزبير أجمع " وجوه الروم " وأشاروا على الإمبراطور بغزو الأراضى الإسلامية بعد أن واثمهم الفرصه بأنشغال المسلمين بعضهم ببعض فتهاهم الإمبراطور عن ذلك ، وبين لهم أن المسلمين فى رقت الخطر يمكن أن يطرحوا نزاعهم جانباً ، ويتحدون لمواجهه الأخطار (٢) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد رواية تنشابه مع رواية ابن سعد فى أن الإمبراطور البيزنطى كتب إلى عبد الملك بن مروان يهدده بأنه سرف يغزوه بمائه الف من الجنود . فكتب إليه عبد الملك رساله تنفق فى دلالتها (٣) مع اشار إليه ابن سعد .

كما أورد المسعودى رواية تتفق مع الروايات السابقة بشأن مكاتبة عبد الملك للإمبراطور البيزنطى ، ولكنه ينفرد بالإشارة إلى أن الرسل الذين أرسلهم معاويه إلى الإمبراطور البيزنطى، كانوا لا يكتفون فتره طويلة فى العاصمة البيزنطية فيما عدا رسولاً واحداً (٤) .

تلك كانت أهم الروايات التى تضمنتها المصادر العربيه بشأن المعاهده بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطى ، وأهم ما نلحظه من هذه الروايات العربيه أنها حددت تاريخ هذه المعاهده فى الفتره ما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠ م .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٨ ج ، بيروت ١٩٥٧ - ١٩٨٠ ، ج ٥ ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) ابن قتيبة : عيين الأخبار ، ٢ ج ، القاهرة ١٩٢٥ م ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٦ ج + فهرس ، بيروت ١٩٥٣ - ٢٩٦٢ م ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٤) المسعودى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

اما عن المصادر البيزنطية ، فيشير المؤرخ ثيوفانيس إلى عقد معاهدة بين عبد الملك والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع في الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام ٦٨٤ م / ١٤ المحرم عام ٦٥ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٥ هـ / ٢٤ المحرم ٦٦ هـ ويقول : " في الوقت نفسه الذي تنفش فيه الوباء ، وعمت المجاعة في الشام ، ووصل فيه الوباء إلى عنفوانه وقمة فتكه ، قام المردة بمهاجمة لبنان " عندئذ أرسل عبد الملك سفاره إلى الإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع يطلب منه تجديد المعاهدة التي سبق أن عقدها مع معاوية ^(١) على أن يدفع عبد الملك للبيزنطيين ثلاثمائة وخمسة وستين ألف نوميسماتا ، ويرسل إليهم ثلاثمائة وخمسة وستين حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح ثلاثمائة وخمسة وستين أسيراً من البيزنطيين ^(٢) .

ويتفق ما أورده كل من ليوجراماتيكيوس ^(٣) ، وموناخوس هموتولس من بنود هذه المعاهدة مع رواية ثيوفانيس ، على الرغم من أنهما لم يحددأ تاريخ هذه المعاهدة . ويشير موناخوس إلى أن أمد هذه المعاهدة كان عشر سنوات ، وأن الإمبراطور البيزنطي تعهد بإيقاف هجمات المردة على الأراضي الإسلامية ^(٤) .

ويشير جوزيف جنزيوس إلى أن هذه المعاهدة كانت في السابع من يوليو عام ٦٨٥ م / الثامن والعشرين من ذي القعدة عام ٦٥ هـ ، وأن أمد هذه المعاهدة كان ثلاث سنوات ^(٥) .

اما عن المعاهدة الثانية ، فيشير ثيوفانيس إلى أنها كانت في الفترة من أول سبتمبر عام ٦٨٦ م / ٥ صفر عام ٦٧ هـ وحتى ٣١ أغسطس عام ٦٨٧ م / ١٥ صفر عام ٦٨ هـ ، عندما أرسل عبد الملك بن مروان سفاره إلى الإمبراطور جستنيان الثاني لعقد اتفاقية سلام بينهما تنحصر بنودها في أن يقوم الإمبراطور البيزنطي بترحيل قوات المردة من لبنان بعد إيقاف هجماتهم ، وفي مقابل ذلك يدفع عبد الملك للبيزنطيين كل يوم ألف نوميسماتا ويرسل

(١) انظر ما سبق ، ص ٤

(٢) Theophanes , op. cit ., p. 59 .

(٣) Leo Grammaticus , op. cit ., p. 162 .

(٤) Hamartolus , op . cit . col . 898 .

(٥) Genesis , op . cit ., col . 31 .

لهم حصاناً أصيلاً كل يوم ، ويطلق سراح أسير واحد منهم كل يوم أيضاً . كما يقوم الجانبان
الأسلامى والبيزنطى بأقتسام الضرائب التى تجبى من قبرص وأرمينية وأيبيريا ^(١) .

وبعد أن أستمع الإمبراطور لعرض السفاره الإسلاميه ، ووافق عليه ، أرسل مندوباً
يدعى بولس Poul إلى عبد الملك لتدوين بنود معاهدة السلام بينهما وتذيلها بشهادة الشهود .
وعاد المندوب الإمبراطورى بعد أن أستقبل وودع بكثير من الخفاوة والتكريم ^(٢) .

ويتفق المؤرخان كدريئوس وزوناراس مع ما أوردته ثيوفانيس بشأن بنود هذه المعاهدة ،
ولكنهما يختلفان معه فى تحديد تاريخها ، فيشيران إلى انها كانت فى السنة الأولى من حكم
الإمبراطور جستنيان ^(٣) أى فى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ .

أما المؤرخان ليوجراماتيكيوس وموناخوس همرتولس فيشيران إلى أن الإمبراطور
جستنيان الثانى هو الذى أرسل وفداً إلى عبد الملك بن مروان لتأكيد اتفاقية السلام التى
عقدت مع أبيه الإمبراطور قنستنتين الرابع ^(٤) .

واكتفى المؤرخ نقفور بالإشارة إلى أن جستنيان الثانى قد نقض فى عام ٦٨٨ م / ٦٨-
٦٩ هـ " المعاهدة التى عقدها والده مع العرب " ^(٥) .

(١) أيبيريا : مملكة مسيحية تقع فى منطقه جبال القوقاز بين البحرين الأسود وقرون .

أنظر : وسام عبد العزيز قرچ : العلاقات بين الإمبراطور البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن
الثامن الميلادى ، الاسكندرية ١٩٨١ ، ص ٤٢ ، ح (٣) .

(٢) Theophanes , op . cit . , p. 61 .

ويلاحظ حرص عبد الملك على أن يجرى دفع هذه الإتاوة مجزأة وعلى مدى الأيام ضماناً لاستمرار
سريانها فى المدة المتفق عليها خوف من أن ينتقضها الإمبراطور إذا حصل على الإتاوة دفعة واحدة
وقبل انقضاء امد الهدنة .

(٣) Cedrenus , op . cit . , col . 642 ; Zonaras , op . cit . , p. 321 .

(٤) Leo Grammaticus , op . cit . , p. /163 ; Hamartolus , op . cit . , col . 898

(٥) Nicephrus , op . cit . , col . 936 .

ويتفق المؤرخ جوزيف جنزبوس مع المؤرخ نففور في أن هذه المعاهدة كانت في عام ٦٨٨ م / ٦٨ - ٦٩ هـ ، وتشير إلى أن أمدها كان عشر سنوات ، ثم يبدي تردده فيما يتعلق بالبنود الخاصة بالمال والجياد والأسرى ويقول كانت : تدفع كل يوم ، وقيل كل اسبوع " (١)

وفي ضوء ما سبق يتضح أن هناك شبه اتفاق بين المصادر البيزنطية في تحديد تاريخ اتفاقية السلام بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ . بينما اختلفت روايات المصادر البيزنطية في تحديد تاريخ المعاهدة التي عقدت بين العاهل الأموي (عبد الملك) والعاهل البيزنطي (جستنيان الثاني) ، وجعلته ينحصر في الفترة ما بين عامي ٦٨٥ - ٦٨٨ م / ٦٥ - ٦٩ هـ .

أما عن المصادر السريانية فتتفق رواية ميخائيل السرياني مع الروايات البيزنطية التي تحدد المعاهدة الأولى بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، ويرى أن أمدها كان عشر سنوات كما تتفق أيضا مع تلك الروايات في تحديد عام ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ تاريخا للمعاهدة بين عبد الملك والإمبراطور جستنيان الثاني ، وتشير إلى أن أمد هذه المعاهدة كان أيضا عشر سنوات . وتتفق البنود التي أوردها ميخائيل السرياني للمعاهدة الثانية مع ما أورده ثيوفانيس (٢) .

أما ابن العبري فينفرد بالإشارة إلى أن الإمبراطور " يوستنيانوس " (٣) استجاش على من بالشام من المسلمين " عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م ، فصالحه عبد الملك على أن يؤدي إليه كل جمعة ألف دينار ، " وقيل كل يوم ألف دينار وقرناً وعلوكا " (٤) .

ومن المصادر اللاتينية ، يشير بولس الشماس Paul the Deacon إلى أن الإمبراطور جستنيان الثاني عقد اتفاقية سلام مع المسلمين " تشمل البر والبحر " (٥) . ولم يحدد بولس

(١) Genesius , op . cit . , col . 31 .

(٢) Michel le Syrien , op . cit . , Vol . 11 , p. 469 .

(٣) المقصود جستنيان الثاني .

(٤) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٥) Paul the Deacon , op . cit . , pp. 258 - 259 .

الشماس تاريخ وينود تلك الاتفاقية .

اما المنبجى ، فيشير إشاره عابره إلى المعاهدة بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع فى العام الذى تفشى فيه الوباء ، ويقول : " وفيه صالح عبد الملك الروم " . كما يتفق المنبجى مع ميخائيل السريانى على أن أمد المعاهدة بين عبد الملك وجستينيان الثانى كان عشر سنوات ، وعلى الرغم من أنه لم يحدد تاريخاً لتلك المعاهدة ، واكتفى بالإشارة إلى أنها كانت فى عهد الإمبراطور جستينيان إلا أن البنود التى أوردها لهذه المعاهدة تتفق مع ما أورده ثيوفانيس ، ولكنه يتفرد بالإشارة إلى أن هذه البنود ألزمت الإمبراطور " أن يخرج الروم فى جبل لبنان ويردهم إلى بلد الروم " ، وعلى هذا فإن المنبجى يعتبر الجراجمة فى لبنان من الروم . كما أنه يكتفى بالإشارة إلى أقتسام المسلمين والبيزنطيين جزيره قبرص ^(١) ، ولم يقرن بهذا الإقتسام كل من أرمينية وأيبيريا حسبما أشارت بعض المصادر البيزنطيه .

أما المؤرخ الأرمينى جيوفوند Ghevond فيشير إلى أن أقتسام أرمينية كان من بين بنود المعاهدة بين عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور جستينيان الثانى عام ٦٨٩ م / ٦٨ - ٦٩ هـ ^(٢)

وفى ضوء العرض السابق للرويات العربية وغير العربية عن المعاهدات بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد عبد الملك بن مروان نلاحظ أن الروايات العربية حددت تاريخ هذه المعاهدات فيما بين عامى ٦٦ - ٧٠ هـ / ٦٨٥ - ٦٩٠ م ، كما حددتها الروايات غير العربية فى الفتره نفسها . كما نلاحظ أن الروايات غير العربية أشارت إلى أن عبد الملك عقد معاهدتين مع البيزنطيين : الأولى عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، والثانية فيما بين عامى ٦٩٠ - ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، بينما تعددت الروايات العربية فى هذا الشأن .

وإذا أنتقلنا من التعميم إلى التخصيص ، فى محاوله لمقارنة هذه الروايات بعضها ببعض ، نجد أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطيه ^(٣) ، وروايه المجموعه الأولى من المؤرخين

(١) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢) Ghevond , Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en Armenie , Tr . G.V. Chahnazarian Paris , 1856 , pp. 65 - 97 .

(٣) انظر ما سبق ص ١٧ - ١٨ .

المسلمين ^(١) بشأن المعاهدة الأولى التى عقدت بين الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، والإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع فى ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ هـ ، على الرغم من أن المصادر البيزنطية قد أغفلت الإشارة إلى أن الإمبراطور قنسطنطين الرابع قد هاجم المصيصة . كما يمكن أن تفسر إشارة السيوطى بأن الإمبراطور قد انتقض ما كان بينه وبين عبد الملك بالهجوم على المصيصة ، بأن المؤرخ السيوطى كان يعنى بهذه الإشارة المعاهدة التى سبق أن عقدها معاوية مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م / ٥٨ هـ ، والتى كان أمدها ثلاثين عاماً ، وعلى ذلك كانت المعاهدة سارية فى عهد عبد الملك بن مروان ، وإنقضها الإمبراطور قنسطنطين الرابع عندما هاجم المصيصة . فاضطر عبد الملك إلى عقد المعاهدة معه ليتفرغ لمواجهه ابن الزبير .

ويشير ثيوفانىس إلى أن المعاهدة التى عقدت بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع كانت بمثابة تجديدٍ للمعاهدة التى سبق أن عقدها الأخير مع معاوية وبالبندود نفسها . ولكن إذا أمعنا النظر فى بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك - حسبما أوردتها المصادر البيزنطية ^(٢) - نجد أن الاختلاف واضح للغاية بين بنود المعاهدين ^(٣) . مما يجعلنا نستنتج أن عبد الملك عقد مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع معاهدة أخرى ، ولها بنود مختلفة عن معاهدة معاوية مع البيزنطيين .

أما عن تاريخ هذه المعاهدة ، فتتفق روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية على أنه كان بعد مقتل عبيد الله بن زياد ^(٤) ، وكان مقتل ابن زياد حسبما اشار خليفه بن خياط فى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ - ٦٨٦ هـ ^(٥) ، ويرى ثيوفانىس أنها كانت فيما بين عامى ٦٨٤ -

(١) انظر ما سبق ص ١٢ - ١٣ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٣) عن المعاهدة بين معاوية والإمبراطور قنسطنطين الرابع انظر ما سبق ص ٤ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٥) خليفه بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

٦٨٥ م ^(١) / ٦٥ - ٦٦ هـ ، ويشير جنزيوس إلى انها فى ٧ يوليو عام ٦٨٥ ^(٢) / ٢٨ ذى القعدة عام ٦٥ هـ ، وعلى هذا تكون بدايه الفتره التى حددها ثيوفانىس ، والتاريخ الذى أورده جنزيوس قبل مقتل ابن زياد ، وليس بعده حسبما أشارت المصادر الأسلاميه . ويجب أن نلاحظ أيضا أن هذه المعاهدة كانت بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور قسطنطين الرابع كما أشارت إلى ذلك الرواية البيزنطية ، ومن المسلم به أن يكون عقد هذه المعاهدة بعد تولى عبد الملك الحكم فى رمضان عام ٦٥ هـ . أبريل عام ٦٨٥ ^(٣) ، وقبل وفاه الإمبراطور قسطنطين الرابع فى سبتمبر عام ٦٨٥ م / صفر عام ٦٦ هـ ^(٤) وعلى هذا يمكن القول أن تاريخ هذه المعاهدة كان فى الفتره بين أبريل وسبتمبر ٦٨٥ م / (رمضان عام ٦٥ - صفر عام ٦٦ هـ) ولما كان هذا التحديد يتفق مع التاريخ الذى اشارت إليه روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية . نرى أن الروايتين البيزنطية والعربية قد إتفقتا حول تاريخ هذه المعاهدة . أما عن أسباب هذه المعاهدة ونشورها ، والشخصية التى عقد معها عبد الملك هذه الاتفاقية وأمدتها ، فنلاحظ :

أولاً : فيما يتعلق بأسباب هذه المعاهدة اتفقت المصادر البيزنطية على أن هجوم المردة على لبنان كان من أهم الأسباب التى دفعت عبد الملك إلى عقد هذه الهدنة مع الإمبراطور قسطنطين ^(٥) بينما تشير رواية المجموعة الأولى ^(٦) من المصادر العربية إلى أن هجوم الإمبراطور على المصيصة كان هو الدافع لعقد المعاهدة . واتفقت روايه المجموعة الثانية من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية فى أن هجوم الجراجمه على لبنان هو الذى دفع عبد الملك إلى مصالحتهم .

(١) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ١٧ .

(٣) خليفة بن خياط : المصدر السابق ، ص ٢٦١ .

(٤) Hamartolus , op . cit . , Col . 898 .

(٥) انظر ما سبق ص ، ١٧ .

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٣ .

ثانيا : أوجزت المصادر البيزنطية بنود هذه المعاهدة ، إذ تعهد الإمبراطور البيزنطى بإيقاف هجمات المردة على لبنان ، وهى إشارة واضحة إلى أن الإمبراطور كان هو المحرض على تلك الهجمات . مقابل أن يدفع عبد الملك ثلاثمائة وخمسة وستين ألف نوميسماتا ، ويرسل ثلاثمائة وخمسة وستين حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح ثلاثمائة وخمسة وستين أسيراً بيزنطياً كل عام . وهكذا إذا جرى تقسيم ماتعهد بإرساله عبد الملك على أيام الستة لكان الناتج ألف نوميسماتا ، وحصانا ، وأسيراً كل يوم .

وإذا أمعنا النظر فى هذا الناتج ، نجد أنه يتفق مع ما جاء فى البنود التى أشارت إليها بعض المصادر البيزنطية عندما تحدثت عن المعاهدة التى عقدها فيما بعد عبد الملك بن مروان مع جستنيان الثانى ^(١) ، وهذا يعنى بعبارة واضحة أن المصادر البيزنطية أشارت إلى البنود نفسها فى المعاهدتين ، فأشارت إلى أنها تدفع كل عام فى المعاهدة الأولى ، وكل يوم فى المعاهدة الثانية .

وفى الوقت نفسه نجد هذا التكرار فى روايات المصادر العربية . فتشير روايه المجموعة الثانية إلى أن عبد الملك صالح الجراجمة فيما بين عامى ٦٩ - ٧٠ هـ / ٦٨٨ - ٦٩٠ م على أن يدفع لهم كل جمعه ألف دينار ^(٢) ، وفى الوقت نفسه تشير رواية المجموعة الثالثة من المصادر العربية إلى أن عبد الملك صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٧٠ هـ / ٦٨٩ - ٦٩٠ م على أن يدفع للبيزنطيين فى كل جمعه ألف دينار ^(٣) .

هذا التكرار هو الذى جعل كل من جنزبوس وابن العبرى يتأرجحان فى الإشارة إلى هذه البنود ، فذكرا أنها تدفع " كل يوم أو كل جمعه " ^(٤) .

(١) أنظر ما سبق ، ص ١٧ - ١٨ .

(٢) أنظر ما سبق ، ص ١٣ .

(٣) أنظر ما سبق ، ١٤ .

(٤) المنبجى : المصدر السابق ، ص ٧٨ .

ولقد حسم المنبجى الاختلاف بين الرواية العربية ، والرواية البيزنطية عندما أشار إلى أن بنود المعاهدة التى عقدها عبد الملك مع جستنيان الثانى كانت " تدفع كل يوم عوضا عن إخراج الروم الذين كانوا فى جبل لبنان " (١) .

ونفيل إلى ترجيح رواية المنبجى ، لأن إجلاء الجراجمه من المناطق التى عاشوا فيها فتره طويله (٢) ، ونقلهم بكل أمتعتهم إلى مناطق أخرى كان يحتاج إلى أموال كثيره تعهد بدفعها عبد الملك حتى يكسر شوكتهم ، ويهدم هذا السور النحاسى ، حسبما أشار المؤرخ ثيوفانىس (٣) .

وفى ضوء ما سبق نرى أن رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية هى أقرب إلى الحقيقة ، وهى التى أشارت إلى أن ما تعهد به عبد الملك طبقا لشروط المعاهدة التى عقدها مع البيزنطيين - عام ٦٥٨ م / ٦٦ هـ - كانت تدفع كل جمعه .

ونرجع أيضا أن هذه البند كانت تنص على أن يدفع الف دينار رومى للبيزنطيين ، ويرسل حصانا أصيلاً لهم ، ويطلق سراح أسير واحد من البيزنطيين .

ثالثاً : تتفق روايه المجموعة الأولى من المصادر العربية مع الرواية البيزنطية فى أن عبد الملك قد صالح الإمبراطور البيزنطى عام ٦٦ هـ / ٦٨٥ هـ . فى الوقت الذى اشارت فيه رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية إلى أن الصلح كان مع الروم والجراجمه فى لبنان ، ولا يمثل ذلك أختلافا جوهرياً مع رواية المجموعة الأولى طالما أن الإمبراطور هو المحرض الأساسى للروم والجراجمه فى لبنان كما سبق أن أشرنا .

رابعاً : لم تشر المصادر العربية إلى أمد المعاهدة التى عقدها عبد الملك مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٧٦ هـ . بينما أشار المؤرخ جنزبوس إلى أن أمدها كان ثلاث

(١) البلاذرى : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

Theophanes , op . cit . , p . 62 .

(٢)

سنوات ^(١) ، ويرى المؤرخ ميخائيل السرياني ^(٢) أنها كانت لمدة عشر سنوات . ولا نرى أن هذا يمثل اختلافا كبيرا أيضا ، فرمما كان أمد المعاهدة عشر سنوات ولكن الإمبراطور نقضها بعد مرور ثلاث سنوات من توقيعها .

وهكذا ، يمكن القول أن ثمة تشابه بين الرواية البيزنطية وكل من روايه المجموعة الأولى والمجموعة الثانية من المصادر العربية بشأن المعاهدة التي عقدت بين عبد الملك بن مروان والإمبراطور البيزنطي قنسطنطين الرابع عام ٦٨٥ م / ٦٦ هـ .

أما عن المعاهدة التي عقدها عبد الملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثاني ، فقد اختلفت الروايات حول تاريخها ، فيشير كل من كدريوس وزوناراس إلى أنها كانت في عام ٦٨٥ م / ٦٥ - ٦٦ ، ويذكر ثيوفانيس أنها كانت فيما بين عامي ٦٨٦ - ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ ، ويرى ميخائيل السرياني أنها عقدت في عام ٦٨٧ م / ٦٧ - ٦٨ هـ ، بينما أشار كل من جتريوس وثقفور إلى أنها كانت في عام ٦٨٨ م / ٦٨ - ٦٩ هـ ، ويرى جيوفوند أنها في عام ٦٨٩ م / ٦٩ - ٧٠ هـ ، ويشير كل من البلاذري ، والطبري ، وابن الأثير ، وابن العبري إلى أنها جرت في عام ٧٠ هـ / ٦٨٠ - ٦٩٠ م ، أما ليو جراماتيكيوس وموناخوس ويولس الشماس والمنبجي فقد أشاروا إلى هذه المعاهدة دون تحديد تاريخ لها .

ويمكن أن نستبعد رأي كل من كدريوس وزوناراس لأنهما يتفقان مع تاريخ المعاهدة التي سبقت الإشارة إليها بين عبد الملك والإمبراطور قنسطنطين الرابع . ونلاحظ من روايه ثيوفانيس أن الاتفاق النهائي وبدايه تنفيذ المعاهدة كان في العام التالي لأرسال عبد الملك الرسل إلى الإمبراطور البيزنطي للتشاور على عقد أتفاقيه السلام بينهما ^(٣) . ونلاحظ أيضا أن هناك تشابه بين الروايه الأرمينية لجيوفوند ، والسريانية لابن العبري ، والعربية للبلاذري ، والطبري ،

Genesis , op . cit . , Col . 31 .

(١)

Michel le Syrien , op . cit . , Vol . 11 , p. 469 .

(٢)

Theophanes , op . cit . , pp. 61 - 62 .

(٣)

وابن الاثير فى تحديد عام ٦٨٩ م / ٧٠ هـ وإذا اعتبرنا أن هذا العام يمثل تاريخ الاتفاق
النهائى على هذه المعاهده ، فيكون العام السابق - حسبما أشار ثيوفانىس - هو العام الذى
بدأ فيه الرسل فى التفاوض بشأن المعاهده ، ونضم بالتالى رأى كل من جتزيوس ونقفور إلى
اتفاق هؤلاء المؤرخين .

وعلى هذا يمكن القول أن عبد الملك بن مروان أرسل سفاره إلى الإمبراطور البيزنطى
جستينيان الثانى للتفاوض على عقد الصلح بينهما فى أواخر عام ٦٨٨ م / أوائل عام ٦٩ هـ ،
وأن الجانبين تبادلأ أرسلال السفراء ، وأستمرت المفاوضات إلى أن تم توقيع المعاهده بينهما فى
منتصف ٦٨٩ م / أوائل عام ٧٠ هـ .

أما عن يئرد تلك المعاهده ، وحسبما اتفقت المصادر غير العربيه ، فتتخصر فى أن يدفع
عبد الملك للبيزنطيين الف دينار رومى ، ويرسل إليهم حصانا أصيلاً ، ويطلق سراح أسير منهم
كل يوم ، ويقتسم الجانبان الأسلامى والبيزنطى الضرائب التى تجبى من قبرص وأرمينية
وأيبيريا ، على أن يقوم الإمبراطور البيزنطى بترحيل الجراجمه من الشام إلى الأراضى
البيزنطيه ، وأن يكون أمد هذه المعاهده عشر سنوات .

ونستتج من العرض السابق ، أن المسلمين عقدوا مع البيزنطيين خمس معاهدات سلام
فى النصف الثانى من القرن السابع الميلادى / الثلث الثانى من القرن الأول الهجرى ، عقد
معاويه منها ثلاث معاهدات : الأولى مع الإمبراطور قنسطانز الثانى عام ٦٥١ م / ٣١ هـ ،
وكان معاويه والياً على الشام حينذاك ، والثانية مع الإمبراطور نفسه فى عام ٦٥٦ م / ٣٦ هـ
إثناء النزاع على بن ابي طالب ، والثالثة مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع فى عام ٦٧٨ م /
٥٨ هـ ، بعد أن صارت له الخلافه . أما عبد الملك بن مروان فقد عقد معاهدتين مع البيزنطيين
الأولى عام ٦٨٥ م / ٦٦ هـ مع الإمبراطور قنسطنطين الرابع ، والثانية عام ٦٨٩ م / ٧٠ هـ
مع الإمبراطور جستينيان الثانى .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً ، المصادر العربية والمعرّبة

ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) عز الدين ابو الحسن على بن ابي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني :

" الكامل فى التاريخ " ج ٩ ، بيروت ١٩٧٩ م .

ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ - ٨٤٥ م) محمد بن سعد بن منيع الزهرى كاتب الواقدي :

" الطبقات الكبرى " ج ٨ ، بيروت ١٩٥٧ م .

ابن سلام (ت ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ - ٨٣٩ م) ابو عبيد القاسم :

" الأموال " مصر (د . ت) .

ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ - ١٣١١ م) محمد بن على بن طباطبایا :

" الفخرى فى الآداب السلطانية " مصر (د . ت) .

ابن العبري (ت ٦٨٥ م / ١٢٨٦ م) ابو الفرج غريغوريوس بن أهرون الطيب :

" تاريخ مختصر الدول " بيروت (د . ت) .

ابن العماد (ت ١٠٨٩ / ١٦٧٩ م) ابو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد :

" شذرات الذهب فى أخبار من ذهب " ج ٨ ، بيروت (د . ت) .

ابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م) ابو عمر أحمد بن محمد القرطبي الأندلسي :

" العقد الفريد " ج ١٦ + فهرس ، بيروت ١٩٥٣ - ١٩٦٢ .

ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) ابو محمد بن عبد الله بن مسلم

" الأمامه والسياسة ٢ (فى مجلد احد) ، مصر ١٩٠٤ م .

" عيون الأخبار " ج ٢ ، القاهرة ١٩٢٥ .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين ابو الفد اسماعيل بن عمر :

" البداية والنهاية " ١٣ ج ، بيروت ١٩٧٤ م .

البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) ابو الحسن احمد بن ربيع بن جابر البغدادي :

" أنساب الأشراف " تحقيق د . أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩ م

" فتوح البلدان " ليدن ١٨٦٦ م .

الحميري (ت أواخر القرن التاسع الهجري / أو آخر القرن الخامس عشر الميلادي) ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم :

" كتاب الروض المطار في خير الأقطار " تحقيق د . أحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ م .

خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م) ابو عمرو خليفة بن خياط بن ابي هبيرة العصفري :

" تاريخ خليفة بن خياط " تحقيق د . أكرم ضياء العمري ، الرياض ١٩٨٥ م .

الدينوري (ت ٨٨٢ هـ / ١٨٩٥ م) ابو حنيفة احمد بن داود :

" كتاب الأخبار الطوال " بغداد ١٩٥٩ م .

السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر :

" تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين " تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٥ م .

الشيباني (ت ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٠٩٧ م) محمد بن الحسن الشيباني :

" شرح كتاب السير الكبير " تحقيق عبد العزيز احمد ، القاهرة ١٩٧٢ م .

الطبري (ت ٢١٠ هـ / ٩٢٢ م) ابو جعفر محمد بن جرير :

" تاريخ الأمم والملوك " ١٠ ج ، بيروت ١٩٧٩ م .

الكندي (ت ٣٥٠ م / ٩٦١ م) ابو عمر محمد بن يوسف المصري :

" كتاب الولاة وكتاب القضاة " بيروت ١٩٠٨ م .

المسعودى (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م) ابى الحسن على بن الحسين بن على :

" مروج الذهب ومعادن الجوهر " ٤ ج ، بيروت ١٩٨٣ م .

المنبجى (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أغابىوس بن قسطنطين

المنبجى :

" المنتخب من تاريخ المنبجى " انتخبه وحققه أ . د عمر عبد السلام تدمرى ، بيروت

١٩٨٦ م .

النويرى (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب :

" نهاية الأرب فى فنون الأدب " ٢٧ ج ، القاهرة ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م .

اليعقوبى (ت بعد عام ٢٩٢ هـ / بعد عام ٩٠٤ م) أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن

وهب الكاتب لمعروف بابن واضح الكاتب :

" تاريخ اليعقوبى " ٣ ج ، النجف ١٣٥٨ هـ .

ثانياً ، المصادر الأجنبية

Cedrenus , G., Historiarum Compendium , Ed . Migne Patrologia
Graeca , Tome Cxx1 - Cxx11, Paris 1964 - 1894 .

Genesisius , J. Historia De Rebus Constantinopolitanis , Ed. Migne
Patrologia Graeca , Tome Clx , Paris , 1963 .

Georgius Monachus Hamartolus , Chronicon , Ed.Migne Patrologia
Graeca , Tome Cx , Paris , 1863 .

Ghevond , Histoire des Guerres et des Conquetes des Arabes en
Armenie , Tr. G.V. Chahnazarian , Paris , 1856 .

Leo Grammaticus , Chronographia ; Ed . Corpus Scriptorum
Historiae Byzantinae , Bonn , 1892 .

Michel le Syrien , Chronique , Textes Syriaque et Trad . Fr . Par
Chabot , 4vols , Paris , 1899 .

Nicephrus Patriarchae , Breviarum Historicum , Ed . Migne
Patrologia Graeca , Tome C, Paris , 1860 .

Paul the Deacon , History of the Lombards , Tr . By , W.D. Faulke ,
Philadelphia , 1907 .

Sebeos , Histoire d'Heraclius , Trad . F. par, F. Macler, Paris , 1904 .

Theophanes , The Chronicle of Theophanes , (A.D. 602 - 813) Tr. by,
H. Turthedove, U.S.A., Pennsylvania , 1982 .

Zonaras , J., Epitome Historiarum , Ed . M.Pender, 3 Vols , Bonn ,
1841 - 1892 .

ثالثاً ، المراجع العربية

فتحي عثمان (دكتور) :

" الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى " ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٦ .

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

" التاريخ السياسى للدولة العربية " ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٩ م

محمود سعيد عمران (دكتور) :

" ادارة الإمبراطورية البيزنطية " بيروت ، ١٩٨٠ م .

وسام عبد العزيز نرج (دكتور) :

" العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن السابع الميلادى " الاسكندرية ، ١٩٨١ م .

رابعاً ، المراجع الأجنبية

Lot, F. L'art Militaire et les Armees , Paris , 1946 .

Ostrogorsky , G., History of the Byzantin State , Tr., J.Hussey ,
Oxford , 1956 .

Vasiliev , A.A., History of the Byzantine Empire (324 - 1453) ,
2 Vols , Madisom , 1958 - 196 .

1

10

1

1

1

1

1

التاريخ السياسى
لقلعة رباح ودورها فى حوادث
الصراع بين المسلمين والنصارى

دكتور

حمدى عبد المنعم محمد حسين
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

يتناول موضوع البحث دراسة للتاريخ السياسى لقلعة رباح (بالأسبانية calatrava)^(١) ودورها فى حوادث الصراع بين المسلمين والنصارى فى الأندلس. والواقع أن الذى دفعنى إلى اختيار هذا الموضوع هو أحساسى بأهمية الدور الذى لعبته هذه القلعة على مسرح الأحداث السياسية فى الأندلس لاسيما خلال عصرى المرابطين والموحدين، إذ كانت محورا للصراع بين القوى الإسلامية والقوى الصليبية من جهة فضلا عن قلة ما كتب فى هذا الموضوع الأمر الذى شجعتنى على اختياره والبحث فيه عسائى ان اتوصل الى حقائق جديدة تلقى الضوء على جانب من أهم جوانب الصراع بين المسلمين والنصارى وهو الحروب الصليبية فى الأندلس.

(١) التاريخ السياسى لقلعة رباح من الفتح الإسلامى الى نهاية العصر الأموى.

تقع قلعة رباح على ضفة وادى آنة شمال مدينة قرطبة. (Cordoba) وجنوب مدينة طليطلة (Toledo)^(٢) وهى مسماة على الأغلب باسم التابعى

(١) قلعة رباح Calatrava هى التى يقوم فى مكانها الآن حصن يعرف باسم قلعة رباح القديمة Castillo de Calatrava la Vieja إذ أن هناك إلى جوارها مدينة أخرى تعرف باسم قلعة رباح الجديدة la nueva وكانت قلعة رباح تتبع فى العصر الإسلامى مدينة جيان إلا أنها تتبع الآن المدينة المستحدثة المعروفة باسم المدينة الملكية Ciudad real فى إقليم لامانشا La Mancha وقلعة رباح القديمة تبعد اليوم عن هذه المدينة باثنى عشر كم إلى الشمال منها.

راجع:

The Encyclopedia of islam, vol, 11, Holland 1927, p. 846 - 847.

(٢) الإدريسى (الشريف ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز): صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس. مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الأفاق، تحقيق دنى غوية ودوزى، لندن ١٨٦٤م، ص ١٨٦، ١٨٧ ابن غالب (الحافظ محمد بن ايوب الأندلسى): قطعة من كتاب "فرحة الانفس فى تاريخ الأندلس"==

على بن رباح اللخمي^(١) الذي اشترك في فتح الأندلس. وكانت قلعة رباح من أهم المراكز الحربية التي تتوجه منها الحملات العسكرية الأموية الى مدينة طليطلة، وقد جاء ذكرها لأول مره في المصادر التاريخية الأندلسية في حوادث عام ٢١٩هـ (٨٣٤م) عندما أرسل الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) جيشا بقيادة أخيه أميره بن الحكم صوب مدينة طليطلة^(٢) فحاصرها، وقطع أشجارها وأهلك زروعها ولكن أهلها لم يذعنوا للطاعة، فاضطر أمية بن الحكم الى رفع الحصار عنها وأبقى بقلعة رباح بعض قواته بقيادة ميسرة الفتى للاستمرار في مضايقة أهل طليطلة،

== تحقيق د. لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، نوفمبر ١٩٥٥م، ص ٢٨٩، الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجى، الروض المعطار فى خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٠ ص ٤٦٩.

(١) عن على بن رباح اللخمي ودوره فى فتوحات الأندلس وكيف ارسله موسى بن نصير مع مغيث الرومى الى دمشق لابلاغ الخليفة الوليد بن عبد الملك أخبار الفتوحات. راجع المقرئ (احمد بن محمد التلمسانى). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد فى عشرة أجزاء، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٤٩م، ج ١، ص ٢٦٠ ج ٤، ص ٧، مؤنس (د. حسين)، فجر الأندلس، دراسة فى تاريخ الأندلس من الفتح الاسلامى الى قيام الدولة الاموية، الطبعة الاولى، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٨٩، ٩٩

(٢) كانت مدينة طليطلة قد عادت للثورة فى عهد الامير عبد الرحمن بن الحكم فى عام ٢١٤هـ (٨٢٩م) اندلعت الثورة بها وتزعّمها هاشم الملقب بالضراب، فسير اليه الأمير عبد الرحمن الأوسط جيشا بقيادة محمد بن رستم عامله على الثغر الأدنى الأندلسى، الا أن محمد بن رستم فشل فى إخماد ثورة الضراب، بل إمتد نفوذه حتى هدد الثغر الأدنى كله. مما اغضب الامير عبد الرحمن وكتب إلى محمد بن رستم يعنفه ويتهمه بالتقصير فى محاربة الضراب. وفى عام ٢١٦هـ (٨٣١). جهز عبد الرحمن جيشا كبيرا أمد به محمد بن رستم، وأمره بالزحف الى هاشم الضراب وإخضاعه، والتقى ابن رستم بهاشم الضراب وبعد =

مما دفع سكانها إلى الخروج من مدينتهم ومهاجمة قلعة رباح، فلما علم ميسرة الفتى الصقلبي بتحركاتهم أعد لهم الكمائن، فلما اقتربوا من قلعة رباح خرجت عليهم الكمائن من كل جانب، فأوقع بهم، وقتل عددا كبيرا من رجالهم فلما رأى ميسرة الفتى الصقلبي رؤوس القتلى إرتاع وداخله الندم ولم يلبث إلا قليلا حتى مات ندما وأسفا^(١) وفى العام التالى (٢٢٠ هـ / ٨٢٥ م) خرج الأمير عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) من قرطبة غازيا، فيمهم وجهه أولا صوب مدينة طليطلة،

=== معارك عنيفة إستمرت عدة أيام دارت فيها الدائرة على هاشم الضراب الذى سقط صريعا هو وكثير ممن كانوا يشايعونه. ومع ذلك واصلت طليطلة ثورتها، فأرسل إليهم الأمير عبد الرحمن الأوسط هذا الجيش بقيادة أخيه أمية بن الحكم.

راجع:

ابن الاثير (ابو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم) : الكامل فى التاريخ، طبعة القاهرة، ١٣٥٣ هـ، ج ٥، ص ٢١٩، ابن عذارى المراكشى (ابو عبد الله محمد): البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب، الجزء الاول والثانى والثالث، تحقيق كولان وليفى بروفنسال، الجزء الرابع خاص بتاريخ المرابطين، نشر وتحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧ والقسم الخاص بالموحدين، تحقيق محمد ابراهيم الكتانى، ومحمد بن تاويت، ومحمد بن تاويت ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الاولى، الدار البيضاء ١٩٨٥ م، ج ٢، ص ٨٣، عنان(أ. محمد عبد الله): دولة الاسلام فى الاندلس، فى جزئين، القاهرة ١٩٦٠، ق ١، ص ٢٥٨

(١) ابن الاثير، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٣٢، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٤، النويرى (احمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرى التميمى القرشى): نهاية الارب فى فنون الادب، الجزء الثانى والعشرين، نشر جاسبار راميرو، غرناطة ١٩١٦ - ١٩١٧ م، ص ١٩٨، ١٩٩، عنان، المرجع السابق، ق ٢، ص ٢٥٨، ٢٥٩ سالم (د. السيد عبد العزيز) تاريخ المسلمين وأثارهم فى الاندلس الطبعة الاولى، بيروت ١٩٦٢ ص ٢٣٠، ٢٣١.

Levi Provencal : Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 vols, Leiden 1950 - 1954, vol 1, p. 201

وولى أبا الشماخ اليماني^(١) قلعة رباح خلفا لمسيرة الفتى الصقلبي وأبقى معه جيشا للتضييق على أهل طليطلة، بينما سار عبد الرحمن بن الحكم الى مدينة ماردة لاختضاعها^(٢) وفي عام ٢٢١هـ (٨٢٦م) خرج جماعة من أهل طليطلة يتزعمهم

(١) أبو الشماخ اليماني كان زعيم اليمانية في مدينة تدمير، وفي أوائل عصر الامير عبد الرحمن الاوسط نشبت فتنة في تدمير بين اليمانية والمضرية، وكان سبب هذه الفتنة ان أحد المضريين المقيمين بتدمير انتزع ورقة دالية من جنات يمانى، فقتله اليماني، فقامت الحرب بين العصبيتين المضرية واليمانية، وقتل كثير من الفريقين، فبعث الأمير عبد الرحمن اليهم حملة بقيادة يحيى بن عبد الله وعينه واليا على تدمير فالتقى معهم في موقعة تعرف بموقعة المصاراة بلورقة قتل منهم نحو ثلاثة آلاف ولكنه لم يفلح في اخضاع الولاية الثائرة، واستمرت الفتنة على اشدها، وغلب على تدمير أبو الشماخ زعيم اليمانية. وفي سنة ٢٠٩هـ (٨٢٥م) ارسل الأمير عبد الرحمن قائده امية بن معاوية بن هشام الى تدمير واشتبك مع اليمانية بقيادة ابي الشماخ فقضى على عدد كبير منهم، ولكن أبو الشماخ لبث بضعة أعوام يتحدى سلطة الحكومة المركزية في قرطبة، والبعوث تتردد اليه في كل عام دون أن تنال منه منالا، ولم تهدأ الفتنة إلا في سنة ٢١٣هـ (٨٢٨م) حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء، وطلبوا الأمان، وعادوا الى الطاعة، ومن المرجح أن الامير عبد الرحمن بن الحكم قد استعان بابي الشماخ ليكسب وده فعينه واليا على قلعة رباح.

راجع : ابن القوطية (ابو بكر محمد بن عمر القرطبي): تاريخ إفتتاح الاندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧م، ص ٦٧ ، ٦٨ عنان دولة الاسلام، ق ١ ، ص ٢٥٥، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣١،

Levi provenca, Histoire, vol, 1, p. 198 - 199.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ ، ابن عذارى، البيان المغرب ج ٢ ، ص ٨٤ ، النويرى، نهاية الأرب، ج ٢٢ ص ١٩٩ ، عنان دولة الاسلام، ق ١ ، ص ٢٥٩، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٣١،

Levi provenca, Histoire, vol, 1, p. 201.

مهاجر بن القتيل^(١) الى قلعة رباح، وأنضموا الى جيش الأمير عبد الرحمن بن الحكم واتفقوا جميعا على حصار طليطلة فضيقوا على أهلها، واستمر حصارها لها الى العام التالي (٢٢٢هـ / ٨٣٧م)، فسير اليهم الأمير عبد الرحمن بن الحكم جيشا بقيادة أخيه الوليد بن الحكم، فرأى الوليد أهلها وقد بلغ بهم الجهد والأعياء كل مبلغ، وأشتد عليهم الحصار وضعفوا من القتال، ففتحها الوليد بن الحكم عنوة يوم السبت الثامن من رجب سنة ٢٢٢ هجرية (الخامس عشر من يونيو سنة ٨٣٧م)^(٢).

ظلت قلعة رباح على ولائها لسلطة الامارة الاموية، الى عام ٢٣٩ هجرية (٨٥٣م) ففي هذا العام سير الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ هـ - ٢٧٤هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦م) جيشا بقيادة أخيه الحكم بن عبد الرحمن الى قلعة رباح وكان أهل طليطلة قد خربوا أسوارها، فأعاد من فارقها من أهلها اليها وأصلح أحوالها وترك بها حامية

(١) عقب فشل ثورة الربض التي اندلعت في قرطبة عام ٢٠٢هـ (٨١٨م) خرجت طائفة كبيرة من أهل قرطبة الى مدينة طليطلة واستقروا بها. وقد اشار ابن سعيد المغربي الى هذه الطائفة التي لحقت بطليطلة وذكر أنهم كاتبوا مهاجر بن القتيل الذي كان قد لحق بدار الحرب وولوه عليهم. ومن المرجح أن مهاجر بن القتيل قد عاد الى طاعة الحكومة المركزية في قرطبة ولاسيما بعد اصدار العقو عن جميع من اشترك في ثورة الربض، بدليل انضمامه الى جيش الامارة الاموية الذي كلف باخماد ثورة طليطلة.

راجع: ابن سعيد المغربي (ابو الحسن علي ابن موسى): المغرب في حلى المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، في جزئين. دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣ -

١٩٥٥، ج ١، ص ٤٢؛ Levi Provencal, Histoire, vo, 1, p. 169.

(٢) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٢٤٥، ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٨٤، ٨٥، النويري، نهاية الاربع، ج ٢٢، ص ١٩٨ - ١٩٩، عنان، دولة الاسلام، ق ١، ص ٢٥٩، سالم، تاريخ المسلمين، ٢٣١؛

Dozy R. Histoire des Musulmanes d'Espagne, Leiden, 1932, Vol, 1, P. 250, 251; Levi Provencal Histoire, Vol, 1, P. 201, 202.

كبيرة للدفاع عنها^(١) وفي عام ٢٤١هـ (٨٥٥م) اضطر الأمير محمد بن عبد الرحمن الى تحصين قلعة رباح وشحنها بالجنود وعين عليها حارث بن بزيع^(٢)

(١) ابن حيان (ابو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي): المقتبس من انباء أهل الاندلس، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمود على مكى، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٩٣، ٢٩٤، ابن الأثير الكامل فى التاريخ، ج ٥، ص ٢٩٣، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٩٤، عنان، دولة الاسلام، ق ١، ص ٢٩٢، سالم، تاريخ المسلمين، ص ٢٤٥.

R. Dozy, Histoire, Vol; 1, p. 260;
Aguado Bleye: Manual de la Historia de Espana,
T, 1, Madrid, 1947. p. 322,323
Levi provençal, Histoire, Vol, p. 292.

(٢) الحارث بن بزيع كان من كبار قواد الامير عبد الرحمن بن الحكم (الاوسط) وقد تحدث صاحب أخبار مجموعة عن أولية أبيه بزيع وصلته بعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) فقال أنه لما قام حيوة بن ملامس بالثورة فى اشبيلية وثار معه عبد الغافر اليحصبي ودارت الهزيمة على هذين فى عام ١٥٤هـ (٧٧١م) قام عبد الرحمن بشراء عدد من العبيد ممن حسن بلاؤهم فى المعركة وكان من بينهم بزيع والد الحارث بن بزيع. أما الحارث فقد ظهر أمره أيام الامير عبد الرحمن الاوسط فقد عهد اليه بقيادة الجيش الذى توجه من قرطبة الى الثغر حينما أعلن موسى بن موسى العصيان سنة ٢٢٧هـ (٨٤٢م) فالتقى به فى برجه وظهر الحارث بن بزيع على موسى بن موسى ثم فتح برجه واسر فيها لب بن موسى وحاصر تطيلة بعد ذلك حتى أخرج موسى عنها، ثم انصرف الحارث بن بزيع الى سرقسطة مقر ولايته، وكان يخرج بعد ذلك الى ارنيط المرة بعد المرة لكى يرهق موسى بن موسى، غير أن هذا تمكن أخيرا من تدبير كمين له فى موضع بلمة على نهر ابرة، فأوقع به هناك وأسره، وأقام الحارث أسيرا لديه مدة تسعة أشهر، فغزا الامير عبد الرحمن الاوسط الى بنبلونة فى نفس السنة لكى يقتص من فعل موسى بقائده حارث بن بزيع. وفى السنة التالية (٢٢٨ هـ/ ٨٤٣م) غزا الامير عبد الرحمن الاوسط موسى غزوة أخرى، فصالحه موسى واطلق سراح الحارث بن بزيع، ثم ولاه على تطيلة وعزله عنها سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م) ثم ولاه الامير محمد بن عبد الرحمن على قلعة رباح
راجع: مؤلف مجهول (كتاب أخبار مجموعة فى فتح الاندلس، نشرة دون ==

للتضييق على أهل طليطلة^(١).

وفى العام التالى (٢٤٢هـ/٨٥٦م) بعث الأمير محمد بن عبد الرحمن انه المنذر بالصائفة فاحتل قلعة رباح فى طريقه الى طليطلة التى حاصرها وانتسف ماحولها.^(٢) وينفرد ابن حيان فى سياق تاريخه لحوادث عام ٢٥٩هـ (٨٧٣م) بالاشارة الى تمرد أحد زعماء البربر ويدعى ابن يامين البربرى وامتناعه بجبل البرانس، وأن مسعود بن عبد الله العريف قائد طليطلة^(٣) وامر حارث بن بزيغ عامله على قلعة رباح باخماد ثورة ابن يامين البربرى، والقاء القبض عليه وتسليمه للأمير محمد بن عبد الرحمن، فلما جاء الامير محمد الى طليطلة (Talavera) أمر بصلب ابن يامين وأصحابه على

== لافونتى القنطرة، مدريد، ١٨٦٧م ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ابن الاثير الكامل فى التاريخ، ج ٥ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ابن عذارى البيان الغرب، ج ٢ ، ص ٩٥ النويرى، نهاية الارب، ج ٢٢ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١؛

Levi provençal, Histoire, vol 1, p. 208, 216, 257 . 290, 292

(١) ابن عذارى ، نفسه، ج ٢ ، ص ٩٥، النويرى، نفسه، ج ٢٢ ص ٢٠٦
(٢) ابن حيان المصدر السابق، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ابن عذارى المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٦ ، عنان، دولة الاسلام، ق ١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، سالم تاريخ المسلمين، ٢٤٥؛

Levi-provençal, Ibid . p. 294

(٣) طليطلة Talavera مركز من اعمال مدينة طليطلة، وكانت من أقصى ثغور المسلمين وأهمها وتقع فى هضبة تتوسط شبة الجزيرة وتعتبر لذلك بابا من الابواب التى تتوجه منها الجيوش الاسلامية الى ارض قشتالة وجليقية وتطل طليطلة على نهر تاجة Eltago وتبعد عن طليطلة بنحو ثمانين كيلو مترا الى غربها مع بعض الانحراف تجاه الشمال. وقد وصفها الحميرى بقوله: "وهى مدينة كبيرة وقلعتها ارفع القلاع حصنا ومدينتها اشرف البلاد حسنا، وهو بلد واسع الساحة كثير المنافع، به أسواق وديار حسنة، ولها على نهر تاجة ارحاء كثيرة ولها عمل واسع ومزارعها زاكية".

راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٩٥ ، وانظر ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود على مكى، تعليق رقم ٥٤٣ ص ٦١٤ ، ٦١٥ ، الادريسى صفة=

أسوار مدينة طليطلة^(١). وفي نفس العام سار الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بجيشه غازيا الى مدينة طليطلة، فنزلها في شهر شعبان (٢٥٩هـ/٨٧٣م) وحاصرها وقتلته أهلها قتالا عنيفا، حتى إذا ما أشدت عليهم الحصار استأمنوه، فعقد لهم الامان وأخذ رهائنهم وفي نفس الوقت أمر الأمير محمد بإعادة بناء ما تهدم من قلعة رباح وأعاد اليها ما كان تفرق من أهلها.^(٢)

ظلت قلعة رباح على ولائها للحكومة المركزية في قرطبة حتى اندلعت الثورة في انحاء الاندلس في عصر الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ - ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢م) ولا سيما ابان ثورة سوار بن حمدون المحاربى القيسى^(٣) في مدينة البيرة^(٤).

===المغرب وارض السودان ومصر والاندلس، ١٨٧.

(١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص ٣٣٠.

(٢) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٣٣٤.

(٣) هو سوار بن حمدون بن عبده بن زهير بن ديسم بن قديره بن هنيده. وهو من بنى محارب بن خصفة بن قيس عيلان وكان جده الاعلى قد نزل في قرية قربسنة الواقعة الى الغرب من مدينة غرناطة. عن سوار بن حمدون.

راجع: ابن حزم (ابو محمد على بن احمد بن سعيد): جمهرة انساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢٥٩، ٢٦٠ ابن الأبار (ابو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) الحلة السيرة تحقيق د. حسين مؤنس. الطبعة الاولى، في جزئين، القاهرة ١٩٦٣م ج ١، ص ١٤٧، ابن الخطيب الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، اربعة مجلدات القاهرة ١٩٧٣ - ١٩٧٩م، ج ٤ ص ٢٧٠.

(٤) البيرة Elvira كانت من كبريات حواضر جنوب شرق الاندلس وأصل أسمها ايبيري قديم مركب من Berri - ili أى المدينة الجديدة وبها نزل جند دمشق حينما فتح العرب أسبانيا، وبساحل البيرة كان نزول الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حين عبوره الى الاندلس سنة ١٢٨هـ (٧٥٥م)، ثم خربت البيرة في الفتنة القرطبية وانتقلت عاصمة إقليمها الى غرناطة وأصبحت البيرة تابعة لها.

ولقد عرف سوار بشجاعته وجراته فى الحرب وقدرته على تأليف القلوب، وقد بولغ فى اعلاء شأنه والثناء عليه فقليل "لولا أن الله من على العرب بسوار ونصره لما أبقى العجم والمولدون منهم أحد" (١). وبعد أن ولى سوار رئاسة عرب البيرة خاطب زعماء العرب فى الكور المجاورة يدعوهم الى نصرته، فانسوى اليه العديد من البيوتات العربية، وعندما رأى سوار من نفسه القوة توجه بمجموعة لاسترداد حصن منت شاعر الواقع الى الشمال الشرقى من مدينة غرناطة، وكان قد اجتمع فيه من المولدين والنصارى حوالى ستة الاف رجل، فحاصروهم وضيق عليهم الخناق الى ان خرجهم قسرا منه، ثم استمر فى تطهير الحصون التابعة للمولدين وحلفائهم النصارى، ولذا حشد المولدون حشودهم ضد العرب، كما نجحوا فى تأليب جعد بن عبد الغافر عامل الامارة الاموية على البيرة ضد العرب فبادر باجابتهم الى طلبهم، وخرج على رأس جيش كبير من المولدين وحلفائهم، وقصد بهم سوار وحلفاءه من العرب، فاصطدم الفريقان بعنف، وانتهى الامر بانتصار سوار، أما جعد فقد وقع فى الاسر. وقد سميت هذه المعركة "بوقية جعد" وقد ارتفع نجم سوار بعد انتصاره على المولدين وحلفائهم وكاتبه عرب النواحي وامتدت رياسته حتى قلعة رباح التى أعلنت الولاء والخضوع له (٢) وقد خلف سوار بن حمدون فى رئاسة عرب البيرة سعيد بن سليمان بن جودى،

راجع: ابن الخطيب، الاحاطة فى اخبار غرناطة، ج ١، ص ٩٩ - ١٠٠ الحميرى، الروض المعطار، ص ٢٨، ٢٩.

(١) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ١٤٨، ابن الخطيب، الاحاطة فى اخبار غرناطة، ج ٤، ص ٢٧٠.

(٢) بن حيان، المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس، نشرة الأب ملشور انطوانية باريس ١٩٣٧م. ص ٥٥، ٥٦، ٦٢، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ١٤٨، ١٤٩، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢ ص ١٣٣، ابن الخطيب الاحاطة، ج ٤، ص ٢٧١.

Levi Peovencal, Histoire, Vol, 1, P. 354.

وكان من قبيلة هوازن التي تعد احدى القبائل القيسية، وسجل له الامير عبد الله على كورة البيرة بكاملها،^(١) وقد استمر على سياسة سلفة في التعصب للعرب ومحاربة اعدائهم: "حتى هوت اليه افندتهم وقصدوه من كل كورة"^(٢) ويشير ابن حيان الى ان أهل قلعة رباح استمروا على ولائهم لسعيد بن جودى عقب وفاة سوار بن حمدون^(٣) يؤكد ذلك ما رواه ابن حيان فى تاريخه لحوادث عام ٢٩٨هـ (٩١٠م) اذ يشير الى قيام القائد الاموى عباس بن عبد العزيز بغزو قلعة رباح "اذ كان اهلها على خلاف وشقاق فانفتحها"^(٤) وفى عام ٣٠٠هـ (٩١٢م) انترى الفتح بن موسى بن ذى النون^(٥) ومعه

(١) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٢٩، ٣٠، ٣١، ١٢٣، ابن الأبار المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٧٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس، نشر منشور انطونية، ص ٢٩.

(٣) ابن حيان، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٤) ابن حيان، المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٥) ينتسب بنو ذى النون الى ذى النون بن سليمان بن طوريل بن الهيثم بن اسماعيل بن السمح بن ورد بن حيقن الهوراي اى انهم من قبيلة هوازن البربرية. وكان أول من دخل الاندلس منهم هو اسماعيل بن السمح. اما عن ذى النون فقد كان زعيما لشنت برية (santaver) وقد مر به الامير محمد ابن عبد الرحمن الاوسط فى بعض غزواته الى الثغر وقد مرض خصى من اكابر فتيانه الصقالية، فتركه عند ذى النون يقوم برعايته ففعل ذو النون ما اراده. من ذلك، وبالف فى الاهتمام بالفتى الى أن برا من علته، ولم يكتف بذلك، بل جاء بنفسه الى قرطبة بصحبة الفتى فكافاه الامير محمد ابن عبد الرحمن بأن ولاه على ناحيته وقدمه على قومه وارتهن منه بعض ولده، فأعترف ذو النون بفضل الامير عليه وشكر نعمته وظل على طاعته الى أن توفى فولى مكانه ابنه موسى بن ذى النون الذى كان رهينة عند الامير محمد الا انه نبذ الطاعة وأخذ فى توسيع منطقة نفوذه، فاستولى على طليطلة سنة ٢٧٤هـ (٨٨٨م)، ولكن أهل طليطلة استدعوا أسرة بنى قسى من الثغر الأعلى الاندلس وفتحوا لهم ابواب مدينتهم سنة ٢٨٣هـ (٨٩٧م) وتخلصوا بذلك من بنى ذى النون وقد توفى بن ذى النون سنة ٢٩٥هـ (٩٠٧م) وتوزعت السلطة بين ابنائه الثلاثة: يحيى والفتح والمطرف.

محمد بن ادريس الرباحي المعروف بابن اردنبلش^(١) بقلعة رباح وأحوازها، فسير اليهما الامير عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) (٢٠٠ - ٢٥٠ هـ/٩١٢ - ٩٦١) جيشا بقيادة الوزير القائد عباس بن عبد العزيز القرشي حيث دارت بينهما معارك شديدة هزم فيها الفتح وقتل الكثير من رجاله وفر الى معقله، بينما تمكن عبيد الله بن فهر عامل الامير عبد الرحمن بن محمد على قلعة رباح من قتل ابن اردنبلش، وبعث برأسه الى مدينة قرطبة فرفعت فوق باب السدة^(٢) وذلك في العاشر من ربيع

== راجع: ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٦٤، ٤٦٥، ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص ٣٤١، ٣٤٢، تحقيق ملشور انطونية، ص ١٧، ١٨.

(١) هو محمد بن ادريس البكري الرباحي وقد عرف بابن اردنبلش كان يسكن قلعة رباح، فأخرجه الاهالي منها، وعندئذ لجأ الى حصن ملقون الواقع الى الشمال من قلعة رباح، وبدأ يشن الغارات عليهم منه، ثم تحالف مع الفتح بن موسى بن ذي النون.

راجع: ابن حيان، المقتبس. نشر ملشور أنطوني، ص ١٧. وعن حصن ملقون راجع الأديسي، صفه المغرب، ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٢) يعتبر باب السدة الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة. وكان يقع على مقربة من الرصيف ويعطوه السطح المشرف. ولعل شهرة هذا الباب راجعه الى كونه مخصصا لشنق أو صلب الخارجيين عن الطاعة وتعليق جثثهم عليه، فرفعت عليه رأس فضل بن سلمه المنتزى بحصن أشر الواقع على مقربة من قلعة رباح عام ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١م) ورأس محمد بن ادريس الرباحي المعروف بابن اردنبلش المشار اليه في المتن وهي أول رأس رفعت على باب السدة في عصر الامير عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) كما صلب على باب السدة في جمادة الآخرة عام (٣٠٠ هـ / يناير ٩١٣م) محمد بن يوسف، الجياتي، وكان من أهل الفساد والقذح في الخلافة. وفي عام ٣١٣ هـ/٩٢٥م صلب على باب السدة أحد اصحاب الثائر الاتدلسي عمر بن حفصون وهو الرامي الاتدلسي المعروف بابي نصر، وفي عام ٣١٤ هـ/٩٢٧م صلب على باب السدة سليمان بن عمر بن حفصون، وفي عام ٣١٦ هـ/٩٢٨م علقت جثة عمر بن حفصون على باب السدة، وفي عام ٣٦٨ هـ/٩٢٩م صلب عبد الملك بن المنذر بن سعيد البلوطي على باب=

الآخر سنة ٢٠٠ هـ (يناير ٩١٢م) وتم تطهير قلعة رباح واحوازاها من الثورة^(١).
ومن المرجح ان قلعة رباح قد عادت الى طاعة وولاء الحكومة المركزية في
قرطبة وتولاها عمال لبنى أمية، فقد اشارت المصادر التاريخية الى عدد من هؤلاء
منهم: شبيب بن أحمد سنة ٣١٧ هـ^(٢) (٩٢٩م) وعبد الله بن عبد المالك في ربيع
الآخر سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠م)^(٣) ومحمد بن حمدون بن بسيل عام ٣٢١ هـ (٩٣٣م)^(٤)
وعبد الملك بن عبد الله سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٥م)^(٥). واحمد بن محمد بن مبشر وعبد الله
بن محمد بن مبشر مضمومة لها طليطلة سنة ٣٢٥ هـ (٩٤٧م)^(٦) وعبد الله بن دري

===السدة، وفي رجب عام ٣٩٩ هـ/مارس ١٠٠٩م صلب عبد الرحمن شنجول بن
المنصور محمد بن ابي عامر على باب السدة.
راجع: ابن حيان، المقتبس، نشر ملشور انطونيه، ص ٢٣ ، ١٣٧ ، المقتبس ج
٥ ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٢٠٢ ، ٤٤٤ ، ابن عذارى، البيان المغرب ج ٢ ، ص
١٤٧ ، ١٩٠ ، ١٩٣ .

Balbas : Bab Al sudda Y los zudas de la Espana

Oriental, Al Andalus; fasc 12, vol, Xvll, 1952, p. 165-175

(١) ابن حيان، المقتبس، نشر ملشور انطونيه، ص ٢٧٥. ابن حيان، المقتبس نشر
بدور شالميتا، ص ٥٣ ، ٥٤ ، عنان ، دولة الاسلام ، ق ٢ ، ص ٢٧٥ ، مؤلف
مجهول: مدونة تاريخية من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر، نشرها ليفي
بروفنسال وغريسه غومث تحت عنوان:

Una Cronica anonime de abd Al Rahman 111, Al NASIR,

Por Levi Provencal, Emilio Garcia Gomez,

madrid, Granada, 1950. p 32-33

(٢) ابن حيان ، المقتبس، نشر شالميتا، ص ٢٥٤.

(٣) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٨٥.

(٤) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٢٣١.

(٥) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٣٥٥.

(٦) ابن حيان ، المقتبس ، نشر شالميتا ، ص ٤١٧.

سنة ٣٢٦ هـ (٩٤٨م) (١) وهشام بن جهور سنة ٣٢٨ هـ (٩٥٠م) (٢) وعيسى وسليمان
ابنى محمد بن عيسى مضمومة لها طليطلة سنة ٣٢٩ هـ (٩٥١م) (٣) والياس بن
سليمان سنة ٢٣٠ هـ (٩٥٢م) (٤).

لم تشر المصادر التاريخية الى قلعة رباح منذ أن انضوت تحت السيادة الاموية
الا فى أخريات القرن الرابع الهجرى ابان الفتنة القرطبية عندما فر اليها سليمان بن
الحكم، (٥) وكذلك عندما غادر البربر قرطبة فى أعقاب تحريض الخليفة

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٤٢٩.

(٢) ابن حيان ، نفسه ، ص ٤٦٢.

(٣) ابن حيان ، نفسه ، ص ٤٧١.

(٤) ابن حيان ، نفسه ، ص ٤٨٩.

(٥) سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وكان قد فر الى قلعة رباح
عقب وفاة الرشيد المرواني، فلما اضطر البربر الى الخروج عن قرطبة لسوء
معاملة الخليفة المهدي اتجهوا الى قلعة رباح ووقع اختيارهم على سليمان بن
الحكم كخليفة ولقبوه بالمستعين بالله، وعقب انتصار البربر على حشود الخليفة
المهدي بالقرب من جبل قنتيش فى (١٣ ربيع الاول ٤٠٠ هـ / ١٥ نوفمبر ١٠٠٩م)
ودخلوا قرطبة، أعلن سليمان نفسه خليفة للمرة الاولى فى ١٦ ربيع الاول
٤٠٠ هـ / ١٨ نوفمبر ١٠٠٩م، ولكن المهدي سرعان ما أسترد قرطبة للمرة الثانية
عقب هزيمة سليمان فى عقبة البقر فى شوال سنة ٤٠٠ هـ (مايو ١٠١٠م)، الا أن
سليمان وحشوده البربرية نجحوا فى دخول قرطبة فى ٢٦ شوال ٤٠٣ هـ
(٩/مايو ١٠١٣م) وأعلن سليمان خلافته للمرة الثانية وتلفت بالظاهر بحول الله،
الى أن دخل على بن حمود قرطبة فى ٢٢ من المحرم سنة ٤٠٧ هجرية (الاول
من يوليو ١٠١٦م) وأمر بقتل سليمان المستعين.

راجع: ابن بسام (ابو الحسن على الشنترينى) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة،
تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م القسم الاول المجلد الاول، ص ٢٤ ،
٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٧٨-٨٠ ، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣ ، ص ٧٣ ،
٧٤ ، ٩٠ - ٩٣ ، ٩٥ - ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ - ١١٣ ، سالم،
تاريخ المسلمين، ص ٣٤٨-٣٥٥ ، عنان، دول الاسلام، ق ٢ ، ص ٥٨٣-٥٩٩.

Arellano : Historia de Cordoba, ciudad
real; 1915 - 1919 p. 303 - 344.

المهدى^(١) على قتلهم، فغادروها وساروا الى قلعة رباح حيث التفوا حول سليمان بن الحكم وولوه على انفسهم وعقدوا له بها الخلافة وتسمى بالمستعين بالله.^(٢) وفي قلعة رباح ارسل الخليفة المهدى عباسا البرزالي^(٣) يحمل امانا للبربر ويطلب منهم العودة الى مدينة قرطبة فرفضوا قائلين: ليس الى رجوعنا من سبيل لأنه أن أمننا لم تؤمننا

(١) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الذي ثار على عبد الرحمن بن محمد بن ابي عامر الملقب بشنجل في أول امارته وفي اثناء غيابه عن قرطبة في غزوة الوحيدة ضد اسبانيا النصرانية وذلك في جمادى الاولى سنة ٣٩٩هـ (فبراير ١٠٠٩م) معلنا نفسه خليفة للأندلس، على أنه لم يلبث قليلا حتى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، وقد انضم اليه البربر، والتقى المهدى والمستعين في معركة قنتيش التي انتصر فيها سليمان المستعين وقواته البربرية - كما سبق الإشارة - وهرب المهدى الى مدينة طليطلة، حيث جمع له قائده واضح الفتى العامري قوات جديدة، ثم التقى بسليمان المستعين مرة أخرى في عقبة اليفر - كما سبق الإشارة، وانتصرت قوات البربر المناصرة لسليمان المستعين مرة ثانية، الا أن سليمان - وكان يظن الهزيمة قد لحقت به - لاذ بالفرار وهكذا دخل المهدى قرطبة واعلنت خلافته للمرة الثانية، غير أن دولته الثانية لم تطل إذا ان قائده واضحا غدر به، فدبر مؤامرة لاغتياله في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ (الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٠١٠م).

راجع: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٤٩-١٠٠، ابن الخطيب (لسان الدين ابو عبد الله محمد): اعمال الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام، القسم الثاني الخاص بالأندلس، تحقيق ليفي بروفنسال الرباط، ١٩٣٤م، ص ١٠٩-١١٦.

Levi Provencal, Histoire, Vol, 11, p. 298-315.

(٢) ابن عذاري. البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٢.
(٣) بنو برزال - أو البرازلة - ينتسبون الى قبيلة زناتة البربرية وكانوا ينزلون بالمغرب في منطقة الزاب الاسفل حول مدينة المسيلة. وقد أعلنوا خضوعهم لفاطميين ودخلوا في طاعة على بن حمدون المعروف بالأندلسي، ثم عبروا الى الأندلس بعد أن اشتدت وطأة صنهاجة على المغرب الأوسط، ورحب بهم الخليفة المستنصر وأحسن استقبالهم، وعقب وفاة الحكم المستنصر وقفوا موقف التأييد من المنصور محمد بن ابي عامر فاستعملهم المنصور في الولايات النبيهة ==

رعيته وأن أمنتنا رعيته لم يؤمننا جنده^(١) وفى عهد الخليفة القاسم بن حمود الادريسى^(٢) اقطع زهيرا الفتى العامرى قلعة رباح^(٣).

==والاعمال الجليلة فولى احدثهم حاكما على قرمونة واعمالها وعقب سقوط الدولة العامرية تحول البرازلة بولانهم الى الخليفة المهدي ثم ساندوا ايضا الخليفة سليمان المستعين - شأنهم فى ذلك شأن البربر فى الاتدلس- وظل بنوبرزال يحكمون قرمونة الى ان سقطت دولتهم سنة ٤٥٩ هـ (١٠٦٦-١٠٦٧ م). راجع: حمدي عبد المنعم محمد، دولة بنى برزال فى قرمونة، الطبعة الاولى، الاسكندرية، ١٩٩٠ م.

(١) ابن عذارى البيان المغرب، ج ٣، ص ٨٤.
(٢) هو القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الادريسى الحسنى ولد فى سنة ٣٤٨ هـ (٩٦٠ م) وكان هو وأخوه على من جملة قواد سليمان بن الحكم المستعين حينما ولى الخلافة للمرة الاولى فى سنة ٤٠٠ هـ (١١٠٩ م) اذ كانوا من امراء المغاربة الذين شايعوه، ثم قدم سليمان على بن حمود على سبته وولى القاسم على طنجة واصيلا، على أنه يبدو انه ظل بقرطبة، ثم انتقل منها الى اشبيلية بعد أن جاز أخوه على من سبته الى قرطبة، وقتل سليمان المستعين واستأثر بالخلافة، فلما قتل على بن حمود فى أول ذى القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢١ مارس سنة ١٠١٨ م) توجه الى قرطبة من اشبيلية وبويع فيها بالخلافة ثم ضعف أمره وثار عليه أبناء أخيه يحيى بن على القائم بسبته وادريس بمالقه، وجاز يحيى البحر، فلما رأى القاسم عجزه عن مقاومته فر الى اشبيلية فى الثاين والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١٢ هـ (١٥ أغسطس ١٠١٢ م) وأعلن يحيى نفسه خليفة بقرطبة ثم ضعف أمر يحيى فأضطر للفرار واستدعى أهل قرطبة القاسم مرة ثانية، فعاد الى قرطبة وولى الخلافة للمرة الثانية حتى ثار عليه القرطبيون مرة أخرى فهرب الى اشبيلية فى الحادى والعشرين من جمادى الثانية سنة ٤١٣ هـ (٩ سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) فمنعه أهلها من دخولها بتكبير من القاضى ابن عباد، فأنصرف منها الى شريش وتوفى بها محبوسا عند ابن أخيه ادريس بن على سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م). راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١١٩-١٣٥، ابن الخطيب، اعمال الاعلام القسم الاتدلسى، ص ١٣٠-١٣٥، النويرى، نهاية الارب، ج ٢٢، ص ٢٣٣-٢٣٤.

Levi Provencal, Histoire, Vol 11, P. 323 - 333.

(٣) زهير الفتى العامرى ويكنى ابا القاسم من أهم الفتيان العامريين واشدهم بأسا، ==

قلعة رباح فى عصرى الطوائف والمرابطين:

خضعت قلعة رباح خلال عصر ملوك الطوائف

لبنى ذى النون اصحاب طليطلة^(١) ومن ابرز من تولوها

وكان من اخص الفتيان العامريين الذين تفرقوا عقب الفتنة، ثم ولاء القاسم بن حمود ولاية جيان وقلعة رباح محاولا بذلك ان يعقد السلم مع الفتيان العامريين وان يأمن خصومتهم وكيدهم، ثم ولى حكم المرية بعد وفاة صاحبها الفتى خيران سنة ٤١٩هـ (١٠٢٨م)، وامتد سلطانه شرقا حتى شاطبة وشمالا حتى بياسة وقرطبة. وكان يرتبط بعلاقات المودة مع جيرانه الاقربين بنى حمود اصحاب مالقة وبنى زيرى اصحاب غرناطة، ولكن سرعان ماتحولت علاقته مع اصحاب غرناطة الى علاقات عدائية ونشبت بينهما معركة انتهت بهزيمة زهير ومقتله فى اواخر شهر شوال ٤٢٩هـ (١٠٣٨م).

راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٦٨ - ١٧٢، ابن الخطيب اعمال الاعلام، ج ٢، ص ٢١٢، ٢١٣، الاحاطة فى أخبار غرناطة، ج ١، ص ٥٢٥، ٥٢٦، عنان، دول الطوائف، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٩م.

Prieto y Vives - Antonio -, Los Reyes de Taifas, estudio Historico Muslmanes Espanoles, en Elsiglo v de La Hegria, Madrid, 1926, P. 61 - 62.

(١) ظلت أسرة بنى ذى النون فى خدمة الدولة الاموية الى أيام المنصور محمد بن ابي عامر عندما ظهر عبد الرحمن بن مطرف بن اسماعيل بن ذى النون ودخل فى خدمة الدولة العامرية وعقب سقوط الدولة العامرية واندلاع الفتنة القرطبية أعلن بنو ذى النون دخولهم فى طاعة سليمان المستعين الذى منح اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن ذى النون ولاية اقلش ثم اصاب اليها كونكة ثم أخذ يفرض سلطانه على كورة شنتبرية، وفى نفس الوقت احتاج اهل طليطلة الى من يقوم بأمرهم فخطبوا اسماعيل ابن ذى النون، فأقبل بجنده ودخل طليطلة واستبد بأمره واعلن انفصاله عن قرطبة والجماعة، وحكم طليطلة من سنة ٤٢٧ - ٤٣٥هـ (١٠٣٦ - ١٠٤٤م) ثم خلفه ابنه ابو الحسن يحيى بن اسماعيل وتلقب بـ==

حريز بن حكم بن عكاشة^(١) وقد ظلت قلعة رباح خاضعة لبنى ذى النون الى أن

== بالمأمون وكان من أعظم ملوك الطوائف وأطولهم عهداً، إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاماً (٤٣٥ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣٦ - ١٠٧٥ م) وخلف المأمون حفيده يحيى بن ذى النون الملقب بالقادر الذى ظل يحكم طليطلة وقلعة رباح الى أن سقطت طليطلة فى ايدي القشتاليين سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م).

راجع: ابن بسام، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الاول، المجلد الاول، ص ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٢٤، ١٢٧ والقسم الرابع المجلد الاول ص ٩٩ - ١٠٤، ١١٤، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٣٠٣، ابن الخطيب، اعمال الاعلام، ق ٢، ص ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤، ص ١٦١، ١٦٢، أشباح (يوسف) تاريخ الاتدلس فى عهد المرابطين والموحدين ترجمة أ. محمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨ م، ص ٤٩، ٥٠، ٥١.

Vives : Los Reyes de taifas, p, 53, 54.

(١) حريز بن حكم بن عكاشة كان والده حكم بن عكاشة من أصحاب الوزير ابي الحسن ابراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء وزير ابي الوليد بن جهور زعيم قرطبة، فلما قتل ابن السقاء قبض على حكم بن عكاشة وزج به السجن ولكنه فر من سجنه ولحق بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة فولاه بعض الحصون القريبة من قرطبة، وكان المأمون يتحين الفرصة للاستيلاء على قرطبة، فوضع له حكم بن عكاشة خطة انتهت بنجاحه فى دخول قرطبة وقتل أميرها يومئذ عبادا الملقب بسراج الدولة بن المعتمد محمد بن عباد، ودعا الناس الى بيعه المأمون بن ذى النون وبعث اليه برأس سراج الدولة، وكان المأمون يومئذ فى بلنسية وذلك سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م)، فقدم الى قرطبة ودخلها فى موكب ضخم، ولكنه توفى بعد قليل وتولى حكم بن عكاشة من بعده حكم قرطبة نائباً عن يحيى القادر بن ذى النون حفيد المأمون، ولكن وفاة المأمون شجعت المعتمد بن عباد على الزحف الى قرطبة ودخلها بعد أن فر عنها حكم بن عكاشة، ولكن المعتمد بن عباد بعث فى أثر ابن عكاشة سرية من الفرسان طارنته حتى ظفرت به وقتلته وجيء به فصلب مع كلب، بينما فر ولده حريز بن حكم الى طليطلة، فولاه القادر بن ذى النون حاكماً على قلعة رباح وظل عليها حتى سقوطها فى ايدي القشتاليين، وقد قتل حريز بن حكم سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م).

راجع: ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ١٧٦ - ١٧٩، عنان دول الطوائف، ص ١٠٣ - ١٠٤.

سقطت طليطلة في ايدي الفونسو السادس ملك قشتالة^(١) الذي لم يقنع بالاستيلاء على طليطلة ولكنه استولى ايضا على جميع الاراضى الواقعة على ضفتى نهر التاجة وعلى القلاع المجاورة ومنها قلعة رباح^(٢).

(١) الفونسو السادس ابن فرنندو الاول fernando 1 الابن الاكبر لسانشو العظيم Sancho El Mayor وكان فرناندو الاول قد قسم مملكته قبيل وفاته سنة ١٠٦٥م بين اولاده الثلاثة فخص ولده الكبير سانشو الثانى (شانجة) بمملكة قشتالة، وخص ولده الثانى الفونسو السادس (الفنش) بمملكة ليون، وخص أصغرهم غرسية بجليقية. أما ابنتاه دونيا اوراكا Urraca ودونيا البيرة Elvira فقد منحهما حق الاشراف على الاديرة فى سائر مملكته، كما منح الاولى حصن سمورة Zamora والثانية حصن تورو Toro وقد أدى تفتيت المملكة الاسبانية الى قيام حرب أهلية بين هؤلاء الاخوة، ولقد استطاع الاخ الأكبر سانشو (شانجة) فى بادىء الامر أن ينتصر على أخويه ويستولى على بلادهما ليون وجليقية سنة ١٠٧١م، بينما فر الفونسو السادس الى طليطلة حيث أكرمه ملكها المأمون بن ذى النون، وكذلك فر غرسية الى اشبيلية، ولكن سانشو تعرض للقتل سنة ١٠٧٢م واستدعى الفونسو السادس من طليطلة ونصب ملكا على قشتالة وليون وجليقية فى نفس السنة (١٠٧٢م) ولا سيما بعد القبض على الاخ الثالث غرسية وزج فى احدى القلاع سجيناً حتى مات سنة ١٠٩٠م.
راجع: عنان، دول الطوائف، ص ٣٧٥ - ٣٨٠.

Lafuente : Historia general de Espana
Madrid 1861 , Vol , 11, P. 382-383: 385-389-485-488.
Pidal : La' Espana del cid Madrid, 1947
P. 122-123-135-145-149-176-177

(٢) عن أحداث سقوط طليطلة فى ايدي النصارى.
راجع: ابن بسام الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الاول، ص ١٢٧، ابن الاثير، الكامل فى التاريخ، ج ٣، ص ١٣٨، ١٣٩، المقرئ، نفح الطيب، ج ٢، ص ٨٤، ٨٥، سالم، المغرب الاسلامى، الطبعة الاولى الاسكندرية ١٩٦٦، ص ٧١٨، ٧١٩، عنان، دول الطوائف ١١٠ - ١١٥

Mirianda. Historia general de Espana, Madrid
1955 , p. 16 - 18 ; Dozy , Histoire.
Vol , 111 p. 121 - 122.

جاء سقوط طليطلة في يد الفونسو السادس ملك قشتالة نذيرا بما يترصد الإسلام في الأندلس من أخطار، وارتج الأندلس كله لهذه الحادثة رجة عنيفة، وشعر الأندلسيون أن أمر الأندلس إلى ضياع، وقد كان من الضروري في تلك الظروف العسيرة أن تتحد القوى الإسلامية في الأندلس لمواجهة هذا الخطر النصراني، فكان من الطبيعي الاستعانة بأقرب وأكبر قوة إسلامية مجاهدة وهي القوة المرابطية الفتيّة التي تمكنت من الظهور حديثا في المغرب الأقصى فلبى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين نداء الجهاد، وعبر على رأس جيوشه المرابطية المجاهدة إلى الأندلس سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) وأحرز انتصاره العظيم على جيوش النصارى بقيادة الفونسو السادس ملك قشتالة في معركة الزلاقة الشهيرة في الثاني عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ (الثالث والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٠٨٦م) (١).

ولقد كان لانتصار الزلاقة عدة نتائج كان من أبرزها أنه أسقط من قدر ملوك

(١) عن قيام دولة المرابطين في بلاد المغرب واستصراخ ملوك الطوائف في الأندلس بهم، والدور الإسلامي الذي قام به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وعبره إلى الأندلس وانتصاره الرائع في معركة الزلاقة.

راجع: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٤١، ١٤٢ مؤلف مجهول الحال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، عن بنشره السيد البشير الفورتي، تونس: ١٣٢٩، ص ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٩٩، ١٠٠، المراكشي (عبد الواحد بن علي): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، نشر الأستاذان محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، القاهرة ١٩٤٩م، ص ١٣١، ١٣٢، ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي): الأتيس المطرب بروض القرطاس، طبعة فاس، ١٣٠٥هـ ص ١٠٠، ١٠١ ابن الخطيب، أعمال الاعلام ق ٢، ص ١٨٥، ٢٨٢، ٢٨٣، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٢، ص ١١٠، ١١١

Dozy, Histoire, Vol, 111, p. 124, 125, 127, 129.

Miranda: La invasion de los Almoravides y la Batalla de Zalaca, Hesperis, 1953, Tome, XI . Paris, p. 26 - 28.

الطوائف في نظر رعيّتهم، ومهد السبيل الى اسقاط دويلات الطوائف وسيطرة
المرابطين على الاندلس. ففي عام ٤٨٤هـ (١٠٩٠م) سير امير المسلمين المرابطي
يوسف بن تاشفين اربعة جيوش الى الاندلس للقضاء على ملوك الطوائف منفردين
منهم القائد بطنى بن اسماعيل الذى افتتح مدينة قرطبة يوم الاربعاء الثالث من شهر
صفر سنة ٤٨٤هـ (السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٠٩١م) ثم بعث بطنى
قائدا على رأس حملة من الف فارس الى قلعة رباح، فحاصرها واستولى عليها^(١).

أصبحت قلعة رباح منذ أن افتتحها المرابطون عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) محورا
للصراع بين المسلمين والنصارى، ففي عام ٥٢٢هـ (١١٢٨م) قام القشتاليون بغزوة
واسعة النطاق في بلاد الاندلس وتوغلوا حتى وصلوا على مقربة من قلعة رباح بهدف
الإستيلاء عليها، فتصدى لهم تاشفين بن على ابن يوسف بن تاشفين^(٢) وتمكن من
ردهم على اعقابهم. وفي شهر ربيع الأول عام ٥٢٦هـ (يناير ١١٣٢م) بلغ تاشفين بن
على أن القشتاليين قد خرجوا من مدينة طليطلة في حملة عسكرية صوب مدينة قرطبة
فاستنفر تاشفين جيوشه وبادر بالسير نحو مدينة قرطبة، ثم نهض للقاء القشتاليين في

(١) ابن ابي زرع ، روض القرطاس، ١٥٤ ، ١٥٥ ، عنان، دول الطوائف، ص
٣٤٨، ٣٤٩، اشباح، تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص ٩٥.
كان امير المسلمين يوسف بن تاشفين وقيل ولده على بن يوسف يصف الاندلس
بقوله انها تشبه عقابا مخالبه طليطلة وصدره قلعة رباح، ورأسه جيان ومنقاره
غرناطة وجناحه الايمن باسط الى المغرب وجناحه الايسر باسط الى الشرق.
راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ٤٦٩، المقرئ، نفح الطيب ج ١ ص
١٩١، ١٩٢.

(٢) تاشفين بن على بن يوسف، تولى شؤون الاندلس نيابة عن ابيه امير المسلمين على بن
يوسف بن تاشفين وكانت للامير تاشفين بن على في مدافعة النصارى في الاندلس
صولات وجولات وفق فيها كل التوفيق واحرز انتصارات رفعت مكانته في نظر اهل
الاندلس، وفي عام ٥٣٢هـ (١١٣٨م) صدرت اليه الاوامر بالعودة الى ==

قواته الخفيفة، وكان القشتاليون قد أكتسحوا حصن شنت اشتيبين Sanesteban (١)
الواقع بالقرب من مدينة جيان (٢) واستولوا عليه، كما اجتازوا

المغرب، ثم صدر مرسوم سنة ٥٢٢هـ (١١٢٩م) بتوليته ولاية عهد
المرابطين، ثم تولى إمارة المسلمين سنة ٥٢٧هـ (١١٤٣م) عقب وفاة والده على
بن يوسف حيث تحمل عبء الحروب ضد الموحدين وعلى الرغم من ضروب
الشجاعة والاقدام التي اتصف بها في معاركه التي خاضها ضد الموحدين، إلا أنه
خر صريعا في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ (الثاني
والعشرين من فبراير سنة ١١٤٥م).

راجع: البيهقي (أبو بكر بن علي الصنهاجي): اخبار المهدي بن تومرت وابتداء
دولة الموحدين، نشر ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨، ص ٢٩٨، ٢٩٩ مؤلف
مجهول، الحلل الموشية، ص ١٠٠، ابن عذاري، البيان المغرب، الجزء الرابع
الخاص بعصر المرابطين، ص ٧٩، ٨٠، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ابن الخطيب،
الاحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٩٧-١٠٠.

(١) ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، ج ١، ص ٤٥٠، ٤٥١، عنان عصر
المرابطين والموحدين في المغرب والاتلس، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٣٣.

(٢) جيان (Jean) مدينة اندلسية قديمة من بنيان الاول وهي تقع الى شرق قرطبة وتبعد
عنها بنحو مائة كيلومترا، والى شمال غرناطة وتبعد عنها بمثل هذه المسافة.
يصفها الانريسي بقوله: "ومدينة جيان كثيرة الخصب رخيصة الاسعار كثيرة
اللحوم والعسل ولها زائد على ثلاثة الاف قرية كلها يربى فيها دود الحرير وهي
مدينة كثيرة العيون الجارية تحت سورها ولها قسبة من امنع القصاب وأحصنها"
ويصف الحميري مسجدها بقوله. "وجامع جيان مشرف يصعد اليه على درج من
جميع نواحيه، وهو من خمس بلاطات على اعمدة رخام وله صحن كبير حوله
سقائف، وهو من بناء الامام عبد الرحمن بن الحكم على يد مسره عامل جيان".

راجع: الانريسي، صفة المغرب، ص ٢٠٢، ابن غالب فرحة الانفس، ص ٢٨٤،
الحميري، الروض المعطار ص ١٨٣ وانظر ايضا: مؤلف مجهول ذكر بلاد
الاتلس، ص ٤٦، محمد الفاسي، الاعلام الجغرافية الاندلسية مجلة البيئة، السنة
الاولى، العدد الثالث، الرباط، ١٣٨٢هـ (يوليو ١٩٦٢م).

الوادي الاحمر^(١)، فبادر تاسفين بن على للقائهم وملاحقتهم واشتبك معهم في قتال عنيف انتهى بهزيمة القشتاليين، وأتى القتل عليهم، واستولى المسلمون على أمتهم وأسلحتهم، وسار تاشفين بن على بالأسرى والغنائم الى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة، فأصلح أحوالها وحصن أسوارها وترك الأسرى لدى أهلها ليفتدوا بهم من أرادوا من أسراهم^(٢). وفي عام ٥٣٦هـ (١١٤٢م) استولى المرابطون على قلعة مورة الحصينة فقام القشتاليون في العام التالي (٥٣٧هـ / ١١٤٣م) بقيادة مونيو الفونسيز حاكم قلعة مورة السابق بغزو قرطبة كرد فعل لتفريطه في الدفاع عن قلعة مورة، فانتسف المروج الخصبة الواقعة على ضفاف نهر الوادي الكبير في نواحي قرطبة، وتمكن من إيقاع الهزيمة بقوة من المرابطين يقودها واليا قرطبة واشبيلية لذين استشهدا في ساحة المعركة، واستشهد معهما عدة آلاف من المسلمين^(٣). وفي العام التالي (٥٣٨هـ / ١١٤٤م) قامت حملة قشتالية جديدة بقيادة كل من مارتن فارنانديث ومونيو الفونسيز لتحول دون قيام المسلمين بتحسين قلعة مورة، فخرج والي قلعة رباح في قواته - وتسميه المصادر النصرانية فرج - واشتبك مع القشتاليين في معركة هزم فيها القشتاليون وفر مارتن فرنانديث جريحا بينما سقط مونيو الفونسيز

(١) الوادي الاحمر هو المعروف اليوم باسم Cuadalarimar نهير من نهيرات الوادي الكبير ينبع من جبال شقورة، وهذا النهر يتكون من نهيرات صغيرة arroyos تمتلئ بالماء بعد المطر وتصبح مخاضات.

Diccionario Geogra Fico Espanol, X, 420 - 421.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٤، ص ٨٥، ٨٦، ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، ج ١، ص ٤٥١، عن المرابطين والموحدين ص ١٣٤، ١٣٥.

(٣) ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكتامي): نظم الجمان في اخبار الزمان، نشر وتحقيق د. محمود مكي: الرباط ١٩٧٤م، ص ٢٤٤، عن المرجع السابق، ٥٠٧، اسباخ، تاريخ الاندلس، ص ١٨٣، ١٨٤.

صريعا وفصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده، وارسلت الى قرطبة واشبيلية لى تعرض على زوجى الوالين القتيلين عزاء لهما، ثم حملت بعد ذلك الى أمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف بمراكش، ثم ارسلت بقية جثة مونيو الفونسيز الى القشتاليين مقابل ارسالهم لرأس الوالين المسلمين^(١).

ظل الصراع بين المرابطين والقشتاليين محتدما حول قلعة رباح الى ان تمكن الفونسو السابع^(٢) ملك قشتالة من الاستيلاء عليها فى أواخر سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م)،

(١) اشباح، تاريخ الأندلس، ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، عنان عصر المرابطين والموحدين ص ٥٠٧.

Lafonte: historia general de Espana, p. 291 - 292.

(٢) الفونسو السابع هو الفونسو (ألفونس) بن رمند Alfonso raimundeز وأمه هى أراكة Urraca ابنة الفونسو السادس ملك قشتالة. وكانت أراكة قد تزوجت من كوند (كندسبينا) Condespina المسمى Gomes Gonzales وأنجبت ألفونس بن رمند Alfonso, Raimundes ثم مات هذا الكوند. وبعد موت الفونسو السادس ١١٠٩م سعى النبلاء حتى زوجوا أراكة هذه من الفونسو الأول ملك أراغون المعروف بالمحارب حتى تتحد أراغون وقشتالة، وقد تم الزواج فى سبتمبر ١١٠٩م، وأصبح الفونسو الأول بالفعل ملك أراغون وقشتالة فأضاع هذا الزواج حق الفونسو ريموندس ابن أراكة وولى عهدها الشرعى ووريث الفونسو السادس الشرعى فقام أنصاره يطالبون بحقه وتم الانفصال بين الزوجين سنة ١١١٤م، وتم الاتفاق على أن يكون الفونسو المحارب ملكا على أراغون وقشتالة وتكون أراكة ملكة على ليون وجليقية وذلك بعد حروب طويلة، فلما ماتت أراكة خلفها أبناها الفونسو ريموندس باسم الفونسو السابع، وقد سماه أهل الأندلس بالسليطين لأنه ولى عرش قشتالة صغير السن.

راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الخاص بعصر الموحدين ص ٦٥ ابن الخطيب اعمال الأعلام، ق ٢ ، ص ٣٣١، اشباح، تاريخ الأندلس ص ٢٣١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ :

Dozy, Recherches sur L'histoire etlitterature de L'espagne pendant le Moyen age, Leiden 3 eme ed. ,p. 115-116

Aguado Bleye, Manual de la Historia de Espana, P. 617-619.

Miranda : Historia Politica del imperio Almohade, Tetuan 1957 p. 179, 183, 235.

فأحدث ثغرة خطيرة فى خطوط الدفاع الاندلسية، يخرج منها لمهاجمة المسلمين فى قلب الاندلس^(١).

قلعة رباح فى عصر الموحدين:

سقطت دولة المرابطين على ايدى الموحدين سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م)، وفرض الموحدون سيادتهم على الاندلس وورثوا عن المرابطين عبء الجهاد ضد القوى النصرانية فى الاندلس، وقد تجدد الصراع الاسلامى النصرانى حول قلعة رباح، اذ كانت القوات الموحدية تزحف على هذه القلعة من آن لآخر وترهقها بمهجماتها العنيفة، وكان الفونسو السابع ملك قشتالة قد عهد الى فرسان الداوية^(٢) بالدفاع عنه، ولكنهم عندما ايقنوا بعجزهم عن الاحتفاظ بها ازاء تفوق القوات الموحدية، غادروها وردوها الى الفونسو السابع ملك قشتالة، وكان يوجد وقتئذ فى مدينة طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس دير فيترو ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى ديجو بلاسكيث وكان

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٢٢٢، عنان، عصر المرابطين، ص ٢٧١ .

(٢) فرسان الداوية أو فرسان المعبد Templares تعتبر من أشهر جماعات الفرسان الدينية التى قامت فى العصور الوسطى فى بداية الحروب الصليبية. وقد أنشأت جماعة فرسان الداوية سنة ١١١٩م فى بيت المقدس عقب سقوطها فى يد الصليبيين وذلك لحماية الحاج الى قبر المسيح عليه السلام، وأفراد ملك بيت المقدس جناحا فى قصره ثم سلم اليهم المعبد المجاور له، ومنه استقوا اسمهم "فرسان المعبد" ونمت هذه الجماعة بسرعة واشتد ساعدها بمن انضم اليها من النصارى، ولعبت دورا هاما فى حوادث الحروب الصليبية سواء فى المشرق او فى الاندلس.

راجع: د. ابراهيم خميس سلامة "الداوية ودورهم فى الحروب الصليبية" رسالة ماجستير، نوقشت بكلية اداب اسكندرية ١٩٨٠م.

فارسا ظهر فى ميدان الحرب وربى فى البلاط، فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك الفونسو السابع لما يتوقعه من سقوط قلعة رباح فى يد الموحدين، اعتزما ان يتوليا الدفاع عنها، وطلبا من الملك أن يعهد بها اليهما، فأجابهما الملك لما كان يعلمه من ورع الراهب ريموند ورفيع مكانته لدى الناس، وأيد يوحنا مطران طليطلة مشروع الرجلين والقى عظات دينية وعد فيها بالغفران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح، ولم يمتضى سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموند أن يجمع حوله فى قلعة رباح عشرين ألف مقاتل، وامده كثيرون ممن لم يشتركوا فى الدفاع عن قلعة رباح باشخاصهم بالخييل والدواب والسلاح والمؤن والمال، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضرورى للدفاع عنها، ولذا وجد الموحدون انه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة قلعة رباح بعد تلك الاجراءات الى اتخذت للدفاع عنها^(١).

رأى الراهب ريموند ان يكون من هؤلاء المقاتلين الذين دافعوا عن قلعة رباح وكرسوا حياتهم للدفاع عن النصرانية ضد الاسلام جمعية اطلق عليها "جماعة فرسان قلعة رباح" وتألفت نواتها الاولى من رهبان ديرفيتور والذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم الى اللحاق برئيسهم ريموند بقلعة رباح وهم يحملون معهم كل ما فى الدير من متاع ومؤن واقره وطبقت على هؤلاء الفرسان النظم الحربية وانتخب الراهب ريموند كأول اسقاز للجماعة وقد صادق البابا اسكندر الثالث^(٢) على قيامها وتوالت

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٥١٩.

(٢) توفي البابا اندريان الرابع فى عام ١١٥٩ فخلقه الكاردينال رولاند الذى لقب باسم اسكندر الثالث والذى ظل فى منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ - ١١٨١م) وحرص طولها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف. وقد كان البابا ==

عليها الهبات الضخمة من الملوك والامراء والافراد من انحاء الغرب الاوربي(١).

ظلت قلعة رباح محورا للصراع بين الموحيدين والقشتاليين ففي شهر شعبان سنة ٥٦٨هـ (مارس ١١٩٣م) قام حاكم آبله الكونت خمينو (المعروف بالاحدب)(٢) بعدة غارات مخربة ضد اراضي المسلمين حتى وصل الى احواز مدينة قرطبة، فأمر الخليفة الموحدى ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ابن علي (٥٥٨-٥٨٠ هـ/١١٦٣-١١٨٤م) جيوش الموحيدين بمطاردة الجيوش القشتالية التي كانت قد وصلت الى مكان يسمى فحص كركوى(٣) في طريقهم الى قلعة رباح، فأحاطت بهم الجيوش الموحيدين وألحق بهم هزيمة كبيرة وقتلوا الكونت خمينو واحتزوا رأسه وقتلوا جميع من كان معه ولم ينج الا نحو مائتي فارس.(٤)

اسكندر الثالث وراء تحويل الصراع بين المسلمين والنصارى الى حروب صليبية تعتبر امتدادا للحروب الصليبية في المشرق الاسلامي.
راجع: عاشور (د. سعيد عبد الفتاح): اوربا العصور الوسطى الجزء الاول، الطبعة السابعة، القاهرة ١٩٧٨م، ص ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٩، ٥٣٧.

(١) اشباح، تاريخ الاندلس، ص ٢٦٨، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٥١٩، ٥٢٠.
Montero : Laorden de calatrava 1959 p. 8, 15, 16-18.

(٢) الكونت خمينو ويعرف احيانا بالقومس الاحدب و احيانا بأبى برذعه و احيانا شان منوش Sancho Jimeno ولقب بالاحدب اما انه كان كذلك أو من قبيل النيز باللقاب، ولقب بأبى برذعه لأن له - على ما قيل برذعه من الحرير منسوجه بالذهب مكلله بأصناف الجواهر.

- ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة، ص ٢٩٨، ابن أبى زرع، روض القرطاس ص ١٨٧، ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٥٠٠ - ٥٠١.

(٣) يقع حصن كركوى في جنوب طليطلة وهو الذى يسمى الآن بـ Caracuel

(٤) ابن صاحب الصلاة، المن بالامامة، ص ٥١٨-٥٢٢، ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٥، ص ١٢٤-١٢٦، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٨٧ - ٨٨.

Miranda, Las Grandas Batallas de la Reconquista, Madrid 1956 P. 160 .

معركة الارك واسترداد قلعة رباح

فى اوائل عام ٥٩١ هـ (١١٩٥م) خرج الخليفة ابو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤-١١٩٩م) للجهاد ضد القوى النصرانية، فعبّر مضيق جبل طارق ووصل الى مدينة اشبيلية ومنها الى مدينة قرطبة فوصلها يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رجب سنة ٥٩١ هـ (الثلاثين من شهر يونيو سنة ١١٩٥م) ثم خرج من قرطبة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رجب (الرابع من شهر يوليو ١١٩٥م) متجها صوب قلعة رباح فأرسل فرقة من الجند لاستطلاع أحوال قلعة رباح، فخرج إليهم بعض فرسانها فأوقع الموحدون بهم هزيمة مريرة وتركوها على حد قول ابن عذارى ولائم للنسور والعقبان^(١).

كان الفونسو الثامن^(٢) ملك قشتالة قد علم بانباء عبور جيوش الموحدين الى

(١) راجع البيان المغرب، الجزء الخاص بعصر الموحدين، ص ٢١٨، ٢١٩.
(٢) توفى القيصر الفونسو ريمونديس فى اغسطس ١١٥٧م فقسمت مملكته بين ولديه، أختص ولده سانشو الثالث بعرش قشتالة واختص ولده الصغير فرناندو بمملكة ليون وجليقية واشتوريش مع حق السيادة على مملكة البرتغال. مما ادى الى نشوب الحرب بين الاخوين ملكى قشتالة وليون وتمكن سانشو من ان يرغم اخيه على الاعتراف بسيادته وان يؤدي له الجزية. وكان سانشو الثالث يطمح فى تكوين حلف من الممالك الاسبانية لمحاربة الموحدين، ولكن هذه الاحلام تحطمت بوفاة سانشو فى اواخر اغسطس ١١٥٨م، ولم يترك لورائه عرشة سوى طفل فى الثالثة من عمره هو الفونسو الملقب بالنبيلى وترك فى وصيته ان تقوم اسرة كاسترو الشهيرة بالوصاية عليه ولكن فرناندو الثالث ملك ليون سار الى قشتالة فى جيش ضخم كى يحمى ابن اخيه، واحتل قشتالة وأعلن انه يتولى الحكم والوصاية على ابن اخيه، واعترف بطاعته معظم الشعب القشتالى وذلك سنة ١١٩٥م، مما ادى الى حدوث صراع دموى عنيف بين اسرتى كاسترو ولارا

الاتدلس، فحشد حشودا ضخمة، وارسل الى جميع ملوك وامراء اوربا يطلب سرعة ارسال الامدادات اليه وظل فى مدينة طليطلة حتى وصلت الامدادات اليه فاخترق وادى أنه متجها صوب قلعة رباح ومنها الى حصن الارك (Alarcos) الذى كان قد ابتناه النصرارى على مقربة من قلعة رباح ليكون خط الدفاع الاول عن قلعة رباح ومدينة طليطلة. (١)

استمر الخليفة يعقوب المنصور فى سيره مخترقا قلعة رباح دون أن يستولى عليها حتى وصل الى المعسكر النصرانى عند حسن الارك، حيث دارت يوم الاربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (التاسع عشر من شهر يوليو ١١٩٥م) معركة الارك الشهيرة التى احرز المسلمون فيها انتصارا عظيما على الجيوش النصرانية ويصف ابن عذارى ما حدث للنصارى يوم الارك وصفا رائعا بقوله: "وأجلت الحرب عمن حصيلة من القتلى كالزراع المحصود والصخر المنضود كابين على الوجوه لغير سجون ومستقلين على الجنوب دون هجود وكما يحشرون يوم النشور اذا بعثر ما فى القبور". (٢) وكان من أهم نتائج معركة الارك استيلاء الموحدين على قلعة رباح، اذ

==فانضم فرناندو الى اسره كاسترو، ولكن الامر انتهى بانتصار اسرة لارا التى تمكنت من اقتحام طليطلة ودعت جميع القشتاليين الى الالتفاف حول الملك الشرعى (الفونسو الثامن النبيل) وذلك سنة ١١٦٦م.

راجع : Dozy, Rech., p. 115-116; Huici Miranda, Historia, Politico 1, p. 240, 255, 363.

(١) يصف الحميرى الارك بقوله: "هو حصن منيع بمقربة من قلعة رباح أول حصون اذفونشى بالأندلس" ويسمى اليوم Santa Maria de Alarcos

راجع: الروض المعطار، ص ٢٧ وهامش (٣) من نفس الصفحة.

(١) البيان المغرب، الجزء الخاص بالموحدين، ص ٢١٩، ٢٢٠ وراجع ايضا ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٢٩، الحميرى، الروض المعطار، ص ٢٧

هاجمها الموحدون وانتزعوها بعد قتال عنيف من ايدي فرسان قلعة رباح وقتل اثناء القتال استاذ الجماعة نونيودي فونتيس، وكان استرداد المسلمين لها بعد أن ظلت في ايدي النصاري احدى وخمسون سنة وعشرة اشهر، وقد أمر الخليفة يعقوب المنصور بتطهير مسجدها الجامع الذي كان قد حول الى كنيسة، وادى شعائر الصلاة فيه، وقدم على قلعة رباح يوسف بن قاس (١).

معركة العقاب واستيلاء النصاري على قلعة رباح

توفي الخليفة يعقوب المنصور في الثاني والعشرين من ربيع الاول عام ٥٩٥ هـ (الثاني والعشرين من شهر يناير عام ١١٩٩م) وتولى الخلافة الموحدية ولده محمد الملقب بابي عبد الله الناصر لدين الله (٥٩٥ - ٦١٠ هـ / ١١٩٩ - ١٢١٣م) في نفس الوقت الذي أخذ الفونسو الثامن (النبييل) ملك قشتالة يتأهب لمحاربة المسلمين، فبدأ بتحسين قلعة مورة الواقعة على الحدود الاسلامية القشتالية تحصينا قويا سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩م) ثم سار في جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح (٢) الى اراضى

== اشباخ، تاريخ الأندلس، ص ٣٢٣ - ٣٢٧ ، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٢٠٠ - ٢١٤.

Miranda : Las Grandas Batallas Ip. 137 - 169

(١) ابن ابي زرع روض القرطاس، ص ٢٢٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٧؛ اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٢٦، ٣٢٧، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٢١٤؛

Miranda : Las Grandas Batallas, P. 171 - 172.

(٢) كان فرسان قلعة رباح قد احتشدوا في قلعة شليطرة الواقعة على مقربة من قلعة رباح، وكانوا قد لجأوا اليها منذ ان انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من ايديهم عقب معركة الارك، وكانت قلعة شليطرة المنبوعة فضلا عن مضايقتها للقلعة رباح باستمرار يتخذها النصاري قاعدة لغزواتهم المخربة داخل اراضى ==

المسلمين، فانتسفت الحقول ونهب القرى وقتل السكان وسبى منهم جموعا كبيرة ثم عاد الى طليطلة، فالتقى مع ملكى نافار وأراجون ووثق معهما عهود الصلح وحصل منهما على وعد بتأييده لمواجهة المسلمين، واعتزم محو وصمة هزيمة الارك باحراز نصر كبير على جيوش الموحدين فى الاندلس، ولذا غزا فى عام ٦٠٧ هـ (١٢١٠م) اراضى الاندلس ووصل الى احواز مدينة مرسية^(١). ثم عاد الى طليطلة متقلا بالغنائم.^(٢)

أعلن الخليفة محمد الناصر لدين الله الجهاد، وحشد حشودا ضخمة ثم عبر على رأس هذه الحشود الى الاندلس فى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٦٠٧ هـ

===المسلمين، ومن ثم فقد آل الناصر على نفسه أن يفتح غزاته بالاستيلاء على قلعة شلبطرة الحصينة.

راجع: ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص ٢٢٦.

(١) مرسية Murcia مدينة فى جنوب شرق الاندلس، تبعد عن البحر بنحو ٦٤ كم ومينائها عليه تسمى قرطاجنة Cartagena واسم مرسية القديم هو تدمير نسبة الى تيودومير حاكم هذه المنطقة ايام الفتح العربى لاسبانيا وهو الذى عقد معاهدة مع عبد العزيز بن موسى بن نصير احتفظ فيها بشيء من الاستقلال بهذه المنطقة الشرقية. وفى عهد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) تحولت هذه المنطقة الى كورة عادية قاعدتها اوربولة Orihuela وفى عام ٢١٦ هـ (٨٢١م) اختطت مدينة مرسية ايام الامير عبد الرحمن الاوسط على يد جابر مالك بن لبيد عامل تدمير يومئذ ولم تلبث مرسية ان صارت قاعدة لكورة تدمير ثم سميث الكورة كلها باسمها. وبعد سقوط الخلافة الاموية بقرطبة استقل بحكم مرسية وكورتها المولىان العامريان الصقليبان خيران وزهير ثم ضمت الكورة الى بلنسية ثم انفصلت عنها بعد ذلك على ايام المرابطين. وفى اواخر ايام الموحدين استقل بها محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل واصبحت تسمى باسم مملكة مرسية. واخيرا سقطت فى يد ملك اراجون خايمى الاول سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م).

الغذارى، ترصيع الاخبار، ص ١٠؛ ابن الابار، الحلة السيرة، ج ١ ص ٦٣ ، ج ٢ ، ص ٣١٦؛ الحميرى، الروض المعطار، ص ١٨١-١٨٣.

(٢) ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ ، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٨٤ ، ٢٨٥.

(اوائل مايو ١٢١١م)، فنزل على الساحل الجنوبى للأندلس ثم اتجه صوب مدينة اشبيلية حيث استراح قليلا، ثم خرج من اشبيلية فى اوائل عام ٦٠٨ هـ (يوليو ١٢١١م) الى حصن شلبطرة الجبلى الحصين، ولبت الجيش الموحدى أمام هذا الحصن ثمانية أسابيع وهو ممتنع عليه، حتى اضطرت الحامية النصرانية المدافعة عنه الى التسليم وذلك فى اوائل ربيع الاول سنة ٦٠٨ هـ (اغسطس سنة ١٢١١م). (١)

ارسل الفونسو الثامن (النبيل) الى البابا انوسنت الثالث (٢) وسائر ملوك وامراء اوربا يدعوهم للاشتراك فى الحرب الصليبية ضد المسلمين فقد دعا الفونسو الثامن الى عقد مؤتمر فى مدينة طليطلة شهده بعض ملوك وامراء اوربا للدعوة الى اعلان الحرب المقدسة ضد المسلمين، فاجتمعت فى مدينة طليطلة حشود ضخمة من جميع

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٢٧، الحميرى، الروض المعطار، ص ٣٤٤، اشباخ، تاريخ الأندلس، ص ٣٥٧، ٣٥٨، عنان، عصر المرابطين والموحدين ص ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) تولى انوسنت الثالث الكرسي البابوى سنة ١١٩٨م، وقد امتاز بشخصية قوية مكنته من تحقيق كما كانت تطمح فيه البابوية من سمو. وقد شبه انوسنت الثالث البابوية بالشمس والامبراطورية بالقمر الذى يستمد ضوؤه من الشمس، ولذا نادى بسيادة البابوية على الامبراطورية وعلى ايامه استولى الصليبيون على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، كما وضع مشروع الحملة الصليبية الخامسة على مصر كما بلغ نفوذ البابوية الروحية والفكرى والدينى ذروته فى عهد انوسنت الثالث فقد استطاع ان يلعب دوره بمهاره فى السياسة العالمية لغرب اوربا وان يفرض كلمته على أعظم حكام الغرب - بل الشرق - المسيحيين، كما كان صاحب الدور الكبير فى اثاره الحماسة الصليبية فى اسبانيا، وتشجيع جماعات عديدة من انحاء غرب اوربا لعبور جبال البرانس والمشاركة فى الحرب المقدسة ضد المسلمين.

راجع: سعيد عاشور، اوربا العصور الوسطى، ج ١، ص ٣٧٩، ٤٤٣، ٤٤٦، ٤٩٤، ٥٣٧، ٥٤٩.

انحاء اوربا، وليس أدل على الامة التي كان يعلقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الاندلس من اشتراك تلك الحشود الضخمة، وكون الالاف منهم كانوا يتقلدون الصليب بل ان البابا انوسنت الثالث امر بالصوم ثلاثة ايام والاكتفاء بالخبز والماء التماسا لانتصار الجيوش الصليبية، بل واقامت الصلوات العامة، وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات الى ارتداء السواد والسير حفاة، كما القى البابا انوسنت الثالث بنفسه موعظه صليبية طلب فيها الى النصارى أن يضرعوا الى الله التماسا لتصر النصارى^(١).

سارت الجيوش الصليبية صوب اراضى المسلمين، فوصلت طلائعهم فى الحادى والعشرين من المحرم سنة ٦٠٩ هـ (الرابع والعشرين من يونيو سنة ١٢١٢م) الى حصن مجلون فاستولوا عليه بعد أن قتلوا جميع افراد الحامية الاسلامية المدافعة عنه، ويبدو أن الجيوش الصليبية أخذت تعاني من نقص المؤن فضلا عن ارتفاع درجة الحرارة، ففكر الكثير منهم فى العودة الى بلادهم، ولكن وصول الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة الى قلعة مجلون فى اليوم التالى للاستيلاء عليها، فهذا من روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع ان يقنعهم بالمسير صوب قلعة رباح.^(٢)

لقيت القوات الصليبية فى عبور نهر وادى أنه الذى يقع عليه قلعة رباح صعابا فادحة، اذ كان المسلمون قد احاطوها من ثلاثة جوانب بسلسلة حصينة من الخوازيق الحديدية، كما كانت القلعة مجهزة بالابراج العالية والاسوار المنيعة، فتكبدت القوات الصليبية افدح الخسائر خلال هذا الهجوم الصليبي، وقبل ان يعاود الصليبيون الهجوم

(١) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٦٠ ، ٣٦١.

(٢) اشباخ، تاريخ الاندلس، ص ٣٦١.

مرة أخرى عقدوا مجلس حرب للبحث فيما إذا كان من الأفضل ان تقتصر الجيوش
لصليبية على تطويق القلعة دون محاولة افتتاحها الا بعد خوض المعركة الحاسمة مع
الجيوش الاسلامية، ولكن غلب الرأى بوجوب مهاجمة قلعة رباح، اذا كان من
المعروف انها تحتوى اموالا طائلة وكميات كبيرة من المؤن والعتاد. (١)

كان ابو الحجاج يوسف بن قادس على رأس المدافعين عن قلعة رباح فى سبعين
فارسا من انحاء المسلمين، فلما شددت القوات الصليبية حصارها لقلعة رباح، صمد
يوسف بن قادس، وكان يرسل فى كل يوم كتابا الى امير المؤمنين محمد الناصر لدين
الله يخبره بسوء احوال المدافعين عن القلعة ويستمدده ليوصل صموده ضد الصليبيين،
فكانت كتب ابن قادس اذا وصلت الى المعسكر الاسلامى منعها الوزير ابن جامع (٢)

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٧، اشباح، المرجع السابق، ص ٣٦١،
٣٦٢، عنان، عصر المرابطين، ص ٢٩٦.

(٢) بنو جامع أسرة خدمت الموحدين، واصلهم القديم من مدينة طليطلة، واول ما
نسمع به منهم ابراهيم بن جامع، فقد نشأ بضیعة تسمى روطة Rota بساحل مدينة
شريش على المحيط الاطلسى ثم انتقل ابراهيم هذا الى بلاد المغرب فتعرف
بمحمد بن تومرت (مهدى الموحدين) فكان من اصحابه، وظل فى خدمة محمد بن
تومرت ثم عبد المؤمن بن على حتى كان يعيش فى قصر عبد المؤمن وفيه ولد
له ابنه ادريس الذى استوزره ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. وكان لادريس
هذا أخ يسمى عبد الله بن ابراهيم كان يتولى مدينة سبتة وجهاتها وقيادة الاسطول
وفى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٦م) غضب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على ادريس
واولاده ونفاهم الى مدينة ماردة الى ان صفح الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة
٥٨٠ هـ (١١٨٣م). وقد انجب عبد الله ابن ابراهيم عددا من الاولاد كان ابراهيم
ابو سعيد عثمان الذى تولى الوزارة للخليفة الموحدى محمد الناصر ثم لابنه أبى
يعقوب يوسف الذى تلقب بالمستنصر بالله الى ان عزل سنة ٦١٥ هـ (١٢٢٨م)
وقتل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٣م).

ولا يطلع عليها الخليفة محمد الناصر فلما ينس ابن قادس من شدة الحصار ونفذت
المؤن والعتاد وخشى ان يقتحم الصليبيون القلعة ويستولون عليها عنوة، ارسل سرا
وتحت جنح الظلام الى الفونسو الثامن ملك قشتالة يعرض عليه تسليم القلعة مقابل منح
الامان للحامية الاسلامية والسماح لها بالانسحاب بسلامها. وكان الفونسو الثامن يميل
الى هذا الحل السلمى كى يستولى على قلعة رباح دون اراقه دماء، ولكن حلفاءه من
الارجونيين والمحاربين الوافدين رفضوا هذا العرض السلمى، ولكنهم اضطروا الى
قبول هذا العرض السلمى عندما ابدى المسلمون عزمهم على الصمود والمقاومة، وقد
تم الاتفاق على انسحاب الحامية الاسلامية دون سلاح، فدخلها النصارى وسلمت الى
جمعية فرسان قلعة رباح^(١).

سار ابو الحجاج يوسف بن قادس بحامية قلعة رباح وبصحبته صهره الى الخليفة
محمد الناصر لدين الله، وطلب يوسف بن قادس من صهره الرجوع قائلاً: "ارجع فأتى
والله مقتولا لا محالة، ولا أعيش بعدها ابداً، لكنى بعت نفسى من الله تعالى بسلامة
من كان فى الحصن من المسلمين" فأبى صهره الرجوع، فلما وصلا الى معسكر
الخليفة محمد الناصر لدين الله، أثبل عليهما قواد الاتدلس مرحبين ومهنيين ولكن
الوزير ابو سعيد عثمان بن جامع أمر بسرعة القبض عليهما واغرى الخليفة محمد

== عن اسرة بنى جامع راجع: حمدى عبد المنعم محمد حسين، اسرة بنى جامع
ودورها فى عصر الموحدين فى المغرب والاندلس، مجلة كلية الاداب جامعة
الاسكندرية، العدد (٤١) سنة ١٩٩٢م.

(١) ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٧، المراكشى، المعجب، ص ٢٨٥، ابن
عذارى، البيان المغرب، الجزء الخاص بعصر الموحدين، ص ٢٣٥، الحميرى
الروض المعطار، ص ٤١٦، اشباخ، تاريخ الاتدلس، ص ٣٦٢، ٣٦٣ عنان
عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٩٦-٢٩٧؛

Miranda : Las grandas Batallas , P. 242 - 245.

الناصر بهما حتى أمر بقتلهما، فقتلا في الحين دون سماع دفاعهما مما ادى الى انتشار السخط بين قواد الاتدلس، فلما علم الوزير ابو سعيد عثمان بن جامع بذلك استدعى هؤلاء القواد وطلب منهم اعتزال الجيش الموحدى وقال لهم قول الله تعالى: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولا وضعوا خلائكم" كما أن الخليفة محمد الناصر لدين عندما علم بسقوط قلعة رباح وهى امنع ثغور المسلمين فى مواجهة النصارى، شق عليه ذلك حتى امتنع عن الطعام والشراب مما ادى الى اصابته بالمرض. (١)

كما كان لسقوط قلعة رباح فى ايدى الصليبيين تأثيره البالغ على المعسكر النصراني، وذلك ان المحاربين الوافدين غضبوا لخروج الحامية الاسلامية دون اراقة دماء، وحقدوا على الفونسو الثامن (النبيل) ملك قشتالة لأنه حرّمهم من الغنائم ولاسيما أنه عندما دخل قلعة رباح وجد كميات كبيرة من المون فوزعها بالتساوى على جميع المحاربين الصليبيين وقد زعموا أن الفونسو الثامن استأثر لنفسه بجميع التحف والنفائس التى عثر عليها بقلعة رباح، فأعلنوا رغبتهم فى العودة الى بلادهم متعللين بارتفاع درجة الحرارة فى اسبانيا وبأنهم اوفوا بعهدهم فى قتال المسلمين بما خاضوه من معارك أمام اسوار ملجون وقلعة رباح وقد ايدهم فى ذلك اعظم احبارهم مطران بوردو، فتركوا المعسكر الصليبي عائدين الى بلادهم ولم يبق منهم سوى ارنولد أسقف اربونة، والكونت تيوبولد بلاسكون وهو اسباتى المولد، وكانا قد أتيا الى اسبانيا على رأس مائة وخمسين فارسا وغادر الباقون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل غاضبين، وقد خشى النصارى عواقب اعتدائهم ونهبهم فأغلقوا فى وجههم جميع المدن الاسبانية. (٢)

(١) ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.

(٢) المراكشى، المعجب، ص ٢٨٦، الحميرى، نفسه، ص ٤١٦، أشباخ، نفسه ص ٣٦٣ ، ٣٦٤، عنان، نفسه، ص ٢٩٧.

وعلى أثر سقوط قلعة رباح غادر الخليفة محمد الناصر على رأس جيشه مدينة جيان وسار الى الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير نحو مدينة بياسة بينما احتلت سرحدات من خيرة جنده ممرات جبال الشارات (سييرامورينا) ومنها ممر لوسا الوعر حيث نزلت الجيوش الموحدية وقد دارت معركة من أهم معارك الصراع بين المسلمين والصليبيين تسمى فى المصادر العربية باسم معركة العقاب^(١) بينما تسمى فى المصادر النصرانية باسم معركة نافاس دى تولوسا Navas de tolose وذلك يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ (السادس عشر من شهر يوليو ١٢١٢م) انتهت بهزيمة مريرة للمسلمين^(٢). وقد اجمع المؤرخون على أن سقوط قلعة رباح فى ايدى النصارى كان من أهم أسباب نكبة العقاب لأن قواد الاندلس الذين غضبوا لما حدث ليوسف بن قانس وموقف الوزير ابى سعيد عثمان بن جامع وتوبيخه لهم قد تخاذلوا خوفا من أن يحدث لهم ما حدث لابن قانس^(٣) كما كان لسقوط قلعة رباح

(١) العقاب قرية من قرى الاندلس تقع بين جيان وقلعة رباح وتعرف اليوم باسم لاس نافاس دى تولوسا، Las Navas de Tolosa وسمى هذا الموضع باسم حصن العقاب الذى اقامه الامويون فى نفس الموضع، وقيل سمي بهذا لوقوعه بين التلال والربى المانع.

راجع: الحميرى، الروض المعطار، ص ٤١٦.

(٢) عن معركة العقاب راجع:

ابن ابى زرع، روض القرطاس، ص ٢٣٨ - ٢٤٠، الحميرى، الروض المعطار، ص ٤١٦، اشباخ، تاريخ الاندلس، ٣٦٥، ٣٦٦، عنان، عصر المرابطين والموحدين، ص ٢٩١ - ٣٢١، العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس ص ١٧٣ - ١٧٧.

Miranda Historia politica, vol. 11, po 101 - 110 .

Las Grandas Batallas p. 265 - 278

(٣) أما اسباب هزيمة العقاب فمنها ما يلى:

١- تغير قلوب الموحدين وسخطهم على الورراء لتأخر صـرف رواتبهم وأعطياتهم، اذ كان المتبع منذ ايام الخليفة ابى يعقوب المنصور أن يمنح

أكبر الأثر في سيطرة النصارى على أهم الثغور الإسلامية المدافعة عن الأندلس، ولم يكتب لقلعة رباح أن تعود مرة أخرى للسيادة الإسلامية.

== العطار للجند كل أربعة أشهر دون تأخير، ولكن العطار أصبح يتأخر في عهد الخليفة محمد الناصر، فنسب الجند ذلك إلى الوزراء، فخرجوا للغزو وهم كارهون وقد ضعفت روحهم المعنوية.

راجع: المراكشي، المعجب، ص ٣٢١، ٣٢٢، الحميري، الروض المعطار ص ١٧٤، ١٧٥، عنان، عصر الموحدين، ص ٣١٨، العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٧٤، ١٧٥.

٢- اختلال نظام الامدادات نظرا لابتعاد الجيوش الموحدية عن قواعدها مسافات طويلة، فضلا عن اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد، وعدم اتساق تنظيماتها وتناثر العناصر المكونة منها، وعدم توحيد قيادتها بأيدي قادة يتسمون بالبراعة العسكرية.

راجع: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٦٠، ٢٦١.

٣- حركة التطهير الشاملة التي أجراها الناصر قبيل معركة العقاب ضد الفساد وسوء الإدارة واقصاء العمال الظلمة والمرتشين في جميع أنحاء دولته. وقد نكب في هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها على يد صاحب الاغتيال أبو محمد ابن أبي علي بن مثنى.

راجع: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٣، ص ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، العبادي، دراسات، ص ١٧٥.

٤- ارتفاع الروح المعنوية للجند النصارى واتحاد كلمتهم وتلقيهم البركة والغفران البابوي على يد الأساقفة ورجال الدين، فقد حشدت قوى النصرانية كلها ضد إسبانيا المسلمة واتخذت الحرب الصليبية شكلها الحقيقي.

راجع: اشباخ تاريخ الأندلس، ص ٣٦١، ٣٦٢.

٥- استبداد الناصر بالامر، وعدم استرشاده بأراء أشياخ الموحدين في تسيير شئون الدولة الكبرى، حتى أنه رفض نصيح الشيخ أبي محمد عبد الواحد حينما استشاره في شئون الأندلس، بالألا يسير إلى غزوته الكبرى التي انتهت بنكبه في موقعة العقاب.

راجع: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٥٧، السلاوي، الاستقصاء ج ٢، ص ١٩٧، ١٩٨، اشباخ، تاريخ الأندلس ص ٣٥٠، العبادي، دراسات، ص ١٧٤.

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصادر العربية

(١) ابن الأثير (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى)

ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م

-الحلة السبراء، تحقيق د. حسين مؤنس
للطبعة الاولى، في جزئين، القاهرة ١٩٦٣ م.

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الجزرى)

ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م

-الكامل فى التاريخ، طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ .

(٢) الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الشريف)

ت حوالى ٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م

-صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس من كتاب نزهة
المشتاق فى اختراق الافاق، نشره وترجمه الى الفرنسية نوزى
ودى غوية ليند ١٨٦٦ م.

(٤) ابن بسلام (أبو الحسن على الشنترنينى)

ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٧ م

-الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت
١٩٧٩ م.

(٥) البيذق

(ابو بكر بن الصنهاجى)

ت فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أخبار المهدى
بن تومرت وابتداء دولة الموحيدين تقديم وتحقيق عبد الحميد
حاجيات، الجزائر ١٩٧٤م.

(٦) ابن حزم

(ابو محمد على بن أحمد بن سعيد)

ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤م

-جمهرة انساب العرب، وتحقيق عبد السلام هارون،
دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م.

(٧) الحميرى

(ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجى)

ت بعد عام ٨٦٦ هـ (١٤٦١م)

الروض المعطار فى خبر الاقطار

تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٨٤م.

(٨) ابن حيان

(ابو مروان حيان بن خلف)

ت ٤٦٩ هـ (١٠٧٩م)

-المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس

نشرة الاب ملشور اتطوانية، باريس ١٩٣٧م

المقتبس فى أخبار بلد الاندلس

نشر وتحقيق د. عبد الرحمن الحجى، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥.

-المقتبس من انباء أهل الاندلس.

نشر وتحقيق د. محمود علي مكي، بيروت ١٩٧٣م

-المقتبس (الجزء الخامس)

نشر بدرو شالميتا وكورينطي ومحمود صبح، نشر المعهد الاسباني

العربي للثقافة بالاشتراك مع كلية الاداب بالرباط، مدريد ١٩٧٩م.

(٩) ابن الخطيب (لسان الدين عبد الله محمد)

ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م.

-اعمال الاعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الاسلام.

-الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا، نشره ليفي بروفنسال باسم تاريخ

اسبانيا الاسلامية، الرباط ١٩٣٤م.

-اعمال الاعلام فيمن بويق قبل الاحتلال من ملوك الاسلام.

-الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية، نشره د.احمد مختار

العبادي وابراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤م.

-الاحاطة في اخبارغرناطة.

نشر أ.محمد عبد الله عنان، في اربعة اجزاء القاهرة ١٩٧٣ ،

١٩٧٤ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ م.

(١٠) ابن خلدون (ابوزيد عبد الرحمن بن محمد)

ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م

العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ١٩٦٨م.

(١١) ابن لبي زرع (ابو الحسن علي بن عبد الله القاسي)

ت ٢٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م.

الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ
مدينة فاس، نسخة حجرية، طبعة تونس ١٣٢٩ هـ

(١٢) ابن سعيد المغربي (ابو الحسن علي بن موسى)

ت ٦٨٥ هـ / ١٣٢٥ م

: المغرب في حلى المغرب، تحقيق دشوقي ضيف في جزئين،

دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢ - ١٩٥٥ م.

(١٣) ابن صاحب الصلاة (عبد الملك)

كان حيا سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م)

-كتاب المن بالامامة على المستضعفين بان جعلهم الله ائمة وجعلهم

لورثين.

السفر الثاني، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت ١٩٦٤ م

(١٤) ابن عذاري المراكشي (ابو العباس احمد بن محمد)

كان حيا ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م.

-البيان للمغرب في اخبار الاندلس والمغرب.

-الجزء الاول والثاني، نشر كولان وليفي بروقفسال، دار الثقافة،

بيروت، بدون تاريخ.

- الجزء الثالث، نشر ليفي بروفنسال، دار الثقافة بيروت، بدون تاريخ.

- الجزء الرابع الخاص بتاريخ المرابطين، نشر احسان عباس، بيروت

١٩٧٧م.

- الجزء الخامس، الخاص بعصر الموحدين وبداية عهد بنى مرين،

نشر وتحقيق محمد ابراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت، ومحمد زنيبر،

وعبد القادر زمامة، دار الثقافة الدار البيضاء، الطبعة الاولى

١٩٨٥م.

(١٥) العنزي (ابو العباس احمد بن عمر بن انس المعروف بأبن الدلاتي)

ت ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.

- نصوص من الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتوزيع الآثار

والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك. تحقيق

د. عبد العزيز الاهواني، مطبوعات المعهد المصري للدراسات

الاسلامية بمديرد ١٩٦٥م.

- (١٦) ابن غالب (الحافظ محمد بن ايوب الاندلسي)

عاش في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)

:قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس تحقيق د. لطفى عبد

البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية.

المجلد الاول الجزء الثاني، نوفمبر ١٩٥٥م.

(١٧) ابن القطان (ابو الحسن على بن محمد الكتامي)

ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م

-نظم الجمان في أخبار الزمان نشر وتحقيق د. محمود على مكي،
الرباط ١٩٦٤م.

(١٨) ابن القوطية (ابو بكر محمد بن عمر القرطبي)

ت ٣٦٧هـ / ١٩٧٧م

-تاريخ افتتاح الاندلس. تحقيق عبد الله انيس الطباع، بيروت،
١٩٥٧م.

(١٩) ابن الكردبوس (ابو مروان عبد الملك التوزري)

-تاريخ الاندلس، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في اخبار الخلفاء،
تحقيق د. احمد مختار العبادي، مدريد ١٩٧١م.

(٢٠) المراكشي (عبد الواحد بن علي)

ت ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م

-المعجب في تلخيص أخبار المغرب.
نشر الاستاذان محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، القاهرة
١٩٤٩م.

(٢١) المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني)

ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م.

-فتح الطيب من غصن الاتدلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن

الخطيب، تحقيق الاستاذ محيى الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩

(٢٢) مؤلف مجهول (عاش فى القرن الرابع الهجرى)

-اخبار مجموعة فى فتح الاتدلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب

الواقعة بها بينهم، نشره دون لافونتى القنطرة، مدريد ١٨٦٧م.

(٢٣) مؤلف مجهول

-الحلل الموشية فى ذكر الاخبار المراكشية.

-عنى بنشره السيد البشير الفورتى، تونس، ١٣٢٩هـ.

(٢٤) مؤلف مجهول

-مدونة تاريخية من عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر نشرها ليفى

بروفنسالى وخرسية غومس تحت عنوان:-

Una cronica anonima de ABD- Al - Rahman III, Al- Nasir, Por Ievi Provencal,

Emillio Garcia Gomez Madrid, Granada, 1950

(٢٥) النويرى (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم البكرى)

ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م.

-نهاية الأرب في فنون الأدب - الجزء الثاني والعشرين نشر جاسبار
راميرو، غرناطة ١٩١٦ - ١٩١٧م.

ثانيا : المراجع العربية الحديثة:

(١) إشباح (يوسف)

-تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ترجمة الاستاذ محمد
عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨م.

(٢) حسين (د. حمدى عبد المنعم محمد)

-دولة بنى برزال فى قرمونة مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية
١٩٩٠م.

-اسرة بنى جامع ودورها فى عصر الموحدين فى المغرب والأندلس.
-مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية . العدد (١٩)

(٣) سالم (د. السيد عبد العزيز)

-تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، بيروت ١٩٦٢م.
-قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، جزءان، بيروت ١٩٧١ -
١٩٧٢م.

(٤) عاشور (د. سعيد عبد الفتاح)

-أوروبا العصور الوسطى، الجزء الأول.

-التاريخ السياسى، الطبعة السابعة ١٩٧٨م.

(٥) العبادى (د.احمد مختار)

: دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس،

الطبعة الاولى، الاسكندرية ١٩٦٨م.

(٦) عنان (أ. محمد عبد الله)

-دولة الاسلام فى الاندلس، فى قسمين،

الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦٠م.

-دول الطوائف

الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٩م.

-عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس الطبعة الاولى،

القاهرة ١٩٦٤م.

(٧) مؤنس (د.حسين)

-فجر الاندلس، دراسة فى تاريخ الاندلس من الفتح الاسلامى الى قيام

الدولة الاموية، الطبعة الاولى للقاهرة ١٩٥٩م

Aguado Bleye:

Manual de la historia de Espana T, I, Madrid, 1947

Arellano - R.Ramirez de :-

Historia de cordoba, ciudad real, 1915 - 1919.

Dozy- R.

Histoire des Musulmans d'Espagne, 3, vols, Leyden 1932

Recherches Sur l'Histoire et Litteratur de l'Espagne pendant le Moyen age, leyden, 1886.

Lafuente-M.

Historia general de Espana, Barcelona, 1899.

Levi-Proencal

Histoire de l'Espagne Musulmanes 3 vols, Pais, 1950.

Miranda-Ambrasio Huici

la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, Annee, 1953, tome, XL, Paris.

Las Grandas batallas de la Rwconquista, Madrid, 1956.

Political del imperio Almohade-tetuan 1957 Historia.

Prieto y vives-Antonio:

Los reyes de taifas, Estudio Historico Musulmanes espanoles en el siglo v de la
hegia, Madrid, 1926.

Pidal-Ramon Menendez:

Espana del cid, Madrid, 1947.

وادی الخماره
 مکرر
 لکڑیلاک . لکڑیلاک

قلعه زباج

البنی

(المراد الایمن)

مرکزی

بلانسیه

مسابه

دانیه

بحر الکردم
 (البحر الایمن المتوسط)

مرکزی
 صرستیه

مناطه

المریه

مناطه

الجزیره الخماره

المراد الایمن

قربیه

وادی یانیه

الصراع الزيدى العثماني في اليمن
(١٥٣٨-١٥٧٤م)

د. هاني مهنا
أستاذ مساعد في التاريخ الحديث
جامعة الملك عبد العزيز
كلية الآداب - قسم التاريخ

الصراع الزيدى العثمانى فى اليمن

(فى الفترة ١٥٣٨ - ١٥٧٤ م)

إن إستقراءنا لحقيقة الصراع الزيدى العثمانى فى الفترة ١٥٣٨/١٥٧٤م من
مراحل التاريخ اليمنى الحديث، يوضح لنا أنه كان صراع مصالح وإستراتيجيات أكثر
منه صراعا عقديا مذهبيا. فعلى الرغم من الإختلاف المذهبى بين العثمانيين الأحناف
الزيديين الشيعة، إلا أن هذا الاختلاف لايمثل عاملا جوهريا من عوامل الصراع
الدموى الذى كان محتما بين الطرفين فى هذه الفترة. ولتوضيح ذلك نرى انه من
المفيد فى دراستنا هذه أن نلقى بعض الضوء على ما حققه الزيدون قبيل فتح
العثمانيين لبلاد اليمن سنة ١٥٣٨م. فقد نجح الإمام شرف الدين وأبناؤه، وفى مقدمتهم
المطهر بن شرف الدين من أن يسيطروا على أغلب المناطق اليمنية مستغلين بذلك
تضعف القوات الأخرتين اللتين كانتا قائمتين فى البلاد ألا وهما قوة الطاهريين فى
عدن والمناطق الجنوبية، وقوة المماليك فى زبيد وما حولها^(١). فما أن أعلن فى
صنعاء عن سقوط دولة المماليك سنة ١٥١٧م فى مصر على يد العثمانيين، حتى
سارع زعيم المماليك فى بلاد اليمن الاسكندر بن محمد بإعلان دخوله تحت التبعية
العثمانية الاسمية^(٢) وانسحب بقواته من صنعاء متجها إلى زبيد خلفا وراءه حامية
صغيرة بها^(٣). ومن الطبيعى أن ينتهز الإمام شرف الدين هذه الفرصة ليوسع
ممتلكاته، فسارع بإرسال قواته إلى صنعاء، حيث نجحت هذه القوات فى السيطرة
عليها سنة ١٥١٧م^(٤). وأخذت المناطق اليمنية الأخرى تتساقط تباعا، وفى سنة
١٥٢٠م سيطر الإمام على ذى مرمر بعد أن سلمها عامل الطاهريين بها، وفى سنة
١٥٢٢م سقطت منطقة عمران وبعض مناطق بلاد همدان وفى سنة ١٥٢٨م سقطت

كل من خولان والمقرانه والفارد وورداع. وفى سنة ١٥٢٤م سيطرت جيوش الإمام بقيادة المطهر على مدينة تعز. بل إن قوات الإمام حاولت إسقاط كل من زبيد آخر معاقل المماليك فى بلاد اليمن، وعدن مركز الطاهريين الحصين، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل لإحكام المماليك خطة دفاعهم عن زبيد باغراق السبل المؤدية إليها بالماء وذلك لإعاقة حركة الجيوش الزيدية، وجعلها هدفا سهلا للقوات المملوكية المدافعة. كما فشلت محاولات الزيديين فى إسقاط عدن لمناعة هذه المدينة الطبيعية، وسهولة الدفاع عنها لمن فى داخلها^(٥).

ولم تقتصر حروب الإمام شرف الدين وأبنائه على المماليك والطاهريين، بل تعدتها إلى بعض الزعامات المحلية المناوئة لحكم الإمام كحربهم للسيد عز الدين بن الحسن المؤيدى صاحب مدع وكحلان، وحربهم للأمير عبد الله الشويح أحد أمراء منطقة الجوف^(٦) وحربهم للداعى حسين بن إدريس بن عبد الله زعيم طائفة الإسماعيلية ببلاد اليمن^(٧)، وقد أسفرت جميع هذه الحروب - فى محصلتها النهائية - لصالح الإمام شرف الدين.

فما أن وصلت حملة سليمان باشا الخادم إلى أرض اليمن سنة ١٥٢٨م، إلا وكان الإمام شرف الدين وأبنائه يسيطرون فعليا على معظم مناطق اليمن. ومن البديهي إذا أن يقف الإمام شرف الدين ومن خلفه أبنائه والزيديون - من القادمين الجدد (العثمانيون) - موقف المعادى المتربص حيث أن قدوم العثمانيين هذا من شأنه أن يحرم الإمام شرف الدين وأبنائه بصفة خاصة من حلم إنشاء دولة تحت زعامتهم تشمل معظم المناطق اليمنية، كما أنه من شأنه أن يحرم الزيديون بصفة عامة من حلم طالما دأب مخطلتهم، ألا وهو السيطرة على المناطق الجنوبية والتهائم الأكثر غنا وثروة من مناطق سكنى الزيديين^(٨).

وفى المقابل، كان العثمانيون قد قدموا إلى بلاد اليمن لخدمة غرض أكبر من مجرد السيطرة على هذه البلاد وجعلها إحدى إيلات الدولة المترامية الأطراف. فقد كان هاجس العثمانيين مواجهة الغزو البرتغالي للبحار الشرقية، وحماية الأماكن المقدسة التي كانت عرضة لتهديدات متكررة من السفن البرتغالية^(٩). والأمر كذلك كان لابد للعثمانيين بعد سيطرتهم على السواحل اليمنية من الإطمئنان على سلامة الجبهة الداخلية لبلاد اليمن، والعمل على إستتصال كل ما يعوق تحقيق هذا المطمح، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت آنذاك فى عنفوان قوتها، وليس أضمن للعثمانيين من تحقيق وحدة الجبهة اليمنية إلا إحكام السيطرة الفعلية على كافة المناطق اليمنية. ولتحقيق هذا الغرض انتهج العثمانيون سياسة يمكن لنا أن نصفها تجاوزا بسياسة المراحل. وقد تناغمت هذه السياسة مع الإستراتيجية العسكرية - كما نتصورها - التي إنتهجها العثمانيون لمواجهة أخطار تغلغل البرتغاليين داخل البحر الأحمر.

فالمرحلة الأولى

كانت تقضى بأن يكتفى العثمانيون بإحكام السيطرة على أهم المناطق الساحلية اليمنية، وتثبيت دعائمهم فيها، مع إشعار البرتغاليين بمدى حجم القوة العثمانية فى بلاد اليمن، وهذا بدوره سيؤدى إلى رفع معنويات المسلمين فى المناطق المتأثرة بالوجود البرتغالي.

والمرحلة الثانية

كانت تقضى بتصفية القوى السياسية المحلية فى المناطق اليمنية الداخلية، حتى لا تشكل هذه القوى أى خطر مستقبلى على نفوذ العثمانيين فى المناطق الساحلية. ولما كان الزيديون الممثلون بأسرة الإمام شرف الدين هم القوة السياسية المحلية ذات الوجود السياسى الملموس، كان لابد للعثمانيين من الدخول فى صراع حتمى معها.

على ضوء هذا التصور أجدنى منساقا نحو الاعتقاد بأن هدف الحملة العثمانية سنة ١٥٢٨م الأساسى لم يكن من قبيل منازعة البرتغاليين السيطرة على البحار الشرقية أو الدخول معهم فى حروب تصفية وإزاحة بقدر ما هو إحكام لسيطرة العثمانيين على بلاد اليمن بما يعنيه ذلك من تصفية للكيانات السياسية المحلية القائمة آنذاك. وذلك لاتساق هذا العمل - كما ذكرنا سابقا - مع غيره من الأحداث التى تمثل الإستراتيجية العسكرية العثمانية لمواجهة البرتغاليين فى البحار الشرقية. فقد كانت هذه الإستراتيجية - كما أحسبها - تقضى بأن ينتهج العثمانيون سياسة دفاعية فى صراعهم مع البرتغاليين يدفعهم إلى ذلك أن القوة العثمانية فى أساسها قوة برية^(١٠)، مع الاعتراف بأنه قد كان للعثمانيين أساطيل قوية فى حوض البحر المتوسط، وأنها نجحت فى تحقيق العديد من الإنتصارات البحرية^(١١)، إلا أن الأمر يختلف كثيرا إذا ما سُلطت الأضواء على البحار الشرقية، حيث إن الوجود العسكرى البحرى العثمانى محدود جدا، فى المقابل كان البرتغاليون - وهم فى أساسهم بحريو القوى - قد نجحوا منذ سنة ١٥٠٥م فى تأسيس مستعمرة لهم بساحل المليبار، مع ما يعنيه ذلك من وجود عسكرى بحرى قوى^(١٢). لذا فإن السيطرة العثمانية على بلاد اليمن، ومن ثم السيطرة على سواحل إفريقيا الشرقية المطلة على البحر الأحمر من شأنه أن يحول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية^(١٣)، وهذا ما شرع العثمانيون فى تحقيقه منذ السنوات الأولى لإستيلائهم على بلاد اليمن.

ولتحقيق المرحلة الأولى من هذه السياسة العثمانية، غادرت حملة سليمان باشا الخادم السويس سنة ١٥٨٣م بعد إكمال الترتيبات اللازمة فى طريقها إلى اليمن^(١٤). ونجح الخادم فى السيطرة على عدن بعد اعماله الحيلة حيث غدر بسلاطان الطاهريين عامر بن داود فقتله مع بعض من وزرائه^(١٥). وبعد أن إطمئن الخادم إلى استتباب

الأمر له فى عدن ترك بها حامية تقدر بنحو ٥٠٠ جندى وعين لها حاكما عثمانيا ثم
 إتجه إلى الهند. وفى الهند ساهمت الحملة فى محاصرة حصن ديو الذى كان تحت
 سيطرة البرتغاليين، إلا أنه قبل سقوط الحصن عاد إلى السواحل اليمنية، حيث أكمل
 سيطرة العثمانيين على هذه السواحل فدانت الشحر لهم حيث أعلن حاكمها بدر بو
 طويرق دخوله تحت التبعية العثمانية، فى المقابل تم تعيينه حاكما على المنطقة الممتدة
 من حضرموت إلى ظفار. ثم سقطت منطقة المخا فى يد العثمانيين بعد أن غدر الخادم
 بأميرها المملوكى الناخوده أحمد فقتله مع بعض عبيده. كما سيطر الخادم على جيزان
 بعد طرده لعامل شريف مكة أبو ندى عليها، وتعيين عامل لها من قبله، وجعلها تابعة
 لمنطقة زبيد تأتمر بأمر حاكمها، وقبل ارتحال الخادم عن بلاد اليمن، أوصى نائبه فى
 زبيد وعدن بضرورة إخضاع منطقة تعز للحكم العثمانى(١٦)، لتكتمل بذلك المرحلة
 الأولى من مراحل سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه
 المرحلة من مراحل السيطرة العثمانية على بلاد اليمن لم تخل من الإحتكاك العسكرى
 مع قوة الزيديين المسيطرة على منطقة تعز. فقد حاول العثمانيون عملا بتعليمات
 الخادم إسقاط بعض الحصون القريبة من زبيد كحصن قوارير، كما عملوا على إسقاط
 منطقة تعز، إلا أن الزيديين نجحوا فى الدفاع عن ممتلكاتهم هناك وتكبيد العثمانيين
 خسائر فادحة اضطرتهم للإنسحاب إلى زبيد مخلفين وراءهم بعض المدافع
 والأثقال(١٧).

لقد ظل العثمانيون يتحينون الفرص لإخضاع ما تبقى من بلاد اليمن تحت
 سلطاتهم، والإجهاز على القوة الزيدية القائمة فى المناطق الداخلية. وقد نهيات لهم
 الظروف فى سنة ١٥٤٦م حينما دب النزاع داخل أسرة الإمام شرف الدين، وتفاقم
 للدرجة التى دفعت المطهر بن شرف الدين لأن يكتب القبائل الموالية للإمام يخبرها

بخلع عصى الطاعة عن والده. وكانت ثلاثة الأثافي استدعاء المطهر أويس باشا الوالى
العثمانى فى زبيد ليحثه على مهاجمة صنعاء، ويعدّه بالمساعدة لتحقيق ذلك. ومن
الطبيعى أن ينتهز أويس باشا هذا الظرف، فزحف بقواته نحو صنعاء عن طريق
ذمار، وبعد قليل من المعوقات نجح العثمانيون بقيادة ازدمر - الذى تولى قيادة القوات
العثمانية بعد مقتل أويس باشا - فى السيطرة على مدينة صنعاء (١٨)، ليمد بذلك
سلطان العثمانيين إلى المناطق الداخلية، وليقلص من أملاك الزيديين فى البلاد لتتصر
فى المناطق الجبلية الوعرة كئلا وكوكبان وغيرهما. ومن المفارقات الغريبة أن
المطهر بن شرف الدين هو الذى تولى أمر الدفاع عن صنعاء أمام الزحف العثمانى،
ونلك بعد أن تنازل له والده وأخوته عنها مقابل توليه أمر هذا الدفاع، وأبرم بين
الطرفين إتفاق بهذا المعنى (١٩) إلا أن هذا الإتفاق حمل فى طياته بذور الخلاف
والشقاق. فما أن بدأ المطهر فى إعداد العدة لمواجهة الزحف العثمانى حتى أخذ إخوته
بالقتل والتخاذل.

ولم يكتف على بن شرف الدين بالانسحاب إلى حصنه فى ذى مرمر، بل
عمل على إستمالة القبائل التى كانت قد دخلت تحت طاعة المطهر للخروج على هذه
الطاعة، بل وتحريض العثمانيين أنفسهم المتربصين فى ذمار للتقدم لحرب المطهر. بل
إن سقوط صنعاء نفسها تم عن طريق خيانة أحد القائمين على حماية مداخلها
الأساسية، بالسماح للعثمانيين بالدخول من ذلك المدخل إلى داخل المدينة. كذلك انسحب
شمس الدين بن شرف الدين إلى حصن كوكبان مضعفا بذلك قرص حماية صنعاء من
مهاجمتها (٢٠).

أمام هذا التخاذل من قبل إخوة المطهر، وأمام ثقل الحصار العثمانى للمدينة،
أثر المطهر بالانسحاب من صنعاء إلى منطقته الحصينة ثلا. فسقطت صنعاء بعد سبعة

أيام من الحصار الشديد. وقد أثر إزدمر باشا متابعة المطهر إلى ثلا وحصاره لإخضاعه لسلطان العثمانيين، إلا أن المطهر نجح في الصمود أمام القوات العثمانية المحاصرة، مما اضطر إزدمر لإنهاء الحصار والعودة إلى صنعاء بعد إبرامه إتفاقا مع المطهر (٢١).

كان هذا الإتفاق أشبه ما يكون بهدنة مؤقتة بين الطرفين، فقد إستشعر إزدمر مدى خطورة بقاء المطهر بن شرف الدين مسيطرا على منطقة ثلاثون إلحاق هزيمة ما به، لذلك ما لبث أن راسل السلطان العثماني يطلب منه مددا عسكريا لتحقيق غرض إخضاع المطهر للسلطة العثمانية، أو إزاحته كلية من مسرح الأحداث. وقد أجابه السلطان العثماني بذلك فأمدّه بثلاثة آلاف بندق وألف فارس من مصر، على رأسهم أمير الحج المصري مصطفى باشا النشار الذي حمل معه إلى بلاد اليمن خطابا من السلطان العثماني إلى المطهر يحمل في طياته تهديدا وترغيبا للمطهر لإعلان طاعته للعثمانيين. ولما لم تؤد المراسلات التي تمت بين مصطفى النشار وبين المطهر إلى نهاية يرتضيها الطرفان، زحفت القوات العثمانية مرة أخرى إلى منطقة ثلا، وبعد حصار شديد لها، أدرك كل من إزدمر باشا ومصطفى النشار عدم إمكانية إسقاط هذا الحصن، فأتوا عقد صلح مع المطهر. وعقد الصلح بين الطرفين على أن يسلم المطهر للدولة العثمانية منطقة الطويلة وحصونها، مقابل أن يحافظ المطهر على بقية ممتلكاته، ويعقد له لواء شريفا (٢٢).

لقد نجح العثمانيون في هذه المرحلة من مراحل سيطرتهم على بلاد اليمن من إحكام السيطرة على صنعاء وأغلب المدن والمناطق الهامة الداخلية، عدا تلك التي تدخل تحت سيطرة المطهر، وقد هيات لهم الهدنة مع المطهر إنتزاع أحد الحصون

المهمة داخل أراضي المطهر، ألا وهو حصن الطويلة، بما يعنيه هذا من دخول منطقة المطهر إسمياً تحت سلطانهم.

ومما يلاحظ على الصراع الزيدى العثماني في هذه المرحلة من مراحل حكم العثمانيين لبلاد اليمن أن الجبهة الزيدية المتمثلة في الإمام شرف الدين وأبنائه كانت جبهة قوية متماسكة في بداية الصراع، أي في مرحلة سيطرة العثمانيين على السواحل اليمنية ١٥٣٨ - ١٥٤٦م. وأن هذه الجبهة إعتراها الضعف والتفكك ابتداء من سنة ١٥٤٦م حينما دعا المطهر العثمانيين للقدوم إلى صنعاء وإسقاط حكم أبيه فيها. بل أن هذا الضعف والتفكك إستمر بعد ذلك، على الرغم من إبرام الصلح بين المطهر ووالده لمواجهة الزحف العثماني على صنعاء. فنجد أن الإمام شرف الدين وإبنه شمس الدين أصبحا مؤيدين ومؤلبين لأزدرم في حربه مع المطهر ففي ١٥٤٩م طلب شمس الدين من أزدرم مهاجمة مواقع المطهر، فقام أزدرم بمحاصرة منطقة بيت عز القريب من كوكبان لوقعها ضمن مناطق المطهر بن شرف الدين. وقد مكن هذا الخلاف أزدرم من أن يتعامل مع الخارجين على طاعة العثمانيين من الأمراء الزيديين بصفة منفردة فهذا عز الدين بن شرف الدين يلقي القبض عليه بعد أن تهاجم منطقة نفوذه، ويرسل أسيراً إلى الأستانة دون أن ينهض أحد من إخوته لنجدته، كذلك ترك المطهر قبيل عقد الصلح مع العثمانيين وحيداً في مواجهة العثمانيين، إلا من بعض الخلفاء من أبناء أسرته كمحمد بن شمس الدين وبعض زعماء القبائل الموالية له.

من هذا يمكن لنا أن نخلص إلى أن النظرة إلى هذا الصراع على أنه صراع عقدي مذهبي قد تكون نظرة جانبيها الصواب والأولى أن يدرس هذا الصراع على أنه صراع دولة تريد التوسع على حساب أمراء محليين يرغبون تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من سلطان، سواء كان ذلك تحت تبعية الدولة العثمانية أم كان غير ذلك.

ومما لا جدال فيه أن المطهر بن شرف الدين كان أبرز الأمراء الذين شكلوا خطراً حقيقياً على النفوذ العثماني في بلاد اليمن. فعلى الرغم من أن العثمانيين في عهد أزدمر باشا كانوا قد نجحوا في فرض سلطتهم على بعض من بلاد المطهر - منطقة الطويلة - وإبرام صلح معه تعهد فيه بعدم الخروج على الطاعة، إلا أن سوء سياسة الولاة العثمانيين الذين خلفوا أزدمر باشا كان دافعا للمطهر لأن يعد العدة لقيادة الزيديين خاصة واليمنيين بصفة عامة ضد الوجود العثماني في بلاد اليمن. ولعل الشرارة التي أشعلت تمرد القبائل اليمنية على العثمانيين كانت تولى الوالي رضوان باشا أمور ولاية اليمن. فعلى غير ما جرت عليه عادة من سبقوه من ولاة، لم يعمل رضوان باشا على تجديد أو إقرار الصلح المقصود بين العثمانيين والمطهر، بل على العكس من ذلك أرسل رسوله إلى المطهر ليخبره بتغييره للقواعد التي بنى عليها الصلح بين الطرفين (٢٣). الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقات بين المطهر وبين رضوان باشا. فأخذ المطهر بن شرف الدين في إرسال رسله إلى شيوخ القبائل اليمنية وبعض وجهاء اليمن يزكى فيها أحاسيسهم بمدى الظلم الذي يمارسه العثمانيون عليهم (٢٤) وكان رضوان باشا، بضغط من الأوضاع الاقتصادية التي واجهته، قد قام بزيادة الضرائب على بعض الفئات اليمنية التي كانت تعامل معاملة خاصة من الولاة الذين سبقوه، وعلى رأس هؤلاء طائفة الإسماعيلية (٢٥).

وقد دفعت هذه السياسة بعض هؤلاء الإسماعيليين للتحالف مع المطهر ضد العثمانيين. يضاف إلى هذا أن الممارسات العثمانية الخاطئة من بعض الجند وبعض الولاة كشراب الخمر والزنا والسراقات والغدر بالوعود إلى غير ذلك من الممارسات التي تتنافى مع الإسلام وتقاليده المجتمع اليمني، أثارت شعوراً عاماً من السخط والاستياء لدى اليمنيين من الوجود العثماني في بلادهم.

ومما زاد إضعاف سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن، السياسة التي إنتهجها العثمانيون بدءا من سنة ١٥٦٤م - وعملا باقتراح والى مصر محمود باشا - بتقسيم ولاية اليمن إلى قسمين منفصلين، وتخصيص وال مستقل لكل قسم، الأمر الذى أدى إلى فرقة الصف العثمانى فى الولاية وتزعزع ولاء الجند العثمانى ما بين وال وآخر (٢٦).

فى سنة ١٥٦٦م أعلن المطهر خروجه على طاعة العثمانيين، فأرسل الرسل إلى جميع البلاد يخبرهم بذلك ويحثهم على مناصرته ضد والى العثمانى. كما أنه وجه ابن أخيه الحسين بن شمس الدين على رأس قوة إلى بلاد الظاهر، نجحت فى إلحاق الهزيمة بقوات العثمانيين هناك وأضطرتهم للإسحاب إلى عمران. كذلك سير المطهر قوة بقيادة كل من السيد أحمد بن الحسين المؤيدى والأمير محمد بن ناصر الحمزى، حيث نجحا فى السيطرة على صعدا، كما نجح محمد بن شمس الدين بإيعاز من عمه المطهر فى التصدى لمحاولة العثمانيين السيطرة على جبل بيت خولان، بل إن محمدا أحرز نصرا على العثمانيين حين سيطر على حراز وأجبر الحامية العثمانية على الجلاء إلى صنعاء (٢٧). إزاء هذه الإنتصارات الزيدية طالب رضوان باشا المطهر بعقد هدنة بين الطرفين، ووافق المطهر على طلب رضوان هذا، حيث عقدت الهدنة، أجاز فيها رضوان باشا المطهر بن شرف الدين بالحفاظ على ما سقط تحت يديه فكان أن دخلت كل من نهم وخولان، والحداد وذى مرمر، والخشب والظواهر، وحراز، وحفاش، وملحات، تحت سيطرة المطهر، كما أطلق العثمانيون - كتعبير على حسن نواياهم تجاه المطهر - بعض الرهائن المحتجزين فى سجون العثمانيين (٢٨). وقد انتهز المطهر فرصة إرتحال رضوان باشا إلى الأستانة فزحف على صنعاء وحاصرها. وعندما هب مراد باشا - والى العثمانى على الجزء الأسفل من بلاد

اليمن - لفك الحصار عن صنعاء، منيت قواته بهزيمة ماحقة فتت من عزم القوات العثمانية، وشجعت اليمنيين بمختلف طوائفهم للمجاهرة بمناصرة المطهر (٢٩). وتفاقم الأمر على العثمانيين لدرجة أن الوالي العثماني مراد باشا قد لاقى حتفه حينما حوضر بجيشه من قبل رجال القبائل اليمنية وأجتز رأسه وأرسل إلى المطهر (٣٠). ويمقتل مراد باشا أستسلمت الحامية العثمانية في صنعاء، فدخلها المطهر منتصرا سنة ١٥٦٧م (٣١).

وقد عمد المطهر إلى استكمال سيطرته على بعض المناطق الهامة، فسير الأمير قاسم بن الشويح إلى عدن فسيطر عليها، كما سيطر على ريمه، ووصاب وبرع، وأكثر تهامة وجازان وبيت الفقيه (٣٢). ولم يبق في يد العثمانيين إلا منطقة زبيد حيث نجح الوالي العثماني حسن باشا في الدفاع عنها ضد هجمات القوات الزيدية (٣٣).

لقد اعتقب هذا المد الزيدي مدا عثمانيا بدأ بنجاح حسن باشا، كما ذكرنا آنفا في الدفاع عن الوجود العثماني في مدينة زبيد، وتلاه وصول المدد من السلطان سليمان القانوني قوامه ثلاثة آلاف جندي بقيادة عثمان باشا ابن ازدمر باشا. وقد نجح العثمانيون بفضل هذا المدد من السيطرة على مدينة تعز ومحاصرة الحامية الزيدية في حصن القاهرة، وإلحاق الهزيمة بجيوش المطهر التي أرسلها لفك الحصار عن هذا الحصن (٣٤) وكان في وصول الوزير سنان باشا على رأس قوة كبيرة إلى اليمن سنة ١٥٦٨م، نهاية للسيطرة الزيدية على جميع المناطق التي كانوا قد انتزعوها من أيدي العثمانيين. فكان أن عادت كل من عدن، وجازان، وذى جبله إلى طاعة العثمانيين في سنة ١٥٦٨م، وفي سنة ١٥٦٩م سقطت مدينة اب، وبعدان، وغيرها من المناطق. وانحصرت المقاومة الزيدية على الغالب في منطقتي ثلا، وكوكبان، وعلى الرغم من أن محاولات سنان باشا المتكررة إسقاط هاتين المنطقتين، إلا إنها إستعصتا عليه

لحصانتهما الطبيعية، ولتمكن المطهر من مباشرة قيادة المقاومة فى ثلا، والاتصال والتسيق مع ابن أخيه محمد بن شمس الدين فى كوكبان. إلا أن الأخير بعد أن إشتد عليه الحصار أثر عقد هدنة مع سنان باشا، وتم الصلح بين الطرفين سنة ١٥٦٩م. وقد كان هذا الصلح تمهيدا للصلح بين المطهر وبين سنان باشا الذى أنهى حالة الحرب بين الطرفين، وقد بدا هذا الصلح أن اليد العليا كانت للعثمانيين حيث أن المطهر أذعن لشروطهم فى أن تظل قوة عثمانية فى منطقة الطويلة التى هى من ضمن أملاك المطهر، فى مقابل أن يحتفظ بما تحت يديه فى ثلا(٣٥).

مما سبق يمكن لنا أن نخلص إلى أن الزيديين كانوا قبيل مقدم العثمانيين جبهة موحدة تحت لواء الإمام شرف الدين، ثم ما لبث وأن دب الانقسام فى صفوفهم، وقد يكون هذا من نتائج التفوق العثمانى العسكرى، ثم ما لبث وأن نجح المطهر بن شرف الدين فى توظيف تخبط السياسة العثمانية فى بلاد اليمن لتحقيق بعض المصالح الشخصية التى انفتحت مع مصالح القبائل اليمنية فى التمرد على الحكومة القائمة، والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن الباحث فى هذا المجال هو: ما مدى تفاعل القبائل اليمنية عامة مع أهداف القيادة الزيدية ؟

وكما رأينا فإن الزيديين نجحوا - قبيل قدوم العثمانيين - من فرض سلطانهم بقوة السلاح على أغلب المناطق اليمنية. إلا أن قدوم العثمانيين سنة ١٥٣٨م إلى اليمن قد حرمهم من هذه الهيمنة، وصعب معه مهمة الباحث فى الحكم على مدى تقبل اليمنيين كافة لحكم الزيديين وذلك لقصر فترة حكم الأخيرين على المناطق الشافعية وغيرها مما وقع تحت حكم العثمانيين. غير أنه يمكن لنا الزعم بأنه على ضوء العلاقات الزيدية - اليمنية على مر التاريخ الحديث، يمكننا الذهاب مطمئنين إلى الإعتقاد بأن الحكم الزيدى فى مناطق الهيمنة الشافعية والإسماعيلية لابد وأن يكون

مرفوضا إعتبارا من سياق الأحداث التاريخية إبان سيطرة الزيديين عليها فى تالى
العهد (الإمام إسماعيل بن القاسم ومن خلفه)، ولعل الاختلاف المذهبى فى هذا الإطار
لعب دورا رئيسيا فى رفض المناطق الشافعية أو الإسماعيلية للهيمنة الزيدية.

من هذا المنطلق يمكن لنا الزعم أن المطهر بن شرف الدين قد نجح باقتدار
مشهود له فى توظيف التمرد المعتاد للقبائل اليمنية على الحكومات إبان فترات
الضعف أو التخبط السياسى لخدمة مصالحه الخاصة، فالقبائل اليمنية فى معظمها
تعادت خوض الحروب لتحقيق مكاسب مادية آنية، وفى المقابل فالمطهر بن شرف
الدين كان يهدف ويتوق إلى مد سلطانه وتوسيعه إلى أكبر مدى ممكن، ولن يتأتى له
ذلك إلا على حساب العثمانيين. إذن لم يكن هدف القبائل الثورة على العثمانيين
لتخليص بلاد اليمن من حكم العثمانيين، بقدر ما هى الرغبة فى ترجمة المصالح
الخاصة. ولا يستطيع الباحث الإطمئنان كثيرا إلى أن دوافع المطهر لحرب العثمانيين
كانت دوافع قومية أو وطنية قدر ما هى قنص فرص لاحت لتحقيق كسب سياسى أو
عسكرى بتوسيع أرجاء ممتلكاته الخاصة.

وقد نجح المطهر بن شرف الدين فى توظيف تمرد القبائل هذا ليبدو وكأنه
ثورة عارمة من جموع اليمنيين ضد الحكم العثمانى حتى تأتمر القبائل بأمره فتثور إن
ثار وتخذل إن أمر بذلك!!.

ولعله من الإصاف أن نقول أن هذا يمثل جزءا من حقيقة التمرد على الحكم
العثمانى، إذ أن كثيرا من القبائل الزيدية كانت ترى فى المطهر بن شرف الدين خير
من يقودها لتحقيق ما تصبو إليه من مكاسب مادية، فلماذا لا تأتمر بأمره؟ كذلك الحال
مع القبائل اليمنية غير الزيدية والتي لا ترى فى أنمة الزيديين وأمرائهم قادة لها، وإنما
قد تدفع المصالح الخاصة هذه القبائل والجماعات للتغاضى عن هذا الأمر، فاندفعت

معظم هذه القبائل فى نفس الإتجاه الذى إندفع إليه المطهر، إلا أنها كانت تختلف فى أهدافها. وبدا وكأن هذا التمرد ثورة عارمة من اليمنيين لتصفية الوجود العثمانى فى بلاد اليمن. ولعل عدم الإشتراك فى الأهداف يفسر السرعة التى نجح بها العثمانيون فى إستعادة ما سلب منهم، وذلك لتقاعس القبائل وتشرذم القيادات اليمنية.

• • •

الهوامش:

- ١- سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م). ط٢، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤ ص ١٤٢-١٣١.
- ٢- المرجع نفسه ص ١١١.
- ٣- عيسى بن لطف الله: روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة في اليمن من الفتح، مخطوط، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز رقم ١٨٤٢ ص ٢٠.
- ٤- يحيى بن الحسين: غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القسم الثاني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٦٥٧.
- ٥- المصدر نفسه، ص ص ٦٦٣-٦٨١.
- ٦- المصدر نفسه، ص ص ٦٥٨-٦٥٩.
- ٧- R.B. Serjeant and Lewcok, eds. Sana: an Arabian Islamic City, London, 1983, p:69
- ٨- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ١٤٠.
- ٩- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٦٥٨.
- ١٠- يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية. المجلد الثاني. ترجمة: عدنان سليمان ومنشورات مؤسسة فيصل للتصويل، تركيا، استنبول، ١٩٩٠ و ص ٣٧٤.
- ١١- المرجع نفسه، ص ص ٤٢٠-٤٣٤.
- ١٢- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ص ٦٧-٦٨.

- ١٣- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: "النشاط التجارى فى البحر الأحمر": فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة. القاهرة. جامعة عين شمس، سمنار، الدراسات العليا للتاريخ الحديث ١٩٨٠، ص ص ٢٤١-٢٦٠، ص ص ٢٤٦-٢٤٨.
- ١٤- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ١٦٠.
- ١٥- عبد الصمد بن إسماعيل الموزعى: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان، تحقيق: عبد الله محمد الحبشى، ص ص ٢٥، ٢٦. أنظر أيضا:
- ١٥- R. playfair, A history of Arabia Felix or Yemen, Amsterdam, 1970, p112
- ١٦- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٣٧.
- ١٧- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ص ٦٨٥، ٦٨٦.
- ١٨- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٤١.
- ١٩- المصدر نفسه ص ٤٢.
- ٢٠- R.B. Serjeant and LEWCOCK, OP-CIT. P : 70 أنظر أيضا:
- J.R.Bgackburn, "The Ottoman Penetration of Yemen", Archiveem ottomanicum, VI, 1980, p.p. 55-110.
- ٢١- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ص ٧٠٢-٧٠٤.
- ٢٢- المصدر نفسه، ص ص ٧٠٤-٧١٢.
- ٢٣- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٦١.

- ٢٤- المصدر نفسه، ص ٦٢.
- ٢٥- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٤.
- ٢٦- سيد مصطفى سالم: المرجع المذكور، ص ص ٢٣٢-٢٣٣.
- ٢٧- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ص ٦٢-٦٣.
- ٢٨- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٦.
- ٢٩- يحيى بن الحسين: نفس المصدر، ص ص ٧٢٦-٧٢٧.
- ٣٠- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ٦٤.
- ٣١- يحيى بن الحسين: المصدر المذكور، ص ٧٢٨.
- ٣٢- المصدر نفسه، ص ٧٢٩.
- ٣٣- المصدر نفسه، ص ٧٣٠.
- ٣٤- المصدر نفسه، ص ٧٣٠.
- ٣٥- عيسى بن لطف الله: المصدر المذكور، ص ١٠٤.

المصادر العربية والأجنبية

أولاً: المخطوطات:

- الجرموزى، المطهر: تحفة الأسماع والأبصار بما فى السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار.
- مخطوط، مكتبة الجامع الكبير، الغربية، رقم ٧٣ تاريخ.
- الكبسى، محمد بن إسماعيل: اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية.
- مخطوط، جامعة الملك سعود، رقم ١/٣٨٤، الرياض.
- المطهر، عيسى بن لطف الله: تاريخ روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة فى اليمن من الفتن والفتوح.
- مخطوط، مكتبة جامعة الملك عبد العزيز، رقم ١٨٤٢، جدة.

ثانياً: المصادر العربية:

- ابن الديبع، عبد الرحمن بن على: قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون.
- تحقيق: محمد بن على الأكرع، القاهرة.
- الجرافى، عبد الله بن عبد الكريم: أبناء اليمن ونبلأؤه. الجزء الأول من القسم الرابع، مكتبة الجامع الكبير، الغربى، رقم ٣٤٤، صنعاء.
- الحسين، يحيى: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى.

تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القسم الثانى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

- النهروالى بن محمد بن أحمد: البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. دار اليمانية، ١٩٦٧.

ثالثا: المراجع العربية:

- اوزتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية. المجلد الثانى، ترجمة عدنان محمود سلمان، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٩٠.

- البحر اوى، محمد عبد اللطيف: فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولى من البر إلى البحر. دار التراث، القاهرة، ١٩٧٩ م.

- بومخرمه، أبو محمد عبد الله الطيب ابن أحمد: تاريخ ثغر عدن، ليدن، ١٩٣٦.

- الحداد، محمد يحيى: تاريخ اليمن السياسى، ج ٤، دار الهنا للطباعة، ١٩٧٦ م.

- الحيمى، الحسن بن أحمد: سيرة الحبشة. تحقيق: مراد كامل. ط ٢، دار العالم العربى، القاهرة.

- الرمال، غسان على محمد: صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى. دار العلم، ١٩٨٥.

- سالم، سيد مصطفى: الفتح العثمانى الأول لليمن. ط ٣، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٨.

- شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ. ط ٢، القاهرة، ١٩٦٤.

- عبد الرحيم، عبد الرحمن: النشاط التجارى فى البحر الأحمر: فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (أبحاث الأسبوع العلمى الثالث ١٠-١٥ مارس ١٩٧٩، فى سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث)، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٠.
- العبدلى، أحمد فضل بن على: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن. دار العودة، بيروت، ١٩٨٠.
- العرشى، حسين بن أحمد: بلوغ المرام فى شرح مسك الختام فى من تولى ملك اليمن من ملك وإمام. تحقيق: انستاس الكرملى..مطبعى، القاهرة، ١٩٣٩.
- العقيلى، محمد بن أحمد عيسى: تاريخ المخلاف السيلمانى أو الجنوب العربى فى التاريخ. مطابع الرياض، ١٩٥٨.
- كامل، محمود: اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٨.
- الموزعى، عبد الصمد بن إسماعيل: الإحسان فى دخول مملكة اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان. تحقيق: عبد الله محمد الحبشى. منشورات المدينة، صنعاء، ١٩٨٦.
- الواسعى، عبد الواسع بن يحيى: تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن. القاهرة، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

رابعاً: المصادر الأجنبية:

- Blackburn, J.R. The Ottoman Penetration of Yemen, Archiveem Ottomanicum, VI, 1980, p.p. 55-1110
- Playfair, Robert, A history of Arabia Felix or Yemen, Amsterdam, 1970.
- Searjeant, R.B. & Lewcock, eds, Sana: an Arabian Islamic City, London, World of Islam Festival trust, 1983.
- Serjeant, R.B., The portuguese of South Arabian Coast, Beirut, Lirairie Duliban, 1944.

1. The first

2. The second

3. The third

4. The fourth

5. The fifth

6. The sixth

7. The seventh

8. The eighth

9. The ninth

10. The tenth

وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم

واضواء جديدة علي تاريخ عمارته

د. محمد عبد الستار عثمان

تعتبر وثيقة وقف جامع الأميرين محمد وأحمد بإخميم (١) من أهم المصادر التي يمكن في ضوئها دراسة تاريخ عمارة الجامع المذكور دراسة متكاملة (٢) تصحح ما وقع في دراسات سابقة من هنات، وتضيف إلى معرفتنا بتاريخ منشئ هذا الجامع وتاريخ عمارة الجامع نفسه وعناصره ووحداته المعمارية. كما أنها تعتبر المصدر الأساس للتعرف على ما يؤدي بالجامع من نشاطات دينية وعلمية تجدد دور المسجد الجامع في الأقاليم في العصر العثماني، ذلك الدور الذي يعتبر كما - ستوضح الدراسة - استمرارا لما كان عليه الحال في العصور الإسلامية السابقة، مع إضافة ما يتميز به العصر العثماني من نشاطات دينية معينة.

وتتنظم هذه الأهمية منهج البحث الذي يقوم على محورين أساسين، المحور الأول: يشمل الدراسة التاريخية التي تتضمن من النقاط البحثية ما هو متصل بتاريخ الواقفين، وتاريخ الجامع نفسه، بالإضافة إلى ما ورد في الوثيقة من نصوص تتصل بتاريخ نظام الواقف في هذا العصر. والمحور الثاني هو المحور الأثري المعماري الذي يتضمن دراسة ما يتصل بالجامع من الناحية المعمارية الإنشائية والوظيفية في ضوء ماورد من نصوص في الوثيقة موضوع البحث وتعرض بصفة خاصة للجوانب التي لم ترد في أي دراسة سابقة.

الدراسة التاريخية:

أشارت الدراسات السابقة إلى أن منشئ الجامع هو الأمير محمد (٣) اعتمادا على ما تم قراءته من كتابات أثرية على الجانب الشرقي لواجهة المحراب الرئيسي الأوسط للجامع (٤). ورد في وثيقة الوقف - موضوع البحث - ما يؤكد أن إنشاء الجامع كان على يد كل من الأميرين «محمد وأحمد ولدا المرحوم حسن بن الأمير حمد بن المرحوم الأمير يونس من أولاد الأمير عمر عين أعيان الأمراء بولاية الصعيد الأعلى سابقا» (٥)، وهكذا يتضح أن هذا الجامع لم يكن من إنشاء الأمير محمد وحده كما أشارت الدراسات السابقة ولكن شارك في بنائه ووقفه أخوه الأمير أحمد،

واشتراكاً أميرين في بناء جامع ووقفه ووقف الأوقاف عليه، مثال قل ودوده، حيث جرت العادة بأن يتولى بناء المنشأة الدينية ووقف الأوقاف عليها شخص واحد. وربما كان لذلك دلالاته المرتبطة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالأميرين والتي أدت إلي اشتراكهما في بنائه ووقفه.

نصب الأميرين محمد وأحمد:

يكشف نص الوثيقة عن نسب الأميرين منشأً للجامع، فهما من أولاد الأمير حسن بن الأمير حمد بن المرحوم الأمير يونس بن عمر بن عبد العزيز الهواري. وهما بذلك ينتسبان إلى قبيلة هواة (٦) تلك القبيلة التي يشير لبو الأفرقي إلى أن «تزوجها إلى بلاد الصعيد يرجع إلي العصر الفاطمي، عندما منحهم الخليفة الفاطمي إخميم مكافأة لهم على معاونتهم لجوهر، ورغبوا عن إعادة بنائها ونوا المنشبة (٧) واستقروا بها لتحاشي الخلاف مع العرب» (٨).

وفي العصر المملوكي أقطع السلطان برقوق «اسماعيل بن مازن» من هواة جرجا، وكانت خرابا فعمروها، وأقام بها حتى قتله علي بن غريب منهم، فولى من بعده الأمير عمر بن عبد العزيز الهواري (٩) الجد الأعلى للأميرين محمد وأحمد المذكورين، والذي كان له دور بارز في إعمار جرجا وإزدهارها هو وأبناؤه الذين تولوا الحكم من بعده، وهكذا يتضح دور هواة في إعمار المنشأة وجرجا وإخميم، وهذه الأخيرة ازدهر عمرانها وذاع صيت أميرها حسن الاخيمي (١٠) الذي ورد في الكتابات الأثرية بجامعة أنه ابن الأمير محمد (١١). وإذا كان الأمير محمد كان حيا على الأقل حتى سنة ٩٥٠هـ تاريخ تسجيل وثيقة الوقف (١٢) -موضوع البحث- وأن الأمير حسن أنشأ الجامع المذكور سنة ١١١٦هـ فإن في ذلك ما يشير إلى الترجيح بأن الأمير حسن هو ابن الأمير محمد بن الأمير حسن بن الأمير حمد بن الأمير يونس بن الأمير عمر بن عبد العزيز الهواري. وإن صح ذلك فإن الأمير حسن الاخيمي يكون في هذه الحالة هواليا (١٣).

ومن جهة أخرى تشير المصادر والدراسات التاريخية إلى أن أمراء هواة في العصر العثماني كانت لهم علاقة طيبة بالعثمانيين لدرجة ان هؤلاء الأمراء كانوا يرسلون الهدايا للسلطان العثمانيين ومن بينهم السلطان سليم والسلطان سليمان. لكن العلاقات ساحت بعد ذلك بين هواة والعثمانيين فعزل العثمانيون هواة من حكم الصعيد سنة ٩٨٣هـ/١٥٧٦م وعهد بالحكم في الصعيد إلي أحد بكوات الماليك وهو سليمان جنبلاط (١٤).

وعند إدخال نظام الإلتزام إلي الصعيد في الربع الأول من القرن السابع عشر سيطر هواة

على مساحات واسعة من أراضي الصعيد بحكم ما كان لهم من مكانة، وكانوا أيضا من الفئات التي سمح لها بأخذ التزام الأراضي الزراعية منذ بداية ادخال هذا النظام الى مصر. ومسيطره الهزاره على معظم اراضي الصعيد بالالتزام عادت لهم السلطة على الصعيد ولكن في ظل الإدارة المملوكية العثمانية (١٥).

وإذا كان هذا هو حال العلاقة بين أمراء هواره والسلطة العثمانية في ضوء ماورد في المصادر والدراسات التاريخية، فإن ما ورد في وثيقة الوقف - موضوع البحث - يشير إلى أن الامارة ظلت متوارثة في بعض أحفاد عمر بن عبد العزيز الهوارى وظلوا يحكمون في بعض ولايات الصعيد كولاية الاخميمية التي كانت قاعدتها إخميم حتى سنة ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م تاريخ قتل أو وفاة الأمير حسن الاخميمي.

وتسجل وثيقة الوقف أيضا مظهرها من مظاهر اقرار الديوان في جرجا لامارة امراء إخميم من أحفاد عمر بن عبد العزيز الهوارى ممثلا في الأميرين محمد وأحمد صاحبا الوقف حيث أقر ديوان جرجا وحاكمها المراسيم الشاهدة بملكيتهما للرزق الألباسية التي وقفها بعد ذلك على الجامع الذي أنشأه في إخميم (١٦).

تاريخ إنشاء الجامع:

لم تحدد الدراسات السابقة تاريخا معينا لإنشاء الجامع، وأرجعت تاريخ عمارته - على وجه العموم - إلى العصر العثماني بناء على دراسة عناصره المعمارية والزخرفية (١٧).

وورد في الوثيقة - موضوع البحث - ما يشير إلى أن اعتمادها رسميا كان «في سابع من شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعين وألف» (١٨) وهو ما يعني أن عمارة هذا الجامع قد تمت بالفعل قبل اتمام إصدار كتاب وقفه بمدة يسيرة.

ولم يستطع القائمون بالدراسات السابقة للجامع قراءة كل ما نقش من كتابات تأسيسية على الجانِب الشرقي لواجهة المحراب الرئيسي قراءة متكاملة لما اعتراها من تآكل وما أصابها من دهانات في العصر الحديث، كما لم يكن بالامكان في غياب المعلومات الصحيحة عن منشئي الجامع تفسير ما أمكن قراءته. ولكن الآن في ضوء توفر هذه المعلومات، وفي ضوء ما تم قراءته من كلمات لم تتم قراءتها من قبل، يمكن تحديد تاريخ إنشاء الجامع.

وبعد أن تم تفكيك الأحجار التي نقش عليها نص الإتياء في الجهة الشرقية من المحراب وتنظيفها أمكن قراءة نصها على النحو التالي:

١ - أنشأ هذا المسجد الكبير.

٢ - العالي الأمير

٣ - محمد (أ) حمد

٤ - الأمير حسن

٥ - سنة ٩٤ { . } ١ (١٩).

وبالربط بين ماورد في الوثيقة عن نسب الأميرين وماتم قراءته بصورة صحيحة من هذا النص سيما السطور من (٣-٥) يتضح تطابق الاسم الأول من اسمي المنشئين وهو «محمد» مع الاسم الأول الوارد في وثيقة الوقف، ويتضح في ضوء ماورد في نص وثيقة الوقف عن الواقف الثاني أن الاسم الثاني في السطر الثالث والذي بقي منه الحروف الحاء والميم والدال وفقد الحرف الأول منه وهو الألف يتضح ان منطوق هذا الاسم هو «أحمد» وهو اسم الأمير الثاني الذي شارك في البناء والوقف وهو آخر الأمير محمد، وعليه فإنه يمكن الترجيح بأن لقب «الأمير» كان يسبق اسم «أحمد» المذكور كما يمكن الترجيح بأن الكلمة التالية لكلمة أحمد كانت «ولنا» أو «ابناء» ثم يلي ذلك نص السطر الرابع مكملًا لاسمي الأميرين بذكر اسم والدهما الأمير حسن، وهي ايضا تكملة متوافقة مع ورد في وثيقة الوقف حيث اشار نص الوثيقة الي ان الأميرين «محمد وأحمد ولنا الأمير حسن ...» (٢٠).

وفيما يتعلق بالتاريخ المذكور في السطر الخامس فإن هذا التاريخ بقي واضحا منه رقم الاحاد ورقم العشرات، ورقم الآلاف وتآكل رقم المئات، وبالمقابلة بين هذا التاريخ وتاريخ اعتماد وثيق الوقف في شهر رجب سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م، يتضح ان الرقم المتآكل «صفر» وبذلك يمكن تحديد عام ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م كتاريخ لإتياء الجامع.

وبالربط بين هذا التاريخ وبني تاريخ وقف الجامع في شهر رجب سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م، يمكن ان يكون إتياء الجامع قد تم في نهاية سنة ١٠٩٤ هـ، كما يمكن ان تكون أعمالا معمارية اخرى قد تمت في المدة المحصورة بين هذا التاريخ وتاريخ الوقف وبخاصة وان نص الإتياء منقوش

على جدار القبلة أي في موضع كان بناؤه في الغالب قبل إقام عمارة عناصر أخرى تم إنشاؤها بعد إنشاء هذا الجدار كالسقف وغيره، ويمكن أيضا أن تكون إجراءات تسجيل الوقف قد استغرقت بعض الوقت حتى تمت في ١٧ رجب سنة ١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م.

الأحداث التاريخية المصادقة لتاريخ إنشاء الجامع :

ورد في متن الوثيقة إشارة متكررة إلى أن السلطان العثماني المعاصر كان في حالة حرب مع خصوم الدولة العثمانية، فاتحها لبلاد جديدة، فعند سرد الوثيقة للوظائف المقررة وخاصة وظائف قراء القرآن شرط الواقفان أن يهدي ثواب الترواة في «صحائف النبي ﷺ وأصحابه والمسلمين ثم في صحائف مولانا السلطان نصره الله والغزاة المجاهدين في البر والبحر من المسلمين ثم في صحائف الواقفين...» (٢١)

وفي إطار ما سبقت الإشارة إليه عن تاريخ إنشاء الجامع سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م يتضح أن السلطان المقصود في نص الوثيقة هو السلطان محمد الرابع (١٠٥٧-١٠٩٩ هـ / ١٦٤٧-١٦٨٨ م) وهو السلطان الذي وصلت في عهده الجيوش العثمانية الفاتحة إلى فيينا، وقت محاصرتها في نفس العام التي كان فيه إنشاء الجامع وهو سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٣ م. وهكذا يتضح أن كتابة نص الوثيقة كانت معاصرة لهذه الأحداث فوردت الإشارة الضمنية إليها متشلة في الدعاء للسلطان وجيوشه الغازية بالنصر.

ملامح نظام الوقف في العصر العثماني من خلال الوثيقة :

تلقي الوثيقة - موضوع البحث - بعض الأضواء المهمة على ملامح نظام الوقف في العصر العثماني. ومنعروض فيما يلي لبعض الجوانب التي تجسد بعض هذه الملامح حسب ردها في سياق نص الوثيقة.

أولا: وقف الرزق لأحباسه:

تضمنت الوثيقة نصا مهما يفيد أن الأراضي التي وقفها الواقفان على الجامع كانت من الرزق الأحباسية (٢٢) الخاصة بهما وأنها كانت عبارة عن «ثلاث قطع أرض طين سواد صالحة للزرع والزراعة ملكا مجاورة لبعضهما أحباسية محسنة محجرة كائنة ذلك الرزق بولاية الاخميمية بموجب الأقران الديوانية والتذكرة المسطرة باللغة التركية والمراسيم المترجم عليها

بالعربية المسطرة من ديوان مصر المحمية بالتقرير في ذلك وبموجب مراسيم شاهدة لهما من ديوان محروسة درجاً من حكام الولاية عوضاً في ذلك عن من يذكر فيه بموجب مرسوم كريم مؤرخ تاريخ رابع عشر محرم الحرام افتتاح ستة تسعين ألف سطر ذلك المرسوم من ديوان الأرزاق بمصر المحروسة، وبموجب التذكرة المسطرة باللغة التركية في تاريخه المذكور حسب البيورلدي الشريف الصادر في التاريخ الملأ بذكره (٢٣)»

ويكشف هذا لاتص عن بعض الجهات الإدارية في الدولة والتي كانت تتولى تنظيم الرزق الأعباسي وتسجيلها والإشراف عليها.

ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين بدأوا بتنظيم مصر إدارياً باصدار قانون تامه مصر للأوقاف سنة ١٢٣١هـ/١٨٢٥م، وكان من بين ما نظم هذا القانون الأوقاف والرزق، وقمياً يختص بالرزق الأعباسية التي بأيدي الأشخاص فإنه وفق هذا القانون لم يكن يتم الإفراج عنها قبل عرض أمرها على والي والدفتار دار للتأكد من نوع الرزقة والمتحصل منها، ومدى صلاحية الحجج التي بأيدي أربابها من عدمه، ومن ثبت صلاحية سند يعطى «إفراج» أي سند بصلاحية الوقف، وعند ثبوت عكس ذلك كان يتم ضمها إلى أراضى الميري، تحفظ صورة من دفتر الأراضى المربجة إلى الدولة في ديوان مصر وترسل صورة أخرى إلى الأستانة. وفي محاولة لوضع هذا القانون موضع التنفيذ كان الكشف عن الأوقاف والرزق وبيان مدى صلاحية الرزق والأوقاف من عدمه، وكان يتم التسجيل في دفاتر خاصة عرفت فيما بعد «دفتر إفراجات زماني سليمان ودارد» وأصبحت هذا الدفاتر فيما بعد المرجع حين البحث عن مدى مصداقية وقف أو رزقة ما. وبعد البحث والمراجعة تصدر الإفراجات عن ديوان مصر بعد عرض نظام الأوقاف وأرباب الرزق المسوغات الشرعية لهم على الديوان. ولذلك كان يطلق على الإفراج أحياناً «إفراج ديواني» وأحياناً أخرى «الإفراج الباشوي المسطر من ديوان مصر المحروسة» (٢٤) وطبق هذا النظام على الرزق الأعباسية التي وردت الإشارة إليها في وثيقة وقف الأميرين محمد وأحمد - موضوع البحث - حيث ثبتت ملكيتهما لها «بموجب الإفراجات الديوانية والتذكرة المسطرة باللغة التركية والمراسيم المترجم عليها باللغة العربية المسطرة من ديوان مصر المحمية بالتقرير في ذلك» (٢٥)

وكان الديوان العالي أيضاً سلطة إشرافية وتنظيمية تتصل بالرزق، حيث أن قاضي الديوان كان ينظر في أمر القضايا التي يحيلها إليه الباشا وبعض منها يتعلق بأمور الأوقاف والرزق، وكان الباشا يحضر جلسات الديوان التي تعرض فيه أمور هامة وتصدر الأوامر من هذا الديوان

بفض النزاعات حول الرزق والأوقاف أو المحافظة على بعض الأوقاف وعدم التعرض لأوقاف بعض الفئات المتميزة وهو ما كان يسمى «بيورلدي» (٢٦)

يتضح من خلال نص الوثيقة عن إفراجات الرزق الاحباسية الخاصة بالواقفين الأميرين محمد وأحمد والوارد ذكرها في الوثيقة - موضوع البحث - أنها مرت بالإجراءات التي كانت تتم من خلال هذا الديوان حيث صدر بشأنها «البيورلدي الشريف» (٢٧) أي الأمر الشريف المقرر بكونها خاصة بالأميرين المذكورين، كذلك كان لديوان الرزق دور واضح في إدارة الرزق، بل إنه الديوان المختص بتسجيل الرزق المرصدة من جانب الدولة على أوجه البر المختلفة، وعلى بعض العلماء، بعض الأفراد والفئات المختلفة، في سجلات مختلفة حسب الولايات وكانت دفاتر الرزق تحفظ بالروزنامة للرجوع إليها وكان يشرف على هذا الديوان كاتب الرزق أو أفتندي الرزق (٢٨)

وسجلت الرزق الخاصة بالأميرين في هذا الديوان حيث صدر عنه مرسوم «كريم مؤرخ تاريخه رابع عشر محرم الحرام افتتاح سنة تسعين وألف مسطر ذلك المرسوم من ديوان الأوقاف (٢٩) بمصر المحروسة «يقر بملكية الأميرين لهذه الرزق».

وكذلك كان لديوان جرجا الذي يمثل الإدارة المحلية التابع لها الأميرين دوره في تنظيم إدارة الرق. حيث أشارت الوثيقة إلى أن من بين المستندات الصادرة لاثبات ملكية الواقفين لرزقهما «مراسيم شاهدة لهما من ديوان محروسة دجرجا من حكام الولاية» (٣٠)

ويكشف هذا التابع الدقيق لاعتماد الجهات الإدارية والقضائية ملكية الأميرين لهذه الرزق عن دقة نظام متابعة الأوقاف والرزق في العصر العثماني. كما يكشف من جهة أخرى عن مكانة هذين الأميرين تلك المكانة التي تقوم في الأساس على كونهما ينتسبان إلى قبيلة هواة التي كان لها شأنها في إدارة الصعيد. إثناء من عصر الماليك الجراكسة واستمرارا في العصر العثماني. ومن جهة أخرى يتضح أنه بالرغم من انتزاع العثمانيين حكم الصعيد من الهواة وتعيين حكام له من بين البكوات الماليك فإن العلاقة بين هؤلاء الحاكم وأمرء الهواة م جهة والعلاقة بين الباشا أيضا وهؤلاء الأمرء كانت تقوم على تقدير مكانة هؤلاء الأمرء وسطوتهم في بلاد الصعيد.

ومن الناحية التنفيذية فإن اعتماد دواوين الدولة المختصة للملكية الأميرين وكذلك صدور البيورلدي الشريف بالاقرار عنها، كان من شأنه تسهيل اعتماد الجهات لوقف أراضي هذه الرزق بعد ذلك على الجامع دون البحث في إثبات الملكية (٣١).

مشكلة تسجيل الوقف وعزل المتولي :

ورد في وثيقة الوقف موضوع البحث - نص مهم يسجل ظاهرة تكررت الإشارة إليها في بعض وثائق الوقف العثمانية، وناقشتها المصادر الفقهية العثمانية باعتبار شيوعها. وتمثل هذه الظاهرة في أمر تعيين متول شرعي للوقف ثم عزله بحكم قضائي ليحولى الواقف التصرف في أمور وقفه حسب ما وضعه من شروط. وجاء نص الوثيقة - موضوع البحث - في ذلك أكثر وضوحا من وثائق أخرى تضمنت هذا الإجراء فقد جاء بها ما نصه «... روقع الواقفان عن هذا الوقف يدي الحيازة، ووضعها عليه يدي النظر والولاية، وسلمها لمتول شرعي إلى أن يتم أمر التسجيل، وتسلم المتولى المزبور فارغا غير مشغول بما يمنع صحة التسليم شرعا، ووقع الأجر في ذلك على الله الكريم، وثبت الشهاد على الواقفين المذكورين بما نسب إليهما من الوقف والشرط على الشرح والنمط المبسوط بشهادة شهوده ثوتا شرعيا محررا مرضيا ثم عن للواقفين المذكورين الرجوع عن هذا الوقف ورده إلى التصرف كما كان، متمسكين في ذلك بعدم اللزوم على قول الامام الأعظم والمجتهد المقدم صاحب الأموال الشريفة والشيم المرضية المنيقة الامام أبي حنيفة بن ثابت الكوفي، جوزي بكل خير وكوفي، فعارضه المتولي المذكور في ذلك متمسكا بالصحة والزموم على قول الامامين الصاحبين الامام أبي يوسف يعقوب والامام محمد بن الحسن الشيباني، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين، وتنازعا في ذلك، وراقعا لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه، فنظر بينهما نظرا دقيقا، وتأمله تأملا شافيا حقيقا، فعان في جانب الوقف وجحانا قويا وبرهانا واضحا جليا، فاستخار الله، وحكم بصحة الوقف ولزومه وخصومه وعمومه، عالما بالخلاف الواقف بين الأئمة والأسلاف في شأن الأوقاف، وأشهد على نفسه الكريمة بذلك، وعزل المتولى المرقوم على هذا الوقف، وأبقاه تحت يدي الواقفين المذكورين، ينظران بأنفسهما على الوجه المشروح، ويعتضى ذلك صادر وقفا محبسا مسبلا من أوقاف الله الأكيدة...» (٣٢)

ويكشف هذا النص عن أمور مهمة تتصل بتسجيل الأوقاف في هذا العصر، فقد كان من الاجراءات الأساسية في ذها التسجيل أن يسلم الوقف إلى متول شرعي. وتعارض هذا التسليم فيما يبدو مع رغبة بعض الواقفين في ان يتولوا هما بأنفسهم أمر الوقف وفق الشروط التي يضعوها، ومن ثم كان الرجوع في أمر تولية المتولي الشرعي هو المخرج بعد تسجيل الوقف بتوليته. وقد وقع خلاف بين فقهاء المذهب الحنفي - مذهب الدولة الرسمي - في هذا الأمر، فبينما يرى بعضهم عدم جواز الرجوع يرى آخرون إمكان ذلك، وصار الرجحان فيما يبدو لهذا الرأي

الأخير، حيث أصبحت القاعدة لدى أصحابه هي إمكان الرجوع في التولية» (٣٣)

وقد ورد بنص الوثيقة السابق ذكره - أن الواقفين عن لهما الرجوع عن الوقف ورده إلى التصرف اعتمادا على رأي المذهب أبي حنيفة. فعارض المتولي ذلك متمسكا باصحة واللتزم، اعتمادا على رأي كل من الامامين أبي يوسف يعقوب ومحمد بن الحسن الشيباني، وهما من أعلام المذهب الحنفي أيضا. وتسجل المصادر الفقهية الحنفية في العصر العثماني هذه الظاهرة ومن أهمها كتاب «حاشية رد المحتار على الدر المختار» لابن عابدين [١٩٨-١٢٥٢هـ/١٧٨٤-١٨٣٦م] حيث يعرض ابن عابدين آراء فقهاء الحنفية في هذه المشكلة وما يتصل بها، ويتفق ما قال به مع ما ورد في نص الوثيقة بخصوص آراء الفقهاء الأوائل في المشكلة، كما انه يقرر أيضا ان والقاضي الحنفي إذا حكم بما ذهب إليه يوسف ومحمد لم يكن حاكما بخلاف المذهب، لأنهما يتبعان المذهب وهم فروع منه» (٣٤). وهذا يعني ان هناك إمكانية بأن يحكم القاضي بعدم الرجوع استنادا لرأي كل من يوسف ومحمد. وهو ما كان - على ما يبدو - في حساب الواقفين حيث ورد في الوثيقة ان المتولي تسلم المزبور فارغا غير مشغول بما يمنع صحة السليم شرعا» (٣٥) حتى يكون تحت أيديهما ما يستطيعان به ان ينقضا صحة الوقف إذا حكم القاضي لصالح المتولي بعدم الرجوع في الوقف مستندا الى رأي كل من الامامين يوسف ومحمد، وهكذا يبدو م خلال دراسة هذا النص، المناخ الذي كانت تتم فيه اجراءات توليه متولي شرعي ثم الرجوع عن الوقف لعزله ليتولى الواقف. فقد تسلم المتولي كتابا بالوقف «فارغا غير مشغول بما يمنع من صحة التسليم شرعا» وتمت اجراءات التسجيل رغم ذلك، ثم عادا الواقفان وتمت اجراءات التسجيل رغم ذلك، ثم عادا الواقفان ورجعا عن الوقف وحكم القاضي بعزل المتولي الشرعي معتمدا على رأي أبي حنيفة، بل إن الموثق أثبت بالوثيقة علم القاضي برأي كل من الامامين يوسف ومحمد وهو حكم تكرر بنفس الصورة في وثائق وقف أخرى سابقة لهذه الوثيقة (٣٦) بما يشير إلى أنه هذا الأمر أصبح في حكم التقليد.

الدراسة الأثرية المعمارية:

موقع الجامع :

يقع الجامع في القطاع الشرقي من مدينة إخميم، يحده من الجهة الشرقية شارع القيسارية، ومن الجهة الجنوبية شارع الأمير حسن، ومن الجهة الشمالية شارع الأشراف والمنشعب ويجاوره من

الجهة الغربية مساحة فضاء تابعة للجامع كان بها ملحقاته لجاورها من القرب ميان حديثة.

وورد في وثيقة الوقف - موضوع البحث - اشارة موجزة عن موقع الجامع تشير إلى انه الجامع «الكائن بناحية إخميم من جهتها الشرقية المجاور إلى سوق الناحية» (٣٧)

ويتطابق الوصفان في الاشارة إلى أن سوق الجامع أنشئ مجاورا لسوق إخميم أو «قيسارته» (٣٨) ويفسر هذا سبب تسمية الشارع الذي يحد الجامع من الجهة الشرقية بشارع القيسارية، وما زالت بالموضع الذي يقع على الجانب الشرقي لشارع القيسارية بقايا من بعض حوائط كانت ضمن احدى الوكالات التي ضمها سوق إخميم المشار إليه.

وقد انصبت ظروف هذا الموقف - فيما يبدو - مع تسمية العامة للجامع «بجامع السوق» (٣٩). ولاشك أن بناء الجامع في هذا الموضع كان من شأنه أن يخلد بالإضافة إلى المنطقة السكنية المجاورة، المنطقة التجارية ممثلة في القيسارية التي كانت تشغل المنطقة التي تقع الى الشرق منه.

الوصف المعماري للجامع (٤٠) :

تعرضت الدراسات السابقة لوصف الجامع وصفا معماريا بسجل الحالة التي بقى عليها قبل ازالته سنة ١٩٩٣م فيما عدا المتذلة لإعادة بنائه. مقارنة بين هذا الوصف وبين الوصف الذي ورد في الوثيقة بصورة مباشرة وما ورد فيها ضمنا في مواضع أخرى من إشارات لبعض الوحدات غير الموصوفة تكشف عما يلي:-

١ - أن تخطيط الجامع في الأصل كان يشتمل على ثلاثة مداخل، مدخل بكل واجهة من الواجهات الشمالية والشرقية والغربية (٤١) ويشير هذا الوصف إلى حدوث تعديل في الواجهة الغربية التي تضم مدخلين في كل من طرفيها (٤٢)

٢ - أن هذه المداخل وقت إنشاء الجامع كانت مرتفعة عن مستوى أرضيتي الشارعين اللذين يطل عليهما الجامع من الجهتين الشمالية والشرقية، وكذلك كان المدخل الغربي مرتفعا عن أرضية ملحقات الجامع في هذه الجهة. وكان يصعد إلى هذه المداخل من خلال درج أمامي يأخذ الشكل نصف المستدير، وكان هذا الدرج المؤدي إلى كل من المدخلين الشرقي والشمالي يتكون من أربع درجات بينما كان الدرج المؤدي إلى المدخل الغربي يتكون من ثلاث درجات،

وتبين أثناء الأعمال المذكورة. وسجل. هذا الشكل المعماري للدرج الخارجي مثالا مهما لأشكال الدرج الخارجي، تناسب مع اتساع الطريقين اللذين يطل عليهما الجامع، وبخاصة وأن امتداد الدرج في عرض الطريق لم يكن كبيرا لقلة عدد الدرجات التي لم تزيد عن أربع الاربعة الأخيرة «ناتما» عبارة عن جزء من أرضية دخلة المدخل. ولاشك أن تصميم الدرج بهيئة نصف مستديرة كان هو الآخر ليقفل من تأثير إعاقاة الدرج للفريق.

واستخدم هذا النمط النصف مستدير من أشكال الدرج الخارجي في هذا الجامع يأتي في إطار تقليد استخدام هذا الشكل في المساجد القاهرية العثمانية الكبرى التي استخدم فيها هذا النمط ولكن بهيئة ضخمة فخمة تأثرت بالتخطيط المعماري من حيث كون هذه المساجد معلقة كمسجد الملكة صفية [١٩. ١٠. ١٦١ م] (٤٣).

٣ - حددت الوثيقة نوعية الأحجار المستخدمة كأعتاب للمداخل الثلاثة للجامع، سواء كانت أعتابا سفلية أو علوية، وكذلك حددت نوعية الأحجار التي بنيت بها واجهات الجامع، وعند هدم الجامع لإعادة بنائه ثبتت دقة الوصف الوثائقي، وثبت أيضا أن بعض الأحجار الجرانيتية، مجلوبة من عمائر أثرية سابقة.

واتضح من مطابقة الوصف الوثائقي مع ما كشف عنه من أعتاب وأعمدة جرانيتية أن الموثق يطلق مصطلح «الحجر العنسي» على حجر الجرانيت.

٤ - أكد الوصف الوثائقي أن جدار القبلة به ثلاثة محارِب أوسطها أكبرها، وهي ظاهرة لوحظ تكرارها في مساجد جرجا وإخميم التي انشئت في العصر العثماني (٤٤).

٥ - حدد الوصف الوثائقي عدد أعمدة الجامع بأربعة وعشرين عمودا، وهو العدد الفعلي لأعمدة الجامع وأشارت الوصف لتحديدنا إلى أن بعض هذه الأعمدة من «المرمر» وبعضها من «الحجر العنسي» أي الجرانيت، وبعضها من «الحجر الأحمر» وبعضها من «الحجر الهيصم»، وبعضها من «حجر الكنان» وهي أنواع من الحجر الجيري لكل مواصفاته. وبكشف هذا الوصف عن أن هذه الأعمدة حدث لها إضافة تمثلت في تقويتها بطبقة من الملاط الاسمنتي في بعض الأعمدة وعمل لبعضها الآخر «قمصان» مبنية من الحجر غير شكلها الاسطواني إلى شكل مربع المسقط. وبكشف الوصف الوثائقي المحدد لتنوعية الأحجار المختلفة التي شكلت منها الأعمدة، عن أن ما ذكر من أنها جميعا من الجرانيت وصف يجانبه الصواب (٤٥).

ويكشف هذا التنوع في أعمدة الجامع وتنوع أشكالها والأحجار التي شكلت منها عدم توفر الأعمدة بكثرة في المنطقة وبالحجم الذي يناسب عمارة المساجد، وربما كان استخدام الأعمدة الخشبية في مسجد الأمير حسن باخميم والذي أنشئ سنة ١١١٦هـ/٤٠١٧م (٤٦) حلا لهذه المشكلة.

٦ - حدد الوصف الوثائقي ما كانت عليه شبابيك النوافذ بالجامع، فقد ذكر الموثق انه كان للنوافذ السفلية «شبابيك من الحديد» وللنوافذ العليا التي بلغ عدد تسع عشرة نافذة «قمرات» من الزجاج الملون يختلف الألوان. ويلاحظ ان عدد هذه النوافذ مطابق لما بقى بالجامع قبل هدمه. ولكنها فقدت قمراتها، ولم تشر الدراسات السابقة الى نوعية هذه الشبابيك ولا إلى المادة المصنوعة منها.

٧ - أشار الوصف الوثائقي إلى أن بناء المنذنة خارج ساحة الجامع مجاورة له من الجهة الشمالية الغربية، وهو وصف يطابق الواقع المعماري لبناء المنذنة. وتجدر الاشارة هنا إلى أن بناء المنذنة في موضع خارج ساحة المسجد مجاورة له متصلة بساحة المساجد من خلال بابين أحدهما بالمجدار الغربي يقابل باب المنذنة. ظاهرة تكررت في مساجد الصعيد في العصر العثماني (٤٧) وتعتبر منذنة هذا الجامع بهذا الموضع ماثلة لماذن كثير من المساجد العثمانية الكبيرة في القاهرة أو اسطنبول وغيرها. ويبدو ان اختيار موضع المآذن في المساجد العثمانية بهذه الهيئة كان في اطار تطبيق الاحكام الفقهية الإسلامية التي تكره ان يشغل أي جزء من ساحة الصلاة لأي غرض غيرها الصلاة (٤٨).

ومن جهة أخرى يلاحظ ان بناء منذنة جامع الأميرين محمد وأحمد بهذه الهيئة مكن من فصل بنائها عن بناء الحائط الشمالي للجامع رغم ملاصقتها له، ويبدو ان هذا الفصل كان مقصودا من الناحية الإنشائية حيث ان بناء المنذنة بمضخامته وارتفاعاته كان يتطلب أساسات أعمق بينما بنيت المجدران بأساسات لم يصل عمقها إلى عمق أساسات المنذنة ومن ثم كان في فصل بناء المنذنة إنشائيا عن بناء حوائط الجامع ما يجنب أي خلل معماري كان من الممكن أن يحدث لو ارتبط بناء المنذنة ببناء جناح الجامع الملاصق لها لاختلاف ثقل البناء وضغطه عن التربة في كل منهما.

٨ - لم تشر الدراسات السابقة إلى ملحقات الجامع التي كانت تقع في الجهة الغربية، واكتفت

بالإشارة إلى وجود مساحة فضاء غربي الجامع بها ميضأة حديثة (٤٩) ولكن وثيقة الوقف - موضوع البحث - تحدد تفصيلا نوعية الوحدات المعمارية التي كانت بهذه المنطقة (٥٠) على النحو التالي:-

أ - بئر مركب على قوتهما ساقية من الخشب كانت تزود الميضأة بما تحتاج إليه من ماء، وسمح الوقفان للعامة بأخذ ما يحتاجونه من ماء البئر. وما زالت هذه البئر باقية حتى الآن. في القطاع الشمالي من المساحة الفضاء مجاورة للميضأة الحديثة من جهة الغرب.

ب - مطهرة «معدة للوضوء والتطهير وبها حنفية معدة لوضوء السادة المقلدين للإمام أبي حنيفة النعمان... مركب عليها ثلاثة لوائب نحاس وبها ثمانية بيوت أخلية معدة لقضاء حاجة الإنسان، في كل بيت حوض من الحجر معد للاستنجاء» وقد وردت الإشارة إلى وجود مستحم بين هذه الوحدات عندما ذكرت الوثيقة مهام سواق الساقية المكلف بإدارة الساقية للملئ «المطهرة والحنفية والمستحم وبيوت الأخلية» (٥١).

ج - حوش معد لربط الأتوار وخزين التبن وكانت هذه الاثرار تدير الساقية المذكورة.

وإذا كانت الميضأة من المرافق المهمة التي جرت العادة بالحاقها بالمساجد، فإن الملفت للانتباه في عمارة ميضأة هذه الجامع هو اشتغالها على وحدتين للوضوء، الوحدة الأولى عبارة عن «حنفية مركب عليها ثلاث لوائب» ليتوضأ منها من يتبعون المذهب الحنفي، والوحدة الثانية عبارة عن «فسقية أي حوض ماء يتوضأ من مائه الشافعية والمالكية. والفارق بين الوحدتين كما هو واضح من وصفهما أن المتوضئين من الحنفية ذات اللوائب يتوضأ كل منهم من ماء مار من حوض به ثقب مركب فيها لوائب «أي صنابير للماء» فلا يخالط المتوضئ الماء كله ولكنه يتعامل فقط مع الماء الذي ينزل من اللوائب، أما المتوضئين من الفسقية فكل منهم يخالط الماء كله بالحوض الذي يتوضأ منه والذي لم يركب له لوائب والذي يسمى «فسقية» وتناسب «الحنفية ذات اللوائب» من يتبعون المذهب الحنفي لأنهم لا يجذبون أن يكون الوضوء من مصدر مباشر واحد كالفسقية (٥٢)، وهكذا يتضح مدى انعكاس بعض الأحكام الفقهية المتصلة بالوضوء في اختلاف التصميم المعماري لوحدي الوضوء في ميضأة هذا الجامع.

ويشير موضع البئر الذي مازال باقيا إلى أن وحدات الميضأة كانت مجاورة له أي أن الميضأة برحلتها كانت تشغل القطاع الشمالي من المساحة الفضاء التي تقع غرب الجامع.

وقد ذكرت الوثيقة - موضوع البحث - أن من بين الوظائف التي قودها الواقفان بالجامع وظيفة لرجل «يكون متقيداً يملئ السبل وتفرقة الماء العذب يوم الجمعة وغيره على المصلين» (٥٣). ويؤمّن هنا النص وجود سبيل كان ملحقا بالجامع. وإلحاق سبيل بهذا الجامع مثال تكرر في جامع الأمير حسن بإخميم، ويعتبر ذلك أيضا استمرارا للظاهرة التي تكررت في المنشآت الدينية في العصر المملوكي ويبقى تحديد موضع السبل بالنسبة للجامع موضوع التنازل (٤) والراجع أنه كان يقع في المنطقة القضاء غربي الجامع وترجع انه كان يقع في القطاع الجنوبي مطلا على شارع الأمير حسن الذي يطل عليه الجامع من الجهة الجنوبية.

١ - ورد في الوثيقة أيضا بعض اشارات لنوعية الأثاث الخشبي بالجامع والذي يخدم الأغراض الدينية فقد كان بالجامع «منبر من الخشب النقي» (٥٤) ولكنه فقد وصنع بدلا عنه منبر حديث. كذلك كان بالمسجد دكة «لاقامة الصلوات المشروع يوم الجمعة» (٥٥).

كذلك وردت الإشارة إلى وجود «كرسي خشب لقراءة القرآن في كل يوم بعد صلاة العصر» (٥٦) حيث قرر الواقف بالجامع قرنا «من أهل الصلاح والدين يقرأ قرآن على الكرسي بالجامع قبل صلاة العصر من كل يوم» (٥٧) وفقد هنا الكرسي، وهو يشبه في الغالب - الكرسي الجوامعي الذي وجدت بعض أمثله في المنشآت الدينية المملوكية ليجلس عليه قارئ القرآن يوم الجمعة قبل الصلاة (٥٨) لكنه في هذا الجامع خصص لقارئ يقرأ القرآن قبل صلاة العصر من كل يوم ولم يرد في الوثيقة - موضوع البحث - أي إشارة الى استخدام هذا الكرسي لقراءة القرآن في يوم الجمعة قبل الصلاة وإنما وردت الإشارة الى توزيع الربعات الشريفة على المصلين يوم الجمعة ليقرأوا فيها ما تيسر من القرآن واتضح ذلك من خلال ما ذكر عن تعيين رجل «من أهل الصلاح يكون متقيداً بخدمة الربعة وتفرقتها في يوم الجمعة على القراء الموجودين بالجامع» (٥٩) وهكذا يتضح ان وجود كرسي من الخشب في المسجد في العصر العثماني لا يعني وجوده بالضرورة انه مخصص لقراءة القرآن الجمعة قبل الصلاة كما جرت العادة في العصر المملوكي وإنما يمكن ان يكون مخصصا لقراءة القرآن في أوقات أخرى وفق تقليد آخر يتميز به هذا العصر كقراءة القرآن قبل صلاة العصر في كل يوم كما حدث بها الجامع. وقد وجد غرض جيد لهذه النوعية من الكراسي في مساجد الأقاليم في الصعيد في مسجد عثمان بهرجا (٦٠).

الوظائف المقررة بالجامع:

اقتصرت الدراسات السابقة على الإشارة الضميمة الى الوظيفة الأساسية للجامع وهي الصلاة. لكن وثيقة الوقف تضمنت معلومات تفصيلية عن النشاط العملي والديني الذي كان يمارس بالجامع. كما أنها ذكرت تفصيلا أرباب الوظائف الذين كانوا يقومون بأداء وخدمة هذه النشاطات، وكذلك مباشرة أوقاف الجامع ايضا.

أولا : الوظائف الدينية والعملية : (انظر الجدول رقم ١ شكل ٣)

وفقا منشأ الجامع ليكون «مسجدا جامعاً لإقامة الصلوات الخمس والجمعة والجماعة والنوافل والاعتكاف والتعبّد وقراءة القرآن والحديث والعلم الشريف والذكر والعبادة» (٦١) وعينا الوقفان لأداء الصلاة خطيباً ومرقياً ورئيس مؤذنين وثلاثة من المؤذنين، وحددا لكل منهم واجبات ووظائفهم، وما يصرف له عند أداء هذه الوجبات سنوياً من القمح الوارد من ريع الأراضي الزراعية الموقوفة على الجامع.

وقررا الوقفان بالجامع درساً للفقهاء المالكي، عينا للقيام بتدريسه مدرسا مالكيًا، وهو ما يسير إلى اهتمام الواقفين بتدريس هذا المذهب دون غيره من المذاهب السنية، ومن بينها المذهب الحنفي دون غيره من المذاهب السنية، من بينها المذهب الحنفي الذي كان بمثابة المذهب الرسمي للدولة في هذا العصر.

وكذلك قررا الوقفان برنامجاً مكتفياً ومميزاً لقراءة القرآن بالجامع، ويعكس هذا البرنامج من جهة أخرى تقاليد قراءة القرآن بالمساجد في هذا العصر، وهي تختلف نوعاً عما كان عليه الحال في العصر المملوكي.

والبرنامج اليومي لقراءة القرآن بالمسجد ينفذه أربعة من القراء، أولهم يقرأ سورة يس صباح كل يوم بالجامع في أي محل مه، وتجديد هذه السورة بالذات كان فنيا يبدو لفضلها الذي أشارت إليه تفاسير القرآن، وما ورد في شأنها من أحاديث للرسول ﷺ ومنها حديثه في فضل قراءتها في الصباح والمساء، والذي يقول فيه ﷺ «من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسي، ومن قرأها في صدر ليله أعطى يسر ليلته حتى يصبح» (٦٢). كذلك عينا الوقفان لقراءة «سورة تبارك الذي بيده الملك» (٦٣) في كل يوم وقت ما تيسر» (٦٤) وقد أشارت كتب التفسير وأحاديث رسول الله ﷺ ايضا إلى فضل هذه السورة، فقد قال الرسول ﷺ في شأنها: هي المانعة هي

المنجية من عذاب القبر» وقال ﷺ ايضاً «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شغعت لرجل حتى أخرجه من النار يوم القيامة وأدخله الجنة وهي سورة تبارك» (٦٥)

ومن الجدير بالذكر أن هاتين السورتين ورد ذكرهما في نوعية من المصادر العثمانية تعرف «بالمجربات» وتسجل هذه المصادر ما اشارت إليه التفسير السابقة عن فضلهما، مع اضافة روايات تشير إلى اعتقاد أهل هذا العصر فيما يمكن ان تعين عليهما هاتين السورتين في معالجة حل بعض المشكلات أو شفاء بعض الأمراض (٦٦)

كذلك عينا الواقفان قرأنا لقراءة «سورة الكهف في كل جمعة» ولم يحدد الواقفان زمنا ولا مكانا معيناً لذلك مثلما كان الحال في العصر المملوكي الذي جبت فيه العادة ان تقرأ فيه هذه السورة قبل صلاة الجمعة بواسطة قارئ للقرآن يجلس على الكرسي الجراحي بهواق أو ابوان القبلة ويسمعه المصلون (٦٧)، واختلف هنا التقليد في العصر العثماني حيث كانت قراءة القرآن قبل صلاة الجمعة منفردة حيث يقرأ من يريد القراءة في ربة شريفة من الربعات التي كانت توزع على المصلين.

وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة تقليد فيما يبدو ارتبط بما ورد عن فضل قراءتها في ذلك اليوم فقد ورد ان رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملا عظمتها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك» وقالوا: بلى يا رسول الله (٦٨) قال: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نوراً يبلغ السماء وروقى فتنة الدجال» (٦٨)

وبالإضافة إلى قراءة هذه السور المحددة بعينها وفي أيام معينة وأحياناً في وقاات محددة من هذه الأيام قرأ الواقفان قرأنا ليقراً من القرآن على عمومه كل يوم قبل صلاة العصر «عشر قرآن على الكرسي بالجامع قبل صلاة العصر من كل يوم (٦٩).

الصلاة على النبي ﷺ :

عينا الواقفان رجلين من «أهل الدين والصلاة في وظيفة على النبي ﷺ كل ليلة بع دصلاة المغرب إلى صلاة العشاء» (٧٠). وقد وردت في القرآن الكريم الدعوة إلى الصلاة على النبي ﷺ بقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٧١) وقد أفردت كتب المجربات في العصر العثماني باباً للذكر فوائد تتعلق

بالصلاة على النبي، تتضمن الصيغ التي تقال في هذا الذكر كما تتضمن الإشارة إلى أن أفضل المواعيد لذلك جوف الليل. (٧٢) مما يشير إلى إنتشار هذه النوعية من الذكر في العصر العثماني وهو انتشار يتفق ما ما قرره الواقفان لهذه الوظيفة بهجامعهما.

ثانيا : وظائف الخدمة (انظر الجدول رقم ٢ شكل ٣)

عيننا الواقفان بالجامع عددا من أرباب وظائف الخدمة يقومون بخدمة المصلين وتنظيف الجامع وإضاءته ليلا وتزويد ميضآته بالماء.

ومن هؤلاء رجل يقوم «بخدمة الربعة وتفرقتها في يوم الجمعة على القراء الموجودين بالجامع» (٧٣) وفي موضع آخر من الوثيقة ورد ما يشير إلى هذه الربعة بما نصه «وأما الربعة الشريفة الثلاثون جزءا المكتتب فيها القرآن العظيم فأوقفها ليقراً فيها القرآن في كل يوم جمعة تفرق قبل الصلاة على من يقرأ القرآن» (٧٤) ويكشف ذلك عن أن قراءة القرآن في هذا الجامع قبل العصر العثماني كانت مختلفة عن التقليد المتبع في العصر المملوكي والذي كانت قراءة قرآن الجمعة فيه تتم من خلال قارئ في مصحف جوامعي من على الكرسي الجوامعي في ايوان أودواق القبلة ويسمعه المصلون. (٧٥) والتقليد العثماني هو الذي يتبع السنة الصحيحة بشرط ألا يشوش قارئ على آخر (٧٦).

كذلك عيننا الواقفان بالجامع ميخرا ييخر بالجامع في كل يوم جمعة «ويعكس هذا الأمر مدى الاهتمام بتطبيب المسجد في يوم الجمعة بالذات وتيخير المسجد الجامع في يوم الجمعة تقليد عرف في مصر منذ العصر الفاطمي واستمر في العصور التالية (٧٧)

وعيننا الواقفان ايضا رجلا «من أهل الدين والصلاح يكون متقيدا بالفراشة والوقادة بالجامع المذكور والمطهرة وبيوت الأخلية (٧٨) وهكذا يتضح أن وظيفة هذا الرجل تنصف على تنظيف الجامع وإضاءته وقرشه وقد ورد ف بالوثيقة ايضا ما يشير الى أن الواقفين سمحا للناظر بتوفير ما يحتاجه من خصر لفرشه وحددا موعدا لذلك أوائل شهر رمضان م كل عام كنوع من الاهتمام بهذا الشهر الكريم (٧٩) كذلك سمحا للناظر بالصرف على ما يحتاجه المسجد م «الزيت والقناديل والمسارج» (٨٠). وأشارت الوثيقة تفصيلا إلى عدد قناديل الجامع فذكر ان من بينها «خمس عشرة قنديلا من داخل المسجد عشرة قناديل وعلى أبوابه ثلاثة وفي المطهرة قنديل واحد وعلى الحنفية واحد وما هو في بيوت الأخلية من المسارج في كل ليلة تسعة» وذكرت فرش المسجد وإضاءته

كانت الحرص على إقامتها في شهر رمضان كتوع من الاحتفال بهذا الشهر الكريم الذي يعمر بالمصلين وبخاصة في الليل.

وعينا الواقفان ايضا سواقا للساقية الملحقة بالجامع «لألا المطهرة والخفية ولا مستحم وبيوت الأخلية» وتكفل الواقفان بمصارف اثار الساقية وما تحتاجه من التبن والعلف وسمحا للناظر بصرف ما يحتاج اليه الامر من الخشب لتجديد السواقى بقدر الكفاية حسب ما يراه الناظر ويعاينه وكل شئ عدم من الجمال والأثوار أو آلات السواقى عليه ان يجدد عوضه من ربع الوقف المذكور لأجل البقاء والدوام لعينه ومنفعته» (٨١).

وبالرغم من ان الوثيقة لم تشر نميا ورد فيها بخصوص الوصف المعماري للجامع الى وجود سبيل إلا أنه من خلال ماورد فيها عن أرباب الوظائف يتضح إلحاق سبيل بالجامع فقد قررا الواقفان ان «صرف لرجل يكون متقبلا بلئى السبيل وتفرقة الماء العذب في يوم الجمعة وغيره على المصلين ما جعلته من القمح في كل سنة خمسة عشر إردبا» (٨٢)

وفي موضع آخر ورد في الوثيقة ما يشير الى ان الواقفين ايضا سمحا للناظر على الوقف ان يصرف ما يراه «في ثمن جمال للماء العذب وروايا وقرب» (٨٣) وهو ما يشير الى ان هذا السبيل كان له صهريج يملأ بالماء العذب من النبل في وقت الفيضان من كل عام كما جرت العادة بذلك.

ثالثا = الوظائف الإدارية {المجدول رقم (٣) شكل ٣}

عيننا الواقفان لإدارة وقفهما على الجامع إدارة مباشرة شادا يتولى إدارة اوقات الجامع ورعاية مصالحه رعاية مباشرة حيث ورد في الوثيقة ما يشير الى ذلك بما نصه ما يصرف لرجل يكون شادا في الجامع المذكور على مصالح الجامع وعلى الخدمة والوظائفية لأجل الحث على العمل بمقتضى شوط الوقفية ما جعلته من القمح عشرة أرداد» (٨٤) كذلك عيننا الواقفان ناظرا للوقف وقررا ان يتولى هذه الوظيفة «م يكون باش جاويش مستفظان حالا مصر المحرومة» (٨٥) وهكذا تضيف هذه الوثيقة نموذجا آخر الى اصحاب الوظائف المهمة الذين تولوا نظارة بعض الأوقات والذين حرص الواقفون على ان يتولوا هذه الوظيفة في أوقافهم كوالي مصر «الباشا» وقاضي القضاة والدفتردار وأما باب السعادة (٨٦).

نص الوثيقة

ص والسلام على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أولي المناخر والعلا المحصنين بالمكانم
والولا، صلاة وسلاما دائمين مستمرين بين الملا وبعد فإن أحق ما صرف إليه العاقل عنايته ووجه
إليه قصده وإرادته وبذلك فيه ذو البصيرة جهده واتخذ الفطن ليوم الوعيد عدة عمل يكون له عند
السفر الطويل زادا، وعند (ص ٢) توسد الجندل مهادا، وقرية يستظل العبد بظلها، وبأمن ببركتها
«يوم تذهل كل موضعة عما أوضعت وتضع كل ذات حمل حملها» (٨٧)
وحسبك تنبيها على شرف رتبها العالية قوله ﷺ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث وعد
منها الصدقة الجارية وقف نصب لتلاوة كتاب الله العزيز بناؤه، ورحب (ص ٣) للمتعبدين فئاؤه
وخفق للطالب المتقطع من أبوابه وقته رجائه، وظهرت فيه باقاة الصلوات معالم الدين وشعاره،
وارتفع بالاعلان بالأذان والذكر مناره، وأجرى فيه كل كبد حراء من المناهل العذبة ما يروي به قوامه
ولما كان الواقفان الآخري أسهما الكريين فيه عن انتظام في سلك المتصدقين وسلكا (ص ٤) طريق
المحسنين حين سمعا قوله تعالى «مثل الذين يلقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة
أبقت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء» (٨٨) وتأمل
ما ورد عنه ﷺ من بني مسجنا ولو كمنحصر قطاة بني الله له بيتا في الجنة وغيا في تحصيل
القربات وطمعت نفسيهما النفسية الي اكتساب المخرات (ص ٥) وبادوا الي اغتنام الخيرات واختار
الواقفان ذلك من سائر وجوه المبرات إذ هو أنفع الوساذل في الذخائر عند قاضي الحاجات ومجيب
الدعوات واستخارا الله تعالى الذي ما خاب من استخاره وأشهدا علي نفسها الزكية حرسهما الله
من آفة ولية هما الجنابان المكرمان العظيمان الأمير محمد والأمير أحمد ولدا المحرم
الأمير حسن بن الأمير حمد بن (ص ٦) المرحوم الأمير بونس من أولاد الأمير عمر عي أعيان
الأمراء بولاية الصعيد الأعلى سابقا تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه بحبوة جناته شهودها
اشهادا صحيحا شرعيا ومنحا بكمال محبتهما وطواعيتهما واختيارهما ورغبتهما في الخير
وارادته لديسيدنا مولانا شيخ مشايخ الإسلام أشرف الموالى العظام صدر العلماء الأعلام قاضي
القضاة (ص ٧) الراجي كرم ربه رضاه الأمل منه وجوده ونعماء الناظر في الأحكام الشرعية بمصر
المحمية الموقع خطه الكريم أعلاه دام علاه أنهما وقفا وجبسا وأهدا وتصدقا بما هو جار بيدهما وفي
ملكهما وانشاذهما وعماوتهما من مال روكيتما (٨٩) وفي تصرفهما إلى يوم تاريخه على الحكم
الآخري بيانه وذلك جميع بنا المسجد المستجد (ص ٨) الانشاء والعمارة المعمور بذكر الله تعالى

الكائن بناحية إخميم م جهتها الشرقية المجاور إلى سوق الناحية مصجنا تقام فيه الصلوات الخمس والنوافل ويعتكف فيه وتنشأ فيه العبادات وتقام فيه الجمعة والجماعات والذكر والقرآن مشتملا على ثلاثة أبواب أحدهما بحري عتبه حجر عدسي وواجهته كذلك حجر عدسي وعليه (ص ٩) باب بدرفتين من الخشب النقي يصعد له بأربع درجات سلم من الحجر المنحوت المدور والباب الثاني شرقي عتبه حجر عدسي وواجهته كذلك حجر عدسي عليه باب بدرفتين من الخشب النقي يصعد له بأربع درجات سلم من الحجر المنحوت المدور والباب الثالث غربي عتبه وواجهته من الحجر الكدان يصعد له بثلاث درجات سلم يدخل من الأبواب المذكورة إلى مسجد (ص ١٠) جامع مبني من جهاته الأربع بالجبر النحيت (٩٠) من أعلاه إلى أسفله مشتمل على ثلاثة محاريب أحدهما كبير على يمينه ويساره عامودان حجر نحيت من الحجر الكدان (٩١) وبالمسجد المذكور منبر من خشب نقي يقابله دكة من خشب نقي كذلك وبه أربعة وعشرون عامودا حجرا البعض منها من الحجر المرمر والبعض منها من الحجر العدسي (ص ١١) والبعض من الحجر الأحمر (٩٢) والبعض من الحجر الهيصم (٩٣) والبعض من الحجر الكدان مقام عليها سقف الجامع المذكور الذي هو من خشب النقي مدهون بالهدان الأخضر والأحمر مشتمل الجامع المذكور على شباهيك حديد من جهته البحرية والشرقية والغربية ومشتمل ايضا على تسعة عشر طاقة مركب بها القمرات الزجاج المتنوع (ص ١٢) مختلفة الألوان ومشتمل على النارة المعدة للاعلام بدخول وقت الصلوات بالأذان عليها المتوصل إليها للوضوء والتطهر وبها حنفية (٩٤) معدة لوضوء السادة المقلدين للامام أبي حنيفة النعمان (٩٥) نفعنا الله به مركب عليها ثلاثة لواب (ص ١٣) نحاس وبها ثمانية بيوت أخلية معدة لقضاء حاجة الإنسان وفي كل بيت منها حوض من الحجر معد للاستنجاء وبها فسقية (٩٦) معدة لوضوء الشافعية والمالكية تشتمل المطهرة المذكورة على أربعة أعمدة من الحجر مقام على سقفها وعلى البئر ماء المعين الركب على قوتهها ساقية من خشب كاملة العدة والإدارة المعدة إلى ملئ الفسقية والحنفية (ص ١٤) وحياض بيوت الأخلية وبما اشتملت عليه الساقية حوش معد لربط الأتوار وخزين التبن وما هو معد لها وداخل بها ومنسوب إليها يتوصل للمطهرة المذكورة من باب المسجد من الجهة الغربية وجميع ثلاث قطع أرض طين سراد صالحة للزراعة، ملكا مجاورة لبعضها أحباسية محددة محجزة كايئة ذلك (ص ١٥) الرزق بولاية الأخيمسية (٩٧) بموجب الاقراجات الديوانية والتذاكر المسطرة باللغة التركية والمراسيم المتوجم عليها بالعربية المسطرة من ديوان مصر المحمية الشاهدة للواقفين المذكورين بالتقرير في ذلك وبموجب مرسوم (ص ١٦) كريم مؤرخ في تاريخ رابع عشر محرم الحرام افتتاح سنة تسعين وألف مسطر ذلك المرسوم من ديوان

الأزواق بمصر المحروسة ويوجب التذكرة المسطرة باللغة التركية في تاريخه المذكور حسب البيورلدي (٩٩) الشريف الصادر في التاريخ المبدأ بذكره وقدر ذلك الطين ثلاث قطعمتجاورات بالناحية والملك والطبنة. ولذلك الطين المذكور (ص ١٧) حدود أربع الحد القبلي ينتهي إلى الحميدية (١٠٠) وقف الأثر النبوي، وبعضه إلى الساحل والحد البحري إلى أراضي ناحية البيار (١٠١) والحد الشرقي ينتهي إلى الجبل والحد الغربي ينتهي إلى البحر الأعظم خلا عا استثنى فيه المشتعل ذلك على كامل الأراضي المذكورة بالناحية الشاهدة لهما بذلك حجة التحديد المؤرخة في سادس عشري شهر رمضان المعظم (ص ١٨) من شهور سنة تسعة وثمانين وألف المسطرة من ديوان محروسة دجرجا (١٠٢) من حضرة شيخ الإسلام محمّد القضايا والأحكام القاضي محمد (١٠٣) الواضح خطه وختمه عليها بتحديد الطين المذكور علي أصوله وحدوده القديمة من غير زيادة ولانقصان في ذلك وقفا صحيحا شرعيا وجبسا صريحا مرعيا قائما على أصوله ومحفوظا على شروطه (ص ١٩) لايباع ولا يوهب ولا يرهن ولا يناقل به ولا يبعثه. قائما على أصوله أهد الأبهدين ودهر الناهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين أنشأ الواقفان المذكوران ضاعف الله لهما الأجور والرضوان وقفهما هنا مسجدا جامعاً لاقامة الصلوات الخمس والجمعة والجماعة والنوافل والاعتكاف والتعبّد وقراءة القرآن (ص ٢) والحديث والعلم الشريف والذكر والعبادة وما يتعلق بالمسجد المذكور من منبر وذكة خشب وغير ذلك من أعمال البر كرعة وقراءة كرسي وما سيذكر وما سيذكر أما المنبر فأوقفاه لاقامة الخطبة المشروعة في كل جمعة وما شرعت له الخطبة من العيدين وغيرها وأما الدكة فلاقامة الصلوات المشروعة يوم الجمعة وغيرها وأما الربعة الشريفة (ص ٢١) الثلاثون جزءا المكتتب فيها القرآن العظيم فأوقفها ليقراً فيها القرآن في كل يوم جمعة تفرق قبل الصلاة على من يقرأ القرآن وأما الكرسي الخشب فللقراءة القرآن في كل يوم بعد صلاة العصر وأما المنارة فللإعلام بالأذان في الأوقات المشروعة والتسبيح والتنهيل وقت السحر في كل ليلة وأما المظهرة والحنفية فللوضوء والتطهير (ص ٢٢) وأما البي وساقيتها فأوقفها وأبناها لنقل الماء إلى المظهرة والحنفية والمستحم (١٠٤) وبيرت الأخلية لأجل الوضوء والغسل والتطهير وأبها ضاعف الله لهما الأجر أخذ الماء من البئر المذكورة لكل من احتاج إليه من المسلمين ينتفع به ويتصرف فيه بساتر وجوه التصرفات المباحة شرعاً اغتناماً للشواب وأما الثلاث قطع الرزق (ص ٢٣) المتقدم ذكرها فأوقفها لبصرف من ريعها ومحصول غلتها بعد العمارة والترميم لعين الوقف المذكور وأصلاح جسوره وما فيه من ابتاء عينه والدوام لذاته فمن ذلك ما بصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون خطيباً (١٠٥) بالجامع من خراج الرزق المذكور

في كل سنة عشرة أرادب قمحا ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون مرفيا
(١٦) (ص٢٤) عند صعود الخطيب إلى المنبر في كل سنة ما جملة من القمح أربعة أرادب
ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون رئيسا على المؤذنين (١٧) في يوم الجمعة
في كل سنة ما جملة من القمح خمسة أرادب ومنها ما يصرف إلى ثلاثة أنفار من أهل الدين
والصلاح يكونون مؤذنين (١٨) بالجامع على المنار في كل سنة ما جملة خمسة عشر أردبا قمحا
لكل (ص٢٥) واحد خمسة أرادب ومنها ما يرصف لرجل من أهل العلم والدين يقرأ الحديث
الشريف بالجامع المذكور في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان ما جملة من القمح ثمانية أرادب
(ص٢٧) إلى رجل من أهل العلم والإصلاح يقرأ العلم الشريف والفقه على مذهب الإمام
مالك (١٩) في كل يوم في كل سنة ما جملة من القمح (ص٢٦) عشرة أرادب ومنها ما يصرف
لرجل من أهل الدين والصلاح يقرأ عشر قرآن على الكرسي بالجامع قبل صلاة العصر في كل يوم
ما جملة في كل سنة خمسة أرادب ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون متقيًا
بخدمة الربعة وتفرقتها في يوم الجمعة على القراء الموجودين بالجامع ما جملة من القمح في كل
سنة خمسة أرادب ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين يكون بوابا بالجامع ما جملة من القمح
في كل سنة خمسة أرادب ومما ما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون متقيًا بالفراشة
والوقادة بالجامع المذكور والمطهرة في وظيفة الصلاة على النبي ﷺ في كل ليلة بعد صلاة المغرب
إلى صلاة العشاء ما جملة في كل سنة عشرة أرادب ومنها ما يصرف لرجل يكون سواقا على
الساقية (١١٠) ملأ المطهرة والحنفية والمستحم وبيوت الأخلية ما جملة في كل سنة من القمح
عشرة أرادب ومنها ما يصرف لرجل (ص٢٩) يكون متقيًا بملئ السبيل (١١١) وتفرقة الماء
العذب في يوم الجمعة وغيره على المصلين ما جملة من القمح في كل سنة خمسة عشر أردبا ومنها
ما يصرف لرجل صحائف النبي ﷺ وأصحابه والمسلمين ثم في صحائف مولان السلطان
نصره (ص٣٠) الله والغزة والمجاهدين في البر والبحر من المسلمين ثم في صحائف الواقفين
المذكورين أعلاه (١١٢) حفظهما الله ما جملة من القمح في كل سنة عشرة أرادب وقرر في قرادة
ذلك الشيخ العالم الفاضل التالي لكتاب الله تعالى الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ عمار مدة
حياته ثم أولاده من بعده ثم أولادهم كذلك ومنها ما يصرف لرجل من أهل الدين والعلم (ص٣١)
والصلاح في نظير قرادة سورة الكهف في كل يوم جمعة في أي مكان يتيسر ويختصم بالدعاء
ويهدي ثواب ذلك إلى صحائف النبي ﷺ والصحابة والتابعين ثم في صحائف مولانا السلطان
نصره (الله تعالى) وجميع المسلمين ثم في صحائف الواقفين المتقدمين حفظهما الله ما جملة من

القمح في كل سنة عشرة أراذب وقرر في ذلك الشيخ العالم الفاضل الشيخ محمد (ص ٣٢) النفراوي (١١٣) ومنها ما يصرف لرجل من أهل العلم والصلاح في نظير سورة تبارك الذين بيده الملك في كل يوم وقت ما تيسر في أي محل يتيسر ويهدي ثواب ذلك في صحائف النبي ﷺ وصحافته والتابعين ثم في صحايف مولاتنا السلطان نصره الله تعالى ثم في صحايف الواقفين أعزهما الله ما جملته من القمح في كل سنة خمسة أراذب وقرر في ذلك (ص ٣٣) الشيخ العالم الشيخ محمد حمود ما يصرف لرجل يكون شادا (١١٤) في الجامع المذكور على مصالح الجامع وعلى الخدمة والوظائفية لأجل المثل على العمل بمقتضى شرط الوقفية ما جملته من القمح عشرة أراذب ومنها ما يصرف الى الناظر (١١٥) المحسبي في نظير تقيدته بخدمة الوقف المذكور في كل سنة ما جملته من القمح أربعون أردبا وقرر الواقفان في ذلك كل من يكون باش جارش (ص ٣٤) مستحفظان (١١٦) حالا مبصر الحروسة ومنها ما يصرف كل سنة من الناظر من محصول خراج الرزق المذكورة قدر الكفاية من الزيت والقناديل والمسارج للجامع المذكور وبيوت الأخلية ما هو خاص بالجامع في كل ليلة بعد صلاة المغرب عدة قناديل خمسة عشر من داخل المسجد عشرة قناديل وعلى أبوابه ثلاثة وفي المطهرة قنديل واحد وعلى الحنفية واحد (ص ٣٥) وما هو في بيوت الأخلية من المسارج في كل ليلة تسعة والزيادة في الزيت والقناديل في شهر رمضان خاصة بحسب ما يراه الناظر المتولي صوابا في ذلك الوقت وعلى الناظر ايضا حسب الكفاية في فرش الجامع من الحصر في كل سنة ما يكفيها في أوائل شهر رمضان المعظم قدره وعلى الناظر ايضا أن يرصف في ثمن جمال للماء (ص ٣٦) العنب وروايا وقرب وأنوار للسواقي وعلف فول وتبن للجمال والأثوار وما يحتاج الأمر إليه من الخشب لتجديد السواقي بقدر الكفاية حسب ما يراه الناظر ويعاينته وكل ما عدم شئ من الجمال والأثوار أو آلات السواقي عليه أن يجدد عوضه من ريع الوقف المذكور لأجل البقاء والدوام لئنه ومنفعته وما (ص ٣٧) فضل بعد ما ذكر سابقا أعلاه. يتصرف فيه الواقفان مدة حياتهما أحيهما الله الحياة الطيبة ثم من بعد كل منهما يتصرف فيه أولادهما بالسوية ثم أولاد أولادهما ثم أولاد أولادهم ونسلهم وعقبهم طبقة بعد طبقة ونسلا بعد نسل وجيلا بعد جيل تحجب الطبقة العليا منهم (ص ٣٨) الطبقة السفلى من نفسها دون غيرها بحيث يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره الذكر والأنثى في ذلك سواء من أولاد الظهور دون أولاد البطون فإن مات أحد منهم عن غير عقب تصرف الباقيون ثم من بعد انقراضهم أجمعين يتصرف في فائض الريع المذكور من يوجد من أولاد البطون على النص والترتيب المشروح في أولاد الظهور (ص ٣٩) ثم من بعد إنقراضهم أجمعين يتصرف في ذلك ويتولى عليه

من يوجد من عتقا الواقفين (١١٧) الأرشد فالأرشد ثم من بعد كل منهم على أولادهم الأرشد فالأرشد وعلى ذريتهم ونسلهم وعقبهم كذلك الأرشد فالأرشد فإذا انقرضوا بأبائهم وأبائهم الموت عن آخرهم ولم يبق منهم أحد صرف ربع ذلك للفقراء والمساكين من المسلمين (ص. ٤٠) اينما كانوا وحيث ما وجدوا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وشرط الواقفان الموماً إليهما أعلاه في وقفهما هذا شرطا حث عليها وأكد علي المصير إليها منها أنهما شرطا وجعلا النظر والتحدث والولاية على وقفهما هذا على نفسيهما مدة حياتهما أحياءهما الله الحياة الطيبة ومنها أنهما (ص. ٤١) شرطا لأنفسهما في وقفهما هذا الادخال والاخراج والزيادة والنقصان والاعطاء والحرمان والتغيير والتبديل والاستبدال بفعلان ذلك كلما أراد فعله ويكرراه المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وليس لأحد من بعدهما من النظار فعل شيء من ذلك لاتغيرا ولايتديلا ومنها أنهما شرطا التقرير في الوظائف (ص. ٤٢) المذكورة للنظار على ذلك الوقف أنهما شرطا ان من مات من أرباب الوظائف يقرر مكانه الناظر من يري فيه الاصلاح والأهلية لذلك ومنها أنهما شرطا علي كل ناظر على هذا الوقف ومتكلم عليه ان يكون محسنا لأرباب الوظائف وان يصرف معاليهم مهيانة حسنة ميرة في أوان الجوب والاستخفاف كاملة ولايجبسن عنهم (٤٣٠) معاليهم ليخرجهم إلى الاستدانة بل يعجل دفعها لهم ومنها انهما شرطا ان لايجزر وقفهما المكذور ولاشئ منه بودن زجرة المثل ولا أكثر من ثلاث سنوات ولايجزر للتجوه ولايدخل عقدا على عقد حتى ينقض العقد الأول ومن فعل خلاف ذلك من النظار كان معزولا قبل ذلك بشهر ومنها أنه يبدأ من ريعه بعمارته وترميمه (ص. ٤٤) وما فيه البقاء لعينه والدوام لذاته واصلاح أرضه وجسوره ولو صرف في ذلك غالب غلته ومنها ان ارباب الوظائف يسدون في وظائفهم بأنفسهم إلا لعذر شرعي من مرض وسفر وغيرهما فقد تم هذا الوقف واتحسم ونفذ حكمه رانيرم وصار وقفا من أوقاف الله الأكيدة «فمن بدله (ص. ٤٥) بعدما سمعه فانما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم (١١٨) ومن سمي في ابطاله أو ابطال شئ منه كان الله طليبه وحسيبه ومجازيه بفعله يوم التناد يوم عطش الأكباد يوم يكون الله هو الحاكم بين العباد «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (١١٨) لا يحل لامرء يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم (٤٦) صائر أن يغير هذا الوقف من سمي في إبقائه واقامة شعائره وبقائه في يد مستحقه أو اعان على ذلك برد الله مضجعه ولقنه حخته وجعله من الأمنين الفرحين الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ووقع الواقفان عن هذا الوقف يدي الحياة ووضعا عليهما يدي النظر والولاية وسلماه لشول شرعي إلى أن يتم أمر التسجيل وتسلمه (ص. ٤٧) المتولي المزبور فارغا غير مشغول بما يمنع صحة التسليم شرعا

ووقع الأجر في ذلك على الله الكريم لتول وثبت الاشهاد على الواقفين المذكورين بما نسب اليهما
 من الوقف والشروط على الشرح والنمط المبسوط بشهادة شهوده ثبوتا شرعيا محررا مرضيا ثم
 عن الواقفين المذكورين الرجوع عن هذا الوقف ورده إلى التصرف كما كان (ص ٤٨) متمسكين في
 ذلك بعدم اللزوم على قول الامام الأعظم والمجتهد المقدم صاحب الأقوال الشريفة والشيم المرضية
 المتينة الامام أبي حنيفة ابن ثابت الكوفي جوزي يكمل خبر وكوفئ فعارضه المتولي المذكور في
 ذلك متمسكا بلاصحة واللزوم على قول الامامين الصاحبين الامام أبي يوصف يعقول والامام
 محمد بن الحسن الشيباني (١٢٠) (ص ٤٩) رحمة الله تعالى عليهم أجمعين وتازعا في ذلك
 وترافعا لدى مولانا الحاكم المشار إليه أعلاه فنظر بينهما نظرا دقيقا وتأمله تأملا شافيا حقيقا
 فعان في جانب الوقف رجحانا قويا وبرهانا واضحا جليا فاستخار الله تعالى وحكم بصحة الوقف
 ولزومه في خصوصه وعمومه عالما بالخلاف الواقع بين الأئمة الأسلاف في شأن (ص ٥٠) الأوقاف
 وأشهد على نفسه الكريمة بذلك وعزل المتولي المرقوم على هذا الوقف وأبقاه تحت يدي الواقفين
 المذكورين ينظران فيه بأنفسهما على الوجه المشرح ويعتضى ذلك صار وقفا الآخر ان يغيره أو
 يبدله (ص ٥١) أو يسعى في ابطال هذا الوقف أو شيء منه فمن فعل ذلك كان الله ظليبه وحسيبه
 ورقيبه ومجازيه بعمله يوم التناد يوم عطش الأكباد يوم يكون الله هو الحاكم «بين العباد» «يوم
 لا ينفع ما لولائهم ولا مع الله بقلوب سليم» ومن سعى في ابقائه على ما هو عليه الآن
 وصرف ريعه في مصاريفه الشرعية وسعى في تأييد هذا الوقف وصونه عن يتعرض له بمكره يرد
 الله (ص ٥٢) مضجعه وتغمده برحمته ولقنه حجته وجعله من الأمنين الفرحين المستبشرين الذين
 الذي لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمن بدله بعد ما سمعه «فإنما إثمهم على الذين يبطلونوه
 إن الله يسميهم عليهم» حرر ذلك ونجز في سابع عشر من شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعين
 وألف.

هوامش البحث

١ - هذه الوثيقة محفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ١٣٢٥. وقد عثرت عليها مستعينا بالفهرس الذي أعده الدكتور دانيال كريسيوس للوثائق العثمانية، وهي في هيئة كتاب وفقد الجزء الأول منها، ومكتوبة بالخط النسخ العثماني بالحبر الأسود واستخدم الحبر الأحمر في كتابة بعض الكلمات التي تشير إلى أهمية نص الكلمة انظر لوحة (٢٠١).

٢ - اقتصرَت الدراسات السابقة على تقديم دراسة وصفية للجامع من خلال عناصره ووحدهاته الباقية، ولم تعتمد على الوثيقة كمصدر أساسي للتعرف على الجوانب التاريخية والمعمارية الإنشائية والوظيفية للجامع لعدم اهتمام الباحثين لها عند إعداد هذه الدراسات.

٣ - محمد عبد الستار عثمان: إخميم في العصر القبطي والإسلامي. دراسة أثرية تاريخية الاسكندرية سنة ١٩٨٢. ص ١٠٠ جمال عبد الرؤوف عبد العزيز: مساجد مصر العليا الباقية. ماجستير مقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م ص ١٢٢.

٤ - عثمان: ص ١٠٠، عبد العزيز: ص ١٣.

٥ - وثيقة وقف الأميرين محمد وأحمد رقم ١٣٢٥، ص ص ٥ - ٦.

٦ - دار جدل كبير بني المؤرخين حول أصل هذه القبيلة فبعضهم يرى أنها عربية الأصل وهاجرت إلى شمال افريقية وجاءت بعض بطونها إلى مصر، وبعضهم يرى أنها بربرية الأصل وجاءت بعض بطونها من المغرب إلى مصر [للاستزادة راجع: المقرئ] [تقى الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ] البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب. مع دراسات في تاريخ العروة في وادي النيل. تحقيق وتأليف عبد المجيد عابدين. نشر دار المعرفة الجامعية. الاسكندرية سنة ١٩٨٩، ص ص ٥٦ - ٥٨. ليو الاقريقي [الحسن بن محمد الوزان الفاسي] وصف افريقية. ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر. نشر: دار الغرب الإسلامي. بيروت سنة ١٩٨٣ القسم الأول ص ص ٣٦-٣٨. القسم الثاني، ص ٢٣٨.

٧ - المنشأة من أقدم البلاد المصرية، وعرفت بهذا الاسم في العصر الفاطمي بعد ما هجر سكانها الموقع القديم وأقاموا بلدة جديدة عرفت بالمنشأة لحدائث مبانيها وحرفت إلى المنشية في بعض المصادر [للاستزادة راجع محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء

- المصريين سنة ١٩٢٥}. دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠ ص ١٠٩-١١١.
- ٨ - ليو الاقريعي : المصدر السابق . القسم الثاني ص ٢٣٨.
- ٩ - المقرئزي : المصدر السابق : ص ٨٥.
- ١٠ - محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق . ص ص ٦١ - ٦٧.
- ١١ - محمد عبد الستار عثمان : المرجع نفسه ص ٩٦، ص ٢٨، جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق. ص ١٥.
- ١٢ - الوثيقة ص ٥٢.
- ١٣ - ورد اسمه في اصحاح وادراسات التاريخية منسوبا إلى إخميم حيث عرف بحسن الإخميمي، وأشارت بعض الدراسات الي محارته احيانا لقبيلة هواة في الصعيد بما يوحى بأنه لم يكن منهم (لبنى عبد اللطيف أحمد: الصعيد في عهد شيخ العرب همام. نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. سنة ١٩٨٧ ص ٩٤.
- ١٤ - لبنى عبد اللطيف : المرجع نفسه ص ٦٤.
- ١٥ - لبنى عبد اللطيف : المرجع نفسه ص ٦٤.
- ١٦ - الوثيقة ص ١٥.
- ١٧ - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ١٠١، جمال عبد الرؤوف: المرجع السابق ص ١٢٢.
- ١٨ - الوثيقة ص ٥٢.
- ١٩ - انظر لوحة رقم (٣).
- ٢٠ - الوثيقة ص ٦.
- ٢١ - الوثيقة ص ٣٠.
- ٢٢ - الوثيقة ص ١٥.

٢٣ - الوثيقة ص ١٦.

٢٤ - محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في لعصر العثماني. الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١ ص ص ٣٧-٤٢.

٢٥ - الوثيقة ص ١٥.

٢٦ - بيورلدي تعني «أمر» من المصدر التركي بيورمق أي يأمر [للاستزادة راجع : أحمد السعيد سليمان - تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل. دار المعارف سنة ١٩٧٩ ص ٤٩ وما بعدها].

٢٧ - الوثيقة ص ١٦.

٢٨ - محمد عفيفي: المرجع السابق ، ص ص ٧٧-٧٨.

٢٩ - الوثيقة ص ١٦ ، ولاحظ أن الوثيقة اسمته «ديوان الأرزق».

٣٠ - الوثيقة ، ص ١٥.

٣١ - ابن عابدين [محمد أمين] حاشية رد المحتار على الدر المختار . د.ت. د.ن. ج ٣ ص ٤٠٤.

٣٢ - الوثيقة ص ٥٠.

٣٣ - ابن عابدين : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٣١-٣٣٢.

٣٤ - ابن عابدين : المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٧٣.

٣٥ - الوثيقة ص ٤٧.

٣٦ - على سبيل وثيقتي وقف عبد الباقي جويجي أوقاف ٢٣٣٨ ، ٢٣٨٤ ، الوثيقة رقم ٢٧٥١ أوقاف.

٣٧ - الوثيقة ص ٨.

٣٨ - أنشئت أسواق مدن الصعيد على هيئة قياساريات الشوارع المغربية والأندلسية فهي عبارة عن شارع تجاري تتفرع منه شوارع فرعية وتطل عليها المحوانيت والوكات ومرتبة أنواع التجارات فيها ترتيبا ملتزما بالقاعدة الإسلامية لاضرر ولاضرار، راجع [محمد عبد الستار

عثمان) المدنية الإسلامية. سلسلة عالم المعرفة. الكتاب رقم ١٢٨. الكويت سنة ١٩٨٩، ص٢٦٢.

٢٩ - محمد عبد الستار عثمان: المرجع السابق ص ١٠٠، جمال عبد الرؤوف الرجع السابق. ص١٢٢.

٤٠ - انظر لوحة ٥٠٤ وشكل ٢٠١، [للأسف الشديد قد تم هدم الجامع بعدما رأت لجنة من هيئة الآثار تسجيل المئذنة فقط].

٤١ - الوثيقة : ص ص ٨ - ٩.

٤٢ - جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق ص ١٢٦.

٤٣ - هنايت تيمور علوي: جامع الملكية صفية. دراسة أثرية معمارية. ماجستير مقدمة لكلية الآثار. جامع القاهرة سنة ١٩٧٧ ص١٥٩.

٤٤ - محمد عبد الستار عثمان: جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني. مجلة دراسات أثرية إسلامية. القاهرة سنة ١٩٨٨ المجلد الثالث. ص. ص ٢٤٦-٢٤٨، جمال عبد الرؤوف: المرجع السابق: ص ص ٣٥٤ - ٣٥٦.

٤٥ - جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق : ص ١٢٧.

٤٦ - محمد عبد الستار عثمان : إخميم في العصرين القبطي والإسلامي : ص ص ٧٩ - ٨٠.

٤٧ - محمد عبد الستار عثمان : إخميم ص ٨١ ، ص ١٦٤ ، وللباحث نفسه: جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ٢٣٦ ، جمال عبد الرؤوف : ص ٢٠٠.

٤٨ - حسن ابراهيم السقا : المنهل العذب لكل وارد في بيان فضل عمارة المساجد. المطبعة الأدبية. القاهرة. د.ت. ص ١٧.

٤٩ - جمال عبد الرؤوف : المرجع السابق ص ص ١٣٥ - ١٣٦.

٥٠ - الوثيقة : ص ص ١٢ - ١٣.

٥١ - الوثيقة ص ٢٨ .

٥٢ - ابن عابدين : المصدر السابق ق ١ ص ١٣ - ١٣٢ ، الشافعي (أبي عبد الله محمد ادریس ت ٢٠٤هـ) الأم. نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة. طبعة مصورة من طبعة بولاق سنة ١٣٢١هـ. ج ١. ص ٣٩ ، ص ٤٦.

٥٣ - الوثيقة : ص ٢٩.

٥٤ - الوثيقة : ص ٢٠.

٥٥ - الوثيقة : ص ٢٠.

٥٦ - الوثيقة : ص ٢١.

٥٧ - الوثيقة : ص ٢٦.

٥٨ - محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة - رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة لكلية الآداب بسوهاج جامعة أسيوط سنة ١٩٨٠. ص ص ٢٦٥ - ٢٦٨.

٥٩ - الوثيقة : ص ٢٤ .

٦٠ - محمد عبد الستار عثمان : جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ص: ٢٣٢-٢٦٢.

٦١ - الوثيقة : ص ص ٢٩ - ٣٠.

٦٢ - القرطبي { أبي عبد الله محمد الأنصاري } : الجامع لأحكام القرآن. تحقيق: أحمد عبد العليم البردوي. د.ن. سنة ١٩٦١. المجلد الثامن ج ١٥. ص ص ٣ - ٤.

٦٣ - هي سورة «الملك» وهي السورة رقم (٦٧) من سور القرآن الكريم.

٦٤ - الوثيقة : ص ٣٢.

٦٥ - القرطبي : المصدر السابق. المجلد التاسع - ج ٨. ص ٢٠٥ ، محمد علي الصابوني. صفوة التفاسير. نشر: دار القرآن الكريم. بيروت. سنة ١٩٨١. القسم ١٩. ص ٥.

٦٦ - للاستزادة راجع: أحمد الديري: مجربات الديري، وبهامشه مجربات أبي عبد الله محمد

بن يوسف السنوسي. نشر مكتبة: محمد علي صبيح وأولاده. ص ١٥، وعن سورة الملك
راجع نفس المصدر: ص ٢.

٦٧ - محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفية. ص ٢٦٨.

٦٨ - للاستزادة : راجع القرطبي: المصدر السابق. المجلد الخامس، الجزء العاشر. ص ٣٤٦.

٦٩ - الوثيقة : ص ٢٦، وعرفت وظيفة قارئ عشر في العصر المملوكي بتقليد مختلف حيث كان
يقرأ عشر من القرآن قبل الدرس ويحده وفي الغالب يقرأ من القرآن ما يناسب الحال
[للاستزادة: راجع السبكي] أبي نصر عبد الوهاب { معيد النعم ومبيد النقم. صححه وطبعه
داود ولهلم موهرمن. ليدن سنة ١٩٠٨ ص ١٥٦.

٧٠ - الوثيقة : ص ٢٨.

٧١ - قرآن كريم : سورة الأحزاب . آية رقم ٥٦.

٧٢ - الدربي : المصدر السابق : ص ٣٩.

٧٣ - الوثيقة : ص ٢٦.

٧٤ - الوثيقة : ص ٢١.

٧٥ - محمد عبد الستار عثمان : نظرية الوظيفية : ص ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

٧٦ - محمد جمال الدين القاسمي: إصلاح المساجد من البدع والعوائد، نشر المكتب الإسلامي،
بيروت سنة ١٣٣٩هـ ص ص ١٢٣ - ١٢٤.

٧٧ - للاستزادة راجع : نادية حسن أبو شال : المبخرة في مصر الإسلامية. دراسة حضارية أثرية.
ماجستير غير منشورة مقدمة لكلية الآثار جامعة القاهرة. سنة ١٩٨٤، ص ص ٤ - ٦.

٧٨ - الوثيقة : ص ٢٧.

٧٩ - الوثيقة : ص ٣٥.

٨٠ - الوثيقة : ص ٣٤ - ٣٥.

٨١ - الوثيقة : ص ٣٦.

- ٨٢ - الوثيقة ص ٢٩.
- ٨٣ - الوثيقة : ص ٣٦
- ٨٤ - الوثيقة : ص ٣٣.
- ٨٥ - الوثيقة : ص ص ٣٣ - ٣٤.
- ٨٦ - محمد عقيقي : المرجع السابق : ص ٩٣.
- ٨٧ - قرآن كريم : سورة الحج، آية رقم ٢.
- ٨٨ - حديث شريف رواه أحمد [راجع تقي الدين أبي بكر بن زيد الجراعي الخنيلي ت ٨٨٣هـ] تحفة الرايع والساجد في أحكام المساجد : المكتب الإسلامي. بيروت. سنة ١٩٨١. ص ٨١.
- ٨٩ - مال الروك وهو المال المشاع، وهي من الفعل راك ومصدرها روك؛ عدد مساحة الأراضي وقد ثمنها. [للاستزادة راجع رنهارت دوزيه: تكملة المعجم. ترجمة محمد سليم النعيمي. دار الرشيد للنشر بغداد سنة ١٩٨١ ص ٢٥٥.
- ٩٠ - الحجر النحيت أي الحجر الذي سويت جوانبه بعد قطعه وإن الاحجار قام بتهذيبه وجعله أملسا مصفولا [محمد أمين، ليلي ابراهيم. مصطلحات معمارية في الوثائق المملوكية القاهرة. مطبعة الجامعة الأمريكية سنة ١٩٩٠ ص ٣٣.
- ٩١ - الحجر الكنان كلمة عامة والأصل كذان وهو نوع من الحجر الجيري يختلف لونه باختلاف المحاجر المستخرجة منها من اللون الابيض الى اللون الأصفر الى الأحمر حسب الأكاسيد المعدنية التي يحتوي عليها. [محمد أمين، ليلي ابراهيم، المرجع السابق: ص ٣٣.
- ٩٢ - نوع من الحجر الجيري يميل الى اللون الأحمر لارتفاع نسبة أكسيد الحديد فيه، وقد تبين من محض أعمدة الجامع بين هدمه أن من الأمددة المقطوعة من الحجر الجيري ما مال لونه الى اللون الأحمر بما يؤكد هذه الوف الوثائقي.
- ٩٣ - الحجر الهيصم هو نوع من الحجارة غليظ شديد الصلابة وهو من أجود أنواع الحجر [محمد أمين ، ليلي ابراهيم : المرجع السابق ص ٣٤.
- ٩٤ - الحنفية : صنبور ، أنبوية ذات لولب تزج في ثقب الخوض ليجري منها الماء والكلمة مولده

[درويه: المرجع السابق، ج ٣. ص ٣٥٣، هامش ٦٣١. وفي إطار هذا التفسير اللغوي يتضح ان الحنفية المذكورة عبارة عن حوض به ثلاث صناوير يجري منها الماء لاستخدامه في الوضوء.

٩٥ - هو أحد أئمة الفقه الإسلامي هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت ولد سنة ٨٠هـ/٦٩٩م وتوفي سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م [للاستزادة راجع عبد الحليم الجندي - أئمة الفقه الإسلامي: أبو حنيفة ، الشافعي ، مالك ، ابن حنبل. نشر المجلس الأعلى للشتون الإسلامية. القاهرة سنة ١٩٧٢. ص ص ١٩ - ٣٧.

٩٦ - الفسقية ترد بمعان كثيرة ويقصد بها هنا حوض للوضوء.

٩٧ - ولاية الاخميمية نسبة إلى إخميم التي كانت عاصمة اقليمها حتى نهاية العصر المملوكي ثم أصبحت تابعة لجرجا [محمد عبد الصار عثمان: إخميم في العصرين القبطي والإسلامي، ص ص ٤٧ - ٥٤. ويشير ذكر ولاية الاخميمية في هذه الوثيقة الى استمرار استخدام هذا المصطلح ايضا في العصر العثماني.

٩٩ - ببولدي تعني أجو مكن المصدر التركي بيرومق [للاستزادة راجع : أحمد السعيد سليمان. تأصيل ما ورد في الجبرتي من الدخيل ، دار المعارف سنة ١٩٧٩ ص ٤٩ - ٥٠.

١٠٠ - الحميدية: احدى النواحي التابعة لآخميم الى الشمال الشرقي منها وقد ذكر ابن دقماق ان عبرتها ثمانية الاف دينار ومساحتها الف وخمسمائة فدان [ابن دقماق [ابراهيم بن محمد أيدمر العلاتي] الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر الوقف وجغرافيتها. نشر: دار الآفاق الجديدة بيروت. د.ت. القسم الثاني ص ٢٦.

١٠١ - الببار ناحية تابعة لإخميم وهناك آبار الملك واسمها الأصلي البيارات، ثم حرفت البيارات. وهناك ناحية اخرى يسمى آبار محمد عبد الستار عثمان جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ٢١٥.

١٠٢ - يشير هذا النص الى مركز جرجا الإداري في هذه الفترة حيث وجد بها ديوان لإدارة البلاد التابعة لها [للاستزادة راجع. محمد عبد الستار عثمان جرجا وآثارها الإسلامية في العصر العثماني ص ٢١٥.

- ١٠٣ - لم أعثر على ترجمة له في المصادر التي بين يدي.
- ١٠٤ - المستحم هو مكان الاستحمام سواء كان الاستحمام بماء حار أو غيره. [عرض محمد الإمام: الآثار المعمارية لعبد الباقي جويجي بمدينة الاسكندرية. سوهاج سنة ١٩٩٢. ص ٧٣. هامش ٧٣.
- ١٠٥ - عن وظيفة الخطيب راجع: السبكي: المصدر السابق: ص ١٦. حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية دار الهضة العربية القاهرة سنة ١٩٦٥ ص ٤٧٨ - ٤٨٩.
- ١٠٦ - عن وظيفة المرقى راجع: عوض الامام: المرجع السابق ص ٧٦ هامش ١٠٥.
- ١٠٧ - للاستزادة عن وظيفة رئيس المؤذنين راجع محمد عبد الستار عثمان نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية الملوكية ص ٢٤٢ - ٢٤٣. حسن الباشا: المرجع السابق: ج ٢ ص ٥٦.
- ١٠٨ - عن وظيفة المؤذن راجع: محمد عبد الستار عثمان. وثيقة وقف جمال الدين الأستاذدار. دراسة تاريخية أثرية وثائقية. دار المعارف سنة ١٩٨٣. ص ١٧. هامش ٢. حسن الباشا: المرجع السابق ج ٣ ص ١١٦٣ - ١١٦٨.
- ١٠٩ - هو مالك بن أنس ولد سنة ٩٣هـ/٧١٢م وتوفي سنة ١٧٩هـ سنة ٧٩٥م [للاستزادة راجع: عبد الحليم الجندى: المرجع السابق ص ٦٧ - ٩٣.
- ١١٠ - يشير هذا النص الى وجود ساقية ملحقة بالجامع لكنها دثرت.
- ١١١ - يشير هذا النص الى وجود سبيل كان ملحقا بالجامع لكنه اندثر.
- ١١٢ - أجازت الأحكام الفقهية الإسلامية هذا الاهداء. محمد ناصر الدين الألباني، تلخيص أحكام الجنائز. نشر مكتبة التوعية الإسلامية. الأردن - عمان سنة ١٤٠٢ هـ ص ١٠٤.
- ١١٣ - لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من مصادر.
- ١١٤ - عن وظيفة الأوقاف راجع. حسن الباشا: المرجع السابق ج ٢ ص ٦١ - ٦١١.
- ١١٥ - عن وظيفة ناظر الأوقاف راجع. حسن الباشا: المرجع السابق ج ٣ ص ١١٥ - ١١١٩.

محمد عفيفي: ص ص ٨٢ - ٩٤.

١١٦ - باش تعني رئيس، وجاويش منصب عسكري، ومستحفظان من كلمة مستحفظ بالعربية
وجمعت جمعا فارسيا بالألف والنون وينطقها الترك بكسر الفاء كانت اسما لحرس القلاع
والحصون والمدن قبل الفاء الجيش الاتكشاري، فلما ألغى اطلقت على عساكر الرديف إذا
استدعوا للخدمة العسكرية {راجع أحمد السعيد سليمان المرجع السابق
صفحات ٣٢، ٦٠، ٧٠.

١١٧ - يشير النص هنا إلى مدى اهتمام الواقفين بعقائهما حتى أدرجا هؤلاء الاعتقاء في سلسلة
من لهم الحق في الاستفادة من الوقف بعد الذرية وقد تكرر هذا الأمر في العصر العثماني
{راجع: محمد عفيفي: ص ص ٢٢٤ - ٢٢٧}.

١١٨ - قرآن كريم - سورة البقرة آية رقم ١٨١.

١١٩ - قرآن كريم - سورة الشعراء آية رقم ٨٩.

١٢٠ - هما من تلاميذ الامام ابي حنيفة وكانت لهما آراء مخالفة لأرائه { راجع عبد الحليم
الجندي: المرجع السابق: ص ٣٣.

مُصْحَفُهُمْ وَتَقْلِيدُهُمْ وَرَحْمَتُهُمْ وَلَقَدْ تَحَفَّتْهُ وَجَسَدُهُ
 الْإِمَامُ الْفَخْرُجِي الْمُسْتَبْشِرُ الْأَزْهَرُ فِي خَزَائِنِ غَلِيهِمْ
 بِخَيْرِ مَنْزِلٍ بِلَا مَزِيدٍ مِمَّا يَجْعَلُهُ فَاغْنَاهُ عَنْهُ عَلَى الْأَرْضِ
 بِبَدَلٍ لَوْ نَدَّى إِلَى الْمَدِينَةِ بِمِثْقَالِ حَبِّ خَزَرٍ وَلَا لَدُنَّ رَيْحُ

فِي سَبَاحِ خَيْرِ شَاهِدٍ وَخَيْرِ مُؤَيِّدٍ لَمْ يَزَلْ سَمْعُهُمْ يَسْمَعُ
 مِنْهُ بِأَعْيُنِهِمْ وَبِأَسْمَاعِهِمْ وَبِأَفْئِدَتِهِمْ وَبِأَرْوَاحِهِمْ
 وَبِأَنْفُسِهِمْ وَبِأَلْسِنَتِهِمْ وَبِأَفْئِدَتِهِمْ وَبِأَرْوَاحِهِمْ
 وَبِأَنْفُسِهِمْ وَبِأَلْسِنَتِهِمْ وَبِأَفْئِدَتِهِمْ وَبِأَرْوَاحِهِمْ

عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَآلِهِمْ
 عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَآلِهِمْ
 عَلَيْهِمْ السَّلَامُ وَآلِهِمْ



لوحة (٢)

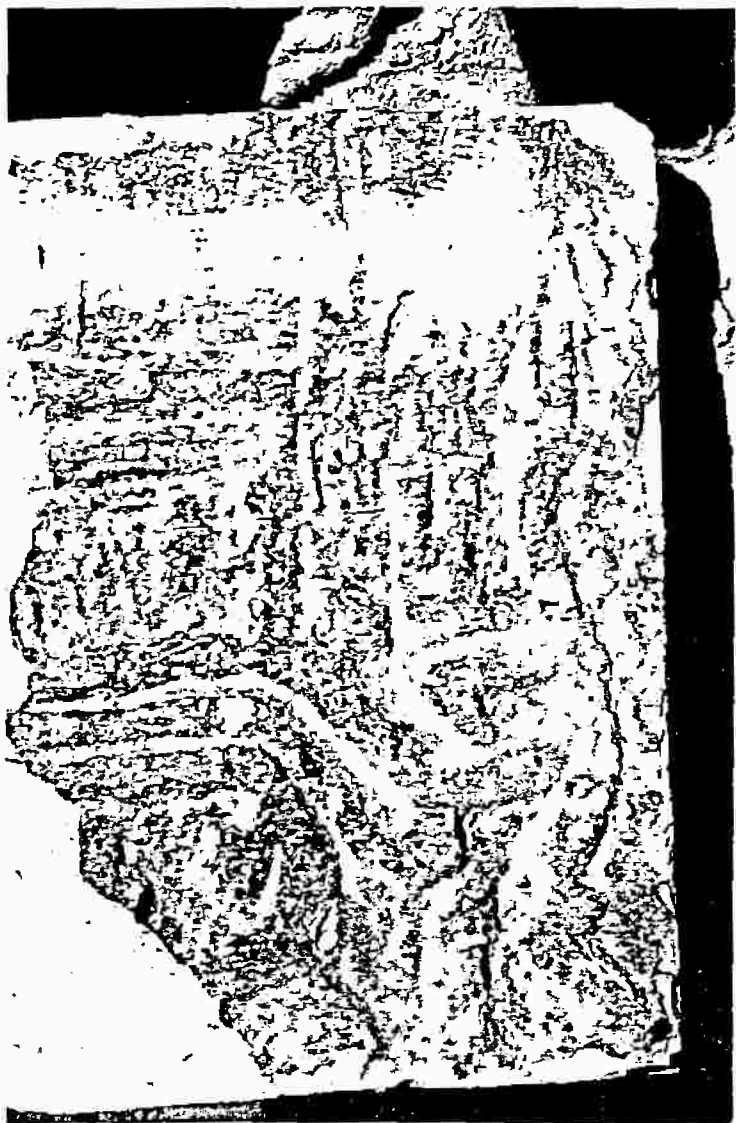
وَبَادُوا إِلَى إِيغْنَانِهِ هَاهُنَا الْخَيْرُ أَتَانَتْ
 الْمُبَيِّنَاتُ أَذْهَبُوا نَفْسَهُ لَوْ سَابَّاهُ الْمَدْحُ الْخَيْرُ
 مِنْ سَابِّهِ وَجُودِ

فَأَخْبَرُوا خَائِجَاتِهِ وَبَحِيرَاتِ الْمَشْرِقِ
 لَقَدْ تَقَالَى إِلَى الْمَدِينَةِ مَا خَابَ مِنْهُنَّ تَعَالَى

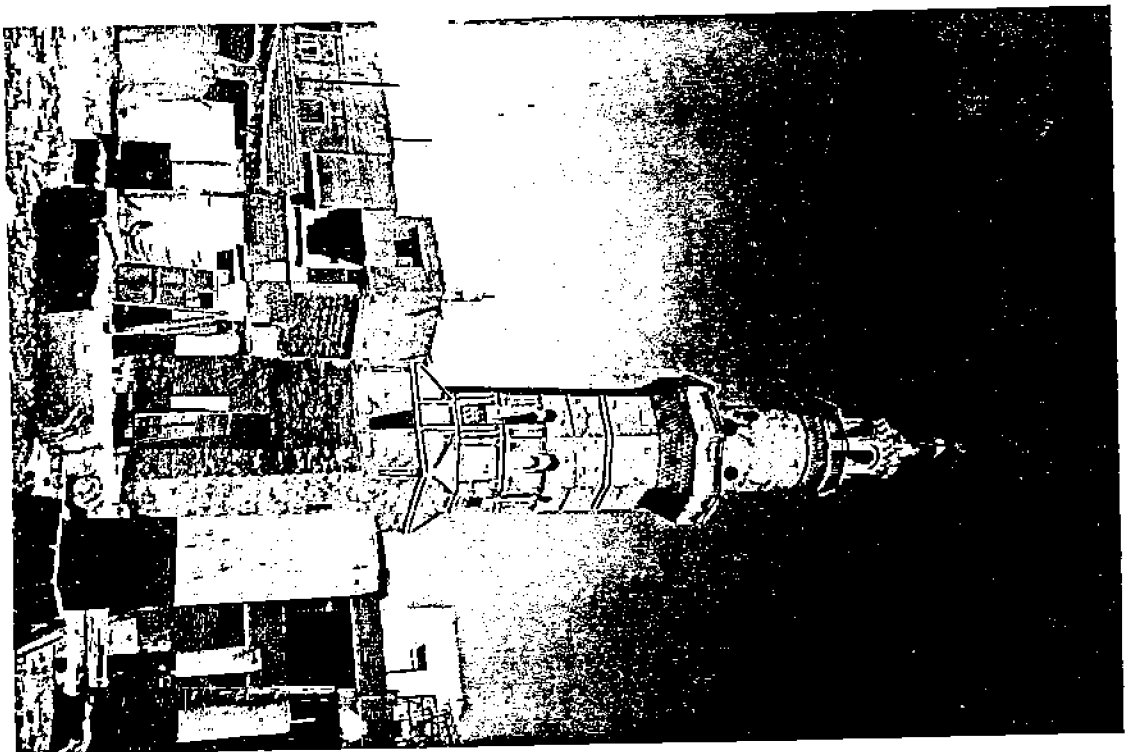
وَالنَّفْسُ بِمَا أَلَا كَيْفَ تَحْتَضِرُ سَمْعُهَا الدَّاعِيَةَ
 وَبَلَدِهِ وَمَا الْجَنَّةُ بِلَا دَلِيلٍ كَرْتَانٍ لَهُ جَدُّ

لَا تَحْتَدِرُ إِلَّا إِلَى مَجْدِهِ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ وَلَا أَحْمَدُ
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ سَكَنَ فِي الْمَدِينَةِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ

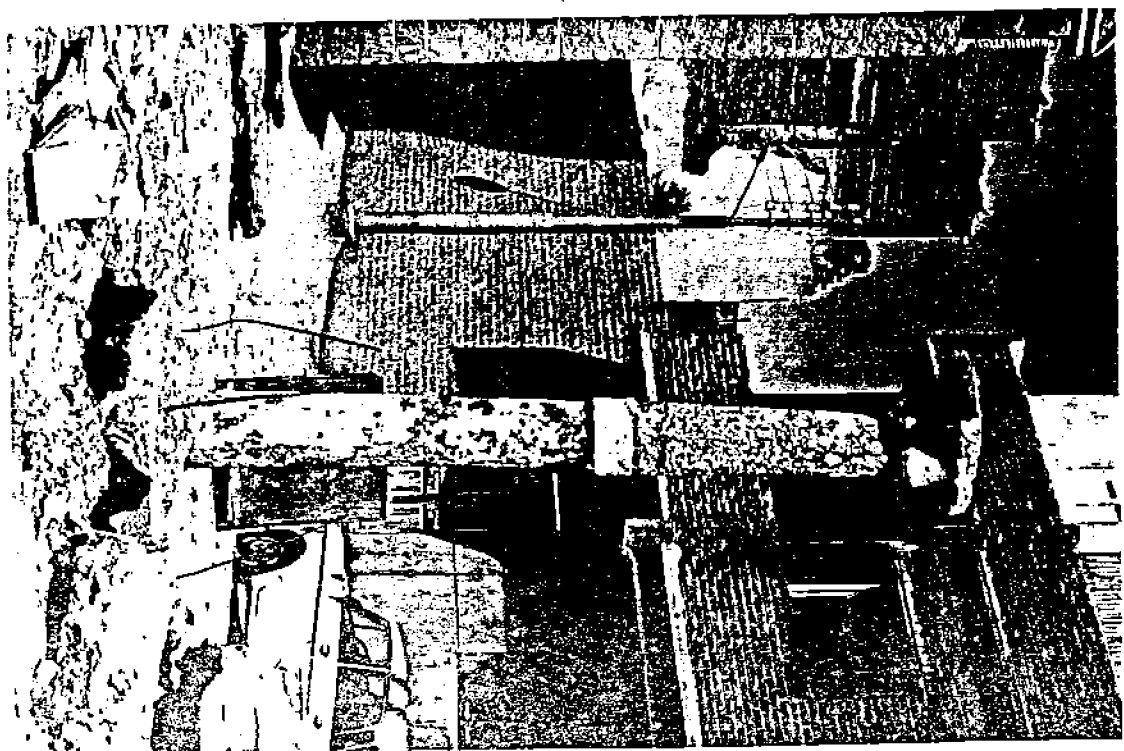
لوحة (١)



لوحة (٣)



لوحة (٥) :



لوحة (٤) :

خريطة تبين موقع
جامع
الأمير محمد والأمير
أحمد
بمدينة إخميم

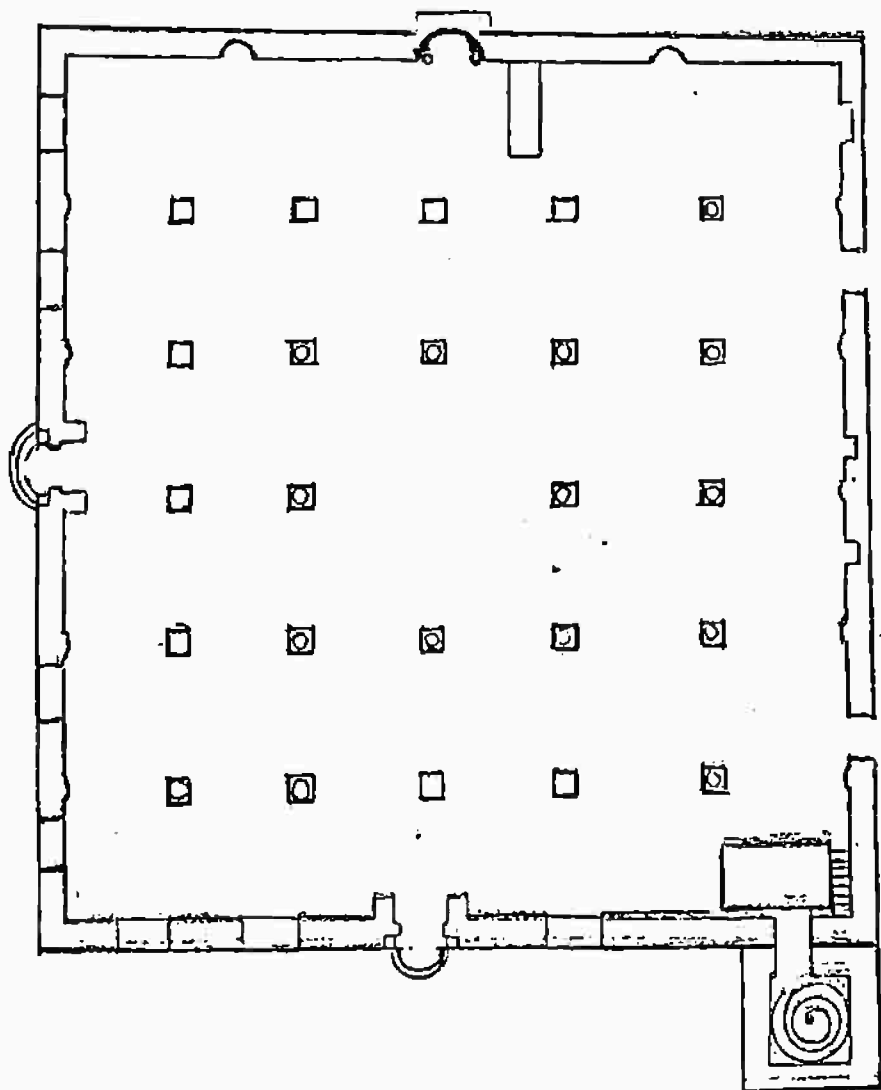
شارع الأشراف والمشتب

جامع الأمير محمد
والأمير أحمد

شارع القيس ربة

شارع الأمير حسن

شكل رقم (١)



شکل (۲)

جدول تبين ارباب الوظائف بالجامع

الجدول رقم (١) بين الوظائف الدينية والتعليمية

ملاحظات	الراتب السنوي	اسم الوظيفة	مسل
(خسة ارادب لكل واحد) .	عشرة ارادب قمح .	خطيب .	١
	اربعة ارادب قمح .	مرفي .	٢
	خسة ارادب قمح .	رئيس مؤذنين .	٣
	خسة عشر اردبا .	ثلاثة مؤذنين .	٤
	ثمانية ارادب قمح .	قاري، حديث .	٥
	عشرة ارادب قمح .	مدرس مالكي .	٦
		قاري، قرآن قبل العصر .	٧
	خسة ارادب قمح .	رجلين في وظيفة الصلاة علي النبي .	٨
	عشرة ارادب قمح .	قاريء سورة يس .	٩
	سته ارادب قمحا .	قاريء سورة الكهف .	١٠
	سته ارادب قمحا .	قاريء سورة تبارك .	١١

الجدول رقم " ٢ " بين وظائف الخدمة .

ملاحظات	الراتب السنوي	اسم الوظيفة	مسل
يوزع الربعة علي المصلين يوم الجمعة ليقروا فيها يخبر الجامع يوم الجمعة . يتولي تنظيف الجامع والميضة وضاءتهما . يملا الميضة وملحقاتها بالماء من البئر بواسطة الساقية . يملا السيل ويسقي المصلين يوم الجمعة .	خسة ارادب قمح .	خادم ربعة .	-١
	سته ارادب قمح .	منجر .	-٢
	خسة ارادب قمح .	بواب .	-٣
	عشرة ارادب قمح .	قراض وقاد .	-٤
	عشرة ارادب قمح .	سواق .	-٥
	خسة عشر اردبا .	قرملاكي .	-٦

الجدول رقم (٣) الوظائف الاداريات

ملاحظات	الراتب السنوي	اسم الوظيفة	مسل
قرر لي هذه الوظيفة باش جاريش . متحفطان مصر المحروسة .	عشرة ارادب من القمح .	شاد .	-١
	اربعون اردبا من القمح	الناظر المحسبي	-٢

شكل (٣)

(قرائن التنمية الريفية فى دولة الإمارات العربية المتحدة)
« منظور جغرافى »

دكتور

محمد على بهجت الفاضلى

استاذ مساعد بكلية الآداب

جامعة طنطا

(قرائن التنمية الريفية فى دولة الإمارات العربية المتحدة)

« منظور جغرافى »

- مقدمة -

اولاً : الجهود التتموية فى دولة الإمارات .

ثانياً : سكان الإمارات الريفيون .

ثالثاً : التنمية الزراعية فى دولة الإمارات :

١ - تطور المساحات الزراعية .

٢ - تطور الإنتاج الزراعى .

٣ - تغير هيكل الحيازة الزراعية .

٤ - زيادة الإنتاج الحيوانى وتحسينه .

رابعاً : التنمية الخدمية فى ريف الإمارات :

١ - الخدمات التعليمية .

٢ - الخدمات الصحية .

٣ - الإسكان .

- خلاصة -

- الخرائط و الصور -

- الهوامش و المراجع -

مقدمة :

يشيع فى الآونة الأخيرة إستخدام كلمة التنمية Development فى كثير من المجالات الاقتصادية ، و الإجتماعية ، و السياسية ، و الثقافية . و أصبحت قضية التنمية - ريفية و حضرية - محل إهتمام كثير من المتخصصين فى مجالات علمية متنوعة ، سواء فى بلدان العالم الثالث أو فى البلدان التى تعتبر - من زوايا عديدة - متقدمة . و على الرغم من هذا الشبوع و تلك الأهمية، لا يزال مفهوم التنمية يحيطه كثير من الغموض و الالتباس . و أصبح مدلول التنمية ، ومؤثراتها، و كيف يمكن قياسها ، موضوعا لعدد من المؤلفات فى مجالات علمية متنوعة . و على الرغم من هذا التنوع فى المجالات ، فإن التنمية ذاتها أصبحت وكأنها تخصص أكاديمى يمكن أن تسمى جميعاً كتب التنمية و يطلق على مؤلفيها "المنويون"^(١) . و مع تعدد الكتابات، ليس من الضروري الإسهاب - أو حتى السرد - فى سياق التعريفات المختلفة للتنمية و إختلاف الرأى حولها . فإن ذلك مجالا قد ينصرف إلى غير الغاية من هذا البحث .

و يسهل على القارئ أن يجد فى كثير من كتب التنمية تفصيلات كثيرة تتعلق بمفهوم التنمية و مؤثراتها^(٢) .

إذا كان البحث يهتم بالتنمية الريفية من قريب ، فقد يبدو ضرورياً أن نسوق بعضاً من مجال إهتمام التنمية الريفية التى تكثرت الكتابات فيها من منظورى الإجتماع و الإقتصاد^(٣) و تقل فيها الكتابات ، حقيقة من منظور الجغرافيا فحيما عدا الرسائل الجامعية التى تهتم بال عمران الريفى . أو الجغرافيا الزراعية، أو استغلال الأرض التى تهتم بالريف باعتباره سكناً ، أو إنتاجاً ، و التى لا تنتشر نتائجها وتظل فائدتها محصورة فيمن يقوم بالدراسة، أو فى القارئ المتخصص ، لا نجد بحثا علميا سوى مؤلفات أربعة^(٤) ، و عدد قليل من البحوث التى تهتم بال عمران الريفى، أو الإنتاج الزراعى، و هى ليست بالكثيرة . و من ثم فإن هذا البحث يعتمد

فى مجمله على مراجع و مصادر غيرجغرافية . و لا بأس فى أن نقول أن الاجتماع والاقتصاد حقاً سبقاً فى مجال البحث فى التنمية الريفية ، و أن الاستفادة من نتائجها فى بحث جغرافى لا يقلل من شأن الجغرافيا ، بل و يؤكد على اتساع ورحابة المنظور الجغرافى ، و اعتماده على مصادر جغرافية و غير جغرافية

يحدث كثيراً الخلط بين التنمية الزراعية و التنمية الريفية . و رغم أن الزراعة هى محور نشاط الريفيين ، فهى فى الجملة تمثل قطاعاً اقتصادياً واحداً و كان رئيسياً - تشمل تنميته زيادة انتاج الأرض الزراعية ، و الانتاج الحيوانى ، و السمكى ، و من تطبيق جيد للتقنيات الحديثة التى تتوافق و المعطيات المكانية . وقد تخرج هذه النظرة إلى مجال أوسع يشمل إهتمامات مكانية منها مثلاً زيادة العاملين الزراعيين و زيادة انتاجيتهم و كفاءتهم ، أى الاهتمام بالانتاج الزراعى و السكان الزراعيين . أما التنمية الريفية فلا بد و أن تشمل مجالاً أوسع ، باعتبارها جزء أوسع و حيوى من التنمية الاقتصادية و الاجتماعية على مستوى الريف و الذى يشمل - إضافة للإنتاج و السكان - مجالات أوسع تشمل الخدمات الصحية ، و التعليمية ، و الاجتماعية مع إحداث التنسيق و التكامل بين القطاعات الإنتاجية الريفية فى محاولة لتنمية شاملة للريف تندرج فى إطار أوسع أى من خلال الخطة القومية الشاملة .

ولا شك فى أن التنمية الريفية تغطى كثيراً من المجالات السكانية والاجتماعية و الاقتصادية . و يحاول هذا البحث تغطية جوانب أساسية تشمل :
- الجهود التنموية فى دولة الإمارات العربية التى ظهر دورها الواضح بعد استقلال البترول .

- السكان الريفيون باعتبارهم يمثلون ربع سكان دولة الإمارات .
- التنمية الزراعية و تشمل الانتاج الزراعى الحيوانى .
- التنمية الخدمية و تشمل التعليم و الصحة و الإسكان .

و مع أهمية هذه الجوانب و ضرورة التركيز عليها فإن دراسة هذه الجوانب فى

دولة الإمارات تكتنفها صعوبتين :-

- قلة المصادر الرقمية و الاحصائية، و صعوبة الحصول على رقم حديث يتعلق بالسكان ، و الانتاج . و لا يتردد الباحث في ذكر أن الأرقام التي يشملها هذا البحث ليست إلا مؤشرات تعطى دلالة على التنمية الريفية . و سوف يلجأ البحث إلى التعميم - أحياناً - لعدم وجود الدلالات بصورة كمية واضحة . و سوف يجتهد الباحث في أن يكون التعميم موافقاً للواقع، و الاستفادة من معاشته لمجتمع الامارات حقيقياً من الزمن ، و تمكنه من رؤية معظم الأماكن، و المشاركة ، و الاشراف - أحياناً - على عدد من الدراسات الميدانية في إطار تدريس منهج جغرافية المدن ، و الجغرافيا الريفية ، و التخطيطي الإقليمي للخليج و طالبات جامعة الامارات العربية المتحدة لأربع سنوات (١٩٨٩ - ١٩٩٣) .

- أن الريف في ذاته ليس محدداً تحديداً دقيقاً في دولة الإمارات . و يتوقف حجم السكان الريفيين و خصائصهم على نوعية المصدر إذا ، كان « اتحادياً » أو « محلياً » ، فعلى المستوى الاتحادي لا يوجد في دولة الامارات مدن سوى عواصم الإمارات إضافة إلى مدينتي العين و خورفكان . أما على المستوى المحلي ، فإن كثيراً من المحلات، التي تعتبر ريفاً على المستوى الاتحادي ، تعتبر مدناً محلية منها مثلاً الذيد في إمارة الشارقة ، ودبا في إمارة الفجيرة و شععم رأس الخيمة^(١) و هي بالفعل مدن من الناحيتين الوظيفية و السكانية . و سوف يعتمد البحث على المصادر الرقمية الصادرة على المستوى الوطني و ليس المحلي، باعتبار أن هذه المصادر هي الأكثر إتاحة و التي تبنى على أساسها خطط و برامج التنمية .

(. . .)

تتكون دولة الإمارات العربية المتحدة من اتحاد فيدرالى أعلن عنه في ٢ ديسمبر ١٩٧١ ، يجمع أمارات أبو ظبي، و دبي، و الشارقة ، و عجمان ، و رأس الخيمة ، و الفجيرة . و في إطار هذا الاتحاد ، يتحدد لكل إمارة حدود

إدارية أو سياسية ، يمارس فيها حاكم الإمارة سلطانه

و كان قيام هذا الاتحاد ضرورة، بل وقاشياً مع الواقع، و تحاشياً لما يمكن أن يظهر من مشكلات ؛ حيث أن الحدود بين الامارات لا تستند إلى أى أساس طبيعى أو بشرى ، و أن الامارات فى جملتها متشابهة فى بنائها السياسى والاجتماعى، والاقتصادى . يعزز ذلك صلات القربى التى تجمع عائلات الإمارات. بل أن السيادة القانونية للإمارات كانت معروفة طوال فترة احتلال بريطانيا لها ، التى اعترفت للحكام الإمارات بالسيادة على أقاليمها الخاصة ، وكانت الإمارات آنذاك تشكل دولا مستقلة تربطها مع التاج البريطانى علاقات معاهدية خاصة الى أن تم الاستقلال (١٦) .

تغطى دولة الامارات العربية المتحدة ٧٧.٧٠٠ كم ٢ تنحصر بين ساحل الخليج العربى شمالاً ، و خليج عمان شرقاً ، و سلطنة عمان من الجنوب الشرقى، والمملكة العربية السعودية من الغرب . و يعيش فيها ١.٣٠٦.٢٠١ نسمة (١٧) . وأكبر الامارات هى أبو ظبى التى تبلغ مساحتها ٦٧.٣٤٠ كم ٢ مكونة من قطاعات متصلة تشرف على الخليج العربى ، و يمتد فى الداخل حتى خط طول ٥٦ درجة شرقاً . و تصل مساحة دى إلى ٣٨٨٥ كم ٢ متألقة من قطاعين : الأول ساحلى ، يؤلف الجزء الأكبر من أراضيها ، و الثانى قطاع جبلى داخلى . و إلى الشرق منها تقع إمارة الشارقة و تبلغ مساحتها ٢٥٩٠ كم ٢ ، مكونة لقطاعين الأول غربى ، و يطل الخليج العربى ، ما بين إمارتى عجمان و دى ، و الآخر شرقى ساحلى على خليج عمان. أما إمارة عجمان فتصل مساحتها الى ٢٥٩ كم ٢ مؤلفة من ثلاثة قطاعات أحدها غربى ساحلى ، و الثانى داخلى صحراوى ، و الثالث جبلى شرقى . و تكون إمارة أم القيوين ، قطاعاً واحداً يشرف على الخليج العربى بين إمارة رأس الخيمة و عجمان فى مساحة تصل إلى ٧٧٧ كم ٢ . و تتألف إمارة رأس الخيمة من قطاعين : ساحلى على الخليج العربى و داخلى جبلى فى مساحة تصل إلى ١٦٨٤ كم ٢ و تصل مساحة الفجيرة الى ١١٦٥ كم ٢ و تكون قطاعاً

ساحلياً يطل على خليج عمان بالإضافة الى قطاع جبلى جنوبى (أنظر الخريطة
الملحق)

اولاً: الجهود التنموية فى دولة الإمارات العربية المتحدة :

ظهر البترول فى دولة الإمارات فى أبوظبى عام ١٩٦٣ ، وفى دى عام
١٩٦٩ وفى عام ١٩٧٤ فى الشارقة . و ترتب على استغلال البترول تغيرات
اقتصادية تتعدى انماط الأنشطة الى تغييرات طرأت على التركيب المهنى ، والبناء
الاجتماعى . و كان . تضافر عدد من العوامل أهمها تدفق الأموال ، و الانفتاح
المفاجئ على العالم الخارجى ، و بداية تطبيق لخطوات طموحة ، تضم الخطوط
العريضة للتنمية الاقتصادية و الاجتماعية . وواكب كل ذلك هجرة وافدة واسعة
تجه إلى المراكز الحضرية حيث العمل و مستوى المعيشة الراقى . كما تتجه القرى
التي أصبحت مراكز خدمات و إنتاج ^(٨) حيث العمل . و كان التخطيط فى جملته
متوجهاً نحو إحداث نهضة شاملة تتيح للسكان فرصة للإستفادة الكاملة من عوائد
البترول ، و تعويض ما فات من ظروف صعبة فى وقت قصير . ترتب على ذلك أن
تواجه الهيئات التخطيطية المعنية ، منذ بداية السبعينات ، مسئولية تطوير ونشر
الخدمات ، و بناء أجهزة الدولة المختلفة ، و الهياكل الأساسية الاقتصادية .

وفى إطار هذا الهدف العام ، لم تعتمد الدولة أية خطة شاملة للتنمية خلال
السبعينات ، على مستوى تفصيلى ، لأن الطفرة المفاجئة فى النمو الاقتصادى ،
والسكانى لم تكن متوقعة ، و على ذلك بدأ المسؤولون فى إعتماد أى شكل من
أشكال التخطيط الظرفى ، الذى يأخذ بمفهوم خطط العمل لتلبية الحاجات الفورية
للمشاريع واسعة النطاق ^(٩) دون اهتمام بالتنسيق على مستوى مكاني - أى بين
الإمارات - أو قطاعى - أى بين أنماط الأنشطة .

و لكن الهدف العام من التخطيط للتنمية إحتوته وثيقة الاهداف
العامة الرئيسية للتنمية ، التى صدرت فى عام ١٩٧٤ تملخص محتوياتها
فيما يلى ^(١٠) :-

- ١ - ته التنمية الاقتصادية على أساس متوازن بالنسبة للدولة ككل ، و على مستوى الإمارات، و يتم النمو الاجتماعى المتوازن جنباً إلى جنب مع التنمية الاقتصادية ، ليتوافر فى كل الأحوال مستوى حضارى واحد .
- ٢ - تتطلب التنمية و إنطلاقها تعاوناً خلاقاً مع بلاد الخليج و الجزيرة فى إطار التعاون بين البلاد العربية خاصة و البلاد الإسلامية و المجتمع الدولى .
- ٣ - دعم الاقتصاد القومى و تعزيز قدراته على الاعتماد الذاتى باستخدام المنجزات العلمية ، و تغيير الهيكل الإنتاجى ، و تنوع أنشطته ، و تعظيم طاقاته لدفع النمو و التركيز على دعم التوسع فى إستغلال ثروات البحار ، و توسيع الاستغلال الزراعى و النباتى و الحيوانى ، و الاستمرار فى استكشاف مصادر الثروة المعدنية و تشجيع إنشاء الصناعات التحويلية، و تنمية القطاعات المدعمة للقاعدة الاقتصادية ، و تيسير انطلاق التنمية دون قيود أو اختناقات .
- ٤ - الانسان فى دولة الامارات هو الغاية . و الخدمات الاجتماعية على اختلافها حق اساسى له ، و يكفل التعليم للجميع ، و كفالة الرعاية الصحية و الوقائية و العلاجية بتوزيع مناسب بين المناطق ، و يتم التأكيد على أهمية البحث العلمى ، وكذلك تقديم الرعاية الاجتماعية الملائمة ، و الخدمات الثقافية و الاعلامية و البيئية ، و توفير المساكن بما يتيح للمواطنين اعلا و أكفأ مستوى من الخدمات .
- ٥ - تحقيق رفاهية المجتمع كهدف أساسى للتنمية ، ذلك باستمرار تطوير مستويات المعيشة سواء من نواحى الاستهلاك أو نواحى الخدمات على أساس من العدالة الاجتماعية ، مع تأكيد الرفاهية للأجيال القادمة بتوجيه قدر متزايد من الدخل للإستثمار ، بما يضمن إطاراد النمو و تزايد الدخل .
- ٦ - تنمية القوى العاملة ، و تكوين الكوادر المدربة منها ، و القادرة على النهوض باحتياجات التنمية فى مجالات التخصص الذى يناسب الأوضاع المتميزة و الخاصة بالدولة ، و العمل على رفع مستوى الكفاية الانتاجية حسب مراحل النمو المختلفة .

٧ - يتم كل ما تقدم فى إطار التعاون الخلاق بين القطاعين العام والخاص ، كما ورد بالدستور ، وطبقاً للنظام الاقتصادى والاجتماعى للدولة ، وأن تكون الوسيلة لإعمال المبادئ الدستورية ، و تصور الأولويات الأساسية للتنمية هو دعم التخطيط على المستوى الاتحادى ، و انتشاره فى مختلف المؤسسات ومختلف الإمارات .

و انطلاقاً من الأهداف العامة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، أهتمت الدولة بأسلوب التخطيط الاقتصادى لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية . و تم فى عام ١٩٧٢ انشاء وزارة التخطيط التى بدأت بإعداد دراسات عن تطور الاوضاع الإقتصادية . كما تم فى عام ١٩٧٣ تحديد أجهزة التخطيط بمجلس التخطيط القومى الاتحادى ووزارة التخطيط . و فى ١٩٧٩ تم إعداد خطط شاملة متوسطة المراحل مدتها خمس سنوات (١٩٨٠ - ١٩٨٥) تكون أهدافها النهائية هى ^(١١) :
- تحقيق حجم و تركيب سكانى أمثل ، و تحديد الاحتياجات من العمالة .

- العمل على رفع مستويات المعيشة فى مختلف مناطق الدولة .

و يتخلص الهدف النهائى لخطط و برامج التنمية فى توسيع القاعدة الانتاجية للبلاد ، و فى تحقيق اسلوب التنمية الشاملة ، و تحقيق توزيع مناسب على المناطق مع تحقيق ما يمكن أن يطلق عليه دولة الرفاهية ^(١٢) التى تعنى بتقديم الخدمات العامة دون مقابل ، كالتعليم ، والصحة ، و بعض نواحي الاسكان ، فى الوقت الذى لا تؤثر فيه على السياسة الاقتصادية للدولة ، و العمل على تحقيق تنمية العدالة الاجتماعية ، مع توزيع أفضل للثروة . بمعنى أن الرفق لم يخص له عناية مميزة كما أنه لم يهمل أيضاً ضمن الاطار العام للاهداف و التوجيهات التنموية فى دولة الامارات ^(١٣) .

و فى إطار التخطيط للتنمية تم تخصيص نسبة عالية من الإيرادات العامة لتمويل مشاريع التنمية فى دولة الامارات خلال السنوات الماضية . و تركزت

استثمارات الحكومة فى مشاريع تنمية ذات تكلفة عالية ، كانت البلاد فى حاجة إليها وهى مشاريع البنية الأساسية مثل المطارات ، والموانئ ، والطرق ، والجسور ، ومشاريع الخدمات كالمستشفيات ، والمدارس ، والمرافق العامة الأخرى . فى حين تركزت المشاريع الحكومية فى مجال الانتاج فى مشاريع الصناعات الاستخراجية ومشاريع تصنيع الغاز . أما القطاع الخاص فقد تركزت استثماراته فى مشاريع الاسكان والصناعات المتوسطة ، والصغيرة ، وبعض الخدمات .

أما التنمية الريفية فرغم أن منهج التنمية الشاملة فى الدولة لم ينفذ لها برامج معينة للريف بشكل مستقل ، وإنما تمت تنميته بإقامة مشاريع عامة فى إطار التنمية الشاملة حسب إحتياجات كل قطاع اقتصادى دون النظر إلى وجود المشروع بالريف أو الحضر ، مع العمل على تلبية متطلبات المناطق من الخدمات والمرافق العامة . وعلى ذلك يصعب من الصعب تحديد حجم الاستثمارات فى المناطق الريفية ، خاصة وأن الإحصاءات التى ترتبط بذلك غير متوفرة . غير أنه يمكن النظر إلى الإستثمار فى الريف من خلال الاستثمارات الزراعية التى ترتبط بالطبع بالريف ويوضح ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (١) تطور الاستثمارات فى الزراعة بدولة الإمارات

فى السنوات من ١٩٧٥ - ١٩٨٩ (١٤)

السنة	جملة الاستثمار	السنة	جملة الاستثمار (مليون درهم) (١٥)
١٩٧٥	١٦١	١٩٨٣	٤٣٠
١٩٧٦	١٨٨	١٩٨٤	٣٩٢
١٩٧٧	١٨٩	١٩٨٥	٣١٩
١٩٧٨	٢٩٧	١٩٨٦	١٩٩
١٩٧٩	٢٦٩	١٩٨٧	٢٠٢
١٩٨٠	٥٦٠	١٩٨٨	١٩١
١٩٨١	٤٧٢	١٩٨٩	٢٢٤
١٩٨٢	٤٨٢		

و يتصح من أرقام الجدول أن حجم الاستثمارات فى مجال الزراعة إستمر فى الزيادة المطردة حتى ١٩٨٠ . ثم أخذ فى التناقص بعد ذلك . ويرجع ذلك الى تراجع أسعار البترول و عوائده بعد عام ١٩٨٠ ، الأمر الذى أثر على حجم الاستثمارات ليس فى قطاع الزراعة فقط بل فى كافة القطاعات الاقتصادية . وفى السنوات من ١٩٨٥ - ١٩٨٩ يتذبذب حجم الاستثمار بين الزيادة و النقصان . و لكن من المتوقع أن تزيد الاستثمارات الزراعية وفق خطة الدولة التى ترمى إلى زيادة استصلاح الأراضى ، خاصة بعد توفير المياه عن طريق اعذاب المياه المالحة والتوسع فى استزراع المحاصيل التى تتحمل الملوحة^(١٦) . ورغم زيادة الاستثمارات فى مجال الزراعة الحالية والمتوقعة ، فإن عناصر الانتاج الزراعى التى تشمل الزراعة ، و تربية الحيوان ، و الصيد لا تساهم الا بنسبة ضئيلة فى الناتج المحلى الاجمالى لدولة الإمارات إذا لم تزد قيمتها عن عام ١٩٨٧ عن ١,٩ ٪ من مجموع مساهمة القطاعات المختلفة^(١٧) .

ثانياً: سكان الامارات الريفيون :

ينقسم سكان دولة الامارات حسب نمط الحياة إلى مجموعات رئيسية تشمل^(١٨) :-

١ - البدو الرحل : و هم الذين يعيشون حياة و الإرتحال بحثاً عن الماء و الكلأ فى الصحراء التى تشمل معظم مساحة الدولة أو بين السهول و المرتفعات الشرقية .

١ - البدو شبه الرحل : و تشمل الجماعات الذين يقيمون فى بعض الواحات الداخلية (كواحات العين و البرقى) و تمارس هذه الجماعات الزراعة فى فصل الشتاء حيث يزرعون بعض المحاصيل الحقلية تحت أشجار النخيل (كالبرسيم و الخضر) ، و ينتقلون إلى البادية عقب سقوط الامطار حيث يتوافر الكلأ .

٣ - المجمعات شبه المستقرة : و تشمل السكان الذين يقيمون في قرى ساحلية يعملون في الصيد اضافة إلى ممارستهم للرعى في مناطق قريبة من الساحل . و قد يمارس هؤلاء الزراعة و الصيد و الرعى كما يحدث في قرى رأس الخيمة و الفجيرة .

٤ - المجمعات المستقرة : و تشمل سكان المراكز المستقرة الذين يعملون بالزراعة و التجارة و الخدمات خاصة في المراكز الحضرية و التجمعات الريفية المستقرة ، و يشكل هؤلاء النسبة الغالبة من السكان إذ يشكلون ٩٣ ٪ من سكان الدولة في الوقت الذي يشكل فيه البدو - رغم إتساع المساحة التي يعيشون فيها - نسبة لا تزيد عن ٧ ٪ من إجمالي السكان^(١٩).

و مع تمييز السكان حسب البداوة و الاستقرار ، و ممارسة الزراعة في ظل البداوة كحرفة يشترك في ممارستها من يعيش على الرعى و الصيد ، أو في قرى مستقرة تشغل الواحات الصحراوية و الجبلية أو مناطق إستيطان البدو الذين تحولوا في عهد استغلال البترول إلى زراع مستقرين ، يصعب في دولة الامارات فيما عدا الأساس الإداري - تصنيف السكان إلى ريفيين و حضريين^(٢٠) لما تجر به عمليات التحضر المستمرة من تغيرات فتجت عن تحول السكان من الريف إلى الحضر ، حتى أصبحت الامارة و كأنها مدينة تتركز فيها السكان و الانشطة ، و أصبحت القرى مراكز خدمات يشكل العاملون بها - و معظمهم وافدون - النسبة الغالبة من سكان المراكز الريفية .

و رغم صعوبة التمييز و يتوزع سكان الامارات ، من الناحية الجغرافية ، بين الحضر ، و البدو و سكان الواحات . و في عام ١٩٥٠ قدر عدد من المواطنين في الدولة بحدودها الحالية بحوالى ٨٠ ألف نسمة ، كان حوالى ربعهم حضريين (أى حوالى ٢٠ ألف نسمة) . و في عام ١٩٦٦ تضاعف عدد المواطنين فوصل إلى ١٧٠ ألف نسمة يعيش نصفهم في الحضر . و حسب تعداد ١٩٧٥ إرتفع عدد

المواطنين إلى حوالي ٢٢٠ ألف نسمة بلغت نسبة الحضرين فيهم ٦٤٪ يضاف إليهم الوافدون من الدول الآسيوية والعربية فتصبح نسبة الحضر ٨٠٪ من السكان (٢١). أما في تعداد ١٩٨٠ فقد بلغ عدد السكان الإجمالي في الدولة حوالي مليون نسمة نسبة الحضرين منهم ٨١٪ و الريفيون ١٩٪ (٢٢). ويتوزع السكان الريفيون في ٤١١ قرية لا يزيد عدد سكان بعضها عن عشرة أشخاص. و تتوزع هذه القرى على طول الساحل الشرقي، و في الواحات الداخلية، و على طول أودية سلسلة جبال عمان في المناطق الزراعية حيث قامت زراعة بسيطة تشجع على الاستقرار (٢٣).

و يتضح من التوزيع النسبي للسكان الحضرين و الريفيين أن سكان الريف في دولة الامارات لا يشكلون اكثريه السكان كما هي الحال في أغلب الدول النامية (٢٤). و يتوافق هذا الوضع مع الظروف البيئية للدولة حيث يفتقر الريف في جملته الى المقومات الفعالة للزراعة التي تشكل الركيزة الأساسية للاستيطان الريفي.

تعتبر دولة الامارات - من ناحية أخرى - حالة متميزة من ناحية توزيع السكان بين الريف و الحضر، حيث أنه في الوقت الذي تزيد فيه نسبة الحضر زيادة مطردة تتناقص نسبة سكان الريف. غير أن التناقص ليس الا نسبياً فقط، أما عن الأعداد المطلقة للسكان الريفيين فتتعرض للزيادة المستمرة كما يتضح في الجدول الآتي :

جدول (٢)
سكان دولة الامارات العربية المتحدة
فى الحضر و الريف (٢٥)

البيان	١٩٦٨	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٨٥
مجموع سكان الدولة	١٧٩١٣٨	٥٥٧٨٨٧	١.٤٢.٩٩	١٣.٦٢.٠٠
العدد	١١٧١٥٦	٤٦٨٢٨٧	٨٤٢٤١٥	١.٤٤٩٦٠
سكان الحضر النسبة	%٦٥	%٨٤	%٨١	%٨٠
العدد	٦١٩٨٢	٨٩٦.٠	١٩٩٦٨٤	٢٦١٢٤.٠
سكان الريف النسبة	%٣٥	%١٦	%١٩	%٢٠

سكان الريف إذن يتزايدون رغم انخفاض نسبتهم . لا يعنى ذلك بما قد ينتج عن استقرار الأرقام أن هناك هجرة تتجه من الريف إلى الحضر بشكل مستمر وإلا لتناقص الريفيون . ولكن الواقع هو أن الزيادة السكانية المطردة حدثت فى المدن كما حدثت فى القرى . و مرد ذلك إلى الهجرة الوافدة المتزايدة التى تتجه نحو مراكز العمران حضراً و ريفاً - وراء هذه الزيادة المطردة وقد ارتفع سكان الريف فهو يستقبل هجرة وافدة خارجية ممثلة فى العمالة الزراعية بعد التوسع فى استزراع الأراضى ، وفى العاملين بالخدمات بعد تطور التعليم و الصحة عقب ظهور البترول ، إضافة إلى الجهود التنموية التى نجحت فى مجال تروطين البدو و خاصة بعد توفر عوامل الجذب فى المحلات الريفية المخططة الحديثة ممثلة فى بناء مساكن شعبية شيدت فى قرى نموذجية، ووزعت هذه المساكن على المواطنين مجاناً . و واكب ذلك بناء الطرق والمدارس و المراكز الصحية .

لم تكن زيادة السكان الريفيين - من ناحية أخرى - متوافقة مع زيادة

العاملين بالزراعة : حيث أن هؤلاء يعيش بعضهم فى القرى كما يعيش آخرون فى المدن . و تختلف أعداد المشتغلين بالزراعة سواء كانت اقامتهم الدائمة فى الريف أو الحضر بين المواطنين و غير المواطنين ، كما يوضح ذلك أرقام الجدول الآتى :

جدول رقم (٣)

المشتغلون بالزراعة حسب الجنسية فى

دولة الامارات فى الاعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ (٢٦)

البيان		١٩٧٥	%	١٩٨٠	%	١٩٨٥	%
مواطنون	حضر	١٨٢٢	٢٨,٦	١٦٠٣	٣٤,٣	٣٢٤٥	٢٤,٣
	ريف	٤٥٥٦	٧١,٤	٣٠٧٣	٦٥,٧	٦٢٢٢	٦٥,٧
	جملة	٦٣٧٨	١٠٠	٤٦٧٦	١٠٠	٩٤٦٧	١٠٠
غير مواطنين	حضر	٣٤٠٣	٤٧,٣	٩٥٩٠	٤٥,٨	١٩٤٢٠	٤٥,٨
	ريف	٣٧٨٨	٥٢,٧	١١٣٤٧	٥٤,٢	٢٢٩٨٠	٥٤,٢
	جملة	٧١٩١	١٠٠	٢٠٩٣٧	١٠٠	٤٢٤٠٠	١٠٠
جملة	حضر	٥٢٢٥	٣٨,٥	١١١٩٣	٤٣,٧	٢٢٦٦٥	٤٣,٧
	ريف	٨٣٤٤	٦١,٥	١٤٤٢٠	٥٦,٣	٢٩٢٠٢	٥٦,٣
	جملة	١٣٥٦٩	١٠٠	٢٥٦١٣	١٠٠	٥١٨٦٧	١٠٠

تشير ارقام الجداول إلى أن نسبة المواطنين المشتغلين بالزراعة تقل عن نسبة غير المواطنين. غير أن النسبتين كانتا متقاربتين فى عام ١٩٧٥ (٤٧ ٪ مواطنون ٥٣ ٪ غير مواطنين)، ثم حدث تطور كبير فى نسبة غير المواطنين بعد عام ١٩٧٥ (٨١,٧ ٪ من جملة المشتغلين بالزراعة فى عام ١٩٨٠) و تعود هذه القفزة الواسعة لأسباب أهمها أن كثير من المواطنين قد انصرفوا الى الاشتغال بالزراعة بعد تكون اتحاد دولة الامارات بوما صاحب ذلك من فتح أسواق واسعة

للعمل فى مجالات الخدمات و الصناعة و التجارة ، مما اجتذب كثيرا من المواطنين الزراعيين سواء من كانوا يقيمون فى الريف أو الحضر . و من ناحية أخرى كان للتنمية الزراعية التى استحدثت بعد تكون الدولة، و التى تتضمن توسعاً أفقياً فى الأراضى الزراعية^{١٢٧} سهولة استقدام الملاك للأيدي العاملة الزراعية الأجنبية خاصة بعد الانفتاح على دول جنوب آسيا التى تفد منها أيدي عاملة رخيصة و ذات خبرة، خاصة من الهند و باكستان و بنجلاديش.

و تزيد نسبة الزراعيين المقيمين بالريف على نسبة المقيمين بالمدن من المواطنين و غير المواطنين وهو أمر طبيعى . غير أن ما توضحه الأرقام هو اتجاه نسبة ساكنى الريف^{١٢٨} جماعته نحو الانخفاض (٦١,٥ ٪ فى عام ١٩٧٥، و ٥٦,٣ ٪ فى عام ١٩٨٠، ١٩٨٥). إلا أن هذا الانخفاض الإجمالى ينتج عن تناقص نسبة المواطنين تناقصا كبيرا (٧١,٤ ٪ فى عام ١٩٧٥ و ٦٥,٧ ٪ فى عام ١٩٨٠ و ١٩٨٥) بما يوحى بأن هناك هجرة واسعة للريفيين المواطنين نحو المدن . و الواقع أن التوسع فى شق الطرق بين المدن و القرى ترتب عليه سهولة الاتصال بين المدينة و القرية، إضافة إلى أن كثيرا من المواطنين يمتلكون أرضاً زراعية فى الريف ، و يعملون فى نفس الوقت فى المدن مما أدى إلى ظهور الملكية الغيابية Absentee landownership التى تحدث فى كثير من جهات العالم النامى فى أمريكا اللاتينية و آسيا و أفريقيا^(١٢٩) ، أى امتلاك الأرض فى الوقت الذى يقوم فيه عمال أجانب و افدون بالزراعة. و يقيم هؤلاء فى الريف دون أن يتأثر بذلك طبيعة و نوعية الملكية الزراعية : فمعظم الوافدين عمال بأجر و ليسوا ملاكاً أو مستأجرين . و بذلك يبدو من الطبيعى أن تتجه نسبة غير المواطنين الزراعيين المقيمين فى الريف نحو التزايد ، عكس نسبة المواطنين (٥٢,٧ ٪ فى عام ١٩٧٥ و ٥٤,٢ ٪ بعد عام ١٩٨٠) ، و ترتب على ذلك أيضاً انخفاض عدد المزارعين المواطنين بين عامى ١٩٧٥ و ١٩٨٠ لقصور الزراعة فى البداية عن استيعاب الإستثمارات الخاصة ثم حدث تطور هائل فى أعداد المزارعين المواطنين

بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٥ يصل إلى أكثر من المثل . و يعود ذلك إلى التوسع فى استصلاح الأراضى ، و توجه الاستثمارات - حتى من القاطنين فى المدن - نحو شراء الأرض الزراعية خاصة مع دعم الدولة النقدى والعينى للإنتاج الزراعى ومستلزماته و للمنتجين أيضاً^(٢٨) . و طبيعى ألا تقتصر الزيادة فى عدد المواطنين الزراعيين بل شمل ذلك أيضاً زيادة فى عدد الوافدين بنسب لا تقل عن نسبة المواطنين .

إذا كانت تلك هى الصورة العامة لتوزيع المشتغلين بالزراعة بين المواطنين والوافدين على مستوى الدولة ، فإن نسبة الريفيين إلى جملة السكان - سواء منهم المشتغلين بالزراعة أو غيرها - تختلف من إمارة إلى أخرى . كما أن تطور هذه النسبة يمكن أن يشير إلى كثير من الخصائص السكانية على مستوى تفصيلي مثلة فى تطور نسبة الريفيين فى كل إمارة كما يشير إلى ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (٤)

تطور نسبة سكان الريف فى كل إمارة الى مجموع سكانها

فى السنوات ١٩٦٨ - ١٩٧٥ - ١٩٨٠ (٢٩)

الامارات	١٩٦٨	١٩٧٥	١٩٨٠
أبو ظبى	٥٢٪	١٦٪	٢٤٪
دبى	٣	٢	٥
الشارقة	٣٥	١٧	٥
عجمان	١٢	١٤	٧
أم القيوين	٣٠	١٨	٢٢
رأس الخيمة	٦٤	٤٨	٤٤
الفجيرة	٨٣	٨٣	٦١
الدولة	٣٥	١٦	٨٩

تزيد نسبة الريفيين في عام ١٩٦٨ : ١٩٧٥ في إمارات الجزيرة
و رأس الخيمة ، و أبو ظبي ، و الشارقة عن نسبتهم إلى إجمالي سكان الدولة .

و رغم تشابه هذه الإمارات في زيادة النسبة فإن هناك ظروفاً محلية تختلف
في كل إمارة عن غيرها، و تضع كلا منها موقف منفرد : فالفجيرة إمارة مكونة من
قرى صغيرة و وحات صحراوية و جبلية ليس فيها من المراكز الحضرية ، على
المستوى الاتحادي و المحلي سوى مدينة الفجيرة، فهي إمارة ريفية إذن من
النواحي العمرانية و الإنتاجية و من ثم السكانية . و رأس الخيمة هي الإمارة التي
يسود فيها الطابع الزراعي لظروفها الطبيعية ممثلة في السهل الحصوي الخصيب ،
ووفرة المياه (٣٠) . و أبو ظبي هي أكبر الإمارات سكاناً و مساحةً و تتركز بها
المستوطنات الزراعية ممثلة في الواحات الداخلية ، و مناطق توطين البدو الزراعيين
(المحاضر) . و الشارقة تزيد فيها أعداد المزارع و مساحتها خاصة في الذيد و المدام
و خور فكان حيث السهل الخصيب و سهولة الاتصال ووفرة المياه .

تقل نسبة الريفيين في الإمارات الأخرى خاصة في دبي حيث التجارة
و الصناعة و الخدمات و هي مجالات الاستثمار الرئيسية . و تقل في عجمان
المقومات اللازمة للزراعة أهمها التربة و ندرة المياه و توجه السكان نحو الصيد .
و الحال نفسها في أم القيوين على أية حال فإن نسبة الريفيين تتجه نحو التناقص
على مستوى الدولة رغم ارتفاعها المطرد في بعض الإمارات، و لكن ذلك لا يعنى
بالضرورة - كما ذكرنا - أن هناك هجرة تتجه من الريف إلى المدن .

ثالثاً - التنمية الزراعية في دولة الإمارات :

ليست الظروف الطبيعية في دولة الإمارات ظروفاً مواتية للزراعة : فالتربة
في معظمها ليست خصبة، و الماء ليس متاحاً و سهلاً ، و المناخ صحراوي جاف ترتفع
حرارته و تنقص أمطاره . غير أن هذه الصعوبات لم تحل دون بذل جهود بناءة
أثرت عن نهضة زراعية هي بالمقياس النسبي ثورة اقتصادية تقلل من أثر الحتمية
البيئية الصعبة ، و تبرز معها آثار الجهد البشري المثمر ^(لذات) مآثره و أيدته موارد مالية

وفيرة . و سمحت ببذل الجهد الملح فى التغلب على المعوقات الطبيعية . و كان من نتيجة ذلك أن ساهمت الزراعة - رغم محدودية دورها فى إقتصاد الإمارات - فى زيادة الأمن الغذائى ، و فى جذب المواطنين الرحل إلى الحياة الاستيطانية الزراعية . و عضد ذلك جهد حكومى تتخذ محاور عدة ممثلة فى المساهمة فى إنجاز العمليات الزراعية الأولية مثل تسوية الأرض و حرثها و مقاومة الآفات الزراعية ، و ذلك دون مقابل نقدى يدفعه المزارعون، إضافة إلى تزويدهم بالآلات الزراعية (مضخات الرى و المكائن أساساً) بأسعار تدعمها الدولة ، و توفر الصيانة لها دون مقابل . يشمل ذلك أيضاً تهيئة القروض ، و تقديم مستلزمات الانتاج الزراعى (بذور - أسمدة - مبيدات) بنصف قيمتها ، مع تقديم خدمات الارشاد الزراعى ، و حل مشكلات الماء (حفر الابار و صيانتها - تقديم شبكات الرى بالتنقيط - الزراعة المحمية)^(٣١) . و تساهم تلك الجهود فى إبراز تنمية زراعية تتشكل أهم معالمها فى النواحي الآتية :

- تطوير المساحات الزراعية .
- تطوير الانتاج الزراعى .
- تغير هيكل الحياة الزراعية .
- زيادة الانتاج الحيوانى و تحسينه .

و لا شك فى أن أبرز بعض التفاصيل الخاصة بهذه النواحي، يقدم تصوراً عن أهمية و أبعاد التنمية الزراعية فى الامارات :

١ - تطور المساحات الزراعية :

تزايدت مساحة الأرض الزراعية فى الامارات خلال السنوات التى تعقب ظهور البترول^(٣٢) . وفى عام ١٩٦٧ كانت مساحة الأراضى المزروعة فى الدولة حوالى ٤٠ ألف دونما أرتفعت الى ١٢٧ ألف دونما فى عام ١٩٧٣ أى تضاعفت المساحة ثلاث مرات فى ست سنوات . و تواصل التوسع الزراعى الأتقى لتصل الأرض

الزراعية إلى ٢٦٤ ألف دونما فى عام ١٩٨١ .

يبدو هذا التوسع الكبير فى المساحة الزراعية ظاهرة خاصة لا تعرفها إلا دول الخليج . فمن الواضح أن العوائد البترولية هى بالفعل العامل الأول فى توفير النقد الذى يسمح بالإتفاق على تنمية زراعية هائلة تقلل أثر المعوقات الطبيعية - والبشرية أحيانا - إلى أدنى حد . بل كانت التنمية الزراعية جزءاً من (خطة) تنمية شاملة، كان نصيب التنمية الزراعية الريفية ممثلاً فى استصلاح المزيد من الأراضى ، و توزيعها على المواطنين وفق المعايير التى تقترب من عطاء «مجانى» .

ظل التوسع الزراعى سائراً فى فقرات سريعة حتى عام ١٩٨٠ . وبعدئذ أصبح التزايد بطيئاً نسبياً. ونفس السبب الذى كان وراء زيادة مساحة الأراضى هو السبب فى قلة معدلات التوسع . أى أن تراجع أسعار البترول و عوائده أخذت تتراجع منذ عام ١٩٨٠ ، و تراجعت معه معدلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى شهدت بكل المقاييس طفرة و نمواً يقل أن نجد نظيراً له خارج الخليج بين عامى ١٩٧٣ ، ١٩٨٠ و يدلل على هذا الاتجاه أرقام الجدول الآتى :

جدول رقم (٥)

تطور سعة الأرض الزراعية

فى دولة الامارات بين السنوات ١٩٦٧ - ١٩٨١ (٣٣)

العام	المساحة (دولة)	الزيادة
١٩٦٧	٤٠٠٠٠	—
١٩٧٣	١٢٧١٠٠	٨٧١٠٠
١٩٧٥	١٤٥٠٢٦	١٧٩٢٦
١٩٧٨	١٨٠٣٥٧	٣٥٣٣١
١٩٨٠	٢٣٤٧٤٩	٥٤٣٩٢
١٩٨١	٢٦٣٥٣١	٢٨٧٨٢

تدل الأرقام على أن الأرض الزراعية قد توسعت بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٨١ بمقدار ٢٢٣,٥٣١ دونماً : أي أن الأرض قد تضاعفت نحو سبع مرات في خلال ١٤ عاماً . و كان التوسع الزراعي هائلاً في الفترة بين عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٥ ، و هي فترة الطفرة البترولية و تكون إتحاد الإمارات . وبتنفيذ معدلات زيادة الأرض الزراعية، غير إنها تباطأت بعد عام ١٩٨٠ . أما بعد عام ١٩٨٥ فتشهد الإمارات توسعاً زراعياً واضحاً خاصة مع التوسع في استصلاح الأراضي الذي واكب إنشاء محطات إعذاب المياه المالحة و استزراع النباتات التي تتحمل الملوحة ، وتطور المشاريع الزراعية كزراعة القمح بالعروة و مشاريع العلف في أبو ظبي^(٢٤) ووصلت الأرض الزراعية إلى نحو ٣٨١ ألف دونماً^(٢٥) .

و مع التوسع الكبير في الأراضي الزراعية تختلف مساحة الأرض الزراعية من إمارة إلى أخرى وفق أثر المعطيات الطبيعية و العوامل البشرية المؤثرة في الزراعة بكل إمارة كما كان نشاط التوسع الزراعي مختلفاً بين الإمارات كما يوضح ذلك الجدول الآتي :

جدول رقم (٦)

تطور مساحات الأراضي الزراعية في الإمارات عام ١٩٧٣ - ١٩٨٥^(٢٦)

الإمارة	١٩٧٣		١٩٨٥	
	المساحة (هكتار)	%	المساحة (هكتار)	%
أبو ظبي	١٤٧٧٨	١٢	١٣٩٢٧٣	٣٧
دبي	٧٤٩٤	٦	٣٢٢٩٣	٨
الشارقة	٢٢٥١٢	١٨	٨٢٨٤٩	٢٢
عجمان	٤٥٣	١	٦٤٦٦	٢
أم القيوين	٢٦٠٢	٢	٨٠٥٤	٢
رأس الخيمة	٥٨٧٢٨	٤٨	٨١٧٤٠	٢١
الفجيرة	١٥٨٧٠	١٣	٢٩٥١٨	٨
الدولة	١٢٢٤٣٧	١٠٠	٣٨٠١٩٣	١٠٠

زادت المساحة الزراعية بدولة الامارات زيادة كبيرة بين عامى ١٩٧٣ - ١٩٨٥. غير أن هذا التوسع يختلف فى الامارات حسب إمكانية التوسع الزراعى فى أراضيها .

و كان لتوطن مشروعات التوسع الزراعى، وتركز الاتفاق فى هذا المجال فى مناطق بعينها تتوافر فيها ما يلزم للزراعة أكبر الأثر . و نالت إمارة أبو ظبى نصيب السبق فى هذا المجال ، و زادت فيها المساحة الزراعية كما زادت نسبة هذه الأراضي الى جملتها فى الدولة . ثم تقسم الدولة من وجهة النظر الزراعية الى أربع مناطق الشمالية و الشرقية و الوسطى و الجنوبية (انظر الخريطة بالملحق)، و تتركز المنطقة الجنوبية فى إمارة أبو ظبى، و تشمل منطقتى أبو ظبى و العين . و الاخيرة تعرف الزراعة منذ عهد الاستيطان فى منطقة الامارات لعوامل تضافرت على قيام حرفة زراعية مستقرة، منها التربة الخصبة و توفر المياه فى مساحة تصل الى ٧٧ ٪ من المساحة الزراعية فى الدولة . و يصل فيها إنتاج الخضرا الى ٩٣ ٪ من انتاج الدولة و ٩٠ ٪ من المحاصيل التقليدية . تتركز الزراعة أيضاً فى إمارة رأس الخيمة ولكنها قبل جهود التنمية الزراعية الحديثة كانت المصدر الاساسى لما يقرب من ٥٠ ٪ من الانتاج الزراعى . و تناقصت هذه النسبة بعد التوسع الزراعى فى إمارات أخرى . فلم تظل رأس الخيمة كأساس ولكنها رغم ذلك منطقة زراعية رئيسية تتساوى فيها نسبة الأراضي الزراعية مع الشارقة (٢١ ٪ / ٢٢٠ ٪ على التوالي) .

و ليس لامارات دبی، و عجمان ، و أم القيوين أهمية كبيرة من ناحية المساحة الزراعية . أما الفجيرة ففيها الواحات الجبلية الزراعية و المناطق الزراعية فى السهل الشرقى، و مناطق توطن المشروعات الزراعية خاصة بالنسبة لتربية الدواجن ، و من ثم زادت المساحة الزراعية فيها، و لكن نسبة أراضيها الى جملتها فى الدولة تقل . و لكن قياس اهمية الزراعة و تنميتها ليس قاصراً على المساحة الزراعية؛ فقد يكون الانتاج غزيراً فى مساحة قليلة يعوض نقص المساحة خاصة مع توفر إمكانات قد لا توجد فى مساحة كبيرة .

٢ - تطور الانتاج الزراعى :

واكب التوسع فى مساحة الأرض الزراعية زيادة فى نوعية الانتاج الزراعى من ناحية الكمية المنتجة و القيمة النقدية للمنتجات ، و يظهر ذلك فى الجدول الآتى :

جدول رقم (٧)

تطور الانتاج الزراعى حسب أنواعه و قيمته فى السنوات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ فى دولة الامارات (٢٧)

العام		خضروات	فاكهة	محاصيل (٢٨)
١٩٧٥	الكمية (طن) القيمة (غير ميين)	١٣٠٠٠	٢٣٠٠	٤٠٠٠
١٩٨٠	الكمية القيمة (درهم)	١٢٦٧٤٩ ٩٨٣٧٨	٥٩٢٦٤ ٩٨٣٧٨	٩٠٣٩٢ ١٣٩٠٢٣
١٩٨٥	الكمية القيمة	٢٣٢٢٩٢ ٣٣٢٣٤٣	٨٥٩٣٦ ٢٥١٨٤٩	٣١٩٩٩٥ ٣٩١٥١٠

يلاحظ من أرقام الجداول أن الانتاج الزراعى تزايد بصورة ملحوظة فى أنواع المنتجات . كما تزايدت قيمتها النقدية زيادة متواصلة . غير أن القيمة النسبية لكل نوع تختلف بين عامى ١٩٨٠ و ١٩٨٥ ؛ ففى عام ١٩٨٠ كانت قيمة الخضروات تربو على نصف قيمة مجموع الانتاج الزراعى . و تكاد تنقاس الفاكهة و المحاصيل فى النصف الآخر . إنخفضت بعد ذلك قيمة الخضروات النسبية فى عام ١٩٨٥ ، و ارتبط ذلك بزيادة ملحوظة فى المحاصيل و زيادة أقل فى قيمة الفاكهة . و من الطبيعى أن تزيد الكمية المنتجة من المحاصيل فى عام ١٩٨٥ مع التوسع

فى زراعات القمح الواسعة فى منطقة العين ، و كذا التوسع فى زراعة محاصيل العلف التى ترتبط بالتوسع فى تربية الحيوانات، و التى تدعمها الدولة فى مزارعها الحكومية أو فى المزارع الخاصة (٣٩) .

و إذا كان الانتاج الزراعى قد اختلف حسب نوعه و قيمته فى الدولة فإن الانتاج يختلف بالطبع من إمارة إلى أخرى، و فى كل نوع من الانتاج الزراعى يوضح ذلك الجدول الآتى :

جدول رقم (٨)

الانتاج الزراعى حسب نوعه فى كل إمارة فى ١٩٨٥ (٤٠)

الإمارة	الخضروات		التمور و الفاكهة		المحاصيل	
	الكمية	%	الكمية	%	الكمية	%
أبو ظبى	٧٩٩١٨	٣٤.١	٦١٣٢	٧.٢	١٠٧٠٦٣	٣٣.٥
دبى	٤٢٧٣	١.٨	٦٠٤٨	٧.١	٥١٤٨١	١٦.١
الشارقة	٦٧٩٤٣	٢٩	٣٧٩٢٨	٤٣.٩	١١٦٦٣٨	٣٦.٥
عجمان	٢٥٤١	١	١٢٩٥	١.٥	٥٧٤٩	١.٨
أم القيوين	١٩٠٥	.٨	١٨١٠	٢.١	١٠٤٣٠	٣.٣
رأس الخيمة	٦٧٧٠٩	٢٨.٩	١٧٧٧٦	٢٠.٨	٢٣٥٥٧	٧.٤
الفجيرة	١٠٣٧١	٤.٤	١٤٨٦٧	١٧.٤	٤٣٩٥	١.٤
الدولة	٢٣٤٦٦	١٠٠	٨٥٥٥٦	١٠٠	٣١٩٣١٣	١٠٠

تتركز زراعة الخضروات و التمور و الفاكهة و المحاصيل تركزاً يكاد يكون كلياً فى إمارات أبو ظبى و الشارقة و رأس الخيمة . إذ تنتج الأراضى الزراعية فى هذه الإمارات التى تزيد فيها مساحة الأرض الزراعية (راجع جدول رقم ٧) ، و التى يتوافر فيها - كما سبقت الإشارة - المقومات الطبيعية و البشرية اللازمة للزراعة

ويتضح من الجدول أن إمارة الشارقة تصدر كل الامارات فى انتاج المحاصيل والتمور و الفاكهة. و يدل كم الانتاج على جودة اراضى امارة الشارقة فهى لا تقلك المساحة الزراعية الأوسع (٢٤ ٪ من المساحة الزراعية فى الدولة) و تتفوق عليها أبو ظبى (٣٧٪). ويرجع تفوق انتاج الشارقة الى خصوبة التربة و توافر المياه و قدم الزراعة بها ، ويزيد الانتاج فى ابو ظبى من الخضروات و المحاصيل ، و هى المكان الرئيسى الذى تتوطن فيه المشاريع الحكومية فى إطار خطط التنمية الزراعية وخطط توطين البدو. و يمثل الانتاج من الخضروات و التمور و الفاكهة أهمية خاصة فى إمارة رأس الخيمة، و هى موطن الزراعة التقليدى فى الإمارات، ويزيد انتاج الفجيرة من التمور و الفاكهة، وهى المحاصيل الرئيسية فى الواحات . أما فى إمارات دبي و عجمان و أم القيوين فالانتاج ضئيل يتفق مع صغر المساحات الزراعية بها .

٣ - تغيير هيكل الحيازة الزراعية :

تم إحداث تنمية زراعية شاملة فى الدولة تتمثل فى ازدياد مساحة الأراضى المزروعة بارتفاع كمية الانتاج الزراعى بكافة أنواعه . كما تحسنت الانتاجية لمختلف أنواع المزروعات ، و فى كافة المناطق الزراعية . و فى هذه المؤشرات ما يكفى للدلالة بوضوح على حقيقة التنمية الزراعية و شمولها، تزداد دلالاتها مع توضيح مدى التوافق بين عائد الأراضى الزراعية ، و عدد الحائزين و متوسط مساحة الحيازة الواحدة ، و تطور انتاجية الحيازة أيضاً .

ارتفع عدد الحيازات بشكل ملحوظ خلال السنوات الماضية ، ففى حين كان عددها ٤٩٤٠ حيازة عام ١٩٧٣ . ارتفع إلى ٧٥٢٢ حيازة عام ١٩٧٥ . ثم أصبح عددها ١١٤٤٤ حيازة عام ١٩٨٠ ، كما ارتفع عددها الى ١٦٨٤٨ حيازة عام ١٩٨٥ .

و إزداد فى نفس الوقت متوسط المساحة للحيازة الواحدة . و هذا يعنى أنه لم يحدث تفتت فى الملكية كما يحدث فى أغلب البلدان الاخرى بسبب ازدياد عدد

المالكين بحكم التوارث ، فى ظل مساحات لا تتزايد بنفس المعدل .

فى دولة الامارات تزامن مع ارتفاع عدد الحيازات ، تزايد فى متوسط المساحة للحيازة الواحدة ، حيث كان المتوسط حوالى ٧.٨ دونما للحيازة الواحدة عام ١٩٧٥ ، فأرتفع المتوسط الى ١١.٩ دونما عام ١٩٨٠ ، ثم أصبح ١٤.٥ دونما عام ١٩٨٥ (٤١) :

جاء ارتفاع عدد الحيازات بزيادة متوسط المساحة للحيازة الواحدة نتيجة الجهود المبذولة لاستصلاح مزيد من الأراضى و توزيعها على المواطنين الريفيين . ومن ناحية أخرى تواكب الارتفاع الملحوظ فى عدد الحيازات الزراعية و فى متوسط قيمة الانتاج لكل حيازة : فى عام ١٩٨٠ بلغ متوسط إنتاج الحيازة الواحدة حوالى ٤٣ ألف درهم ، و ارتفع هذا المتوسط إلى حوالى ٥٨ ألف درهم عام ١٩٨٥ . و هذا يعنى أن الحيازات الزراعية تحسن دخلها و مردودها . و إذا أضيف الى دخل المزارع ، انتاج الثروة الحيوانية ، فهذا يعنى أنه أصبح يتحقق لاهل الريف دخل لا بأس به . و الجدول التالى يوضح تطور قيمة انتاج الحيازة الواحدة فى الدولة :

جدول رقم (٩)

عدد الحيازات و متوسط قيمة انتاج الحيازة الواحدة

فى دولة الامارات عامى ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ (٤٢)

القيمة بالالف درهم

البيان	عدد الحيازات	قيمة الانتاج الزراعى	متوسط قيمة انتاج الحيازة
١٩٨٠	١١٤٤٤	٤٩١٦٣٢	٤٣.٠
١٩٨٥	١٦٨٤٨	٩٧٥٧.٣	٥٧.٩

تزايد عدد الحيازات، كما ارتفع متوسط مساحة الحيازة الواحدة خلال السنوات القليلة الماضية ، و يرتبط تزايد الحيازات مع تزايد عدد الاسر المواننة فى الريف ففى ١٩٧٥ كان عدد الحيازات يمثل ٩١٪ من عدد تلك الأسر . وفى عام ١٩٨٠ ارتفعت نسبتها إلى ٧٦٪ من عدد الاسر . وفى عام ١٩٨٥ أصبحت تشكل ٩٢٪^(٤٣) من عدد الأسر ، بمعنى أنه أصبح تقريباً لكل أسرة حيازة زراعية ، الأمر الذى يشجع على الاستقرار بالريف ، بدلاً من الهجرة إلى المدن . وهذا الاتجاه يتماشى مع استراتيجية التنمية و توجهاتها بالدولة منذ ظهور البترول .

٤ - زيادة الانتاج الحيوانى وتحسينه :

أولت الحكومة عناية خاصة للمحافظة على الثروة الحيوانية و تنميتها متمثلة فى الأبل و الأغنام و الماعز . كان أبناء البلاد يتنقلون وراء العشب فى مناطق الرعى المتناثرة حول الواحات فى الظفرة و ليوا و العين و سهل الباطنة و المناطق الجبلية . إلا أن ظروف البيئة القاسية لم تساعد على تربية القطعان لأغراض تجارية بل لأغراض الاكتفاء الذاتى .

و بعد ظهور البترول و منذ قيام الدولة عام ١٩٧٢ ظهرت التوجهات للمحافظة على الثروة الحيوانية و تنميتها بشتى الوسائل، حيث بدأت الحكومة بتهيئة مخصصات شهرية بلغت الفى درهم عن كل ناقة ، و منح خمسمائة درهم عن كل وليد جديد للناقة أيضاً^(٤٤) . كما تم إنشاء مراكز للمرشدين الزراعيين فى رأس الخيمة و الذيد و خورفكان و الفجيرة ، و إنشاء حظائر للثيران فى دبی و رأس الخيمة، وإتمام مبانى قسم البيطرة فى الدقاقة و الاعداد لاقامة مشروع ضخم لتربية الأبقار فى العين .

تزايدت قطعان الثروة الحيوانية - تبعاً لكل ذلك - بشكل ملحوظ ففى حين بلغ عددها حوالى ٥٨ ألف رأس عام ١٩٧٥ ارتفع عددها الى حوالى ٥٩٩

الف رأس عام ١٩٨٠ ثم أصبح عددها حوالى ٧٦٥ ألف رأس عام ١٩٨٥ .

و تشكل الماعز اكثريّة أنواع الثروة الحيوانية فى الدولة حيث بلغ عددها حوالى ٤٦٨ ألف رأس أى حوالى ٦١٪ من مجموعة الثروة الحيوانية فى البلاد عام ١٩٨٥ ، كما كانت تشكل نفس النسبة تقريباً عام ١٩٧٥ . ويأتى بعد الماعز فى المرتبة الثانية الاغنام ثم الجمال والإبل ، ثم الأبقار (٤٥).

ومع تزايد عدد قطعان الثروة الحيوانية فى البلاد ، تزايد إنتاجها أيضاً ، فقد ارتفع انتاج الحليب من حوالى ١٢ ألف طن عام ١٩٧٥ ، إلى حوالى ٣٨ ألف طن عام ١٩٨٥ كما ارتفع انتاج اللحوم الحمراء من حوالى ألف طن ١٩٧٥ إلى حوالى ٩ آلاف طن عام ١٩٨٥ .

و ازداد انتاج الدواجن أيضاً خلال السنوات القليلة الماضية ، حيث إرتفعت كمية لحوم الدواجن المنتجة محلياً من حوالى ألف طن عام ١٩٧٥ إلى حوالى ٨ آلاف طن عام ١٩٨٥ . كما ارتفع انتاج بيض المائدة ، من حوالى ٤ ملايين بيضة عام ١٩٧٥ إلى حوالى ١٥٨ مليون بيضة عام ١٩٨٥ (٤٦) .

كانت الحيوانات و الطيور الداجنة يتم تربيتها فى الريف كما فى المدن . حتى دلت نتائج التعداد الزراعى الذى قامت به وزارة الزراعة و الثروة السمكية فى مايو عام ١٩٧٦ على أن عدد حيازات الثروة الحيوانية بلغت ١٧٦٢٧ حيازة . منها ٩٩٣٢ حيازة فى الريف بنسبة حوالى ٥٦ ٪ أما باقى الحيازات فكانت فى المدن .

و لقد أدت التحولات الاجتماعية و الاقتصادية التى حدثت و أثرت على اساليب و مستوى معيشة السكان و كذلك التطورات العمرانية فى المدن ، الى أن أصبحت تربية الحيوانات و الدواجن مقتصرة على الريف سواء كان عند الأفراد فى القرى ، أو فى المزارع النموذجية المخصصة لتلك الأغراض . و أدى تطور الثروة الحيوانية لأعدادها ، و كميات إنتاجها ، و أساليب تربيتها ، إلى أحداث موارد إقتصادية ساهمت إلى جانب الموارد المتحققة من تطوير الزراعة فى تحسين الموارد المحلية للريفيين ، و سبل معيشتهم و استقرارهم فى مناطقهم .

رابعاً: التنمية الخدمية فى ريف الامارات :

١ - الخدمات التعليمية :

يرجع تاريخ التعليم النظامى فى الدولة الى عهد قريب: فقد بدأ التعليم الحديث بالدولة فى أواخر الخمسينات ، بإمارة الشارقة و بمبادرة من دولة الكويت . و فى عام ١٩٦٠ تم افتتاح أول مدرسة فعلياً فى إمارة أبو ظبى .

و هذه البداية المتأخرة للتعليم تركت آثارا واضحة ؛ فجاء ظهور البترول فى الوقت الذى تطلب استخراجه أو استغلال موارده طاقات بشرية مدربة و مؤهلة ، فى حين كانت الايدى العاملة المواطنة ليست بالعدد و الكفاءة التى تتفق و طموحات التنمية ، ففى عام ١٩٦٨ كانت نسبة الأمية ، فى الدولة حوالى (٧٩٪) و كانت الاناث حوالى (٩١٪) فى ذلك العام و مما لاشك فيه أن الأوضاع التعليمية لسكان الريف وحدهم لم تكن بالطبع أحسن حالا .

و بعد ظهور البترول و استثماره ، تم نشر فرص التعليم . كما تم وضع حوافز متعددة للاقبال عليه و الاستمرار به . ففى عام ١٩٧٥ انخفضت نسبة الامية إلى ٤٤٪ ، ثم انخفضت إلى حوالى ٣٢٪ عام ١٩٨٠ . و فيما يخص المواطنين فقد انخفضت نسبة الأمية بينهم أيضاً من ٥٧٪ عام ١٩٧٥ ، إلى ٤٤٪ عام ١٩٨٠ (٤٦) .

شهد الريف تحسناً فى الارضاع التعليمية لسكانه . الا أن الصورة الحقيقية لدى فعالية برامج التنمية الريفية فى هذا المجال ، تظهر فى مدى انعكاسها على واقع الأوضاع التعليمية للمواطنين فى الريف ، و ليس لمجموع سكان الريف ، حيث أن استقدام اعداد كبيرة من المتعلمين الوافدين تؤدى الى ظهور ارقام عن الحالة التعليمية فى الريف بجملته لا تعبر تعبيراً حقيقياً عن حالة المواطنين التعليمية .

أظهرت بيانات التعدادات السكانية ، وجود تحسن ملموس فى الأوضاع

التعليمية للمواطنين في الريف ، فقد انخفضت نسبة الأمية بينهم من ٧٤٪ عام ١٩٧٥ الى ٦١٪ عام ١٩٨٠ ، كما ظهر تحسن في الأوضاع التعليمية للمواطنين في الريف ، بكافة المستويات التعليمية

و الجدول التالي يوضح تطور الاوضاع التعليمية للمواطنين في الريف .

جدول رقم (١٠)

الحالة التعليمية للمواطنين بالريف في دولة الامارات العربية المتحدة عامي

١٩٧٥ . ١٩٨٠ (٤٧)

الحالة التعليمية	١٩٧٥		١٩٨٠	
	العدد	النبة	العدد	النبة
أبسط	٢٧٩٠٣	٧٤٪	٢٨٩٨٨	٦١٪
يقرأ و يكتب	٨٠٧٨	٢٢٪	١١٧٤٤	٢٤٪
ابتدائية	١٢٣١	٣٪	٥١٠٦	١١٪
اعدادية	٤٢٣	١٪	١٤٤٠	٣٪
ثانوية	١٣٢	...	٥٠٣	١٪
دبلوم	١٤	...	١٩	...
جامعية فما فوق	٧	...	٤٣	...
غير مبين	٤٥	...	—	...
الجملة	٣٧٨٣٣	١٠٠٪	٤٧٨٤٣	١٠٠٪

إن التحسن المشار اليه في الاوضاع التعليمية للمواطنين في الريف ، وفقا لما اظهرته بيانات تعدادي عام ١٩٧٥ ، و عام ١٩٨٠ ، قد تم في فترة زمنية قصيرة بالمقارنة مع متطلبات تطوير المهارات البشرية .

٢ - الخدمات الصحية :

عاشت الامارات العربية قبل ظهور البترول و قيام الاتحاد سنوات طويلة دون خدمات صحية تذكر ، فالعلاج كان يعتمد أساسا على الطب الشعبي الذى يستخدم وسائل بدائية . و كان المريض الذى يستعصى حالته يضطر الى السفر الى الكويت أو السعودية أو البحرين ، إذا توفرت لديه الامكانيات ليجد العلاج هناك .

و كانت قلة موارد الغذاء و عدم كفايته ، و قلة المياه الصالحة للشرب وضعف الوقاية، و ندرة العلاج عوامل هيات لوجود بيئة تتفشى فيها الأوبئة كالجدري و الكوليرا و الدرن و الجذام و الامراض المعدية الاخرى ، و كانت نسبة وفيات الأطفال الرضع مرتفعة .

و لقد قدمت بعض الدول المجاورة مساعدات طبية بشكل أو بآخر آنذاك ، الا انها لم تكن بالمستوى الذى يحقق الحدود الدنيا من الرعاية الصحية : فالبحرين كانت تبعث طبيباً كل اسبوع لاستقبال المرضى . كما قدمت القواعد الاجنبية بعض الخدمات الطبية الضئيلة . و كانت الكويت ترسل بعثة طبية الى الامارات الشمالية فى أوائل الستينات ، فاقامت مستشفى صغير فى دبي ، و اقامت عددا من المستوصفات فى بعض الامارات . كما أوفدت المملكة العربية السعودية عدداً من الأطباء الى إمارة رأس الخيمة و الشارقة و كذلك فعلت أبو ظبي .

و مع استغلال البترول زيادة عوائدهمحدث تغير مباشر فى إمارة أبو ظبي فقامت بإنشاء مستشفى تم افتتاحه لكافة أبناء الامارات الاخرى . و اخذت إمارة دبي بإنشاء مستشفى أيضا . ثم بدأت الجهود تتلاحق حتى حققت الخدمات الصحية فى حقبة قصيرة تطوراً ملحوظاً ثم إقامة المستشفيات الحديثة و توفير الكفاءات العالية و التجهيزات الحديثة المتكاملة .

و من هنا فقد إشتملت منطلقات و منجزات التطور الصحى على توفيرالخدمات الملزمة فى الريف . فتم افتتاح العيادات و المراكز الصحية فى القرى

و حدثت نقلة واضحة فى الخدمات الصحية الريفية و المراكز الصحية المتخصصة فى المدن الى جانب المستشفيات . فالريف لم يكن به أية خدمات صحية تذكر قبل ظهور البترول فى حين أصبح به عام ١٩٨١ ثمانية مستشفيات مجهزة بكل ما يلزمها من أطباء و عاملين و متخصصين و أجهزة فنية دقيقة . كما أصبح فى الريف فى نفس العام ٢٤ عيادة لتقديم العلاج الاولى ، و تنتشر هذه العيادات فى القرى الرئيسية و مراكز التجمع السكانى الرئيسية . و بالنتيجة فقد بلغ مجموع الاطباء العاملين فى الريف ١٢٠ طبيباً عام ١٩٨١ .

و فى عام ١٩٨٧ ارتفع عدد الاطباء العاملين فى الريف الى ١٧٦ طبيباً يعملون فى ١٢ مستشفى و ٤٢ عيادة ، و بمقارنة الخدمات الطبية الموجودة فى الريف مع الخدمات الموجودة فى الحضر لا ينبغى إغفال أن المستشفيات الكبرى فى المدن تقدم خدماتها لكافة السكان و بالتالى يستفيد منها أبناء الريف أيضاً ، إضافة الى استفادتهم من الخدمات المقدمة من المراكز الصحية الموجودة فى الريف و التى يندر أن تقدم خدماتها لأبناء المدن .

أصبح الاطباء العاملون فى الريف يشكلون ١٠ ٪ من مجموع الاطباء فى الدولة عام ١٩٨١ ، و ارتفعت نسبتهم الى ١٤ ٪ عام ١٩٨٧ (٤٨) .

و إذا علمنا أن سكان الريف يشكلون حوالى ١٩ ٪ من مجموع سكان الدولة ، نجد أن الخدمات الطبية الموجودة فى الريف ليست بالقليلة . و بمقارنة عدد الأطباء مع عدد السكان نجد أنه فى عام ١٩٨١ كان معدل عدد الأفراد لكل طبيب فى الريف حوالى ١٤٥٠ فرداً/طبيب ، و فى الحضر حوالى ٨٥٠ فرداً/طبيب . علماً بأن معدل الأطباء المذكور ، يعتبر منخفضاً بالمقياس العالمى (٤٩) .

٣ - الاسكان :

تحسنت الاوضاع السكنية فى دولة الامارات بشكل عام ، و فى ريفها بشكل خاص ، خلال السنوات التى أعقبت ظهور البترول . فحتى الستينات كانت أغلب

الوحدات السكنية فى القرى و فى بعض أحياء المدن تتكون من سعف النخيل والقليل منها كانت تبنى من الطين . أما المباني الحجرية فكانت نادرة . وحتى سنوات قريبة كانت العشش المكونة من السعف تشكل نسبة عالية من المساكن لم تكن تتمتع بالكهرباء أو المياه النقية سواء فى المدن أو القرى .

و مع استثمار البترول و توفر الموارد المالية ، تضافرت الجهود ، لاجداث نقلة نوعية فى الاوضاع السكنية ، بالحضر و الريف . و استمر التطور العمرانى حتى اصبح فى الدولة - إضافة إلى المدن - قرى نموذجية يتوفر فيها المساكن الملائمة والمرافق والخدمات .

اخذت المساكن القديمة تتلاشى و يحل مكانها البيوت الحديثة . ففى عام ١٩٨٠ كان عدد العشش المكونة من السعف بالريف ٣٦٩٥ عشة ، و انخفض عددها الى ٤٦٨ عشة عام ١٩٨٥^(٥٠) . و انخفض عدد البيوت التقليدية فى الريف من ١٤١١٢ بيت عام ١٩٨٠ الى ١٠٨١٧ بيت عام ١٩٨٥ .

و فى الوقت ذاته ارتفع عدد الفيلا فى الريف من ١٣٨٤ فيلا عام ١٩٨٠ الى ٣٤٢٧ فيلا عام ١٩٨٥ . كما ارتفع عدد البيوت الشعبية من ١٣٣٨٠ بيت عام ١٩٨٠ الى ٢١٤٢٢ بيت عام ١٩٨٥^(٥١) . و حيث أن الدولة قد تبنت تطبيق نموذج سكنى ريفى ، يبدو مناسباً الحديث عن أبعاد هذا التطبيق فى ريف الامارات و حضرها (انظر الملحق الصور التى توضح أغطاط المساكن) .

قامت الجهات الحكومية ببناء المساكن وفق نماذج معينة تتكون من غرفتين الى ثلاثة غرف و توابعها ، اطلق عليها « البيوت الشعبية » ، حيث كان ولا يزال يتم بناء هذه المساكن فى مختلف المناطق بالمدن و القرى ، و من ثم توزيعها على المواطنين دون مقابل .

و لقد احدثت هذه المساكن تطوراً ملموساً فى الأوضاع السكنية للمواطنين حيث حلت بدلا من العشش و المساكن غير الملائمة الاخرى ، و نشأت القرى النموذجية الحديثة بدلا من المستوطنات القديمة .

ففى عام ١٩٨٠ اصبح فى الريف ١٣٣٨٠ بيتا شعبيا ، شكلت ٣٥ / من مجموع المباني فى الريف بالدولة ذلك العام . وفى عام ١٩٨٥ ارتفع عددها الى ٢١٤٢٢ بيتا شعبيا بما يشكل ٣٨ ٪ من مجموع المباني فى الريف ذلك العام .

و لا بد من الاشارة الى أن عدد البيوت الشعبية التى تم بناؤها فى الدولة كان عددها فى الريف اكثر من عددها فى الحضر فى كل من عامى ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ . كما أن نسبتها فى الريف كانت أعلى منها فى الحضر . وهذا يعنى انه تم اعطاء عناية أكبر للنهوض بالوضع السكنية لابتاء الريف أكثر منه للحضر لا سيما و أن تلك المساكن يتم توزيعها دون مقابل .

و بمقارنة عدد البيوت الشعبية مع عدد الاسر المواطنة فى الريف ، نجد أن هذه البيوت شكلت ٨٩ ٪ من مجموع الأسر المواطنة فى الريف عام ١٩٨٠ - مقابل ٤٠ ٪ فى الحضر^(٥٢) - وهذا يعنى أن معظم الأسر المواطنة فى الريف اصبح لديها بيوت شعبية .

و تم بناء البيوت الشعبية فى الريف بجميع الامارات . و يأتى فى المرتبة الأولى من حيث عدد البيوت الشعبية ريف أبوظبي وريف رأس الخيمة ، ثم ريف الشارقة ، ثم ريف الفجيرة ، أما الريف فى باقى الامارات فإن عدد البيوت الشعبية به كان قليلاً

و المعيار الحقيقى لمقارنة عدد البيوت الشعبية فى الريف بين إمارة و أخرى هو تناسب عدد البيوت مع عدد الاسر المواطنة فى ريف كل إمارة على حده :

تبين فى عام ١٩٨٠ أن عدد البيوت الشعبية كان يفوق عدد الاسر المواطنة فى ريف كل إمارة - أبوظبي - دى - أم القيوين - عجمان . و يليهم إمارة الفجيرة التى شكلت البيوت الشعبية بالريف فيها ٩٤ ٪ من عدد الاسر المواطنة فيه ، ثم إمارة الشارقة فإمارة رأس الخيمة و تأتى المرتبة الاخيرة و مع ذلك كانت نسبة البيوت الشعبية إلى الأسر المواطنة فى ريفها ٧٠ ٪ و هى نسبة ليست بالقليلة^(٥٣) .

حدث تحسن ملموس فى الأوضاع السكنية فى الريف إذن ، و أصبح بناء المساكن من مواد صلبة مثل الهياكل الخرسانية . أما المساكن غير الملائمة مثل العيش فقد أخذت نسبتها تتناقص من ٢٢٪ من جملة المساكن فى عام ١٩٨٠ الى ١٨٪ فى عام ١٩٨٥ . و يعنى هذا أن الأوضاع السكنية فى الريف أصبحت أفضل .

خلاصة :

أثر الطابع الصحراوى الذى يميز المنطقة ، فى جعل الاستيطان البشرى فى الريف صعباً . لهذا فقد نشأت القرى الصغيرة فى ريف الامازات و قرب الواحات و عند سفوح الجبال . و من هنا فإن سكان الريف لم يتجاوزوا ثلث سكان الدولة قبل عهد البترول . و مع التغيرات السكانية التى حدثت بعد ذلك لوحظ أن نسبة سكان الريف الى مجموع سكان الدولة ارتفعت من ١٦٪ عام ١٩٧٥ الى ١٩٪ عام ١٩٨٠ .

كما تبين أن نسبة المواطنين فى الريف الى مجموع المواطنين فى الدولة ارتفعت من ٢٩٪ عام ١٩٧٥ الى ٤٠٪ عام ١٩٨٠ . و هى الفترة التى أعقبت طفرة اسعار البترول . و هذا يعنى أن عملية التنمية و المشاريع العديدة التى صاحبت توفير الموارد البترولية ، لم تؤد الى هجرة من الريف إلى الحضر ، بل العكس .

و يوضح البحث أن توجهات التنمية التى تم اتباعها لم تميز بين الحضر و الريف ، بل كانت الأولويات لإقامة المشاريع وفقاً للاحتياجات فى أسرع وقت . و لقد تم توجيه العوائد فى إقامة المشاريع التنموية فى الريف و الحضر سواء بسواء . وارتفعت الاستثمارات رغم تراجع اسعار البترول عقب عام ١٩٨٠ و خص الريف نصيباً من تلك الاستثمارات خاصة الزراعة .

و له تتوقف التنمية الريفية عند الاهتمام بالزراعة دون غيرها بل تم العمل على تحقيق تنمية شاملة تناولت كافة الجوانب الخدمية ، و الانتاجية كالخدمات الصحية و التعليمية و الاسكان ... الخ .

فالزراعة كانت حتى الستينيات نادرة ثم بذلت الجهود للتنمية الزراعية: فتم التوسع فى زراعة الاشجار المثمرة و ارتفعت مساحة الاراضى الزراعية و ارتفع الانتاج الزراعى بكافة أنواعه ، كما تحسنت الانتاجية أيضاً .

لقد انعكست التنمية الزراعية على الريفيين : فمع استصلاح الاراضى ارتفع عدد الحيازات بما يعادل ٩٢٪ من عدد الأسر المواطنة فى الريف . بمعنى أنه أصبح يتوفر لكل أسرة مواطنة بالريف حيازة زراعية ، علماً بأن متوسط مساحة الحيازة الواحدة شهد ارتفاعاً . كما ارتفع متوسط قيمة انتاج الحيازة الواحدة ، بمعنى أن تطور الزراعة أصبح يوفر دخولاً لا بأس بها لآبناء الريف ، يضاف إليها الدخول المتحققة نتيجة تنمية الثروة الحيوانية .

و بالطبع فلقد قدمت الحكومة دعماً متعدد الأشكال للزراعة كما له الأثر الفعال فى تطوير الريف .

و أما الخدمات التعليمية فقد أعطتها الجهات المسئولة عناية كبيرة ، فتم افتتاح المدارس فى جميع المناطق ، و تم تقديم الحوافز العديدة للالتحاق بالتعليم و الاستمرار فيه . وأصبحت المدارس متوفرة فى كافة مراكز الاستيطان البشرى الريفى .

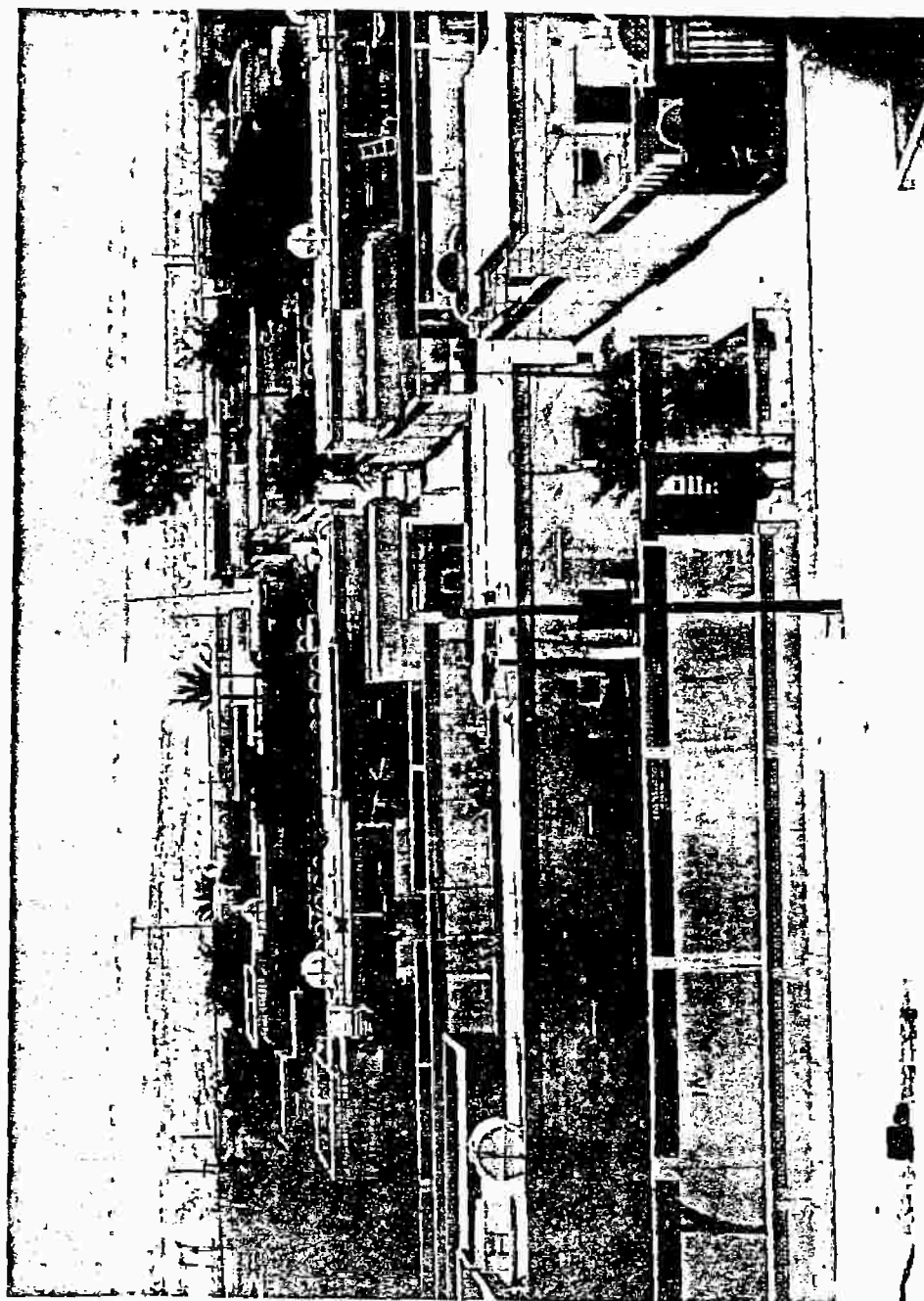
و تطورت الخدمات الصحية التى كانت بدائية قبل ظهور البترول ، حتى أصبح فى الريف حوالى ١٧٦ طبيباً يعملون فى العيادات و المستشفيات الحكومية الموجودة هناك ، و أصبح الريف عام ١٩٨٧ حوالى ١٤٠٠ نسمة لكل طبيب وهو من المعدلات الجيدة لا سيما و أن الخدمات الصحية الموجودة فى المدن تقدم خدماتها لآبناء الريف أيضاً .

و تم العمل على تحسين الأوضاع السكنية و قامت الجهات الحكومية ببناء
البيوت الشعبية و توزيعها على المواطنين مجاناً حتى أصبحت تلك البيوت تشكل
٣٨ / من مجموع المبانى السكنية فى الريف عام ١٩٨٥ ، كما تشكل
٨٩ / من مجموع الأسر المواطنة فيه بمعنى أنه أصبح يتوفر تقريباً لكل أسرة
مواطنة بيت شعبى .

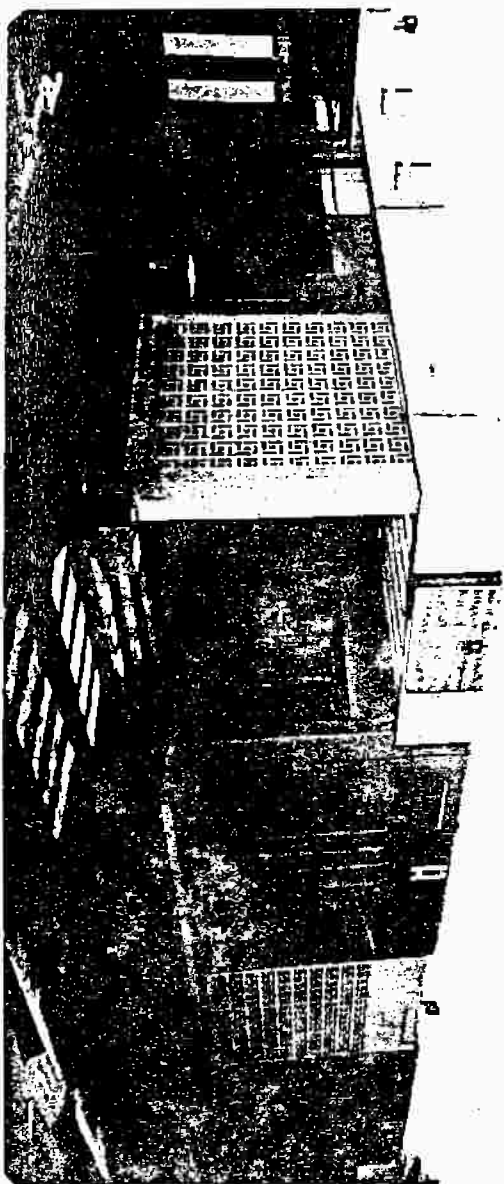
و على ضوء ما سبق يتبين أن دولة الامارات تعيش نهضة تنموية شاملة ،
تناولت البنية الاساسية، و توفير مرافق الخدمات و تطوير الزراعة و الموارد
الاقتصادية المحلية الاخرى للريف .

. . .

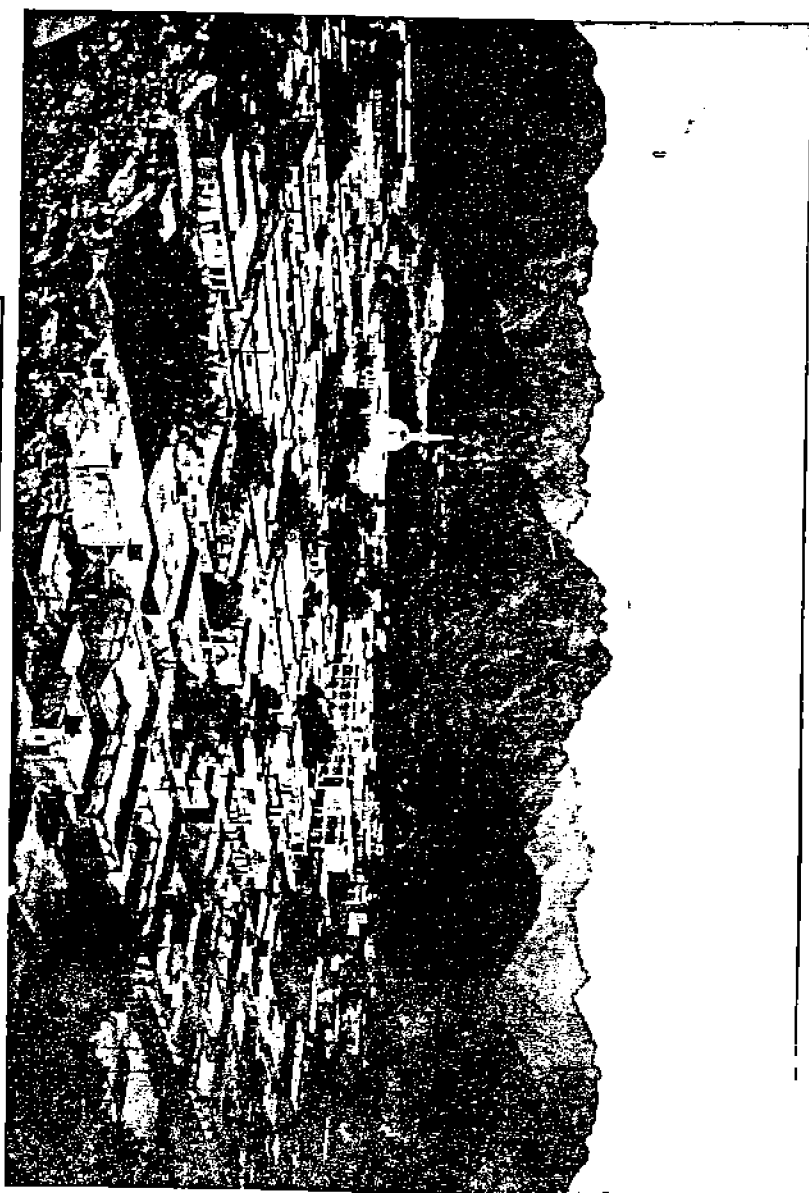
الخرائط و الصور :



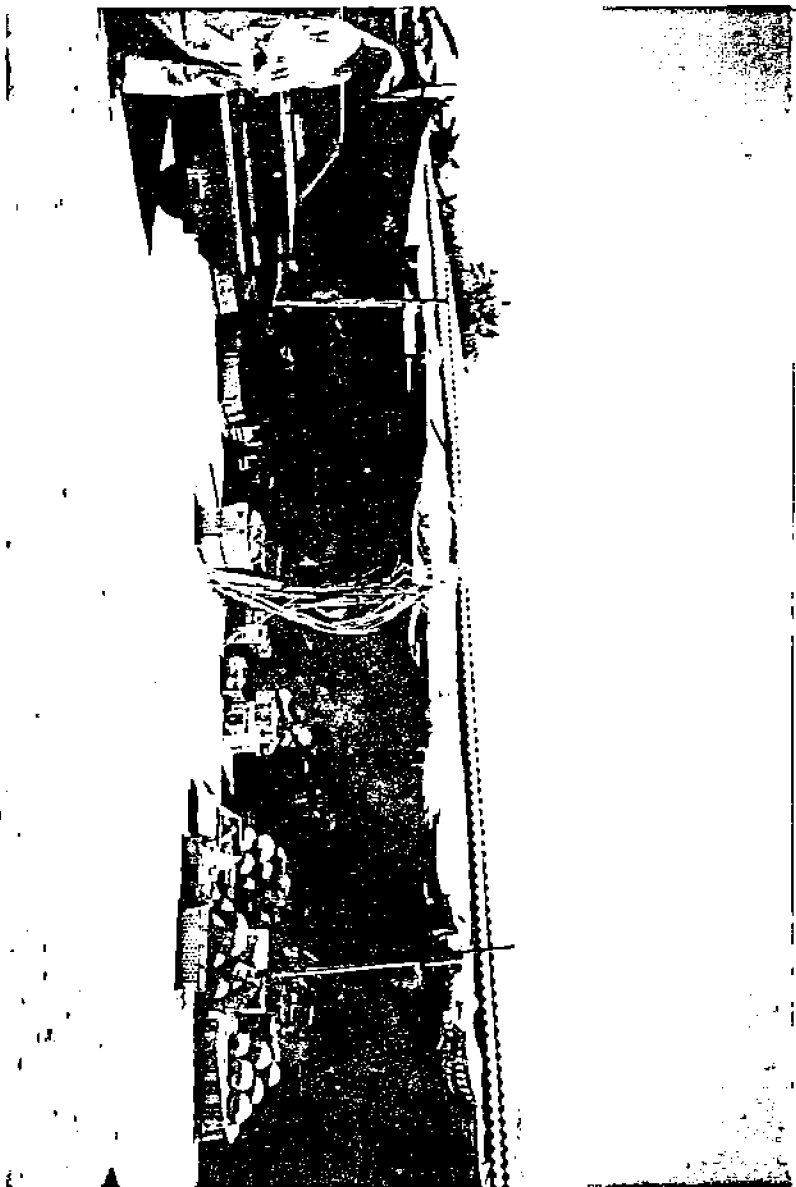
المساكن الشعبية الريفية الحديثة (منطقة حنا)



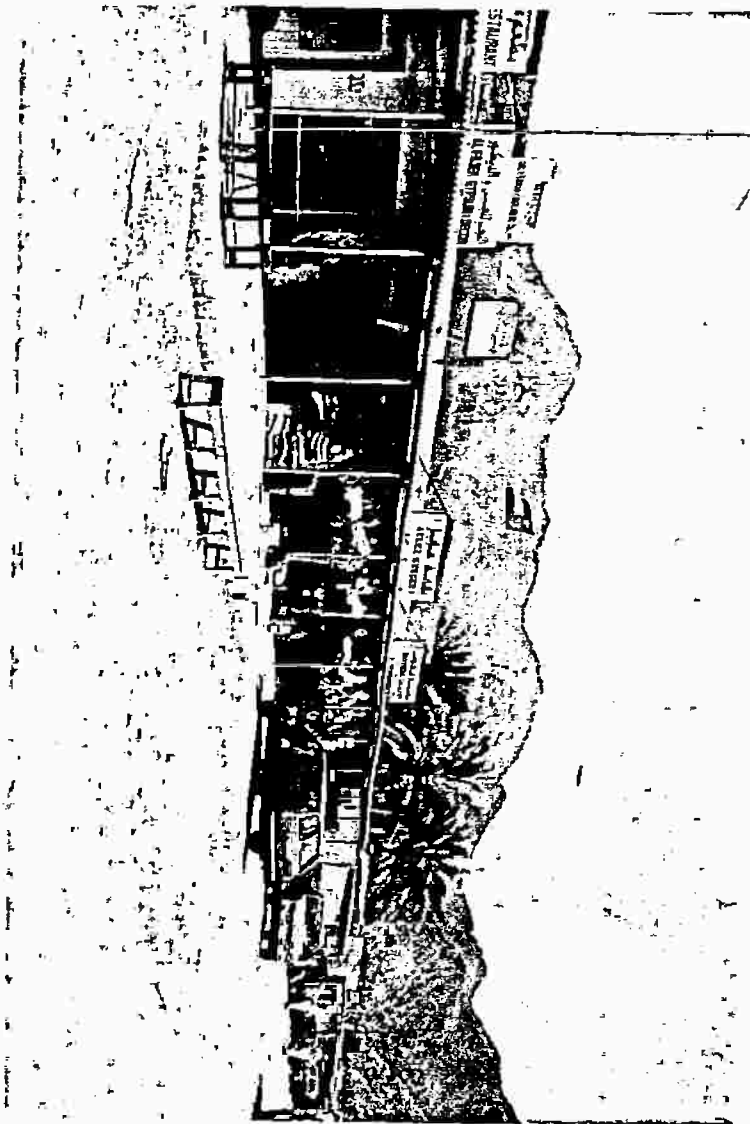
مبنى المركز الصحي الريفي (منطقة الشريب)



تجمع ريفي حديث في راحة جبلية (منطقة دبا)



الاسواق الريفية الدائمة (منطقة الديرية بمنطقة الدمام)



- 13 -



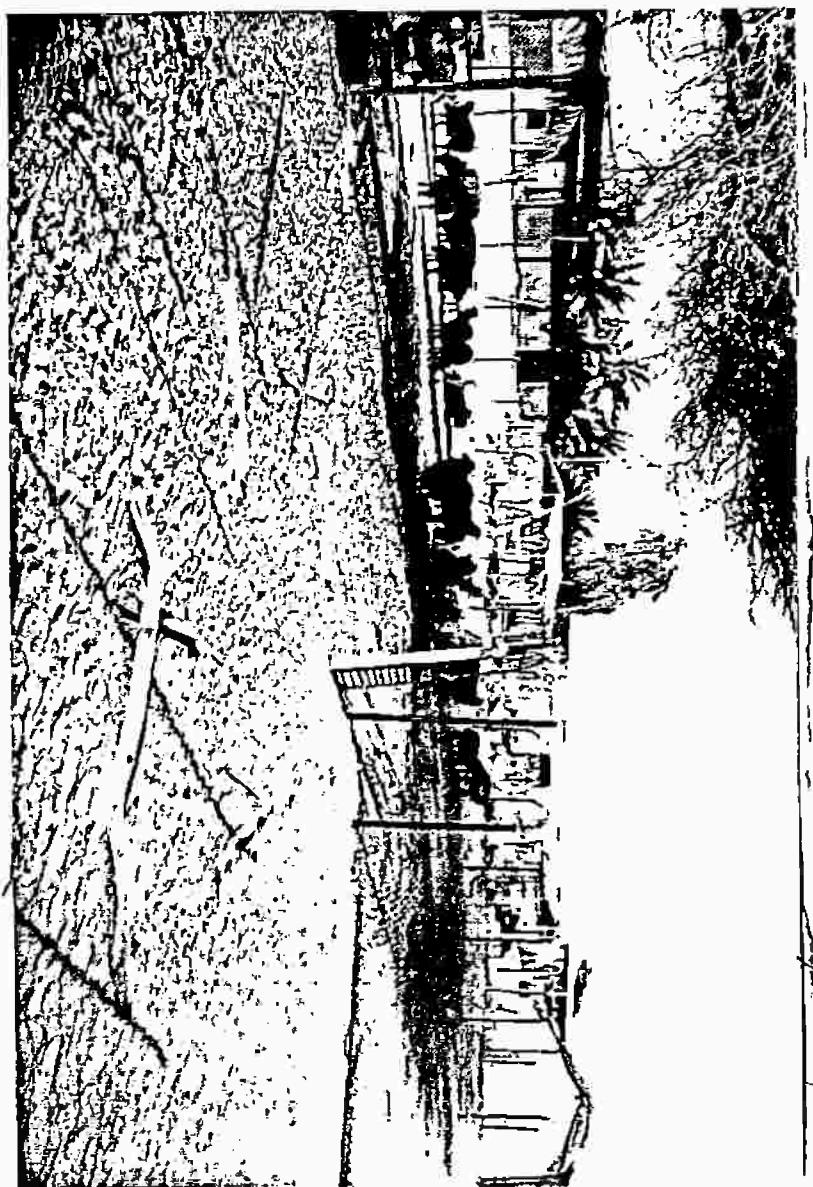
THE WHITE HOUSE



المساكن البحرية القديمة (منطقة خور فكان)



- تجسّات النخيل التي تحيط بالقرى (منطقة كلبا)



خطائر الأفعام الملحقة بالمساكن (منطقة الشريب)

الهوامش و المراجع

(١) عبد المنعم محمد بدر - فى مفهوم التنمية و مؤشراتنا - دراسات فى التنمية الريفية - دار المعارف - القاهرة ١٩٧٩ - ص.ص ٧ - ٢٢.

(٢) تتعدد الكتابات التى تهتم بتعريف التنمية، واختلاف وجهة النظر حوله . ومن تلك الكتابات على سبيل المثال :

SEERS (D.) , the meaning of the development . International development review , Vol. XI . No4 . Dec. 1969 P.P. 2-6

- YIOTOPOULOS (P.A.) & NUGGET (J.B .) . Economics of development . empirical investigations . New York . Harper and Row 1976 . P.P. 3 - 17 .

(٣) من تلك الكتابات :

- حسن عبيد - دراسات فى التنمية الاجتماعية - دار المعرفة الجامعية - الاسكندرية ١٩٨٤ .

- عبد المنعم محمد بدر - دراسات فى التنمية الريفية - المرجع السابق - ١٩٧٩
- فايز الحبيب - التنمية الاقتصادية - الرياض - ١٩٨٥

(٤) تشمل هذه المؤلفات :

- محمد حجازى - جغرافية الأرياف - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٢
- صلاح عيسى - جغرافيا العمران الريفى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٢

- صلاح عيسى - تخطيط و تخطيط المستوطنات البشرية - دراسة جغرافية أصولية و تطبيقية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٣

٥ عبد الحميد عبيد المستوطنات البشرية فى دولة الامارات العربية المتحدة

- مكتبة الفلاح - الكويت - ١٩٨٥ ملحق (١) ص.ص ٤٢٧ - ٤٣٨ .
- ٦ - انسحبت القوات البريطانية من الامارات فى ديسمبر ١٩٧١ لاعتبارات مالية بعد غلق قناة السويس فى حرب ١٩٦٧ - راجع :
- ٥ - عبد الحميد غنيم - دولة الامارات العربية المتحدة - دراسة فى الجغرافيا الاقليمية - الجزء الأول (الجغرافيا الطبيعية) - القراءة للجمع و النشر و التوزيع دى - ١٩٩٠ ص ١٥ .
- ٧ - التعداد العام لسكان دولة الامارات العربية المتحدة ١٩٨٥ - الجزء الثانى - ص ٣٤ .
- ٨ - فوزى الاسدى - دور توطن البدو فى التنمية الاجتماعية لدولة الامارات العربية المتحدة - ندوة التنمية الاجتماعية فى اقطار الخليج العربى - جامعة الامارات العربية المتحدة - ١٩٨٩ ص ١٨٢ .
- ٩ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) ص ٢٥ .
- ١٠ - بكر جميل الناصر - التنمية الاقتصادية فى دولة الامارات العربية المتحدة - دراسات فى مجتمع الامارات - جامعة الامارات العربية المتحدة - العين - ١٩٨٨ - ص.ص ٢٢٧ - ٢٦٥ .
- ١١ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية فى دولة الامارات العربية المتحدة من ١٩٨٠ - ١٩٨٤ - أبو ظبى ١٩٨٣ - ص ٨٣ .
- ١٢ - عبد المنعم المشاط - التنمية السياسية فى دولة الامارات العربية المتحدة - مجلة شئون اجتماعية - العدد ٢١ - السنة ٦ - ربيع ١٩٨٩ - الشارقة ص ١٢٣ - ١٥٢ (ص ١٤٩) .
- ١٣ - المنظمة العربية للتربية و الثقافة - دولة الامارات العربية المتحدة - دراسة مسحية شاملة - القاهرة - ١٩٨٧ ص (د)

١٤ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية والاجتماعية فى دولة الامارات ١٩٧٥ - ١٩٨٥ - أبو ظبى ١٩٨٦ . ص ٢٣٦ (حتى عام ١٩٨٥) . أما عن الاعوام من ١٩٨٦ حتى ١٩٨٩ فمصدر ارقامها وزارة التخطيط أيضاً و لكنها غير منشورة .

١٥ - درهم الامارات يعادل حوالى ٩٠ قرشاً مصرى وقت أعداد هذا البحث .

١٦ - سوف يتضح ذلك من خلال عرض التنمية الزراعية فى إطار البحث .

١٧ - باهر عتلم - تقديم للتنمية الاقتصادية فى دولة الإمارات - مجلة شئون اجتماعية - المصدر السابق (١٩٨٧) - ص.٧ نقلاً عن :

Economic Intelligence Unit (ETU),Country report . United Arab Emirates . London , No.4, 1988 . P.2.

١٨ - المنظمة العربية والثقافة والعلوم - المرجع السابق (١٩٨٧) - ص.٥٤٩ وما بعدها .

١٩ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) - ص ٩٧ .

٢٠ - كانت مشروعات توطین البدو من أهم السياسات العامة التى اتبعتها الدولة بعد استغلال البترول ، خاصة فى إمارة أبى ظبى و يعتمد التوطین على إنشاء مراكز ريفية أقيمت فى المناطق الأصلية للقبائل القريبة منها فى مشروعات توطین متشابهة إلى حد كبير.راجع فى ذلك :

عباس أحمد - توطین البدو فى دولة الإمارات - ندوة الابعاد الاقتصادية و البيئية للتنمية فى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربى - الجزء الأول (الابعاد الإقليمية والبيئية للتنمية) - العين - مارس ١٩٩٠ - ص. ٢٣١ - ٢٧٢

٢١ - عاطف وصفى - الجوانب الاجتماعية لحضر أبو ظبى - وزارة التخطيط - أبو ظبى - ١٩٨١ - ص ٢٠ .

- ٢٢ - فوزى الاسدى - المرجع السابق (١٩٨٩) - ص ١٧١٧ .
- ٢٣ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) - ص ١٠٧ .
- ٢٤ - يظهر العالم النامى و كأنه كتلة ريفية ، حيث أن ٨٠ ٪ من سكان الدول النامية - مع اختلافات كبيرة من قارة إلى قارة و من دولة إلى دولة - يعيشون فى الريف عدا أمريكا اللاتينية و بعض الحالات فى آسيا منها هونج كونج ، و سنغافورة ، و الكويت التى تنخفض فيها نسبة سكان الريف . فى الوقت الذى تتراوح نسبة الريفيين فى الدول المتقدمة من ١٠ - ٣٠ ٪ . و يصل المتوسط العالمى لنسبة سكان الريف إلى جملة السكان ٧٥,٧ ٪ . انظر فى ذلك :
- جارس و دومنجو - جغرافية البلدان النامية - دراسة موضوعية فى جغرافية التنمية - ترجمة محمد عبد الحميد الحمادى و محمد على بهجت الفاضلى - الاسكندرية - ١٩٨٦ - ص ٢٨٢ .
- ٢٥ - أرقام السكان من عام ١٩٨٦ حتى ١٩٨٠ مصدرها : المنظمة العربية للتربية و الثقافة المرجع السابق (١٩٨٧) ص ٢٨ . و أرقام السكان فى سنة ١٩٨٥ مصدرها : وزارة الصحة - التقرير السنوى ١٩٨٧ - ص ٦ .
- ٢٦ - يشمل الجدول السكان ذوى الأعمار ١٥ سنة فأكثر المشتغلين بالزراعة . مصدر الأرقام هو : وزارة التخطيط المجموعة الاحصائية السنوية - أبو ظبى - ١٩٨٧ - ص ٨٢ . و بالنسبة لأرقام ١٩٨٥ ، نشر فقط جملة السكان المواطنين و غير المواطنين دون ذكر للحضر و الريف فأعدت الأرقام الخاصة بذلك وفق نسب الحضر و الريف فى عام ١٩٨٥ .
- ٢٧ - للتوسع فى هذا الموضوع وهو مطروح فى معظم كتب الجغرافية الزراعية و الجغرافية الريفية و كتب السكان المنهجية (الهجرة الريفية الحضرية) ، يمكن الرجوع مثلاً إلى :

CUSSED (J.M.), Urbanisation et activités agricoles . C.N.R.S.
. Economica . Paris . 1975 . P.P. 3 - 64 .

DE FARCY (H.) . L'espace rural - Que Sais Je? . PUF. Paris
1975 . P.P. 54 - 80 .

- فتحى محمد أبو عيانه - جغرافية السكان - دار المعرفة الجامعية -
الاسكندرية - الطبعة الثالثة ١٩٨٩ - ص . ص . ٣٤٣ - ٣٤٤ ، و ص .
ص . ٤٧٩ - ٥٠٠ .

- أحمد أسماعيل-أسس علم السكان و تطبيقاته الجغرافية دار الثقافة للنشر
والتوزيع - القاهرة - الطبعة السادسة ١٩٨٦ . ص . ص . ١٤٩ - ١٥٦ .

٢٨ - رغم هذه الزيادة الهائلة فى أعداد المواطنين الزراعيين بين عامى ١٩٨٠
و ١٩٨٥ ، فإن نسبة هؤلاء إلى جملة القوى العاملة المواطنة لا تزيد عن ٨,٥
٪ . و يعنى ذلك أن الزراعة لا تكون قطاعاً رئيسياً يجتذب المواطنين و
الأموال . غير أن هذه النسبة آخذة فى الزيادة بعد تطور الاهتمام بالزراعة و
الزراعيين . مصدر الأرقام هو : وزارة التخطيط - المجموعة الإحصائية السنوية
- المرجع السابق (١٩٨٧) ص . ٨٢ .

٢٩ - المنظمة العربية للتربية و الثقافة - المرجع السابق (١٩٧٨) ص . ٢٨ .
بالنسبة لبيانات عام ١٩٦٠ : وزارة التخطيط - التعداد العام للسكان -
المرجع السابق (١٩٧٥) ، و وزارة التخطيط التعداد العام للسكان - المرجع
السابق - (١٩٨٥) .

٣٠ - عبد الحميد غنيم - المرجع السابق (١٩٨٥) - ملحق (١) : بيان
مستوطنات دولة الامارات العربية المتحدة - ص . ص . ٤٢٧ - ٤٣٨ ، و
ص . ص . ٢٣١ - ٢٣٢ .

٣١ - الحنفى محمد موسى البطينى - بعض مشاكل التنمية الاقتصادية الزراعية فى
إمارة أبوظبي - ندوة الأبعاد الاقتصادية و البيئية للتنمية فى دول مجلس
التعاون لدول الخليج العربى - المرجع السابق (١٩٩٠) ص . ص . ٥ - ٤٧ .

٣٢ - الدونم هو مقياس للمساحة (الزراعية عادة) يستخدم فى بعض الدول العربية منها الامارات العربية المتحدة و الاردن و العراق . كما يستخدم فى تركيا و قبرص . غير أن الدونم فى الدول العربية يساوى ٢٩٩٠ ياردة مربعة وهو ما يساوى ٢٥٠٠ من الهكتار (الهكتار يعادل ١٠٠٠٠ متر مربع) و هو أكبر من نظيره فى تركيا (١٠٩٩٠٥ ياردة مربعة) و فى قبرص (١٦٠٠ ياردة مربعة) .

٣٣ - أرقام ١٩٦٧ مصدرها : المنظمة العربية للتربية و الثقافة المرجع السابق (١٩٧٨) ص ٣٢٦ . أرقام السنوات من ١٩٧٣ إلى ١٩٨١ مصدرها النشرة السنوية لقطاع الزراعة و الثروة السمكية ١٩٨١ - جدول رقم (٨) . الزيادة من حساب الباحث .

٣٤ - لطفى البطينى - المرجع السابق - (١٩٩٠) ص ١٥ .

٣٥ - وزارة الزراعة - النشرة الاحصائية السنوية لقطاع الزراعة و الثروة السمكية - أبو ظبي ١٩٨٧ . ص ٤٨ .

٣٦ - لا يشمل الجدول مناطق الزراعات التى كانت موجودة قبل عمليات استزراع الأراضى . و يفسر ذلك اختلاف جملة مساحة الأراضى الزراعية فى الدولة عام ١٩٨٣ فى الجدولين (٦٠٥) . و تشمل المناطق الزراعية القديمة ٤٦٦٣ دونماً ، أى أن مجموع المساحة الزراعية فى الدولة فى عام ١٩٧٣ هو ١٢٧١٠٠ دونماً . مصدر الأرقام : وزارة الزراعة - المرجع السابق - (١٩٨٧) ص ٤٥ .

٣٧ - بيانات عام ١٩٧٥ مصدرها وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية - المرجع السابق (١٩٨٥) ص ٢٩٩ . بيانات عام ١٩٨٠ مصدرها : وزارة الزراعة - النشرة الاحصائية السنوية لقطاع الزراعة - المرجع السابق - (١٩٨١) . ص ٧ . بيانات عام ١٩٨٥ مصدرها : وزارة الزراعة

- النشرة الاحصائية السنوية - ١٩٨٤ / ١٩٨٥ - ص ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٨ .

٣٨ - تشمل المحاصيل القمح و التبنغ و البرسيم و غيرها من الاعلاف الخضراء .

٣٩ - زاد عدد الابل من ٦١٩٠٩ رأس عام ١٩٨٥ الى ٧٨٨٨٨ رأس عام ١٩٨٩ فى إمارة أبو ظبى بنسبة زيادة تصل إلى ١٢٧ ٪ . كما زاد عدد الأغنام من ٢٦٩٥٠٦ رأس عام ١٩٨٥ إلى ٤٣٤١٥٣ رأس عام ١٩٨٨ بنسبة زيادة تصل إلى ١٦١ ٪ لنفس الفترة - لطفى البطينى - المرجع السابق (١٩٩٠) ص ١٨ .

٤٠ - وزارة الزراعة - النشرة الحصائية السنوية لقطاع الزراعة ١٩٨٤ / ١٩٨٥ . ص . ص ٣٢ - ٤٥ . النسب المثوية من حساب الباحث .

٤١ - تشمل هذه الأرقام الأرض المزروعة بالخضروات ، و الأشجار المثمرة ، و المحاصيل و لا تشمل مناطق الغابات . المصدر : نشرة احصائية الزراعة (١٩٨١) جداول (٢ ، ٨ ، ٩) و صفحات (٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

٤٢ - التعداد العام للسكان - ١٩٨٠ ص ٤١ .

٤٣ - نفس المصدر السابق .

٤٤ - المنظمة العربية للتربية و الثقافة - المرجع السابق - (١٩٧٨) ص . ص ٦ - ص .

٤٥ - نفس المصدر السابق - ص ٣٧١ .

٤٦ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية و الاجتماعية - ١٩٨٧ - ص . ص ٢٩٩ .

٤٧ - التعداد العام للسكان ١٩٧٥ - الجزء الثانى - ص ٤٥ .

التعداد العام للسكان ١٩٨٠ - الجزء الثانى ص ٦٣ .

النسب المثوية من حساب الباحث و أهملت النسبة التى تقل عن ١ ٪ .

- ٤٨ - وزارة الصحة - الكتاب الاحصائي السنوى (١٩٨١ ، ١٩٨٧) ص . ٣٦ ، و ص . ٥٩ .
- ٤٩ - نفس المصدر السابق . يصل المعدل فى ريف معظم البلدان النامية إلى نحو ٢٠٠٠ فرد لكل طبيب . جازيس و دومنجو - المرجع السابق (١٩٨٦) .
- ٥٠ - وزارة التخطيط - التطورات الاقتصادية والاجتماعية - ١٩٧٥ ، و ١٩٨٥ ، و ١٩٨٧ - ص . ٣٠٤ .
- ٥١ - وزارة التخطيط - المجموعة الاحصائية السنوية - ١٩٨٧ - ص . ١٧٢ ، و ص . ١٨٩ .
- ٥٢ - وزارة التخطيط - المرجع السابق (١٩٨٧) ص ١٧٣ ، و ص ١٨٩ . و التعداد العام للسكان ١٩٨٠ - الجزء الثانى ص . ٤١ .
- ٥٣ - نفس المصدر السابق - ص . ١٧١ .

محمد على بهجت الفاضلى

١٩٩٣

معدلات العدوانية
لدى المراهقين والشباب الكويتيين

الدكتور / عويد سلطان المشعان
قسم علم النفس - كلية الآداب
جامعة الكويت

1

2

THE
FEDERAL
BUREAU OF
INVESTIGATION
OF THE
DEPARTMENT OF JUSTICE

REPORT OF THE
FEDERAL BUREAU OF
INVESTIGATION
ON THE
ACTS OF
TERRORISM

3

4

معدلات العدوانية

لدى المراهقين والشباب الكويتيين

مقدمة

يعتبر العدوان العراقي على الكويت من أكبر الأزمات والكوارث التي مرت بها البلاد ، وقد تعرض الشعب الكويتي لأبشع صور الظلم والقهر والتدمير والتعذيب النفسي والجسمي الذي نجم عنه اضطراب واختلال في الوظائف الاجتماعية والبناء السيكولوجي لبعض من افراد الشعب الكويتي وبخاصة المراهقين والشباب الذين استهدفهم العدو منذ دخول البلاد . ويؤكد علماء النفس أن الخبرات المؤلمة لا تنسى بسرعة ، وأن الحروب والاحتلال يخلقان موقفا صدميا بالنسبة للبناء النفسى للفرد ، وتصل الاضطرابات المصاحبة لهذا الموقف الصدمي إلى أقصاها وتطول فترة إذا كان المسبب لها الإنسان . ومن أبرز النتائج السلوكية لهذا الغزو ، العدوان والميل إلى العنف وزيادة التدخين وكثرة التوتر وسرعة الاستثارة (انظر : الديب ١٩٩١ ، الصراف ١٩٩٢ ، الفقى ١٩٩٣ ، المقصود ١٩٩١ ، المشعان ١٩٩٣ ، عبد الخالق والمشعان ١٩٩٤ ، سهل ١٩٩١ ، ادارة الخدمة الاجتماعية ١٩٩١) . وأكدت الدراسات التي أجريت على مجتمعات أخرى أن الصدمات العنيفة والأزمات والخبرات المؤلمة تؤدي إلى ارتفاع الاضطرابات السلوكية (انظر : Helezer, 1987

Davidson et al, 1985; Chimient, 1989; Fogast, et al (1992) Lewin, 1982, Jerome, 1983,

ولاشك أنه بتأثير هذا العدوان الآثم نجمت آثار سلبية عديدة كالقلق والاكْتئاب والسلوك العدواني واضطرابات الشخصية وزيادة معدلات حوادث العنف ، وما يهمننا فى هذه الدراسة هو العدوانية لدى المراهقين والشباب .

والعدوان قديم قدم الانسان على هذه الأرض ، وذكر فى القرآن الكريم فى سورة البقرة سؤال الملائكة لله سبحانه وتعالى على سبيل التعجب والاستعلام ، كيف تستخلف ذرية آدم عليه السلام فى الأرض ، وفيهم من يفسد ويريق الدماء بالقتل والعدوان (مرسى ١٩٨٥) قال تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) (سورة البقرة آية ٣٠) .

(ويقسم العدوان إلى ثلاث فئات هى :)

١ - عدوان مضاد للمجتمع *Anti - social Aggression*

ويشمل الأفعال المؤذية التى يظلم بها الإنسان نفسه أو يظلم بها غيره ، وتؤدى إلى فساد المجتمع . وهذا النوع من العدوان محرم شرعا وقانونا . قال تعالى عمن يقتل النفس التى حرم الله قتلها أو يزنى : " ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا " (سورة الفرقان آيتان ٦٨ - ٦٩) .

٢ - عدوان إلزام : *Pro social Aggression*

ويشمل الأفعال المؤذية التى يجب على كل شخص القيام بها ، لرد الظلم والدفاع عن وطنه . فقال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (سورة البقرة آية ٢١٦)

ويشمل الأفعال المؤذية التي يحق للإنسان عملها قصاصا ممن اعتدى عليه . وهذا النوع من العدوان لا يائثم فاعله ويثاب تاركه ، فالإسلام قد أباح رد العدوان بالعدوان لكنه حث على الصفح والعفو (مرسى ١٩٨٥) . قال تعالى " وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين " (سورة الشورى آية ٤٠)

متغيرات البحث

مفهوم العدوان :

أصبحت ظاهرة العدوان من الظواهر اللافتة للنظر والتي تنذر بالخطر سواء على المستوى العالمى أو المحلى ، ولقد ثبت من دراسات عديدة أن الإنسان هو الذى يدمر أفراد جنسه تدميرا بل تمتلكه النشوة والتلذذ أحيانا حين يفنيهم أو يؤذيهم أو يلحق بهم ضررا جسيما ونفسيا ، بل تبدو الحقيقة المؤلمة أن الإنسان أقسى الحيوانات التى عاشت على ظهر الأرض وأشدّها ضراوة وعنفا حين يعتدى الفرد على الفرد ، فهو لا يشبع إلا إذا أهلك عدوه ومثل به أشد تمثيل ودمره تدميرا بشعا ، ولنا فى العدوان العراقى مثال يبين مدى صدق هذا القول .

ويعرف باص (Buss. 1961) العدوان بأنه أى سلوك يصدره الفرد لفظيا أو بدنيا أو ماديا ، صريحا أو ضمنيا ، مباشرا أو غير مباشر ، ناشطا أو سلبيا ويترتب على هذا السلوك إلحاق الأذى البدنى أو المادى أو النفسى بالشخص نفسه صاحب السلوك أو الآخرين ، ويتفق مع هذا التعريف كل

من : (كوثر ١٩٩٢ ، 1973 Bandura, Baron et al. 1974) ويعرف Benton, 1984 السلوك العدوانى بأنه استخدام القوة والعنف فى العلاقات بين الأفراد دون تبرير لهذه القوة ، أو استعمالها بسبب ضرورة دفاعية . ويعرف Reber, 1985 العدوان بأنه أفعال متعددة الاتساع تشمل الهجوم والعداء ، ويستخدم بدافع من الخوف أو الاحباط أو الرغبة فى صب هذا الخوف أو القتال على الآخرين أو بدافع لتحقيق اهتمامات الفرد وأهدافه ويلوغ مطالبه الاجتماعية ، ومع تعدد أشكال العدوان ودوافعه فلا بد من معرفة أسبابه الذاتية والاجتماعية والموقفية ، حتى يمكن التنبؤ به والتحكم فيه بالوقاية والعلاج ، فيقل العدوان ، ويزداد التعاون بين الناس .

أسباب العدوان :-

لا يعتدى الإنسان على نفسه أو على غيره ظلما وعدوانا بالصدفة أو بطريقة عشوائية بل يعتدى لأسباب كثيرة بعضها ذاتى يرجع إلى تكوين الإنسان الجسمى والنفسى ، وبعضها اجتماعى يرجع إلى ظروف نشأته وتربيته فى الأسرة ومع الأقران ، وبعضها الآخر موقفى يرجع إلى ظروف الموقف الذى يرتكب فيه العدوان . ومن أسباب العدوان شعور الفرد بعدم الأمان وعدم الثقة ، والشعور بالنبذ والحرمان من الحب والتقدير ، والتجاهل ، واستمرار الاحباط لمدة طويلة . وعدم تحقيق الاشباع للحاجات العضوية يؤدي إلى ازدياد درجة العدوانية لدى الأفراد (الشربيني ١٩٩٤) .

ويدرك العلماء اليوم أن كثيرا من جوانب الاضطراب السلوكى كالعدوان يكتسبها الفرد بتأثير من الآخرين وملاحظته لهم والتفاعل معهم بمعنى

الاقتداء وملاحظة النماذج وهذا ما أكدته تجارب العالمين (باندورا ، روس Bandura & Ross, 1979 من أن الأفراد تعلموا ببسر أن يعبروا عن احباطهم بالعدوان ، بسبب ما شاهدوه من نماذج عدوانية . ومع تعدد الأسباب التى تؤدى إلى السلوك العدوانى ، تعددت النظريات التى تفسر هذا السلوك من كافة جوانبه الفطرية والبيئية والنفسية والاجتماعية ، وأهم هذه النظريات ما يلى : (نظرية العدوان الفطرى ، والنظرية البيولوجية ، ونظرية تعلم العدوان ، والنظرية المعرفية) . ونعرض لبعضها بشيء من التفصيل فيما يلى :-

أولا : نظرية العدوان الفطري :-

يرى أصحاب هذه النظرية أن العدوان سلوك فطرى ويتضح هذه النظرية فى النماذج التالية : نظرية المجرم بالولادة ، نظرية غريزة العدوان ، النظرية البيولوجية .

أ - نظرية المجرم بالولادة :-

قام لمبروزو Lombroso بدراساته على عدد من المجرمين ، مما أدى إلى وضع نظريته التى افترض فيها أن المجرم وحش بدائى يحتفظ عن طريق الوراثة بخصائص جسمية ونفسية جعلته يبقى على حالته البدائية ، فلا يستوعب قوانين ونظم مجتمعه ، وينساق وراء نزعاته البهيمية الشرسة ، غير مبال بما يصيب الضحية من آلام . فهو كالحوانات لم تهذب نزعاته الحيوانية ، ولم ينم ضميره ولا وجدانه ، فلا يشعر بذنب ، ولا يحس بعطف نحو غيره (عامر ١٩٨٠) . ولكن سرعان ما تخلى معظم العلماء عن هذه

النظرية بعدما تبين عدم دقتها ، وكشفت الدراسات العلمية المضبوطة تجريبيا عدم صحة فروض لمبروزو وعدم دقة نتائج دراساته .

وقد كشفت الدراسات التالية أن المجرمين لا يختلفون عن غيرهم فى النواحي الجسمية والنفسية ، ولا يوجد دليل على أنهم ولدوا بخصائص عضوية تدفعهم إلى الجريمة كما زعم لمبروزو (مرسى ١٩٨٥) .

ب - نظرية غريزة العدوان :-

قدم هذه النظرية كل من أدلر 1908 ، فرويد 1920 ، *Freud* ، لورنز 1963 ، *Lorens* ، بنر 1982 ، *Binner* ، جيمس 1979 ، *James* ، مكوجال 1908 ، *Mc Dougal* ، برنارد 1924 ، *Bernard* ، إريك فروم 1975 ، *Erich Fromm* ، لورانس 1975 ، *Lorance* . وتتنظر هذه النظرية إلى العدوان باعتباره غريزة فطرية ، وأن الإنسان بطبيعته عدوانى . وأهم نظريات الغرائز نظرية التحليل النفسى ، إذ يرى فرويد أن الحياة كفاح بين غريزة الحياة ودوافعها الحب والجنس والتي تعمل من أجل الحفاظ على الفرد ، وبين غريزة الموت ودوافعها العدوان والتدمير والانتحار ، وهى غريزة تحارب دائما من أجل تدمير الإنسان وتقوم بتوجيه العدوان المباشر خارجيا نحو الآخرين ، وإذا لم ينفذ العدوان نحو موضوع خارجى فسوف يرد إلى الكائن نفسه ويصبح تدميراً للذات (كوثر ١٩٩٢) ، فالعدوان سلوك غريزى هدفه تصريف الطاقة العدائية - *Aggression Energy* التى تنشأ داخل الإنسان عن غريزة العدوان ، وتلج فى طلب الإشباع كإلحاح الطاقة الجنسية الناتجة عن غريزة الجنس ، ولكن بعد إجراء عديد من الدراسات التجريبية والميدانية تبين عدم دقة تفسير السلوك العدوانى بالغريزة ، ورفض فى كثير من المحافل العلمية ، خاصة بعد أن تخلى علم

النفس عن مفهوم الغريزة واعتبره مفهوما غير علمي (علام ١٩٨٢) ومن أهم ما نقد غريزة العدوان مراجعة (Gorer 1968) للدراسات الانثروبولوجية حيث وجد أن قبائل الأرابش *Arapesh* في غينيا الجديدة ، وقبائل ليبشاس *Lep-chas* في جبال الهملايا وقبائل البيجميس *Pygmies* في الكونغو تنمى المسالمة والوداعة عند أفرادها ، وتغرس فيهم حب التعاون ، وتعطى قيمة كبيرة لمساعدة الشخص لجاره ، وتعتبرها سلوكا ضروريا بالنسبة لمقدم المساعدة ومتلقيها على حد سواء (مرسى ١٩٨٥) .

ج - النظرية البيولوجية :-

تركز هذه النظرية على بعض العوامل البيولوجية في الكائن الحي التي تحث على العدوان كالصبغيات والجينات الجنسية والهرمونات والجهازين العصبى المركزى والارادى والغدد الصماء والتأثيرات الكيميائية الحيوية والأنشطة الكهربائية في المخ (Eron 1977) ، كما تشكل القوة العضلية عاملا بيولوجيا آخرأ فى تأثيرها على العدوان (Mussen 1982) . ويصرف النظر على غريزة العدوان فإن علماء النفس يفترضون وجود عدة أجهزة عصبية فى المخ تتحكم فى أنواع معينة من العدوان . ويمكن تنشيط هذه الأجهزة علميا عن طريق التنبيه الكهربى أو الكيميائى أو نتيجة لورم فى المخ أو تمزق فى نسيج المخ . وأسفرت بعض التجارب عن أن حقن الفئران بالهرمون الجنسى الذكرى الاساسى وهو التستوستيرون يجعلها تتفاعل باصرار واذا انخفض مستوى هذا الهرمون تصبح الحيوانات أكثر هدوءاً . ومن ناحية أخرى ظهر أن جرائم النساء تزيد فى فترة ما قبل الحيض مباشرة ، عندما يضطرب إفراز الهرمونات الجنسية الأنثوية لديهن حيث تشعر كثير من النساء بالتوتر والقلق والميول العدوانية (عبد الخالق ١٩٩٢) .

ثانيا : نظرية تعلم العدوان : -

وتتضح هذه النظرية في النماذج الفرعية التالية :-

- أ - نظرية الاحباط والعدوان ، ب - نظرية تعلم العدوان بالاشراط ،
- ج - تعلم العدوان بالملاحظة .

أ - نظرية الاحباط والعدوان Frustration - Aggression Theory

وهي من وضع كل من دولارد وميلر عام ١٩٣٩ فقد بحثا هذا الموضوع لمدة عشرين عاما ، وافترضوا أن الاحباط يسبب العدوان ، واعتبرا العدوان استجابة فطرية للاحباط *Innate Reaction to Frustration* وتزداد شدته وتقوى حدته كلما زاد الاحباط وتكرر حدوثه . وقد اعتبر العدوان استجابة للاحباط في كثير من المعاجم والموسوعات والدراسات العربية والأجنبية (انظر : الحفنى ١٩٧٨ والكامل ، وسليمان ١٩٩١ ، والطيب ١٩٨٢ ، عبد الغفار ١٩٧٧ ، كوثر ١٩٩٢ ، حافظ وقاسم ١٩٩٣ ، عاقل ١٩٨٤ ، عبود ١٩٩١ ، عويس ١٩٦٨ ، ومليكيان والدريني ١٩٨٤ ، *Eysenck. 1975; Argyel 1982*) ولكن ديفيتي *Devity* أشار إلى أن العدوان استجابة محتملة للاحباط ، ولكنه ليس نتيجة ضرورية وحتمية (*Kauffman. 1985*) ولم تكن تفسيرات دولارد وزملائه مقنعة لكثير من الباحثين الذين رفضوا العلاقة السببية بين الإحباط والعدوان لأن العدوان سلوك معقد لا يكفى تفسيره بالاحباط ، وقد يعتدى الانسان دون احباط وقد يحبط ولا يعتدى (مرسى ١٩٨٥) وفى ضوء ما سبق يتبين أن البيئة المحيطة بالفرد تلعب دورا واضحا فى توجيه مسار السلوك العدوانى الذى يستجيب به لموقف الإحباط ، ويبدو أن هذا الدور يختلف من دراسة لأخرى ، وحسب التأثير المباشر لأشخاص موجودين بالفعل (كأقران الطفل

- الوالدين - المعلمين) .

ب - نظرية تعلم العدوان بالاشراط :-

افترض سيكنر Skinner في نظريته للإشراط الاجرائى أن الإنسان يتعلم سلوكه نتيجة الثواب والعقاب ، فالسلوك الذى يثاب عليه يميل إلى تكراره ، والسلوك الذى يعاقب عليه يقلع عنه (علام ١٩٨٢) وينطبق هذا التفسير على سلوك العدوان ، فالإنسان يتورط فى العدوان لأول مرة بالصدفة إذا عوقب عليه كف عنه ، وإذا كوفىء عليه كان أميل إلى تكراره فى المواقف المماثلة . وقد استطاع سيكنر تجريبيا تعليم الحمام القتال بالإثابة ، ووجد (ولترز ، برون Walters - Brown) أن مكافأة الطفل على عدوانه ينمى العدوانية عنده حتى ولو كانت مكافأة غير منتظمة ، فيكفى تدعيم العدوان مرة واحدة ليرسخ ويصعب تعديله بعد ذلك (مرسى ١٩٨٥) واستنتج بعض الباحثين على ضوء تفسير سيكنر أن معاملة الآباء لأبنائهم فى مواقف العدوان هى المسؤولة عن تعليمهم العدوان ، فالآباء الذين يشجعون أبنائهم فى مواقف العدوان صراحة أو ضمنا ، يقدمون لهم المكافأة التى تدعم سلوكهم العدوانى وتنميه ، وتجعلهم يكررونه فى مواقف كثيرة ، وانتشار العدوان فى بعض المجتمعات يبين مدى صدق القول بأن معظم السلوك العدوانى متعلم ، ومن ناحية أخرى ينشأ العدوان بتأثير عديد من العوامل ، فقد ظهر أن للثقافة والأسرة دورا فى تحديد مستويات العدوان ، فمثلا يقر الأمريكيون بمشروعية الحرب ، ولديهم أكبر نسبة فى العالم تمتلك المسدسات ويضرب الزوجان بعضهما بعضا بكل حرية وبدون تردد ، ويلجأ رجال البوليس إلى استخدام العنف ، وعلى النقيض من ذلك يعيش ١٢٠٠ فى وسط الملايو بدون بوليس ، والجريمة غير معروفة لديهم . وكشفت بحوث أخرى عن

علاقة بين الكثافة السكانية الزائدة وكل من العدوان ومظاهر القلق واعتلال الصحة (عبد الخالق ١٩٩٢) .

ج - نظرية تعلم العدوان بالملاحظة *Observation Learning*

وضع نظرية التعلم بالملاحظة العالم النفسى باندورا *Bandura* ، وهو يرى أن الجانب الأكبر من السلوك العدوانى متعلم ، ويكون ذلك بتأثير من الآخرين عن طريق الملاحظة أو الاقتداء أو المحاكاة . وهناك ثلاثة مصادر يتعلم منها الفرد بالملاحظة وهى التأثير الاسرى ، تأثير الأقران ، ثم تأثير النماذج الرمزية كالتليفزيون ، وأكدت معظم الدراسات أن مشاهدة أفلام العنف تزيد من السلوك العدوانى ، انظر : بيومي ومنسى ١٩٨٨ *Eron 1973, Friedrich et al 1973, Stein et al 1973, Steur 1979 & Bandura 1977* كما جاء فى دراسة *Goldberg et al 1976, Martin 1976* أن الأطفال العدوانيين غالبا ما يكون أقرانهم أكثر عدوانية من الأطفال غير العدوانيين ، لأن الأقران غالبا ما يكونون بمثابة نماذج سلوكية لأقرانهم (حافظ وقاسم ١٩٩٣) ، وهذه من الأدلة على أثر العوامل البيئية فى العدوان .

ثالثاً : النظرية المعرفية : *Cognitive Theory*

تهتم هذه النظرية بدراسة الخبرة الذاتية من حيث إدراك الفرد لنفسه والأحداث التى تقع له ، وتركز هذه النظرية فى دراستها للسلوك العدوانى على السياق النفسى والاجتماعى للشخص العدوانى والظروف والمتغيرات التى أدت إلى استخدام العنف والعدوان للتعبير عن ذاته وتحقيقها بالتصدي لهذه

الاعاقات التى تحول دون تحقيق ذاته . ومن أهم الاعاقات التى تمثل دافعا للسلوك العدوانى شعور الفرد بالفوارق الطبقيّة بالغة الحدة التى تحول دون تحقيق ذاته (عبد العال ١٩٨٨) .

وجهة نظر

بعد عرض مختلف النظريات التى تهدف إلى تفسير السلوك العدوانى يمكننا أن نقسمها إلى نظريات بيولوجية وبيئية ونفسية ، ولكل منها حججه وبراهينه ، ولكن الرأى الأرجح فى ظاهرة مركب كالعدوان هو التكامل بين هذه العوامل الثلاثة ، ففى بعض أنواع السلوك العدوانى يكون الأصوب تفسيره على ضوء فرض (الاحباط - العدوان) ، فى حين تقوم عوامل المحاكاة والتعلم بالملاحظة والاقتداء بدور غلاب فى حالات أخرى ، كما يجب ألا ننكر أن اضطراب بعض وظائف المخ قد يكون هو العامل الفعال فى حالات ثالثة . موجز القول أن التفاعل والتكامل بين هذه العوامل هو الاقرب إلى الصواب ، ويعكس ذلك مدى التعقيد فى ظاهرة العدوان .

الدراسات السابقة المرتبطة بآثار العدوان العراقى :-

بمراجعة الدراسات السابقة يتضح أن الصدمات العنيفة والضغط النفسى الشديدة والخبرات المؤلمة التى يمر بها المراهقون والشباب يمكن أن تؤدى إلى زيادة معدلات الاضطرابات السلوكية ، وهذا ما كشفت عنه معظم الدراسات السابقة التى أجريت فى الكويت بعد العدوان العراقى ، ونورد بعضها كما يلى :-

دراسة أميرة الديب (١٩٩١) عن حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية - الاجتماعية للطلبة الكويتيين على عينة مكونة من (١٢٠) كويتيا بواقع (٦٠) طالبا من الصامدين و (٦٠) طالبا وطالبة ممن كانوا خارج الكويت ، وأسفرت النتائج أن المجموعة التي ظلت داخل الكويت ، عانت من أعراض التشاؤم والنظرة السوداوية إزاء المستقبل مقارنة بالمجموعة التي كانت خارج الكويت . وأن الذكور أكثر تشددا في العداوة والبغض نحو العراق من الاناث . وأن المجموعة الصامدة في الكويت أكثر اضطرابا نفسيا واجتماعيا من المجموعة الموجودة خارج الكويت . وأن الاناث أكثر اضطرابا نفسيا واجتماعيا من المذكور .

دراسة ادارة الخدمة الاجتماعية والتي أجريت على قطاع كبير من المدارس بالكويت لفحص الآثار النفسية والاجتماعية التي نجمت عن العدوان العراقي . وأسفرت نتائج الدراسة عما يلي :-

١ - زيادة حالات الاضطراب النفسي والخوف من المجهول لدى ٨٣٪ من أفراد العينة .

٢ - ازدياد مظاهر السلوك العدواني بين الطلاب لدى ٥٤٦٪ من أفراد العينة .

٣ - اهتزاز بعض القيم والثوابت الاجتماعية لدى ٤٢١٪ من أفراد العينة .

٤ - المعاناة النفسية الاجتماعية لأبناء الأسرى والمفقودين لدى ٢٤٢٪ من أفراد العينة .

دراسة قاسم الصراف (١٩٩٢) عن تأثير أزمة الاحتلال العراقي على الجوانب السلوكية والانفعالية والمعرفية للشباب الجامعي في الكويت ، وتكونت

عينة الدراسة من (١١٢٢) طالبا وطالبة من جامعة الكويت ممثلين لجميع الكليات الجامعية ، وأسفرت النتائج عما يلي :-

- وجود مشكلات سلوكية كالاستفزاز والثورة على الأوضاع ، النزعة العدوانية والعنف فى التصرفات وعدم الالتزام بالقوانين ، التهور فى قيادة السيارة ، والاكتثار من التدخين ، والمعاناة من اضطرابات النوم والجوء إلى تناول المهدئات .

- وجود مشكلات انفعالية كالأحاساس بأن العالم ملىء بالأخطار ، زيادة الشك فى الآخرين ، والشعور بالغضب الشديد ، الشعور بالاحباط ، الشعور بالملل والضجر والاستفراق فى أحلام اليقظة ، والشعور بالحنن .

- وجود مشكلات معرفية كضعف الذاكرة ، وضعف الانتباه والتركيز وضعف استيعاب المعلومات ، وفقدان القدرة على التفكير المنظم .

دراسة عويد المشعان (١٩٩٣) عن الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقى ، حيث درست الفروق بين الصامدين والنازحين وبين الجنسين ، وتكونت العينة من (٤٠٠) طالب وطالبة ممثلة لجميع كليات الجامعة ، وأظهرت النتائج ما يلي :-

١ - لا توجد فروق ذات دلالة احصائية بين الصامدين والنازحين فى كل من الانبساط ، والعصابية ، والاكتئاب ، والعدوانية .

٢ - توجد فروق ذات دلالة احصائية بين الذكور والاناث ، فالذكور أكثر انبساطا وأكثر استعدادا للاضطرابات الذهانية بينما الاناث أكثر استعدادا للاضطرابات العصابية والاكتئابية ، ولكن لم تظهر فروق بين الجنسين فى العدوانية .

دراسة راشد سهل (١٩٩١) على عينة من الأطفال الكويتيين (ن = ٤٢٨) من البنين والبنات ، وقد أظهرت النتائج : زيادة بعض المشكلات النفسية بعد الغزو عما كانت عليه قبل الغزو ، ومن أهمها حسب تقدير أولياء الأمور ما يلي :-

١ - اضطرابات النوم : كالفرع أثناء النوم والحركة والاستيقاظ المتكرر والأحلام المزعجة ، حيث كانت نسبتها قبل الغزو ٢٢٫٢ ٪ وارتفعت إلى ٤٧٫١ ٪ وكان الفرق دالا إحصائيا .

٢ - اضطرابات انفعالية : وكانت نسبتها قبل الغزو ٣٠٫٩ ٪ وبلغت بعد الغزو ٥١٫٧ ٪ والفرق دال إحصائيا .

٣ - العدوانية : وكانت نسبتها قبل الغزو ١٣٫١ ٪ وأصبحت بعد الغزو ٢٥٫٨ ٪ وكان الفرق دالا إحصائيا .

الدراسات السابقة المرتبطة بآثار الأزمات والحروب والاحتلال :-

دراسة دافيسون وزملائه Davidson et al , 1985 في أمريكا ، وهي دراسة اكلينيكية أجريت على عينة قوامها ستة وعشرون شخصا ممن كانوا يعانون من اضطرابات الصدمة بسبب مرورهم بأزمة حادة فوجدوا أن ٤١ ٪ منهم أصبحوا يتناولون المسكرات وأن ٢٥ ٪ منهم أصبحوا يعانون من اضطرابات النوم وأن ١٨ ٪ منهم أصبحوا يتناولون العقاقير المهدئة ، وأن ١٦ ٪ منهم يعانون من اضطرابات سلوكية حادة كالعصبية الزائدة والعنف . وأجريت دراسة أخرى على عينة كبيرة من المدنيين قوامها (٢٤٩٣) فردا ممن كانوا يعانون من آثار الحرب الفيتنامية نتيجة معاشتهم لها مدة طويلة ،

وقد توصل الباحثون (Helezer et al, 1987) إلى أن من أبرز المشكلات السلوكية التي ظهرت على هؤلاء الأفراد : السرقة والكذب والاعتداء والتخريب والتمرد على النظام والقانون ، وأن هذه الاضطرابات كانت النتيجة الطبيعية لتعرض هؤلاء الأشخاص لصور العنف والتعذيب أيام الحرب الفيتنامية .

دراسة عواد 1989 Awwad على عينة قوامها (٩٥٧) طالبا وطالبة من شباب الانتفاضة في الأراضي المحتلة الذين يعيشون تحت وطأة الاحتلال الاسرائيلي ، وقد ظهرت فروق دالة إحصائية بين الجنسين فيما يتعلق بتأثير أزمة الاحتلال . وظهر أن الفتيات الفلسطينيات أصبحن يعانين من الأعراض النفسية لهذه الأزمة أكبر من معاناة الفتيان الفلسطينيين لها ، وقد أرجح الباحث السبب في ذلك إلى أن الفتاة الفلسطينية اشتركت بصورة مباشرة في عمليات الانتفاضة ولذلك تعرضت إلى مواقف العنف وما تحمله من اجهاد وارهاق تركت آثارها الانفعالية والنفسية على شخصية الفتاة الفلسطينية (الصراف ١٩٩٢) .

دراسة لوين 1982 Lewin والتي أوضحت أن ظروف الحرب تؤثر على عادات النوم عند الشباب الذين يعيشون تحت ظروف الحرب منذ الصغر ، وبخاصة أولئك الذين تكون قراهم ومدنهم هدفا دائما للعدوان ، فمثل هذه الظروف تؤدي إلى القلق والتوتر ورغبة الشباب في الانتقام من الأعداء ، وكذلك تشتمل أحلام الشباب على كثير من عناصر الرعب والعداء والتدمير ، وهذا يؤدي إلى اضطراب النوم وقصره وإلى الأحلام المزعجة .

دراسة شميينتي وزملائه (Chimienti et al 1989) على عينة مكونة من (١٠٣٩) من الأطفال اللبنانيين ، وجد أن مجموعة الأطفال الذين تعرضوا

لخبرات مؤلة تتمثل فى موت أحد أفراد الأسرة أو تهدم منزلهم أو اضطرارهم للعيش مع أسرة أخرى يمثلون ٣٠٪ من العينة قد أظهروا أعراضا للتوتر والنكوص والعدوان والاكنتاب بشكل أكبر من مجموعة الأطفال الذين لم يتعرضوا لمثل هذه الخبرات .

الدراسات السابقة المرتبطة بالعدوانية :-

دراسة موسى (١٩٩١) عن العدوان لدى المراهقين على عينة مكونة من ٩٦ مراهقا ، حيث تبين أن الذكور أكثر عدوانية فى بعض مظاهر العدوان ، بينما الإناث أكثر عدوانية فى مظاهر أخرى ، وأجريت الدراسة الثانية عن العدوان لدى الشباب على عينة مكونة من ٤٠ طالبا وطالبة وتبين أن الذكور مرتفعى العدوان أكثر عنونا من الإناث مرتفعات العدوان ، فى حين أن الإناث مرتفعات العدوان أكثر عدوانية من الذكور منخفضى العدوان .

دراسة مديحة منصور (١٩٨١) عن بعض أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بعدوان الأبناء وتكيفهم الشخصى والاجتماعى ، تكونت العينة من ٢١٩ تلميذا . وأسفرت النتائج عن ارتباط ايجابى بين العدوان والتكيف السيئ ، كما ظهرت فروق دالة إحصائيا بين الذكور والإناث فى العدوان تفوق فيها الذكور .

دراسة سميحة نصر (١٩٨٣) عن الشخصية العدوانية وعلاقتها بالانتماء الاجتماعية على عينة قوامها (٥٠٥) فردا من الذكور والإناث . وأسفرت النتائج عن ارتباط ايجابى دال إحصائيا بين العدوان وكل من السلوك العملى الاستقلالى وصلابة التفكير ومرونته ، كما أسفرت عن وجود

فروق جوهرية في السمات السوية بين العدوانيين والأقل عدوانية من الذكور والإناث وجاءت الفروق أكثر ارتفاعا لدى الذكور .

دراسة حسنين الكامل وعلى سليمان (١٩٩٠) في السلوك العدواني وإدراك الأبناء للاتجاهات الوالدية في التنشئة الاجتماعية على عينة مكونة من ٢٢٩ طالبا وطالبة من جامعة السلطان قابوس بمسقط ، وأسفرت النتائج عن فروق دالة بين العدوانيين وغير العدوانيين في إدراكهم لاتجاهات الآباء في تنشئتهم ، كما لم تظهر فروق دالة احصائيا بين الذكور والإناث في السلوك العدواني .

دراسة ايجلى وستيفن *Eagly & Staffen 1986* عن العدوانية عند الذكور والإناث أسفرت الدراسة عن أن السلوك العدواني عند الذكور تماما كما هو عند الإناث سلوك متعلم ، تقوم التنشئة الاجتماعية بدور مهم في اكتسابه كدور محدد من الأدوار الاجتماعية .

دراسة جيرا *Guerra 1988* عن تأثير العوامل المعرفية على العدوان لدى المراهقين الجانحين على عينة مكونة من (١٤٤) مراهقا ، وأظهرت النتائج وجود فروق دالة بين المجموعات الثلاث ، حيث اختارت المجموعة الجانحة حولا عدوانية للمشكلات الاجتماعية أكثر من المجموعة مرتفعة العدوانية ، وكانت حلول المجموعة الأخيرة أكثر عدائية من المجموعة منخفضة العدوانية كما ظهر أن الذكور أكثر شعورا بالعداء من الإناث .

دراسة ستاين وهوفمان *Stein & Hoffman 1978* عن العدوانية عند الذكور والإناث ، وتوصلت الدراسة إلى أن الفروق الدالة بين متوسطات درجات العدوانية عند الذكور والإناث لا تعود إلى الفروق بين الجنسين ، وإنما

تعود إلى أساليب التنشئة التي يتبعها الآباء مع كل من الذكور والإناث ، فهي في الحقيقة فروق ثقافية واجتماعية (كوثر ١٩٩٢) .

دراسة ويسيل Wessel 1981 على عينة مكونة من (٢٠٦) من الطلاب (٨٧ ذكرا ، ١١٩ أنثى) وأظهرت نتائج الدراسة أن الطلاب ذوى مفهوم الذات المنخفض أكثر عدوانية واكتئابا وقلقا عن الطلاب ذوى مفهوم الذات المرتفع ، وأظهرت الدراسة أنه لا توجد فروق بين الذكور والإناث فى القلق والاكتئاب والعدوانية .

دراسة " موهانتى " وزملائه Mohanty, et al (1989) التى شملت ١٠٠ طالب و ١٠٠ طالبة وأسفرت نتائج هذه الدراسة بالنسبة للذكور عن ارتباط جوهري بين العدوانية وكل من القلق ، والاكتئاب ، والهوس ، والبارانويا ، والفصام ، وديموقراطية الأب ، وديموقراطية الأم . أما بالنسبة للإناث فقد ارتبطت العدوانية ارتباطا جوهريا بكل من القلق ، والاكتئاب ، وإيجابية الأب ، وإيجابية الأم ، وقوة الدور الجنسى والتناسق العائلى ، والعدوانية ، والاضطرابات النفسية ، وفهم السلوكيات الوالدية .

دراسة " بلاك " وزملائه Black, et al (1992) على ١٢٩ شابا من رواد السينما الذين يشاهدون الأفلام العنيفة وغير العنيفة ، وأظهرت المجموعات التى شاهدت الأفلام العنيفة ارتفاعا فى العدوانية ، بينما لم تظهر ذلك المجموعات التى شاهدت الأفلام غير العنيفة . وقد تولد لدى مشاهدى الأفلام العنيفة مستوى أعلى من العدوانية ، وارتفع بشكل ملحوظ بعد مشاهدة الأفلام العنيفة . وتؤكد هذه النتيجة الفرض القائل بأن مشاهدة فيلم عنيف يؤدي إلى ارتفاع العدوانية .

دراسة " كوبر " Koper (1993) واشتملت على ٤٠٧ طالبة و٢٢٢ طالب من طلاب الجامعة بحثت علاقة الجنس ، وهوية الدور الجنسي ونمط السلوك " أ " بأبعاد متعددة للتعبير عن الغضب والمستوى الوظيفي للصحة النفسية ، وأظهر التحليل أنه توجد آثار ذات دلالة للدور الجنسي ونمط السلوك " أ " في التعبير عن الغضب ولم تظهر فروق جوهرية بالنسبة للجنس . وكشف تحليل التباين الأحادي بأنه توجد علاقة منسقة بين هوية الدور الجنسي والميل للغضب ، والكبت ، والضبط ، والميل للتعبير عن الغضب بشكل ظاهري . ووجدت علاقات منسقة أو ثابتة بين نمط السلوك " أ " وبين الميل إلى الغضب ، والكف (كف الغضب) . ووجدت آثار للتباين المتعدد للجنس والدور الجنسي ، والنمط السلوكي لوظائف الصحة النفسية ، ولم توجد فروق بين الجنسين في الاكتئاب ، وقد حصلت الإناث على درجات أعلى في كل من العداء غير المباشرة ، والاستيثار ، والاعتمادية ، بينما حصل الذكور على درجات أعلى في الاعتداء (التهجم) والعوانية .

دراسة " هاير " وزملائه Hier, et al (1990) على ٥٢ مراهقا وذلك لمقارنة (١٠) ذكور و (١٤) أنثى هاريين Runaways مع (١٧) ذكرا و (١١) أنثى مطرودين Throwaways أي (أجبروا بالقوة على المغادرة) في التوافق الاجتماعي والأعراض المرضية ، وكان متوسط أعمارهم (١٥ عاما) وكان الذكور الهاريون أكثر عدوانية بشكل ذي دلالة من الذكور المطرودين ، وكان الذكور الهاريون أكثر عزلة اجتماعية من الإناث الهاريات . ولكن الإناث المطرودات كن أكثر عدوانية من الذكور المطرودين ، والإناث الهاريات ، وبشكل عام الذكور المشردين كانت لديهم نزعة قوية للقيام بالسلوك العدواني أكثر من الإناث المشردات ، بالإضافة لذلك فإن الإناث المطرودات كن أكثر عداء

للمجتمع من الذكور المطرودين .

دراسة " بوكوالا " وزملائه (Bookwala, et al (1992 على عينة مكونة من (٢٢٧) أنثى و (٧٨) ذكرا من طلاب الجامعة ، واتضح أن العنف (الاعتداء) البدنى من قبل الشريك يعتبر أكبر مؤشر للتعبير عن العدوانية عامة عند الذكور والإناث على السواء .

ولقد اتضح كذلك أن ارتفاع درجة العنف والعدوان اللفظى وكذلك انخفاض قيمة الأدوار الاجتماعية الجنسية التقليدية يعتبر من مؤشرات العنف عند الذكور وتبين أن الإناث أقل تقبلا للتوجه إلى العنف ، وأكثر توجهها ناحية الدور الاجتماعى التقليدى للذكر والانثى ، والشعور بالغيرة العاطفية . والارتفاع العام فى مستوى العدوانية الداخلية ، والعدوانية اللفظية يعتبر من المؤشرات الواضحة للعنف .

دراسة " بولتون " (Boulton (1993) والتي أوردت ثلاث دراسات فرعية للعدوانية فى ملاعب المدارس بين تلاميذ المدرسة الابتدائية (٨ - ١١) باستخدام المقابلات والملاحظة / فى الدراسة الأولى كانت أكثر أسباب الشجار شيوعا هى رد الفعل للمضايقات ، ورد الفعل للإعتداءات الاستفزازية ، وعدم الاتفاق على أسس لعبة لم يتم لعبها . وفى الدراسة الثانية كانت نسبة كبيرة من الشجار بين التلاميذ الأصغر سنا بدون سبب مباشر تبعا لرأى الملاحظ الشاب ، ولكن الاعتداءات الأخرى كان سببها الانتقام والثأر من التلميذ المازح والعدوانى . وبين التلاميذ الكبار ، فإن أكثر سببين للإعتداء كانا رد الفعل العدوانى للمضايقات أو الاصابات العارضة . وفى الدراسة الثالثة تمت ملاحظة الملاعب التى يلعب فيها أطفال الفصول

ما بين ٩ - ١٠ سنوات وكانت الأسباب الشائعة للاعتداء أو الشجار مشابهة لما جاء في الدراستين الأولى والثانية .

درس " سوسر " (Susser, et al (1990) وزملائه التوجه نحو الدور الجنسي وإدراك العدوان لدى البنين والبنات وذلك كما يراه الراشدون . وشاهد الراشدون عرضاً بالفيديو لمناظر يتصرف فيها الأولاد والبنات بعدوانية أحدهما تجاه الآخر . وقد أدرك الراشدون أن الصبية أكثر عدوانية من البنات وأن عدوانهم كان مقصوداً وتصحبه نية فعلية .

هدف الدراسة الحالية :-

تهدف هذه الدراسة بوجه عام إلى الكشف عن معدلات العدوان لدى المراهقين والشباب الكويتيين ، وذلك تمهيداً لوضع خطة علاجية مكثفة للحالات التي يمكن أن تكون قد تأثرت من صدمة العدوان العراقي وتتحد أهداف هذه الدراسة بوجه خاص فيما يلي :-

١ - التعرف على الفروق بين المراهقين والشباب في العدوانية .

٢ - التعرف على الفروق بين الذكور والإناث في العدوانية .

فروض الدراسة :-

١ - توجد فروق بين الذكور والإناث في مقياس العدوانية .

٢ - توجد فروق بين المراهقين والشباب في مقياس العدوانية .

منهج الدراسة

أ - العينة :-

تكونت عينة الدراسة (انظر جدول ١) من (٣٢٩) طالبا وطالبة بواقع (١٨٢) طالبا وطالبة من مدارس الكويت ممثلين لجميع محافظات الكويت ، وبواقع (١٤٧) طالبا وطالبة من جامعة الكويت ممثلين لجميع كليات الجامعة ماعدا كلية الطب .

جدول (١) عينات البحث

العينات	المراهقون	الشباب	المجموع
ذكور	٩٤	٦٨	١٦٢
إناث	٨٨	٧٩	١٦٧
المجموع	١٨٢	١٤٧	٣٢٩

ب - أداة الدراسة :-

مقياس العدوانية المستخدم في هذه الدراسة من وضع (هاثا واى ، ماكنلى) وتعريب عطية هنا وزملائه عام ١٩٥٦ . ويتكون المقياس من ٢٢ عبارة مشتقة من اختبار الشخصية المتعددة الأوجه *MMPI* ، وقد أجريت

دراسات عليه في كل من مصر والكويت والسعودية ، وكشفت عن ثبات مرتفع ، وقام الباحث بحساب معامل ثبات المقياس بطريقة إعادة الاختبار فوجد أنه ٠.٧٩ . كما قام بحساب معما الثبات بطريقة ألفا Alpha فوصل إلى ٠.٨٣٢ . مما يجعل الأمر مطمئنا لاستخدامه في هذه الدراسة .

النتائج

يبين جدول (٢) أهم الخصائص الأساسية لمقياس العدوانية

جدول (٢) المتوسطات والانحرافات المعيارية لمقياس العدوانية لدى عينات الدراسة .

الجنس			المرحلة			الذكور			الإناث		
			ن	م	ع	ن	م	ع	ن	م	ع
المراهقين			٩٤	١١٠٧٧	٣٠٦٧	٨٨	١١٠٥٩	٣٠٣٢			
الشباب			٦٨	١٢٠٥٤	٤٠٠	٧٩	١٣٠٣٢	٣٠٤٣			

بالنظر إلى جدول (٢) يتضح أن متوسط درجات الشباب على مقياس العدوانية أعلى من متوسط درجات المراهقين .

جدول (٤) تحليل التباين المزدوج لدرجات العدوانية حسب الجنس والمرحلة والتفاعل بينهما .

العينات	متوسط المربعات	درجة الحرية	قيمة (ف)	مستوى الدلالة
الجنس	٥٠.١٠	١	٠.٣٨٨	٠.٣٥٤
المرحلة	١٢٩٦٦١	١	١٠.٠٤٣	٠.٠٠٢
التفاعل بين الجنس والمرحلة	١٨١٨١	١	١٤.٠٨	٠.٢٣٦
داخل المجموعات	٤١٩٦.٠٨٠	٣٢٥	-	-
المجموع الكلى	٤٣٥٢.٦١	٣٢٨	-	-

وبالنظر إلى جدول (٤) يتبين أنه لا توجد فروق بين الذكور والإناث في العدوانية ، ولكن نلاحظ أنه توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين الشباب والمراهقين في العدوانية ، حيث أن نسبة (ف) ١٠.٠٤٣ وهى دالة إحصائية عند مستوى ٠.٠٠٢ وبالرجوع إلى المتوسطات الواردة فى جدول (٣) نجد أن متوسط درجات الشباب أعلى من متوسط درجات المراهقين ، كما أن التفاعل بين الجنسين والمرحلة لم يكن دالا إحصائيا .

جدول (٥) المتوسطات والانحرافات المعيارية وقيمة (ت) بين المراهقين الذكور والشباب الذكور في العدوانية .

المرحلة	ن	م	ع	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المراهقين	٩٤	١١٠٧٧	٢٠٦٧	١٠٢٨	٠.٢٠١
الشباب	٦٨	١٢٠٥٤	٢٠٩٩		

يتضح من جدول (٥) أنه لا توجد فروق بين المراهقين الذكور والشباب الذكور في العدوانية .

جدول (٦) المتوسطات والانحرافات المعيارية وقيمة (ت) بين المراهقات والشابات في العدوانية .

المرحلة	ن	م	ع	قيمة (ت)	مستوى الدلالة
المراهقين	٨٨	١١٠٥٩	٢٠٣٢	٢٠٣٠	٠.٠٠١
الشباب	٧٩	١٣٠٣٢	٢٠٤٣		

يتضح من جدول (٦) أنه توجد فروق بين المراهقات والشابات ،

وبالرجوع إلى المتوسطات نجد أن متوسط درجات الشباب أكبر من متوسط درجات المراهقات ، وهذا يعنى أن الشباب أكثر عدوانية من المراهقات .

مناقشة النتائج

لم يتحقق فرض الفروق بين الذكور والاناث في العدوانية ، وهذا يتسق مع نتائج بعض الدراسات السابقة (انظر : الكامل وسليمان ١٩٩٠ ، المشعان ١٩٩٣ - ١٩٨٢ ، *Stein et al. 1977. Eygle et al*) وقد يرجع السبب إلى أن الفروق بين الجنسين لا تعود إلى فروق بيولوجية في المقام الأول ، وانما تعود أساساً إلى أساليب التنشئة التي يتبعها الآباء مع كل من الذكور والإناث ، فهي في الحقيقة فروق ثقافية واجتماعية . ومن الممكن أن نفترض أن أساليب التنشئة التي اتبعت مع أفراد هذه العينة الكويتية لم تكشف عن فروق بين الجنسين في العدوانية . كما قد يرجع عدم ظهور فروق بين الجنسين إلى أن الصدمات والضغط النفسية والأزمات والمواقف الضاغطة والخبرات المؤلمة ومواقف الاحباط التي تعرض لها الجنسين على حد سواء ، أدى إلى عدم دلالة الفروق بين الجنسين في العدوانية .

ومن ناحية أخرى ، فقد تحقق فرض الفروق بين المراهقين والشباب في العدوانية ، فأُسفرت الدراسة عن فروق ذات دلالة إحصائية بين المراهقين والشباب (الشباب أكثر عدوانية من المراهقين) . وقد يرجع السبب إلى ما تعرض له الشباب من طلاب الجامعة في طفولتهم من الخبرات المؤلمة والحرمان ، واستمرار الاحباط ، والقسوة والنبذ وعدم التقبل مما يكون قد

ساعد على تنمية الاستعداد للسلوك العدواني لدى الشباب . ويمكن أن يفسر ذلك بجلاء على ضوء نظريات التعلم ، وبخاصة الاشرط الاجرائى من وضع سكينر Skinner ونظرية التعلم بالملاحظة لباندورا Bandura . فيرى سكينر أن الفرد يتعلم سلوكه بالثواب والعقاب ، كما يرى باندورا فى ضوء نظرية التعلم بالملاحظة أن الشباب يتعلمون السلوك العدواني عن طريق ملاحظة نماذج العدوان من الوالدين والمدرسين والأقران وفي أفلام التليفزيون والسينما ، والمحطات الفضائية . وقد تأيد صدق هذا القول من دراسات عديدة (انظر : Bandura, 1979, Eron et al. 1971, Stein et al. 1971) . وقد عانى الشباب الكويتى من الاحتلال العراقى ألوانا متنوعة من القهر والظلم والاحباط والألم النفسى والجسدى مما نتج عنه اضطرابات سلوكية متعددة من أهمها العدوانية وسلوك العنف (انظر مثلا : الصراف ١٩٩٢ ، إدارة الخدمة الاجتماعية ١٩٩١ ، سهل ١٩٩٢) ، وتؤيد ذلك الدراسات العالمية على عينات أخرى (انظر : Davidson et al 1985, Helezer 1987) . وقد يكون من المناسب أن نفترض مايفسر هذه النتيجة التى أسفرت عنها هذه الدراسة ، وهو أن الشباب تعرضوا لخبرات أقسى إبان العدوان العراقى ثم خلال فترة الاحتلال ، ويبدو أن هذه الخبرات كانت أقسى لدى الشباب (طلاب الجامعة) أكثر من نظرائهم من المراهقين حاليا ، والذين كانوا صغار السن . إبان العدوان والاحتلال . كما يمكن أن نفترض أن الضغوط التى يتعرض لها الشباب من طلاب الجامعة في الوقت الراهن لاتقل عما يمكن أن يتعرض له المراهقون بل تزيد .

توصيات للوقاية والعلاج من العدوان

- ١ - ينبغي وضع خطة علاجية مكثفة للحالات التي لديها ارتفاع في مستوى سمة العداوة وخاصة بإزالة عوامل تنمية (سمة العداوة) في الطفولة والمراهقة .
- ٢ - علاج عوامل الاحباط والحرمان وعدم الأمان والظلم ، وعدم اشباع الحاجات النفسية والبيولوجية في المجتمع ، يقلل من ارتفاع معدلات العدوانية لدى المراهقين والشباب في دولة الكويت .
- ٣ - تحسين عملية التطبيع الاجتماعي لدى الأبناء مع استهجان السلوك العدواني ، فإنهم سوف يجدون التشجيع لإبداء الايجابية والتعاون والمودة كخصائص مناقضة للسلوك العدواني .
- ٤ - ينبغي على الوالدين توجيه المراهقين ، واحترام وجهة نظرهم وعدم معاملتهم كأطفال ، وعدم استخدام العنف للتعامل معهم ، فالعنف هنا يولد عنفا .
- ٥ - الحزم والعقاب للمعتدى حتي لا يجد في عدوانه منفعة ولافائدة فيقلع عنه ويرتدع غيره .
- ٦ - إنشاء مراكز نفسية متخصصة لعلاج الحالات التي تعاني من اضطرابات في السلوك ، مع توفير الاختصاصيين والاختصاصيات المؤهلين علميا ومهنيا في مدارسنا للقيام برعاية وتحقيق هذا الهدف .

ملخص الدراسة

تشير الملاحظات العامة إلى أن السلوك العدواني لدى الشباب والمراهقين الكويتيين أصبح من الظواهر أو السلوكيات الملفتة للنظر ، والتي تنذر بالخطر . وهدفت هذه الدراسة بوجه عام إلى الكشف عن معدلات العدوان لدى المراهقين والشباب الكويتيين ، وذلك تمهيدا لوضع خطة علاجية مكثفة للحالات التي عانت بسبب صدمة العدوان العراقي أو نتيجة للخبرات المؤلمة التي حدثت في طفولتها .

وتكونت عينة الدراسة من ٣٢٩ طالبا وطالبة بواقع (١٨٢) من المراهقين وبواقع (١٤٧) من الشباب من الكويتيين من الجنسين . وبينت النتائج أنه لا توجد فروق بين الذكور والإناث في العدوانية . بينما توجد فروق ذات دلالة احصائية بين الشابات والمراهقات (الشابات أكثر عدوانية) .

المراجع

- ١ - ابراهيم ، عبد الستار ، الدخيل عبد العزيز ، ابراهيم رضوى (١٩٩٣) العلاج السلوكى للطفل - عالم المعرفة - العدد ١٨٠ - الكويت .
- ٢ - أبو عامر ، محمد تركى (١٩٨٠) : دراسة فى علم الاجرام والعقاب - بيروت مكتبة مكاوى .
- ٣ - الديب ، أميرة ، عبد العزيز (١٩٩١) حرب الخليج وأثرها على بعض الجوانب النفسية والاجتماعية للطلبة الكويتيين - الجامعة المصرية للدراسات النفسية - المؤتمر السابع لعلم النفس فى مصر .
- ٤ - المشعان ، عويد سلطان (١٩٩٣) : الشخصية وبعض اضطراباتها لدى طلاب جامعة الكويت أثناء العدوان العراقى " دراسة للفروق بين الصامدين والنازحين وبين الجنسين " عالم الفكر - المجلد ٢٢ - العدد (١) الكويت .
- ٥ - الشربيني ، زكريا (١٩٩٤) المشكلات النفسية عند الأطفال - دار الفكر العربى - القاهرة .
- ٦ - الصراف ، قاسم (١٩٩٣) تأثير أزمة الاحتلال العراقى على الجوانب السلوكية والانفعالية والمعرفية للشباب الجامعي الكويتى - المؤتمر الدولى للآثار النفسية والاجتماعية والتربوية للعدوان العراقى على دولة الكويت - مكتب الإنماء الاجتماعى ٣ - ٦ أبريل ١٩٩٣ .
- ٧ - الفقى ، حامد عبد العزيز (١٩٩٣) ، التأثيرات السلبية المعرفية والانفعالية والسلوكية التى يعانى منها الكويتيون نتيجة الاحتلال ،

عالم الفكر - المجلد (٢٢) العدد الأول .

٨ - الكامل حسنين ، وسليمان على (١٩٩١) : السلوك العدوانى وإدراك
الأبناء للاتجاهات الوالدية فى التنشئة الاجتماعية . دراسة تنبؤية -
الجمعية المصرية للدراسات النفسية - المؤتمر السادس لعلم
النفس فى مصر .

٩ - المقصود ، منى سليم (١٩٩١) : أساليب مساعدة الأطفال
المراهقين - التأثير بالأزمة والحرب دليل الوالدين والمدرسين -
وزارة الصحة - بالكويت .

١٠ - حافظ نبيل وقاسم نادر (١٩٩٣) : الاحباط والعدوان ، الجمعية
المصرية للدراسات النفسية المؤتمر التاسع لعلم النفس فى أسوان
جامعة أسيوط .

١١ - سهيل ، راشد (١٩٩٢) الآثار النفسية والاجتماعية التى خلفها العدوان
العراقى على أطفال الكويت - دراسة مقدمة للمؤتمر التربوى الحادى عشر
لجمعية المعلمين الكويتية عن التخطيط التربوى فى مواجهة وتحدى آثار
العدوان العراقى المنعقد بالكويت فى أبريل ١٩٩٣ .

١٢ - عبد الخالق ، أحمد محمد والمشعان ، عويد سلطان (١٩٩٤) :
إدراك طلاب الجامعة الكويتيين للآثار النفسية للعدوان
العراقى - المؤتمر العالمى لآثار العدوان العراقى على دولة
الكويت أبريل ١٩٩٤ .

١٣ - عبد الخالق ، أحمد محمد (١٩٩٢) : أصول الصحة النفسية - دار
المعرفة الجامعية - الاسكندرية - طبعة ٢ ص ٤٣٩ - ٤٤٤ .

١٤ - عبد العال سيد (١٩٨٨) نظريات علم النفس والمداخل الأساسية لدراسة السلوك الإنسانى - الطبعة الثانية - مكتبة سعيد رأفت - القاهرة .

١٥ - علام ، رجاء محمود (١٩٩٢) : علم النفس التربوى - الطبعة الثانية - دار القلم - الكويت .

١٦ - رزق ، كوثر ابراهيم (١٩٩٢) في ديناميات الاعتداء على المدرسين - مجموعة من التلاميذ العدوانيين فى المرحلة الثانوية - الجمعية المصرية للدراسات النفسية - المؤتمر الثامن لعلم النفس فى مصر .

١٧ - محمود ، مهدى محمود (١٩٩٠) : أثر سلطة المجرى على ظهور الاستجابة العدائية عند الأفراد وعلاقة ذلك بسماتهم الشخصية - مجلة العلوم الاجتماعية - مجلد ١٨ ع ٢ .

١٨ - مرسى ، كمال ابراهيم (١٩٨٥) سيكولوجية العدوان - مجلة العلوم الاجتماعية الاجتماعية - الكويت - المجلد ١٣ - العدد الثانى . الكويت .

١٩ - نصر ، سميحة (١٩٨٣) : الشخصية العدوانية وعلاقتها بالتنشئة الاجتماعية - رسالة الماجستير لكلية الآداب - جامعة عين شمس .

٢٠ - منسى محمود ، ويومى محمد (١٩٨٨) : برامج العنف فى التليفزيون وعلاقتها بالسلوك العدوانى - مجلة التربية المعاصرة العدد ٩ من (٩٩ - ١٣٠) .

٢١ - منصور ، مديحة سلم (١٩٨١) : دراسة بعض أساليب المعاملة الوالدية وعلاقتها بالعدوان - الأبناء وتكيفهم الشخصى والاجتماعى - دراسة ماجستير - كلية الدراسات الإنسانية - القاهرة .

٢٢ - موسى رشاد عبد العزيز (١٩٩١) : سيكولوجية الفروق بين الجنسين
- مؤسسة مختار ودار عالم المعرفة - القاهرة .

٢٣ - ميشيل أرجايل (ترجمة عبد الستار ابراهيم) (١٩٨٢) : علم النفس
ومشكلات الحياة الاجتماعية - القاهرة - مكتبة مدبولي م ٧٣ - ٩٠ .

٢٤ - وزارة التربية - ادارة الخدمة الاجتماعية - الآثار الاجتماعية والنفسية
للغزو العراقي على الطالب الكويتي . ١٩٩١ .

25 - Bandura, A (1977) : Social Learning Theory. Englewood Cliff.
NJ. Prentice - Hall.

26 - Benton. Helen, (1984) : "Crime and Delinquency" Encyclopedia
Britannica, Chicago; Publisher Micropedia, Vol. 5.

27 - Black, Stephen-L & Bevan, Swsan (1992) : At the movies with
buss and durkee : A natural experiment on film violence. JN. Ag-
gressive - Behavior, 1992 Vol 18 (1) 37 - 45.

28 - Bookwala, Jamila; Frieze, irene, H; Smith, Christine; Ryan, Kath-
ryn (1992) : Predictors of dating violence : A multivariate analysis.
JN. Violence - and Victims; 1992 Vol 7 (4) 297 - 311.

29 - Boulton, Michael, J. (1993) Proximate causes of aggressive fight-
ing in Midde School Children. JN British - Journal of Educationad
Psychology, 1993 Jun Vol 63 (2) 231 - 244.

30 - Chimienti, G. Nasr J. A & Kalifeh, l (1989) : Children's reactions

- to war - related stress. *Social Psychiatry Epidemiol* 24, 282 - 272 .
- 31 - Davidson, J. et al (1985) : A diagnostic Family study of posttraumatic disorder. *American Journal of Psychiatry* 142, 90 - 93.
 - 32 - Eagly, A. H and Steffen, V. J (1986). Gender and Aggressive Behavior, A meta - Analysis Review of the Social Psychological Literature. *Psychological bulletin.* 100 (3), PP. 323 - 325.
 - 33 - Eron, Leonard (1977) : Growing up to be violent A long study of the development of Aggression. New York. Pergmanpress.
 - 34 - Eron, L (1980) Prescription for reduction of aggression. *American Psychologist*, 35 (3) 244 - 252.
 - 35 - Fagos, Bruce, S; Wolchik, Sharlene A; Braver, Sanford - L. & Freedom, Darlene, S. (1992) Locus of control as amediator of negative divorce - related events and adjustment problems in children. *JN : American - Journal of Orthopsychiatry*; 1992 Oct Vol 62 (4) 589 - 598.
 - 36 - Helzer, J et al (1987). Posttraumatic Stress disorder in the general population. *North England Journal of Medicine* 317, (1630 - 1634) .
 - 37 - Hier, Sally, J; et al Koboot; Paula, J and Schweitzer, Robert, D (1990) Social Adjustment and symptomatology in two types of homeless adolescents: Runaways and Throaways *JN. Adoles-*

cence; 1990 Vol 25 (100) 761 - 771.

- 38 - Kauffman, James (1985) : Characteristics of Children's Behavior disorders, U. S. A. Merril Publishing Company.
- 39 - Jerome, A, Y (1983) : dangerous Behavior by Vietnam veterans with Schizophrenia, AM. J. Psychiat. 26 - 51.
- 40 - Koper, Beverly, A (1993) Role of gender, sex role identity, and type A behavior in anger expression and mental health functioning. Journal of Counseling - Psychology; 1993 Apr Vol 40 (2) 232 - 237.
- 41 - Mohanty, Manju; and Verma, prem (1989) A study of aggression in relation to Psycho - Pathology and perception of parental attitude; Journal of the Indian - Academy of Applied Psychology, 1989 Jul vol 15 (2) 75 - 82.
- 42 - Mussen, Paul (1983) Handbook of child psychology. The development of Aggression. New York. John Wiley.
- 43 - Reber, Arthur (1985) The Penguin Dictionary of Psychology. Britain, Penguin Book.
- 44 - Susser, Shery - A. and Keating, Caroline - F (1990) Adult sex role orientation and perceptions of aggressive interactions between girls and boys. JN sex - roles; 1990 Aug vol interactions 23 (304) 147 - 156.

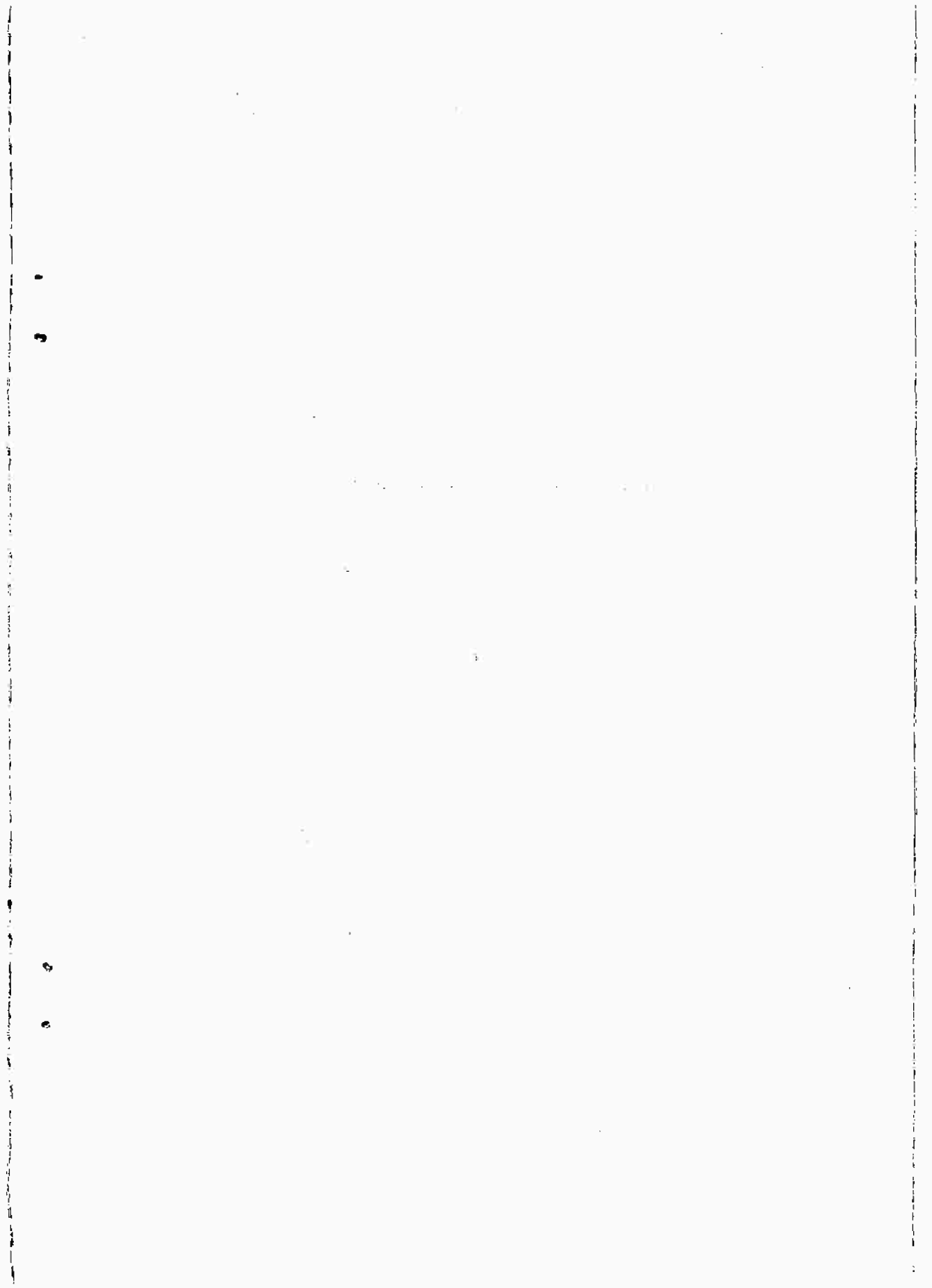
1
5

6

7

التضحية بالبشر
بين العهد القديم والاساطير اليونانية

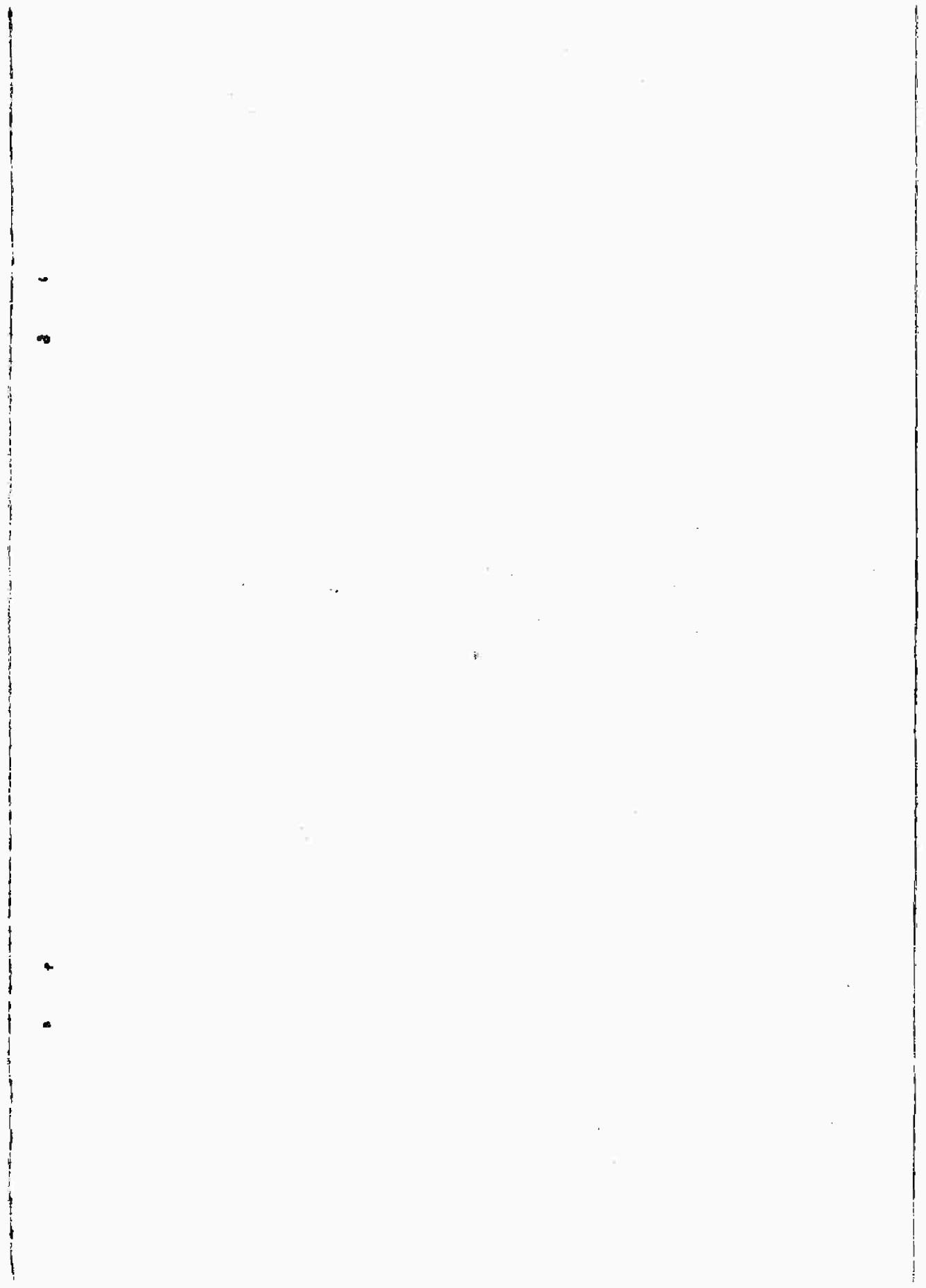
الدكتور احسين الشيخ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَى إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمِرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الْآبِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ
صَدَقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ
الْمُبِينُ ، وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .

(الصافات ، الآيات : ١٠١ - ١٠٧)



التضحية بالبشر

بين العهد القديم والأساطير اليونانية

تظهر إفيجينيا (١) في الأدب اليوناني كأضحية بشرية غرر

كانت بداية هذا البحث عبارة وردت في سياق تحليل أحد مؤرخي الدراما الكلاسيكية لمسرحية
يوريبديس الشهيرة " إفيجينيا في أوليس " ، حيث قال :-

This version of the sacrifice of Iphigenia reminds one of the story of
the sacrifice of Isaac in Genesis . Such myths are designed to explain and justify
the abandonment of Human Sacrifice . (P. W. Harsh, A Handbook of Classical Drama,
Stanford University Press 1948, P. 247).

وقد أثارت هذه العبارة في ذهني العديد من التساؤلات عن أوجه الشبه بين الحادثتين وأسباب
هذا التشابه ومغزاه إن وجد . وفي نفس الاتجاه كانت هناك محاولة سابقة لمقارنة فكرة الحياة والموت
وقصة الفيضان في كل من ملحمة جلجاميش والعهد القديم . قارن :-

Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic and old Testament Parallels,
Phoenix Books, The University of Chicago Press 1970, P. 137 - 269).

ثم المحاولة الأحدث في :-

D. E. Avne, Greco - Roman Literature and the New Testament, Teubner
Stuttgart 1990.

(١) ثالث بنات آجاممنون ، تظهر عند هوميروس تحت اسم : *Ιφιτασσα*
(II. IX, 145, 287) ، رغم أن بعض الدراسين يجعلونها رابع بنات آجاممنون ويفرقونها عن
إفياناسا ، راجع : Louis Sécham, Le Sacrifice d'Iphigénie, Revue des Etudes Greques, Tome XLIV, 1981, PP. 379 - 380 et n. 9.
التضحية بإفيجينيا أو أفياناسا ، لأن هذا يتعارض مع الجلال والعظمة التي أضفاها هوميروس على
آجاممنون ، ويؤكد هذا بعدم تعرض الشاعر أيضا لقصة مقتل آجاممنون علي يد كليتمنسترا
وإيجيسثوس ، أو ربما - في رأي المتواضع - لعدم معرفة الشاعر بقصتي التضحية أو القتل .

بها (١) بزعم زواجها من أخيليس . (٢) حتى استدرجت الى أوليس كي
يُضحى بها قربانا للالهة ، كما أعلن عرافو اليونان حتى تبحر السفن
الإغريقية الى طروادة ، ولا ينقذها إلا تدخل الإلهة أرتمس (٣) .

(١) عن إيجينيا في الأدب اليوناني واللاتيني أيضا ، قارن :-

A., Ag., 184 FF, 1526; soph., EL., 569;
Eur., EL., 1023; Iph. T., 10 - 30, 783; Iph. Aul., 1540 FF;
Schol., Ar., Lys., 645; Ov., M., 12, 27 sq.;
Hyg., Fab., 98 and 120; Cic., Tusc., 1, 48, 146;
Prop., 3, 7 (4 - 6), 24; Juv., 12, 119;
Luc., I. 82 - 86.

والذي يستغل قصة التضحية بإيجينيا للتدليل على أن الديانة اليونانية القديمة تخرج لليونان
والرومان على حد سواء أفعالا دنسة .

(٢) Homer, II., IX. 145, 287. ، حيث يدعو أجاممنون أخيليس بزواج ابنته
ألياناسا .

Cf. Eur., Iph. T., 29 - 30.

قارن أيضا :

Eur., Iph. Aul. Aul., 835 - 6.

حيث تدعو كليتمسترا بنفس الصفة .

(٣) وقد اقترنت إيجينيا بشكل من الأشكال بالأشكال بالإلهة أرتمس ، حتى أن باوسانياس
(II. 35. 1.) دعاها Ἰφίγενεια ἡ Ἀρτεμις ويسو أن ظاهرة الأضاحي البشرية كانت قد
ارتبطت الى حد ما بعبادة الإلهة أرتمس ، حيث يحدثنا باوسانياس ؛ (III. 24. 3.)
(9 - 3 VII ، عن أهالي باتراي (في أخايا) الذين ربطوا عبادة إلهتهم أرتمس بطقس بربري
من التضحية بالبشر .

CF. W. K. C. Guthrie, The Greeks and their Gods, Methuen 1950, P. 163.

قارن أيضا :

Martin Nilsson, A History of Greek.

Religion, Translated by F. J. Fielden, Oxford 1925, P. 59.

والذي يطرح رأيا منطقيًا الى حد بعيد حول التضحية بالبشر والتي نادرا ما
مورست بشكل فعلي في طقوس العبادات ، إلا أنها تظل موجودة بكثرة في
الأساطير . وطبقا لأفلاطون (Minos, 315) فقد اعتبر الإغريق التضحية بالبشر
عملا بربريا وذنبا ανοσιού.

وعن التضحيات بشكل عام راجع :

A. Loisy, 'Essai Historique sur le Sacrifice, Paris 1920.

R. K. Yerkes, Sacrifice in Greek and Roman Religion and early Judaism, London
1952.

وطبقا للتوراة فقد قدم ملك مزاب (ميشع) ابنه البكر للإله (شمس) لينقذه من قوات =

وقد ظهرت القصة بشكلها المتكامل هذا لأول مرة في القصيدة
القبرصية Τα Κυπρια والتي يعود تاريخ نظمها الى الفترة ما بين القرنين
السابع الى السادس (ق . م .) وعرفها هيرودوت ويوربيدس
وأرسطو. (١)

ورغم أن التضحية بإفيجينيا جاء ذكرها عند إيسخيلوس في
مسرحيته " أجاممنون " على لسان الكورس ، وعند سوفوكليس في
مسرحيته " أليكترا " على لسان أليكترا ، وعند يوربيدس في مسرحيته
إفيجينيا بين التاورين " على لسان إفيجينيا نفسها (٢) ، فإن (إفيجينيا في
أوليس) ليوربيدس تظل هي العمل الدرامي الوحيد تقريبا الذي أورد القصة
بكل تفاصيلها الدقيقة ، والتي يبدو منها أن يوربيدس قد تبنى كل تفاصيل
القصة التي وردت في القصيدة القبرصية (٣) ، فعندما تتصاعد أحداث
أحداث المسرحية لتصل الى ذروتها المتمثلة في التضحية بإفيجينيا يحكى

= اسرائيل ويهوذا التي حاصرتها (سفر الملوك " ثان " - ٢٧ : ٢) ، ويبدو أن هذه العادة استمرت
حتى نزول التوراة ، كما يتضح من سفر الخروج حيث يحرم الله علي بني اسرائيل أن يعطوا أبكار
أبنائهم قربانا لله (الخروج ٢٢ : ٩) ، وفي سفر اللاويين ينص على رجم من يقدم ابنه قربانا لإله
العمونيين (لاويون ١٨ : ٢١ ، ٢٠ ، ٢) . وربما استمرت هذه العادة حتى عصر النبي أرميا (٦٢٧ -
٥٧٧ ق . م .) ، والذي يعيب علي بني إسرائيل أنهم " بنوا المرتفعات ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار " ،
ثم النبي أشعيا الذي يقول لبني اسرائيل : -
" يابنى الساحرة ، نسل الفاسق والزانية ، القاتلون الأولاد تحت شقوق المعازل " .
(أشعيا ٥٧ : ٢ - ٥) .

قارن : محمد بيومي مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الأول : في بلاد
العرب ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٨ ، صفحات ١٧٨ - ١٨٠ .

(1) - G. Kinkel, Epicorum Graecorum Fragmenta (E. G. F.) 1877.

CF. Hdt., II. 117; Aristot., Po., 1459 b. 2.

(2) - Aeschyl., Ag., 194 sq.; Soph., EL, 569 sq.;
Eur., Iph. T., 10 sq.

(3) - Eur., Iph. Aul., 1540 sq.

الرسول كيف خاطبت إفيجينيا أباهَا أجاممنون قائلة :-

يا أبى ، ها أنا ذى (ممثلة) للمطلوب (منى)

أقدم جسدي لوطني ، ولكل أرض اليونان

لتقودني الى مذبح الرية طواعية

وتضحى بى طالما هذه إرادة السماء (١)

.....

.....

لذا لا تدع أحدا من الأرجيين يلمسنى

لأنى سأقدم عنقى (للتضحية) صامدة صامدة (٢)

ثم يستمر الرسول في وصفه لاجراءات التضحية بإفيجينيا قائلاً :-

وبعد أن أمسك الكاهن بالسكين قام بتلاوة صلاة

واختبر عنقها ليعرف أين يضرب (بسكينه)

(1) -

ὦ πάτερ , πάρειμί σοι
τοῦμδν δὲ σῶμα τῆς ἐμης ὑπὲρ πάτρας
καὶ τῆς ἀπάσης Ἑλλάδος γαίης ὑπερ
θῶσαι δίδωμ' ἐκοῦσα πρὸς βωμὸν θεᾶς
ἄγοντας , εἴπερ ἐστὶ θεόσφατον τόδε .

Eur., Iph. Aul., 1552 - 56.

(2) -

πρὸς ταῦτα μὴ ψαύσῃ τις ἁργείων ἔμοϋ°
σιγῇ παρέξω γὰρ δέρην εὐχαρδίσως .

Eur., Iph. Aul., 1559 - 60.

ولم يكن الأسف (الرهبة) الذي ملأ قلبي قليلا
ورأسي منكس . لكن يا للعجب ، لقد ظهرت أمام الأعين معجزة مفاجئة
كلّ منّا سمع بوضوح صوت انفجار
لكن أحداً لم يرَ البقعة حيث اختفت العذراء
عاليا صرخ الكاهن ، وانتظم الكلّ في الصراخ
عند رؤية (شيء) ساحر خفيّ لا يصدّق
ولكنه واضح للأنظار ، أرسل من قبل الإله
حيث استلقي على الأرض وعل ضخم الحجم
يلهث ، ولم ير مثله في الجمال
والذي سال دمه علي مذبح الرّبة . (١)

(2) -

ἱρεὺς δὲ φάσγανον λαβὼν ἐπηύξατο ,
λαϊμόν τ' ἐπεσκοπεῖθ' , ἵνα πλήξειεν ἕν'
ἐμὸν δέ τ' ἄλγος οὐ μικρὸν εἰσῆι φρενί,
κάστην νενευκῶς . θαῦμα δ' ἦν αἴφνης ὄρν'
πληγῆς σαφῶς γὰρ πᾶς τις ἦσθετο κτύπον ,
τὴν παρθένον δ' οὐκ οἶδεν οὐ γῆς εἰσέδυ .
βοῶ δ' ἱερεὺς , ἅπας δ' ἐπήχησε στρατός ,
ἀελπτον εἰσιδόντες ἔκ θεῶν τινος
φάσμι' , οὐ γέ μιν ὄρωμένου πίστις παρῆν .
ἔλαφος γὰρ ἀσπαίρουσ' ἔκειτ' ἐπὶ χθονί
ἰδεῖν μεγίστη διαπρεπῆς τε τὴν θέαν
ἢ αἵματι βωμὸς ἐραίνετ' ἄρδην τῆς θεοῦ .

= Eur., Iph. Aul., 1578 - 1589.

وقد يجدر بنا أن نؤكد عدة ملاحظات تثيرها القصة والمقتطفات السابقة أهمها :-

- سبب التضحية بإفيجينيا : وهو هنا إرادة الآلهة التي تجلت في رؤيا يراها واحد من البشر (العراف كالكاس) ، (١)
- طقوس التضحية ومستلزماتها : صلاة يتلوها الكاهن ، المذبح والسكين . (٢)

- مكان التضحية : أوليس ، رغم أن بعض الباحثين يري أن ميناء (Brauron) على الساحل الشرقي لأتيكا هو المكان الأصح . (٣)

ويبدو أن مشهد التضحية هذا كان من الموضوعات المفضلة للفنانين القدامى ، فالمصور تيمانثيس (Timanthes?) المعاصر ليوريبيديس كان قد صور هذا المشهد محاولا تأكيد مشاعر الحزن التي تظهر على وجه أجاممنون ، ونجد وصفا كاملا لهذا المشهد عند شيشرون وبليني .

Cicero, Orator, 74; Pliny, 35; 73.

CF. Harsh, op. cit., PP. 246 - 7.

أنظر شكل (١) رسم حائطي من بومبي للتضحية بإفيجينيا (تيمانثيس ؟)
المتحف القومي ، نابولي .

CF. Charbonneaux, Martin and Villard, Classical Greek Art, Thames and Hudson 1972, Fig. 383.

ورغم محاولة عدم الانسياق في غمار النقد الأدبي ، إلا أنه تجدر الإشارة الى رأي لبعض الباحثين من أن هذا الجزء الأخير من العمل الذي يتحدث فيه الرسول عن التضحية بإفيجينيا منقول ، حيث يرى أصحاب هذه المقولة أن النسخة الأصلية للمسرحية كانت تحتوي على مشهد الرؤية أرتسم تهبط من السماء لتتخذ إفيجينيا من التضحية بها وتحل محلها أضحية من الحيوان . قارن :

Harsh, op. cit., P. 247.

(1) Eur., Iph. Aul., 89 - 93.

(2) Eur., Iph. Aul., 1470 - 2.

(3) Schol. Aristoph., Lys., 645.

CF. Paus., I. 33. 1.

- موقف التضحية : الانصياع لإرادة الالهة وتقبل الأمر الواقع بطوعية تامة . (١)

- المحصلة النهائية للموقف : إحلال الآلهة لضحية حيوانية بدلا من الأضحية البشرية ، وغالبا وعلا ، رغم قول بعض الباحثين بأن الأضحية كانت نبأ . (٢)

وانطلاقا من المقولة الأولى حول قصة التضحية بإفيجينيا والتي قد تعيد الى الذهن قصة التضحية بإسماعيل (أو إسحق كما يرى بعض الباحثين) (٣) ، قد تحسن الإشارة هنا الى ما جاء فى التوراة بشأنه :-

(وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم (٤) . فقال له

(١) راجع فيما سبق ، صفحة ٥ حاشية (١) .

(2) Schol., Aristoph., Lys., 645.

(٢) ليس من بين أهداف هذا البحث تحديد شخصية النبيح فى التوراة ، وهل هو إسماعيل أم إسحق .

وحول التضحية بالبشر فى الجزيرة العربية ، فيبدو أنها كانت معروفة فيما قبل الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فقد نذر عبد المطلب لله إن أعطاه عشرة نكور أن يذبح أحدهم قربانا له ، وبعدما حدث أن استجاب الله لدعائه ورزقه بالذكر العشرة ، حاول أن يقرب لله عبد الله ، أبا الرسول عليه الصلاة والسلام ، فرفض العرب حتى لا تكون سابقة وعادة من الآباء للأبناء ، واحتكموا الى كاهنة معروفة ، فضربوا بالقدح (أى أجروا القرعة) حتى تم اقتداء عبد الله بمائة من الإبل .

راجع : عيد العزيز غنيم ، لحظات مع النبيح وأبيه ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٢ ، صفحات ٩٣ - ٩٤ .

وروى عن معاوية أن رجلا قال لرسول الله عليه الصلاة والسلام يا ابن النبيحين (أى إسماعيل وعبد الله) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . - راجع : ابن كثير ، قصص الأنبياء ، مكتبة الدعوة بالأزهر ، القاهرة ، ص ١٦١ .

(٤) سفر التكوين (١١ : ٢٦ ، ٢٥ : ١٠) ولد إبراهيم فى وادى الرافدين =

يا ابراهيم . فقال له ها أنذا . فقال خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق واذهب الى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك . (١)

.....

.....

(فلما أتيا الى الموضع الذى قال له الله ، بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب . ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه . فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم . فقال ها أنذا . فقال لا تمد يدك الى الغلام ولا تفعل به شيئا . لأننى الآن علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى . فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا فى الغابة بقرنيه . فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه) . (٢)

وتشير هذه المقتطفات من التوراة عدة ملاحظات أخرى أهمها :-

= غالباً حوالي ٢٠٠٠ ق . م . CF. Collier's Encyclopedia, Macmillan Educational Company, New York 1985.

وعن حياة إبراهيم عليه السلام بالتفصيل ، راجع :-

Charles Pfeiffer, The Biblical World, Bonanza Books, New York, PP. 13 - 16.

James Sanders, Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, Doubleday and Company, New York 1970, PP. XX - XXI.

(١) سفر التكوين ، ٢٢ : ١ - ٢ . وغالباً فأرض المريا (المورية) هى قرية المروة من قري بنى عبد شحب بالقرب من منطقة القنفذة جنوب مكة المكرمة . راجع :

زياد متى ، جغرافية التوراة ، دار الريس للنشر ، لندن ١٩٩٤ ، صفحة ١١٧ كمال الضليبي ، التوراة جاءت من جزيرة العرب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ١٩٩١ ، صفحات ٢٢٢ - ٢٤١ .

(٢) سفر التكوين ، ٢٢ : ٩ - ١٣ .

سبب التضحية بإسماعيل (أو اسحق) : إرادة الله التي تجلّت في رؤيا
لواحد من البشر (ابراهيم عليه السلام) . (١)

- طقوس التضحية ومستلزماتها : المذبح والنار والسكين . (٢)

- مكان التضحية : مُختلف عليه . (٣)

- موقف الضحية : الانصياع الكامل لإرادة الله . (٤)

- المحصلة النهائية للموقف : استبدال الضحية البشرية بأمر من الله
بأضحية من الحيوان . (٥)

وإذا وضعنا هذه الملاحظات جنباً الى جنب مع ما سبق أن لاحظناه ،
في قصة التضحية بإفيجينيا ، لوجدنا أن التطابق يكاد يكون تاماً ، مما
يجعلنا نستبعد إمكانية الصدفة أو توارد الخواطر ، مع ملاحظة أن التاريخ
التقريبى لإبراهيم عليه السلام ، وبالتالي إسماعيل (أو إسحق) يعود الى
ما بين ٢٠٠٠ - ١٩٠٠ ق . م . وأن قصة التضحية بإفيجينيا ظهرت لأول مرة
في القصيدة القبرصية حوالى القرن السابع الى السادس ق . م . لاتضح
هنا تأثر واضح هذه القصيدة (وبالتالي يوربيديس الذى أخذ عنه) بقصة
التضحية بإسماعيل (أو اسحق) . وهنا يطرح السؤال الطبيعى
نفسه : كيف حدث هذا التأثر ؟ وبمعنى آخر كيف ومتى انتقلت
القصة الى قبرص ؟

(١) سفر التكوين ، ٢٢ : ١ - ٢ ، الصافات ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) سفر التكوين ، ٢٢ : ٦ .

(٣) راجع فيما سبق صفحة ٩ ، حاشية (١) .

(٤) سفر التكوين ، ٢٢ : ٩ - ١١ ، الصافات ، ١٠١ - ١٠٢ .

(٥) سفر التكوين ، ٢٢ : ١٣ .

بداية نذكر بأن قصة التضحية بشكلها الشرقى وردت بتفاصيلها في سفر التكوين من العهد القديم (١) ، أما بشكلها الغربى فقد وردت في القصيدة القبرصية - والتي يعود تاريخها الى مابين القرنين السابع والسادس ق . م . - مما يبرر بعض التوقف عند قبرص مهد تلك القصيدة ، وهي الجزيرة التي خضعت بشكل مؤقت في القرن الخامس عشر ق . م . للسيادة المصرية ، ثم وحوالى القرن التاسع ق . م استعمر الفينيقيون مدينة كيتيون (Citium) ، وحتى القرن الرابع ق . م كان الفينيقيون قد سيطروا علي معظم أجزاء الجزيرة . (٢)

من ناحية أخرى فإن الاتصال المباشر بين سكان شبه الجزيرة العربية (موطن القصة بشكلها الشرقى) والإغريق لم يحدث قبل أواخر القرن الخامس ق . م . ، أما الإتصال غير المباشر فقد حدث منذ أواسط الألف الثانى ق . م . عن طريق الوسطاء وأهمهم الفينيقيون . (٣)

أما العلاقة بين سكان شبه الجزيرة العربية والمصريين فتعود الي فترات

(١) ربما في القرن العاشر ق . م . تم تحرير أول نص للتوراة وعرف بالرواية اليهودية والتي تشكل أسفار موسى الخمسة (التكوين - الخروج - اللاويين - العدد - التثنية) . راجع موديس بوكاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة والعلم ، بيروت ١٩٩١ ، ص ٢٣ - ٢٤ .
(٢) يذكر أحد النقوش التي عثر عليها في الجزيرة أن حاكم إحدى المدن (؟) يطلق على نفسه اسم (خادم أحيرام ملك الصينيونين) ، وربما كانت هذه المدينة هي كيتيون . راجع : محمد أبو المحاسن عضفور : المدن الفينيقية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٥٩ .

(٣) رسمية محمد شاكر محمد خيرى : تجارة شبه الجزيرة العربية وعلاقتها مع مصر في العصر الهلنستى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، ١٤٠٧ هـ ، ص ١١١ .

راجع : لطفي عبد الوهاب يحيى : الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية (دراسات في تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، الجزء الأول ، جامعة الرياض ١٩٧٩) ، ص ٥٥ وما بعدها ، والحاšيتين ١ ، ٢ . ثم قارن : سيد الناصرى : المصريون والعرب وعلاقاتهم بإفريقيا في العصور القديمة ، دار النهضة ، القاهرة ١٩٩٠ ، ص ٢٦ وما بعدها .

أسبق بكثير من عهد الدولة الحديثة ، أى فيما قبل منتصف الألف الثانى ق . م . ، وذلك عبر طريقين : الأول هو الشمال الشرقى أى عبر شبه جزيرة سيناء ، والثانى جنوبى عند مضيق باب المندب عبر أريتريا والصومال ثم شمالا حتى صحراء مصر الشرقية . (١)

وعادة ماتبدأ هذه العلاقات المتبادلة بشكل تجارى مباشر أو غير مباشر عن طريق بعض الوسطاء التجاريين (وأهمهم فى المنطقة كان الفينيقيون) . وكما هو معروف فقد اشتهرت شبه الجزيرة العربية بالتجارة - أو الوساطة التجارية - فى الطيوب والتوابل والعطور ، والوساطة فى تجارة هامة كهذه لا تقتصر بالطبع على مجرد نقل هذه المواد ، بل يصاحبها فى العادة نقل لأخبار مواطن هذه المواد ، ولاشك أن المعلومات الأولية التى تجمعت لدى الإغريق - مثلا - عن سكان شبه الجزيرة فى كل مايتعلق بهم ، كانت نتيجة لما رواه الوسطاء الفينيقيون عنهم . (٢)

من هذا نخلص الى أن القصة قد انتقلت من مكان حدوثها فى غرب شبه الجزيرة العربية - باعتبارها تراثاً توراتياً - الى قبرص عن طريق غير مباشر ، مما يطرح ثلاثة احتمالات لهذا النقل :-

١ - من وسط غرب شبه الجزيرة العربية الى الجنوب عبر مضيق باب المندب وصولا الى مصر بمحاذاة الساحل الغربى للبحر الأحمر ومن ثم الى قبرص .

(١) سيد الناصري : المرجع نفسه ، ص ١١ وما بعدها . - قارن : رسمية محمد شاكر محمد خيرى ، المرجع نفسه ، ص ١١٢ - ١١٨ .

(٢) راجع : لطفي عبد الوهاب يحيى : المرجع نفسه .

CF. Hdt., III, 5, 7, 8, 9, 107, 108, 110, 113.

٢ - من وسط غرب شبه الجزيرة العربية شمالا عبر شبه جزيرة سيناء الى مصر ومن ثم الى قبرص .

٣ - من وسط غرب شبه الجزيرة العربية شمالا بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى الساحل الفينيقي ومن ثم الى قبرص .

فيما يخص الاحتمالين الأول والثاني ، عن انتقال القصة الى قبرص عن طريق مصر ، سواء أدخلت هذه القصة من الجنوب أم من الشمال ، فتوجد عدة نقاط قد جعلنا نفرض النظر عنهما :-

أولا : من ناحية البعد الزمني يفترض أن الفترة التي كان من الممكن أن تنتقل فيها القصة من غرب شبه الجزيرة العربية الى قبرص عبر مصر ، أي من تاريخ حدوثها وحتى ظهور القصيدة القبرصية ، تحتل مساحة زمنية طويلة نسبيا ، من القرن التاسع عشر ق . م . وحتى القرن السابع أو السادس ق . م . ، مما يعرضها للتحريف بالحذف أو الإضافة ، ما لم تكن قد انتقلت كتابة .

ثانيا : لم تدم السيطرة المصرية على جزيرة قبرص عبر هذه المساحة الزمنية الطويلة إلا فترة قصيرة وبشكل مؤقت خلال القرن الخامس عشر ق . م .

ثالثا : التطابق الغريب بين القصة بشكلها التوراتي والقبرصي - فيما عدا تغيير شخص الضحية وأبيه ، كى ينسجم مع العقلية القبرصية أو الإغريقية فيما بعد - قد يطرح هنا احتمال انتقال القصة كتابة . ولما كان سفر التكوين لم يكتب قبل القرن العاشر ق . م . ، لذا فالغالب أن القصة قد انتقلت فيما بعد - أو خلال - هذه الفترة ، ويؤكد هذا أن هوميروس لم يكن

على علم بهذه القصة ، فلم يشر لها إطلاقاً رغم تعرّضه لبعض شخصياتها
مثل أجاممنون وإفيجينيا نفسها (١)

وبغض النظر عن الاحتمالين الأول والثاني ، يبقى لنا الاحتمال الثالث ،
وهو القائل بانتقال القصة من وسط غرب شبه الجزيرة العربية شمالاً بمحاذاة
الساحل الشرقي للبحر الأحمر حتى الساحل الفينيقي ، ومن ثم إلى قبرص ،
والذي تدعمه عدة نقاط هي :-

١ - لم يقتصر تواجد السفن الفينيقية على السواحل الشرقية للبحر
المتوسط ، وإنما اتخذوا لهم أسطولا في البحر الأحمر وجلبوا من المناطق
المطلّة عليه الذهب والعاج بكميات كبيرة (٢)

٢ - حوالي القرن التاسع ق . م استعمر الفينيقيون مدينة " كيتيون "
في جزيرة قبرص ، وحتى القرن الرابع ق . م كان الفينيقيون قد سيطروا على
معظم أجزاء الجزيرة (٣)

٣ - التواجد الفينيقي المكثف في أقصى شمال غرب شبه الجزيرة
وفلسطين من خلال العلاقة التي قامت بين أحيرام ملك صور (٩٨٠ - ٩٤٧ ق
م .) وبين ملوك إسرائيل : داوود (حوالي ١٠٠٩ - ٩٧٤ ق . م) وسليمان
(حوالي ٩٦٠ - ٩٢٥ ق . م) ، فعندما اختار داوود قلعة " اليبوسين "
(أورشليم) وأطلق عليها مدينة داوود ، بنى فيها قصره الملكي على أيدي
معماريين من أهل صور بمساعدة ملكها أحيرام ، وبصداقة داوود مع أحيرام

(١) راجع فيما سبق ٢ ص حاشية ١ .

(٢) ملوك أول ١٠ : ٢٢ : الأيام ٨ : ١٧ : ٩٠ : ٢٧ : محمد أبو الحسن عصفور : المرجع
نفسه ، ص ١١٧ .

(٣) راجع فيما سبق ص ١١ حاشية ٢ .

بدأت العلاقة بين المملكتين وتوطدت دعائهما في عهد سليمان (١) ، الذي اعتمد أيضا على أحيرام في تشييد الهيكل والقصر الملكي . وبالمقابل استخدم أحيرام طريقا جديدا للتجارة مع العرب وأفريقيا عبر فلسطين بدلا من الطريق القديم عبر مصر . (٢)

من هذا نخلص الي أن حادث التضحية بإسماعيل والذي وقع - غالبا - في الفترة من القرنين العشرين الى التاسع عشر ق . م . قد ترسخ في الوجدان العربى القديم وأصبح جزءا من التراث العربى ، وحوالى القرن العاشر ق . م . أضاف الإسرائيليون هذا الحدث الى توراتهم بحجة أن الذبيح كان إسحق ، وبالتالي أصبح جزءا من التراث الإسرائيلى أيضا .

وقد كان للعلاقات الدولية المتشابكة في المنطقة بين كل من ملوك

(١) حسن ظاظا : القدس مدينة الله أم مدينة داود . الإسكندرية ١٩٧٠ ، ص ١٧ - ١٨ . قارن : محمود المراغى : أشعيا ، نبى بنى إسرائيل وأزمة الكيان اليهودي القديم ، بيروت ١٩٩٢ ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) تم الاعتماد في بناء هيكل سليمان وقصره على المهارات الفنية الفينيقية دون غيرها ، كما تم جلب الخامات الضرورية من صور (أيام ثان ٤ : ١١) ولم يكن لبني إسرائيل إلا الخدمة والتسخير في قطع الأخشاب ونقلها الي مكان البناء . وبيالغ العهد القديم في تصوير ذلك (إذ بلغ عدد المسخرين ثلاثين ألفاً من جميع رجال بنى إسرائيل ، يرسلهم بالتناوب الى لبنان لقطع الأخشاب ، وسخر سبعين ألفاً يحملون أحمالا ، وشانين ألفاً يقطعون أحجارا من الجبل ، ماعدا رؤساء الوكلاء لسليمان الذين علي العمل ، ثلاثة آلاف وثلاثمائة من المتسلطين علي الشعب العاملين العمل) : ملوك أول ٥ : ١٢ - ١٧ .

قارن : محمود المراغى : المرجع نفسه ، ص ٣٦ - ٣٨ .

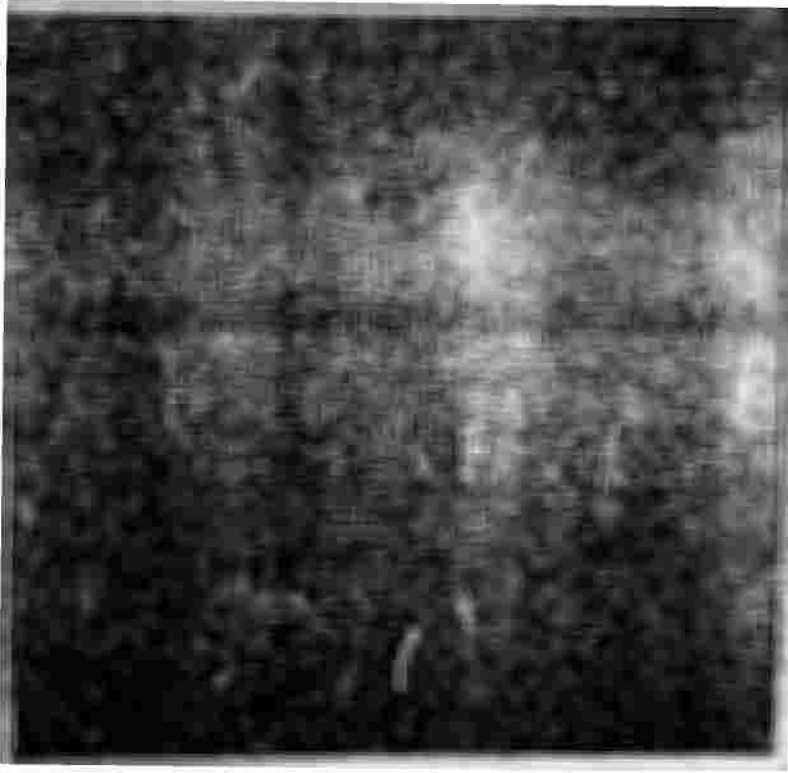
أي أن العدد قد تجاوز المائة وثمانين ألفاً من العمال ، وهو عدد ضخم جدا مقارنة بحجم العمل المتواضع الذى قاموا به .

هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٥٦ ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٥ .

قارن : جوستاف لويون : اليهود في تاريخ الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتير ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٤٦ .

إسرائيل وفينيقيًا ، وعرب شبه الجزيرة نتائجها في فتح طريق تجارى جديد يمر من صور عبر فلسطين الى غرب شبه الجزيرة العربية وصولا الى جنوبها ، وعبر هذا الطريق نقترح أن قصة التضحية بشكلها العربى القديم (حيث الذبيح هو اسماعيل) ، أو حتى بشكلها الإسرائيلى (حيث الذبيح هو إسحق) قد انتقلت الى الساحل الفينيقي عبر فلسطين ، ومن ثم نقلها الفينيقيون الى مستعمرتهم فى " كيتيون " بقبرص حيث تلقاها الشاعر القبرصى ليقصها شعرا كما هى - فيما عدا تغيير شخصيتى الذبيح وأبيه بشخصيات مألوفة للمتلقى القبرصى أو الإغريقى - وفيما بعد اعتمدها يوربيديس ، الشاعر الأثينى موضوعا لمسرحيته الشهيرة " إفيجينيا فى أوليس " .

ملحق
الاشكال والصور

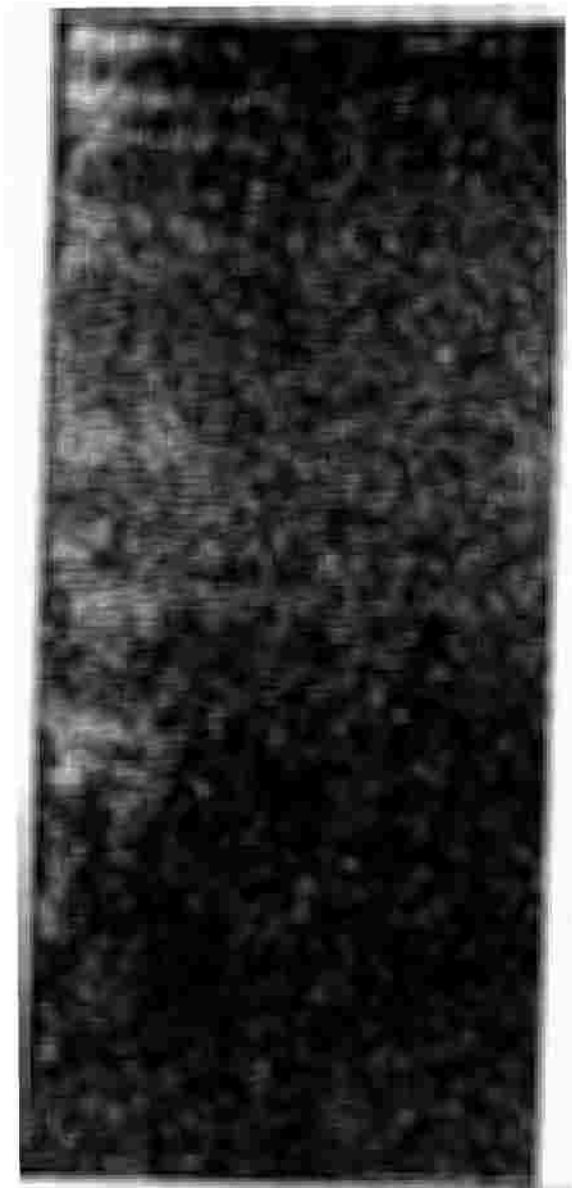


شكل (١)

التضحية بإفيجينيا

رسم حائطي من بومبي (ربما لتيمانثيس ؟) - المتحف القومي بنابولي

Charbonneaux, Martin, Villard, Classical Greek Art, Thames and Hudson 1972, Fig. 383.



شکل (٢)

التصحية بافجينا . مذبح بوفيتري . فلورنسا

Radt Wellmann. Greek Mythology in Byzantium and Princeton 1951 Fig 214



شكل (٣)

التضحية بإفيجينيا ، تحت علي الحاج ، لندن .

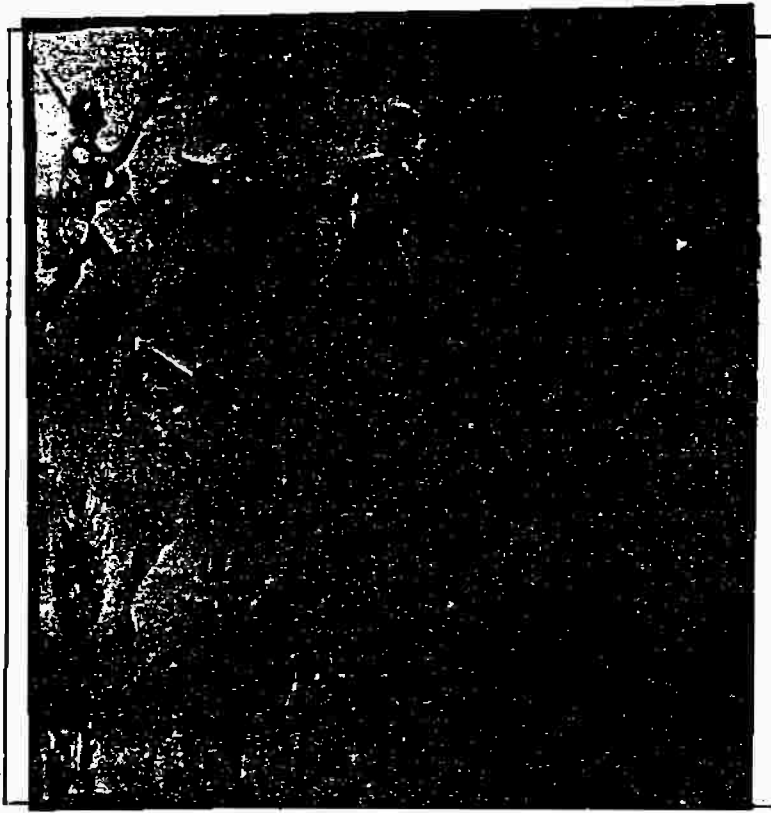
Kurt Weizmann, Greek Mythology in Byzantin art, Princeton 1951, Fig. 217.



شكل (٤) إبراهيم يقدم إسحق للتضحية

رسم علي الزجاج ، كاتدرائية كنتربري ، القرن الثالث عشر

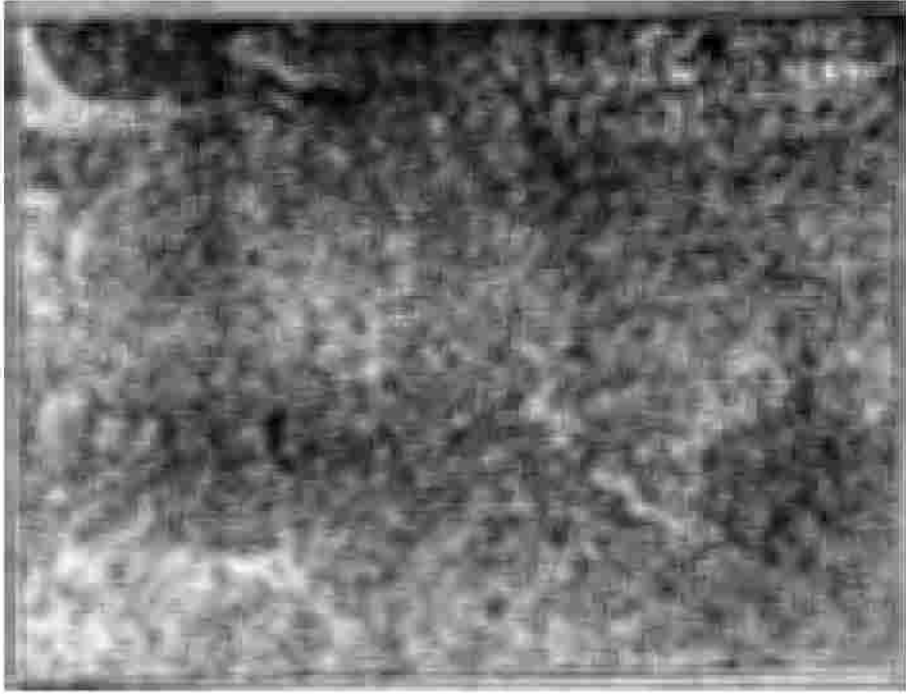
Gilbert Thurlow, Biblical Myths and Mysteries, Octopus Books, London 1974, P. 23 (Below).



شكل (٥)

التضحية بإسحق ، مخطوط مصور بالفاتيكان .

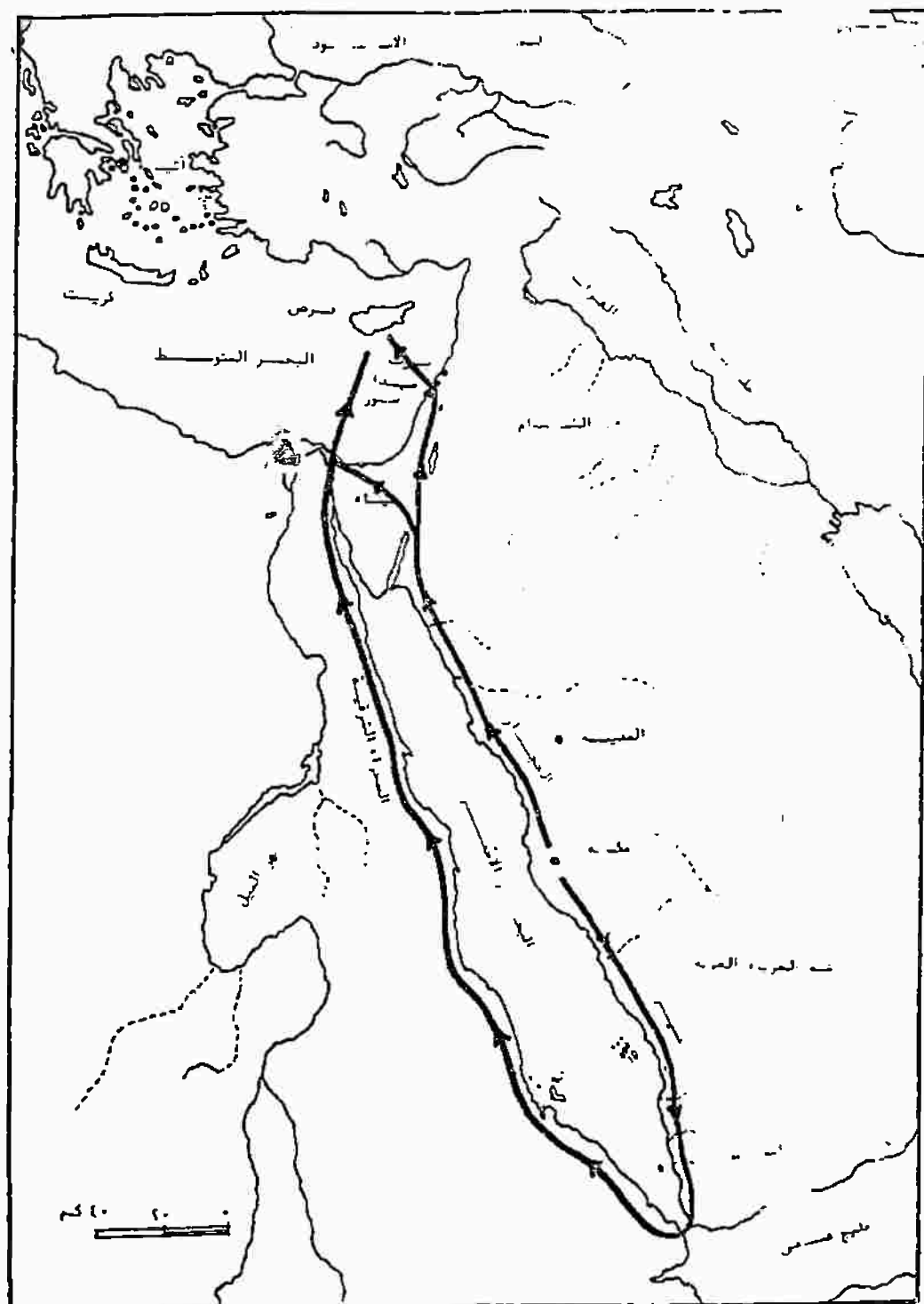
Kurt Weitzmann, Illustrations in Roll and Codex, Princeton 1947,
Fig. 128.



شكل (٦)

التضحية بإسحق ، مخطوط مصور بالفاتيكان .

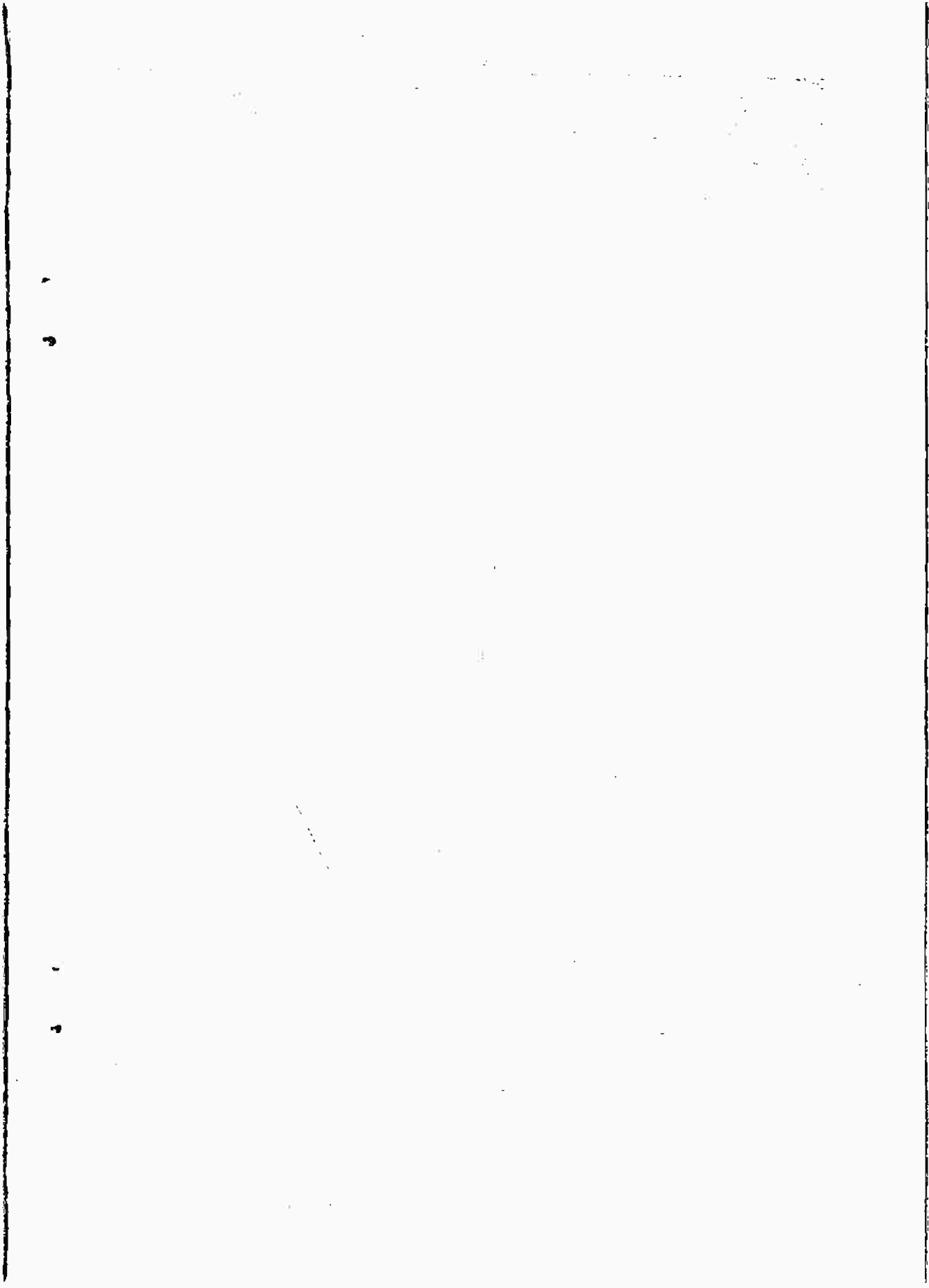
Kurt Weitzmann, Illustrations in Roll and Codex, Princeton 1947,
Fig. 129.



شكل (٧)

خريطة للمنطقة نوه م لطرق المحتملة

لانتقال القصة من شبه الجزيرة العربية الى قبرص



المصطلحات اليونانية لدى كلوسوس

مقدمة

يقع مؤلف كلوسوس (عاش في زمن تييريوس ١٢-٢٤م) المعروف بإسم "فن الطب" De Medicina في ثمانية كتب وهو يمثل جزءاً من موسوعة الفهاكلوسوس بعنوان "Artes" تضم الى جانب الطب الزراعة وفنون الحرب والخطابة والفلسفة والقضاء، ولم يتبق منها - فيما عدا الطب - سوى شذرات^(١).

يتمتع كتاب "فن الطب" بأهمية أنه يعرض فن الطب كما عرفه وطوره اليونان ونقلوه فيما بعد الى روما وهو يزخر بأسماء مجموعة كبيرة من المصادر أحصاها سبنسر قبلغت إثنين وسبعين اسماً^(٢) مما يعنى إهتمام كلوسوس بالعودة الى المصادر الأصلية، والكتاب يعد أحد المصادر القليلة للتعرف على طب العصر الهلنستي الذي فقدت مؤلفاته سوى من شذرات وإشارات في أعمال لاحقة.

ومما لا شك فيه ان كلوسوس قد إعترضه صعوبات في نقل تلك المعرفة اليونانية الى لفته الأم اللاتينية وهي صعوبة عبر عنها لوكريتيوس من قبل^(٣).

ولهذا فإن دراسة المصطلحات اليونانية لدى كلوسوس تكشف عن مقدار مديونيته لليونان في العلم واللغة وعن أصالته في محاولة صياغة مصطلحات لاتينية جديدة وإعادة إستخدام القديم منها لمواكبة التفوق اليوناني.

والمصطلحات اليونانية تظهر لديه في موضوعات تخص النبات والحيوان والمعادن والعلاج والأغذية وأعضاء الجسم البشري والأمراض^(٤)، وعلى عكس اللاتينية تتميز بلياققتها في التعبير عن موضوع شائك

(1) Oxford Classical Dictionary; Dictionary of Scientific Biography s. v. Celsus.

في عام ١٩٧٣ حقق ونشر أوليفر فلور ضامنة من الكتاب الرابع في *Emerita XLI* ثم قام كاييتاني في عام ١٩٧٤ بتحقيق ونشر نفس الفترة في *Maina XXVI* انظر (1987) Sabbah .

(2) W. G. Spencer (1926), p. 131.

(3) Lucretius, *De Rerum Natura*, I 136-39, 831-2; III 259-260.

(٤) درس كاييتاني المصطلحات اليونانية تحت هذه العناوين انظر (1975) Capitani .

مثل الأعضاء التناسلية فهي لغة المؤلفات الطبية^(٥)

والمصطلحات اليونانية تظهر إما مشاراً الى أصلها اليوناني أو دون إشارة مما يعني انها أصبحت جزءاً من القاموس اللغوي العلمي اللاتيني، أما المشار الى أصلها اليوناني فيصاحبها مرادف (مصطلح) لاتيني أو شرح لاتيني^(٦) لكون وجود مقابل محدد وهذا في المرة الأولى لظهور المصطلح اليوناني ثم يتخلى كلسوس فيما بعد وفي أغلب الاحوال عن تكرار المصطلح اليوناني مكتفياً بالمصطلح اللاتيني أو الشرح اللاتيني له وإن كان هذا يجعل المعنى غير مفهوم في أحوال كثيرة.

ويتبع كلسوس طرقاً معينة للإشارة للأصل اليوناني فهو يذكر كلمة "اليونان" Graeci لتعني أنهم أصحاب التسمية - قد يحذفها ويبقى المعنى مفهوماً خفياً - وفعللاً مبنياً للمعلوم يعني التسمية (vocare) (appellare - nominare) - بالإضافة إلى اسم مرصوف - يحذف أحياناً - للإشارة الى الكلمة محل النقاش. وهناك حالات يبني الفعل للمجهول ويستخدم نائب الفاعل "بواسطة اليونان" a Graecis.

وبدلاً من هذه الطريقة يستخدم كلسوس الظرف "باليونانية" Graece للإشارة الى أصل المصطلح مع وجود فعل التسمية^(٧).

تركز هذه الدراسة على المصطلحات اليونانية المشار الى أصلها اليوناني ليس سعياً وراء البحث حول إن كان بإمكان كلسوس تجنب استخدام كلها أو بعضها فهذا أمر قد سبقت دراسته^(٨)، وإنما سعى نحو

(5) Celsus, *De Medicina*, VI. 18.1:

..... quae ad partes obscenas pertinent, quarum apud Graccos vocabula et tolerabilius se habent et accepta iam usu sunt, cum in omne fere medicorum volumine atque sermone iaculentur; apud nos foediora verba ne consuetudine quidem aliqua verecundius loquentium commendata sunt, ut difficilior haec explanatio sit simul et pudorem et artis praecepta servantibus.

وفي فقرة من الكتاب السابع VII. 18.3 يصف كلسوس المصطلح اللاتيني انه غير لائق indecorum غير انه شائع commune.

(٦) يرى لانجسلو أن كلسوس كان يستخدم الشرح إما حباً في اللاتينية وخوفاً أو كرهًا لليونانية أو لتوضيح المعنى للقارئ غير المتخصص والرأي الأخير هو الأصوب. انظر بقية البحث.

See D. Langslow (1992), p. 111; p.115.

(٧) الملاحظ أن كلسوس إتبع أسلوباً مشابهاً لعرض بعض المصطلحات اللاتينية - حذف طبعاً كلمة اليونان واستخدم أحياناً nostri . مثل VII.1.26 , VIII. 1.25, VIII. 1.23, VII. 18.7 , V.28.8 , IV.7.1 , II.18.6, II.18.5

(8) Capitani (1975).

تفسير أمرين: أولهما عدم وجود مقابل لاتيني لبعض التسميات اليونانية، وثانيهما تميز تلك المصطلحات اليونانية بالإتفاق عليها وعدم إختلاف المصادر حول صحتها وعدم قيام كلسوس بالبحث في تاريخها وتاريخ تسمية أى مدلول.

I

تثير المصطلحات اليونانية الخاصة بالأمراض الكثير من الإهتمام فهى من الناحية العددية تشغل الجزء الأكبر من المجموع الكلى للمصطلحات اليونانية لدى كلسوس^(٩) وهى فى نفس الوقت توضح مدى التفوق الطبى اليونانى.

بينما يحرص كلسوس على وضع مقابل لاتينى (مصطلحاً أو شرحاً) للإسم اليونانى للمرض نجد أنه يذكر أنواع المرض بأسمائها اليونانية دون مقابل لاتينى.

- فمثلاً مرض الإستسقاء وهو باليونانية *πλησμενία* وباللاتينية *aqua inter cutem* ^(١٠) له ثلاثة أنواع لكل منها اسم يونانى دون مقابل لاتينى (III 21).

- وكذلك مرض سوء التغذية *tabes* الذى يشير اليه فى II 1. 8 على أنه يقابل *Phthisis* اليونانية لكننا نعلم فيما بعد III. 22 أن *tabes* له ثلاثة أنواع إحداها *Phthisis* وليس لى منها اسم لاتينى يقابل الاسم اليونانى.

- وهناك مرض الخناق *angina* الذى لا يشير الى إسمه اليونانى بالرغم من تأثر الاسم اللاتينى بالاسم اليونانى، والذى له ثلاثة أنواع لكل منها اسم يونانى دون مقابل لاتينى. IV 7. 12.

وهناك أمراض يذكرها كلسوس بأسمائها اللاتينية فقط دون مصاحبة اسم يونانى لها، غير أنه يذكر الأسماء اليونانية لأنواع هذه الأمراض دون وضع مقابل لاتينى مصطلحاً أو شرحاً لها مثل الحمى *febris* التى لها أنواع هى: النائية فى كل يوم *cotidiana* والثلاث *tertiana* والربع *quartana* وهى ترجمات لاتينية

(٩) أحصى لانجسلو المصطلحات اليونانية فوجدها ٢٤٢ مصطلحاً، منها ٢٧ مصطلحاً تخص التشريح و١٣ الأمراض و٨٠ العلاج بينما يبلغ مجموع المصطلحات اللاتينية ٦٧٣ مصطلحاً منها ٢٥١ تخص التشريح و٢٦٠ الأمراض و١٦٢ العلاج. انظر لانجسلو، المرجع السابق.

(١٠) تظهر الصيغة *aqua inter cutem* فى II.1.8, II.7.4, II.7.18, II.8.8, II.8.26, II.8.34, II.18.12، وغيرها ويستخدم كلسوس *aqua cutem subit* فى II 15.4 والمثير للإنتباه أنه يستخدم للإشارة للمصابين بالمرض الصيغة اليونانية VII 15 *hydropici*.

للأسماء اليونانية III 3.1 ، غير أن كلسوس عندما يحتاج إلى الإشارة إلى نوع (genus) من أنواع حمى
الثث لا يجد سوى التعبير اليوناني (hemitritiaion) نصف الثث III 3.2 و III 8.1 دون إستعمال مقابل
لاتيني^(١١).

- وهناك الجنون Insania^(١٢) الذي يذكره دون مقابل يوناني II 1.6 ثم مصحوباً بإسم يوناني لأحد
أنواعه phrenesis في II 1. 15 ويشرح هذا النوع بالتفصيل في II 18. 2-3 ويذكر غيره من أنواع دون
ذكر أسمائها سواء باليونانية أو اللاتينية^(١٣).

- وهناك القرح Cancer الذي لا يشير إلى اسم يوناني له في V 26. 31 B ثم يذكر أنواعاً له بأسمائها
اليونانية دون مقابل لاتيني (V 26. 31B) و V. 26. 31 C و VI. 18.4 .

- وهناك الجرب Scabies الذي يغفل ذكر إسمه اليوناني ثم يذكر إسم أحد أنواعه باليونانية مترجماً إلى
اللاتينية ولعلها إضافة من محقق النص لوجودها بين قوسين مريعين V. 28. 18 A, V. 28. 16 A .

- أما Vitiligo فهو مرض جلدي مذكور دون إسمه اليوناني ثم يعدد كلسوس أنواعه بأسمائها اليونانية
دون مقابل لاتيني V. 28. 19 .

- وهناك مرض جلدي إسمه Areae باللاتينية ولا يصاحبه اسم يوناني وله نوعان أسماهما يونانيان دون
مقابل لاتيني VI 4. 1-2 .

أما مرض الفتاق hirmea فله نوعان يوناني الإسم أما الإسم اللاتيني فيعني كلا النوعين أو المرضين
دون تعيين VII. 18.3^(١٤) .:

(١١) في الواقع هناك نوعان من حمى الثث، الأول دون مسمى والثاني هو المشار إليه بنصف الثث.

(١٢) هناك مقالة لدانيال جوريفتش تدرس فيها المصطلحات المعبرة عن الجنون لدى كل من كلسوس وكليبيس ايريليانوس.
انظر قائمة المراجع.

(١٣) إستخدم كلسوس الاسم اليوناني لأحد أنواع الجنون وهو phrenesis للإشارة للمصابين بالمرض phrenetici
III. 19.1, II. 4.9 وكذلك للمرض III 20 .

(١٤) في فقرة لاحقة يتناول فيها كلسوس مرضاً آخر (VII 18. 6 - 7) يعبر فيها عن عدم رضاه عن تسمية الرومان عن
جبل لمرضين مختلفين بإسم واحد هو hirmea غير أن اليونان اسما نوعي المرض المذكور بنفس الاسم hydrocele .

enterocolen et epiplocelen vocant, apud nos indecorum sed

commune his hirneae nomen est. (VII. 18.3)

'يطلق عليهما اليونان انتروكولى وابيبولوكلى، أما نحن فنسميها بالاسم الشائع غير اللائق هيرنيا'

أما Impetigo فهو الوحيد الذى يذكر كلسوس الاسم اللاتينى لتوعين من أنواعه الأربعة دون ذكر الاسم اليونانى لهما فى حين أنه يترك النوعين الآخرين دون تسمية V.28.17.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن هناك قسماً ثالثاً من الأمراض يشير إليها كلسوس بموقعها من الجسم دون مصاحبة اسم يونانى أو لاتينى ولأنها تنقسم إلى أنواع نجد أسماء يونانية لتلك الأنواع دون مقابل لاتينى فهناك مرض يصيب الرقبة ينقسم إلى ثلاثة أنواع، لكل نوع من أنواعه اسم يونانى دون مقابل لاتينى لها (IV.6.1)؛ وهناك مرض آخر يصيب منطقة الزور ينقسم أيضاً إلى ثلاثة أنواع لكل منها اسم يونانى دون مقابل لاتينى IV. 8.1.

والتفوق الطبى والغوى اليونانى يظهر فى وجود مسميات يونانية مختلفة لكل من أنواع المدة Sanies والصديد pus دون مصاحبة مقابل لاتينى V. 26. 20 B (١٥).

رأينا كيف أن كلسوس مع قدرته على وضع مصطلحات لاتينية جديدة وإعادة استخدام القديم أحجم عن وضع مسميات لاتينية لأنواع الأمراض ذات الأسماء اليونانية سواء كان المرض الرئيسى يعرف بإسمه اللاتينى فقط أو اليونانى واللاتينى معاً أو يشار إليه بحسب موقعه من البدن.

أتصور أن كلسوس بأسلوبه هذا قد صعب على قارئه الرومان مهمة متابعة عمله بصورة أيسر لو توفرت لديه أسماء لاتينية لكل شيء سواء بمفردها أو جنباً لجنب مع اليونانية بغض النظر عما يثار حول إجادة الرومان لكلا اللغتين اليونانية واللاتينية (١٦).

(١٥) تجدر بنا الإشارة إلى أن هناك أمراضاً لها أسماء يونانية وأخرى لها أسماء لاتينية تنقسم إلى أنواع من الأخرى لكنها بدون اسم سواء باليونانية أو اللاتينية كما فى V. 28. 4 و V. 28. 13 و V. 28. 17 و VI. 3 ربما لصمت مصادر كلسوس اليونانية، أما بخصوص اللاتينية فانظر الصفحة التالية.

(١٦) يشكك بيفيل فى مسألة إجادة الرومان للغتين ويعتبر أن الإجادة تختلف بحسب مستوى اللغة، انظر

Biville (1989), p. 33.

وقد اعتبر لانجسلو أن عدم وجود مسميات لاتينية لهذه الأنواع من الأمراض دليلاً على صحة نظرية كابيتاني التي تقول أن كلوس كان مهتماً بالدقة والإيضاح أكثر من إهتمامه بصياغة مصطلحات لاتينية ولهذا استخدم المصطلحات اليونانية^(١٧). إلا أن لانجسلو لم يفته أن يلاحظ ما يوجد في نص كلوس ويؤيد أصحاب الرأي القديم القائل أن كلوس كان يتجنب استخدام المصطلحات اليونانية وأنه كان مهتما بصياغة مصطلحات لاتينية معبراً عن حضارة عصره من محبة اللاتينية وكراهية اليونانية والتي شجعها وحث عليها كما من الإمبراطور تييريوس ومسالاً راع الأدباء، ولم يفت لانجسلو أن يلاحظ أن كلوس لم يصنع مصطلحات لاتينية جديدة لما هو غفل من الإسم^(١٨).

الملاحظ أن كلوس كان يسعى نحو الدقة والإيضاح ولذلك استخدم المصطلح اليوناني إلا أن ذلك لم يمنعه في أحوال كثيرة من أن يصوغ مصطلحات لاتينية جديدة وأن يعيد استخدام القديم كما رأينا في تسميته لأسماء الأمراض الرئيسية، وهو في ذلك لا يبدى معادياً لليونان متجنباً مصطلحاتهم فلقد شهد بتفوقهم الطبي ولياقة لغتهم في التعبير عن الأعضاء التناسلية^(١٩).

والسبب في عدم وجود أسماء لاتينية لأنواع الأمراض ما ذكره كلوس نفسه من تفوق اللغة اليونانية وفقر اللغة اللاتينية في مواضع متفرقة مثل IV.7.1 و IV.8.1 و

Rursus et sanies et pus quasdam species Graecis nominibus distinctas habent.

(V.26.20B)

مرة أخرى، لكل من القيح والصديد أنواع معينة تميزها أسماء يونانية

وكذلك في V.26.31B :

(17) D. Langslow (1989), pp. 44-5.

يرى كابيتاني أن استخدام كلوس لليونانية ويعدّه عن اللاتينية هو بفرض الدقة والإيضاح والإيجاز والتحديد وليست لعدم مقدرة كلوس على صياغة مصطلحات لاتينية انظر (1975) Capitani .

(18) D. Langslow (1989), p.44.

(١٩) يستشهد لانجسلو بمثاليين على عدم رضا كلوس عن المصطلحات اليونانية التي لا تميز الأشياء عن بعضها ، المثال الأول الذي يذكره لانجسلو III.27.1A أرى فيه كلوس يقيم مقارنة تاريخية بين المصطلحات القديمة والحديثة واستخداماتها لصالح القديم أما المثال الثاني VII. 18.7 ففيه إنتقاد لليونان لكن يجب أن يوضع في حجمه الطبيعي حين نقرأ الفقرة كلها وتذكر مقارنة كلوس للرومان باليونان وعدى خطأ الرومان بالقياس لليونان، اغفل لانجسلو ذكر مثال ثالث IV.6.1 وفيه يعترض على الاستخدام المعاصر لبعض المصطلحات أنظر (1989) Langslow

يقسم اليونان هذا النوع الى أنواع لا يوجد فى لغتنا ما يعبر عنها^{٢١}

وأيضا فى VII.18.3 و VII.18.7

وعدم وجود المقابل يثير ضجره كما فى VII.18.7 عندما يذكر أن الرومان عن جهل يسمون مرضين بنفس الإسم غير أننا لا نراه يعبر عن ريادة ولا عن ثقل المهمة الملقاة على عاتقه فى محاولة صياغة مصطلحات لاتينية جديدة مثلما نرى لدى لوكريتيوس اللهم إلا فى مثال واحد (VI.18.1) عندما يتحدث عن فحش اللغة اللاتينية ولياقة اليونانية فيما يخص موضوع الأعضاء التناسلية ، وإصراره على إستكمال الحديث حتى تصبح الأمور آمنة (أنظر هامش ه). ويظهر فقر اللغة اللاتينية وعدم سعى كلوسوس نحو صياغة الجديد فى تركه لبعض الأمراض بلا أسماء^(٢٠) حتى ولو كان الصمت يرجع إلى مصادره فهذا أمر لا يعقبة شخصا من السعى نحو تسميتها. على أية حال يجب ألا نقلل من مجهوداته فى صياغة المصطلحات اللاتينية والتي أظهرها كل من كابيتانى وفون شتاين وغيرهما وإن تبقى فى النهاية مجهودات ناقصة^(٢١).

II

ذكرنا أن المصطلحات التى يستخدمها كلوسوس والتي يشير صراحة إلى أصلها اليونانى ينسبها إلى اليونان^(٢٢) بوجه عام دون الدخول فى تفاصيل حول اللهجات أو إختلاف اليونان حول تسمية شىء ما ولا حتى ذكر تاريخ تسمية أى شىء فيما ندر حينما يذكر كلوسوس أن مرض إرتخاء الأعصاب عندما كان يصيب الجسم كله كان يسمى فى القدم السكتة apoplexy وعندما كان يصيب جزءا منه يسمى

(٢٠) هناك سيدة تعاني من مرض ما أرى بحياتها (prooemium 49)، هذا المرض يراه جرميك إرتخاء الرحم وليس سقوط الرحم كما رأى فيليب مودرى. (أنظر Grmek (1991), pp. 212-3) وهناك أيضا شرح لمرض دون ذكر لإسمه يراه سينسر مترجم النص للوب أنه الهيستريا vol. I, p. 446 note a.

(21) Capitani (1975); von Staden (1991)

(٢٢) بالإضافة إلى اليونان هناك أطباء medici يسمون نوعا من الحمى بنصف الثلث (III. 8.1, III. 3.2) والقدمات antiqui

الذين يسمون الأيام الفردية بالأيام الحرجة (III. 7. 11) وهناك المصادر القديمة Veteres auctores

(III. 27. 1A) وكذلك المصادر الطبية medici auctores IV. 11.3.

الشلل paralysis أما الآن فكلا النوعين يسميان paralysis (III.27.1).

وعندما لاحظ كلوسوس أن أعراض المرض المسمى باللاتينية gravedo أو البرد كان أبقراط يسميها $\kappa\omicron\upsilon\sigma\epsilon$ بينما يسمى اليونان المرض الآن $\kappa\omicron\upsilon\sigma\epsilon$ والتقيط نفسه $\kappa\omicron\upsilon\sigma\epsilon$ أى أن أبقراط كان يستخدم الكلمة لتعني العرض و المرض ثم ميز اليرقان معاصرو كلوسوس بين الإثنين. وعندما ذكر أن ديوكليس أطلق على مرض الأمعاء الدقيقة $\chi\omicron\upsilon\sigma\epsilon$ والغليظة $\chi\omicron\upsilon\sigma\epsilon$ ، فى حين أن الأول يسمى الآن $\epsilon\iota\lambda\epsilon\omicron\varsigma$ والثانى $\kappa\omicron\lambda\iota\kappa\omicron\varsigma$ (IV.20.1).^(٢٣)

وكلوسوس لا يناقش صحة التسميات إلا فى مناقشة لصحة اسم نبذة (III.18.13) والتسمية الحديثة لمرضين (III.27.1) واستخدام اليونان لبعض المصطلحات دون تمييز، على أية حال يبدو كلوسوس مهتما بتقديم صورة عامة للمصطلحات اليونانية وليس توضيح إتفاق وإختلاف اليونان عليها وهو أمر مستغرب مع علمنا بتعدد مصادر كلوسوس اليونانية وإحتمال إختلافها حول التسميات وهو أمر وارد يظهر مثلا فيما يخص أسماء الجسم البشرى كما يشير إلى ذلك روفس فى مؤلفه "تسمية أعضاء الإنسان" وفى المؤلف المنسوب إليه "تشریح أعضاء الإنسان"^(٢٤) وهو أمر ناقشه جيفرى لويذ فى كتابه Science, Folklore and Ideology حيث وجد أن الإسم الواحد ينطبق على أكثر من مدلول والشئ الواحد له أكثر من اسم وهو أمر يصدق على العلاج والأمراض بالإضافة إلى أسماء أعضاء جسم الإنسان^(٢٥) ومن ثم نستنتج أن كلوسوس سعى إلى تقديم صورة موحدة للمصطلحات اليونانية التى لا لبس فيها ولا غموض ولا تاريخ ولا مناقشة لصحتها وربما دفعه إلى ذلك رغبته فى التسهيل على القارئ الرومانى غير المتخصص وصيغ المؤلف بالصيغة الفعلية التى تظهر فى نواح أخرى مثل بعده عن مناقشة بعض النظريات^(٢٦) ولعل إفتقار^(٢٧) يبدو أن كلوسوس شعر بالحاجة إلى تخصيص تسمية الغشاء الثالث العين "للكيوتى" لهرقليطس أما الأغشية الثلاث الأخرى فترجع للإغريق VII. 7.13 أو ربما يرجع ذلك إلى مصدره اليونانى.

يعتبر فون شتادين أن الفقرتين III. 27 و IV. 20. 1 دليل على وعى كلوسوس بالتغيرات اللغوية والإفتقار إلى وحدة المصطلحات فى أى زمن (H. von Staden (1991), p. 291)

اتفق مع فون شتادين فى أن كلوسوس تميز بهذا الرمز، لكن كلمة الأمثلة على ذلك تجعل من الحكم المطلق صعبا خاصة وأن هناك أمثلة تشير إلى عكس هذا التميز مثل إستخدامه لنفس الإسم اليونانى $\mu\epsilon\tau\epsilon\omicron\gamma\iota\omicron\varsigma$ للتعبير عن مرضين مختلفين: الأول هو نحو جزء من اللحم فى الأظفر VI. 19.1 والثانى نمو نسيج فى زاوية العين قد يستد

ليحجب إنسان العين VII. 7. 4 ، وثمرة استخدام الإسم اليونانى بهذا المعنى الأول فى الكتابات اليونانية الباقية مما قد تعنى أنها إضاعة من كلوسوس أنظر a Celsus, *De Medicina*, vol. II, p. 288, note a

(24) Ruelle-Daremberg, *Oeuvres de Rufus d'Éphèse*, Paris 1879, repr. Amsterdam 1973.

(25) G.E.R. Lloyd (1983), p. 166

(26) O. Temkin (1935), pp. 252-3

تجدر الإشارة إلى أن بعض المصطلحات اللاتينية لدى كلوسوس لها أكثر من معنى مثل كلمة $\mu\epsilon\tau\epsilon\omicron\gamma\iota\omicron\varsigma$ التى تعنى ثلاثة

أجزاء مختلفة من الجسم البشرى كما نفهم من تعليق سينسرمترجم النص (vol. I, p. 100 note a) وكذلك كلمة

$\mu\epsilon\tau\epsilon\omicron\gamma\iota\omicron\varsigma$ (vol. I, p. 130 note a) وما يخص التسميات المتعلقة بجسد المرأة كما أوضح فون شتادين فى مقاله

أنظر (1991) von Staden

مقدمة الكتاب والعمل ككل لللهجة التوجيهية والتعليمية والتي تظهر في مقدمات الكتب والتي تفسح المجال للكاتب للخوض في تلك المسائل كانت وراء ذلك وعلى أية حال يبدو أن كلسوس كان مهتما بمقارنة النتاج اليوناني بالروماني وليس تأصيل ومناقشة النتاج اللغوي اليوناني، وبالرغم من إهتمامه بالناحية اللغوية التي تظهر في صياغته لبعض المصطلحات اللاتينية إلا أنها ليست الهدف الرئيسي من وضع مؤلفه.

الخلاصة

لمؤلف كلسوس "فن الطب" أهمية كبرى في عرضه لتاريخ الطب منذ القدم وأنواع مختلفة من الأمراض وأعراضها وطرق علاجها والمداواة بالجراحة وهو يقدم أرقى ما وصل إليه فن الطب على يد اليونان ومن ثم فقلد تعامل كلسوس مع عدد كبير من المصطلحات اليونانية أشار صراحة إلى الأصل اليوناني لبعض منها وأغفل ذلك مع البعض الآخر مما يعنى أنها أصبحت جزءا من القاموس اللغوي العلمي اللاتيني.

هناك حالات أظهر فيها كلسوس براعته في صياغة مصطلحات لاتينية جديدة وعدم تكرار المصطلحات اليونانية دفعت بعض الباحثين القدامى إلى القول بأنه كان متخوفا من اليونانية ورومانيا وطنيا غير أن كاييتاني أحد الباحثين المحدثين رأى أن كلسوس إستخدم المصطلحات اليونانية رغبة في الدقة والإيضاح والتحديد والتخصيص وهو أمر تتفق عليه هذه الدراسة إلا أنها رأت أن كلسوس ترك أحيانا أمراضا بلا أسماء وأمراضا عرفت بإسمها اللاتيني أو اللاتيني واليوناني معا أو حسب موقعها من البدن وإنقسمت إلى أنزاع - ترك هذه الأنواع باسمائها اليونانية فقط دون مقابل لاتيني وهو أمر إن كان يزيد من جهة وجهة نظر كاييتاني في سعى كلسوس نحو الدقة إلا أنه في المقابل يشير إلى تكاسل كلسوس عن صياغة الجديد من المسميات اللاتينية وهو أمر أرجعه كلسوس لفقر اللغة اللاتينية وإن كان ذلك لا يعفيه من القيام بهذه المهمة. على أية حال لا ينقل كلسوس إلى القارئ شعوره بالريادة في مجال صياغة المصطلحات اللاتينية إلا في حالة واحدة ولا شعوره بصعوبة نقل الطب اليوناني إلى اللاتينية مثلما عبر لوكريتيوس عن صعوبة نقل الفلسفة اليونانية إلى اللاتينية.

ولقد أوضحت هذه الدراسة بالأمثلة أن المصطلحات اليونانية لديه متفق عليها وصحيحة وبلا تاريخ
دريما يعود ذلك إلى رغبة كلسوس في التسهيل على القارئ وإتصاف المؤلف بالعملية وغياب الصيغة
التعليقية منه وتبقى أهمية المؤلف الطبية واللغوية فلقد احتفظ بأسماء يونانية فقدت المؤلفات اليونانية التي
وردت فيها مما يجعل مؤلفه مرجعا لتلك الأسماء ولغيرها من الأسماء اليونانية قليلة الإنتشار (٢٧).

(٢٧) ينكر جرميك أن المصطلح *parouliis* يظهر قبل جالينوس سوى لدى كلسوس أنظر Grmck (1991) p. 199
ومن الأسماء اليونانية الأمل إنتشارا إقرأ ملاحظات سبنسر مترجم النص لأرب على فقرات V.28.3A و VI.8 و
VII.12.2 VII.18.2.

Bibliography

1) Primary Sources

Cel^{us}, De Medecina, translated by W.G. Spencer, Loeb classical Library (London-Cambridge, Mass., 1935-1938 repr.1971-1979), 3 vols.

Lucretius, De rerum natura, translated by W.H.D. Rouse, revised by Martin Ferguson Smith, Loeb Classical Library, (London-cambridge, Mass., 1975.)

Rufus of Ephesus, Ouevres de Rufus d'Éphèse, edited by Ruelle-Daremborg, Paris 1879, repr. Amsterdam 1973.

2) Secondary Sources

André, J. "Remarques sur la traduction des mots grecs dans les textes médicaux du Ve siècle (Cassius Félix et Caclius Aurélianus)", Revue de philologie 37 (1963) 47-67.

Biville, F. "Grec et latin : Contacts linguistiques et creation lexicale. Pour une typologie des hellenisme lexicau^s du latin", M. Iavency and D. Longrée eds., Actes du colloque de linguistique latine (Louvain-la Neuve/Börzée, 31 march-4 April 1989) (1989) 29-40.

Capitani, U. "A.C. Celso e la terminologia tecnica Greca", Annali della Scuola norm. sup. di Pisa : Classe di lett. e filos. 5.2 (1975) 449-518.

Castiglioni, A. "Aulus Cornelius Celusus as a historian of medicine", Bulletin of the History of medicine 8.2 (1940) 857-873.

Gourevitch, D. "Les mots pour dire la folie en latin : A propos de passages de Celse et de Célius Aurélien", L'Évolution

Psychiatrique 56,3 (1991) 561-568.

Grmek, M.D. "La dénomination latine des maladies considérées comme nouvelle par les auteurs antiques", G. Sabbah ed., Le latin médical: la constitution d'un langage scientifique (Actes du IIIe colloque international "Textes médicaux latins antiques" (Saint-Étienne, 11-13 Septembre 1989) (1991) 195-214.

Langslow, D.R. "Latin technical language: Synonyms and Greek words in latin medical terminology", Transactions of the Philological Society 87 (1989) 33-53.

-----, "The development of latin medical terminology, some working hypotheses", Proceedings of the Cambridge Philological Society 37, (1992) 106-130.

Lloyd, G.E.R. Science, Folklore and Ideology, Cambridge, 1986, PP 149-167.

Sabbah, G., Corsetti, L., Fischer, K. (eds.) Bibliographie des textes médicaux latins, Saint-Étienne, Publications de l'Université, (1987)

Spencer, W.G. "Celsus' De Medicina- A learned and experienced practitioner upon what the art of medicine could then accomplish", Proceedings of the Royal Society of Medicine (1926) 129-139.

von Staden, H. "Celsus' reluctant construction of the female body", G. Sabbah ed. Le latin médical: la constitution d'un langage scientifique (Actes du IIIe colloque international "Textes médicaux latins antiques" Saint-Étienne, 11-13 Septembre 1989) (1991) 271-296.

Temkin, Owsei. "Celsus" on Medicine" and the ancient medical sects", Bulletin of the Institute of the History of medicine 3 (1935) 249-264.

Dictionary of Scientific Biography s.v. Celsus

Oxford Classical Dictionary, s.v. Celsus.

الهون والرومان الشرقيون

خلال النصف الاول من القرن الخامس الميلادي

دكتور / احمد عبد الكريم سليمان
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
كلية التربية بالفيوم - جامعة القاهرة

الهون والرومان الشرقيون

خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي

بدأ هجوم الهون على الأراضي الرومانية قبل معركة ادرنة التي وقعت بين القوط والرومان سنة ٣٧٨م بقليل (١) ، فاقتحم الهون منطقة بانونيا سنة ٣٧٧م ، ثم ازدادت هجماتهم بعد سنة ٣٧٨م على ولايات البلقان مما اضطر الامبراطور ثيودوسيوس الكبير الى محاربتهم وانزال الهزيمة بهم وبحلفائهم من الالان Alans والقوط . واستفاد الامبراطور ثيودوسيوس من الهون ايضا فاستخدم جماعات منهم في حربه ضد المفتصب مكسيموس Maximus سنة ٢٨٨م . ويرجع انتصار ثيودوسيوس السريع الى خيالة الهون العاملة في جيشه ، فهي التي اوقعت الخسائر الضخمة بجيش العدو الهارب (٢) .

وعاد الهون لمهاجمة اراضي الامبراطورية الشرقية عام ٣٩٥م حيث انتهزوا فرص تجمد نهر الدانوب وعبروا الى تراقيا فعاثوا فيها الفساد كما اصبحت دالماتيا ايضا مهددة بالغزو . وهاجمت جماعات اخرى من الهون ارمينيا حتى منطقة ملطية Meitene والمناطق الغنية من الامبراطورية

(١) للمزيد من المعلومات عن معركة ادرنة وعن اصل الهون وظهورهم انظر :

Ammianus Marcellinus, *The Huns; Jordanes, the visigothic conquests, in the medieval world 300 - 1300, Second edition, edited by Norman F. Cantar, N. 13, pp. 68 - 70, N. 14, pp. 70 - 73;*

د. احمد عبد الكريم سليمان : (١) معركة ادرنة بين القوط والرومان في ضوء وثائق المؤرخ العسكري اميانوس مارسلينوس ، دار النهضة العربية سنة ١٩٩٠م .

(٢) الصراع الدولي في الغرب الاوربي في منتصف القرن الخامس الميلادي ، مجلة المؤرخ المصري ، عدد يناير ١٩٩٤م ص ٢٢٤ وما بعدها (كلية الاداب ، جامعة القاهرة) .

(2) Thompson, *A history of Attila and the Huns, oxford 1943, reprinted 1975, pp. 25 - 26, 31 - 34; F. Lot, The end of the ancient world and the beginnings of the middle ages, pp. 194 - 196, London 1968.*

الشرقية . وامتد التخريب ايضا الى كبادوكيا . كما اجتاح الهون منطقة الفرات وبعض مناطق سوريا واصبحت انطاكية مهددة . وتكرر الهجوم ايضا سنة ٢٩٨م ، فاضطرت الحكومة الرومانية الشرقية الى الاستعانة بالقوط لمقاومة الهون لان الجيوش الرومانية كانت عند وفاة ثيودوسيوس فى الغرب ولم تصل بعد الي الشرق . وأخيرا عقدت معاهدة بين الجانبين الهونى والرومانى أواخر عام ٢٩٨م (١) .

وبمقتضى معاهدة سنة ٢٩٨م بين الرومان الشرقيين والهون قدم اولديس Auldis ملك الهون المساعدة في هزيمة الثائر الجرمانى جياناس Gainas الذي عبر الدانوب سنة ٤٠٠م وهدد الاراضى الرومانية . والواقع ان اولديس قام بذلك العمل لسبيين : الاول وهو انه لا يرغب في رؤية جيش بربري آخر يتجول شمال الدانوب ، والثاني هو تقديم خدمة الي الرومان الشرقيين بارسال رأس الثائر جياناس Gainas الي القسطنطينية في يناير سنة ٤٠١م وقد تسلم اولديس مكافأته ، فحصل علي مجموعة من الهدايا ، كما جدد معاهدة التحالف مع الحكومة الرومانية الشرقية ، وتضمنت المعاهدة الجديدة سداد أموال سنوية للهون (٢) .

(1) Thompson, op. cit., pp. 26 - 28.

(2) Thompson, op. cit., pp. 31 - 32.

ولا يعود الفضل في هزيمة جياناس كلية الي الهون ، فتوقعا لوصول جياناس اسرع المواطنون في تراقيا باصلاح وسائل الدفاع عن مدنها ، كما احتشدوا هم انفسهم حاملين اسلحتهم . ونتيجة للغارات السابقة فانهم كانوا علي دراية بالحرب ، فلم يجد جياناس خارج الاسوار سوى الحشائش لانهم نقلوا كل شيء الي داخل المدن ، ومن الواضح ان حوادث عام ٢٩٥م قد علمت سكان تراقيا درسا لم يتقاعسوا عن فهمه ولم ينسوه بسرعة ، وقد تكرر ذلك المشهد فيما بعد عندما هزمت فرق اثيلا علي يد مواطني ازييموس Asemos انظر : Thompson, op. cit., pp. 32 - 33 . وعن ثورة جياناس انظر : د. الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ص ٤٤ ، دار النهضة العربية ١٩٨٢م .

وازدادت خطورة الهون في السنوات الاولى من القرن الخامس الميلادي ، واخذوا يبحثون لهم عن موضع قدم داخل اراضي الامبراطورية الرومانية بأى ثمن سواء بالتحالف ام بشن الهجمات واحتلال الاراضى بالقوة ، وهكذا نرى جماعات من الهون تضغط من المناطق التى احتلتها شمال البلقان علي العناصر الجرمانية الاخرى مثل الوندال والالان والسويفى حتى اضطرت تلك العناصر الى الاتجاه الي الغرب الاوربي ، هذا في الوقت الذى نرى فيه الهون اتباع اولديس يشتركون مع ستيلكو قائد القوات الغربية في هزيمة راداجايسوس Radagaisus قائد العناصر الجرمانية في معركة فاسولاى Fasulae اوائل عام ٤٠٦ م . وكان لغرسان الهون الدور الكبير في احراز النصر ، كما حازوا علي عدد كبير من الاسرى (١) .

وهاجم الهون في عام ٤٠٨ م بقيادة اولديس أو اولدين Auldin ولايات الدانوب الادني فى اراضي الامبراطورية الشرقية واستولوا علي قلعة كاسترا مارتيس Castra Matis (وهي كولا الحديثة في بلغاريا الواقعة في ولاية مويسيا) وقد استولي اولديس علي الحصن بطريق الخيانة ثم اجتاح اولديس تراقيا ورفض الاموال التي عرضها عليه القائد الروماني المحلي قائلا ان فى وسعه اخضاع كل البلاد التي تشرق عليها الشمس ، ثم طلب مبلغا كبيرا يصعب سداده ثمنا للسلام ، فاضطر القائد الروماني لرشوة بعض اتباع اولديس حتى تخلوا عن سيدهم كما تخلت عنه ايضا جماعات السكرى Sciri التي كانت تعمل تحت قيادته ، ف وقعت الهزيمة فى صفوفه ، وتمكن من

(1) Thompson, op. cit., pp. 28, 32 - 33; Bury, History of the later Roman Empire from the death of theodosius I to the death of Justinian, New York 1958, Vol. I, pp. 212 - 213, 271.

الانسحاب بصعوبة بالغة واسر كثير من اتباعه ، فتم توزيعهم كرقيق على ملاك الاراضي في آسيا الصغرى (١) .

واذا كان الهون في اوائل القرن الخامس اعداء للامبراطورية الرومانية بقسميها الغربي والشرقي الا ان جماعات من هؤلاء الهون دخلت في خدمة الرومان الشرقيين والغربيين على السواء ، ولم تكن خدماتهم كمرتزقة في الجيوش الرومانية دون تأثير ملحوظ . كذلك استخدمت بعض الشخصيات الكبيرة في الحكومة الرومانية جماعات من الهون للحراسة الشخصية ، مثال ذلك الوالى البرايتورى روفينوس Rufinus في عهد الامبراطور الشرقي اركاديوس Arcadius ويقال بأن روفينوس الذي كان منافسا خطيرا للقائد الغربي ستيلكو عمل على تشكيل جيش خاص له من الهون . وعندما اراد خصوم روفينوس القضاء عليه هاجموا اتباعه من الهون وذبحوهم وهم نائمون (٢) .

ونتيجة لهجوم الهون السابق اتخذت حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية الاجراءات الضرورية لاصلاح وترميم الولايات التي عاث فيها الهون فسادا ، كما اعيد بناء الاسطول ، واستغرق تنفيذ ذلك المشروع سبع سنوات . وقد زود الاسطول بمائتي سفينة محاربة واخرى للتموين حتي اصبح جاهزا لحراسة الدانوب ، كما استقرت اعداد منه في ولايات مونييسيا وسكيثيا المجاورتين للنهر الكبير . ويضاف الي ذلك فقد تم تحسين وسائل الدفاع عن العاصمة القسطنطينية ببناء اسوار جديدة لها سنة ٤١٣ م ، وهي اول اسوار

(1) Thompson, op. cit., pp. 29, 32 - 33; Bury, op. cit., pp. 212 - 213, 271.

(2) Thompson, op. cit., pp. 35.

تبنى بعد تلك التي بنيت في عصر قسطنطين الكبير (١) .

ولكي تتجنب الحكومة الرومانية الشرقية عدااء الهون فقد اقدمت في عام ٤١٢م علي ارسال سفارة بقصد التعرف علي حكامهم ومحاولة احتوائهم ، وتشير احدى شذرات اوليمبودوروس الطيبى المصرى Olympiodorus الى قيامه على رأس سفارة من القسطنطينية الى هؤلاء البرابرة ، وانه ابهر شمالا عبر البحر الاسود . وقد ضلت السفارة في بداية الرحلة طريقها بسبب العواصف ولكنها وصلت اخيرا الي ملك الهون المسمى دوناتوس Donatus الذى كان نفوذه واسعا وذائع الصيت بدرجة اعلى من اولديس Auldis . وقد نجح السفير الرومانى في مهمته ، وبعد تبادل حلف اليمين بالصدقة بين الجانبين استطاعت السفارة قتل ملك الهون عن طريق الرشوة . وقد جاء بعد دوناتوس فى حكم الهون كاراتو Charato . وبطبيعة الحال كانت له اسبابه فى ابداء العداء والكراهية لاعضاء السفارة الرومانية ، لكن الرومان الشرقيين كانوا قد احتاطوا للأمر ، فأسرع اعضاء السفارة بتقديم الهدايا الثمينة باسم الامبراطور ثيودوسيوس الثانى مما اغرى الملك البربرى علي البقاء في سلام مع الرومان (٢) .

ويكتنف الغموض نشاط الهون بعد هزيمة اولديس Auldis ولايعرف سوى معلومات قليلة عن قيام الهون بهجوم فاشل علي بلاد فارس في الفترة من سنتى ٤١٥ - ٤٢٢م مستغلين حالة الحرب بين الفرس والرومان بسبب

(1) Thompson, op. cit., pp. 29 - 30; Bury, op. cit., Vol. I, pp. 212 - 213,

ج . م . هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة د . رأفت عبد الحميد ص ١٠٠ - ١٠١ * دار المعارف ١٩٨٤ الطبعة الثانية *

(2) Thompson, op. cit., p. 8, 34.

اضطهاد القرس للمسيحيين ، ورفض فارس سداد قيمة البضائع التي حصلت عليها من التجار للرومان ، ثم قام الهون بشن هجمات علي تراقيا ، وتلى ذلك عقد معاهدة يدفع بمقتضاها الرومان الشرقيون مبلغ ٣٠٠ ليبرا ذهبية سنويا الي الهون . ويبدو أن الهجمات علي اراضى الامبراطورية الرومانية الشرقية قد توقفت بعد سنة ٤٢٢م حتى ظهور روا أو روجيلاس ملكا على الهون (١) .

وفى العشرينات من القرن الخامس الميلادى تسلم روا Rua أو روجيلاس Rugilas القيادة العسكرية للهون بمشاركة اخويه منديوك او منديوش Mundiuch ، اوكتار Octar ويبدو ان كل زعيم منهم كان يسيطر على جزء من الاراضى الخاضعة للهون . ومعلوماتنا محدودة عن والد روا واخوته واسلافهم ، ولا نعرف على وجه الدقة كيف جاء هؤلاء الى السلطة في بلاد الهون وكل ما هو متوفر حاليا من معلومات هو ان اوكتار ومنديوش قد ماتا قبل اخيهما روا بعدة سنوات ، فقد كان روا هو القائد العسكرى الوحيد عندما ظهر اسمه لأول مرة فى التاريخ عام ٤٣٢م (٢) ، وكان يحكم القبائل التى تسكن مناطق سهول الهنغاريا (المجر) وان بعض قبائل السلاف والجرمان والسارماشييين قد دخلوا تحت طاعته ، وقد دفعت له حكومة الامبراطورية الشرقية جزية سنوية (٣) .

(١) د. السيد الباز العريش ، مرجع سابق ص ٤٨ :

A. H. M. Jones, *The decline of the ancient world*, p. 78;

Thompson, *op. cit.*, p. 31.

(2) Thompson, *op. cit.*, p. 63; Bury, *op. cit.*, Vol. I. pp. 271 - 272.

(3) Cambridge *Medie Val History*, Vol. I, p. 360, Bury, *op. cit.*, Vol. I., p. 271.

وفي الوقت الذي نعمت فيه الامبراطورية الغربية بعلاقات سلمية مع الهون بل واستخدمتهم في كسر حدة الشعوب الجرمانية مثل البرجنديين والجيبداء والقوط مستفيدة من الصداقة التي نشأت بين أيتيوس Aetius قائد عام القوات الرومانية الغربية وروا ملك الهون (١) ، في ذلك الوقت سلك الهون مسلكا عدائيا واضحا تجاه الامبراطورية الشرقية ، واستغلوا فترات الضعف التي تمر بها وابتزازها بمطالب متعنتة او شن الحرب عليها . لقد استغل روا ملك الهون انشغال قوات الامبراطورية الشرقية بقيادة اسبار Aspar في الحرب ضد الوندال في شمال افريقيا ، وبالتالي خلو جبهة الدانوب من القوات الرومانية الشرقية التي تكفي للدفاع عنها . وهكذا ظهر اسلا Esla سفير روا الي القسطنطينية اوائل عام ٤٣٤م بمطالب متعنتة ، منها أن يعيد الرومان الهون الهاربين ، والا فأن ملك الهون سيعلن الحرب (٢) .

ولم تكن حكومة الامبراطورية الرومانية الشرقية مستعدة للحرب بسبب الظروف التي ذكرناها ، لذلك لجأت الي الدبلوماسية ، وهي السلاح الذي طالما نجحت الامبراطورية الرومانية الشرقية في استغلاله وقت الشدة والخطر المحقق بها وقد أرسلت القسطنطينية سفارة من أجل تهدئة غضب روا ، وتشكل وفد المفاوضات الروماني برئاسة القائد بلينثا Plintha وهو من أصل قوطي ، وكان اقوى رجل في بلاط ثيودوسيوس الثاني في تلك الفترة وقبل

(1) *comb. Med. Hist, Vol I, p. 360, Thompson, op. cit, pp. 64 - 65; Bury, op. cit, Vol. I, p. 272.*

(2) *Thompson, op. cit, pp. 70 - 71, Jones, op. cit, p. 80.*

وكان هؤلاء الهاربين من الهون الذين رفضوا الاعتراف بسيادة روا او الدخول تحت طاعته ، وفضلوا البقاء تحت رئاسة رؤسائهم المحليين واندمجوا ضمن الجيش الامبراطوري ومن هؤلاء قبائل : الاميلزوري Amilzuri الاتماري Itimari التيسور Tunsures اليوسكي Boisci انظر : *Thompson, op. cit. p. 71.*

أن تبدأ السفارة مهمتها جاءت الاخبار بوفاة روا ملك الهون فى ابريل - مايو سنة ٤٣٤م . وقد احس الرومان الشرقيون براحة كبيرة لموت الزعيم الهونى ، وادى البطريك بروكلوس Proclus ٤٣٤ - ٤٤٧م صلاة شكر بعد سماعه الخبر ، وانتشرت شائعات عن انه موت روا كان نبوءة جاءت في سفر حزقيال ، وان الرب قد انتم منه ، وفي ذلك دلالة علي مدي الرعب الذى كان يسود الرومان الشرقيين من ملك الهون (١) .

ولم تتم فرحة الشعب الروماني بوفاة روا Rua ، فقد خلفه اثنان من أبناء اخيه منديوك Mundiuch هما بليدا واتيلا Bleda & Attila ولم يلعب بليدا دورا مهما في تاريخ الهون ، فقبض أتيلا علي زمام الأمور كلها وشكل خطورة كبيرة علي الامبراطوريتين الشرقية والغربية علي السواء ، وقررت السلطات الرومانية الشرقية سبر غور الحاكمين الجديدين في بلاد الهون ، فتقرر سفر بلنثا Plintha ومعه ابيجينيس Epigenes الذى كان متكلمًا مشهورا . ووصل الوفد الروماني الى مدينة مارجوس Margus الشهيرة في مونيسيا العليا ، وهى مدينة تجارية مهمة ، ولعبت اسقفيتها دورا مهما فى لحرب بين الهون والرومان (٢) .

وقابل بليدا Bleda واتيلا السفارة الرومانية ، ودارت المفاوضات وهم على ظهور الخيل كعادة الهون ، وعقدت في نهاية الامر معاهدة بين الجانبين سنة ٤٣٥م عرفت باسم معاهدة مارجوس ، وقد نصت علي مضاعفة الجزية السنوية التي يدفعها الرومان الشرقيون لتصبح ٧٠٠ ليبرا ذهبية ، وكانت فى

(1) Thompson, *op. cit.*, pp. 71 - 73.

(2) Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 360; Thompson, *op. cit.*, pp. 72 - 74; Bury, *op. cit.*, Vol. I, p. 272.

عهد روا ٢٥٠ ليبرا ذهبية ، وعدم قبول الرومان الهون الفارين من حكامهم مع تسليم الذين هربوا من قبل ، ودفع فدية للأسرى الرومان بواقع ٨ سوليدا Solidi عن كل اسير روماني . وأشار بليدا واتيلا الي معاهدة قديمة مع روا وافق بمقتضاها الرومان في تاريخ غير معروف علي منح الهون حقوقا تجارية في بعض أسواق المدن الرومانية ، وقد اعيد تأكيد هذه الحقوق ، فأصبح من حق التجار الهون ان يتاجروا بنفس المزايا التي يتمتع بها التجار الرومان . ومن الواضح ان شروط هذه الاتفاقية كانت جميعها في صالح الهون لاسيما الشرط الذي نص علي عدم قبول لاجئين هون من امبراطورية اتيلا ، فالهدف من ذلك كان اضعاف الجيش الروماني لان الفرق الرومانية العاملة بجوار نهر الدانوب كانت تزود بكثير من البرابرة الهون وغيرهم (١) .

وقضى اتيلا السنوات القليلة بعد عقد معاهدة مارجوس سنة ٤٢٥م في اخضاع بعض الشعوب المجاورة له مثل شعوب سكيثيا Scythia وسوروجي Sorogi ، فكل الشعوب الواقعة بين الالب والبحر البلطي من ناحية ، وبين بحر الخزر Caspion Sea او الى الغرب منه بقليل وبين خط لا يعرف شرقي الراين اعترفت بآتيلا وبليدا حاكمين لهم . وفي سنة ٤٤٠م ظهرت لآتيلا فرصة جديدة لتهديد الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وفي تلك السنة اشتركت جيوش تلك الامبراطورية في عمليات عسكرية منظمة في شمال افريقيا بعد ان سقطت قرطاجة في يد الوندال في اكتوبر سنة ٤٣٩م ، كما احتل

(1) Thompson, op. cit., pp. 73 - 75; Bury, op. cit, Vol, I, p. 273; Jones, op. cit; p. 80, Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 362.

وعن عادات الهون ونظمهم العسكرية انظر : د. اسحاق عبيد ، الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ص ١١٢ .

والـ Libra ليبرا كما جاءت في المورد وحدة وزن رومانية قديمة تعادل ٢٢٧٫٤٥ جرام .

المهاجمون الوندال رودس بهدف اعاقلة طريق القمح من مصر الي القسطنطينية التي باتت هي الأخرى مهددة من الاسطول الوندالي المرابط في قرطاجة بل وانتشرت شائعات بأن جيسريك ينوي مهاجمة مصر أيضا . والواقع ان فقدان شمال افريقيا كان كارثة ضخمة للشرق والغرب على السواء واصبح ماعداها من أحداث في مكان ثانوى . وكان اتيلا في ذلك الوقت صديقا لجابزويك ملك الوندال بعد ان جمعتهم المصالح المشتركة في عداوة القوط في الغرب الاوربي من ناحية والرومان الشرقيين من ناحية اخرى . هذا في الوقت الذي جاءت الاخبار بأن جيشا فارسيا تحت قيادة يزدجرد الثاني ٤٣٨ - ٤٥٣م قد شن هجوما على ارمينيا . ومع ان القوات الفارسية قد انسحبت بسرعة بعد ان هددت مؤخرتها هجمات الهون البيض الا ان الامبراطور ثيودوسيوس الثاني اضطر الى نشر قوات رومانية ضخمة لمواجهة الفرس ، وقد جاء الحشد العسكري علي حساب جبهة الدانوب في الشمال ، فخلت من المدافعين عنها بعد ان سحبت منها معظم الفرق العسكرية (١) .

ولم يعد اتيلا الحجة او التبرير لعدوانه ، فاشتكى ان الجزية لم تسدد بانتظام ، وان اللاجئين الهون لم يسلموا اليه . ولما لم تهتم الحكومة الرومانية الشرقية بشكواه ظهر اتيلا علي الدانوب عام ٤٤١م وحاصر حصن راشيريا Ratairia وكان ذلك الحصن يقع ضمن المناطق التي يحق للهون فيها المتاجرة وفقا للمعاهدة السابقة بين روا (أروجيلاس) والامبراطورية الرومانية الشرقية . وقد تمكن الهون من القضاء علي القوات الرومانية التي كانت في

(1) Thompson, *op. cit.*, pp. 74 - 75, 76 - 79; Bury, *op. cit.*, Vol. I, p. 273; Jones, *op. cit.*; p. 80, *Camb. Med. Hist.* Vol. I, p. 362.

الحصن كما ذبحوا كثيرا من التجار الرومان . وقد احتج الرومان علي عملية احتلال الهون لحصن راشيرا وخرق معاهدة مارجوس التي تنص علي حرية التجارة وتأمينها لكلا الطرفين ، ولكن الهون اظهروا مزيدا من النوايا السيئة عندما اشتكوا بأن اسقف مدينة مارجوس - التي عقدت المعاهدة خارج أسوارها سنة ٤٣٥م بحضور بلنثا Plintha قد عبر الدانوب الي اراضي الهون وسرق مقابر الهون الملكية التي تقع علي الشاطئ الآخر للنهر ، كما استولي علي الكنوز المدفونة مع ملوك الهون ، فقدم الاسقف بذلك للهون المبرر الكافي لأعمالهم العسكرية وقد طلب أتيلا تسليم الاسقف فورا ، وكذلك الهون الهاريين ، ولم يستطع السفراء الرومان سوى تقديم انكار هزيل للاتهامات التي وجهها الهون لهم ، فاستأنف أتيلا عملياته العسكرية ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (١) .

وعبر الهون الدانوب للاستيلاء علي المدن الكبرى علي شواطئه الجنوبية وتخريبها ، فسقطت مدينة فيميناكسيوم Viminacium وهي كوستولاكي Kostolacz وقد كان سقوط هذه المدينة المهمة في يد الهون انذارا للرومان بما سيقع لبقية المدن الرومانية علي الجبهة . لقد سوّيت المدينة بالارض ووقع جميع سكانها في الأسر . وعندما زارها بروكوبيوس Procopius بعد ذلك بمائة عام ذكر ان المدينة قد هدمت من اساسها ، وظلت علي هيئتها المتهدمة حتى اعاد بناءها الامبراطور جستنيان . كذلك سقطت مدينة سينجيدونم Singidunam " بلجراد الحالية " وتم تخريبها ايضا وتركت مهجورة حتي عصر جستنيان . اما مدينة مارجوس Margus فسقطت بالخيانة بعد ان

(1) Thompson, op. cit., pp. 79 - 80, Bury, op. cit, Vol, I, pp. 273 - 274; Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 362.

سلمها اسقفها طواعية للهون كي يضمن السلامة لنفسه . وكانت المؤسسة الكبرى في سقوط مدينة سرميوم *Sirmium* وأسر سكانها ، فهي نقطة الارتكاز ، أو محور الدفاع عن كل جبهة الدانوب ، وبذلك أصبحت ولايات البلقان تحت رحمة الهون (١) .

وتوقفت العمليات العسكرية في عام ٤٤٢م ضد الفرس والوندال ، وعادت القوات الرومانية الى جبهة الدانوب ، كما استدعى الامبراطور ثيودوسيوس الثاني الاسطول من صقلية ، ولكن الوقت كان متأخرا لاشتراك هذه القوات في القتال ضد الهون . وزاد الأمر سوءا نجاح مؤامرة اغتيال قائد الجيش في تراقيا التي كانت بمثابة قاعدة للعمليات العسكرية الهجومية ضد الهون . وفي خلال تلك الفترة لم تكن هناك امكانية حشد قوات رومانية كافية للدفاع عن حدود الدولة ومقاومة الغزو الهوني ، فاضطرت الحكومة الرومانية الشرقية الى الدخول في مفاوضات صلح مع أتيل (٢) .

ويبدو ان استكمال حشد القوات الرومانية الشرقية قد شجع ثيودوسيوس الثاني علي رفض طلبات الهون او عدم سرعة الاستجابة لها - وعندما سمع اتيل باجابة الامبراطور انتابه الغضب الشديد وبدأ في مهاجمة الاراضي الرومانية المقابلة له واتجه شرقا علي طول الدانوب ، وبعد ان استولي اتيل علي عدد من الحصون الثانوية اعاد احتلال مدينة راشيار *Ratiana* المكتظة بالسكان والواقعة علي الضفة اليمنى للدانوب في مونيسيا العليا (وراشيارا هي مدينة ارتشر *Artscher* الحديثة في بلغاريا) . وتكمن

(1) Thompson, *op. cit.*, pp. 80 - 81; Bury, *op. cit.*, Vol, I, pp. 273 - 275.

(2) Thompson, *op. cit.*, pp. 81 - 83; Bury, *op. cit.*, Vol, I, pp. 274 - 275.

(3) Thompson, *op. cit.*, p. 83.

اهمية تلك المدينة في أنها كانت قاعدة لاسطول الدانوب من ناحية ، كما انها كانت تضم احد مصانع السلاح من ناحية ثانية ، وقد دمر الهون كعادتهم المدينة عن آخرها وحملوا سكانها اسرى (١) .

وحقق استيلاء الهون على مدينة راشيارا الامن لمؤخرتهم ، فلا تستطع القوات الرومانية في تلك الحالة مهاجمة خطوط مواصلات الهون الخلفية عند اختراقهم للأراضي الرومانية الداخلية ، كما ان استيلاء الهون علي وادي نهر مارجوس او مورافا مكثهم من الوصول الي مدينة نيش Naissus ذات الاهمية الاستراتيجية ، وتقع في داكيا الوسطي كما انها كانت مركزا لمصانع الاسلحة في الامبراطورية وكثيفة السكان ؛ وعندما انسحب منها الهون ظلت مهجورة حتى اعاد بناءها الامبراطور جستنيان مع باقى المدن الأخرى . واتجه الهون بعد ذلك جنوبا بغرب على نهر نيشافا Nischava ودمروا مدينة اخرى كبيرة هي سارديكا Sardica أو صوفيا " في العصر الحديث " وقد اخلت هذه المدينة من سكانها ، واصبح الطريق بذلك مفتوحا الي القسطنطينية . وقد اندفع الهون على الطرق العسكرية بمحاذاة نهر هيبروس Hebrus او مارتيزا Martiza وعندما سقطت مدينة فيلوبيوليس Philippolis في يد الهون أصبح الدفاع عن الولايات الاوربية صعبا وربما مستحيلا لانه عند هذه المدينة العتيقة فان الطريق من الشمال الى الجنوب أى من الـ Oescus علي الدانوب الي بحر ايجيه يمر بالطريق القديم من البسفور الى الغرب . وقد تمكنت مدينتا هرقله وأدرنة من صد هجمات الهون الا ان مدينة اركاديوليس Arcadiopolis قد احتلها الهون واستولوا منها على غنائم واسلاب هائلة كما كان الاسرى فوق الحصر (١) .

(1) Thompson, op. cit., p. 84.

وأخيرا واجه الهون الجيش الجديد الذى اعدّه ثيودوسيوس الثاني وكان يقوده اسبار Aspar وهو من الالان ومعه القائدان الجرمانيان اريوبندوس Areobindus وارنجسكولاس Arnegisclus ، وكان هؤلاء الثلاثة فى طليعة الجنرالات الجرمان الذين يعملون فى خدمة الامبراطورية ولكنهم لم يكونوا اندادا لأتتلا فى الحرب . وخاصة الثلاثة معارك متتالية خارج العاصمة لكنهم هزموا فيها جميعا شر هزيمة وتمكن الهون من قطع الطريق بينهم وبين العاصمة فاضطر الجيش الروماني الى التقهقر الى خيرسونا " خرشنه " Chersonesas فوصل الهون بذلك الى قرب اسوار العاصمة واستولوا على حصن اثيراس Athyras غير ان اسطول الهون الضعيف التسليح لم يسمح بمهاجمة باقى حصون القسطنطينية كما لم يقدّم الهون بأى محاولة للهجوم على العاصمة ذاتها واتجه أتتلا بدلا من ذلك الى خيرسونا حيث هاجم بقايا الجيش الروماني ومزقه فى معركة فاصلة . ولم تحقق الامبراطورية من انتصارات سوى فى مدينة ازييموس الحصينة ، ولا يرجع ذلك الانتصار الى الجيش النظامي بل الى السكان المحليين الذين هاجموا قوات الهون المثقلة بالاسلاب والغنائم (١) .

ولم يكن امام ثيودوسيوس الثاني بعد هزيمة خيرسونا من خيار سوى طلب عقد الهدنة ، وانيطت المفاوضات الى اناتوليوس Anatolius الذي كان قد تجع لتوّه فى انهاء الحرب مع الفرس ، واصبح قائدا للجيش منذ سنة ٤٢٨م ، وكانت الشروط التى فرضها أتتلا قاسية ، لقد طلب تسليم اللاجئين الهون قورا ، والمتأخرات من الجزية وقدرها ستة آلاف ليبرا ذهبية اما مبلغ الجزية نفسه فقد زاد الى خمسة اضعاف ماكان عليه أى اصبح ٢١٠٠ (الفان ومائة

(1) Bury, op. cit, Vol. I, p. 275, Thompson, op. cit., pp. 84 - 85.

ليبراً ذهبية) كل عام وان تدفع الحكومة الرومانية عن كل اسير روماني تمكن من الهرب مبلغ ١٢ سوليدا مقابل ثمانية سوليدا Solida في اتفاقية عام ٤٢٥م ، وألا يستقبل الرومان بعد ذلك أى لاجئ هونى (١) .

وذهب سكوتا Scotta احد مساعدى أتيليا الي القسطنطينية لاستلام الذهب المتفق عليه وكذلك استلام اللاجئين الهون ، ولكنه فوجئ بأن الرومان قد قتلوا كل الاسرى الهون الذين ابدوا عدم الرغبة في العودة شمالا عبر الدانوب ، واراد القائد الهونى ان ينتقم من الرومان الشرقيين ، فاعلن ان لديه تقويضا باضافة شرط جديد للاتفاقية وهو ان كل رجال ازييموس Asemus يجب ان يسلموا جميعا للهون سواء كان هؤلاء من البرابرة او الرومان ، والا فان الجيش الهونى لن ينسحب كما ان الاتفاقية لن يتم التصديق عليها . ورأى اناتوليوس ومساعدته في المفاوضات ثيودولوس Theodulus قائد الجيش فى تراقيا ان الوفد الرومانى في وضع حرج لايسمح برفض طلبات الهون ، ولم يحاول القائدان الرومانيات اغراء سكوتا بالتخلي عن ذلك الشرط الجديد بل تركزت جهودهما فى جعل أتيليا يتخلى عن رغبته الملحة فى مواصلة الحرب (٢) .

وكتب القائدان الرومانيان الى مواطنى ازييموس وخيروهم بين تسليم الاسرى الرومان الذين انقنوهم أو ان يدفعوا ١٢ سوليدا Solida عن كل رجل وطلب القائدان ايضا اطلاق سراح الهون الذين تم أسرهم . وقد أجاب سكان

(1) Thompson, op. cit., pp. 85 - 86; Camb, Med. Hist., Vol. I, pp. 362 - 363, Jones, op. cit, p. 80.

وهى ببورى يدفع الاسير الرومانى عشرة سوليدا انظر :

Bury, op. cit, Vol. I, p. 275.

(2) Thompson, op. cit., pp. 83 - 86.

المدينة بأن كل الرومان قد عادوا الى منازلهم ولا يمكن استدعاؤهم أو جمعهم أما الأسرى الهون فقد تم قتلهم جميعا باستثناء شخصين فقط قد تم الاتفاق عليهما على أساس مبادلتهم ببعض الأطفال الذين أسرههم الهون خارج أسوار المدينة . وعندما سمع أتيل ذلك بحث عن هؤلاء الأطفال المطلوبين ولكنه لم يعثر على أحد منهم وقد وافق الرومان على تأكيدات أتيل بفقدهم ، وأعاد الرومان الأسيرين الهونين المتحفظ عليهما وهكذا تم التوقيع والتصديق علي معاهدة السلام بين الهون والرومان في خريف سنة ٤٤٢ م ، وعرفت باسم اتفاقية اناتوليوس الاولى (١) .

ولم تطمئن حكومة الامبراطورية الشرقية الي نوايا اتيل رغم توقيع اتفاقية السلام معه . وعلي الرغم من المصاعب الكبيرة التي واجهت الامبراطورية الشرقية علي جبهتي ارمينيا وفارس ، فقد بذلت الامبراطورية الشرقية ماوسعها من جهد لاصلاح وتقوية جبهة الدانوب في الشمال . وقد صدرت الاوامر الحازمة الي نوموس رئيس البلاط وهو اكثر الوزراء ثقة لدى الامبراطور ثيودوسيوس الثاني بأن يعيد بناء وتقوية الحصون التي سبق ان هاجمها الهون علي طول الدانوب سنة ٤٤١ م ، وان يحشد في تلك المنطقة كل الفرق العسكرية المتاحة وان توضع تلك الفرق في حالة الاستعداد القصوي . وقد شملت تلك الاجراءات ايضا اعادة بناء وتقوية أسوار القسطنطينية . ومما يدل على نجاح نوموس في مهمته ترقيته الي وظيفة قنصل عام ٤٤٥ م . وفي خلال تلك الفترة استقبلت القسطنطينية العديد من سفراء أتيل الذين تم أغدق الهدايا الثمينة عليهم وارسل اخري الي أتيل . وهكذا تمتعت ولايات الليريا وتراقيا بفترة راحة من الغزو الهوني لمدة ثلاث سنوات بعد

(1) Thompson, op. cit., p. 86.

توقيع اتفاقية السلام الأولى (١) .

واستغل اتيليا فترة استقرار السلام على جبهة الدانوب كى يعيد ترتيب
الاموضاع السياسية داخل مملكته لتقوية نفوذه والانفراد بالحكم . وقد تمكن
اتيليا بالفعل من قتل بليدا ، وبذلك اصبح اتيليا السيد المطاع الوحيد فى كل
بلاد الهون دون منافس حتى وفاته ، بل اصبح اتيليا بالفعل اقوى رجل في
اوربا ، واعتبر نفسه سيدا على الامبراطورية الشرقية لان امبراطورها يدفع
الجزية له . ولكى يؤكد اتيليا سيادته على كل الهون ادعى حصوله على سيف
مارس اله الحرب الذى سيمكنه من الانتصار على كل الاعداء . واصبح تحدى
اتيليا يعنى في نظر الهون تحدى القدرة المقدسة لاله الحرب (٢) .

واذا كانت اراضي الامبراطورية الشرقية قد نجت خلال السنوات من
٤٤٢م الى سنة ٤٤٦م من هجمات الهون ، فانها قد تعرضت لكوترث اخرى
طبيعية ترتب عليها وفاة الالاف من الرجال وقطعان الماشية نتيجة لنزول
صقيع شديد ، كما ان العواصف الممطرة دمرت ولاية بيثينيا وغرقت المدن
الداخلية بسبب فيضان الانهار . وفى سنة ٤٤٥م حدثت مشاغبات فى
السيرك المعروف في القسطنطينية سقط فيها عدد كبير من الضحايا . وتلى
ذلك انتشار الطاعون الذى مات بسببه عدد كبير من المواطنين ، وظلت تلك
الاموضاع السائدة حتى سنة ٤٤٦م ، وقلت الامدادات التموينية للعاصمة ، ثم
تكرر الطاعون مرة اخرى ، فاصيبت الحكومة الرومانية الشرقية باضطراب
وانزعاج شديدين وباتت عاجزة عن تصريف الامور ، وانعكس ذلك علي جبهة

(1) Thompson, op. cit., pp. 87 - 88, Bury, op. cit, Vol. I, p. 276; Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, p. 103, "Madison 1958".

(2) Bury, op. cit, Vol. I, pp. 275 - 277; Thompson, op. cit., p. 89; Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 364.

القتال الشمالية المواجهة للهون على نهر الدانوب (١) .

واستغل اتيلا من جانبه الظروف اليئة التي تمر بها الامبراطورية الرومانية الشرقية ، واخذ يكرر مطالبه السابقة ، ويمهد لعبور الدانوب في ربيع سنة ٤٤٧م . وكان هجوم الهون في هذه السنة اوسع نطاقا مما حدث سنة ٤٤١م ، واشترك فيه مع الهون كثير من الشعوب الخاضعة لهم ، فالجبيداى Gepids اشتركوا بقيادة ملكهم ارداريك Ardarc والقوط الشرقيون بقيادة فالامير Valamir واخترق هجوم الهون ولايات سكيتيا السفلي وميسيا ومناطق اخري ابعد الى الشرق فتجاوز بذلك الحصون الجديدة التي بناها نوموس ، والواقع ان هجوم سنة ٤٤٧م كان الفرصة الوحيدة التي اتيح فيها للهون مواجهة الجيش الروماني باكملة (٢) .

وعندما بدأت قوات الهون في التحرك صوب الاراضى الرومانية الشرقية وقعت كوارث ضخمة في الامبراطورية ، فقد ضربت سلسلة من الهزات الارضية المدن الرومانية خلال فترة اربعة اشهر من فبراير سنة ٤٤٧م . وكانت تلك الهزات من أسوأ ماواجه الرومان طيلة تاريخهم ، فاختلفت قرى باكملها ، وكانت الخسائر ضخمة فى البر والبحر وعانت تراقيا والهلبونت والكبكلاديس اكثر من غيرها ومما زاد الحالة سوءا هطول امطار كثيرة بعد بداية الهزة الاولى بثلاثة او اربعة ايام ، ففرقت اماكن كثيرة ، وسقطت مباني عديدة في القسطنطينية واسوار وحوائط وابراج لايقل عددها عن سبعة وخمسين ، ودفن عدد كبير من السكان تحت الانقاض وتلى ذلك انتشار الطاعون فمات به عدة الاف من السكان . وقد اوشكت القسطنطينية في تلك

(1) Thompson, op. cit., p. 90.

(2) Thompson, op. cit. pp. 90 - 91, Bury, op. cit, Vol. I, p. 275.

الظروف علي السقوط عند اول هجوم لولا قيام الوالى فلانيوس قسطنطيوس ورجال القسطنطينية بمواجهة الموقف بجدية حتى تم اعادة بناء الاسوار وزيادة سمكها وترميم الحصون المتهدمة ، كما عهد بالدفاع عن العاصمة الى القائد فلانيوس زينون (١) .

وتقدمت القوات الرومانية من مدينة مرقية او مرقيا نوبل Marciamople يقودهم القائد الجرمانى ارنجسكولوس . وعلى الرغم من الشجاعة الكبيرة التى ابداهما ذلك القائد الا انه سقط قتيلا في المعركة بعد ان كبا به جواده علي شاطئ نهر اوتوس Utus . وقد سقطت مدينة مرقية في يد العدو وظلت مهجورة قرابة مائة عام حتى جدها الامبراطور جستنيان ولم يتمكن الهون من اقتحام القسطنطينية بعد ان اعيد بناء اسوارها ، لكن الهون دمروا ولايات البلقان لاسيما الليريا وتراقيا ، ولايات داكيا ومويسيا وسكثيا ، ثم اندفع الهون جنوبا في بلاد اليونان حتى ثيرموپلاي Thermopylae . ويقال بأن مابين سبعين ومائة مدينة احتلها الهون في ذلك الهجوم ، وتم ذبح الرهبان الذين لم يتمكنوا من الفرار ، وقد تكبد الهون ايضا خائر فادحة . وقد كان ذلك الهجوم هو آخر انتصارات اتيلا علي الرومان الشرقيين (٢) . والامر الملاحظ هنا ان الغرب الاوربي لم يتحرك ولم يقدم اى مساعدة للامبراطورية الشرقية بسبب العلاقات الودية التى كانت بين اتيلا وايتيوس قائد عام قوات الامبراطورية الغربية في تلك الفترة .

لقد وصلت الامبراطورية الرومانية الشرقية عند نهاية عام ٤٧٤م الى

يراجع : (1) Thompson, op. cit., pp. 91 - 92, Bury, op. cit, Vol. I, p. 270.

(2) Thompson, op. cit., pp. 92 - 93; Bury, op. cit, Vol. I, p. 275, Camb. Hist. Vol. I, p. 363.

حالة من الضعف حتي أصبحت غير قادرة علي مواجهة العسكرية مع اتيلا ، وبالتالي كان عليها الاعتماد علي الدبلوماسية في الدرجة الاولى خلال السنوات الثلاث التالية ، أما اتيلا فلم تتغير نواياه التوسعية في اوربا الشرقية ، فأمة الهون لا يمكن ان تعيش في سلام لفترة طويلة لان ذلك ضد طبيعتهم التي جبلت علي الحرب والسلب والنهب . وفكر الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في التحالف مع بعض فصائل الهون المعرضة لحكم اتيلا مثل قبائل الاكاتزيري Acatziri التي رغم معارضتها لحكم اتيلا كانت في حالة هدوء نسبي . ومن سوء حظ الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ان فشلت سفارته لهذا الغرض بل جاءت بعكس ما كان يهدف اليه ، وطلب احد زعماء الكاتزيري تدخل اتيلا ضد باقي القبائل ، وانتهى الامر باخضاع كل الكاتزيري لسيادة اتيلا (١) .

وعادت المفاوضات من جديد بين الحكومة الرومانية الشرقية والهون عام ٤٤٨م وكان المفاوض الرئيسي في الجانب الروماني هو اناطوليوس Anatolius الذي نجح من قبل في عقد اتفاقية عام ٤٤٣م . وتشير معظم شروط الاتفاقية الجديدة الي انها كانت اكثر قسوة من تلك التي وقعت عام ٤٤٣م ، لقد اصر اتيلا علي اخلاء مساحة كبيرة من البلاد الواقعة جنوب الدانوب من سكانها الرومان . وتمتد تلك المساحة من مدينة سنجدونم Singgidunum علي حدود بانونيا الي مدينة نوفي Novae اي حوالي ثلاثمائة ميل طولاً بحرق

(١) كان الزعيم الاكاتزيري كوريداكوس *Curdachus* يري نفسه في وضع اسمي واعلي من باقي الزعماء . وأخطأ السفير الروماني وجعله في المرتبة الثانية عند تقديم هدايا ثيودوسيوس ، فغضب كوريداكوس وطلب تدخل اتيلا ضد من اغتصبوا سلطته .
انظر :

Thompson, op. cit., pp. 95 - 97.

حوالى مائة وعشرين ميل ويعبارة اخري فان كل داكيا Dacia واجزاء من ثلاثة ولايات اخري تكون خالية من السكان ووسائل الدفاع عنها ، وان يكون خط الدفاع عند مدينة نيش Naissus ، وبذلك لم يعد ساحل نهر الدانوب بكل حصونه ومدنه الكبرى التي اصبحت خرابا يمثل خط الحدود الشمالى للامبراطورية الشرقية ولايعرف عن الشروط الاخرى للمعاهدة سوى ان الجزية لايد ان تستمر . وتم عقد هذه المعاهدة عام ٤٤٨م وعرفت باسم معاهدة أناتوليوس الثانية وقد تركزت جهود الدبلوماسية الرومانية الشرقية طيلة العامين التاليين في محاولات تخفيف شروطها (١) .

واستمر اتيلا برغم عقد الاتفاقية الاخيرة في ارباك حكومة القسطنطينية بالسفارات والشكاوي والطلبات المتعددة ، من ذلك السفارة التى وصلت الى القسطنطينية في ربيع عام ٤٤٩م برئاسة ايدىكو Edeco احد نواب اتيلا وعضوية اورستيس Orestes وهو فى الاصل مواطن رومانى من باتونيا ويعمل فى خدمة الزعيم الهونى . وجاء فى الخطاب الذى يحمله ايدىكو ان الرومان الشرقيين لم ينفذوا شروط اتفاقية اناتوليوس الثانية ، وانهم فشلوا فى اخلاء المنطقة الواقعة جنوب الدانوب . وهدد اتيلا بشن الحرب من جديد . ونتيجة لتلك التهديدات وعجز الرومان الشرقيين عن مواجهة اتيلا عسكريا فقد وضع احد وزراء ثيودوسيوس الثانى الاقوياء وهو الخصى كريسافىوس Chrysaphius خطة لاغتيال اتيلا والخلص منه عن طريق رشوة نائبه ايدىكو بمبلغ خمسين الف ليبرا ذهبية وان يعود ايدىكو للعيش فى القسطنطينية فى احد القصور الفخمة التى اعجب بها مكافأة له فى حالة

(1) Thompson, op. cit. p. 98, Bury, op. cit, Vol. I, pp. 275 - 276, Camb. Med. Hist. Vol. I, P. 363.

نجاحه في تنفيذ المؤامرة (١) .

وعاد إيديكو الي سيده اتيلا ضمن سفارة رومانية علي رأسها مكسيمين Maximin ورافق السفارة المؤرخ بريسكوس Priscus ومن سوء حظ الرومان ان المؤامرة كشفها اتيلا فاستشاط غضبا وارسل خطابا الي الامبراطور ثيودوسيوس الثاني مملوءا بعبارات التهكم والتحقير ، وطلب ارسال سفارة رومانية علي مستوى عال مثل رتبة قنصل . وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية قد شهدت صراعا علي السلطة بين الخصي كريسافيوس وبين قائد الجيش القوي زينون Zeno الذي ازداد نفوذه منذ نجاحه في الدفاع عن العاصمة سنة ٤٤٧ م ، وتولي القنصلية عام ٤٤٨ م ثم اصبح قائدا عاما للجيش عام ٤٤٩ م وازدادت الهوة بين الجانبين بسبب فشل خطة زواج قسطنطيوس سكرتير اتيلا من ابنة ساتورنينوس Saturninus أحد اشرار الامبراطورية الشرقية ، فقد قام زينون باختطاف الفتاة وتزويجها لاحد اتباعه المسمى روفوس Rufus فاعتبر اتيلا ذلك عملا معاديا له ، فلما قام ثيودوسيوس بمصادرة ممتلكات روفوس اعتقد زينون ان كريسافيوس هو المحرض علي ذلك الاجراء ، هذا في الوقت الذي ازداد العداء بين الهون والامبراطورية الشرقية بسبب مؤامرة اغتيال اتيلا (٢) .

واسرعت الحكومة الرومانية الشرقية الي تحسين علاقاتها مع اتيلا ، وارسلت سفارة علي رأسها أناتوليوس وثوموس للمفاوضة واقناع اتيلا:

(١) عن تفاصيل تلك المؤامرة انظر : -

Thompson, op. cit., pp. 98 - 121; Bury, op. cit., Vol. I, pp. 276 - 279, R. S. Hoyt & S. Chodorow, Europe in the middle ages, p. 67, "Third, Jones, op. cit., p. 80, Camb. Med. Hist., Vol. I, pp. 363 - 364, 414.

(2) Thompson, op. cit., pp. 101 - 107, 121 - 122.

بضرورة الحفاظ علي معاهدة السلام . وابتحرت السفارة الرومانية في ربيع عام ٤٥٠م وعبرت الدانوب الي اراضي الهون ، فاسرع اتيلا جنوبا لمقابلاتها عند نهر دريكون Drecon وقد استطاعت السفارة ترضية اتيلا واطفاء نار غضبه بالهدايا الثمينة التي قدمت له حتى حصلت منه على وعد باحترام شروط معاهدة السلام لعام ٤٤٨م ، وألا يطالب باعادة اللاجئين الهون . وكان النجاح الكبير للسفارة في اقناع اتيلا بالانسحاب من كل الاراضى الواقعة جنوب الدانوب ، وهى الاراضى التى انسحب الرومان منها بناء علي طلب اتيلا عام ٤٤٨م . وبالإضافة الى ذلك طلب السفارة الرومانية اطلاق سراح بيجيلاس احد المتأمرين علي قتل اتيلا . وقد وعدت الحكومة الرومانية بأن سكرتير اتيلا سوف يحصل علي زوجة رومانية لاتقل نبلا وثراء عن ابنة ساتورنينوس Saturninus ولتحفيف غضب اتيلا لفتت الحكومة الرومانية نظره بأنه لم تجر العادة بين الشعب الرومانى علي اكراه فتاة للزواج غير ارادتها . وقد عبر اتيلا عن سعادته بقاء السفارة بأن اغرق اعضاها بالهدايا الثمينة من الخيول والجلود والفراء التى يحب حكام الهون ارتداها . كما تخلى اتيلا عن طلب اعدام كريسافىوس ، وقد رافق السفارة عند عودتها قسطنطينوس سكرتير اتيلا لتسلم عروسه ، وقد اختار له ثيودوسيوس ارملة ابن بلنثيا الذى سبق ان عقد مع الهون اتفاقية مارجوس سنة ٤٢٥م . وهكذا تم عقد معاهدة اناتوليوس الثالثة عام ٤٥٠م (١) .

والواقع ان تفاوض اتيلا غير العادي في مفاوضاته مع الرومان الشرقيين يمكن تفسيره في ضوء ماحدث فيما بعد من غزو غالة سنة ٤٥١م

(1) Thompson, op. cit., pp. 122 - 123.

وكان ابن بيجيلاس ضمن السفارة وقد حمل معه مبلغ ٥٠ ليبرا ذهبية فدية لابييه بناء علي طلب اتيلا

وايطاليا سنة ٤٥٢م ، فقد اراد ان يحمى مؤخرته عندما يكون مشتبكا في حرب مع الغرب الاوربي وهكذا تناقض اناتوليوس ونوموس في ظروف مناسبة تماما للرومان ، ولابد ان الحكومة الرومانية الشرقية قد ابدت سرورها عندما علمت في الشهور الاولى من سنة ٤٥٠م ان اتيلا قد قرر الهجوم علي القوط المتمركزين في تولوز ، وانه سيفعل ذلك بصفته حليفا للحكومة الرومانية الغربية وامبراطورها فالانشيلن الثالث . وقد كان عقد الاتفاقية الثالثة مع الهون يمثل نجاحا كبيرا للدبلوماسية الرومانية الشرقية ، واصبح الرومان الشرقيون مقتنعين بأن السلام علي جبهة الدانوب قد ساد وتاكّد منذ صيف ٤٥٠م . اما اتيلا فقد ظن انه قد أمن مؤخرته بعقد سلسلة المعاهدات مع الامراتورية الشرقية حتي اوائل عام ٤٥٠م . وطالما كان الامبراطور الشرقي ثيودوسيوس الثاني علي قيد الحياة فان اتيلا لم يتوقع اى تحركات عسكرية علي جبهة الدانوب ، فقد كان الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ضعيف الشخصية كما وقع تحت تأثير كريسافيوس وغيره ولم يكن له من الامر شيء ، وادي شعوره باليأس الي الانصراف الي حياة العزلة والتقوي والورع وتحصيل العلم . وقد لخص بريسكوس موقف الامبراطورية الرومانية الشرقية في نهاية عهد ثيودوسيوس الثاني بقوله ان الحكومة الرومانية الشرقية كانت تطيع كل تعليمات اتيلا وان اوامره لها كآوامر السيد (١) .

غير ان تطورات الاحداث داخل الامبراطورية الشرقية ادت الي خلق

(1) Thompson, op. cit., pp. 123 - 124, 129 - 130, 188 - 189,

د. السيد الباز العريني - مرجع سابق ص ٤٥ ، د. محمد محمد مرسى الشيخ ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية ص ٣١ "دار المعرفة الجامعية ، سنة ١٩٩٤م" . وعن غزو غالة وايطاليا انظر : د. احمد عبد الكريم ، الصراع الدولي الغرب الاوربي في منتصف القرن الخامس الميلادي مجلة المؤرخ المصرى كلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد الثاني عشر يناير ١٩٩٤م .

موقف جديد في العلاقات مع اتيلا ، فقد سقط الامبراطور ثيودوسيوس الثاني من علي جواده وهو في رحلة صيد بالقرب من نهر ليكوس Lycus يوم ٢١ يولييه سنة ٤٥٠ م ، وكانت اصابته خطيرة ، فتوفى بعد ايام قليلة من ذلك التاريخ ، ولم يترك ثيودوسيوس الثاني ابنا يخلفه في الحكم ، كما لم يعين خليفة له في منصب الامبراطور ، وقد انتخب الناطو الترييون مارقيان وكان شخصية مجهولة تولى من قبل منصب مساعد اسبار . وهكذا تولى الامبراطور مارقيان عرش الامبراطورية الشرقية في ٢٥ اغسطس واتخذ سياسة حازمة تجاه الهون ، فرفض سداد الجزية ، واعلن استعدادة للحرب وفي خلال شهور قليلة اصبح الرومان الشرقيون علي حافة الحرب مع اتيلا ، وتلاشي السلام الذي حققه ثيودوسيوس الثاني بصعوبة بالغة خلال احدي عشرة سنة (١) .

وهكذا لم تكن جبهة الدانوب عام ٤٥١ م هادئة كما كان يتمنى اتيلا عندما عقد معاهدته مع اناتوليوس ونوموس في ربيع العام السابق . وبالرغم

(1) Thompson, op. cit., pp. 134 - 135, Lot., op. cit., pp. 217 - 218, camb. Med. Hist. Vol. I. p. 364. Jones, the decline of the ancient world, pp. 87 - 88,

د. محمد محمد مرسي الشيخ ، مرجع سابق ص ٢٢ ، ربما كان تعيين مارقيان ، قد تم باشارة من ثيودوسيوس الثاني اثناء مرضه انظر :

Bury, op. cit., Vol. I, pp. 235 - 236.

وكان كل من ثيودوسيوس الثاني ومارقيان ينتميان الي طبقة اجتماعية واحدة مختلفة فثيودوسيوس الثاني ينتمي الي جماعة الخضر المؤيدين من التجار والحرفيين والصناع ورجال السفن ، وعلى ذلك فان سياسته التي خطط لها كريسافيوس وكان من الخضر ايضا تهدف الي مهادنة الهون لتثبيط اتجارة بين الجانبين مما يحقق مصالح الحرفيين . اما مارقيان فكان مؤيدا من جماعة الزرق وهم الارستقراطيون كبار الملاك ، وقد قل اهتمامه بالتجارة ، وبالتالي ساءت علاقته بالهون بعد ان قلب سياسة كريسانيوس ونوموس والمؤيدين لهما . انظر :

Thompson, op. cit., pp. 190 - 192, Jones, op. cit., p. 88.

من تهديدات اتيلا فان مارقيان اصر علي موقفه الشجاع في عدم الخضوع
ارسال الجزية الي الزعيم الهوني . وارسل مارقيان من قبله السفير
ابولونيوس Apollonius لابلاغ اتيلا بموقفه . وقد استاء اتيلا من ارسال ذلك
السفير ، ورفض منحه شرف مقابلته ، فان الهون الذين كانوا علي وشك
الهجوم علي غالة انتابهم الغضب الشديد عندما علموا ان السفير الروماني
الشرقي لم يحمل معه الجزية وانه جاء فقط للمفاوضة . فقد ارسل اتيلا
رسالة شديدة اللهجة الي السفير تدعوه الي تسليم مامعه من الهدايا التي
حملها باسم الامبراطور ، وهدده بالموت في حالة الرفض ، وذهبت تلك
التهديدات كلها ادراج الرياح ، ولم تؤثر في صلابة موقف ابولونيوس ،
فاعلن انه سيسلم مامعه من هدايا فقط في حالة استقباله استقبالا لانقا
يتناسب مع مركزه كسفير للامبراطورية الرومانية الشرقية . اما اذا قتل فان
الهون سيحصلون علي مامعه من هدايا ، ولكنهم لن يحصلوا علي مثلها في
المستقبل . واخيرا سمح اتيلا للسفير بالرحيل دون ان يراه ، وتدهور بذلك
الموقف بين الهون والرومان الشرقيون تدهورا خطيرا (١) .

ونحن ندرك الصعوبة الكبيرة التي واجهت اتيلا في تقريره أي الجبهتين
يبدأ بالهجوم عليها ، واخيرا قرر اتيرا السير في مشروعه الاصلي بالهجوم
علي الغرب ، لقد سبر اتيلا من قبل غور الامبراطورية الشرقية وعرف في
مواقف كثيرة كيف يمتص تهديداتها ، وسلسلة مفاوضاته الطويلة معها
اكسبته خبرة في تطبيع وتطويع العلاقات معها الي مصلحته ، اما في الغرب
فهناك اكثر من عدو يجب مواجهته كما ينبغي تقوية نفوذ الهون في غرب
اوروبا . ومهما كان الامر فقد قاد اتيلا في يواكير عام ٤٥١م جيشا كبيرا

(1) Thompson, op. cit., p. 143.

في اتجاه غالة مكونا من الهون والعناصر الجرمانية الخاضعة لهم . وقد لقي الجيش الهزيمة على يد الحلفاء الاوربيين في معركة مورياك Mauriac او سهول قطالونيا في ٢٠ يونيو من نفس العام . واضطر الي الانسحاب وقد كشفت تلك المعركة عن براعة آيتيوس Aetius قائد عام قوات الامبراطورية الغربية السياسية والعسكرية ، ومن ناحية اخرى فقد ادت هزيمة اتيلا الي تلاشى اسطوره كغازي لايقهر ، كما حرمته من نفوذه الى غرب اوربا ، وفي نفس الوقت كان آخر انتصار يحزره جيش يحمل شارة الامبراطورية في اوربا الغربية (١) .

وبالرغم من هزيمة الهون في غالة والخسائر الكبيرة التي تكبدها الا ان اتيلا لم ينس تحدي الامبراطور الشرقي مارقيان له ، فكبرياء اتيلا منعه من تقدير موقفه العسكري تقديرا صحيحا . وفي سبتمبر سنة ٤٥١م اعطي اتيلا اشارة لما سيفعله في المستقبل ، فانقضت مجموعة من الهون علي الليريا الشرقية ونهبتها . وقد منع قلق الامبراطور مارقيان علي جبهته الشمالية من عقد المجمع الديني الكبير في نيقية Nicaea كما خطط من قبل ، فعقد الاساقفة اجتماعهم في خلقيدونيا بدلا منها . وعندئذ لم يسطع مارقيان ان يعطي اهتمامه الكامل لان هجوم الهون عبر الدانوب جعل مارقيان يقرر النزول الي ميدان القتال بنفسه . ويبدو ان خطوات مارقيان العسكرية كان

(1) Thompson, op. cit., pp. 140 - 143, Bury, op. cit., Vol. I, pp. 293 - 294, Jones, op. cit., p. 80, Camb. Med. Hist., Vol. I, p. 364,

تورمان فغ كانتور ، التاريخ الوسيط ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، ص ١٦١ .
وعن معركة سهول قطالونيا بالتفصيل انظر :

د. احمد عبد الكريم سليمان : الصراع النولي في الغرب الاوربي في منتصف القرن الخامس الميلادي - مجلة المؤرخ المصري يناير ١٩٩٤م ، ص ٢٢٨ - ٢٤٢ .

لها نتائجها الايجابية ، فاجبرت اتيلا علي تغيير وجهته والاتجاه مرة اخرى الى الغرب الاوربي . وقد قرر اتيلا غزو شمال ايطاليا ، فقد اعتقد ان الامبراطورية الغربية كانت السبب في الكارثة التي حلت به في غالة . كما لم يتذكر الجميل الذي اسداه له ايتيوس بتمكينه من الانسحاب من غالة في سهولة ويسر ، بل اعتبر انفصال الجيش القوطي عن الرومانى الغربى ميزة عسكرية تمكنه من هزيمة كل جيش علي حدة (١) .

وحشد اتيلا عام ٤٥٢م جيشا مثل الذى قاده عام ٤٥١م ، واخترق به ولايات بانونيا ، وعبر جبال الالب الي ايطاليا في بداية حملته ، ولم يكن مصير تلك الحملة الجديدة احسن حالا من الحملة السابقة علي غالة ، فانتهى مصيرها هي الاخرى الي الفشل الذريع ، ولم يحقق اتيلا اهدافه في اخضاع ايطاليا لسلطانه وكانت هناك عوامل عديدة وراء فشل تلك الحملة ، منها انتشار الطاعون والمجاعة في ايطاليا ، كما ان الامبراطور الشرقي مارقيان اراد الانتقام لاهانة سفيره من اتيلا في العام السابق فعبرت القوات الرومانية الشرقية الدانوب والحقت الهزيمة بؤخرة الهون ، ووجد اتيلا نفسه امام ضغوط عسكرية وكوارث طبيعية فانسحب من ايطاليا (٢) .

ولم ينس اتيلا موقف مارقيان المعادي له منذ اعتلائه العرش ، فاعلن اتيلا بعد انسحابه من ايطاليا ان الوقت قد حان لتأديب خصمه ، ولاشك ان فشل اتيلا في غالة وايطاليا قد دفعه للانتقام من الامبراطورية الشرقية كي يحقق نصرا يزهبه ويزيل عار الهزيمتين . وجاءت خطوة اتيلا الاولى ضد

(1) Thompson, op. cit., pp. 143 - 144.

(2) Thompson, op. cit., pp. 147 - 148, Bury, op. cit, Vol. I., pp. 294 - 296, Camb. Med. Hist., Vol. I, pp. 364 - 365.

مارقيان بأن زحف الي هنفاريا . ومن موقعه الجديد ارسل رسالة الى الامبراطور الشرقي يقول فيها بأنه مالم يسدد الجزية المتفق عليها مع ثيودوسيوس الثاني فانه اى اتيلا سيعلم الحرب ضد الامبراطورية الشرقية ويوقع كل سكانها في العبودية ، غير ان القدر لم يمهل اتيلا لتحقيق انذاره ، فقبل الهجوم الكبير قرر اتيلا ان يضيف زوجة جديدة له . وبعد افراطه في السكر وجده رجاله صباح اليوم التالى لزاوجه ميتا دون ان يكون مصابا بجروح . وبذلك انقذت الامبراطورية الشرقية من خطر اتيلا ، وتلى ذلك ثورة الشعوب الخاضعة للهون واوقعت الهزيمة بأبناء اتيلا وفشلت محاولة للمفاوضة بين الهون والرومان الشرقيين سنة ٤٦٨م - ٤٦٩م في القسطنطينية ، كما الحقت القوات الرومانية الشرقية الهزيمة بالهون ، وسرعان ماتفككت امبراطورية اتيلا ، ولم يعد الهون يمثلون خطرا علي الشرق او الغرب (١) .

(1) Thompson, *op. cit.*, pp. 149 - 157, Bury, *op. cit.*, Vol. I., pp. 296, Ostrogorsky, *History, of the Byzantine state, Reprinted 1986*, p. 17; Jones, *op. cit.*, p. 80.

أولا : المراجع الاجنبية :

- 1- Bury, J. B.,
History of the later Roman Empire from the death of Theodosius I to death of Justinian, New York 1958 2 vols.
- 2- Cambridge Medieval History vol. I.
- 3- R. S. Hoyt and S. Chodorow,
Europe in the middle ages, Third edition 1976, New York.
- 4- A. H. M., Jones,
The decline of the ancient world, London 1978.
- 5- F. lot.,
The end of the ancient world and the beginnings of the middle ages, London 1968.
- 6- Norman F. Cantor,
The Medieval world 300 - 1300 second edition, 1968.
- 7- G. Ostrogorsky,
History of the Byzantine State, Translated from German by J. Hussey, Great Britain, 1986.
- 8- E. A. Thompson,
A History of Attila and the Huns, Oxford 1943, Reprinted 1975, Green wood press.
- 9- A. A. Vasiliev,
History of the Byzantine Empire, Vol. I, Madison 1958.

ثانيا : المراجع العربية والمترجمة :

١ - احمد عبد الكريم سليمان :

معركة ادرنة بين القوط والرومان في ضوء وثائق المؤرخ العسكري
اميانوس مارسلينوس - دار النهضة العربية ١٩٩٠ م .

٢ - الصراع الدولي في الغرب الاوربي في منتصف القرن الخامس الميلادي
- مجلة المؤرخ المصري عدد يناير ١٩٩٤م - كلية الآداب -
جامعة القاهرة .

٣ - د. اسحاق عبيد :

الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، الطبعة الاولى
١٩٧٢م ، دار المعارف بمصر .

٤ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور :

اوربا العصور الوسطى الجزء الاول ، الطبعة التاسعة ١٩٨٣م .

٥ - د. السيد الباز العرينى :

الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية ، ١٩٨٢ .

٦ - كانتور نورمان :

التاريخ الوسيط قصة حضارة : البداية والنهاية ، ترجمة وتعليق
د. قاسم عبده قاسم - الطبعة الثانية - دار المعارف .

٧ - د. محمد محمد مرسى الشيخ :

تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية - ١٩٩٤م .

٨ - م . هس :

العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق د. رأفت عبد الحميد ، دار
المعارف الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

- * Hotelling, H. "The Economics of Exhaustible Resources" *Journal of Political Economy*, 1990.
- * Broadway, R. & Bruce, N "Welfare Economics" Black well, Oxford, 1984.
- * Brookshire, D., Eubanks, L & Randall, A. "Estimating Option Prices and Existence Values for Wildlife Resources", *Land Economics*, February, 1991.
- * Smith, K., V. " Environmental policy" University of Carolina press, Chapel Hill, 1989.
- * Smith, K., V. & Krutilla (eds), "Explorations in Natural Resources Economics", John Hopkins University Press, Baltimore, 1982.

References.

- * Blaug's M. "Economic Theory in Retrospect Cambridge University Press, Cambridge, 1978.
- * Hamrin, R. D. "Managing Growth in 1980s : Toward a New Economics", Praeger, New York, 1980.
- * Turner, K. R. (ed) "Sustainable Environmental Management : Principles and practice "Belharen press, London, 1988.
- * Common, M. (ed). "Poverty and Progress Nerisited", Macmillan London 1980.
- * Norgoard, R. "Coevolutionary Development Potential, "Land Economics, 60 (2), 1984.
- * Pigon, A "The Economics of welfare", Macmillan London, 1991.
- * Dorfman, N. "Economics of Environment", 2nd edn, W. W. Norton New York, 1977.
- * Repetto's R. "World Enough And Time : Successful Strategies for Resources Management "Yale University press, New Haren 1986.
- * Turner, K. R. "Oppurtunity Cost Approach", London, 1983.
- * Cornad, J & Clark, C " Natural Resources & Economic : Notes & problems, Cambridge University Press Cambridge, 1987.
- * Das Gupta, P & Heals, G. "Economic Theory and Exhaustible Resources", Cambridge University Press, Cambridge, 1979.

* This temptation should be avoided because over - exploitation of exhaustible resources means they will run out more quickly and over - exploitation of renewable resources reduces their capacity to regenerate.

* Damage to resource had real economic costs.

* Managing resources to prevent damage to them is essential.

Recommended strategies include : -

@ Improving the prices of agricultural goods.

@ Not over - valuing exchange rates.

@ Improving securities of tenure for small tenants farmers.

These measures are intended for improving the means/as an incentive to improve resource management.

* We need to assess Total Economic value in order to compare the losses resulting of pollution with the benefits derived from the polluting activity, and therefore determine the optimal level of pollution which we should aim at.

In many developing countries government policies lead to over-valued exchange rates. This means that when producers sell their products abroad and convert the foreign money they receive into domestic money, they lose money. Over valued exchange rates reduce producers profits. Producers have less money to invest, and increase efficiency. If exchange rates were not over - valued producers would get more profit and would be able to make this invest saving natural resources. However, there is still no guarantee that these profits will be spent on resources conservation (Kerry, V, Kritilla, J. eds, 1982).

Alot of the agricultural land in developing countries is owned by large landlords who rent out smaller plots to farmers, consequently the farmer have little incentives to improve the land because it does not belong to them, and they may be moved off it. Government policies should take the land away from the large landlords and distribute it to the individual farmers. In the same way land which is owned by no - one in particular is not treated with care. Selling it to a user makes an individual responsible for it. So the resources will be more carefully looked after.

10) Conclusion.

- * Pressure on resources is greater in developing countries because they are more scarce.
- * This increases the temptation to over - exploit these resources.

them that careful management of the environments will make the country more efficient, changes may be made. But how can we give incentives for producers to look after their natural resources? Prices of agricultural goods in developing countries are often less than those quoted on the world market. If governments allowed prices to rise close to world price levels producers would receive more money. They could be given incentives (e. g. government / UN aid) to invest in resource saving technology. This would make producers more efficient and may increase the amounts produced. However there is no guarantee that raising prices to give producers more money will help conserve natural resources. Producers may choose to keep the profits instead of re-invest them. They may choose to invest profit in more production leading to even more use of natural resources. (Hotelling, H., 1990).

In developing countries there is normally a small number of men who are extremely wealthy and looking for place to invest their money. A lot of developing countries have currency restriction laws which make the investment of large amounts of money abroad illegal. Those with wealth do not have many options for investments. The options that do exist receive a lot of money and expand rapidly, and example is livestock ownership. Such expansion may cause natural resources to be used up more quickly. In the case of livestock, more trees are cut down for grazing land. Improving the stock exchange in the country will provide many more options for those with wealth to invest thus reducing pressure on natural resources.

their consumer surplus in our calculation so that

Gross Willingness To Pay = Market Price (Indicates Basic Willingness to pay) + Consumer surplus.

If we use gross willingness to pay in our evaluation of environment benefits we have a more accurate indicator of the value society places on them. (Pearce, D Turner, K., 1990). The market price can be identified by the supply and demand forces, because it is not possible to change a separate price to each and every individual buying the good, see fig. (1).

If the market price of a good fall clearly the consumer enjoys an increase in consumer surplus an increase in benefits we could therefore ask the consumer how much he would be willing to pay to gain that benefits.

There is another way of looking at this. We could equally ask the consumer how much he would be willing to accept to forget this increase in benefit. This would mean the consumer agreeing to compensation for less of benefit.

9) Managing Resources.

If we are to persuade government that managing natural resources is important we must show the economic arguments. The most important department in any government is the treasury and if we can show

The willingness to pay value which used to assess the value of environmental benefits is an aggregate figure. Some members of society would be willing to pay more than that amount to secure particular environmental benefits. They value these environmental benefits more than the market price. We have assigned to them through the aggregate willingness to pay figure. These people receive more benefit than the market price indicates - they enjoy a "Consumer Surplus".

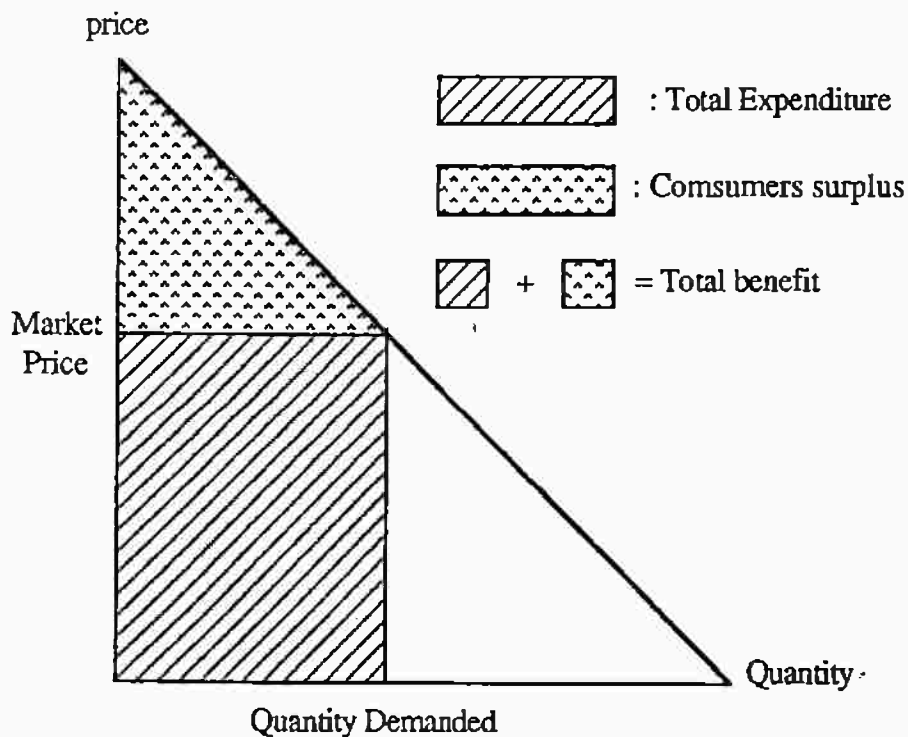


Fig. 1 a demand curve for environmental goods.

In order to take account of people who are willing to pay more than market price for environmental benefits, we must include

resources was 30 times the cost of water pollution to freshwater fishing resources. It is also possible to see that in 1985, pollution damage was costing an amount equal to 6% of FDR's Gross national Product - a significant sum. Money value may also be given to estimates of environmental damage avoided by sound policies. For example, the USA's environment policies reduced environmental damage equivalent to 1.25% of GNP in 1978 (Smith, K. ed., 1989).

Cost, Benefits, Willingness to Pay & Willingness to Accept.

Giving a money value to environmental damage gives us an indication as to whether or not environmental protection is worth investing in. Expenditure on environmental important is worthwhile so long as the extra benefits of the improvement units outweigh the extra costs. In fact expenditure will take place until; all the possibilities of gain are exhausted; until extra costs equal extra benefits. (Marginal cost = Marginal benefit).

The aim of assigning money value to environmental benefits is to allow us to take action on people's preferences, and ensure that the environmental features at the top of their preference list are given top priority. We take individuals willingness to pay as an indication of their preferences. The more they are willing to pay, the higher in the list of their priorities that factor should be. Not everyone has the same preferences. Economists and environmentalist are concerned about doing the best thing for society.

cereal. So we can use money to indicate how much we would be willing to pay for the environment - a measure of its value, which reflects as preferences. Clearly this is an imperfect way of showing how much people care for the environment, but it appears to be the best way economists have found.

The Uses of Economic Value.

We already mentioned that one use of economic value is to enable us to compare it with benefit to the producer and thus to calculate the optimal level of pollution. Economic value measurements may also be used to show the importance of environmental policy. The gains from environmental policy are not just immediate monetary benefits, they are gains in quality of life which may not be measured in money terms.

Traditionally, gains which are measured in money terms are those which benefit private individuals or distinct group^s of people. Those gains which benefit areas not under private or public ownership - the air, water, landscapes - are not measured by money. This is because no money transfers between pollutes and polluted take place. Just because they are not measured in money, they should not be seen as less important. Attempting to give money value to these gains or losses would however make it easier to access them. For example, by applying money value to environment damages in Germany (1983 - 5) it is possible to see that the lost of the water pollution to the ground water

pollution to an acceptable level for the health of the population. Taxes and permits would probably be effective.

If attempts toward reaching an economically optimal level of pollutions calculations are required.

The economically optimal level of pollution occurs when the external loss of producing one more unit of pollution (The Marginal External Cost) is equal to the benefits of producing one unit of pollution. (The marginal net private benefit). Therefore to calculate the optimal level of pollution involves calculating the money lost to the producers for producing some more unit of pollution, and the money benefits which the produces gets from producing one more unit of pollution. The produces will already know how much money he receives from producing one more unit of pollution. This will be the amount of profit he receives from making however many goods involve the creation of one unit of pollution. Putting money value involve the creation of one unit of pollution. Putting money value on the damage caused by this pollution causes is more difficult. (Brookshire, D, Eubark's, L. & Randall, A., 1991).

Some may regard putting a money value on environmental damage as immoral, but we are using value only to indicate the loss of welfare the damage has caused. In the same way that the price of a box of corn flakes is an indication of how much we are 'willing to pay' for the

economically valuable. Time spent traveling in search of fuel wood could have been more usefully spent making goods or providing services. If laborers have to work further to collect fuel wood, they will be tired during their work and will work less well. If fuel wood is scarce people will use animal dung and crop waste as fuel, instead of using it as fertilizer on the land. Crop production may fall and farmers income will fall. (Broadway, R & Bruce, N., 1984).

If trees are chopped down the soil is not protected from rainfall. Tree roots do not hold the soil together. A lot of soil is washed into rivers. The rivers carry this soil down to the dams. This can cause damage to the dams which is expensive to repair, and less electricity will be produced until the repairs are completed.

8) Measuring Environmental damages and the Total Economic Value.

It is very unlikely that markets will correct for pollution on their own. Some form of regulation will be required. Regulation may be used to try to achieve a calculated "optimal" level of pollution, or merely to try to reduce pollution levels without aiming towards any "optimal" level.

If one affects toward determining an "optimal" level of pollution, are to be made no calculations of the economic losses of the pollution will be necessary. In this case it would probably be best to try to reduce the

important if they are to be conserved for use in the future.

D) Links Between Resources ;

Land resources (trees, pasture etc.) are closely linked to water resources. In developing countries the links are even closer than in developed countries.

An example : Chopping trees reduces availability of firewood. But this is not the only effect. Tree leaves protect the soil from the impact of heavy rainfall. Treeroots hold the soil together. Without trees the fertile topsoil is washed away. Soil is exposed to the sun and is baked hard. Rain is no longer able to soak into the soil. Rain runs off the surface of the soil, sometimes causing flooding. The rain water cannot soak down to the springs. Some of the springs will run dry. The rain water cannot soak through to rivers. Some river will run dry (bohi, D & toman, M., 1983). By damaging a land resource (trees), a water resource has been affected.

7) the Economic cost of damaging Resources.

The loss of resources has obvious environmental cost, but it also involves economic cost.

Fuel wood may be used as an example. If forests are cut down, fuel wood becomes scarce. Those who want fuel wood will have to forward further to get it. This will take more time and time is

so many developing countries depend on wood and crop waste for a large amount of fuel. Therefore if pollution or over-use damages these resources the countries will be heavily effected. The poorer the countries the less money they have to import replacement fuels (e. g. oil) and the more affected they will be. Statistics show that if poorer countries continue to use their fuel in the same way, their resources will very quickly run out. The United Nations estimated that Haiti lost 59% of its forest between 1956 & 1977. 70% of Haiti's fuel comes from wood, so the country will suffer badly when it is used up. Measures are being taken to conserve the forest. (Dorfman, N & R, 1977).

B) water :

Water is vital. Humans and animals need it to drink, Mining & manufacturing industries need it in production. But 70% of the world's water is used for irrigation. Developing countries are highly dependent on water for irrigation because they tend to be located in hotter areas. Egypt uses 91% of its water for irrigation, the most of any developing countries. It is therefore very important not to waste water. (Dasgupta P. & Heals G., 1979).

C) Other Resources :

Trees are important for animal fodder. Crops depend on animal manure and crop waste. Many medicines are discovered in plants. Forest provide building materials. Managing natural resources is

The prescription for change in the international economy is usually to encourage more North-south investment and better protection of economic interests in developing countries. The unequal exchange of investment and resources is not merely between North & South, however. Within the Third World, 70% of investment is confined to 15 countries with over 20% in Brazil & Mexico alone. (Pigon, A., 1991).

The scarcity of natural resources is not as important a factor as the immobility of resources. Their immobility results in the penetration of transnational companies into the Third world (in the form of assembly shops and chemicals plants for example). Energy and raw materials are diverted towards satisfying the demand for hi-tech goods in rich countries while labour is used to maintain existing inequality (Repetto's R., 1986).

6) Dependence on natural Resources.

A) Fuel :

wood is an important source of fuel in developing countries. Wasted parts of crop (such as stems, roots) are also used. Of all developing countries, nepal is the most dependent on these "Traditional fuels. 93% of nepal's fuels comes from wood or crop waste. The countries which are most dependent on "traditional : fuels are usually the poorest countries. Therefore looking at statistics on sources of fuel can tell us how poor a country is. (Cornard, J & Clork C., 1987).

Structural processes and the environment are linked in that both population pressure and land distribution are involved in the way the poor have recourse to their environment. Serious rural poverty often occurs in resource poor environments like the high Andes and the Sahel. It is difficult to attribute poverty to the environment alone, however. There is poverty in fertile areas of Bangladesh & India in the Andes and the Sahel poverty can be seen as partly a result of marginalisation of poor from the land. Thus the relative position of the poor in an international context must be considered in the question of poverty and the environment.

5) Global Resources and the International Economy :

North-South economic relations contribute to environmental problems in a number of ways :

- i) Individual in developed countries use more resources than individuals in developing countries.
- ii) Economic demands of developed countries must be met by the resources base of the south.
- iii) Industrial countries rarely recycle their waste. For example, in 1977 the US generated 13001 billion square of municipal solid waste per capita. In less developed countries, however, rubbish tips often provide a resource base in themselves.

describing the process of underdevelopment and its connection with poverty (Hamrin, R. D., 1980). The rural sector in Third World countries is more vulnerable to market forces because of the low level of development in the production process of peasant agriculture. In order to produce more commodities for the market in the developed countries, peasant farmers may start to develop more & more marginal, regions and thus increase the chances of soil erosion and desertification. Although the results of market surplus (as opposed to subsistence) production vary from region to region, the costs of externalities will largely be borne by the developing countries, rural poor. (Turner, R. K., 1988).

The other perspective focuses upon the effects of poverty, believing that development does not necessarily lead to poverty in rural areas. Many international bodies and aid agencies take this view (e. g. the ILO, International Labour Office) since they are more concerned with effective policy decisions than with determining the theoretical background of under development. The problem of poverty is essentially seen as an employment problem with the majority of people in the Third World unable to find remunerative uses for their labor. The poor in these countries are unable to control the redistribution of income without which development is impossible.

Both approaches to the question of poverty are structural in that they focus on the way the market allocates goods and income.

often worse. (Marc Blang's 1990).

In these areas, development problems are environment problems; food supply is often insecure and population growth increasing, Housing, food and other development needs must come first, taking priority over pollution controls.

Following development environmental action increases but in most developed countries this action follows class lines. Hence the affluent are concerned with atmospheric pollution, noise, traffic congestion etc., while for the less well off sectors of society other, more immediate environmental issues take priority (water pollution, housing, disease etc.) since the problems may be life threatening.

4) Structural Linkages between Poverty and Environment :

Rural poverty can be seen either as structural (socio-economically derived) or as a result of resource depletion. Both explanations have some truth in them but reality is more complex. An integration of the factors involved in both these explanations is more complex. An integration of the factors involved in both these explanations can lead to a better understanding of the active process of under development. The different approaches to the problem of rural poverty arise from two perspectives. One focuses upon underlying dependent causes and the other is more concerned with the effects of poverty. Authors such as De Janvery and Bernstein provide examples of the former approach,

Our example demonstrates that damaging one resource also effects other resources. In our case, damaging the trees also damaged fertile land. This makes it even more important not to damage a resource which affect another resources.

Renewable resources are called "renewable" because once used they can grow again. However there is a natural rate of growth. If the rate at which the resource is used is greater than the natural rate of growth, the amount of the resource will shrink. Fish supply is a good example. Fish breed naturally at a certain rate. If the adult fish are removed by fishermen at a faster rate than they can reproduce themselves, permanent damage will be inflicted on fish supply. Over use of resources damages their ability to renew their ability to renew themselves.

3) The Environment In Developing Countries :

Environment issues in the Third World are not viewed in the same way as they are in the industrial countries. Very little importance is attached to the concept of 'countryside' as a rural idyl, the term is more likely to be associated with poverty and repression. For example, agribusiness in the developed world is often opposed by leisure consumers of the countryside. In the South, 'quality' of the countryside is not regarded as reason for opposing agribusiness although environmental effects (erosion, siltation, ecosystem destruction etc.) are

2) The Nature of the Problem :

In all countries nature relies on man to preserve it, and man relies on nature for his resources. In developing countries this relationship is especially strong. For example : the trees in a forest protect the soil from being washed away, and their leaves fall & decomposes making the soil fertile. As trees are chopped down to make way for big agriculture projects, timber manufacturing or fire wood, the quality of the soil suffers. The soil is exposed to the sun which bakes it hard and the wind below away the fertile top layer. The soil no longer absorbs water. It becomes useless for agriculture, and the risk of flooding is increased. Man damaged the land by removing trees and because the land is damaged he can no longer benefit from it.

Our example involves trees. Which are a "renewable resource", they can be replanted and replaced. But if they are over used, it too many are chopped down, the damage could become irreversible. If renewable resources are not treated with care, they will eventually disappear for ever.

Developing countries have fewer resources than developed countries. They have less money to import resources if they need a lot. Developing countries may be tempted to over use their resources. This means the non-renewable resources will not last as long, and that irreversible damage may be done to the renewable resources.

Nobody knows if the earth will be able to cope with the pollution naturally so that humans will not be affected, or whether the Earth will no longer be suitable for human life.

Humans want higher standards of living. This means consuming more goods and services. It also means that more goods will have to be produced. Therefore more valuable resources will be used up. Most of these resources cannot be replaced, oil is one such example. Therefore people cannot expect to have higher standards of living for ever. If we continue to produce goods in the same way. There may be ways to produce goods using fewer resources. This would allow us to continue for longer, but more research is needed.

The area of Economics which deals concerned with the environment is a very new subject. The effects which pollution will have on our planet are unknown. Nobody, has created a set of standards which can be used to evaluate our action, and indicate, for example that "Option A is bad. Option B is good, Option C is best for the environment". Most economists still use "Neoclassical Values", which they regard as the best and most profitable options. They do consider the effects these may have on the environment. Economists should recognize that there are other approaches which can be taken towards solving any problem. Furthermore, economists who are concerned about the environment must also realize that experts in Biology, Chemistry, Physics and Geography will have valuable things to say about the problems.

1) Introduction :

People are now very concerned about the environment, there is evidence that the world is beginning to wear out as exemplified by hole in the ozone layer which protects us from the damage by the sun , for example.

The environment is not just a problem for the west . Ex-Soviet countries are in trouble too. Poland suffers from very polluted rivers, in its industrial areas. Cities in the Czech Republic have very polluted air .

Pollution may destroy areas which are very important environmentally. An example is Lake Baikal in the Former Soviet Union which used to be home for many rare plants, birds and animal.

Cities in developing countries are also suffering especially from air pollution. Examples include Mexico City in Mexico and Sao Paulo in Brazil. The poorest countries in the world do not have enough money for proper drainage, sewage and rubbish disposal and this causes more pollution. These countries are also very short of resources like coal, minerals or fertile land. The scarcity of resources and high demand have often led to over-exploitation. Lack of adequate fertile land, for example, has led to over-cultivation and the available land is not allowed time to recover after each harvest. The soil "wears out" and becomes useless. Sometimes more overcrowded and polluted.

Even now nobody knows exactly how harmful pollution can be.



*Developing Countries
and Environmental Geographical Issues*

Dr. Abdullah R. A. Al - Kandari
Vice Dean
College of Graduate studies
Kuwait University

